



انبياء الله

الطبعة الخامسة عشرة
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

يطلب من

دار الشروق - دار البيان للتراث

القاهرة : ١٧٧ شارع الهرم - ت : ٥٢٦٥٩٩
مصر الجديدة : ٢٢ شارع الاندلس - خلف المريكت - ت : ٢٥٨٢٠٦٤
الإسكندرية : سيدى بشر - طريق الكورنيش - برج رمدا - الدور الأول

أحمد بيجته



أنبياء الله

دار الأمان للتراث

دار الشروق

القاهرة

مَقْدَمَةُ الطَّبَعَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ

هناك كتب يحس الكاتب أنه كتبها بقلمه ..
وهناك كتب يحس أنها أمليت عليه من أنفى عمق في قلبه .. وليس له من فضل فيها سوى فضل الأداة ..
وليس له من حمد لأن الله هو الذي طهر القلب ابتداء وهو الذي شاء له أن يكون أداة في النهاية ..

وأحسب أن كتاب أنبياء الله من النوع الأخير ..
كنت أكتب كأن إنساناً داخل على علي السطور ، ومارست خلال كتابتي إحساساً يشبه إحساسي بالسجود أثناء صلاة القيام في العشر الأواخر من شهر رمضان في بيت الله الحرام في مكة ..
اتصل بي إبراهيم المعلم ليقول لي : نحن نطبع الطبعة الثانية عشرة .. ونريد مقدمة لها ..
قلت في قلبي : الحمد لله .. وأحمدته حمداً ينبغي للجلال وجهه ويليق بعظم سلطانه ..
عدد خلقه ووزنه عرشه ومداد كلماته ورضا نفسه ..
وبنا لا نحصى ثناء عليك ..
أنت سبحانك كما أثبتت على نفسك ..

.....
ثم أشعر داخل بالزهو ..
على العكس .. أحسست بالإشفاق والخوف ، وخشيت أن يكون يحتاج الكتاب في الدنيا نوبة كاملة لأجري عنه في الدنيا والآخرة ..
ثم ردتني إلى التوازن أن أشارك الكتاب وذيعه وتعليقه مائة وعشرين ألف نسخة في التوزيع بعدد أولاً وأخيراً إلى كرامة الموضوع ذاته .. أي كرامة الأنبياء على الله تعالى ..
لا علاقة لي إذن بالموضوع .. يستوي في ذلك أن ينتشر الكتاب أو لا ينتشر ..
أسأل الله تعالى أن يحفظ عن قارئه وناشره وكتابه ..

مَقْدَمَةُ الطَّبَعَةِ الْعَاشِرَةِ

تمنح الأقدار إذناً للإنسان أن يبذل الجهد ، والله تعالى هو الذي يعطي الثمرة ، وهذا هي الطبعة العاشرة من كتاب أنبياء الله .

فالحمد لله حمداً ينبغي لجلال وجهه ويليق بعظيم سلطانه . وأشكر للقراء إقبالهم على الكتاب واحترامهم به ، وأخص بالشكر الذين تفضلوا بإرسال آرائهم إلي ، وأعخص بالشكر صاحب الخطاب الطويل الذي لم يذكر اسمه وإن قال إنه أعني في الإسلام .
ثم شرع يسرد علي في خطاب من خمس صفحات ٣٦ خطأ تقع بين الأخطاء المطبعية أو اللغوية أو الفكرية .. وقد صححت كل ما أشار إليه باستثناء شيء واحد رأيت فيه ما يجيز اختلاص الآراء دون ضرر ..

وإني لأسأل لهذا القارئ الكريم عفو الله ورحمته وأسأل كل من يقرأ الكتاب أن يدعو لنا بالعفو والرحمة ..

يناير ١٩٨٢

مَقْدَمَةُ الطَّبَعَةِ الثَّالِثَةِ

أحياناً أحس بحاج ما أكتبه بإحساسي بحاج أبنائي ، لا أوجه خطوطهم في الدنيا ، ولا أراقبهم ، ولا أراهم كثيراً ، وإنما أدعو لهم عارفاً أن الله تعالى هو البارئ وهو الحافظ ..

لا أنكر أنني أحس بالفرح العميق حين أسمع نبأ طيباً من أحدهم ..

اتصلت بي دار الشروق تقول : نفذت الطبعة الثانية .. ونحن نطبع الثالثة ..

تحرك قلبي بحمد الله حمداً ينبغي لجلال وجهه ويليق بعظيم سلطانه ..

لم أضف جديداً لهذه الطبعة .

أسأل الله أن يتقبل من قارئه وناشره وكاتبه ..

القاهرة ١٩٧٥/٣/١٦

مقدّمة الطّبعة الثّانية

حين نشر كتاب «أنبياء الله» في طبعته الأولى في أبريل سنة ١٩٧٣ ، كنا نقدر له عاماً لينفذ من السوق ، باعتباره مرجعاً ليس زهيد الثمن ، وفقد الكتاب في الأيام الأولى من صدوره ، وكتب عنه أعلام كثيرة لها احترامها وأنت عليه ، وحمل هذا التقدير لكاتبه احساساً بالغاً بالمسؤولية ، فراجعته ونقحه وزاد فيه واختصر منه ، واستعان في هذا كله بآراء العلماء الناقدة وملاحظات القراء الذكية .

أحمد مجدي

أغسطس ١٩٧٣

إهداء

لو انه تكرم وسمح ، بأن أضع قلدي على التراب وأبكي
حتى يبتث العشب من دموعي .. فسوف أهدي الكتاب إليه ..

إلى الروح الأمين جبريل عليه السلام

إيماناً بالغيب .. وعشوقاً للجلال .. واعترافاً بفضلته على
البشر ، بوصفه رسول رب العالمين إلى الأنبياء .

مع اعتذار عميق وخوف متفق .. لجرأة الطين الخاطئة على
مجرد التوجه إليه بالحديث فضلاً عن الإهداء .

المصباح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كن .. فيكون ..

حين انصرفت مشيئة الله تبارك وتعالى الى خلق الكون .
حين اراد ان يخلق المجرات والنجوم والشموس والكواكب والاراضي
وما نعرف وما لا نعرف ، امر هذا كله .. وقال له : كن .. فكان .
حدثنا الله تعالى انه عندما يريد شيئا فانه يأمره ان يوجد ..
قال تعالى : « **انما أمره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون** » (١) .
وهذا هو امر التكوين ..
وامر الله تعالى نوعان : امر تكوين ، وامر تشريع .
اما امر التكوين فيعني كل القوانين الملزمة المقعدة بالحكمة التي يوضع
لها الكون في وجوده وتطوره . واما امر التشريع فهو ما يوجهه الله تعالى
لائبياته كي يهتفوا للناس ليأخذوا به وينعموه .
وامر التكوين يسبق امر التشريع بالنسبة اليها .. وامر التكوين
لا حرية فيه . بمعنى ان السماء ليست مختارة في ان تكون او لا تكون ،
وكذلك الارض بقوانينها الحكيمة ..
اما امر التشريع ففيه مجال واسع لحرية الارادة .. وفيه مجال
للمسئولية .. وفيه اختبار يترتب عليه امكان المساطلة .
الم تر ان الله تعالى قال عن امر التكوين :
« **ثم استوى الى السماء وهي دخان ، فقال لها وللارض : اتبعا
طوعا او كرها . قالتا : اتينا طائعين** » (٢) .
وقال عن امر التشريع : « **لا اكراه في الدين** » (٣) .
وقال تعالى : « **فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر** » (٤) .
ان الحرية تهيمن على امر التشريع ، وهي مستبعدة تماما من امر التكوين ،
ولعل هذا ما قصده ربنا سبحانه وتعالى في قوله :
« **انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال ، فبين ان**

(١) الآية ٨٢ من سورة يس (حكمة)

(٢) الآية ١١ من سورة فصلت مكية .

(٣) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة مدنية .

(٤) من الآية ٢٦ من سورة الكيف مكية .

**يحييتها ، واشفقن منها ، وهبها الإنسان ، أنه كان ظلوما
جهولا » [١] .**

وليس إباء السماوات والأرض واشفاقهن من الأمانة إلا مسورة نية
تصبر من رفض ما لا يستطعن حمله بحكم التكوين الأصلي والتقدير الأزلي .

ليس رفضهما هنسا اختيارا حرا .. إنما هو رفض يجيء من كونهما
خلقنا طاعتين غير مكلفين ، وليس التمثيل والتشبيه في الآية إلا تقريبا
لمعانيها من الذهن البشري .

.....

وامر التكوين بالنسبة إلينا غيب ..

خلق الله السماوات والأرض وما اشهدنا خلقهن .. لا نعرف متى كان
ذلك ولا كيف كان .. ولا بأي أسلوب أو وسيلة .

لا نعرف أيضا تاريخ تكوينهما بالترتيب .. أي شيء منهما خلقه الله قبل
الأخر .. هل خلق السماء قبل الأرض أم خلق الأرض قبل السماء ؟

إن وقوع الخلق وكيفيته وأسلوبه سرار مغلقة ، استأثر الله وحده
بعلمها . أما مادة الخلق ، فهي أماننا تبحث فيها كيف نشاء .. وتدرسها
آلاف العلوم على الأرض .

أما كيفية الخلق فغيب لا ندرى عنه إلا ما حدثنا به الله .

ولقد حدثنا الله تعالى أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في
سبعة أيام . قال تعالى : « **الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما
في ستة أيام ثم استوى على العرش** » [٢] .

أمر الله السماوات والأرض وما بينهما أن تتكون في ستة أيام .. وكانت
في ستة أيام ..

وهذه الأيام الستة من أيام الله تعالى ، وهي لا تشبه أيامنا التي
نعيشها الآن على الأرض لسبب بسيط ، أننا نحسب اليوم بدورة الأرض
مرة حول نفسها أمام الشمس . والله تعالى يتحدث عن يوم قديم سبق
خلق الأرض والشمس ..

المسألة إذن يختلف ، وطول اليوم يختلف .. ربما تكون هذه الأيام
الستة بحسابنا الآن آلاف السنين أو ملايين القرون .. أو تكون أكثر من
ذلك أو أقل .. وربما تكون بحساب الله عز وجل شيئا آخر تماما .

هذا غيب لا نتحسب له التأويل ، ولا نخوض فيه بغير علم .

غيب لا نعرف منه إلا ما حدثنا به الله ، والغيب هو الشيء الذي يغيب
عن عقلنا أو زماننا فلا ندركه ، وكل ما غاب عنا وحدثنا عنه الله فهو وحده
المصدق .

(١) الآية ٧٢ من سورة الاحزاب مدنية .

(٢) الآية ٤ من سورة السجدة مكية .

ولقد حدثنا الله أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام
ثم استوى على العرش . خضع له كل شيء . ودار له كل شيء . وسجد له
كل شيء ، وقدمه كل شيء ، وحكى قضيته سبحانه مقاليد كل شيء ..
واحتاج إليه كل شيء .

وهو العسى الذي لا يحتاج الى احد .. ويحتاج اليه كل احد .

.....

انتهى الامر وتغنت مشيئة الله تعالى .

وخلق الكون .

سجد بعد خلقه لرب الخليفة ..

سجد سعود احتياج واستمداد .

سجد سعود استسلام بحكمة نظام يجمع محكم .

رمز الخير

الملائكة صناديق الله . حنود الله . وهم من لكرم خلق الله وأفضله . وهم درجات ، ولكل واحد فيهم مهمة السامية التي يؤديها كمال لا يطاول . ومن الملائكة من كانت مهمته أن يتصل بالبشر . فيهم من كانت مهمته أن يبلغ أنبياء الله رسالات الله إلى البشر . وهذا هو جبريل عليه السلام . . . سجد الملائكة وأرفع عباد الله في الملأ الأعلى ورمز الخير .

.....

وسمى الله تعالى : « الروح الأمين » . . قال تعالى في سورة الشعراء : « نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين » [١] .

وسمى الله تعالى « روح القدس » قال تعالى في سورة النحل : « قل نزل به روح القدس من ربك بالحق لينبئ الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين » [٢] .

وسمى الله تعالى : « رسولا كريما » . كما سمى « الروح » . قال تعالى في سورة التكاوير : « أنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين » [٣] . وقال تعالى في سورة القدر : « تنزل الملائكة والروح فيها بالأن ربهم من كل أمر » [٤] .

وسمى الله تعالى « شديد القوى » . قال تعالى في سورة البقر :

« واتجم اذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى . عليه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالافق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فلوحى الى عبده ما لوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى » [٥] .
هذه هي أسماء جبريل عليه السلام .

وقد سمي جبريل روحا واضيف الى القدس . والقدس هو الله عز وجل . . وقد خلقه الله تعالى من غير أب أو أم أو مثال كما خلق آدم . وان اختلف جبريل عن آدم في أنه ليس حسدا تحوز عليه الأخطاء والمعاصي . انما هو روح طائع أمين أصلقه الله الى اسمه . وكرم الله تعالى جبريل

(١) الأيقان ١٩٢ ، ١٩٤ مكية .

(٢) الآية ١٠٢ مكية .

(٣) الأيقان ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ مكية .

(٤) الآية ٤ مكية .

(٥) الأيقان من ١ الى ١١ مكية .

بكرمها انهبها حين اصاب اسمه اليه . وجعل الايمان به عليه السلام مسئلة اساسية لا نقاش فيها ولا مصالحة .

سأل اليهود النسي عنه الصلاة والسلام عن يانبه بالوحي .
قال : جبريل

فالو . هو عدونا . لو كان الذي يثنيك بالرسالة ميكال لامنا منك
وبنفسك ، [ميكال هو ميكائيل] .

وبرل قوله تعالى يحدد بالحسم الالهى موقف الله من اعداء ملائكته ..
لنهم اعداؤه ، قال تعالى :

« قل من كان عدوا لجبريل ، فإنه نزله على قلبك بادن الله ، مصحفا
لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله
وجبريل وميكال فليعدو للكافرين » [١] .

لماذا خص الله جبريل وميكال بالذكر ؟

حسبها بالذكر تشريفا وتعظيما ..

وسبب بلقي في قصص انبياء الله كثيرا محبريل عليه السلام .

هو الروح الامين الذي صحب وحى السماء الى الارض .

وهو يحتفى ارمية ، لماذا صهر ظهرت معه رحمة الله .. وبعث من الى
قومه .. وخرج كتاب من كتب الله الى الناس .

(١) سورة البقرة الايتان ٩٧ و ٩٨ (مصحف) .

رمز الشر

خلق الله تعالى مع الملائكة خلقاً آخر يسميه الجن .

والجن مخلوقات مستترة .. ليست أجساداً ظاهرة لنراها .. وهذا هو وجه الشبه الوحيد بين الجن والملائكة .. وفيما عدا ذلك يختلف الملائكة عن الجن اختلافاً تاماً . حتى في مادة الخلق نفسها، فقد خلق الله الجن من النار وخلق الملائكة من النور ، والملائكة هم عبود الله الذين خلقتوا لميلاته وتحقيق أمره في الكون . والملائكة بحكم تكوينهم هم الخير المحض ، أو الخير المطلق .

أما الجن لمخلوقات تخضع للتكليف ، وفيهم الطيب ومنهم الفاسد .

قال تعالى في سورة الجن على اللسان الجن :

« وأنا من المسلمين ومننا من ذلك » كنا طرائق قدداً (١)

« وأنا من المسلمون ومننا من القاسطون ، فمن أسلم غاوتك تحروا

رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم خطباً » (٢)

والجن يتناسلون ، قال تعالى :

« افتكفؤنه وذريته أولياء » (٣)

وق الجن من يعبد الله ليرقى ، وفيهم من يعبد الله وهو يخير في نفسه كبرياء لا تتفق مع العبودية .

ومن أسماء الجن الشهيرة « إبليس » .. وكان هذا المخلوق يقف مع الملائكة حين صدر إليهم أمر السجود لآدم . فلما رفض أن يسجد صار رمزاً للشر في الكون .

ويتمسح بعض الناس أن إبليس كان من الملائكة لوقوفه معهم .. والصحيح أنه من الجن ، لقوله تعالى في سورة الكهف :

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ، إلا إبليس كان من

الجن ففسى عن أمر ربه » (٤)

ما الذي كان يعمله هناك مع الملائكة .. ؟

ب الذي عمله حتى استحق شرف الوقوف مع الملائكة .. ؟

(١) الآية ١١ مكة .

(٢) الآية ١٤ ١٥ ١٦ مكة .

(٣) من الآية ٥٠ من سورة الكهف مكة .

(٤) سورة الكهف من الآية ٥٠ مكة .

هذا كله عيب . يقول العلماء : أنه عند الله الآام المسكين ليسرقى . . كان ابليس سيداً من سادة الكبرياء والانتهازية قبل خلق الانسل .

لقد عند الله حيا من المحدث لا حيا من الله ، كان رمزا لروح الشر ، وكانت العبادة هي طريق السمو والارتقاء مسلك هذا الطريق ، ملها صدر الى املانكه الامر بالسجود وهم ملائكة . لرمه هذا الامر بوصفه أقل منهم ، ساعنتد انحسرت دوائمه للمصادة عن وجه الكبرياء ، ورأى اهدافه في المحدث نهدر ، وألقى نفسه مأمورا بالسجود لآدم . وهو مخلوق من طين ، فاستكبر ورمى .

وبذلك احسار ابليس يومها — والله يعلم أنه سيحسار — أن يكون رمزا للشر على الأرض . .

من يومها صار ابليس أشهر مخلوق في الأرض . . حسر نفسه وكسب الشهرة . ووقفت روحه مساند كل الشرور والمظالم والآثم في الأرض . . وهناك من يعتبر ابليس مرآة لابن آدم يرى نفسه فيها . وهناك من يراه بحري محترى الدم في عروق المخلوقات ، وهناك من ستهون شأنه ويحتقره . . وعلى أى حال . . قبل هذا المخلوق هو الدرحة الأخيرة في اللون الأسود من الشر .

رجال الله

أنبياء الله تعالى هم أمر التشريع .

هم رسله إلى البشر . . وهم أساسا بشر . . غير أنهم اتقى البشر .
ولو أن الله تعالى لم يرسل أنبياءه إلى الناس لالزمهم حجة ، ولكن ذلك
هدلا منه سبحانه .

ذلك أن الله قبل إرسال أنبيائه أرسل كلماته إلى العقل البشري وللرمز
الحجة .

إن الكون كله هو كتاب الله المفتوح ، وهو كتاب يستلزم بالكمالات المعجزة
الدالة على وجوده سبحانه .

والإنسان ذاته . . بالنسبة لذاته . . آية من آيات الله ، وكلمة من كلماته تلزمه
الحجة .

ولوطاف الإنسان داخل نفسه ، أو ساح ذهنه في أفق الكون . . لراى
كلمات الله وآياته . . ولو استجيع الإنسان نقاء الداخلي وتنعش به قدرته
على التذكر ، فسوف يرى كلمات الله يوم أخذ العهد على آدم وذريته .

قال تعالى :

« واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، واشهدهم على
أنفسهم : ألاست بربكم ؟ قللوا : بلى » [١]

واذن تلزم الإنسان الحجة .

لماذا يرسل الله تعالى أنبياءه إلى الناس إذا كان قد الرهم الحجة ؟

الجواب أن أنبياء الله تعالى جميعا رحمة .

لايميل الله عباده بالمعدل وحده . لأن الله لكر .

أنما يعاملهم بالرحمة .

والأنبياء هم الرحمة .

يبعث كل نبي رحمة لقومه أو زمانه .

١. من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف مكة .

حتى اذا جاء آخر الانبياء جاء رحمة للعالمين .

« وما ارسفلك الا رحمة للعالمين » [1]

ولولا محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، لما عرفنا قصص الانبياء كما وقعت حقا .

ذلك ان قصص الانبياء تعرضت قبل بضعة النسخ صلى الله عليه وسلم .
لصحت لم يسلم به سى .

وامتد التحريف الى مسيرة الانبياء ، فجاءت بشكل لا يحفظ للانبياء وقولهم
او عيسىهم .

بحكم صحف اليهود المحرفة من سى يشرب الخمر ويرمى بالنساء ، وتحمي
من سى يرسل قائد جيشه الى الحرب سى يقتل امرأته . ويحكم من سى
يحكم ، على صناد الأسماء بعد ان مروح وهو شيخ من صبية حسانا بعد
صبا . مبر ارضاءها صنادا مسميها على ارضاء حنانه .

وبعض طيلة الوقت وثبت نقرا هذه الصحف المحرفة تلك أمم عقل بشرى
بلوث ومعرض . . عمل مرسس يكذب عبدا على انه وائسده لامراض سجهلها
الان وان كانت لليهود ايامها يصلح ظاهره من ذلك .

فندا عاشرت صحف اليهود المحرفة الى صحف النصارى واورائهم وجدت
لديهم امحاهها عكسا يكاد يكون رد فعل للانبياء الاول . . انهم يكرمون سبهم
مبسى الى الحد اذى سسبه بعض مرتهم بالنسوة الى الله .

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ولقد صاغ جمع الانبياء تحتبقي بين النصير والكبر . . ولولا القران
ما عرفنا حقيقة الانبياء .

.....

حقيقة الانبياء انهم خير البشر .

ولكنهم من مهية الامر بشر يمشون فى الأسواق ويأكلون الطعام ويعيشون
ويموتون .

لانصارون ائمتهم للرسله . لا يصلون الى الرسالة شجحه كسما ونصد
وحيد او اعتبار . انما يحقارهم الله .

مصرهم لمليه السلى انهم انفى من فى اليهود ، وانصل . تستوى فى
ذلك عقولهم وقلوبهم .

بعدها يبحث اليهم رسالاته .

ومسبهم الله الى مسه شريف وكريما . مبسمهم رسل الله .

وهم لا يحضنون شيما يرسلهم به الله .

[1] الآية 17 من سورة الانبياء مكية .

إن لهم عصمة من نوع معين ، كما أن لهم معجزات من أنواع عديدة .
أما عصمة الأنبياء فتعني أنهم لا يرتكبون خطيئة كبيرة ولا صغيرة .. لا تبطل
البصحة ولا يمسدها .

إنهم يحلقون في مستوى من الكمال لا يهبطون عنه وإن ساروا فيه صعودا
.. وإذا كان الله تعالى يعاتب أنبياءه أحيانا فغنا يفعله ذلك وصولا بهم إلى
مستويات أكبر من الكمال لا ندرها ، ولا نحلم بها .

ولما كان الأنبياء هم أكثر الناس معرفة لله ، فإن واجبهم يقتضيهم أن يشعروا
بأنهم مقصورون في حق الله .. لأن الإنسان لو عند ربه ملايين السنين لما كان
ذلك كافيا للشكر على نعمة الله في نصف ساعة .

ولهذا يستغفر الأنبياء ..

هذه دويهم وهذا استعمارهم ، ونحن نعرف أن الإنسان لا يعاتب على
النسيان والنسيان ، ولكن الأنبياء يعاقبون على ذلك . لقد نسي آدم فأهبطه
الله من الجنة . ولو لم يكن نبيا لما أخذ الله على النسيان .

وتختلف درجات الأنبياء والرسول :

قال الله تعالى في سورة البقرة :

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع
بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم الغيبتات وأبدناه بروح
القدس » [١]

وقال الله تعالى في سورة الاسراء :

« ولقد فضلنا بعض القبيين على بعض ، وآتينا داود زبوراً » [٢]

وقال الله تعالى في سورة الاحزاب :

« وإذ اخذنا من القبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى
وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » [٣]

ورغم اختلاف درجات الأنبياء عند الله تبارك وتعالى ، ووجود خمسة
منهم هم أولو المزم وهم :

محمد بن عبد الله .. ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى .. عليهم الصلاة
والسلام .

ورغم اختلاف درجات الأنبياء عند الله تعالى ، فإن المؤمنين المؤمنين
بالوقوف عند حد الأدب ، وعدم التفريق بين أحد من رسله ..

قال تعالى في سورة البقرة :

« والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا يفرق بين أحد

(١) من الآية ٢٥٢ بحنية .

(٢) من الآية ٥٥ مكية .

(٣) الآية ٧ مدنية ..

من رساله . وقالوا سمعنا واطعنا ، ففرانك ربنا واليك المصير » . [١]

ولقد حارب سنه الله في انبيائه ان يؤيدهم بالمعجزات الواضحة والخوارق
في الانبياء من كاتب معجزته الطوفان . وفيهم من كانت معجزته تلقه ولدت
من حل . وفيهم من كانت معجزته صرخه هزت الدنيا واهلها الكافرين ،
وفيهم من كانت معجزته عصا تتحول الى ثعلب ، وفيهم من كانت معجزته
احياء الموتى وتكليمهم . وفيهم من كانت معجزته كليا . .

وكانت معجزات الانبياء جميعا تختلف عن رسالتهم ، باستثناء واحد .
معجزة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ان طب عيسى ومعجزته في شفاء الامراض كانت شيئا يختلف عن انجيله .
وعصا موسى التي تتحول الى حية خبارة كانت شيئا يختلف عن توراته .
لا ان الله شاء ان يحمل معجزة الرساله الاخيره ، هي نفس جوهر هذه
الرساله .

توحدت حتمة الرساله ومعجزتها في كتاب واحد هو القرآن الكريم .

وسوف نلاحظ ان الله عز وجل يأخذ عباده بالرحمة والرفق . . وفي حجر
التاريخ المبشري ، كانت المبشرية تمر بطور الطفولة . وفي هذا الطور
لا يصح الاطفال الا الاتشاء الحارقه العجيبة . وفي هذا الطور لا يؤمن
الناس الا اذا انهرت اعينهم قمل عقولهم . واندعشت حواسهم قبل حكمهم .

وسبق الله تعالى معجزات لنبائه الحسية الى الناس .

وكن الناس هم الذين يطلبون الآيات والخوارق . . وكان الله تعالى
يستجيب لعباده ريادة في الرحمة ليعرفته أنهم مازالوا في طور الطفولة .

وكلما نصحب البشرية في شيء ، جاءت معجزات الانبياء مستجيبه لهذا
النصح . فكان الله تعالى يعطي كل رسول من الآيات ما يتفق مع حال قومه
وأهل عصره وعلوم زمانه . . او يعطي كل رسول من الآيات ما يستهدف
اشات شيء للناس .

كان قوم فرعون أهل علوم ورياضه وطبيعة وفلك . . كانوا أهل صناعة
ساحره . كانوا سادة عصرهم في العلوم والبحر . ولهذا أعطى الله تعالى
موسى عليه السلام معجزات تتفوق على العلم والسحر . تدعو مليا وسعرا
ولكنها ليست كذلك . الأمر الذي يؤكد أنها من عند الله .

وكان الرومان أهل سلطان في قوم عيسى ، وكانوا متقدمين في علوم الطب
والقتال . . فكانت معجزة عيسى شيئا مثيرا لدهشة الطب والقتال معا . .
ان رجلا مات نهض من ابوت ليكلم عيسى . . ان ملكي الطب والقانون معا
يتدليان بالدهشة أمام هذه الخارقة .

وكذلك كان أهل هذا الزمان يريدون .

(١) سنن الآبه ٢٨٥ بحنية .

فلما تقدمت البشرية ، وبدأ عقلها ينخسج ، وصارت الكلمة فيها هي مفتاح الحياة ، وصار العلم فيها هو مهد الكون ، وصار الكتاب فيها شئنا لا يمكن الاستغناء عنه . .

شاء الله تبارك وتعالى الأيقع البشر بالمعجزات ، وأرسل اليهم كتابا هو ذاته معجزة . كتابا كل سورة منه معجزة ، وكل آية منه معجزة

اسلوه . . وقية . . وتشريعه . . وقصصه . . واحكامه . . كل ما فيه بمعجزة حية . . لا تموت طالما بقي الانسان حيا يقرأ ويكتب . ولم يرسل الله مع هذا الكتاب معجزات أخرى لها قيمته .

ان احترام نخسج العقل البشرى يستوجب الانضبط عليه .

نحن نضبط على الاطلاق ونرهبهم او نستميلهم . . لكننا نحاول اقناع الكبار .
وتلك كانت ميزة الرسالة الأخيرة . . وذلك كان فضل نبيها . . عليه افضل الصلاة والسلام .

انه رسم للانسانية آفاق الكمال الذي تستطيع ان تبلغه كبشرية راقية لديها عقلها .

وبن الكتاب الذي انزله الله على خاتم رسله . .

من القرآن الكريم .

هرغنا قصص الأنبياء كما وثقت بحق .

قصص الأنبياء في القرآن

يطلو القرآن الكريم على عديد من القصص . أهمها قصص الأنبياء .

وردد قصص الأنبياء في القرآن كحرف من سمحة القلم ، يصر أن القصة في القرآن ليست عملاً مستقلاً في بوضوحه وطريقته عرضة وداره هوائيه .. تس القصة القصة الحرة .. أتيا يرد القصة في القرآن بقندة بحرف من دجى .. ونرد أملاً للدعوة أو للدعابة لهذا العرض اللطيف . ولقد كن المروص .. طبقاً لهذا التقييد .. أن نعرض القصص حاله من القصة القصة .. ونحن نعرف الآن .. أنه يستحيل على كاتب من الشر ، أن يوظف فيه للدعابة شيء ، ويستطيع أن يشرح لنا في نفس الوقت ..

نشر الدعابة الصبيحة .. أن يكرر هذا القتل القتل في قصص القرآن .. هذا نحن ألقم قصة تدعو للتشويق .. بسبباً هي في نفس الوقت جميل في معبر ..

ولعل هذه أول إشارة لآلية لا محتر القرآن وكونه من عند الله تعالى ..

يستحيل على بشر .. مهما أوتي من مفرقة فيه .. أن يقدم لنا ودعابة في نفس الوقت .. يستحيل أن يقدم لنا محجراً ودعوة مستتر في نفس الوقت .. نهر أن قصص الأنبياء في القرآن يفعل هذا كله بشكل ماعم لأقصى فيه نأخذ .. وأما بهشتك أن يكون الأمر غير ما هو كماي .

هذه واحدة ..

وهناك ملاحظة أخرى ..

من الحروف أنه يستحيل على كاتب قصة بشرى ، مهما تكن درجة كتابته ووضوحه ككتاب .. أن يحكي لك نفس القصة ثلاث مرات أو خمس مرات أو عشر مرات ، ثم يحتمل نفس السنوات في المرات العشر .. لأنه أن يخط سنوات في سنة أكثر ما يحكمه .. ولا بد أن يكرر نفس ما قاله نفس الصبر الأول .. لا يمكن أن يبنى بعيد .

هذه مسألة مقبولة .. غير أنك تنظر في قصص القرآن ، فيروك أن ترى القصة مقبولة عشر مرات . يحكيها الله عشر مرات أو خمس عشرة مرة .. نفس القصة .. بنفس المستوى .. بتأثير مختلف ..

يظل مستوى القصة في الذروة رغم تكرارها .. ويتشعب تأثيرها وإيحائها بكلية تضاعف أو حرم بحدف أو صار حديدة ، أو جملة لم تكن موجودة .. أو مجرد ثقل لحاظ نفس لم يقدم قبل ذلك .

شيء معجز يقطع بأن صاحب قصص القرآن ليس هو النبي البشر ..
أنها هو رب العالمين سبحانه .

كثيرا ما توقفت كناقذ أدنى .. أيا قصص القرآن ..

كنت أقرأ القصة بحسن النقاد الذي يريد أن يحتر على شجرة يتخذ منها
ليقول شيئا ..

وكنت أخضع القصص بقايمس انتقد الأديم والحديث .. وكنت
أعود من رحلتي دائما بأحاساس يقيني ومطلق بالوجود ..

ليست هذه القصص من اختراع بشر .. ليست كتابة بشرية .. أبطالها
من البشر .. كلماتها قائلها البشر .. أحداثها وقعت في تاريخ البشر .. كل
ما فيها بشري .. غير أن فيها شيئا غير بشري .. الرؤيا التي تتناولها ..
الطريقة التي تقدم بها .. الأسلوب الذي تحكي به القصة .. تركيب هذا
الأسلوب وسبك .. هذا هو الشيء الإلهي فيها ..

ولهذا السبب كان الله يحكي القصة مرة ومرتين وعشرين .. وفي كل مرة
يعطيك تذكيرا معينا ، ويلوك بإحساء خاص ، يختلف عما سبق أن أعطاه لك ..

وهذه معجزة في من الكتابة . لا ترى لها مثيلا في أي كتاب على الأرض
غير هذا الكتاب الكريم الذي أسلمه لنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه
وسلم .. وهو رجل لم يكن يكتب ولم يكن يقرأ .

أنظر إلى قصة موسى ..

ثابت لقاء موسى بكلمات ربه .. تأمل موقعه ألم النار المقدسة في
وادي طوى ..

يحكي الله هذا الحادث أكثر من مرة ..

يلوك مرة بالخوف والرهبة والجلال ..

ويحكيه مرة أخرى فيلوك بالحب والحنان والأمل ..

نفس القصة .. أبطالها هم موسى وعصاه .. لم يتغير شيء في الأبطال
ولا في الخلال .. كل ما حدث أن أسلوب التقديم الإلهي هو الذي أعطاك
تأثيرا مختلفا .. رغم أن الأبطال هم كما هم لم يتغير فيهم شيء ولم يزد
عليهم شيء .

ولقد تحدث الكثيرون من قيل عن أعجاز القرآن .. ومسجده .. وقيل
آلاف الكلمات حول هذا الموضوع .. وحكي لنا القدماء والمحدثون من هذا
الشيء الخاص الذي يسمع في كلمات القرآن ويجعل القلب يسجد بمير أن
يفادر مكانه في صدر الإنسان . قيل هو لفظ المعجز .. وقيل هو معصاه
الدهش .. وقيل لفظه المحير .. وقيل ما قيل عنه .. غير أن هذا لم يلمس
قلب الموضوع كما فعل كتاب « التصوير الفني في القرآن » الذي وضحت فيه
هائنا منهج جديد غير منهج البلاغة والألفاظ والمعاني ، منهج يدرس
الخصائص المشتركة ، والطريقة الموحدة في التعبير عن جميع الأغراض ..
من طريق أسلوب التصوير الفني .

هذا الأسلوب الذي يسمى « التصوير القوي » .. هو سر الأثر في
أحدث القصص القرآني .. أنت تملك القصة في القرآن وخبراً .. بعد
لحظات تكشف أن شيئاً غريباً وقع ..

لم بعد هناك كيف نقرأه .. لم نعد مبدئياً نمرس بطور الكلمات ..
أحيى الكتب وأحييت المطبوع ، ولأنني العاصر ودل الواقع ، وانصب
أملك مسرح عليهم يتحرك فوقه أبطال القصة التي نقرأها .

ها هو روح بلغم بطرس سقاء عصره وكراء القوم .. ها هي كلمات
الحوار بمعنى أملك بمصداق بصورة ، بكاد وقع كل كلمة يحفظ من وقع
أنطقه الأخرى .. مثلاً نختلف سميات أصابع لسان من مصداق أصابع
فهره ..

ينصب المسرح أملك ونصفي الأحداث وينتظر الصراع ، وثبت هيلس
مهور تشهد وتسمع ..

أثر الكلمات المكتوبة ، ونحور في ذلك إلى مسرح هائل يفتح بالصراع
والحوار والعدال والمخامر ..

مرة قصص القرآن .. بمرته المعركة تكس في هذا .. أن الطيف
لا يحكي لك أبداً هي سرك دألك اتحلبا مجده و مسرحية قديمة ،
سقطه وأنت بمعنى ألبها ونشاهد ها ، أن نكشف أنها بهيئة مسرحية
قديمة محبب .. أبداً هي لصا جديدة ، مثل كل يوم على مسرح القصة
ملاء مختلف ويمثل جدد .

وسمى من القصة ..

وسمى بك فوائده الصبا .. ثم تملود قراءات قصة أخرى من قصص القرآن ..
لا يكاد يخفى في القراءة حتى نرى شيء أمتع .. انصب المسرح في
القصة الأولى ، وهذه المرة نرى شئنا السبا ..

نصفي الكلمات المكتوبة وحسب ثلاثة السبنا .. ويتحرك أملك شريط
الصور .. يتحرك بلغم سبنا محبزه .. السبنا لفة مفرداتها هي
الصور .. وثبت نكشف فيها بحر بالصورة بغير كلام .. ثمة حلم هنا لا تعرف
تفسيره .. سيؤدي تقطيع الصور وتسلسل السبنا ويتركيب المشاهد
إلى تفسير الحلم في النهاية ..

من أمله القصص التي يقدمها القرآن بأسلوب المسرح .. قصة هود
وقصة صالح .

ومن أمثله القصص التي يقدمها القرآن بأسلوب السبا .. قصة
يوسف .. وقصة موسى .

ولقد مرل القرآن منذ أربعة عشر قرناً من الزمن ..

لم يكن عالم الأدب قد اكتشف قواعد القصة القصيرة ، أو أصول الدراما ،
فوالن السبنا ..

كانت هذه الصور الثلاث من صور التعبير الانسي بدورا في ضمير المييب لم يكشف عنها الستار بعد .. ولقد قدر لأوربا ان تكون هي صاحبة هذا الكشف .

لم يكن العرب - الذين نزل اليهم القرآن بلغتهم - يعرفون من أشكال التعبير الفني غير الشعر .. والأساطير القديمة .. ولهذا السبب اتهموا النبي عليه الصلاة والسلام مرة بأنه شاعر .. واتهموه مرة أخرى بأنه يحكي أساطير الأولين .. فلما دلت التمهلات بغير اقدام .. عادوا يتهمونه بالشعر

ولقد أصابوا في الأخيرة .. مع تحفظ في اختلاف فهمنا للشعر عن فهمهم البدائي القاصر ، تصدوا بالشعر هذا الحداغ والوهم والتخيل . وفهم من الشعر شعر الفن الموحى .. ولقد انكوت قصص الانبياء في القرآن على قدر من سحر الفن الموحى .. يستحيل الكشف عنه في مجاله لو تفحصيه في كتاب أو كتابين .. ذلك جهد يمكن ان يتوفر عليه عديد من الفنانين والادباء في عصور مختلفة ، فيكشف الله لكل واحد فيهم حقا من أعماق القصة في القرآن .. لكل حسب كلفته وجهده وموهبته .

فلننظر الآن كيف ذاب الغرض الديني في الغرض الفني ، او كيف ذاب الغرض الفني في الغرض الديني ، فلذا الجبال غالية مستهذبة ، وموسيلة مستخدمة في نفس الوقت .. وادا بالآلاف العناصر تصنع في مهلة الامر مزيجا لا يقدر عليه غير خالق الانسان والملائكة .

نظرا لولا في اغراض قصص الانبياء في القرآن .. مستكشف ان قصص الانبياء تناولت اغراضا عديدة مختلفة لا تكاد تقع تحت حصر .. هي صراع بين الخير والشر ، بين جيوش الظلام الحرة المنظمة الكثيفة ، ومساائل الخير الفيلة اللينة للصروبة ، هي صراع بين الإنسان وظروفه وأهوائه وهي صراع بين الطين والروح .. وهي صراع بين النبي والكافرين به .. وهي صراع بين النبي وأهل بيته .. أحيانا زوجته . لوط [وأحيانا ابنه [نوح] وأحيانا أبوه [إبراهيم] ..

خيطة واحد يشد كل قصص الانبياء ويبدو واضحاً في نسجها المحكم المبحر الرائع ..

خيطة واحد ..

هو الصراع ..

لا يكاد النبي يبدأ دعونه حتى تنقلب الدنيا كلها ضده محاة .

يضيع سلامه .. وأمنه .. ورزقه .. وقدأ الهجمات عليه .. تمل البعثة بحبش النبي في سلام عظيم من الخارج ، وقلق عظيم من الداخل .. وبعد نزول الوحي ترتفع أعلام السلام الداخلي وترغم داخل الروح ، ويتحطم تمها أمنه الخارجي وسلامه وراحته .

ظل شعيب موضع احترام قومه حتى جاءه الوحي .. فبدأت السحرية منه .. وبعد ان كان المعلم الرشيد .. صار متهما بالكذب والافتراء .

وظل محمد بن عبد الله موضع تصديق قريش واجلالها حتى لقد سمى الصادق الأمين ، ولا يكاد الوحي ينزل عليه حتى تتطير حوله آلاف الاتهامات

التي ندأ بالحقون وسبى بالخصم .. ومعد أن كانوا يهيمون له في المجلس ،
ويشرون له ويخلونه . ويحكوه فيها بنشب بهم من شجار ، وسميمون
أبيه ومرسون كلمته .. معدا صلوا يرمون عليه احتشاء العيال المدبوحة
وهو مساعد يهلي لرب حريل وره .. فلا يجد حطنها من يدافع عنه غير
أمنه فاطية .

أي حوان يلقاه السي في سهل ربه .. وأي بلاد ..

لا يبحو سي من هذا اللاء حتى أن كل من لولى الحرم .. على العكس ..
يزيد بلاؤه كلما زاد عزه ..

بنقلوت أسلاء الأسباء حسب درحاتهم عند رب العرش .. اعظمهم نفرا
هو اعظمهم سلاء .

نصر إلى نوح كيف كفوه ألف سنة إلا خمسين .

نصر إلى ابراهيم كيف طرد من بيت أبيه والثى في النر .

نصر إلى موسى كيف اخوشه خوف الانفقال والمأبرات القتل ، وكيف
أنهم بالجنون والكسب .

نصر إلى عيسى كيف انفروا عليه وعلى أنه يفتنا وانكا ورورا .

ونظر إلى محمد كيف تعرض لكل ما تعرض له الأسباء قبله .. حتى مركب
عليه خلال سبي هبته المصبه كل أنواع الفهر والمذاب والمحاء والسديب
والمأبرات والحروب .

هو غايوس الذي لا يحمي ..

يريد الصراع حدة وصفا كلما كان السي من لولى الحرم الكار ..

ذلك أن دعونه نصي نعيم بظلم الحياء .. نصي عوده الحق إلى مرثه

نصي عوده العيال والحر والفصله .. لكن هذه التهم كلها تعيش عادة
في الحياء وهي تردي نعب الأمكار الوحيدة .. أما الباطل فهيمى نفسه
مكوبس العنوش وساء الأسبه والسلب .

مخشى اللائل في حده ومسكره ، مبنا يمشي الحق عادة وهو يرتدي
سواء الفكر الوحيد المنة .. ولا يكاد السي يفتح فيه ويدعو لربه .. حتى
تمحرك كل هبوش السلام في اتعاهه .

ويصر الوقت الذي يقول فيه السي والدين آمنوا معه :

« حتى نصر الله » ..

ويكون الرد من الواحد القهار ذاته :

« ألا إن نصر الله قريب » [١]

(١) من الآية ٢١٦ من سورة البقرة بحية .

ولا يقدم القرآن هذا الصراع بشكل فنى مجرد فحسب .. إنما يرتبط
المضنون هنا بالشكل ارتباطاً عضوياً كارتباط الروح بالجسد الحى ..

سوف تجد وسط هذا الصراع العنيف الدامى أغراضاً يحرص قصص
الأنبياء على إبرازها واستهدافها وتأكيدھا .

من هذه الأغراض اثبات الوعى والرسالة وبين ان الدين كله من
عند الله . من عهد آدم الى عهد محمد . وان المؤمنين كلهم أمة واحدة . وان
الله رب الجميع ومولاهم . وان جميع الانبياء المضى أنزلت على الأرض من عهد
آدم الى عهد محمد ، هي في أصلها دين واحد . هو اسلام الوجه والقلب
لله .. تختلف أساليب الأنبياء في الدعوة . وتختلف أصواتهم ولغسانهم في
الحديث لقومهم .

لكم جميعاً يقولون كلانا واحدا يتصل بالله ..

— لا اله الا الله وحده لا شريك له ..

— يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الله فريده .. [١]

لا الذهب ولا الهوى ولا الحكم ولا السلطة ولا الراحة ولا النعيم ولا الدنيا
كلها تصلح للعصاة .. لا معبود سوى الله وحده .. لا شريك له .

ومثلما ترينا قصص الأنبياء أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة .. ترينا
أيضاً أن استقبال قومهم لهم متشابه .

انتكسب والانهام والايذاء والشر ..

وليس على أى نبي من الأنبياء الا أن يبلغ ويتصل ويصر ..

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغفلة والعشى يريدون
وجهه » . [٢]

اصبر ..

دواء واحد ليس في غيره الدواء .

اصبر .

« واصبر واصبرك الا بالله » . [٣]

من أغراض قصص الأنبياء في القرآن الدعوة الى الله ، واشتات اليوم
الأخر ، وتشير المؤمنين ، وتحذير الكافرين ، وبين سفة الله في تدبير
المكذبين بالدين . أيضاً ترينا قصص الانبياء نعمة الله على نبيك ، وترسم
لنا صوراً للعلاقات الانسانية كما يراها الله من فوق سبع سموات .. وتبين
لنا أن الآبوة والبنوة وقرابة الدم أو المصاهرة ، ووحدة الأرض أو الجسد
أو اللون ، ليست هي الروابط بين الناس ..

(١) من الآية ٦٥ من سورة الأعراف مكية ..

(٢) من الآية ٢٨ من سورة التكوي مكية .

(٣) من الآية ١٢٧ من سورة النحل مكية .

أما الرابطة هي الإيمان بالله .. وهي الحب في الله ..

هذه هي الرابطة الوحيدة المصدرة من رب العرش .. وشبهه لروابط
عزراء ، مصيبت برغم بوقها من مؤنس ناه عز وجل وبسطة له .

ربنا قصص الأسماء فقرة الله على المحررات والحواري .. ومصل
محب أن يسيبها فقرة الله محب .. ذلك أن القنوت الذي يدور له كمنون من
النسر .. مثل أن المحر لا يسيب محب .. لو أن النصب لا يحول إلى نص
بأقل مصبا لغري .. هذا القنوت ، بالنسبة اليها ، هو عند مخلوق
مأنسة له ..

ليس القنوت قنوتا على الله عز وجل ..

هو قنوت عليها من .. ومن مخلوقات مثله .. أما الله فعلى ..

وطاعة القنوت له لير لا يدر به من ولا يحرمه .. ولهذا سمي به محرمه
أو حارمة . بينما الأمر غير ذلك ..

ربنا قصص الأسماء من بين المحررات كيف هي الله أمم من الحزم .. كس
انكون مضميا لمصل مكلمه الله كوما .. وكلف الأرض مضميا لمصرت مكلمه أن
أرضا .. ومن طس الأرض حتى أمم . وهمل الله من الفوايس السرية على هذا
المحور أن بحر . سله من أحدهم بحراء . من انقل رجل مأمرا .

ثم شاء الله أن يولد طفل من امرأة فقط .. بحير أن يلصقها رجل .. كفة
شاء الله أن تكون ، فكانت عيسى بن مريم ..

هل هذه محرمه .. لو حارقه .. أو قنوت أصيل يطبع خالقه ولا تدري
محب من ؟

أن الأصل أن محن الله لا يصل من محرات أو له أو مثال ملى ..
والأسماء أو المحرم ، أن يحى ، الإنسان من أصل رجل مأمرا .. هذه
هي الطريقة ..

أذا عاد القنوت من أسسها إلى طبيعته الأصلية سبها هذا حرقه
أو استثناء أو محرمه . . . ؟

ليس هذا غريبا ... ؟

لا يستطيع أن يصو في حداد أم امر قصص الأسماء في القرآن . أما
ربنا أن يذكر كيف حصلت القصة للمرحس الديني ؟ .. وكيف استطاعت - في
نفس الوقت - أن تصير فتيا من هذا المرحس ؟

يتحدث كتاب التصوير النفس في القرآن عن هذه النقطة بصق وإبقاء ..

طول أن يسوع قصة في القرآن للمرحس النفسي . رثت قرأ وأصحا في
طريقه مرصها . ومن مأنها ونشرها السهل ..

وكل أول أثر لهذا الخسوع أن يرد القصة الواحدة . في معظم الحالات .
مكررة في مواضع شتى .. ولكن هذا التكرار لا يدور القصة كلها عاليا ،
أما هو تكرار لبعض حقائقها .. ومخطبه أشهر - مبرحه لمواضع الصرة

فيها ، أما جسم القصة كله ، فلا يكرر إلا نادرا ، ولتأسيات خاصة في السياق ..
و حين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ، ويلاحظ السياق الذي وردت فيه ، يجدها مناسبة تماما لهذا السياق . ويجدها منطقية عليه ، وموجبة بما
يوحى به ، وملتزمة بمسئتيه ودالة عليها .. يقع ذلك بغير أخلاق بالسمة
القصة .. بل لعل هذا الذي يقع ، يستند قيسا غنية كافية ، ويبرز قيسا فنية
خلفية ..

وردت قصة موسى ، عليه الصلاة والسلام ، في القرآن في حوالي الثلاثين
موضعا ..

في أكثر القصص في القرآن تكرارا .. ورغم ذلك كانت من أغنى قصص
الأنبياء في القرآن .. وبإستثناء ستة مواضع اقتضى السياق فيها تكرار
القصة .. نرى الحلقات الأساسية لم تكرر ، فإذا كررت حلقة منها حامت
بشيء جديد في تكرارها ..

شيء نحسبه ظلا .. لهذا تلبينه وحدت نفسك تبتلىء بدأثير جديد كل الجدة
.. مذهش لحية الدهشة .. موح أعظم الإبحاء ..

ينطبق هذا على قصة موسى ، وقصة إبراهيم التي تكررت في حوالي
العشرين موضعا ، كما ينطبق على كل قصص الأنبياء التي تتكرر لحكمة عليا
ولسباب وحيية .

وغير التكرار ..

خضعت القصة في القرآن للفرض الديني .. فكان من أثر هذا انخضوع
أن تقدم بالتدر الذي يكفى لأداء هذا الفرض ، وأن تعرض بالشكل الذي تتفق
معه .. وهكذا تعرض القصة مرة من أولها .. ومرة من وسطها ، ومرة من
آخرها ، وتارة تعرض كاملة ، وتارة يكتفى ببعض حلقاتها ، وتارة تتوسط بين
هذا وذاك .. حسبا تكن العبرة .. متجاوزة بذلك الهدف التريخي ..

ذلك أن القرآن الكريم ليس كتابا في التاريخ .. ينطوي على قدر من التاريخ
لكنه ليس تاريخا .. إنما هو كتاب دعوة إلى الله ..

هناك قصص أنبياء بدأت عرضها بميلاد هؤلاء الأنبياء .. ركزت على مولدهم
لخطورة هذا الميلاد وأثره الموحى .. مثل آدم الذي جاء ميلاده بالأمر ونفحة
الله بالروح ..

ومثل عيسى الذي جاء ميلاده من غير أن يلمس أمه الصديقة رجل .. ومثل
موسى الذي جاء مولده في عصر يذبح فيه قصر الفرعون كل مولود ذكر
لبنى إسرائيل ، فيشاء الله أن ينجو موسى بلجونه ، وهو رضيع ، إلى قصر
الفرعون ذاته ، وهو مصدر الخطر .. وبذلك يولد الأمن في أعضان الخطر ،
وينم تدمير الله ، وتنفذ بشيئته ..

وهناك قصص أنبياء تعرض ، لماذا هي تتجاوز ميلاد النبي وتبدأ القصة من
صاه أو وهو قتي ، لما لهذا الأمر من علاقة وثيقة بالقصة ..

أن قصة يوسف تبدأ بحلم يراء وهو صبي .. بعدها تلعب الأهللام دورا

رئيسها في حبله ، هي نفس رؤسها بعد ذلك مسجود له في كل مكان .
وكنوا يقتلونه من قبل . .

ونفسه ابراهيم بدا وهو في سطر الى السماء ، ويترك كعب بعد انفس
الكرات والسجود والشمس . وهي حتما مخلوقات نفسية . .

ونفسه داود بدا وهو شب صغير . لا يرى شيئا من القتل ، ثم ينفعه
البناء بمفاتيح صراخ مع حلوب . . احضر الرسال المخلصين في عصره . .
ومعهم اراعي الوحدة النفسية للمول . . لان الله وقف مع وداعة القلب ضد
حده الطبع وقسوة الشاعرين . .

وهناك قصص تعرض في حبله مدحروا بسا . . مثل قصص نوح وسود .
وصالح ، وشعب ، وشعر من الاسماء مع هم . . ان السنين العراي لا يترك
لدا سببا من ميلادهم او سجنهم . . انما هناك انفسهم في بحيل رسالته
من ربه . . يترك على مسرح الاحداث لحد ويدا لدا هوره . .

وهناك قصص يترك بحبه حوائدها وممليتها . ونفسه يترك بعض
حوادثها وتفصيلاتها . . وهناك قصص طوبى مثل قصص موسى ، واورام .
وسوح . . وهناك قصص تسير مثل قصص هود ، وصالح ، ولوط ، وشعب .
و . . وهناك قصص يتركها في القصر مثل قصص زكريا ، ويوسف ، ويونس . .
وهناك قصص تعرض في سطر قصص اخرى ، قصة جابر ، ادريس من
سجنه مع يوسف . . يترك يرة اخرى ضد موبه . وهو يترك انفسه جدا
يصنعون من بعده . . وهناك قصص اسما يشترك اليه . لا يترك في حده
من احداث قصته . . مثل ابريس ، واليس ، ودي اسكل . . وهناك قصص
معرض بغير ذكر اسما او اعداد على الاطلاق . . ان قصة امر النفه تعرض
فلا يترك اسما مع ولا عدده . وتكفي بذكر المرحه التي قصصها يترك في
الكعب مع كلهم . وهي تسير سبوات وملائكه . .

وهنا يحفظ اسلوب القرآن في عرض قصص الاسماء والاولاد
والصالحين . صوغ الاسلوب ، ويختلف من الفاحية التاريخية . . كما صوغ
الاسلوب ويختلف من القصة القصة ايضا . . ومعه هذا العرض القصة
القصة وسحب الدعوى . . وحد مثل سحر . ان نقرأ بطل القصة انفس
اداء مقصود للذعر الوحداني . صاحب حبه او هذا القصة . .
القصة القصة . .

انظر كيف صوغ طريقه عرض القصص . . يترك بطل القصة
بسطها . . تعرض القصص بعد ذلك . . قصة اهل الكعب ، ويره يترك
قصة القصة ويتركها ويتركها . . ثم بدا من اولها وسير بالقصص ، مثل
قصة موسى في سورة القصص . . ويره بدا القصة برؤيا في المساء . . ثم
تسير القصة ويتركها في نوبل للرؤيا . . هي ادا تحف الرؤيا . انفس القصة
هذا التحف القصة ، ولم يترك فيها كبا صارت قصور . . ومرة تذكر القصة
بغيره . لا يتركها ولا يتركها . . ومرة يحول القصة التي يتركها . . يترك
قصة من الاندلس يتركها الى ابناء العرض . . ثم يدع حوار مثل القصة . .
ومرة يدور القصة الى اهل القصة بدا بطل وهي موبه . . مثل قصة
يوسف التي قسمت الى ٢٨ مشهدا ، يترك لكل مشهد ان يحكي عن حبه
من التفاصيل الدقيقة الموحية . . وهناك اسلوب الطبع من المتساعد

.. وهذه التقلات السريعة الخاطفة ، التي تترك بين المشهد والمشهد مساحة تتيج للخيال أن ينطلق وينشط .. وهناك تنوع طريقة المفاجأة .. فمرة يكتم سر المفاجأة عن بطل القصة ، ومن النظارة ، حتى يكشف لهم معا في وقت واحد .. مثل قصة موسى مع العبد الصالح في مسورة الكهف .. ان موسى يلتقي بواحد لا يفكر القرآن الكريم اسمه .. قيل انه الخضر ، ولكن القرآن لم يذكر اسمه .. اكتفى بوصفه بأن موسى وفتاه كفيا بسيران :

« فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رهبة من ربنا ، وعليناها من لئنا علما » [١] .

هذه هي صورة العبد من عباد الله ، كما رسمه الله عز وجل .. تجلوز اسمه الى حقيقته ..

وأي شيء يفيد الاسم والوصف الخارجى لو جعلنا الحقيقة ..

ونسير مع موسى والعبد الرحيم العالم .. لماذا نحن أمام مفاجآت تذهلنا .. أن هذا العبد الرحيم بخرق سفينة لمساكين يعملون في البحر .. ويقتل غلاما صغيرا ، ويقيم على حبله جدارا كذا يهوى ، في قرية مخيلة ، رخصت أن تطعمه أو تأويه أو تضيقه .. أي تناقض .. لم يصبر موسى عليه ، ثم ما هو السر يتكشف ، وتبرز المفاجآت التي كانت مجهولة لنا وللموسى وفتاه .. وأحيانا يلحظ القرآن لمكس هذا الأسلوب .. وبدا من إخفاء أسر عن قارئ القصة — بينما يعطيه البطل — نراه يخفى السر عن النطل ويعلمه للقارئ أو النظرة .. لتظهر الى قصة لوط ..

ذهب اليه الملائكة الكرام ، ونحن نعرف — كقراء — أنهم ملائكة ذهبوا لانتقاذه ، بينما هو يجهل هذه الحقيقة ، ولهذا ضاق بهم وكره ريلتهم ، وقال في نفسه : هذا يوم مصيب ..

نحن نضحك — كقراء — من خشيته وتوجبه وخوفه على حبله .

نعلم — كقراء وجيهور — أنهم ملائكة .. هذا التقديم الفني الحاصل يكون أغلب ما يكون في معرض السخرية .. أننا تشفق على لوط ونسخر من قومه ..

تخيل أنت — كقارئ — مشهد قومه وقد جاءوا على الخبر السعيد بوصول شهاب جليل .. بينما تعلم أنت — كقارئ — أن عذابا مرعبا ينتظرهم من هؤلاء الذين يتشكلون في أودية الشهاب الجليل .

الا تسخر من قوم لوط في نفسك اعظم السخرية ؟ .. لقد أخفى القرآن السر عنهم ومن لوط مؤقتا .. وكشفه لك أنت ..

والى جوار هذا التصوير الفني في قصص الأنبياء .. بجيء التعبير الفني في القرآن ، ريشة مبدمة لا تكاد تلمس اللوحة الجبة حتى تدب الحياة في المشهد ، ويتحرك الحدث واتما يجري أمام عينيك .. ثم تجيء صدمة موهية .. صدمة للتطهير ، كما يقولون في دنيا الأدب المرحى ..

ثم نلقى أليانك شخصيات الأنبياء في القصص .. كل شخصية منها رسمت وأمرت بشكل يعطى حقائق هذا النبي وتكوينه النفسي وملاح روحه سر أليانك ، بشكل حتى نروى الى حوار كل حياة ..

هذا هو موح .. التذكر لذا .. الصبر لذا .. أي حبال مدها لصبره حتى ألقى الله .. الأسماء عاليا يدمو قومه فلا يريد عدد المؤمنين ، ويريد عدد الكافرين . ورغم ذلك يسمي .. أي جلد وصبر واحبال !!

وهذا هو موسى .. العيور ، القوي ، المنفخ ، الحصص ..

أله يبنى في شوارع مصر فيسقطه به واحد من شعبه أثناء شجاره مع مصري ، فيمنع موسى متدهلا ضد المصري :

« فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ » [١] .

انفداع بغير شخصيته ، عليه الصلاة والسلام .. وعصية في حراء من تكوينه النفسي .. ها هو ذا بعد عشر سنوات يلقى في سيناء .. يألوه الله أن يلقى مصاه .. ألقاها لذا هي حية نسمي .. لم يكذبها حتى وثب جريا ..

ألوه الله تعالى إلا يحلف :

« أَنِّي لَا يُخَالِفُ لَدَى الْمَرْسَلُونَ » [٢] ..

مرت سنوات عليه ، وها هو يسأل ربه سؤالا يصور انقطاعه :

« قَالَ : رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ » [٣] ..

وبمنه الله تعالى أن أي أصاب استجابة لا يحتمل عدا .. أصاب الحبل نفسه لا تصيد لنور الله ..

القال : لن تراني ، ولكن أنظر الى الحبل ، فان استقر مكانه فسوف تراني . فلما نظري ربه للحبل جملة نكا وخر موسى صعبا ، فلما انال قال سبحانه ثبت أنك وانا أول المؤمنين » [٤] ..

ثم ها هو يعود الى قومه فيكشف أنهم يصدون محلا من الذهب ..

ترك ليهم هارون .. وعاد اليهم نكواح البوراء .. لم يكذبهم ما حدث حتى ألقى الألواح من يده .. وأمسك هارون أهاء من رأسه ولحيه وشده اليه كاعصار لا يبصر من الحضب ..

قال هارون :

« يَا ابْنِ إِمْلَيْ لِمَ لَا تَأْخُذْ بِطَعْنِي وَلَا بِرَأْسِي . أَنِّي خَشِيتُ فِي قَوْلٍ مَرَعْتُ بَيْنَ يَدَيِ إِسْرَائِيلَ وَلَمْ يَرْقُبْ قَوْلِي » [٥] .

١) من الآية ٦٥ من سورة القصص مكية .

٢) من الآية ٦٦ من سورة القصص مكية .

٣) من الآية ١٢ من سورة الأعراف مكية .

٤) من الآية ١٢٢ من سورة الأعراف مكية .

٥) من الآية ٩٤ من سورة طه مكية ..

كان هارون أعلم منا بموسى .. ولو أن هارون تدخل في قلب موسى
فانقسم قومه قسمين .. لأخذ موسى من رأسه ولحيته وقال له : كيف تفرقت
بين نبي إسرائيل ولم تنتظر هودنى ..

هو اندفاع عصبى لنبوءج انفسانى شديد العبرة على الله .. شديد
الصب لله ..

تقابل شخصية موسى باندفاعها العاشق للحق .. شخصية ابراهيم بشيخها
الراسخ ، وجهها المتيق لله ، وعدوئها مع الناس ، وتمسكها مع
الخلق ، وحلمها على البشر ، وانحنائها على آلام الانسان انحناءة الاب الرحيم ،
وايثارها لأمر الخالق على كل مشاعر الأموة ، حتى ليهم الشيخ بطبع ولده ،
الذى جاءه على كبر .. لأنه رأى في المنام انه يفحه .. ورؤيا الأنبياء حق ..

نفس راغبة ، وطبع شديد الحنو ، وحلم ورحمة يشيمان في حياته
كلها ويجريان فيها مجرى الدم في الجسد الحى .. حتى ليستحق أن يقول
عنه الرحمن الرحيم :

« واتخذ الله ابراهيم خليلاً » [١]

لا نريد أن نمضي في الحديث عن أسلوب القرآني المعجز في تقديمه لأنبياء
الله ، ولا نريد أن تفيض في الحديث عن طريقة اعرض ورسم الشخصيات ..
فذلك حديث طويل .. نجيب أن الوقت قد حان لنقرأ معا لصحن
انبياء الله ..

١ من الآية ١٢٥ من سورة النساء مكية .

قصة آدم

[عليه الصلاة والسلام]

أتعرفت بشيئة الله تعالى الى خلق آدم ..

قال الله تبارك وتعالى للملائكة :

« اني جاعل في الأرض خليفة » [١] ..

احسب الناس في محي خليفة آدم .. فمن قتل انه خليفة لنبي سبق
على الأرض ، وكفى هذا الحس بفسد فيها وبسبك القياء .. ومن قتل انه
كن حبه له تعالى ، يحس انه طيفه في انشاء احكيه ولو ابره ، لانه لول
رسول الى الأرض .. وهذا ما نعتده ..

سك لو در رسول الله ، سلى الله عليه وسلم ، من آدم :

— انبها كن مرملا ؟

قال : نعم ..

قال : لم كن رسولا ولم يكن في الأرض احد ؟

قال : كان رسولا الى اسئلته ..

.....

يرفع منزل الخليفة على يشهد من الله تعالى وملائكته :

قال تعالى في سورة البقرة :

« والذ قل ربك الملائكة : اني جاعل في الأرض خليفة ، قلوا :

نعمل بها من بعدك بها وبسبك القياء ، ونحن سبج بعينك

وبعيني لك ، قال : اني اعلم ما لا تعلمون » [٢] ..

وقد المفسرون ليل هذه الآيات وقته طويلة ..

قال قصير المار : ان هذه الآيات من المنفصلات التي لا يمكن حلها على
ظاهرها ، لانها بحسب قنن الخليل ليا استشارة من الله تعالى ، وذلك
محل عليه تعالى .. واب احار منه سبحانه للملائكة واعترافهم بجهلهم وهدال ،
وذلك لا يلقى الله تعالى ولا ملائكته ، واقتراح صرف محي القصة لشيء آخر ..

(١) من الآية ٢٠ من سورة البقرة ص ٢٢ ..

(٢) الآية ٢٠ من سورة البقرة ص ٢٢ ..

وقال تفسير الجامع لأحكام القرآن : أن الله تعالى كان قد أخبر ملائكته أنه إذا جعل في الأرض خلقاً أسدوا وسفكوا الدماء ، وحين قال تعالى :
« **أني جاعل في الأرض خليفة** » [١] ..

قالوا أهذا هو الخليفة الذي حدثنا عن أسفاده في الأرض وسفكه للدماء ،
أم خليفة غيره ؟

وقال تفسير « في ظلال القرآن » : أن الملائكة سطرتهم البرهنة التي لا تتصور
إلا الخير والنقاء ، قد حسبوا أن التسبيح بحمد الله وتقديسه هو العاية المطلقة
لوجوده ، وهذه الغلبة متحقة بوجودهم هم ، وسؤالهم يصور دهشهم ،
ولا يعبر عن اعتراض من أي نوع ..

.....

رأينا كيف اجتهد كل واحد من المفسرين لكشف الحقيقة .. فكشف الله لكل
واحد فيهم معانيها .. وإنما أوقع في الحيرة عبق القرآن .. وتقديم القصة
بأسلوب الحوار .. وهو أسلوب بالغ التأثير والنفاز ..

أن الله تعالى يحكي لنا القصة بأسلوب الحوار ، وليس من الضروري أن
تكون قد وقعت بتقس هذا الأسلوب ..

« **ألا ترى أن الله تعالى يقول في سورة [فصلت] :**

« **ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض : اتينا طوعاً
أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين** » [٢] ..

هل يتصور أحد من الناس أن الله عز وجل قد خاطب السماء والأرض ،
وردت عليه السماء والأرض ووقع بينهما هذا الحوار .. إنما يأمر الله تعالى
السماء والأرض فتنطيع السماء والأرض ..

وإنما صور الله ما حدث بأسلوب الحوار لتثبيتته في الذهن ، وتأكيد معناه
وأفضلحه .. واستخدام هذا الأسلوب المسرحي في قصة آدم يوحى بمعنى
عميق .. وذلك أن السعير يوشك أن يرتفع عن خلق النوع الإنساني ..

نحن نتصور أن الله تعالى حين قرر خلق آدم ، حدث ملائكته من باب
اعلامهم كي يسجدوا له ، لا من باب أخذ رأيهم أو استشارتهم .. تعالى الله
عن ذلك علواً كبيراً .. حدثهم الله تعالى أنه سيجعل في الأرض خليفة ، وأن
هذا الخليفة ستكون له ثرية وأحسان ، وأن أحفاده وولده سيقسمون في
الأرض ، ويسكنون فيها الدماء .. وقامت الحيرة في نفوس الملائكة الأظهر
.. بهم يسبحون بحمد الله ، ويقدمون له .. والخليفة المختار لن يكون منهم ،
فما هو السر في ذلك ، وما هي حكمة الله تبارك وتعالى في الأمر ، لم تستر
هيرة الملائكة ، وتشوقهم إلى شرف الخلافة في الأرض ، ودهشهم من تشريف
آدم بها ، لم يستر هذا الحوار الداخلي غير جزء من ملايين الأجزاء من الثانية
.. لم ردهم إلى اليقين والتسليم قوله تعالى :

(١) من الآية ٢٠ سورة البقرة بحقة ،

(٢) الآية ١١ بحقة ..

« أتى أعلم ما لا تعلمون » (١) ..

ويجده الكثيرة التي عليه المصط ، وعلمهم المدرس ، عند السطو النبي .
 مستند وقوع الحوار بين الله تعالى وملائكة سرهما ، واكترا ملائكة ..
 ومعتقد أن الحوار قد في نفوس الملائكة يصل شرف الصلابة في الأرض ..
 ثم أعلمهم الله تعالى أن طبعهم ليست مهيأة لذلك ولا يسره له .. أن
 السبب بعد الله وتطهيه ، هو كثرة شيء في الوجود ، ولكن الصلابة في
 الأرض لا تقوم بذلك وحده ، إنما هي تحتاج إلى طبعه أخرى . طبعه صحت
 من المعرفة وتجاوز عليها الأخطاء ..

هذه الحيرة ، لو هذه الذخيرة ، لو هذا الاستشراق .. هذا الحوار الداخلي
 الذي لم في نفوس الملائكة بعد معرفة حرق آدم .. هذا كله يحور على
 الملائكة ، ولا يتفهم من أقدارهم شيئا ، لأنهم ، رغم فهمهم من الله ، ومفهوم
 له ، وكيفية لهم ، لا يربطون على كونهم عبدا لله ، لا يتسرعون معه في عبادة
 ولا يبرمون حكمته الطيبة ، وعينه المسورة ، وتغيره في الصفاء ، ولا يبرمون
 حكمته الطيبة وأسباب تطبيقها في الأشياء ..

والسوء تفهم الملائكة فيما بعد .. أن آدم نوع جديد من المخلوقات ، فهو
 يختلف عنهم في أن عمله أن يكون نسيبهم الله وتطهيه ، ولي يكون مثل
 ميولت الأرض وعلمتها ، يتغير وجوده على شكل المياه والانساء فيها ..
 إنما سيكون آدم نوعا جديدا من المخلوقات .. ويستحق بوجوده حكمة
 عليها لا يدرها أحد غير الله ..

ونك حكمة المعرفة ..

قال الله تعالى :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٢) ..

قراها ابن عباس : « إلا ليعرفون » ..

يكن المعرفة هدف النوع الإنساني وأما وجوده .. وسوف يرى لنا الله
 بأسلوب الحوار كيف كان ذلك ..

ولعل لعل اقتراب من تفسير هذه الآيات كلمة التبيين جيد هذه ..

« أن الحوار في الآيات ، كن من ثنوي الله تعالى مع ملائكة .. صورة
 لنا في هذه القصة بالقول والمراحمه والسؤال والجواب ، ونحن لا نعرف
 حقيقة تلك القول ، ولكننا نعلم أنه ليس كما يكون ما نحن البشر .. » ..

أفرك الملائكة أن الله سبحانه في الأرض طبعه ..

وتسفر الله سبحانه وتعالى أثره اليوم تفصيلا ، لعل أنه سيطلق بشرا
 من طين ، هذا سواء وضع به من وجهه ليعبد على الملائكة أن يسجد له ،

(١) بن الآية ٢٠ من سورة البقرة

(٢) الآية ٥٦ من سورة البقرة

والمفهوم أن هذا سجود تكريم لا سجود عبادة ، لأن سجود العبادة لا يكون إلا لله وحده ..

قال تعالى في سورة [ص] :

« إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ • فَاذْأَسْوِيْنَهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِيْ فَقَمُّوْا لَهُ سَاجِدِيْنَ • فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ • إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِيْنَ » (١) .

.....

جميع الله سبحانه وتعالى قبضة من تراب الأرض ، فهما الأبيض والأسود والأصفر والأحمر ، ولهذا بجيء الناس ألوانا مختلفة .. ومزج الله تعالى التراب بالماء فصار صلصالا من هما يسمون .. نعل الطين واسمعت له رائحة .. وكان إبليس يمر عليه فيجب أى شيء يصير هذا الطين ؟ .. من هذا الصلصال خلق الله تعالى آدم ..

سواء بيديه سبحانه .. ونفخ فيه من روحه سبحانه .. فتحرك حسد آدم ودبت فيه الحياة ..

فتبع آدم عينيه فرأى الملائكة كلهم مسسجلين له .. ما عسدا واحدا يتف هناك ..

لم يكن آدم قد عرف أى نوع من المخلوقات هذا الذى لم يسجد له .. لم يكن يعرف اسمه .. كان إبليس يقف مع الملائكة ، ولكنه لم يكن منهم .. كان من الجن .. والفروض ، بوصفه أقل من الملائكة ، أن تطبق عليه الأوامر التى تصدر لهم ..

.....

حكى الله تعالى قصة رفض إبليس السجود لآدم فى أكثر من سورة ..

قال تعالى فى سورة [ص] :

« قَالَ : يَا إِبْلِيسَ ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيْـدِيْ ، اسْتَكْبَرْتَ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْعَاقِلِيْنَ • قَالَ قَدْ خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِيْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ • قَالَ : فَأَخْرِجْ مِنْهَا عَائِكَ وَجِيْمَ • وَإِنِّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ • قَالَ : رَبِّ انظُرْنِيْ إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ • قَالَ : فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِيْنَ • إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ • قَالَ : فَبِمَنْزِلِكَ الْغَافِلِيْنَ أَجْمَعِيْنَ • إِلَّا عَائِكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِيْنَ » (٢) ..

كان آدم يتابع ما يحدث حوله ، ويهش بالحجب والرهبة والذهشة ..

حب عبيق الله الذى خلقه وكرمه وأسجد له ملائكته ..

وربهية من غضب الخالق حين طرد إبليس من رحمته ..

(١) الآيات ٧١ + ٧٢ + ٧٣ + ٧٤ مكية ..

(٢) الآيات من ٢٥ إلى ٨٣ مكية .

ودعته من هذا المخلوق الذي بكرهه سحر أن يعرفه .. وبصور أنه
أفضل منه سحر أن ساج لأحدهما غرضه لأحسار نفسه وأثبت الفطنة .

ثم ما أصعب المنس وحججه . أنه يصور أن النار أفضل من الطين . فمن
أين هذه هذا العلم . والمفروض أن يكون هذا العلم عند الله . فهو الذي خلق
النار والطين ويعرف لهما أفضل ..

أفرك آدم من الحوار أن طين مخلوق نصف بالثوم كما سميت بالحمود ،
أنه يسأل الله تعالى أن يفضله إلى يوم السبت ، لا يريد أنهنس أن يهوب ، سهر
أن الله تعالى يفضله أنه سيقتل إلى يوم الوقت المعلوم .. سبقني إلى أن يحسن
لجمله فهووت ..

أفرك آدم أن الله قد فعل ليس ليس ، وطرده من رحمة سسسه ، أفرك أن
الطين أن ينس له هذا الصنيع ..

انتهى الأمر وعرف آدم عدوه الأبدى ..

وأعجب آدم من الدهشة جراء عدوه وحلم الله مر وجل ..

ربما قل لي قائل : لماذا استعجب أن يكون قد جرى حوار بين الله مر وجل
وملائكته .. ولعب أني تدبر الأله . ولم يسجد وفرع حوار بين الله
تعالى وابليس ..

وأقول ردا على ذلك أن القتل يهدي لهذه السبعة ..

أن أمكن قدام حوار بين الله تعالى وملائكته أمر مستبعد . لأن الملائكة
مزهون من الخطأ والنسور والرفسفة الشريفة التي تمتع من المعرفة ..
أهم بحكم خلقهم . حد طتمون بكرمون .

أما ابليس فهو صاحب للتكليف ، وطبيعته ، بوصفه من النس ، غرسه من
طبيعة جنس آدم ..

سئني أن الحسن بين أن يأمروا . وبين أن يكفروا .. أن وهدانهم الذين
بين أن يتولهم إلى تصور خاطيء بسعد كبرياء كافيه .. ومن هذا أوقع
وبحكم هذا الكوب ، بين أن يتشأ حوار .. والحوار بين الحرية .. ولقد
كتب طبيعة الشر والنس مكرهه بشكل يسمح لهم بقهره . أما طبيعة الملائكة
فمن لون آخر . لا تتحل الحرية في سبعة ..

ولقد شاهد آدم ميلها — بعد خلقه مباشرة — قدر الحرية التي يعطيه الله
لخلوقه المكلفه .. وكان وقوع هذا الدرس أملا آدم بهوي بحري عبقا ،
أن السبل يفتح على خلق النوع الأسفل حوار بدور بين الله — جل جلاله —
ومعد كثير ، ورعه ذلك بعينه الله الحرية .. وهو في نهاية الأمر عند ..
وكتائر ..

أن الطين رفض أن يسجد لآدم ..

كان الله تعالى يعلم أنه سيرفض السجود لآدم . سوف يحصاه .. وكان
الله يستطيع أن يفسه سسفا ، أو يحمله إلى حلة من الراب ، أو يحسن
سعره وجلاله كنه الرقص في نس ليس .. فهو أن الله تعالى يحل لخلوقه

المكلفة قدرا من الحرية لا يعطيه غيره أحد .. انه يعطيهم حرية مطلقة تصل الى حق رفض أولامره سبحانه .. انه يمنحهم حرية الانكسار وحرية العصيان ، وحرية الاعتراض عليه .. سبحانه وتعالى ..

لا ينقص من ملكه أن يكثر به الكافرون ، ولا يزيد في ملكه أن يؤمن به المؤمنون ، إنما ينقص ذلك من ملك الكافرين ، أو يزيد في ملك المؤمنين .. لها هو .. فتعالى عن ذلك ..

فهم آدم أن الحرية تسبج أصبل في الوجود الذي خلقه الله .. وأن الله يمنح الحرية لعباده المكلفين .. ويرتب على ذلك جزاء المائل ..

بعد درس الحرية ..

تعلم آدم من الله تعالى الدرس الثاني .. وهو العلم ..

كان آدم قد أدرك أن إبليس هو رمز الشر في الوجود ، كما أدرك أن الملائكة هم رمز الخير ، لها هو نفسه فلم يكن يعرف نفسه حتى هذه اللحظة .. ثم نطقه الله سبحانه وتعالى على حقيقته ، وحكمة خلقه ، وسر تكريمه ..

قال تعالى :

« وعلم آدم الاسماء كلها » [١] ..

أعطاه الله تعالى سر القدرة على اختصار الأشياء في رموز ومسميات ..

عليه أن يسمي الأشياء : هذا عصفور ، وهذا نجم ، وهذه شجرة ، وهذه سمكة ، وهذه طائفة ، وهذا هدهد ، وهذه .. الى آخر الاسماء ..

تعلم آدم الاسماء كلها ..

الاسماء هنا هي العلم .. هي المعرفة ..

هي القدرة على الرمز للأشياء بأسماء ..

فرفض الله في نفس آدم معرفة لا نهائية لها ، وحبا للمعرفة لا نهائية له ، ورغبة يورثها لبياءه في التعلم .. وهذه هي الخلية من خلق آدم ، وهذا هو السر في تكريمه ..

بعد أن تعلم آدم أسماء الأشياء وخواصها ومنافعها .. بعد أن عرف عليها .. عرض الله هذه الأشياء على الملائكة فقال :

« أتنبؤوني بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين » [٢] ..

[يقصد صادقين في رغبتكم في الخلافة] ..

ونظر الملائكة غيبا عرض الله عليهم ، فلم يعرفوا أسماءه .. واحترموا الله بمعجزهم عن تسمية الأشياء أو استخدام الرمز في التعبير عنها ..

(١) من الآية ٢١ من سورة البقرة جنية ..

(٢) من الآية ٢١ من سورة البقرة جنية ..

هل الملائكة أعتراها بمبجهم :

«سمعتك... أي سرحت وفدستك... لا علم لنا إلا ما علينا
لقد ليت العليم الحكم»^{١٠} ربوا العلم كله إلى الله...»

قال الله تعالى لا اله الا الله

﴿يَا آدَمُ اقم في الجنة ولبسها﴾ [٦] . .

وَحَنَنِهِمْ أَوْ مِنْ كَلِّ الذُّبَابِ وَالَّذِي أَرْتَابُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَكُنِ لَهُمْ لَهَا شَافِعَةٌ .

قال تعالى في سورة البقرة :

[illegible]

أراد الله تعالى أن يقول للبلاكة انه علم ما أخبوه من الدعشة حين أخبرهم
 انه سيعطيهم . كذا علم ما كتبوا من الصبر ، كما علم ما أخفوا أنفسهم من
 المحسنة والصور ..

أدركت الملائكة أن آدم هو المخلوق الذي يعرف .. وهذا أثرت في نفسه ..
قدرته على التعلم والمعرفة ..

ومرف الخلائك لاداء امره انه بالعبود له . كما يصيرون السر فرقة
 يصبح عليه في الارض ، مصرف فيها ويحكم فيها .. بالقلم والحربة ..
 بحربه بالقلم .. وعدا ما يطلق عليه اسم الابهل لو الاسلام ..

وَمِنْ مَسْأَلَتِ الْمَسْأَلَةِ الْأَرْضِ وَتَحْرِيرِهَا وَالتَّحْكُمُ لَهَا وَالشَّهَادَةُ لَهَا ..
وَيُحْلِلُ فِي هَذَا الْمَقْلَقِ كُلَّ تَطَوُّعٍ مُتَّخِذٍ عَلَى الْأَرْضِ ..

ومن الحروف ان كمال الاسرار لا ينطق الا بحسبته ما يستخطبه من
محرمه الحلق وعلوه الارض .. فلن نصح في شوق على حساب الشوق الآخر
سار كل طير حذر برف صائح واحد .. تبعا جملته الكلي مجهول يمتعه من
التطيق ..

[illegible]

كل آدم يعرف اسماء كل شيء ، وكل شخص قد أصبح مع الملائكة ، لكن الملائكة كانوا ينصرون به بصلوة الله تعالى ، ولهذا كل آدم يحس الوحدة

(٢٤٦) من الآية ٢٢ من سورة البقرة مطوية .

(٢) من الآية ٢٢ من سورة الفرقان حصية .

(١٠) الآيات ٣١ و ٣٢ و ٣٣ من سورة البقرة مكية .

.. ونام آدم يوما فلما استيقظ وجد عند رأسه امرأة تحلق في وجهه بعينين جميلتين ورحيمتين .. وربما دار بينهما هذا الحوار :

قال آدم : لم تكني هنا قبل أن أنام .

قالت : نعم .

قال : جئت أثناء نومي إذن ؟

قالت : نعم .

قال : من أين جئت ... ؟

قالت : جئت من نفسك .. خلقتني الله منك وأنت نائم .. ألا تريد أن تستعبدني إليك وأنت مستعبط ؟

قال آدم : لماذا خلقتك الله ؟

قالت : هوأ : لتسكن الي .

قال آدم : هذا الله .. كنت أحس الوحدة ..

ملأته الملائكة من اسمها .. قال أن اسمها هوأ .. سالوه : لماذا سميتها هوأ يا آدم ؟

قال آدم : لأنها خلقت مني .. وأنا إنسان هي ..

كان آدم مخلوقا طبيعته قائمة ومركبة على عشيق المعرفة ، وكان ينقل معرفته لحواء ، فيحدثها عما يعرفه ولا تعرفه هي .. وأحبته هوأ ..

ولمصر الله تعالى أمره آدم بسكنى الجنة .

قال تعالى [في سورة البقرة] :

« وقتنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث

شئتما ، ولا تقريا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [١] ..

لا نعرف مكان هذه الجنة ..

سكت القرآن من مكانها وأخطف المسمرون لها على خمسة وجوه . قال بعضهم : أنها جنة المأوى ، وأن مكانها السماء . ونفى بعضهم ذلك لأنها لو كانت جنة المأوى لحرم دخولها على إبليس ولما جاز فيها وتوعد مصيان ، وقال آخرون : أنها جنة أخرى خلقتها الله لآدم وهوأ . وقال غيرهم : أنها جنة من جنات الأرض تقع في مكان مرتفع .. وذهب فريق إلى التسليم في أمرها .. والتوقف . ونحن نختار هذا الرأي .. أن العبرة التي نستخلصها من مكانها لا تساوي شيئا بالقياس إلى العبرة التي نستخلص مما حدث فيها ..

.....

دخل آدم وهوأ الجنة . وهناك عاشا حلايم الجنس البشري كله .

(١) الآية ٢٥ من سورة البقرة مدنية .

وهذا أيضا مما ينفي شجرة ..

ثبت حياء آدم وحواء في الجنة هي الرأه اكله واسيره التي لا بعد .
ومررت آدم بحس السعد العاطفه الصيفه من صر مع حواء في الجنة ..
ثم بعد بحس النوحه .. كان يحدث مع حواء كثيرا ، ويستعمل حواء
الذلال ويستعمل الاتجار ، ويوسل في الوعود الشره . قبل ان يعرف ان حواء
بحس الآخر واللام .. وثان انه قد سمح لها ان تتركها من كل شيء
وان تستعمل كل شيء ، فاما شجرة واحدة لها شجرة الآله أو شجرة
المسرفة .

قال انه لها من دعوى الجنة : « ولا تتركها هذه الشجرة ، صرنا
من الظالمين » [1]

ومررت آدم وحواء أيضا بموعظ من الأكل من هذه الشجرة .. مر
ان آدم اسأل ، والأسس في ، وثمة سلب ، وعمره صيف .. واستعمل
المسرة اسفله آدم وجميع من حقه من صفره . واستعمل بطون آدم اسقى
وراح سر في طيبه يوم بعد يوم . راح يوسوس انه يوما
بعد يوم .

— هل أفلك على شجرة الحد ومثك لا يلى ؟

ثم ان آدم منه وسر حبه . ماذا يحدث لو أكل من الشجرة ..
ربما سول شجرة الحد حق ، وكان علم آدم ان بعد في الرأه اسفله
التي يعيش فيها في الجنة .

ومررت الإيليم وآدم وحواء مشغولان بالتفكير في هذه الشجرة . ثم
أمر يوما ان يتركها . سببا ان الله طردها من الأتربة منها . سببا
ان إبليس طردها القديم .

وبعد آدم ذه إلى الشجرة ولطف بها إحدى السار وندمها لحواء ..
وأكل لآسنان من الثمرة المحرمة .

قال تعالى في سورة ص : « وعصى آدم ربه فغوى » [2] .

من صحبها ما ذكره صنف اليهود من أغواء حواء لآدم وتعبيلها
مبوءه الأسر من الشجرة .. ان نص القرآن لا يذكر حواء .. أنها يذكر
آدم — ممنون ما حدث — عليه الصلاة والسلام . وهذا خطأ الخطأ
وأخطأ آدم بسبب الشراء ، أصغر أخطأ الأسس ، وأراد الآخر ان يحس
نفسه نذا في بالخلود .

ثم انك آدم سبى من الأكل من آدم في صفره سبى .. أحسن الآله
والآخر والآخر . صر العز حوله وسكت المومض الحبه التي كانت
سبب من داهية . أسف له عز . وأن روحه صرته .. أكيد انه
رحل رثا امراء .. وذا هو وروحه بضمير لوراني الشرح لكن سطر

(1) الآية 25 من سورة ص . صر . صر .
(2) الآية 121 من سورة ص .

بها كل واحد منهما جسده العارى .. وأصدر الله تبارك وتعالى أمره بالهبوط
من الجنة ..

وهبط آدم وحواء الى الأرض .. خرجا من الجنة . كان آدم حزينا
وكثرت حواء لا تكف عن الكاء .. وكانت نوبتهما صادقة فتقبل الله منهما
التوبة .. وأخبرهما الله ان الأرض هي مكنهما الاسلى .. يعيشان فيها ،
ويسكنان مليها ، ويخرجان منها يوم البعث ..

قال : « لا فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » [١] .

حكى الله تعالى قصة الدرس الثالث الذي تعلمه آدم خلال وجوده في
الجنة وبعد خروجه منها وهبوطه الى الأرض .

قال تعالى في سورة طه : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي
وثم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا
ابليس أبى . فقلنا : يا آدم ، ان هذا عدوك ولأزوجك ، فلا يخرجنكما
من الجنة فتشقى . ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى . ولك لا نظما
فيها ولا تضقى . فوسوس اليه الشيطان قال : يا آدم ، هل انك
على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ فاكلا منها ، تبدا لهما سوءا نهما ،
وطفقا يخلصان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم
اجتبا ربه فتأب عليه وهدى . قال : اهبطا منها جنيما ، بعضكم
لبعض عدو ، فلما باتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل
ولا يشقى » [٢] .

يتصور بعض الناس ان خطيئة آدم معصيته هي التي أخرجتنا من
الجنة .. ولولا هذه الخطيئة لكنا اليوم هناك .

وهذا تصور سلاج لان الله تعالى حين شاء ان يخلق آدم قال للملائكة
انى جاعل في الأرض خليفة ولم يقل لهم انى جاعل في الجنة خليفة ..
لم يكن هبوط آدم الى الأرض هبوط اهانة وانما كان هبوط كرامة كما
يقول الصوفيون . كان الله تعالى يعلم ان آدم وحواء سيأكلان من الشجرة ..
ويهبطان الى الأرض .. كان الله تعالى يعلم ان الشيطان سيعتصب منهما
البراءة ..

وكانت هذه المعرفة شيئا لازما لمحبتهما على الأرض ..

وكانت التجربة كلها ركنا من اركان الخلافة في الأرض .. لمعلم آدم وحواء
ويعلم هنيئها من بعدهما ان الشيطان طرد الابوين من الجنة ، وان الطريق
الى الجنة يمر بطاعة الله وعداء الشيطان .

هل يقال لنا ان الانسان مسير مجبور .. وان آدم كان مجبورا سلفا
على ان يخطئ ويخرج من الجنة ويهبط الى الأرض ؟

(١) الآية ٢٥ من سورة الاعراف مكية .
(٢) الآيات من ٢١٥ الى ١٢٢ مكية .

حطبة لى هذا الصور لا يطل سداحة من التصور الاول .. كللى آدم
هوا تلم الحرية . ولهذا تحيل قيمة عليه .

مضى ولكل من الكجرة فلخرجه الله من الجنة ..

معصيته لا تقضى حرته .. بل ثنها لتسند وجودها الاصلى من حرته .

كل ملى الامر ان الله كل يعلم سلكا ما سجدت ، يعلم الله الاتباء
نيل جنوبها ، والمعلم مما مور بكفى . وليس فوه بغير .. ملى لى الله
يعلم ما سجدت ، وبكاه لا بغيره فلما لو بغيره لهما على الحدث .. لى
الله يعطى الحرية لصاده ومطلوقاته .

ويرب على ملك حكمته العليا لى تسير الارض وقلة السلامه فيها ..

.....

لهم آدم درسه الثالث .

لهم لى انهم مفره .. فهم بشكل ملى .. لى انهم هو السب و
فقدته للنهم وفى كبقته .

لهم لى الله يعطى على المسبة . ول الطريق لى الجنة لى سعادة الله .

لهم لى الله بقل النومة ويغفو ويهم ويحبنى .

عليهما الله تعالى ان يستغفرا قتلين :

« قُلَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

الظَّالِمِينَ » [١]

وقبل الله توبته وعفا عنه وأرسله الى الارض .

لول رسول لاسله ..

مدلت حياة آدم لى الارض ..

خرج من الجنة ملاحرا الى الارض .. واستن ملك لاسله واحفاده من
الانباء سنة الخروج .

لا يكف النى هذا دعونه الى ربه حتى يطره فوه الى العروج ..
والمجرة ..

صك فى الجنة جرح آدم قبل نومه ، وصا فى الارض بجرح الانباء بعد
نبوتهم عاده ..

عرف آدم انه ودع السلامه على جرح من الجنة ..

هنا لى الارض كل ملى لى بواحه شفاء وصراها لا يسمي لدهيا الا لبداء
الاجر وكان عليه لى بشفى لاكل ، وكل ملى لى يصى نفسه بالملابس
والأسلحة ، ويصى زوجه رطفاله من الحيوانات والوحوش التى تعشى

(١) من الآية ٢٢ من سورة الاعراف بكة .

في الأرض .. وكان عليه نيل هذا كله ويعدده ان يستمر في صراعه مع روح الشر . ان الشيطان هو السبب في خروجه من الجنة .. وهو في الأرض يوسوس له ولأولاده ليدخلهم الجحيم . والمعرفة بين الخير والشر لا تتوقف ، ومن يتبع هدي الله فلا خوف عليه ولا يحزن .. ومن يعص الله ، ويتبع المخلوق التلوي إبليس فهو معه في النار .

لهم آدم هذا كله مع الشقاء الذي بدأت به حياته على الأرض . الشيء الوحيد الذي كان يحفف حربه .. انه تد جاء سلطانا عليها .. وعليه أن يخضعها ، ويستعمرها ، ويوزعها وينهبها ويعمرها ، وينجب فيها نسلا يكبرون ويتغيرون شكل الحياة ويجعلونه أفضل ..

كانت حواء تلد في البطن الواحد ابنا وبنتا . وفي البطن التالي ابنا وبنتا . فيحل رواج ابن البطن الأول من بنت البطن الثاني ..

وكبر أبناء آدم وتزوجوا ، وملأوا الأرض نسلًا .. ودعاهم آدم الى الله تعالى ..

وقدر لآدم ان يشهد اول احتياز من لحد ابنائه لروح الشر إبليس .. ولتمت اول جريمة قتل على الأرض ..

قتل أحد أبناء آدم شقيقه .

قتل الشرير احاء الطبيب .

قال تعالى في سورة المائدة : « وانزل عليهم نارا من السماء بالحق اذ هم اقربا قربانا فتقبل من احدهما ولم يقبل من الآخر » [١] .

يقال ان القاتل كان يريد زوجة شقيقه لنفسه .. وأبرهها آدم ان يقدم قربانا ، فقدم كل واحد منهما قربانا ، فتقبل الله من احدهما ولم يقبل من الآخر .

« قال : لاقتلك »

قال : اتما يقتل الله من المتقين . كان بسطت الى يدك لتقتل ما انا بباسط يدي اليك لاقتلك . انى اخاف الله رب العالمين » [٢] .

لاحظ كيف ينقل الينا الله تعالى كلمت القاتل الشهيد ، ويتجاهل تماما كلمت القاتل . عاد القاتل يرفع يده مهددا ..

قال القاتل في هدوء : « انى اريد ان تبوء بالى وانك تفكر من اصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » [٣] .

انتهى الحوار بينهما وانصرف الشرير وترك الطبيب مؤثقا .

(١) من الآية ٢٧ مدية .

(٢) من الآية ٢٧ ، ٢٨ من سورة المائدة مدية .

بعد آدم .. كان الراح الطيب بنا وسط غمة مشمرة .. بنت من
حس بعله حيار بغير من السور لاده وسرب الارض فيه ونسب منه
انحصر ملقى على الارض .. حيله الشرير ونوحه نحو شقيقه اسثم ، ورفع
يده وهوى بها بعنف وسرعة ..

اربح الوهسه الطيب حين انقى منه الدم واستبقه ، بكل بصله وهو
يقم ويربسه على شقيقه اسليه فعضب فمؤذ سخته .. ومع القتل سهل
على شقيقه حين مكث حركته .. لعرك القتل ان شقيقه يرقى الصده .

جلس القتل آدم القبيح متكئا بصر الوجه ..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تمل من ظلم الا كل على
ان آدم الاول كل من فيها لانه كان اول من من القتل ..

جلس القتل آدم شقيقه المبرح في دمه . بدأ يقول لآبيه آدم لو
سأل عنه .

لقد شاهدت آدم بخرجه معا . منصف بمرود وعده . ولو لم
آدم آبيه انه قتل شقيقه .. حين بجلى جفته .. لم يذهب بها .

كان هذا الراح القتل اول تسلي صوت على الارض .. ولم يكن لدى
النبى شيئا قد عرف بعد . وحمل الراح جثة شقيقه وراح يمشى به

مرق الهواء صوت طثر بصرح . لمرعته المرحه وملاث نفسه بشوم
مجهول .. التفت القتل لمحمد مرأيا حيا بصرح فوق حنة لمراب بيت .
وصم المراب القبيح المراب الملب على الارض وسور أحصه الى حواره
وبدا يحفر الارض بنقله ورجليه .

حين اذا صبح لآبيه لعدة وقته . رغمه سطره ووضع برلق في
المر تم صرح مرحين قصيرين وعاد بهبل عليه التراب .. بعدها طثر
في الجو وهو يصرخ .

وقف القتل وانكأ على جثة شقيقه .. صرح

« قال يا ولدا .. امحزت ان تكون مثل هذا المراب طواري سواة
لدى [١] .

تخلع حزنه على آبيه كالنار بالعرفه التدم .

اكتشف معاه . اكتشف له وهو الاسوأ والاصف ، قد عمل الاميل
والنبوى . طمس لآيه آدم واحدا .. وكسب الشيطان واحدا من لآيه
آدم ..

واصر جسد القتل سكاه صيف لم تشيب لظفره في الارض وراح
يحفر قبر شقيقه .

.....

قال آدم حين عرف النصبة « هذا من عمل الشيطان انه عدو
بصير جون [٢] .

.....
.....
.....

وهزن حزنا شديدا على خسارته في ولديه .

بات أحدهما ، وكسب الشيطان الثاني .

على آدم على ابنه ، وعاد الى حياته على الأرض .

انصافا يعمل ويشقى ليصنع لهزة .

ونبأ بعض أبناء وأحفاده ويحفظهم من الله ويدعوهم اليه ، ويحكي لهم
عن إبليس ويحذرهم منه . ويروي لهم قصته هو نفسه معه ، ويتمن لهم
قصته مع ابنه الذي دفعه لقتل شقيقه .

وكبر آدم .. ومرت سنوات وسنوات .. وانتشر أبناءه في الأرض .

وحاء على الأرض ليل .

هبت الرياح بعنف .

وارتمشت أوراق شجرة عجوز غرسها آدم .

وبالت أفضائها على بحيرة الى جوارها ، حتى لست الشار مياه البحيرة
.. وحين امتدلت الشجرة بعد مرور الرياح ، راحت المياه تتساقط من بين
أرومها ويدت الشجرة من النكد كما لو كان شرها محلولا وهي تنكس
على الماء وتبكي .

كانت الشجرة حزينة ، وكادت أغصانها ترتعش .. وفي السماء كانت
النجوم ترتعش .

وتسللت أشعة القمر الى حجرة آدم . سطعت الأشعة على وجه آدم .
كان وجه آدم أكثر شحوبا ونبلا من وجه القمر .. ومرق القمر أن آدم
يمسوت ..

الحجرة بسيطة .. حجرة آدم .

على مرائي من أخصان الشجر والورود يرقد آدم بلحيته البيضاء
ووجهه الطيب .. أبناء جديما يقفون حوله في انتظار وصيته .. وتحدث
آدم مائهم لبناءه أن هناك سفينة واحدة لنجاة الإنسان ، وسلاحا واحدا
لانتصاره ، هذه السفينة هي هدى الله ، وهذا السلاح هو كلمت الله .

طبان آدم لبناه بل الله لن يترك الإنسان وحده على الأرض .. أنا
سيرسل أنبياءه لهدايته واتقاه .. وسيختلف الأنبياء في الأسماء والصفات
والعجرات .. ولكم سيجمعون على شيء واحد : الدعوة الى عبادة
الله وحده .

وتلك كانت وصية آدم لأبنائه .

انتهى آدم من وصيته ، وانفض عياله ، دخل الملائكة حجرته واهبطوا
به وتمرف منهم على ملك الموت .. وابشمت نبيه للسلام الصبي .. وهبت
على روحه رائحة أزهار الجنة .

قصة نوح (عليه الصلاة والسلام)

مرت أحوال على موت آدم ...

جاءت الرعود حول سره ، وحرب الأنهار والصفور ، ولصيف أحوال
إلى صر النجوم ، وبحرب في الأرض أشبه وثب ،

وطفا لفقون علم رحف أسس على وسبه آدم .. عطف الخطيئة
الظبية إلى الصفور مره ثلثه .. صبه النسيم .. و عطف بشكل
يختلف هذه المرة ..

فل أن يولد قوم نوح على هيئة رجل صلبين من أحقاد قوم نوء ،
ماتوا ربحا به بقوا ، عطف لسياء الرجل الصبية هي وه [...] سراع
.. [يحوث] .. [يحوث] .. [نسر] ،

بعد موتهم صنع الناس لهم سائل في محل الأكرى واستر به .. ومضى
الرف .. ولب الناس نحو السائل .. وجاء لؤهم .. ولب الآباء وجاء
لباء الآباء .. وصحت الأسطر الحرافة ، والميل ألداني في عقل الآس ،
قضا وحكمت حول السائل يرو لها قوم صبه .. واستغل الصب
فرصه وهي سر إلى جواره ، وأوه الناس أن هذه نابت آله نبتك الدمج
وتقرر على الضرر .. وهذا الناس يحدون هذه السائل .

لأعرف من يحفر يولون بها ، كيف كل نبتك ألباء هي نبت صبه
الأصل في الأرض .. غير أنها تعرف قلوبا قد لا يفسر لها ، صبه
يبدأ الناس اتحدارهم نحو الشرك ،

في اللحظة التي ترك الناس فيها صبه ، إذ إلى صله الأسم ..
نظير روح الصل في الأرض ، ويحتل أطمع حشره كبد حنك ، ويبرم
الاسم من الداخل ، ويبنى المثل التبري ، وسه مثل أن يرب صم
الصاين ومل المعلومين ، كما يرب عطر الفطراء وهي الأعب .. وصول
الوجود الإنساني كله إلى جميع لا يفتل ..

ينطق هذا القلوب دأبا صفا بعد الناس سر الله .. مسوا لكن
المصود صبا من العجاة ، لم عطا من الداب ، أم عاكبا من الناس ،
لم طبا من الأنطه ، لم مدعا من اداعب ، لم ضر ولي من الأبناء .

ذلك أن الصل الوحيد المساواة بين الشر بين في عودهم جميعا
ه ، ونحن الله هو خلقهم والمشرع لهم .. فذا صاع هذا الصل ، وأوهي

أحد من الناس ، أو زعم أحد الأنظمة لنفسه حق الألوهية ، فقد ضاع الناس
وساهمت هريانتهم تملأ .

وليست عبادة غير الله مأساة تتمثل في ضياع الحرية وحدها ، وإنما
يبتد أثرها الخطير إلى عقل الإنسان قبله وينكس أعلامه ويهدمه .

ذلك أن الله تعالى خلق الإنسان ليعرف ، وجعل عقله جوهره هدفها العلم
.. وأخطر علم هو العلم بأن الله وحده هو الخالق وما سواه عبث .

هذه نقطة بدء لابد منها لتحقيق الخلافة بنجاح ..

وعندما يهدر العقل البشري إمكانياته ، وينصرف لغير الله ، لا يعود
هناك خطأ يتوقف عنده العقل البشري ، أو يراجع نفسه فيه .. وقد يحدث
أن يتقدم الإنسان ماديا بسبب أخذه بأسباب التقدم رغم عدم إيمانه ، ولكن
هذا التقدم المادي الذي يخلو من معرفة الله ، يكون عذابا أعظم من أي عذاب ،
لأنه ينتهي بتعطيل الإنسان لنفسه .. وعندما يعبد الناس غير الله تعالى ،
يزداد يؤس الحياة وفقر الناس .. هناك علاقة وثيقة بين دل الناس وفقرهم
وعدم إيمانهم بالله وعدم تقواهم .

يقول الله تعالى في سورة الأعراف :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفلطنا عليهم بركات من السماء
والأرض » [١]

وهكذا يؤدي الكفر بالله أو الشرك به إلى ذهاب الحرية ، وتعطيل
العقل ، وزيادة الفقر ، وخلو الحياة من هدف نبيل .. وفي هذا الجو أظهر
الله تعالى نوحا وبمته برسالته إلى قومه ،

كان نوح هو العقل الوحيد المطلق فوق دوليات الخراب الجامي المثلث
المثلث في عبادة غير الله .

اختار الله عبده نوحا وأرسله إلى قومه .

كان نوح بقبيل الفكر ثورة فكرية .. وكان بقبيل النبل والنداء
جسدا لهم ، وكان بقبيل الذكاء قمة شامخة .

بإيجاز .. كان نوح بقبيل العظيمة أعظم تمسك في عصره .. لم يكن
ملكاً في قومه ، ولا رئيساً عليهم ، ولا أغنى واحد فيهم ، نعلم الآن أن العظيمة
تختلف عن الملك والغنى والرئاسة .. بجمع هذا المثلث داخل الضلعة
— عادة — أعلية من النفوس الخسيسة . إنما توجد العظيمة في نقاء القلب ،
وطهارة الضمير ، وقبلة الإنكار التي يعطيها العقل ، وقدرة هذا العقل على
تعبير الحياة حوله .. وكان نوح هذا كله وأكثر

كان نوح هو الإنسان الذي يذكر جيدا عهد الله لآدم وأبنائه حين خلقهم في
عالم النور .. كان على لظفرة مؤمناً بالله تعالى .. قبل بعثته إلى الناس ،
وكل الأنبياء مؤمنون بالله تعالى قبل بعثتهم .

(١) من الآية ٩٦ مكة ..

قال هؤلاء الملائكة : أنت بشر يا نوح .

رغم أن نوحا لم يقل غير ذلك ، وأكد أنه مجرد بشر . . . والله يرسل إلى الأرض رسولا من البشر ، لأن الأرض يسكنها البشر ، ولو كنت لأرض تسكنها الملائكة لأرسل الله رسولا من الملائكة . .

استمرت الحرب بين الكافرين ونوح . .

في البداية ، تصور النظام الحاكم يومها أن دعوة نوح لا تليق أن تطلق وحدها ، فلما وجدوا الدعوة تجذب الفقراء والضعفاء وأهل الصناعات البسيطة بدأوا الهجوم على نوح من هذه الناحية .

هاجموا في انشاعه ، وقالوا له : لم يثبتك غير الفقراء والضعفاء والأراذل .

قال تعالى في سورة هود :

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه أني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله أني أخاف عليكم عذاب يوم اليم . فقال الملا الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشرا مثلفنا ، وما نراك أتبعك إلا الذين هم أولافنا بأذى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نلظنكم كاذبين » (١) .

هكذا اندلع الصراع بين نوح ورؤساء قومه .

ولجا الذين كفروا إلى المسلومة . . قالوا لنوح :

— أسبح يا نوح . . إذا أردت أن نؤمن لك فاطرد الذين آمنوا بك . أنهم ضعفاء ولفراء ، ونحن سادة القوم وأغنياءهم . . ويستحيل أن تضلوا دعوة واحدة مع هؤلاء .

واستمع « نوح » إلى كبار قومه وأدرك أنهم يماندون ، ورغم ذلك كان طليبا في رده . . أنهم قومه أنه لا يستطيع أن يطرد المؤمنين ، لأنهم أولا ليسوا ضيعوة ، إنما هم حيوة الله . . وليست الرحمة بيته الذي يحمل فيه من يشاء أو يطرد منه من يشاء ، إنما الرحمة بيت الله الذي يستقل فيه من يشاء .

قال تعالى في سورة هود :

« قال : يا قوم أرأيتم أن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كافرين . ويا قوم لا تسلكم عليه مالا أن لجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، أنهم ملاقوا ربهم ، ولكني أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرني من الله أن طردتهم ، أفلا تذكرون . ولا أقول لكم : عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : أني ملك ، ولا أقول للذين يزدري أعينكم : لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما في أنفسهم ، أني إذا لمن الظالمين » (٢) .

.. .. .

(١) الآيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ مكية .

(٢) الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ مكية .

لا نرى رأيهم هذا باطلاته .. انها ترى ان الامنان حاس لانماله ولكن
محتاج في محورها عنه الى ربه .. بهذه النظرة يستقيم معنى ميساطة
الانسان عن اماله .

كل ما في الامر ان الله يسر كل مخلق لما خلق له .. سواء اكل التيسير
الى الخير او الى الشر .. وهذا من تمام الحرية وكمالها .

يختار الانسان بحريته فيسير له الله تعالى طريق ما اختاره .

اختر ابليس طريق الفواية فيسير الله له طريق الفواية .

واختار كلار قوم نوح نفس الطريق فيسره الله لهم .

ويستمر المعركة . وتطول المناقشة بين الكافرين من قوم نوح وبينه حتى
اذا انهارت كل حجج الكافرين ولم يعد لديهم ما يقال ، بذلوا يخرجون عن
حدود الأدب ويشتمون نبي الله .

« قال الملا من قومه : انا قرأنا في ضلال مبين » [١]

ورد عليهم نوح بأدب الأنبياء العظيم :

« قال يا قوم : لبيس بي ضلالة ، ولقي رسول من رب العالمين .
أبلغكم رسالات ربي ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون » [٢]

ويستمر نوح في دعوة قومه الى الله .. ساعة بعد ساعة .. ويوما بعد
يوم .. وعابا بعد علم .. وحرث الأعوام ونوح يدعو قومه .. كان يدعوهم
لئلا تنهارا ، وسرا وجهرا ، يضرب لهم الأمثال . ويشرح لهم الآيات ويبين
لهم قدرة الله في الكائنات ، وكلما دعاهم الى الله قروا منه ، وكلما دعاهم
ليعترف الله لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستكروا عن سماع الحق .

حكى الله تعالى ما لقيه نوح في سورة نوح .

« قال : رب اني دعوت قومي غيلا ونهارا ، فلم يزدكم دعائي الا
فرازا . واني كلما دعوتهم لضفر لهم ، جعلوا أصابعهم في آذانهم
واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبرا . ثم اني دعوتهم
جهرا . ثم اني اعلمت لهم وأسررت لهم أسرا . فقلت استغفروا
ربكم انه كان فعارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال
وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » [٣]

ماذا كلى جواب قومه بعد هذا كله ؟

« قال نوح : رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله وولده الا
خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا : لا نؤمن الهكم ، ولا نؤمن وما
ولا سواها ، ولا يفتون ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا ، ولا تزد
الظالمين الا ضلالا » [٤]

(١) الآية ٦٠ من سورة الأعراف مكية .. (٢) الآية ٦٠ و ٦١ من سورة الأعراف مكية ..

(٣) الآية ٦٠ من سورة الأعراف مكية ..

(٤) الآية ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٤ من سورة نوح مكية ..

واسمير موج يدعو قومه الى الله لك سنة الا حسين عليا . قال تعالى
في سورة الصافات :

« ولقد ارسلنا نوحا الى قومه طمث بهم لك سنة الا حسين
عليا [١٨] » .

وكن بلا حظ ان عدد المؤمنين لا يزيد ، بينما يزيد عدد الكافرين . وهرن
موج مهر انه لم يفتد الايل . وظل يدعو قومه ويحذله . وظل قومه على
الكبرياء والكفر والتصح .

وهرن موج على قومه .. لكنه لم يمتح درجة اليأس .. ظل محتفظا
بالايل طوال ٩٥٠ سنة .. ويدعو الى اميل اليأس بل الطويل كانت طويلة .
ورما يكون هذا الصبر الطويل لنوح معجزة خاصة له .. وجاء يوم نوحى الله
اليه .. انه لن يؤمن من قومه الا من قد آمن .

نوحى الله اليه الا يهرن عليهم . سامتها دما موج على الكافرين بالملات .

قال : « رب لا تفر على الأرض من الكافرين ذبلا [١٩] » .

برد نوح دعوته بقوله :

« لك ان طرهم بطلوا صفتك ولا يفتوا الا عاجزا كذرا [٢٠] » .

قال تعالى في سورة هود :

« ولوحى الى نوح انه من يؤمن من قومه الا من قد آمن ، فلا تستس
بما كفوا بظلمون . واصنع الملك باميسا ووهبا ولا يخطي في
الذين ظلموا انهم مفرقون [٢١] » .

.....

اسم الامر واسم الله تعالى حكمة على الكافرين بالطويل ..

لصر الله تعالى مده نوحا انه سيمد هذه السنة « باميسا ووهبا »
الى اسم الله ونطليه . وعلى مرأى منه وطفا لتوحيته ومسامدة الملائكة ..

لصدر الله تعالى امرة الى نوح :

« ولا يخطي في الذين ظلموا .. انهم مفرقون » ..

يهرن الله الذين سبوا مينا كانت احبيهم لو قراهم للي . وبهي الله سبه
ان يخطيه أو يتوسط لهم .

وبدا موج يهرس الشعر ويررعه ليمسح به السخية .

انتظر سنوات ، ثم قطع ما زرعه ، وبدأ نجلته .

كانت سببة عطبه الطول والارتفاع والمنقة ، وقد احتلف المفسرون في

(١٨) من الآية ١٤ من سورة الصافات مكية ..

(١٩) من الآية ٢٦ من سورة نوح مكية .. (٢٠) الآية ٢٧ من سورة نوح مكية ..

(٢١) الايات ٣٦ ، ٣٧ مكية .. (٢٢) من الآية ٢٧ من سورة هود مكية .

حجمها ، وحيثها ، وعدد طبقاتها ، ومدة عملها ، والمكان الذي عملت فيه ،
ومقدار طولها ، وعرضها ، على أحوال متعارضة لم يصح منها شيء .

ونال الحجر الرازي في هذا كله : أعلم أن هذه المباحث لا تعجس ، لأنها
أمر لا حاجة إلى معرفتها البتة . ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلاً .

رحم الله القفر الرازي ..

أصلب الحق بكلمته ..

لا نعرف من حقيقة هذه السفينة إلا ما حدث الله به . لا نعرف مثلاً أين
عملت ، ولا كم كان طولها أو عرضها ، ولا نعرف بالقطع غير اسم المكان
الذي ذهبت إليه بعد رسوها .

إن الآثار المادية قد سكنت تماماً عنها ، ولا ريب أن اختساب السفينة
قد تحلت ، لأن الطوفان وقع من زمن سحيق .. وكل خبط فيها لا يفيد ولا
حاجة لمعرفته .

تجاوز الله تعالى هذه التفسيرات التي لا أهمية لها ، إلى مضمون القصة
ومفراها الهام ..

بدأ نوح يبني السفينة ..

ويبر عليه الكفار غبرونه منهم كما في صنع السفينة .. والجفاف سائد ..

وليس هناك أنهار قريبة أو بهار .. كيف ستجرى هذه السفينة إذن
يا نوح ؟ .. هل ستجرى على الأرض .. أين الماء الذي يمكن أن تسبح
فيه سفينتك ؟ لقد جن نوح .

وترفع ضحكات الكافرين وتزداد سفريتهم من نوح ..

إن قمة الصراع في قصة نوح تتجلى في هذه المسألة الزميمة .. إن
الباطل يسخر من الحق .. يصحك عليه طويلاً ، ويسخر منه طويلاً ،
متصوراً أن الدنيا ملكه ، وأن الأمن نصيبه ، وأن العذاب غير واقع .. غير
أن هذا كله مؤقت بارتفاع الستار على الطوفان . عندئذ يسخر المؤمنون من
الكافرين ، وتكون سفريتهم هي الحق .

قال تعالى في سورة هود :

« ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه جلا من قومه سفلوا منه ، قال :
إن تسفلوا منا فلنا نسخر منكم كما تسفلون . فسوف تعلمون من
بقية عذاب يضربه ويهل عليه عذاب مقيم » [١] .

انتهى صنع السفينة .

وجلس نوح ينتظر أمر الله .

لوحى الله إلى نوح أنه إذا مار التور كان هذا علامة على بدء الطوفان .

قبل في تفسير النور انه النور الذي في بيت نوح ، اذا خرج منه الماء
وعاد كل هذا ليرأ لنوح متحركة ..

وجاء اليوم الرهيب ..

غار النور في بيت نوح ..

واسرع نوح يفتح سفينته ويدعو المؤمنين به ..

وصط حريل عليه السلام الى الارض .. حمل الى نوح في السفينة من
كل حيوان وطيور ووحش ووحش لنبي .. غره ونورا .. قبل وبيلة .. مصفورا
وعصفورة .. نيرا ونيرة .. الى آخر المخلوقات .

في نوح قد صمم كفضاء للوحوش وهو يصمم السفينة .. وساق حريل
عليه السلام عليه من كل روحين اثنين ، لفضيل بقاء نوح الحيوان والطيور
على الارض . وهذا معناه ان النور في الارض كلها ، لظول ذلك المكان
هناك يصير لحيات هذه الانوع من الحيوان والطيور .

وبدا صعود السفينة .

صعد الحيوانات والوحوش والطيور ، وصعد من آمن نوح ..

وكن عدد المؤمنين قليلا ..

قال تعالى في سورة هود .

« هني اليا حسه ليرأ وطر النور ، قلنا اهل فيها من كل زوجين
اتيس ، وانك لا من سئل عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه
الا قليل » [1] .

لم يكن روجه نوح يؤمن به فلم تصعد .. ولكن احبب الله تعالى كرهه
وبهدى اليا حسه ليرأ نوح .. فلم تصعد هو الآخر . وكانت اطمية الناس مير
مؤمنة في الاخرى .. فلم تصعد .. وصعد المؤمنون ..

قال ابن عباس . رضى الله عنهما آمن من قوم نوح ثمانون انسانا ..

.....

ارتفعت المياه من تحت الارض .. لم تبق هناك عذبة في الارض الا هرح
مما الماء .. انصرفت من السماء ليطار غريره كيميات لم تر مثلها الا من
قبلها . ولم تری بعدها .. وراحت المياه تسقط من السماء ويخرج من تحت
الارض ، وخرجه سبحانه بعد ساعة .. خلعت امطار غيومها ، وانفجرت
امواجها لنور على اليابسة ، وبكتفج الارض .. كن ملط الارض يتحرك
حركة غير عادية . ارتفعت لسان المحيطات ارتدادا مدمرا ، وانفج
نوح الحار بكتفج املية الحرة اليابس من الارض ..

وغرقت الكرة الأرضية للمرة الاولى في المياه ..

كانت لثناء الطوفان هي الكرة المقتية .. لم تعد كرة أرضية ..

[1] الآية ٤٠ .. سورة .

قال تعالى في سورة النمر :

« ففتحن أبواب السماء بماء منهمر • وفجّرنا الأرض عيونا فالتقى
الماء على أمر قد قدر • وحملناه على ذات ألواح ودسر » (١) .

ارتفعت المياه أعلى من الناس .. تجاوزت قمم الأشجار ، وقمم الجبال ،
وغطت سطح الأرض كله .. وفي بداية الطوفان نادى نوح ابنه ..

كان ابنه يقف معزل عنه .. نداه قائلاً :

« يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » (٢) .

ورد الابن على نداء أبيه :

« قال : سأوى إلى جبل يعصمني من الماء » (٣) .

عاد نوح يخاطبه :

« قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » (٤) .

وانتهى الحوار بين نوح وابنه ..

« وهال بينهما الموج فكان من المخرفين » (٥) .

أنظر إلى تعبير القرآن الكريم : « وهال بينهما الموج » (٦) .. انتهى الموج
حوارهما فجأة .. نظر نوح فلم يجد ابنه .. لم يجد قهر جبال الموج التي
ترتفع وترفع معها السفينة ، وفقدتها رؤية كل شيء غير المياه .. وثباتت
رحمة الله أن يفرق الابن بعيداً عن مين الأب ، رحمة منه بالأب ، واعتقد نوح
أن ابنه المؤمن تصور أن الحبل سيحصبه من الماء .. فغرق ..

.....

واستمر الطوفان ..

استمر يحمل سفينة نوح ..

بعد ساعات من بدايته ، كانت كل عين تطرف على الأرض قد هلكت غرقاً
.. لم يعد باقياً من الحياء والأحياء غير هذا الجزء الخشبي من سفينة نوح ،
وهو ينطوى على الخلاصة المؤمنة من أهل الأرض ..

ولتوابع الحيوانات والطيور التي أخبرت بعناية ..

ومن المصعب اليوم أن نتصور هول الطوفان أو عظيمته .. كان شهباً
جروها يدل على قدرة الخالق .. كانت السفينة تجري بهم في موج كالجبال
.. ويعتقد بعض العلماء اليوم أن انفصال القارات وتشكل الأرض في
سورتها الحالية ، قد وقع نتيجة طوفان قديم جبار .. ثارت فيه المياه ثورة

(١) الآية ١١ ، ١٢ ، ١٣ مكية .

(٢) من الآية ٢٢ من سورة هود .. مكية . (٣) من الآية ٢٢ مكية من سورة هود ..

(٤) من الآية ٢٣ من سورة هود .. مكية .

(٥) من الآية ٢٤ من سورة هود مكية .. (٦) نفس الآية ..

مهر مغمومه .. هي قطب سطح الهرم الشمس من الأرض .. وأرباب فيه
تعمل المحيط ، ووقع فيه ما استطاع سميته بلورة الحرارة .

أسير طوفان نوح ربما لا يعرف مقداره .. ثم صدر الأمر الإلهي إلى
النساء أن يصف من السقاء . وإلى الأرض أن تضر وتسمع الماء .. وإلى
أحشب المسحة أن ترمو على الحدودي .. وهو سم مخازن قديم ، مثل به
حل في الحرائق

وصدور الأمر الإلهي ، عاد الهدوء إلى الأرض . وانصرف المياه عنها ،
وعاد الهرم الشمس فيها يلمع تحت أشعة الشمس ..

طهر الطوفان الأرض وغسلها ..

قال تعالى في سورة هود :

« وغسل بها الأرض الغسل العظيم ، وبما مسحنا قلبي ، وغسلنا الماء
ونضى الأمر ، واستوت على الحدودي ، وجعل بعدا لقوم
الظالمين » [١]

« فغسل الماء ، يضي نفس الماء وانصرف عتدا إلى فحات الأرض ..

« ونضى الأمر ، يضي له أحكم وفرغ منه ، يضي هذه الكبرياء من قوم
نوح تبليها ..

وبدل أن اذ اقم أرحامهم أرحمهم منه قبل الطوفان ، فلم يكن فيس ملك
طهر أو صغير ..

« واستوت على الحدودي ، يضي رمت عليه ، وقبل كان ملك يسوم
عائوراء .. فصليه نوح ، وأبر من معه بصوليته ..

« وقبل بعدا لقوم الظالمين ، أي هلاكهم .. طهر الطوفان الأرض بنهم
وغسلها ..

ذهب الهول بذهاب الطوفان ..

وانتقل الصراع من الموج إلى نفس نوح ..

مفكر أنه الذي عرف ..

لم يكن موج يعرف من هذه اللحظة أن أنه كافر .. كان مصور أنه ملائ
صمد ، أنز السماء باللعنوة إلى جبل .. وكان الموج قد انتهى حواره قبل أن
ينم .. فلم يعرف موج خط أنه من الأبدن

تحركت في قلب الأب عواطف الآونة ..

قال تعالى في سورة هود :

« وماضي نوح ربه ضل : رب أن أبني من علي ، وإن وعده الحق ،
وانت أنتهم المظلمين » [٢]

(١) الآية ٤٤ من سورة هود .. مكة ..

(٢) الآية ٥٠ من سورة هود مكة

لراد نوح أن يقول الله لن ابنه من أهله المؤمنين .. وقد وعده الله بنجاة
أهله المؤمنين ..

قال الله سبحانه وتعالى ، بطعنا نوحا على حقيقة ابنه للمرة الأولى :

« يا نوح انه ليس من اهلك ، انه عمل خير صالح ، فلا تسألن
ما ليس لك به علم ، انى اعطاك ان تكون من الجاهلين » [١] .

قل القرطبي — نقلا عن شيوخه من العلماء — وهو الراى الذى نؤثره :

[كان ابنه عنده — اى نوح — مؤمنا فى ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه
« لن ابنى من اهلى » [٢] .. الا وذلك عنده كذلك ، اذ محال ان يسأل هلاك
الكفر ، ثم يسأل فى انجاء بعضهم .. وكان لبه يصر الكفر ويظهر
الايمن ..

فاخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الخيوب .. اى علمت من
حال ابنك ما لم تعلمه انت .

وكان الله حين يعظه ان يكون من الجاهلين ، يريد ان يبرئه من تصور
ان يكون ابنه مؤمنا .. ثم يهلك مع الكافرين ..

وثمة درس هام تنطوى عليه الآيات الكريمة التى تصكى قصة نوح
وابنه ..

لراد الله سبحانه وتعالى ان يقول لنبيه الكريم ان ابنه ليس من أهله .

لانه لم يؤمن بالله .. وليس الدم هو الصلة الحقيقية بين الناس ..

ابن النبى هو ابنه فى العقيدة .. هو من يتبع الله والنبى .. وليس ابنه
من يكفر به ولو كان من حله ..

هنا ينبغي ان يتبرأ المؤمن من غير المؤمن ..

وهنا ايضا ينبغي ان تتصل بين المؤمنين صلوات العقيدة بحسب ..

لا اعتبارات الدم او الجنس او اللون او الارض ..

واستغفر نوح ربه وتاب اليه .. ورحمه الله وامره ان يهبط من السفينة
محاطا بهركة الله وبرعايته ..

« قال : رب ، انى اعوذ بك ان اسالك ما ليس لى به علم ، والا تغفر
لى وترحمنى اكن من الخاسرين » [٣] .

قيل : يا نوح ، اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى امم ممن
معك » [٤] .

.....

(١) من الآية ٤٦ من سورة هود مكة ..

(٢) من الآية ٤٥ من سورة هود مكة ..

(٣) من الآية ٤٨ من سورة هود مكة .

وهبط نوح من سفينة ..

أطلق سراح الطيور والوحوش ففرقت في الأرض

نزول المؤمنون بعد ذلك ..

وضع نوح جعبته على الأرض وسجد ،

لم تنزل الأرض مثله من أثر الطوفان .

ممنوح بعد صلاته وحفر الأساس ل بناء معبد عليهم ..

أشعل الناهون النار وهمسوا حول .. كان اسمعيل ابن مسموح في
السفينة ، حتى لا تنفذ النار إلى أعضائها مصحوق .

ولم يكر أحد منهم قد أكل طعاما سائما طويلا بعد الطوفان .

ومر يوم مسهل الشكر ..

.....

وبعد الغرائم الكريم السائر على قصة نوح بعد الطوفان

لا تدري ماذا كان من أمره مع قومه .

كل ما يدريه ، لو استطاع أن يؤكد ، أن موصي أوسي ل بناءه وهو ميت
أن يحبوا الله وحده ..

وبقى نوح إلى الرقيق الأعلى ..

قصة هود

[عليه الصلاة والسلام]

مضى قوم نوح في التاريخ ..

الأكثرون المكذبون انطقت عليهم سفوحات الطوفان .. استبعدوا من الحياة ، ومن رحمة الله ، ومن حساب الناس واهتمامهم على السواء والناجون — وهم اقلية — استنخلوا في الأرض ، تحقيقا لسنة الله ووعد .. « **وَالصَّابِرِينَ** » [١] .

ولقد كان وعد الله لنوح :

« **يا نوح اهبط بسلام منا ، وبركنا عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ، ثم يمسهم منا عذاب اليم** » [٢] .

.....

دأرت مجلة الزمن .. وجاء وعد الله ..

بعد الطوفان لم يكن على الأرض من البشر غير المؤمنين .. لم يكن هناك قلب واحد كثر على الأرض .. وبدأ الشيطان يشكو من البطالة

وبمرت سفوات وسفوات .. مات الآباء والأبناء ، وجاء أبناء الأبناء .. نسي الناس وصية نوح ، وعادت عبادة الأصنام .. انحرف الناس عن عبادة الله وحده ، وتم الأمر بنفس الخدمة القديمة .. قال أحفاد قوم نوح : لا نريد أن ننسى آباءنا الذين مجاهم الله من الطوفان .. وسمعوا للناسج تمليل لينكروهم بها ، وتطور هذا التمليل جيلا بعد جيل ، فإذا الأمر ينتقل إلى العداوة ، وإذا بالتمليل تتحول بفضل الشيطان إلى آلهة مع الله .. وعادت الأرض تشكو من الظلام مرة ثانية .. وأرسل الله « **مسيحنا هودا** » إلى قومه ..

يرتفع الستار عن نصته بعد بعثته بالرسالة إلى الناس .

كان « **هود** » من قبيلة اسمها « **عاد** » وكانت هذه القبيلة تسكن مكانا يسمى الأحقاف .. وهو صحراء تهطل بجبال الرمل المائلة .. وتطل على البحر .. أما مسكنهم فكانت قيساما كبيرة لها أعمدة شديدة الضخامة والارتفاع ، وكل قوم عاد أعظم أهل زمانهم في قوة الأجسام ، والطول ،

[١] من الآية ٨٢ من سورة القصص مكة

[٢] الآية ٤٨ من سورة هود مكة .

والشدة .. كانوا همالة وأقوياء ، الى الدرجة التي قالوا فيها ، كما حكى الله عنهم

« وقالوا : من أشد منا قوة » [١] .

لم يكن في زمانهم أحد في قوتهم .. ورغم ضخامة أجسامهم ، كانت لهم عقول مطلقة .. كانوا يعدون الأصنام ، ويدافعون عنها ، ويحاربون من أجلها ، وينهضون منبهم ويسفرون منه .. وكان المفروض ، ما داموا قد اعترفوا أنهم أشد الناس قوة .. أن يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة .. غير أنهم كانوا لا يبصرون غير كبريائهم الكثرة .

قال لهم هود :

« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الله غيرة » [٢] .

ممن الكلمة التي يقولها كل رسول .. لا تتعير ولا تنقص ولا تتردد ولا تحاف ولا تراحم .. كلمة واحدة هي الشجاعة كلها ، وهي الحق وحده .. وسأله قومه : هل تريد أن يكون سعدا علينا بدعوتك .. وأي أحر تريده ؟

أفهمهم هود أن أحره على الله ، أنه لا يريد منهم شيئا غير أن يعملوا عقولهم من نور الحقيقة .. حدثهم عن نعمة الله عليهم ، كيف جعلهم خلقا من بعد نوح ، كيف أعطاهم بسطة في الجسم ، وشدة في الناس .. كيف أسكنهم الأرض التي تمنح الخير والرزق .. كيف أرسل عليهم المحر الذي يحيي به الأرض .. وتلفت قوم هود حولهم لموحدوا أنهم لقوى من على الأرض ، وأصلانهم الكبرياء وراودوا في العناد .

قالوا لهود : كيف نتهم آلهتنا التي وجدنا آباءنا يعبدونها ؟

قال هود : كان آباؤكم محطئين .

قال قوم هود : هل تقول يا هود أننا بعد أن سمعنا ونصيح ترابا يتطاير في الهواء .. مسعود الى الحياة ؟

قال هود : ستعودون يوم القيامة ، وسأل الله كل واحد فيكم عما فعل .

انفجرت الضحكات بعد هذه الحملة الأخيرة ..

ما أمرب ادعاء هود .. هكذا نهامس الكافرون من قومه .. أن الإنسان يموت ، فإذا مات تحلل جسده ، فإذا تحلل جسده تحول الى تراب ، ثم يهب الهواء ويصاير التراب .. كيف يعود هذا كله الى أصله ...

ثم ما معنى وجود يوم للقيامة ... ؟

لماذا يقوم الأموات من موتهم ... ؟

استنزل هود كل هذه الأسئلة بمصر كريم .. ثم بدأ يحدث قومه من يوم القيامة .. أفهمهم أن أبهان الناس بالآخرة ضرورة تتصل بمعدل الله ،

(١) من الآية ١٥ من سورة فصلت مكية ..

(٢) من الآية ٥٠ من سورة هود مكية .

مطلبها هي ضرورة اتصال بحياة الناس .. قال لهم ما يقوله كل نبي من يوم
القيامة ..

ان حكمة الخالق المدبر لا تكبل بمجرد بدء الخلق ، ثم انتهاء حياة
المخلوقين في هذه الأرض .. لا يستل التنازل بعدها .. هذا هو الفصل
الاول من الامتحان ..

والامتحان لا ينتهي بتسليم أوراق الاجابة .. لابد من تصحيح هذه
الأوراق ، واعطاء درجات ، وبيان الناجحين والراسخين .. وليست تصرفات
النفس في الدنيا واحدة ، هناك من يظلم ، وهناك من يقتل ، وهناك من
يعتدي .. وكثيرا ما نرى الظالمين يذهبون بخير عقاب ، كثيرا ما نرى المعتدين
يتمنعون في الحياة بالاحترام والسلطة .. أين تذهب فسادة المظلومين ، ولين
يذهب ألم المضطهدين .. هل يغفر لهم في التراب بعد الموت ..

ان العدالة تقتضي وجود يوم للقيامة

ان الخير لا ينتصر دائما في الحياة .. لحيانا ينظم الشر جيوشه ويقتل
جملة الخير ..

هل تذهب هذه الجريمة بخير عقاب ؟

ان ظلمنا مظلوما يتأكد لو افترضنا ان يوم القيامة لن يجيء .. ولقد حرم
الله تعالى الظلم على نفسه وجعله محرما بين عباده .. ومن تامل عدل الله
وجود يوم للقيامة والحساب والجزاء ..

فذلك ان يوم القيامة .. هو اليوم الذي تعاد فيه جميع القضايا مرة أخرى
للمحكمة الخالق ، ويمد نظرها مرة ثانية .. ويحكم فيها رب العالمين سبحانه ..
هذه هي الصلوة الاولى ليوم القيامة ، وهي تتصل بعدل الله ذاته ..

وثمة ضرورة أخرى ليوم القيامة ، وهي اتصال سلوك الانسان نفسه ..
ان الاعتقاد بيوم الدين ، والايمان ببعث الأجساد ، والوقوف للحساب ، ثم
تلقي الثواب والعقاب ، ودخول الجنة أو النار ، هذا شيء من شأنه ان يملأ
أبصار البشر وقلوبهم بمالم آخر بعد مالم الأرض ، فلا تستبد بهم ضرورات
الأرض ، ولا يستعبدنهم الطبع ، وتملكهم الآتية ، ولا يفلت منهم أنهم لم يحتقوا
جزاء سيئهم في صبرهم التصبر المحدود ، وبذلك يمسو الانسان على العطين
الذي خلق منه الى الروح الذي نفخه فيه ..

ولعل طريق الطريق بين الخضوع لتصورات الأرض وقبورها وموازينها ..
والتمسك بقيم الله العليا ، والانطلاق اللائق بالانسان .. يكن في الايمان
بيوم القيامة ..

حدثهم هود بهذا كله فاستمعوا اليه وكلبوه ..

حكى الله تعالى موقف القوم من يوم القيامة في سورة (المؤمنون) :

« وقال الملا من قومه ، الذين كفروا وكذبوا بآلاء الآخرة واترفناهم
في الحياة الدنيا : ما هذا الا بشر مثلكم ، ياتل مما تاتلون منه
ويشرب مما تشربون . ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لعاثرون .

أيديكم أنكم إذا قمتم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون . أن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » [١] ..

هكذا كذب قوم هود نبيهم ..

قالوا له : هيهات هيهات .. واستغفروا أن يبعث الله من في القبور ، استعربوا أن يعيد الله خلق الأنسان بعد تحوله إلى التراب ، رغم أنه خلقه من قبل من التراب .. وطنسنا للمقاييس البشرية ، كان ينبغي أن يعس المكشور للبعث أن إعادة خلق الأنسان من التراب والمظام أسهل من خلقه الأول .. لقد بدأ الله الخلق ناي صعوبة في آهائه .. أن الصعوبة — طبقا للمقياس البشري — تكن في الخلق .. وليس المقياس البشري غير مقياس بشري يطبق على الناس ، أما الله ، فليست هناك أمور صعبة أو سهلة بالنسبة إليه سبحانه ، تجري الأمور بالنسبة إليه سبحانه بسجود الأمر ..

« نضع السماوات والأرض » وإذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون » [٢] ..

.....

مريد أن ملتفت لقوله تعالى :

« وقال الملا من قومه » [٣] ..

الملا هم الرؤساء .. يسيرون الملا لأنهم ملبنون بما يقولون .. ولهم مصلحة في استمرار الأوضاع القائمة .. سنرى هؤلاء الملا في كل قصص الأنبياء .. سنرى رؤساء القوم واعتناءهم ومترليهم يقفون ضد الأنبياء .. يصفهم الله تعالى بقوله :

« واترغواهم في الحياة الدنيا » [٤] .

من مواقع الثراء والفنى والترف ، يولد الحرص على استمرار المصالح الخاصة .. ومن مواقع الثراء والفنى والترف والرئاسة ، يولد الكرياء .. ويلتفت الرؤساء في القوم إلى أنفسهم ويتسلطون :

— ليس هذا النبي بشرا مثنا ، يأكل مما نأكل ، ويشرب مما نشرب ؟ .. بل لعله بفقره يأكل أقل مما نأكل ، ويشرب في أكواب صدئة ، ونحن نشرب في أكواب من الذهب والفضة .. كيف يدعى أنه على الحق ونحن على الماثل ؟ .. هذا بشر .. كيف نطيع بشرا مثلا ؟

ثم .. لماذا اختار الله بشرا من بيننا ليوحى إليه ؟

قال رؤساء قوم هود : ليس غريبا أن يختار الله من بيننا بشرا ويوحى إليه ..

(١) الآية ٢٣ + ٢٤ + ٢٥ + ٢٦ + ٢٧ من سورة المؤمن مكية .

(٢) الآية ١١٧ من سورة البقرة مكية .

(٣) من الآية ٢٣ من سورة المؤمن مكية .

(٤) من الآية ٢٢ المؤمن مكية .

تسأل هو : ما هو الغريب في ذلك ؟ .. ان الله يحبك ولهذا ارسلني اليكم لأحذركم .. ان سفينة نوح ، وقصة نوح ليست جديدة عنكم ، لا تنسوا ما حدث ، لقد هلك الذين كفروا بالله ، وسيهلك الذين يكفرون بالله دائماً ، مهم يكونوا أعوياء ..

قال رؤساء قوم هود : من الذي سيهلكنا يا هود ؟

قال هود : الله ..

قال الكافرون من قوم هود : مستجيبنا آلهتنا .

وافهمهم هود ان هذه الالهة التي يعبدها لتتربص بهم من الله ، هي نفسها التي تبعدهم عن الله ، لتبهم ان الله هو وحده الذي ينجي النفس ، وان اى قوة اخرى في الارض لا تستطيع ان تضر أو تنفع .

واستمر الصراع بين هود وقومه .

وكلما استمر الصراع ومرت الايام ، زاد قوم هود استكباراً ومناداً وطغياناً وتكديباً لنبيهم .. وبدلوا يهتمون بـ « هوداً » ، عليه السلام ، بأنه سفيه مجنون ، قالوا له يوماً :

— لقد فهمنا الآن السر في جنونك .. انك تسب آلهتنا وقد غضبت آلهتنا عليك ، وبسبب غضبها صرت مجنوناً ..

حكى الله ما قالوه في سورة هود :

« قالوا : يا هود ، ما جعلنا بينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . ان نقول : الا اعترفك بعض آلهتنا بسوء » (١)

الى هذا الحد بلغ الانحراف في نفوسهم ، الى حد ان يتصوروا ان هوداً يهذى ، لان احد آلهتهم المفضلة قد غضب عليه ، فبسه بسوء ، لم يتوقف هود عند هذيانهم ، ولم يخضعبه ان يظنوا به الجنون والبهيلان ، ولكنه توقف عند قولهم :

« وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين » (٢) .

بعد هذا التحدى . لم يبق لهود الا التحدى .

لم يبق له الا التوجه الى الله وحده .

لم يبق امامه الا انذار أخير ينطوى على وعيد للمكذبين وتهديد .

وتحدث هود ..

« قال : انى اسجد الله ، واتشهدوا انى برىء مما تشركون . من دونه ، فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون . انى توكلت على الله ربي

(١) من الآية ٥٢ + ٥٤ من سورة هود مكية .

(٢) من الآية ٥٣ من سورة هود مكية .

وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، ان ربي على صراط مستقيم . فان قولوا مقد ابلفتكم ما لوصلت به اليكم ، ويستحلف ربي قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا ، ان ربي على كل شيء حفيظ ﴿ ١١ ﴾ .

ان الانسان ليحمر بالدهشة لهذه الجراءة في الحق .

رجل واحد يواحه قوما غلاطا شدادا وحقى .. يتصورون ان انسان الحجارة تستطيع الابداء .

انسان بملرده يثق ضد جبارين فبفسه عقيدتهم ، ويشراً منهم ومن آلهتهم ، ويتحذاهم ان يكدوا له بشير ابطاء او اهيل ، فهو على استعداد لتلقى كيدهم ، وهو على استعداد لحربهم ، فقد توكل على الله . والله هو القوي الحق . وهو الآخذ بناصية كل دابة في الارض . سواء الدواب من الناس او دواب الوحوش او الحيوان . لا شيء يجر الله .

بهذا الايمان بالله . والثقة بوعده . والاطمينان الى نصره .. يضابط هود الذين كفروا من قومه .. وهو يفعل ذلك رغم وحدته وضعفه ، لانه يثق مع الامن الحقيقي ويبلغ من الله .

وهو في حديثه يمه قومه انه لدى الامانة . وبلغ الرسالة . ثل كفروا فمسوف يستحلف الله قوما غيرهم ، سوف يستبدلهم قوما آخرين . وهذا معناه ان عليهم ان ينتظروا العذاب .

وهكذا أعلن هود لهم براعته معهم ومن آلهتهم .. وتوكل على الله الذي خلقه ، وأدرك ان العذاب واقع من كفر من قومه . هذا قانون من قوانين الحياة . يعذب الله الذين كفروا ، مهما يكونوا اقوياء او اعياء او جيرة او عاقلة .

انتظر هود وانتظر قومه وعد الله .

وبدا الجفاف في الارض .. لم تعد السماء تطر .. كانت الشمس تلهب رمال الصحراء وتبدو مثل قرص من النار يستقر على رؤوس الناس ، وهرع قوم هود اليه .. ما هذا الجفاف يا هود ؟ . قال هود : ان الله غاصب عليكم ، ولو آمنتم مسوف يرزى الله عنكم ويرسل المطر فيريكم قوة الى قويمكم . وسخر قوم هود منه وزادوا في العباد والسخرية والكفر . وراد الجفاف ، واسمرت الاشجار الحمرء ، ومات الزرع ، وجاء يوم غدا مسحاب عظيم يملأ السماء .. وهرع قوم هود وخرجوا من بيوتهم يقولون : هذا عارض مطرنا .

معير الجو فحاة ..

من الجفاف الشديد والحر الى البرد الشديد القارس .. بدأت الرياح تهب .. ارتعش كل شيء ، ارتعشت الاشجار وانباتت والرجال والنساء

والضيام .. ارتعش الجلد واللحم والعظام والجمع .. واستمرت الرياح ..
ليلة بعد ليلة ويوما بعد يوم .. كل ساعة كانت يرونها تزداد ..

وبدا قوم هود يفرون ، اسرعوا الى الخيام واختبأوا داخلها ، اشتد
هبوب الرياح وانظمت الخيام ، واختبأوا تحت الأغطية ، مكثت هبوب
الرياح وتطهرت الأغطية . كانت الرياح تمزق الملابس وتمزق الجلد وتنفذ
من فتحات الجسم وتدمره .

لا تكاد الريح تمس شيئا الا قتلته ودمرتة وامتصت قلبه ، وجعلته
كالتريميم .

استمرت الرياح مسلطة عليهم سبع ليال وثمانية ايام لم تر النسيما
بطلها قط .. ثم توقفت الريح بانين ربها ..

قال تعالى في سورة الاحقاف :

« فلما راوه عارضا مستقبلا لوديعتهم ، قالوا : هذا عارضي مطرنا ،
بل هو ما استمجنتم به : ربيع فيها عذاب اليم . تدمر كل شئ بامر
ربها » [١] .

وقال تعالى في سورة الحاقة :

« سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما ، فترى القوم فيها
صرعى كثرهم اعجاز نخل خالوية » [٢] .

لم يعدد بالثيا من قوم هود الا ما يتلى من النخل الميت .. مجرد
غلات خارجي لا تكاد تضع يدك عليه حتى يتطير خرات في الهواء ..
نجا هود ومن آمن معه .. وهلك الجبليرة .. ونزل المستلر على قوم
هود .

(١) الايات ٢٤ و ٢٥ من سورة الاحقاف مكة .

(٢) الآية ٧ من سورة الحاقة مكة .

قصة صالح

[عليه الصلاة والسلام]

اتحدت سنوات وسنوات .. ولد رجل وامرأة ..
وهما بعد قوم عاد قوم ثمود ، وتكررت قصة العذاب بشكل مختلف
مع ثمود ..

كانت ثمود قبيلة تصيد الأصنام من الأجرى ، فأرسل الله « صالحا » اليهم .. وقال صالح لقومه :

« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الله غيره » (١) .

فبس الكفة التي يقولها كل من .. لا تفعل ولا تصير ، كما أن
الحق لا يتبدل ولا يتغير .. فوحى الشكر من قوم صالح ما يقوله ..
لأنهم ألهموها بلا شبهة ، وهو ينهاهم عن عبادتها وبأمرهم بعبادة
الله وحده . وأحدثت دعوته هزة كبيرة في المجتمع .. وكان صالح يحرقوا
بالحكمة والنقاء والبر ، كل قومه يصرونه قبل أن يوحى الله اليه ويرسله
لدعوه اليهم .

وقال قوم صالح له .

« يا صالح قد كنت نبيا مرحوا قبل هذا .. انتهينا أن نعبده ما يعبد
آبائنا ، وإنما أنت نك منكم ما ندعونا الله ربنا » (٢) .

تأمل وجهه نظر الكافرين من قوم صالح ..

اتهم بدلتون اليه من باب شخصي بحث .. لقد كمل لنا رجاء منك ..
كنت مرحوا بها لطيفك ومثلك وصديقك وحسن تفكيرك . ثم حذب
رجلوا منك .. انتهينا أن نعبد ما يعبد آباؤنا .

بالطرفة .. كل شيء يا صالح إلا هذا . ما كنا سائق منك أن نعبد
آلهتنا التي وهبنا آياتا ملكتنا عليها .. وهكذا يحجب القوم
بما لا يجب فيه .

وستشكروا ما هو واجب وحل ، وبدعوتهم أن يدعوهم أنفسهم
صالح إلى عبادة الله وحده ..

لماذا ؟

(١) من الآية ٦١ من سورة هود بكه ..

(٢) الآية ٦٢ من سورة هود بكه .

لا حاجة لديهم ولا مرهان ولا شكير .. ولكن لأن آباءهم كانوا يعبدون هذه الآلهة .

هكذا تعمل العادة في الإنسان عملها القوي ، وهكذا يعمل التقليد في الإنسان فعمله المعتي . وهكذا يجرى النبي فيبخر هذا التقليد (الآله) ويحطم العادات المهلكة .

وهكذا تعلن عقيدة التوحيد من نفسها كدعوة للتحرر الفكري من كل شيء ، دعوة إلى إطلاق العقل البشري من حبس التقليد ، وخرافات السابقين ، وأوهام العادات المستقرة .

هذه هي دعوة التوحيد في صميمها .. إعلان ميلاد الحرية العقلية وكل أنواع الحريات الأخرى .

وهي دعوة لا يقف ضدها غير من تحجر عقله على أفكار السابقين وعادات الموتى وأوهام الآباء والجدود .

ورغم نصاعة دعوة صالح عليه الصلاة والسلام .. فقد بدا واضحاً أن قومه لا يصدقونه .. كثقوا بشكون في دعوته ، واعتقدوا أنه مسخور ، وطلابه بمعجزة تثبت أنه رسول من الله إليهم .. وشاعت أرادة الله أن تستجيب لطلبهم .. وكان قوم ثمود ينحتون من الجبال بيوتاً عظيمة .. كانوا يستعملون الصخر في البناء ، وكانوا أقوياء قد منح الله عليهم رزقهم من كل شيء .. جاءوا بعد قوم همد فسكوا الأرض واستمروها ..

قال صالح لقومه حين طالوه بمعجزة ليصدقوه :

« يا قوم ، هذه ناقة الله لكم آية فظروها تكلل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب » [١] .

والآية هي المعجزة ، ويقال إن الناقة كانت معجزة لأن صخرة في الجبل اشتقت يوماً وخرجت منها الناقة وخرج وراءها وليدها الصغير .. ولدت من غير الطريق المعروف للولادة ، ويقال أنها كانت معجزة لأنها كانت تشرب المياه الموجودة في الأبار في يوم فلا تقترب بثقة الحيوانات من المياه في هذا اليوم ، وقيل أنها كانت معجزة لأنها كانت تدر لبناً يكفي لشرب الناس جميعاً في اليوم الذي تشرب فيه الماء فلا يبقى منه شيء للناس .

كانت هذه الناقة معجزة ، وسبقها الله سبحانه وتعالى بقوله :

« ناقة الله .. » [٢] .

أضافها لنفسه سبحانه بمعنى أنها ليست ناقة عادية وإنما هي معجزة من الله .

وأصدر الله أمره إلى مسالح أن يأمر قومه بعدم المساس بالناقة أو أبنائها أو قطيعها ، أمرهم أن يتركوها تكلل في أرض الله ، ولا يمسوها

١) من الآية ٦٤ من سورة هود مكة ..

٢) من الآية ٦٤ من سورة هود مكة .

بسوء ، وحذرهم انهم اذا مدوا ايديهم بالادى للسائة لسوء يأخذهم
مذلب قريب .

فى البدايه تعاطيت دهشة ثمود حين ولدت الناقة من صخور
الحبل ..

كنت مائة مباركة .. كل لينها يكفى آلاف الرجال والنساء
والاطفال .. وكنت اذا نامت فى موضع هجرته كل الحيوانات الاخرى .
كان واصحابها ليست مجرد ناقة عاديه .. وانما هى آية من الله . وعاشت
البض بين قوم صالح ، آمن منهم من آمن وبغى عليهم على الصلح وانكر ..
وتحويت الكراهية عن سيدنا صالح الى الناقة المباركة .. تركزت عليها
الكراهية ، وبدأت المؤامرة تنسج شيوعتها ضد الناقة .. كره الكافرون
هذه الآيه العظيمة ، ودبروا فى انفسهم امرا ..

كان طبيعيا — كما رأينا من قبل — ان يجرى التنبيه من رؤساء قومه
.. مرة اخرى يلتقى بالملا الذين استكبروا من قومه .

قال تعالى فى سورة الاعراف :

« والى ثمود اخاهم صالحا ، قال : يا قوم ، اعبدوا الله ما لكم من
الله غيره ، قد هانكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ،
فغروها تأكل فى ارض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب
الليم . وانكروا از جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبواكم فى الأرض
تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا ، فأنكروا الآية
الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . قال الملا الذين استكبروا من
قومه للذين استضعفوا لئن آمن منهم : أتعلمون ان صالحا مرسل
من ربه ، قالوا : انا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا :
انا ما لئى آمنتم به كما رن « [١] .

ان صالحا عليه الصلاة والسلام يحدث قومه برفق وحب ، وهو
يدعوهم الى عبادة الله وحده ، وينبههم الى ان الله قد اخرج لهم معجزة هى
الناقة ، تلبلا على صدقه وبينه على دعوته ، وهو يرجو منهم ان يتركوا الناقة
تأكل فى ارض الله ، وكل ارض ارض الله ، وهو يحذرهم ان يمسوها
بسوء خشية وقوع عذاب الله عليهم ، وهو يلتزم الى اتعالم الله عليهم . كيف
جعلهم خلفاء من بعد قوم عاد ، كيف أتم عليهم بالقصور والجمال المحونة
والنعم والرزق والقوة .

يفعل صالح هذا كله .. فلذا قومه يجيبونه اغرب اجابة .

انهم يتجاوزون كلمات نبيهم ويتركونه .

يتجهون الى الذين آمنوا بصالح . يسألونهم سؤال استخفاف
وزرابة :

— تعلمون ان صالحا مرسل من ربه ؟

(١) الأت ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .. مكة

سؤال لا محل له بعد معجزة الناقة .. كل ما في الامر انهم يستخفون ويسخرون . قالت الفئة الضعيفة التي آمنت بصالح : انا بما أرسل به مؤمنون .

لاحظ جواب المؤمنين الوشوى .

ان سؤال السادة المترفين يصطدم بهذا الجواب الوشوى .. ان السادة يشكون في ان صالحا يرسل من ربه .. لكن المؤمنين يردونهم الى الحق الذي جاء به صالح ..

وهذا الحق الذي جاء به صالح لا علاقة به بالناقة . انما له علاقة بدعويه ورسالته نفسها .. انا بما أرسل به مؤمنون . لم يقولوا لهم انا برسالته مؤمنون ، لم يقولوا لهم ان الناقة تثبت نبوته ، تجاوز المؤمنون هذه المعجزة الخارقة الى حقيقة رسالة صالح .

عد هذا الحد من الحوار .. نرى الذين كفروا وقد خطت لهم المزة بالآثم .. وللاثم مزة عند الكافرين والمستكبرين :

« قل الذين استكبروا : انا بالذي آمنتم به كفرون » [١] .

هكذا باحتقار واستعلاء وغضب ،

عبثا تفتش عن أي دليل وشعوى في حوار الكافرين .. انهم يرفضون الايمان بحسب .. وهم احرار تبليها في ذلك .

.....

سقط الليل على مدينة لود .

انتمصت الجبال شايخة تحتضن البيوت المنحوتة فيها . وبدأ واضحا للكافرين ان أحدا لا يمكن ان ينالهم بسوء .

أمسكت المشاعل داخل قصر منحوت في الجبل .. وانبرت كؤوس الشراب على الجالسين في شبه دائرة ..

لم يكن هناك أحد من رؤساء القوم قد تغيب عن الجلسة الخطيرة .

انعدت الجلسة ودار الحوار .

قال احد الكافرين :

« ابشرا منا واحدا نتبعه ، انا اذا لقي ضلال وسعر » [٢] .

وقال كافر آخر :

« اتقنى الاكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب اثر » [٣] .

وعادت كؤوس الشراب تدور .. وانتقل الحوار من صالح الى ناقة

الله .

(١) الآية ٢٦ من سورة الامراء مكة ..

(٢) الآية ٢٤ من سورة القدر مكة ..

(٣) الآية ٢٥ من سورة القدر مكة ..

قال أحد الكافرين : اذا جاء الصيف جاءت الناقة الى ظل الوادي
المأرد فتهرب منه المواشي الى الحر .

وقال كافر آخر : واذا جاء الشتاء بحثت المائة عن أدنا مكان واستراحت
ليه فتهرب مواشها الى البرد وتعرض للمرض .

وعادت كؤوس الشراب تدور وهي تهتر في أيدي الشرابين .. وأمر
أحد الحالمين أن تكف المعبة عن العناء لأنه يفكر .. ويطبق الصمت ..
وراح هو يفكر .. رأس من رؤوس الكفر منكس على صدره وهو يفكر
عميق . استعان المفكر بكاس من شراب قوي مسكر وهمس :

— ليس هناك غير حل واحد .

سأط الحلقون عن الحل . قال كبيرهم :

— يسمى أراحه صالح من طريقنا .. أقصد ناقته .. يقتل الناقة
وبعدها يقتله هو ..

تلك منذ أقدم العصور الى اليوم أساليب الأئمة الكافرة .. وهذا
سلاحهم منذ أقدم أيام الحلقة .. لا يمدون الى العقل أو الفكر أو الجدل
والبرهان .. إنما تنفذ الأيدي الى السلاح وتقتل .

هذا أسلم الحلول عندهم وذلك تصورهم . إن القتل يطوى المشكلة
كلها ، ويدفنها في التراب .

أبعثت الهممات حول صالح وناقته . قال أحدهم وكان في عقله
بقيه لم يطعمها الشراب .. جردنا صالح من المساس بالعلاقة ،
وهددت بالمذاب القريب .

أحمد الجالسون هذا الصوت المائل بكاسين من الخمر ، وتصاعدت
كلمات الحوار تتحدث من صالح .

— كم نشأتم منه وتنظير .

□ هو وناقته .

— ومن معه .

□ أفضل الحلول قتله .

— نبدأ بقتل الناقة ، ثم نفنئ إليه .

□ من الذي يقتله .

استلقى السؤال بينهم حسدا بغير رأس . قال أحدهم بعد لحظة
صمت .

— أعرف واحدا يستطيع قتله .

تناقشوا الاسم بينهم في سرور واضح . تلك حذر من حسرة المدينة .
رجل يبعث فمسلا في الأرض ولا يكف عن الشراب ، والويل لمن يعترسه

وهو مخبور .. تسلطوا من يساعده على القتل ، فقتل أن له زملاء في المدينة .

هوكلن في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون» (١) .

هؤلاء هم أداة الجريمة .. مجرمو المدينة المشهورون ..
اتفق على موعد الجريمة ومكان التنفيذ .. وازداد الظلام السقط على
الحبال ظلمة ..

وجاءت ليلة المصاة .

.....

الفتاة المباركة تنام وهي تضم لمصدرها طفلها الصغير .. كان الطفل
يحب البرد ويستدفئ به ..

انتهى المجرمون التسعة من اعداد اسلحتهم وسببوتهم وسلباتهم ،
وخرجوا في جوف الظلام كما تخرج الخيالة ، شرب زعمهم كثيرا من الخمر
حتى لم يعد يرى ما أمامه .. « فسادوا صلحهم فاعطى فعقر » (٢) .

أنظر الى استخدام لفظ « تعاطى » وكيف ذهب عقله مما تعاطاه ...
هجم الرجال التسعة على الفتاة منهضت الفتاة ونهض طفلها مفروعا .
امتدت الأيدي الأثمة الغالطة الى الفتاة .

وسالت دماء الفتاة .

قتل طفلها أيضا ..

علم النبي صالح بما حدث فخرج غاضبا على قومه .. قال لهم : ألم
أحذركم من أن تبصروا الباقه . قالوا : قتلناها ماننا بالعذاب واستعجله لنا
لو سمعت .. ألم نقل أنك من المرسلين ..

قال صالح لقومه :

« تعصموا في دياركم ثلاثة ايام ، فلك وعد غير مكتوب » (٣) .

بعدها غادر صالح قومه . تركهم ومضى . انتهى الامر ووعده الله
بملاكهم بعد ثلاثة ايام .

كانت الفتاة وهي تبوء قد شهدت ثلاث مرات .

ومرت ثلاثة ايام على الكافرين من قوم صالح وهم يمزأون من العذاب
ويستطرون ، ولم يفر اليوم الرابع :

انسلخت السماء من صيحة جبارة واحدة ... انتفضت الصيحة على

(١) الآية ٤٨ من سورة النمل مكية .

(٢) الآية ٢٩ من سورة القمر مكية ..

(٣) من الآية ٦٥ من سورة هود مكية ..

الحبال مهلك لبها كل شيء هي .. وارتجفت الأرض رحمة حسارة مهلك
لوقتها كل شيء هي ..

هي صرخه واحدة .. لم يكذب أولها سدا وأخرها يحيى حتى كان كفار .
توم صالح قد صعدوا جميعا صعدته واحدة ..

قال تعالى في سورة القمر :

« أنا أرسلنا الناقة عنه لهم ، فأرسلهم واضطرب . ونسئهم أن الماء
فحسبة بينهم كل شرب محتضر . فنادوا أصحابهم فتماطى فحقر .
فكيف كان مذايب وندر . أنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا
كهشيم المحتظر » (١) .

هلكوا جميعا قبل أن يدركوا ما حدث ..

أيا الذين آمنوا سيبفنا مسالح .. مكنوا قد عاينوا المكنل مع بيهم
ونجوا .

(١) الأيت ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ من سورة القمر بكية .

قصة ابراهيم الخليل

[عليه الصلاة والسلام]

استوحش من الاكوان كلها ووصل الى مقام الانس بالله وحده ..
وانك انتفرد ابراهيم عليه الصلاة والسلام بكائه خاصة بين انبياء الله
هو احد اولي العزم الخمسة الكبار الذين اخذ الله منهم ميثاقا غليظا .
وهم : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد .. بقرئيب بعثهم .

وهو النبي الذي ابتلاه الله ببلاء مبين .. بلاء فوق قدرة البشر وطاقة
الاعصاب .. ورغم حدة الشدة وعنت البلاء .. كان ابراهيم هو العبد الذي
وفى .. وزاد على الوفاء بالاحسان .

قال تعالى في سورة النجم : « وابراهيم الذي وفى » [١] .

وقد كرم الله تبارك وتعالى ابراهيم تكريما خاصا .. فجعل ملته هي
التوحيد الخالص النقي من الشوائب . وحمل العقل في جانب الذين يتبعون
دينه .

قال تعالى في سورة البقرة : « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا
من سفه نفسه » ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وانه في الآخرة من
الصالحين » [٢] .

واتنى الله سبحانه على ابراهيم فقال في سورة النحل :

« ان ابراهيم كان امة قلنا له هنيئا ولم يك من المشركين » [٣] .

وكان من فضل الله على ابراهيم ان جعله الله اماما للناس ، وجعل في
فريته النبوة والكتاب . نادا كل الانبياء بعد ابراهيم هم لولده واحفاده ،
وتحقق وعد الله له فلم يبعث بعده نبي الا حاء من نسله .

.. حتى اذا حاء آخر الانبياء محمد صلى الله عليه وسلم .. جاء
تحقيقا واستجابة لدعوة ابراهيم التي دعا الله فيها .. لن يبعث في الاميين
رسولا منهم .

ولو مضينا نبحث في فضل ابراهيم وتكريم الله له فسوف نبتهل
بالدهشة .

(١) الآية ٢٧ من سورة النجم مكية .

(٢) الآية ١٢٠ من سورة البقرة مدنية ..

(٣) الآية ١٢٠ من سورة النحل مكية ..

نحن أمام بشر جاء ربه بقلب سليم . اتسأل لم يكذب الله يقول له السلام
حتى قال أسلمت لرب العالمين . من هو أول من سمعنا المسلمين . نبي
أثرت دعوته المستجيلة من معك محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

نبي كان جدا وأما لكل نبياء الله الذين جاءوا بعده ..

نبي هادي مصلح هليم أواه منيب .

قال تعالى في سورة هود : « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » [١]

وقال في سورة الصافات : « أسلم على إبراهيم » [٢] .

هكذا تحدث الحلال الخالق عن عبده إبراهيم .

هذا الذي سبق كله في كفة ..

وهذا الذي قلناه الحق منه كلمة ترجع ..

لم يرد في كتاب الله ذكر لنبي .. اتخذ الله خليلا .. غير إبراهيم .

هو وحده الذي اختصه الله عز وجل بقوله في سورة النساء .

« واتخذ الله إبراهيم خليلا » [٣] .

قال العلماء : الخلوة هي شدة المحبة . وبذلك تعني الآية .. واحد الله
إبراهيم حبيباً .

يرتد نظر العقل وهو يحاول استشراف هذه القمة ..

مجرد تصعيد النظر نحو هذه القمة الشايخة يثير الدوار .

فوق هذه القمة الشايخة يحل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

كيف ؟

بم استحق ما استحق ؟

أي قلب كان قلبه ..

بأي رحمة خلق .. من أي سل صبيح .. وأي حب كان يسمع ؟ .

إن منهي أمل السالكين ، وغاية هدف المحتجبين والصوفية .. أن
يجبوا الله عز وجل .

أما أن يحلم أحدهم أن يحبه الله . أن يفرده بالحب . أن يخصه بالخلوة وهي
شدة المحبة ..

فذلك شيء وراء آفاق التصور .

(١) الآية ٧٥ ، مكية .. (٢) الآية ١٠٩ مكية ..

(٣) من الآية ١٢٥ من سورة النساء ..

كان إبراهيم هو هذا المبدع الربيعي الذي استحق أن يتفخذه الله
.. خليلاً ..

تلك درجة من درجات الأنبياء لا نعرف مقدارها .. ولا نعرف كيف
نصفها ، وبمعتقد أن أي كلمات بصرية تقال عنها ، تكون سبجاً يظلمها ويسوء
اليها .. نحن أئمة غيظ الله من نور السماوات والأرض .

نعرف أن محار البحر الذي يصنع اللؤلؤ ، يصنعه حين يقتحم جسم
غريب عالم اللؤلؤ الداخلي ، كان الجراح طرد اللؤلؤ .

نحسب بيقين .. أن المحار الذي يصنع اللؤلؤ كان يقد قلب إبراهيم
فيما يفعل ، نحن أئمة قلب التي في هذا العلم .. كلما أصابه منه جرح
صنع لؤلؤة ..

ومن المدهش أن هذا القلب أدرك رشده من طفولته .

لا يتحدث القرآن عن ميلاده أو طفولته ، ولا يتوقف عند عصره
صراحة ، ولكنه يرسم صورة لجو الحياة في أيامه ، فتدب الحياة في عصره
ونرى النفس قد انقسموا ثلاث فئات :

فئة تعبد الأصنام والتماثيل الخشبية والحجرية .

وفئة تعبد الكواكب والنجوم والشمس والقمر .

وفئة تعبد الملوك والحكام .

أطفئت نوار العقل في مشارق الأرض ومغربها .. وجلس الظلام
على عروش المتعددة . واشتد ظمأ الأرض إلى الرحمة .. واشتد جوعها
إلى الحق .

وفي هذا الجو ولد إبراهيم .

ولد في أسرة من أسر ذلك الزمان البعيد .

لم يكن رب الأسرة كائناً ما كان من عبدة الأصنام .. كان كائناً ممتازاً
يصنع بيديه تماثيل الآلهة ..

قيل أن أباه مات قبل ولادته فرباه عمه ، وكان له بمقابلة الأب ،
وكان إبراهيم يدعو به بلهظ الأبوة ، وقيل أن أباه لم يمت وكان أزر هو
والده حقاً .

وقيل أن أزر اسم صنم اشتهر أبوه بصناعته .. ومهما يكن من أمر
فقد ولد إبراهيم في هذه الأسرة .

رب الأسرة أعظم نحات يصنع تماثيل الآلهة . فلما تجدد على نحت
تماثيل الآلهة وتكرار نفسه . وبهنة الأب تضل عليه قداسة خاصة في
قومه . ونجعل لأسرته كلها مكاناً ممتازاً في المجتمع .

هي أسرة مرموقة من الأسر الأرستقراطية بضمير زماننا ..

أسرة من الصفوة العظيمة .

من هذه الأسرة المتفصصة .. ولد طفل قدر له أن يطف ضد أسرته
وصد ظلم محتججه وصد لوهلم قومه وصد طنون انكبة وصد العروش
انكبة وصد مددة النجوم والكواكب وصد كل انواع الشراك بلعنصر .

وكل طبعها لن يكون حراؤه الاقاء لن الضار حب .

لا تريد ان نصق الاحداث .

لندا معه منذ طفولته .

كان عقله مضطربا من طفولته .

لنا الله قلبه وعقله وآناه رشده وآناه الحكمة من طفولته .

لترك ابراهيم وهو طفل لن لناه يصبح سائيل مربية .

وسلكه بوبيا عبا بسمع ، فاحمره لنها لتقبل الآلهة ، ودهش ابراهيم
واحس داخل عقله بالفرص .. كل يلعب وهو طفل هذه السيمبل ويبسط
ظهورها بطقا سيطر الناس ظهور الحبر والمعل .. وشاهده ابوه بوبيا
يركب ظهر تشل مردوح ، وغصب الاب ولير لانه الا يلعب بهذا السبل
مرة ثانية .

سبل ابراهيم :

— اي تشل هذا يا لي .. لن لنبه كبرت لن .. لكر من آذانا .

قل ابوه :

— انه مردوح رب الارباب يولدي ، وعقل الانسان الكبير لن لرمزن
الى همه الصيق .

حسك ابراهيم بته وبين نفسه .. كل عبره ٧ سنين .

بحتنا القديس برندا على لسبل عيسى كلف سحر لبراهيم من ابوه وهو
طفل .. بقول اب ابراهيم سبل والده بوبيا : من صبح الاسبل يا لي ؟

قل الاب : الاسبل ، لاني لما صنعتك واني صنعتي

لعب لبراهيم : ليس الامر بكلك يا لي .. لاني مسحت شيئا بخلع
ويقول : يا الهي .. لمذا لم تمنني لولادا .

قل الاب : حقا يا لي .. الله ساعد الاسبل ليعب اسلنا ، ولكنه
لا يضع يده ليه فلا يلزم الانسان الا ان يتقدم ويخرج لن الهه ويقدم له
صلانا ولغنا فيساعده الهه .

قل ابراهيم : كم الها هنك يا لي ؟

لعب الشيخ : لا عدد لهم بلني .

قل لبراهيم : ماذا فعل يا لي اذا خضت الها ولزاد من الآخر قرا
لاني لا احبه ، ماذا لو وقع تشل وحصل من الآلهة ، ماذا لو قتل
الاله الذي يريد من قرا الهي .. ماذا فعل .. من المؤكد انه بطنني
تا لهما .

اجاب الشيخ ضحكا : لا تخف يا بني لانه لا يحاصم اله اله آخر ..
فى الهيكل الكبير الوف من الالهة مع الاله الكبير بعل ، وقد بلغت الآن
سبعين سنة من العمر ومع ذلك لم ار اله قط ضرب اله آخر .

قال ابراهيم ، الذى يوجد وفاق بهمهم .

اجاب ابوه : نعم يوجد .

قال ابراهيم : من أى شيء تصنع الالهة ؟

قال الشيخ : هذا من خشب النخل ، وذاك من الزيقون ، وذلك التمثل
الصغير من العاج .. انظر ما أجمله .. حقا لا ينقصه الا النفس .

قال ابراهيم : اذا لم يكن للالهة مدس فكيف يهبون الاناس .. ولما لم
تكر لهم حياة فكيف يعطون الحياة ، من المؤكد يا لى ان هؤلاء ليسوا
هم اله .

حنق الشيخ لهذا الكلام وقال ثائرا : لو كنت بالغا من العمر ما تتمكن
معه من الادراك لشجعت رأسك بهذه الفاس .

قال ابراهيم : يا أبى .. ان كانت الالهة تساعد على صنع الانسان
فكيف يتأتى للانسان ان يصنع الهة .. اذا كانت الالهة مصنوعة من
الخشب فلن احرقى الخشب خطيئة كبرى ، ولكن قل لى يا بيت ..
كيف وأنت تساعد الالهة وتصنع منها اعدادا هائلة .. كيف لم تساعدك
الالهة لتصنع اولادا كثيرين فتصير أقوى رجل فى العلم .

انتهى الحوار بينهما بل مد الاب يده وضرب ابراهيم ..

ومرت الايام .. وكبر ابراهيم .. كان قلبه يمتلئ من طفولته بكراهية
صانعة لهذه التماثيل التى يصنعها والده . لم يكن يفهم كيف يمكن لانسان
عاقل أن يصنع بيديه تماثالا ، ثم يسجد بعد ذلك لما صنع بيديه . لاحظ
ابراهيم ان هذه التماثيل لا تشرب ولا تاكل ولا تتكلم ولا تستطيع ان تعتدل
لو قلبها أحد على جنبها .. كيف يتصور الناس ان هذه التماثيل تضر
وتنفع .

عذبت هذه الفكرة ابراهيم طويلا ..

أمكن أن يكون كل تومه على خطأ ، وهو وحده على الحق .

ليس هذا شيئا مدهشا .

.....

كان لقوم ابراهيم معبد كبير يمتلئ بالتماثيل ..

وكان فى وسط المعبد محراب توضع فيه تماثيل أكبر الالهة .. وكانت
الالهة اتواما وتمثالا واشكالا .. وكان ابراهيم يزور المعبد مع والده
وهو طفل ، كان يحس باحتقار عظيم لكل هذه الإخشاب والحجارة ، الأمر
المدهش هو الناس .. قومه .. كانوا اذا دخلوا المعبد خضعوا رؤوسهم

وهو ا ظهورهم . وبدلوا يكون وينوسلون ويسالونها ثيابه كلها
تصبح لو ثلهم .

من البداية كل هذا انظر بنحو مصححا لاراهيم ، ثم بدأ ابراهيم
بحسن الصب . . اليمى شيئا محصا ان يكون كل هؤلاء الناس
محتوس . ورايت المشكله . ان والد ابراهيم كل يريد ان يكون ابراهيم
كاهنا حين مكر . . ولم يكن والد ابراهيم يريد من انه شيئا اكثر من
ان يحرم هذه التثليل ، غير ان ابراهيم كل لا ينقطع عن الصريح
باحتقاره وكراهيته لها .

وذات يوم دخل ابراهيم المعبد مع ابيه .

وبدأت الاحتفالات بالتثليل . . ووسط الاحتفال راح كبير الكهنة
يوحه الحديث الى مثل كبير الآلهة . . وكل الكاهن يتحدث بصوت ميق
مؤثر ويسال التثليل ان يرهم قومه ويرزقهم .

وخرج صوت ابراهيم الى سكون المصد وهو يحلطب كبير الكهنة :

— نه لا سمحك يا سدى الكاهن . الا لاحتذانه لا يسبح ؟

والتمت الناس لهذا الصبي لوجوده ابراهيم . . شعر كبير الكهنة
بالاحراج والعصب ، واعتذر الاب بدهيا ان اسسه مريض ولا يعرف
ما يقول . . وخرج الاسلى من المعبد ، سحب الوالد ابراهيم الى غرائه
وارقد معه . . وتركه ومضى .

.....

اطلس ابراهيم الى يوم الناس جميعا فبعض من غرائه . . لم يكن
مريض . . كل يحس انه يظل على التثليل عظيم . . يستحيل ان يكون
انه هو هذه اللب الخشيه او السليل الحزبه التى يصممها قومه .

خرج ابراهيم من بيته الى الحبل . . سار وحده فى الظلام . . احمل
كهنا فى الحبل واسد ظهره لاحتارنه وجلس .

نظر الى السماء . .

سئم النظر الى الارض التى تموج بحاهلية تنكس على الاصنام . .
له بكه ينظر الى السماء حتى يذكر انه ينظر لكواكب ويجوم تصد فى
الارض . واما قلب الفنى الصمير محرن رهيم كبير .

نظر الى ما وراء القمر والنجوم والكواكب وادعاه ان يمدحها الناس
وهى مخلوقه تصد حالقتها ، ويظهر مادمه وماس مادمه .

وآدار ابراهيم منه وبين نفسه حوارا داخليا . لم يلبث ان يده الى
حوار مع قومه الذين يحسدون هذه الكواكب .

حتى انه تعالى هذه المواقف بقوله تعالى فى سورة الانعام :

« واذا قال ابراهيم لاسمه ازر : انتخذ اصحابا آلهة ؟ اتى لراك وقومه
فى ضلال مبين . وكلكم برى ابراهيم ملكوت السموات والارض

وليفكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال : هذا
رئى (١) [١] .

لا يحدثنا القرآن من الجو الذى أعلن فيه إبراهيم ذلك . غير أننا نحس
من سياق الآيات أن هذا الإعلان كان بين قومه ، ويبدو أن قومه
أطمئنتوا له ، وحسبوا أنه برغض عبادة التماثيل ويهوى عبادة الكواكب ..
وكانت الملاحاة حرة بين الوثنيات الثلاث : عبادة التماثيل والنجوم
والملوك ..

غير أن إبراهيم كان يدخر لقومه مغالاة مذمعة في الصباح .. لقد
أفل الكوكب الذى التحق بدينته بالأمس . وإبراهيم لا يحب الأفلين .
قال تعالى :

« فلما أفل قال : لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر بازغا قال : هذا
رئى » [٢] .

ذاك إبراهيم في الليلة الثانية يعلن لقومه أن القمر ربه . لم يكن
قومه على درجة كافية من الذكاء ليدركوا أنه يسبحر منهم برقى ولطفه
وحب .

كيف يجمعون ربا ويختفى ثم يظهر .. يفل ثم يشرق .. يفتظلم ثم
يعوديته ؟

لم يفهم قومه هذا في المرة الأولى فكرر مع القمر .. لكن القمر
كالكزهره كأي كوكب آخر .. يظهر ويختفى ..

قال تعالى :

« فلما أفل قال : لن أهم يهتنى رئى لأكونن من القوم الضالين » [٣] .

ملاحظ هنا أنه يحدث قومه عن رفضه للوهبة القمر .. أنه يترك
العقيدة القمرية يهوده ولطف . كيف يعبد الناس ربا يختفى ويأفل . لأن
لم يهتنى رئى .. يفهمون أن له ربا غير كل ما يعبدون ..

غير أن اللقطة لا تصل إليهم .. ويمارود إبراهيم محاولته في لقطة
الحجة على الفئة الأولى من قومه .. عبدة الكواكب والنجوم .

قال تعالى :

« فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا رئى هذا أكبر ، فلما أفلت
قال : يا قوم أتى برئ مما تشركون . أتى وجهي لقدي خطرت
للسموات والأرض هنيئا ، وما أنا من المتركين » [٤] .

(١) من الآيات ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ مكة ..

(٢) من الآية ٧٦ من سورة الأنعام ..

(٣) من الآية ٧٧ من سورة الأنعام مكة ..

(٤) الآيتين ٧٨ ، ٧٩ من سورة الأنعام مكة ..

كل شهده للعقيدة النجمية هو حمام هوته مع صدق النبوة
والنجوم . أعلن أن الشمس ربه لأنها أكثر .

سحره جرت على أذان قومه فلم يسطعها القلوب الموصدة .

لم يلمهم صدق الشمس لهم بمسحوق محبوقا .. لا يصى منه أنه
كبير .. الله أكثر .

صدق أن أعلى أبراهيم أن الشمس ربه . أسطر جس هاء المصعب ،
وعبرت الشمس . ثقت في الأخرى مثل كل الممودات التي تأمل .

بعدما أطل براظه من صلاة النجوم والنواكب .. انتهى هوته الأولى
بوحيشه وجهه للذي نظر السماوات والأرض هبما .. ليس مشرعا
منهم ..

استطاعت حمة أبراهيم أن يظهر الحق .. وبدأ صراع قومه معه ..
لم يسل مع صدق النجوم والنواكب .. بدأوا عدالهم وبخوسهم له
ومعدده .

ورد أبراهيم عليهم قال :

« أتطهرون في الله وقد عدلي ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن
يتباهي ربي شعثا . وسيعرني كل شيء علما ، لئلا تتفكروا .
وكف أخاف ما تتركهم ولا يحلمون أنكم تتركهم بالله ما لم يزل
به عليكم سلطانا ، أي الفريقين الحق بالآمن أن كنتم تعلمون » (١) .

لا يعرف ربه النجوم عليه . ولا صدق الصراع ضد . ولا أسلوب
قومه الذي انمحوه معه لتخويقه .

سألوا الفراعنة هذا كله إلى رده هو .. كل عدالهم بطلان فسطحه
الفران من النجمة ، وذكر رد أبراهيم المطلق المفضل . كيف يحومونه
ولا يحلمون هم .. أي الفريقين الحق بالآمن .

« الذين آمنوا ولم يمسسوا بيمانهم مظلم ، ثوبك لهم الأمن وهم
مجهلون » (٢) .

سئل المسر هنا على المسد الأول ، ليرجع بعد ذلك على مشهد آخر
مع الله التي تضمنت في صلاة الأسماء : فرغ من صدق النواكب
والنجوم وأبقت لصدق الأسماء . أثناء الله الحجة في المرة الأولى كما سيؤتيه
الحجة في كل مرة :

« ولكم حصنا أصفها أبراهيم على قومه ، ترفع درجته من مثله
أن ربه حكيم عليم » (٣) .

(١) الآية ٨٠ + ٨١ من سورة الأنعام بكة .

(٢) الآية ٨٢ من سورة الأنعام بكة .

(٣) الآية ٨٢ من سورة الأنعام بكة ..

سبحانه ..

كان يؤيد ابراهيم ويريه ملكوت السموات والأرض .

لم يكن معه غير أسلامه حين بدأ صراعه مع عبدة الأصنام .. هذه المرة يأخذ الصراع شكلا أعظم حدة . أبوه من الموضوع .. هذه هيمنة الأب وسر مكانته وموضع تصديق القوم .. وهي العداوة التي تتبعها الأعلى ..

خرج ابراهيم على قومه بدعوته . قال لهم غضب وغيرة على الحق :

« ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ » .

« قالوا : وجدنا آبائنا لها عاكفين » .

« قال : لقد كنتم أنتم وآبائكم في ضلال مبين » .

« قالوا : اجعلنا بالحق لم أنت من اللاهين ؟ » .

« قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذي تظهرهن لنا على

ذلكم من الشاهدين » [١] .

انتهى الأمر وبدأ الصراع بين ابراهيم وقومه .. كلن اتسدهم ذهولا وغشبا هو أبوه لو عه الذي رباها كاب ..

.. واشتبك الأب والابن في الصراع .. فصلت بينهما المبادئ ماختلفا

.. الابن يثق مع الله ، والأب يثق مع الباطل .

قال الأب لابنه : مصيبي عليك كبيرة يا ابراهيم .. لقد خذلتني ونسكت الي .

قال ابراهيم :

« يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ؟ »

« يا أبت اني قد حازني من العلم ما أم باتك ، فأتبعني اهدك صراطا

سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان ، ان للشيطان كان للرهمن نصيبا .

« يا أبت اني أخاف ان يمسك عذاب من الرهمن فتكون للشيطان

وليسا » [٢] .

انتفض الأب واقفا وهو يرتعش من الغضب .

قال لابراهيم وهو ثقل :

« أراغب أنت من آلهمي يا ابراهيم ؟ ان أم تلتك لأرجع بك ، وأهجرني

مليسا » [٣] .

(١) الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ من سورة البقرة مكة .

(٢) الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ من سورة مريم مكة .

(٣) الآية ٦٦ من سورة مريم مكة .

إذا لم تتوقف عن دعوتك هذه فسوف أرحيك ، مماقتك ضرباً
مالححاره .. هذا جزاء من يقف ضد الآلهة .. أخرج من بيني .. لا أريد
أن أراك .. أخرج .

.....

انتهى الأمر وأسفر الصراع عن طرد إبراهيم من بيته .. كما أسفر
من تهنده الممثل ربما بالحجارة . رغم ذلك تصرف إبراهيم كإنسان عاقل
كريم . حطبت وأبده ملذب الإنبياء . قال لأبيه رداً على الإهتلات والتعريض
والطرد والتهديد بالقتل .

« سلام عليك .. مايسخفر لك ربي أنه كان بي هيا . واعتزلكم
وما تدعون من دون الله وأدعو ربي ، عسى أن لا أكون بدعاء ربي
ضيقاً » [١] .

وأخرج إبراهيم من بيت أبيه .. هجر قومه وما يصنعون من دون الله
.. وترى نفسه أبداً .. كل يعرف أن هناك احتفالاً عظيماً يقام على
الصفة الأخرى من الشهر ، ويصرف الناس جميعاً إليه .. وانظر حتى جاء
الاحتفال وحلت المدينة التي يعيش فيها الناس .

.....

وأخرج إبراهيم حزناً وهو يقصد بمطعم المعبود .

كانت الشوارع المؤدية إلى المعبود حالية . وكل المعبود نفسه
مجهوراً .. انتقل كل الناس إلى الاحتفال .. دخل إبراهيم المعبود
فأس حادة .

نظر إلى تماثيل الآلهة المنحوتة من الصخر والخشب .. نظر إلى الطعام
الذي وضعه الناس أمامها كخزير وهدايا .

أعترب إبراهيم من تماثيل لأحد الآلهة وسأله :

— لقد برد الطعام أمامك .. لماذا لا تأكل ؟ .

وظل التمثال صامداً جليداً .

وسأل إبراهيم عدداً من التماثيل حوله :

« ألا تأكلون ؟ » [٢] .

كان يسخر منهم ويعرف أنهم لا يأكلون .. وعد بمسائل التماثيل :

« ماكنم لا نأكلون ؟ » [٣] .

ورفع يده للناس وبدأ يعظم الآلهة الكافية التي يصدها الناس ..
حطم الأصنام جميعاً ، وترك تماثلاً واحداً علق في رقبته الناس .. وانصرف
إلى الحبال بعد أن بر بقضيه ، وكان قد أقسم أن يطلق قومه بالدليل

(١) الآية ١٧ ، ١٨ من سورة روم مكية .

(٢) الآية ٩١ من سورة الصافات مكية .

المعلى على غيبتهم في عبادة غير الله . وانتهى الاحتفال في الغلبة الأخرى
وعند الناس .. لم يكذ أول واحد يدخل المبد حتى صرخ .. وتجمع الناس
على صرخته فاحتشوا أن الآلهة جميعها قد تحطمت ما عدا واحدا . وبدأوا
يفكرون ليس يكون عساه مرتكب هذه الغلبة .

وتلفت إلى عقولهم صورة إبراهيم وهو يعتنم ويدعوهم إلى الله ..

« قالوا سمعنا نفي بذكرهم يقال له إبراهيم .. » [١] .

— أحضروا إبراهيم على الفور وحتقوا معه .

هكذا قال الحكم .

وجاء إبراهيم .. وسأله :

« أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم .. » [٢] .

لبسم إبراهيم وقال وهو يشير إلى كبير الآلهة الذي خلق الناس في
رقبتسه .

« بل فعله كبيرهم هذا .. فاسألوهم إن كانوا ينطقون » [٣] .

قال الكهنة : نسأل من ؟

قال إبراهيم : اسألوا آلهتكم .

قال المحقق : أنت تعرف أن الآلهة لا تنطق .

قال إبراهيم : كيف تصنون شيئا لا ينطق .. ولا يتنع .. ولا يضر ؟ ..
ألا تفكرون قليلا ؟ .. أين ذهبت عقولكم ؟ لقد حطمت آلهتكم وكبير الآلهة
واقف بنظر .. لم يستطع هؤلاء الآلهة أن يدفعوا عن أنفسهم الأذى فكيف
يحضرون لكم الخير .. ألا تفكرون قليلا ؟ .. لقد علقت الناس في عنق كبير
الآلهة فلم يقل لماذا فعلت ما فعلت .

أنه لا ينطق ولا يسمع ولا يرى ولا يتحرك ولا يضر ولا يتنع .

أنه لا شيء .. مجرد حجر .

كيف يصد الناس حجرا ؟ ..

أين ذهبت عقولكم ؟ ..

.....

أحمل الله تعالى في سورة الأنبياء هذه المشاهد . قل تعالى :

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عاقلين . إذ قال لأبيه
وقومه : يا هذه القبائل تأتي آتكم لها عتقون . قالوا وجئنا
آبائنا لها عابدين . قال : لقد كنتم أنتم وأبؤكم في شلال مبين .

(١) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء مكية .. (٢) الآية ٦٤ من سورة الأنبياء مكية .

(٣) الآية ٦٤ من سورة الأنبياء مكية ..

قالوا : اجئنا بالحق أم انت من اللاعين ؟ . قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين .
 وتالله لأكينن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم حذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه من الظالمين .
 قالوا : سمعنا غي ينكرهم يقال له إبراهيم . قالوا : عاتوا به على آمين الناس لعلهم يشهدون . قالوا : آتت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ . قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ؟ . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : انكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال اصدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، إني لكم ولما تعبدون من دون الله ، آتلا تمقتلون ؟ .

قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم أن كنتم فاعلين (١) .

الزيم الحجة واسكنهم بالبرهان وناقشهم بسطق الذكر .. فقررنا
 أعدائه حرقا في النار .

نار المحققون وهاج اتباعهم وانعدت محلكة مصحكة انتهت بهما
 حقوتها الحرق .

لم تعد المسألة مسألة صراع بين أنكار .. أو ميلاد .. أو قيم ..

لقد أحاطهم إبراهيم — بسخرية توظف القلب — إلى كبير الآلهة واتهمه بأنه هو الذى حطم الآلهة . وطلبهم أن يسألوا الآلهة من حطها .. ولكن الآلهة لا تنطق .. كيف بعد الناس ما لا ينطق ولا يعي .. حتى نهاوت الحجة نهضت الكبرياء . وحين أسقط دليلهم مبتا نهض العناد .. وقرر أعدائه حرقا .

لقى القبض عليه ، وبدأ أعداد المحرقة . كانت حشيت الحكم الدائل
 تلهس في حيلة موحزة تقول : حرقوه وانصروا آلهتكم أن كنتم فاعلين .

.....

ومعلوا ..

مدا الاستعداد لأحراق إبراهيم .. أنتشر البيا في المملكة كلها .

وجاء الناس من الثرى والحصار والمدن ليشهدوا عقاب الذى تحرا على
 الآلهة وحطها واعترف بذلك وسخر من الكهنة .

وحفروا حفرة عظيمة ملأها بالحطب والخشب والأشجار .. وأشعلوا
 فيها النار .. واحضروا المنجنيق وهو آلة جواره ليقدموا إبراهيم منها
 فيسقط في حفرة النار .. ووضعوا إبراهيم بعد أن قيدوا بنيه وقدمه في
 المنجنيق . واشتعلت النار في الحفرة وتساعد اللهب إلى السماء .. وكل

(١) الآيات من ٥١ إلى ٦٨ من سورة الأنبياء مكة ..

الناس يقتلون بعيدا عن حفرة من حرط الحرارة الالهية .. واصدر كبير الكهنة امره بإطلاق ابراهيم في النار .

حاء جبريل عليه السلام ووقف عند رأس ابراهيم وسأله :

— يا ابراهيم .. ألك حلجة .

قال ابراهيم : أيا اليك فلا .

انطلق المنعنيق ملقيا ابراهيم في حفرة النار .

عبط ابراهيم في النار مطما بهبط بقدمه درجة سلم في حديقة ندية .

كثت النار موجودة في مكثها .. ولكثها لم تسكن تمارس وظيبتها في الاحراق .

اصدر الله جل جلاله إلى النار امرا .

قال تعالى :

« قلنا : يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم » [١] .

اطاعت النار فكانت بردا وسلاما على ابراهيم . احترقت قيوده فقط .

وجلس ابراهيم وسطها كأنه يجلس وسط حديقة . كان يسبح بحمد ربه وسجده . لم يكن قلبه يسع غير حب الله .

لم يكن في قلبه مكان حال يسكن ان يتلقى بالخوف أو الرهبة أو الجرع . كان القلب ملينا بالحب وحده .

وملت الخوف .. وقضت الرهبة .. واستعالت النار الى سلام بارد يلطف منه حرارة الجو . ان الذين يصون الله بظه لا يخلقون .. لا توجد الكلمة في قلوبهم أبدا .

.....

جلس الذهب والسكر والكهنة يرقبون النار من مصدر .. كثت حرارتها تنلغ في وجوههم مهدا حارقا وتكاد تزهق ارواحهم .. وظلت النار تشتعل فترة طويلة حتى ظن الكاهنون أنها لن تنطفئ أبدا .. فلما انطمت فوجئوا بابراهيم يخرج من الحفرة سليما كما دخل . وجوههم مسودة من دخان الحريق ، ووجهه بنلأ بالنور والجلال . ثيابهم احترق مصفها بسبب ما تساقط عليها من الاحتساب الملتببة .. وثيابه كما هي لم تحترق .. عليهم اثر الدخان والحريق ، وليس عليه أى اثر للدخان أو الحريق .

خرج ابراهيم من النار كما لو كان يفرج من حديقة .

وتصاعدت صبحت الذهب الكلفة .

فسروا جولتهم خسارة مريرة وسافرة .

« ولادوا به كيدا فجعلناهم الاخيرين » [٢] .

[١] الآية ٦٩ من سورة الانبياء مكة .

[٢] الآية ٧٠ من سورة الانبياء مكة .

لا يحدثنا القرآن الكريم عن مير ابراهيم حين حطم أصنام قومه ،
لا يحدثنا عن السر التي كلف فيها بالدعوة إلى الله ..
ويبدو من استقراء النصوص القديمة أن ابراهيم كان شابا صغيرا
حين فعل ذلك ، بذليل قول قومه عنه :

« سمعنا حتى يذبحهم يقال له ابراهيم » ١ .

والمراد مطلق على السر الذي يصفى العشرين .. ويحدثنا القديس
برنابا في تحفته أن ابراهيم حطم الأصنام قبل أن يكلمه الله تعالى بالدعوة .
يقول برنابا في الفصل التاسع والعشرين أن ابراهيم سمع صوتا
يناديه ..

سأل ابراهيم : من يناديني ؟

جسد سمع قائلا يقول : « أنا ملاك الله جبريل »

فارتاع ابراهيم ولكن الملاك سكن روعه قائلا :

لا تخف يا ابراهيم لأنك حملت الله ، فانت لما حطمت آلهة الناس
مخطييا اصطفاك الله الملائكة والأسباط حتى أنك كتب في سفر
الحياة .

وبعض كلمات برنابا فيقول : أن ابراهيم يسأل ماذا يفعل ليصعد إلى
الملائكة والأسباط .. وأخبره جبريل أن يذهب لهذا اليسوع ويقتل ويصعد
الحمل ليكلمه الله تعالى .

وارتقى ابراهيم الحمل وحفا على ركبته وبذاه الله تعالى ..

أحب ابراهيم : من يناديني .

قال الله تعالى : أنا الهك يا ابراهيم ..

وارباع ابراهيم وسجد على الأرض محفرا وجهه وهو يقول :

— كفى يصغي عندك أبك يا رب وهو قراب ورماد ..

هناك يأمره الله تعالى أن يهيم لأنه اصطفاه عبدا له ، وباركه هو
ومن يسمه ..

.....

هذه الرواية تحدد زمن اصطفاء ابراهيم وتكلمه بنسوة بعد تحطيمه
لأصنام الأصنام والكواكب ..

ولعل هذه اللحظات البصينة التي تعالى فيها الحق سارك وتعالى على
عبدة ابراهيم هي التي تحدث عنها القرآن الكريم في قوله تعالى في
سورة البقرة .

« إذ قال له ربه • اسلم • قال : أسلمت لرب العالمين » ٢ .

.....

١ - ٢٩١ - ٦ سورة البقرة .
٢ - ١٢١ - ٦ سورة البقرة .

وعلى أي حقل ..

فإن زمن اصطفاة الله تعالى لإبراهيم خير محدد في القرآن .. وبالتالي
فنحن لا نستطيع أن نقطع فيه بجواب نهائي ..

كل ما نستطيع أن نقطع فيه برأي ، أن إبراهيم أقام الحجة على عبدة
التمائيل بشكل قاطع ، كما أقامها على عبدة النجوم والكواكب من قبل
بشكل حاسم ، ولم يبق إلا أن أقام الحجة على الملوك المذالمين وعبادهم .
وبذلك تقوم الحجة على جميع الكافرين .

.....

وهكذا يرفع الستار على هذا المشهد .

إبراهيم في حوار مع ملك يعتقد أنه اله .

نقول يعتقد والله أعلم بها في نفسه .. ربما كان قومه يعبدونه ،
وهو يوافقهم على عبادته استخفافاً بحقولهم ، واحتقاراً لهم ، وحفاظاً على
مصالحه .. وربما كان حقاً قد تصور أنه اله لأن آتاه الملك .

نسى أنه مجرد بشر ، وطمس السلطان على قلبه فلم يعد يبصر
بشريته .. لا يهم أي نوع منهما كان الملك الذي اقتنكه إبراهيم معه في
حوار .. ولا ندري هل كان ملكاً على قوم إبراهيم وسمع بخبر محبذته
فاستدعاه ليجادله .. أم كان ملكاً آخر .. كل ما ندرجه أن اللقاء بينهما
أسفر عن سقوط آخر حجاج التلذذ الكثرة .

قال الله تعالى في سورة البقرة :

« ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في دینه أن آتاه الله الملك ؟ إذ قال
إبراهيم : ربی الذي یحیی ویمیت ، قال : أنا لخصی وأمیت ، قال
إبراهيم : فإن الله یأتی بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب
فیهت الذي كفر ، والله لا یهدی القوم الظالمین » [١] .

تجاوز الله تعالى اسم الملك لانعدام أهميته ، كما تجاوز حقيقة
مشاعره ، كما تجاوز الحوار الطويل الذي دار بين إبراهيم وبينه ..

ربما قال الملك لإبراهيم : سمعت أنك تدعوا لاله جديد ..

قال إبراهيم : أهناك له جديد واله قديم ؟ . ليس هناك غير اله واحد
أيها الملك هو الله ..

قال الملك : ما الذي يستطيع ربك أن یفعله ولا تفعله أنا .

كان الملك مصاباً بكبرياء الملك ومرض الغرور ، وكان استئلام
الناس له یزید من احساسه بالكبرياء والغرور .. استمع إبراهيم إلى
الملك وأدرك كل شيء .. وقال إبراهيم مهدوء :

« ربی الذي یحیی ویمیت » [٢] .

[١] الآية ٢٥٨ مدية - (٢) من الآية نفسها .

قال الملك :

« انا احبى ولييت .. [١] » .

لم يسأل ابراهيم كيف يحيى الملك ويبت .. كل يعرف انه كذب ..
عاد الملك يقول :

— استطع ان احضر رجلا يسير في الشارع وانتبه ، واستطيع ان احمو
من يحكوه عليه بالاسداه ولحيه من الموت .. وعظمت لكون فكريا على
الحياة والموت ..

ابتسم ابراهيم لسداجة ما يقوله الملك .. ولحن الحزن في نفسه
.. غير انه اراد ان يثبت للملك انه يتوهم في نفسه القدرة وهو في
الحقيقة ليس قادرا ..

قال ابراهيم :

« على الله باني ملتصق من المشرق ملت بها من المغرب [٢] » .

استمع الملك الى تعدي ابراهيم صليبا .. فلما انتهى كلامه الى
بنت الملك .. احسن بالمعز ولم يستمع ان يصح .. لقد ثبت له ابراهيم
انه كاذب .. قال له ان الله باني ملتصق من المشرق .. فهل يستطيع هو
ان يني بها من المغرب .. ان للكون نظاما وقوانين يمشي طبقا لها .. فواي
حتم ان ولا يستطيع اي مخلوق ان يحكم بها .. ولو كان الملك صليبا
في ادمته الاثويه فليغير نظام الكون وقوانينه ..

— سمعها احسن الملك بالمعز .. ولحزمه انهدى .. ولم يعرف ماذا
يقول .. ولا كيف يصرخ .. اصرف ابراهيم من قصر الملك .. بعد ان يبت
الذي كثر ..

.....

انقلب سهره ابراهيم في الملكة كلها .. تحدث الناس من جهره
ونحله من اسر .. وتحدث اسس من مؤلف مع الملك وكيف ا .. الملك
لم يعرف ماذا يقول .. واستمر ابراهيم في ربه ه تعالى .. ان هذه
لهذي قومه .. حول انعامهم كل الوكيل .. رحم الله لهم ورحمته عليهم
بعد مص قومه وهروه ، ولم يؤمن معه من قومه سوى ابراهيم واحده ورجل
واحد . ابراهيم نسي ساره .. وقد صارت فيها بعد روحه ، ورجل هو
لوط ، وقد صارت معها بعد . وحين اذرك ابراهيم ان احدا من يؤمن
بدهوته .. قرر الهجرة .

فل ان يصر دعا والده لابيل . ثم بس لاراهيم ان والده عمو
ه ، وله لا يوى الابيل . فترا به وفضح علاقته به .

لثبره استبه في فصل الاتباء مصاصف هذه ايفاده ..

١ من ٢٥٥٩ في سورة البقرة
٢ من ٢٥٠٩ في سورة البقرة

فى قصة نوح كان الأب نبيا والابن كافرا ، وفى قصة ابراهيم كان الأب كافرا والابن نبيا ، وفى القصتين نرى المؤمن يعلن براءته من عدو الله رغم كونه ابنه أو والده ، وكان الله يفهمنا من خلال القصة أن العلاقة الوحيدة التى ينبغى أن تقوم عليها الروابط بين الناس .. هى علاقة الايمان لا علاقة الميلاد أو الدم ،

قال تعالى فى سورة التوبة :

« وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه ، فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ، أن ابراهيم لأواه حليم » [١] .

خرج ابراهيم عليه السلام من بلده وبدأ هجرته .

سافر الى مدينة تدعى أور .. ومدينة تسمى حاران .. ثم رحل الى فلسطين وبمع زوجته .. المرأة الوحيدة التى آمنت به .. وصحب معه لوطا .. الرجل الوحيد الذى آمن به .

قال تعالى فى سورة العنكبوت :

« فأمن له لوط ، وقال : ابنى مهاجرا الى ربي ، انه هو العزيز الحكيم » [٢] .

.....

بعد فلسطين ذهب ابراهيم الى مصر .. وطوال هذا الوقت وخلال هذه الرحلات كلها ، كان يدمو الناس الى عبادة الله ، ويحارب فى سبيله ، ويخدم الضعفاء والفقراء ، ويمد يد بين الناس ، ويهديهم الى الحقيقة والحق .

وكانت زوجته « سارة » لا تلد .. وكل ملك مصر قد أعطاهم سيدة مصرية لتكون فى خدمتها ، وكان ابراهيم قد صار عجوزا ، وأبيض شعره خلال عمر أبيض أتلفه فى الدعوة الى الله ، وفكرت سارة أنها وابراهيم وحيدان ، وهى لا تلجب لولادا ، ماذا لو قتلت السيدة المصرية لتكون زوجة لزوجها ، وكان اسم المصرية « هاجر » وهكذا زوجت سارة سيدنا ابراهيم من هاجر ، وولدت هاجر ابنا الأول فاطلق والده عليه اسم « اسماعيل » .

كان ابراهيم عجوزا حين ولدت له هاجر لول ابنائه اسماعيل .

.....

عاش ابراهيم فى الأرض كلها يعبد الله ويسبح بحمده ويتقدس له .

ولمنا نعرف أبعاد المسافات التى قطعها ابراهيم فى رحلته الى الله . كل دائما .. هو المسافر الى الله .

سواء استقر به المقام فى بيته أو حملته خطواته سائحا فى الأرض .

[١] الآية ١١٤ حبة .

[٢] الآية ٢٦ حبة .

مستمع الى انه يحطم انما لباد على الارض وسدق بحره الموت ثم يفتح
في الصور ويقوم قبله الاحواب وفتح الست .

ملا النوم الآخر فلب امره به بالسلام والحب واليقين . واراد ان يرى
يوما يد الجلال الخالق وهي تعمل . . اراد ان يرى يوم القسامة لفضل
ونوعه . . حكى الله هذا الموقف في سورة القمر . . قل فاعلى .

« والافعال ابراهيم رب ارمى كيف يحىي الموتى ، قل : اولى من مؤمن ؟
قل : على ، ولكن ليطيقن قضي [١٧٤] .

لا يكون هذه الرمة في طمئنة القلب مع الايمان الا درجة من درجات
الحب لله . .

« قال : هذا الرمة من الطير مصرهن الملك ، ثم احمل على كل حمل
ممن حزبا ، ثم ادعهم بانيك سمعا ، واعلم ان الله عزيز حكيم [١٧٥] .

فعل ابراهيم بما امره به الله .

فتح الرمة من الطير ورمى اهرامها على الصل . . ودعاها باسم الله
فممن ارمي طهي سماحة ، وسحت الصدور من رؤوسها . وطرقت
اخرى لطر مندممة بحر الانحدار . والحب الصلوع بالثوب لفاء الخلق ،
وسارت الاخرى انصبحة للامانة . وسبت الصبا في الطير ، وحاص حشره
مصرعه يرمى بنفسها في احضان ابراهيم .

استمد محسن المفسرين ان هذه النجوة كانت حب استطلاع من
ابراهيم . . وامقد مصمم انه اراد ان يرى يد الخلال الخالق وهي تعمل ،
فلم ير الاكلوب وان رأى انصبحة . وامقد حفي المفسرين انه اكفى بها
قلبه لله الله ولم يفتح الطير .

ويصدق ان هذه النجوة كانت درجة من درجات الحب فطمئنا المفسر
الى الله ، ابراهيم .

يكثر من حب دائما في مواقع الرمة والحنوع والاستزادة .

واد كل من يحب — سبحانه — يتملى من ابراك الانصار . . فسكن
الرحلة تأملا في آثاره وقدرته . .

ونكلك كانت رحلة ابراهيم . وكذلك كل حبه . . يهد عطشه كلما
ارتوى . .

.....

استبط ابراهيم يوما فسر روحه هاجر ان يعمل اسمها وسيمد
فرحله طوبله . وبعد اند مدب رحلة ابراهيم مع روحه هاجر ومعها اسمها
اسماعيل . . وكان الطفل رضيعا لم يتعلم بعد .

وطل ابراهيم بسمر وسط ارض مرروعة منى بعدها صحراء

[١] من الآية ٢٦٠ طيبة .

[٢] من الآية ٢٦٠ طيبة .

نصره بعدها حصل .. حتى دخل الى صحراء الجزيرة العربية ،
وقصد ابراهيم واديا ليس فيه زرع ولا ثمر ولا شجر ولا طعام ولا مياه
ولا شراب . كان الوادى بخلو تملأ من علامات الحياة . وصل ابراهيم الى
الوادى ، وهبط من فوق ظهر دابته .. وانزل زوجته وابنه وتركهما هناك ،
ترك معهما جرابا فيه بعض الطعام ، وقليل من الماء لا يكفى يومين ..
ثم استدار وتركهما وسار ..

اسرعت خلفه زوجته وهى تقول له :

— يا ابراهيم اين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه شيء ؟ ..
لم يرد عليها سيقنا ابراهيم .. ظل يسير .. عادت تقول له ما قلته
وهو صليت ، أخيرا فهمت انه لا يتصرف هكذا من نفسه ، أدركت ان
الله امره بذلك وسألته : هل الله امرك بهذا ؟

قال ابراهيم عليه السلام : نعم ..

قالت زوجته المؤمنة المظلمة : لن نضيع مادام الله معنا وهو الذى
أمرك بهذا .

وسار ابراهيم حتى اذا اخفاه جبل عنهما وقف ورفع يديه الكريمتين الى
السماوات وراح يدعو الله :

« ربنا انى نسكنت من ثرى بواد غير ذى زرع عند بيتك
المحرم » [١] .

لم يكن بيت الله قد اعيد بناؤه بعد ، لم تكن الكعبة قد بنيت ، وكانت هناك
حكمة عليها فى هذه التصرفات الغامضة ، فقد كمل اسماعيل الطفل الذى ترك
مع امه فى هذا المكان ، كان هذا الطفل هو الذى سيصير مسئولا مع والده
عن بناء الكعبة فيما بعد .. وكانت حكمة الله تقضى ان يمتد العمران الى هذا
الوادى ، وأن يقام فيه بيت الله الذى نتجه جميعا اليه لثناء الصلاة بوجوهنا .

ترك ابراهيم زوجته وابنه الرضيع فى الصحراء وعاد راجعا الى كتابه
فى دعوة الله .. أرضعت أم إسماعيل لبنها وأحست بالمطش .. كتبت
الشمس ملتهمة وساخنة وتثير الاحساس بالمطش .. بعد يومين انتهى الماء
تباعا ، وجف لبن الأم .. وأحست هاجر وإسماعيل بالمطش .. كان الطعام
قد انتهى هو الآخر .. وبدأ الموقف صعبا وهرجا للقلية ..

بدأ إسماعيل يبكى من العطش .. وتركته أمه وانطلقت تبحث عن ماء ..
راحت تمشى بسرعة حتى وصلت الى جبل اسمه « الصفا » .. فسمعت اليه
ووضعت يديها فوق جبينه لتحمي عينيها من الشمس وضيق عينيها وراحت
تبحث بها عن بئر أو أنسل أو قافلة أو حصن أو خير ..

لم يكن هناك شيء ..

ونزلت بسرعة من الصفا حتى اذا وصلت الى الوادى راحت تسمى
سمى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ووصلت الى جبل « الروة » ،
فصعدت عليه ونظرت لترى أحدا لكنها لم تر أحدا .

وعادت الأم الى طفلها فوجدته يبكى وقد اعتد عطشه .. واسرعت الى
الصفا فوقفت عليه ، وهولت الى الروة فنظرت من فوقه .. وراحت تذهب

(١) من الآية ٢٧ سورة ابراهيم عليه .

وهي: سبع مرات بين الصلبي الصخري .. سبع مرات وهي تذهب ويعود .. ولهذا يذهب العلاج سبع مرات ويعودون بين الصبا والمروءة احبباء لدمريث امه الاولى وسيمه المحبب اسماعيل .

عذب عاقر بعد المراء النسيمة وهي مبهدة بصبه نيفت .. وحلست معوار لها الذي كان سوية قدسح من الكاء والطش .

ول هذه اللحظة النسيمة انصبحت رحيمة امه . وشرب اسماعيل عطية الامر وهو ينكي فانتعرت بعب قدسه شر رمرم ..

وعار الماء من الثئر ..

استقت حياة الطقل والام ..

راحت الام بمرف الماء بذهب وهي تشكر امه . وشرب وسلف طلمية ومدات الحياة تدب في المنطقة ..

صنن طلميا حين قلب ان يصبح بلام الله صبا .

وبدب بعض القواطر بسطر في المطقة .. وحذب الماء انسدى المعمر من سر رمرم .. عندا من المسمى . وذا العبرار سمح لحنه على الخش .

وكبر اسماعيل قليلا ..

ومحق به قلب ابراهيم ..

جاء العقب على كبر فاحبه ..

واسى الله تعالى ابراهيم بلاء محبا بسبب هذا الحب .

حكى الله تبارك وتعالى موقف انلاء ابراهيم في سورة الصافات . قل عز وجل :

« وقال : انى اذهب الى ربى سيجدينى ربوب هب لى من الصالحين . فاستجاب له . طيا بلغ منه السمع ، قال : بللى : انى اركب الملم انى انحكك بظفر يلا بوى فقال : ما كنت اعمل ما تلهو سمعنى ان شاء الله من الصالحين . طيا استلبا وبك القمين . ويا ساء لى يا ابراهيم : عد صنعت القرؤا لما كذلك يعزى المصدين . ان هذا لمر انلاء الحمن . وهبناه بديح عظيم . وبركنا عليه من الآخرين . سلام على ابراهيم . كذلك يعزى المحسنين . انه من عبائنا المؤمنين » (١) .

انظر كيف يختار الله عباده .

فيل اى نوع من انواع الاختيار .

من امان من فله ارحم قلب لى الارض . اسبه فلهه لعب الله وح

(١) الآية من ٩٩ الى ١١١ مكية .

من خلق .. جاءه ابن على كبر .. وقد طمن هو في السن ولا أمل هناك في
أن ينجب .. ثم ها هو ذا يستسلم للنوم غيرى في المنام أنه ينجب ابنه ويكره
ووحيد الذي ليس له غيره .

أي صراع نشب في نفسه .

أي نوع من الصراع نشب في نفسه .

يخطئ من يظن أن صراعا لم ينشأ قط . لا يكون بلاه مبينا هذا الموقف
الذي يخلو من الصراع .. نشب الصراع في نفس إبراهيم .. صراع أثرته
مخالفة الأبوة الحثية .. فكر إبراهيم لماذا .. وجاءه الجواب أنه هكذا أراه
الله .. ورؤيا الأنبياء حق .. لقد رأى نفسه في المنام ينجب ولده الوحيد ..
هذا وحى من الله أن ينجب ولده الوحيد .

لماذا .. ؟

أزاحها إبراهيم من تفكيره .. ليس إبراهيم هو الذي يسأل الله لماذا
أو لأي سبب ؟

لا يسأل المحب لماذا ..

وإبراهيم سيد العائنين ..

فكر إبراهيم في ولده .. لماذا يقول عنه إذا أرقده على الأرض لينحه .
الأنفل أن يقول لولده ليكون ذلك لطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذ
قهرًا ويذبحه قهرًا .

هذا أفضل .. انتهى الأمر وذهب إلى ولده .

« قال : يا بني : اني أرى في المنام اني لأبوك ، فانتظر ماذا ترى ؟ » (١)

انتظر إلى لحظة في البلاغ ولده ، وترك الأمر ليعظر فيه الأس ماطامة
.. أن الأمر مقضي في نظر إبراهيم لأنه وحى من ربه .. لماذا يرى الابن
الكريم في ذلك . أحب إسمايل بن إبراهيم بنفس جواب إبراهيم .. هذا
أمر يا أبي فبادر بتنفيذه ..

« يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » (٢) .

تأمل رد الابن .. انسان يعرف أنه سيذبح فيمثل للأمر الإلهي ويقدم
المشيئة ويطلب من والده أنه سيحده .. أن شاء الله .. من الصابرين .

هو الصبر على أي حال وعلى كل حال .

وربما استعجب الابن أن يسمي ذبحا بأمر من الله .. ها هو إبراهيم
يكشف أن الله يتألم في حب الله .

لا تعرف أي مشاعر جاشت في نفس إبراهيم بعد استسلام الله الصبر .

(١) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات بكه .

(٢) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات بكه ..

لا يصرف ..

بما نحن مله حاصمه مدا اساميل رقت على الارض . وهي في الارض رحمة به كذا يرى نفسه وهو مدح .

واذا ابراهيم يرفع يده بالسكين .. واذا امر الله مطاع ..

« طما اسلما .. » { ١٦ } .

استخدم القرآن هذا التعبير .

طما اسلم .

هذا هو الاسلام الحقيقي .

سعى كل شيء ملا يفتى لك منك شيء .

عند مدح . وى اسلمه اسى كل السكين صها صها لاجزاء  مدح .. فسدى الله ابراهيم .

اسمى حساره .. ومدى به اسماص مدح عمن . وصار الفؤء عبدا لقوم له يولدوا بعد .. هم المسطون ..

صارت هذه اللحظة عبدا للمضطمين ..

عند يذكرهم معنى الاسلام الحقيقي الذى كان مله ابراهيم واساميل .

ومصت قصة ابراهيم .

يرث ولده اساميل وعند مصر في ارض انه داما اليه . حلل له وهذه .

ويرث الاليم .. كان ابراهيم قد هاجر من ارض الكلدانيين مسقط رأسه في اعراف وعمر الارض وسكن في ارض كنعان في السامرة .. ولم يكن ابراهيم سبي حلف دعوة الى الله ان يسل من اهل لوط مع قومه . وثان لوط من ارض به . وقد ائمه انه من صفة صها الى قوم من اعداء من الصفاء

.....

الوقت يقرب من الظهيرة ..

ابراهيم يجلس خارج حبيبه .. مصر في ولده اساميل وقصه الرؤيا . ولداً انه له مدح عمن .. مله سطرء بالنبوء والحمد .. لا يعرف كيف معنى ساءه على ربه .. نفيس صها مله عه في اشكر . استغرب قصه كثيرة من نبوء ابراهيم . فذكر اسماء اساميل عه ونسوقه اليه .

معنى هذه اللحظة .

هبطت على الارض اقدام ثلاثة من الملائكة :

هبريل واسرافيل وميكائيل .

(١) من الآية ١٠٢ سورة الصافات يخطه

يتشكلون في صور بشرية . ثلاث صور بشرية من الجمال الخارق .
ساروا صامنين . بهتهم مزدوجة . المرور على ابراهيم وتشويهه .. ثم
زيرة قوم لوط ووضع حد لجرائمهم .
سار الملائكة الثلاثة قليلا ..

التي أحدهم حصة اسم ابراهيم .. رفع ابراهيم رأسه .. تأمل وجوههم
.. لا يعرف أحدا فيهم .. يحدوه بالتحية .

قالوا : سلاما .

قال : سلام .

نهض ابراهيم ورحب بهم .. أدخلهم بيته وهو يظن انهم ضيوف وغريباء ..
ليجلسهم وأطمان انهم قد أطمانوا ، ثم استأذن وخرج .. راح الى اهله .

نهضت زوجته سارة حين دخل عليها .. كانت مجوزا قد أبهى شعرها
ولم يعد يتوهج بالشباب فيها غير وميض الايمن الذي يطل من عينيها .

قال ابراهيم لزوجته : زارنا ثلاثة غريباء .

سألته : من يكونون ؟

قال : لا أعرف أحدا فيهم .. وجوه غريبة على المكاء .. لا ريب انهم من
مكن بعيد .. غير أن ملابسهم لا تتش بالسلر الطويل .. أي طعام جاهز
لدينا ؟

قالت : نصف شاة .

قال : وهو بهم بالانصراف — نصف شاة .. انبهي لهم عجلا سبيبا ..
هم ضيوف وغريباء .. ليست معهم دواب أو أحمال أو طعام .. ربما كانوا
جسومي وربما كانوا فقراء .

اختار ابراهيم عجلا سبيبا وأمر بنده ، فذكروا عليه اسم الله ونحوه ..
وبدا شواء العجل على العجالة الساخنة .. واعدت المائدة .. ودعا ابراهيم
ضيوفه الى الطعام ، وأوقف زوجته في خدمتهم ريادة في الاكرام والحماسة
.. ووضع العجل المشوى أمام الضيوف .

وأشار ابراهيم بيده أن يتفضلوا باسم الله ، وبدأ هو يأكل ليتجسم .

كان ابراهيم كريما يعرف أن الله لا يتخلى عن الكرماء .. وربما لم يكن في
بيته غير هذا العجل .. وضيوفه ثلاثة .. ونصف شاة يكفيهم ويزيد ، غير
أنه كان سيدا عظيم الكرم .

راح ابراهيم يأكل ثم استرق النظر الى ضيوفه ليطن أنهم يأكلون . لاحظ
أن أحدا لا يمد يده الى الطعام .. قرب اليهم الطعام وقال : ألا تأكلوا . عاد
الى طعامه ثم اختلس اليهم نظرة فوجدهم لا يأكلون .. رأى أيديهم لاتصل
الى الطعام ..

عندئذ أوحس منهم خيفة . في تقاليد اليابانية التي عاش فيها ابراهيم ..
كل معنى امتناع الضيوف عن الأكل انهم يقصدون شرا بصاحب البيت .

ولاحظ ابراهيم بينه وبين نفسه أكثر من ملاحظته يؤيد امره صومه .

لاحظ أنهم دخلوا عليه معه . لم يرههم إلا وهم عند رأسه . لم يش معهم دواب محبلهم . لم يش معهم أحبل .. وهوهم عرسه بأما عليه . ذابوا مسكرين وليس عليهم أثر لرب السمر . ثم صعد بهم وهم إلى طمسانه فيخلصون إلى المسئلة ولا يكتلون ..

أرداد خوف ابراهيم .. رفع نظره ليوحد امره ساره بطف في جبهه الحشرة .

حاول أن يقول لها سطرانه الصليبة أنه حاتف من صبوته بلد ففهم المرء .. ومكر ابراهيم في رفاقه وحليه وقومه . أن عند صبوته بلاته ..

وهم في مختل الشلب : وهو رجل محور وشبح .

كن الملائكة يقرلون الفكره التي تدور في نفسه : دون أن يشي بها وحيه . قل له أحد الملائكة : لا تعد .

رفع ابراهيم رأسه وقال صدق عظيم ومراء : اعترف أني حاتف .

لقد دعوتكم إلى الطعام ورحمت بكم ، ولكنكم لا تدعون لبدنكم انه . هل تصون بي شرا .

اسم أحد الملائكة وتل : نحن لا ناكل ما ابراهيم .. نحن ملائكة انه . وقد أرسلنا إلى قوم لوط .

صحت روحه ابراهيم .. كتبت قثية ضلع الحوار بين روحها وسهم لصاحب .

التفت إليها أحد الملائكة وبشرها بالحق ..

— بيشرك الله بالحق ..

صكت المحور وحدها نعمنا وتالت :

« ما وبلى الله وأنا محور وهذا بطل شفا » .

عاد أحد الملائكة يقول لها :

« ومن وراء الحق محبوب » ٢ . شمس و٧٤ من انك .

حاش الشامر في قلب ابراهيم وروحه .. شفا هو العهره والمصحب هو ابراهيم وأجل قلبه نوع من أنواع الفرح العسيف المحبط .. كتبت روحه العاقر بطف هي الأخرى وهي بريحه .. أن بشارة الملائكة مهر روحها هرا عبقا .. أنها محور عقيم .. وروحها شبح كبير .. كيف .. كيف هيس ! وسط هذا الجو البدي المصطرب تسأل ابراهيم :

« ابشرموني على أن مسمى الفكر ، هم يشرون » ٢ .

١ - ٢٩ - ٧٤ سورة هود بكة

(٢) من الآية ٧١ من سورة هود بكة

(٣) الآية ٥٤ من سورة التهم بكة .

لكان يريد أن يسمع البشارة مرة أخرى .. لكن يريد أن يطمئن قلبه ويصيح للمرة الثانية مئة الله عليه .

كان ما يمسسه شعور بشري يريد أن يستوثق .. ويهتز بالفرح مرتين بدلا من مرة واحدة .. أكد له الملائكة أنهم بشروه بالحق ..

« قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القاطنين » [١] .

« قال : ومن يقظ من رحمة ربه إلا الضالون » [٢] .

لم يفهم الملائكة احساسه البشري ، فنهوه عن أن يسكن من القاطنين ، وأنفسهم أنه ليس قاطنا .. إنما هو الفرح . كان رد الفعل على زوجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مدهشا .. عادت للمرة الثانية تتدخل في الحديث .. تسألت بين الذهول والدهشة :

— أأد وأنا عجوز .. ان هذا لشيء عجيب .

رد الملائكة : « قالوا : لتعجبين من أمر الله . رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد » [٣] .

لم تكن البشرية شيئا بسيطا في حياة إبراهيم وزوجته .. لم يكن لإبراهيم غير ولد واحد هو اسماعيل ، تركه هناك بعيدا في الجريفة العربية .

ولم تكن زوجته سارة قد أنجبت خلال عشرينها الطويلة لإبراهيم ، وهي التي زوجها من جاريتها هاجر .. ومن هاجر جاء اسماعيل .. أما سارة ، فلم يكن لها ولد .. وكان حنينها إلى الولد عظيما ، لم يطمئ مرور الأيام من توجهه .. ثم دخلت شيخوختها واحتضر طلبها وبنت .

كلفت تقول : إنها مشيئة الله عز وجل .

هكذا أراد لها .. وهكذا أراد لزوجها .

ثم ها هي في معيب العمر تتلقى البشارة .

ستلد غلاما ..

ييس غلاما عاديا ..

ثالث الملائكة : غلام سليم .

ليس هذا نصيب .. بشرتها الملائكة أن ابنها سيكون له ولد تشهد مولده وتشهد حياته .. لقد صبرت طويلا ثم بُعثت ثم نسيت .

ثم بحريء جزاء الله مفاجأة تنحو هذا كله في لحظة ..

لماضت دموعها وهي تقف .. هزتها الفرحة فانخرطت في بكاء صامت لا تعرف كيف طأوعها نفسها عليه أمام أغراب ..

وأخمس إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأحاساس محير .. جاءت نفسه

(١) الآية ٥٥ من سورة الحجر مكية .

(٢) الآية ٥٦ من سورة الحجر مكية .

(٣) الآية ٧٣ من سورة هود مكية .

سُئِلَ الرُّحْبَةُ وَانْقَرَبَ . وَكَذَلِكَ يَحْمِلُ أَنَّهُ إِرَاءُ نَحْبَةٍ لَا مَعْرِفَ كَيْفَ يَوْمِيهَا
هَتَهَا مِنَ الثَّكْرِ .

وَهَرُ إِبْرَاهِيمَ سَلْجِدًا عَلَى وَجْهِهِ .

أَنْ أَمَهُ اسْمَاعِيلُ هُنَاكَ . . . نَعْدَا بِهِ وَلَا يَرَاهُ . . . وَهُوَ بِوُجُودِ هُنَاكَ
بَلَّغَ أَمَهُ . . . أَمَهُ أَنْ يَحْمِلَهُ مَعَ أُمِّهِ وَيَرْكُمَا مِنْ وَادٍ عَبْرَ دِي رَرْعَ وَمَاءَ .
هَكَذَا يُفِيدُ تَفْسِيرُ أَوْ إِضْاحٍ .

وَصَدَعَ إِبْرَاهِيمَ بِالْأَمْرِ . . . وَعَائِشَ يَدْعُو أَمَهُ وَحْدَهُ . . . هَا هُوَ أَمَهُ تَعَالَى
يُثَرِّقُ نَعْدَ شَبَحُوخَتِهِ أَنَّهُ سَيَنْصَبُ اسْحَقَ مِنْ سَارَةِ . . . وَمِنْ مَعْدَةٍ بِمَقْطُوبٍ .

اسْمَى الْأَمْرَ وَاسْتَفْرَتِ اسْتَرَى فِي دَهْسِيهَا مَعًا . . . يَهْمُ إِبْرَاهِيمَ بِسَنْ
مَسْجُودَةٍ فَوَقَّعَتْ عَيْنَهُ عَلَى الطَّعْمِ . . . أَحْسَنَ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَمِرَّ مِنْ
الْأَكْلِ مِنْ مَرْطَ غَرَحَتِهِ . إِنْ حَذَمَهُ لَنْ يَحْمِلُوا الطَّعْمَ وَالنَّمْلَ أَيْ الْمَلَايِكَةَ .

دَخَلَ مَعَهُ حَوْفُهُ . وَأَطْلَبَتْ حُرَّتُهُ . وَعَلَّزَتْهُ الرُّوعُ . وَمَسَكَتْ قَلْبَهُ الْبُشْرَى
الَّتِي حَمَلَتْهَا إِلَيْهِ . وَتَذَكَّرَ أَمَهُ أَرْسَلُوا إِلَى قَوْمِ لُوطَ . . . وَلُوطُ أَيْ أَنَّهُ
الْبَارِحُ مَعَهُ مِنْ مَسْفُطِ رَأْسِهِ . وَالسَّلَكُ عَلَى مَعْدَةٍ قَرَسَهُ بِهِ . . . وَإِبْرَاهِيمُ
يَعْرِفُ مَعَى أَرْسَالِ الْمَلَايِكَةِ لَنْ لُوطَ وَتَوْبَهُ . . . هَذَا مَصَادُوعُ عَذَابٍ مَرْوَعٍ
. . . وَطَبِيعَةُ إِبْرَاهِيمَ إِنْجِيهِ أَبَدُودٍ لَا يَحْمِلُهُ نَظِيرُ هَذَا قَوْمٌ فِي مَسْلَمٍ
. . . رَمَا رَهْمَ قَوْمِ لُوطَ وَأَنْفَلَمُوا وَأَسْلَمُوا وَأَجْمَعُوا رَسُولَهُمْ . . . رَمَا حَفَّتْ هَذَا

وَبَدَا إِبْرَاهِيمَ يَحَادِلُ الْمَلَايِكَةَ فِي قَوْمِ لُوطَ .

حَفَلَهُمْ مِنْ أَحْتِمَالِ آيَاتِهِمْ وَرَحْمَتِهِمْ مِنْ طَرِيقِ الْمَحْوَرِ . وَأَمِيهِ الْمَلَايِكَةُ أَنْ
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مَحْرُومُونَ . . . وَأَنْ مَوَاسِمَهُمْ هِيَ أَرْسَالُ حَقَارَةٍ مِنْ طَبَسٍ مَعُومَةٍ عِنْدَ
رَبِّكَ لِلْبَسْرِيسِ . . . وَعَدَدُ إِبْرَاهِيمَ . . . نَعْدُ أَنْ يَدَّ الْمَلَايِكَةُ نَبْ هَذَا الْخَوَارِ ،
عَدَدُ يَحْتَنُّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَوْمِ لُوطَ . سَأَلَهُمْ : أَلَيْسَ كَوْنُ قَرَبِهِ مَعَهَا بِلَايَتِهِ
مُؤْمِنٍ . قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ : لَا . . . مَرَّاحَ مَقْصُوفٍ مِنْ عَدَدِ الْمُؤْمِنِينَ وَيَسْأَلُهُمْ أَيْهَلُكَوْنَ
الْقَرَبَةِ وَفِيهَا هَذَا الْعَدَدُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . . .

رَدَّتْهُ الْمَلَايِكَةُ بِقَوْلِهِمْ : نَحْنُ أَهْلَمُ مِنْ فَيِّهَا .

لَمْ يَهْبُوهُ أَنْ الْأَمْرَ قَدْ قَضَى . . . وَأَنْ مَشْنَعَهُ أَفْهَ شَارَكَ وَمَعَالَى قَدْ أَقْسَمَتْ
عِنْدَ الْأَمْرِ وَهَلَاكَ قَوْمِ لُوطَ . . . أَمَّيُوا إِبْرَاهِيمَ أَنْ عَلَيْهِ أَنْ يَعْزِضَ مِنْ هَذَا
الْخَوَارِ . . . لِيُؤَمِّرَ حَلِيَّهُ وَرَحِمَتَهُ لَقَدْ هَاءَ أَمْرُ رَنِهِ ، وَتَقَرَّرَ طَبِيعُهُمْ عَذَابٌ عَمِيرٌ
مَرْدُودٌ . . . عَذَابٌ لَنْ يَرُدَّهُ جَدَالُ إِبْرَاهِيمَ . . .

هَذَا أَلَسَ الْحَلِيمُ الْآوَاءَ الْمَسِيبَ .

تَبَلَّغَ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودَ :

« وَلَقَدْ هَمَّتْ رَسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ، فَالْتُوا : سَلَامًا ، قَالَ : سَلَامٌ ،
فَمَا كُنْتُ أَنْ هَاءَ يَحْمِلُ حَيْضًا . فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ تَكَرَّمُ
وَأَلْهَسَ مِنْهُمْ هَمَّهُ ، فَالْتُوا : لَا نَحْفَ ، فَأَنَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطَ .

وأمراته قائمة ضحككت ، فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب . قالت : يا ويلتى ! الله وأنا مجروز وهذا يملئ شيطاناً ! إن هذا شيء عجيب . قلوا : اتصّبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد . فلما ذهب عن إبراهيم الأروع وجاعته الشرى ، يحدثنا في قوم لوط . أن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم اعرض عن هذا إنه قد جاء لك ربك ، وأنهم آتيتهم عذاب غير مردود . . . [١] .

كانت كلمة الملائكة إيذاناً بنهاية الجدل . .

سكت إبراهيم .

رأسل السّار على هذا المشهد . . ليرتفع على نهاية قوم لوط . .

يستأنن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قليلاً لنرى ماذا كان من أمر لوط وقسوم لوط .

(١) الآيات من ٦٩ إلى ٧٦ مكية . .

قصة لوط

[عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى في سورة الشعراء :

« كُنْتُ نَوْمَ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ : إِنِّي أَنُفِقُ . إِنِّي
أَكْتُمُ رَسُولَ رَبِّينِ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْطَّغُوتَ » (١) .

.....

هَذَا أَرْضُ الرَّمْيِ الَّذِي وَالْوَدَّ الْمُنْفُسُ دَعَا لُوطَ قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ .

دَعَاهُمْ إِلَى عِلَادَةِ اللَّهِ وَهَذِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَبَعَاهُمْ مِنْ كَسْبِ الْمَيْمَنَاتِ
وَالْفَوَاحِشِ . وَأَمْسَلَتْهُمْ دَعْوَتُهُ بِقُلُوبِ قَائِمِهِ وَأَهْوَاءِ مَرِيضِهِ وَرَيْصِ مُسْكَرِهِ .
وَأَسَى أَنْفُسِهِمُ الْغَيْبَ مِثْلَ الْبَهْمِ لُوطُ يَرْتَكِبُونَ عِدَّةً مِنَ الْفَرَائِضِ لَا يَسْمَعُ لَهَا
وَمِمَّا أَيْ مَحْضَرُهُمْ مَبْطَرَحُ . نَبَّهُوا بِفَضْلِ الطَّرِيقِ . وَجَسَّوْهُ الرَّمْيَ .
وَسَوَّاهُمُ بِاللَّيْلِ . وَلَا سَاعَهُمْ مِنْ مُسْكَرٍ . وَفَدَّ رَأْيَهُمْ فِي مَحَلِّ حَرَامِهِمْ
هَرَمِهِ حَمْدَهُ قُلُوبُ الْعِدَّةِ عَلَى الْأَرْضِ . وَضَمُّوا طَائِفَتَهُ الْأَسْلَمِيَّةَ . وَرُوحَ
الْإِسْتِثْنَاءِ فِي حُطْمِهِ . لَا تَكْفُرُ هَرَمُهُ لَمْ يَسْطَرِّمْ بِهَا حَدَّ مِنَ الْعَالَمِينَ .

كَثُرُوا يَلْتَوُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْفِتْنَاءِ .

قال تعالى في سورة الممت :

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : إِنَّمَا أَمُورُ الْعَالَمِينَ وَأَنْتُمْ مُبْصِرُونَ ؟ أَتَنْكَحُونَ
الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُبْطِلُونَ » (٢) .

بَلْ يَطْرُقُ قَوْمُهُ أَهْلُوا إِحْلَاصِهِ فِي الصَّبْحِ وَمُتْلَقُهُ مَحْمُودٌ .

أَجَلَةٌ مُبْتَكِرَةٌ فِي الْأُخْرَى كَجَرِيمَتِهِمْ ..

« فَمَا كُنْ حَوَائِبَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ

أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَنْظُرُونَ » (٣) .

الْبَيْتُ شَبَابًا مُسْكَرًا أَنْ يَحْمِلُوا عَلَيْهِ الْمُدَّحَ دَايَا بِفَضْلِ الطَّرْدِ وَالْإِحْرَاجِ ..

يَدْعُو أَنْ يَفْسِدَ قَوْمُ لُوطٍ كَلْبًا مَحْكُومَةً شَكْلًا بِأَ .. وَيَدْعُو أَنْ يَفْسِدَ
لَاغِيَتُهُمْ . وَأَسْكَرَهُمْ عَلَى الْحَقِّ . قَدْ فَلَبَّ الْإِنْتِصَاءَ أَمْدَ أَهْلِهِمْ .. فَصَارَ
الرِّجَالُ أَهْدَافًا مَرْمُومَةً بِدَلَالَةِ النِّسَاءِ . وَصَارَ النِّسَاءُ وَالضُّمُورُ هَرَمَةً مَسْجُودَةً
الطَّرْدِ .. كَتَبُوا مَرْمُومَ مَرْمُومِ النِّسَاءِ وَبَقَاؤُهُمْ ..

(١) الآيات ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠

ولقد كانت تصرفات قوم لوط تحزن قلب لوط .. كانوا يرتكبون جريمتهم
علايه في ناديتهم .. وكثفوا اذا دخل المدينة غريب او مسافر او ضيف لم
ينقده من ايديهم احد .. وكثفوا يقولون للوط : استشف أنت النساء ودع لنا
الرجال .. واستطارت شهرتهم الوبيطة ، وحامدهم لوط جهادا عظيما ،
واتام عليهم حجته ، ومرت الأيام والشهور والسنوات ، وهو مانس في دعوته
بغير أن يؤمن له احد .. لم يؤمن به غير أهل بيته .. حتى أهل بيته لم يؤمنوا
به جميعا ..

كانت زوجته كالكرة مثل زوجة نوح ..

« ضرب الله مثلا للذين كفروا : امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت
عبدن من عبدنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا
وقيل : انخلا اقرار مع الداخلين » [١] [سورة النحر] .

وإذا كان بيت الاتسين هو راحته التي يسكن اليها ، فقد كان لوط معضا
خسارح ميه وداخل بيته .. كانت حياته مذايا متصلا ، وعنتا شديدا ،
وكان صابرا على قومه ، واستطالت السنوات ولم يؤمن به احد ، بل راعوا
يمزلون برسائله ويقولون له فيها يقولون :

« اتقنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين » [٢] .

لما وقع هذا ينس لوط منهم ، ودعا الله ان ينصره ويهلك المفسدين ..

.....

خرج الملائكة من عند ابراهيم فاصدين قرية لوط .. وصلوا ساعة
الصر ..

بنفوا أسوار سدوم .. النهر يحري وسط أرض مشجرة خضراء ..
وابية لوط واقفة تبال وعادها من مياه النهر ..

رغبت وجهها فشاهدتهم .. أدهشها أن يكون في الأرض رجال بهذا
الجمال الساحر ..

سألها احد الثلاثة : يا خارية .. هل من منزل ... ؟

قالت [وهي تذكر قوما] : مكانكم لا تدخلوا حتى أخبر أسى وأتيكم ..

تركت وعادها عند النهر وطارت بسرعة نحو أبيها ..

— انتاه .. يريدك فتيل على باب المدينة .. ما رايت مثل وجوههم قط ..

قال لوط لنفسه : هذا يوم مصيب .. وهرع يجري نحو ضيوفه ..

لم يكذب ابراهيم حتى سيء بهم وضاق بهم ذمعا ، وقال : هذا يوم مصيب ..

سألهم من أين جاءوا ؟ .. وما هي وجهتهم ؟ .. فقصوا من أجليته

[١] الآية ١٠ من سورة النحر .

[٢] من الآية ٢٩ من سورة النحر .

وصلّوه أن يصلّهم .. انتهى بهم وسارّ أسهم قلباً ثم وقف وانفتحت
البيم يقول :

— لا أعلم على وجه الأرض أحدث من أهل هذا البلد ..

قال كلينه لبرغمهم من أحب في القرية .. غير أنهم عصوا النظر من
قوله ولم يعلقوا عليه ..

وعند يسير معهم ، ولوى منق الحنث وخسر قسراً وسمى به إلى أهل
القرية .. حدثهم أنهم هناك .. أنهم يحرقون صيوتهم .. حدثهم أنهم يفسدون
في الأرض .. وكان الصراع يجري داخله ، محاولاً التوفيق بين أمرين ..
صرف صيوته عن الميت في القرية ، دون إخراجهم ، وسير أحلال كرم
الصنعة .. عتاً حلول المهام والمليح لهم أن يسمروا في رحلتهم ، يوم
برول هذه القرية ..

كفوا صيوتاً في منهي التحرك ..

ساروا صامتين معظم الوقت .. فلما رأى أصرارهم على البيت في
المنية ، سألهم أن يكتفوا بهذا السهل حتى يأتي المحرب وتنزل العتبة على
المنية .. قال لنفسه : أحدهم إلى البيت بعد أن يسقط الطلام فلا يراهم أحد
من أهل القرية .. ولعلهم هرج المنية في المحر ..

كان هرجاً .. ضيق المسفر .. تساءل الخوف والهم أن يقدم إليهم
طعماً ..

سقط الليل على المنية ..

صحب لوط خيوفه الثلاثة إلى بيته .. لم يره من أهل المنية أحد ..
لم يكد روحه تشهد العيوب حتى سبّلت حارجه صبر أن تشعه ..

أسرعت إلى قومها وأخبرتهم الخبر ..

وانشتر الصر مثل شراره من الكهرباء .. وهرغ قومه إليه ..

قال تحلى في سورة هود :

« ولما هانت رسلنا لوطاً من قوم ، وفسق بهم لزوماً ، وقال : هذا
يوم غضب . وهاء قومه يهرعون إليه ، ومن قبل كانوا يصلون
السينت » [١] ..

ها قد تحققت نموة لوط ..

مداً اليوم الحبيب ..

هائه قومه يهرعون إليه .. هاءوا محبوسين بمرهم .. تسائل لوط
منه وبين نفسه : من الذي أخرجهم ؟ .. وبلغت باحثاً من روحه فلم يره ..
وراد حرمها على حرس .. وقف القوم على باب البيت .. هرج الهم لوط
معلقاً بأبل الحير .. ماذا لو ناشدهم العقل ؟ .. ماذا لو هذنتهم من المطرة

السبية ؟ .. ماذا لو ليقط داخلهم هذا الاحساس السوى الذى يوجه
للخمس الآخر الذى خلقه الله ؟ .. هؤلاء بنائه موجودات فى داره .. هن
ومر لكل النساء فى الأرض .. والنساء أظهر للرجال من الرجال للرجال ..

« وقال : يا قوم هؤلاء بناتى هن أظهر لكم ، فأتقوا الله ولا نظفون فى
ضميى اليس منكم رجل وشيد [١] »

« هؤلاء بناتى هن أظهر لكم » .. يا الذى نعينه هذه العبارة ؟

أراد أن يقول لهم : أميكم النساء فى الأرض .. هن أظهر بمعاني الطهر
النفسى والحسى .. هن يلبين الفطرة السوية .. ويثرن مشاعر كذلك نظيفة
.. ثم هن أظهر حسبا ، حيث أمدت القفرة المعلقة للحياة الناشئة مكملا
طاهرا ..

« فأتقوا الله » .. يلمس نفوسهم من جانب التقوى بعد أن لمسها من
جانب الفطرة .. اتقوا الله وتذكروا أن الله يسمع ويرى .. ويخشى ويصطفى
وأحذر بالعقل انتقاء غضبه ..

« ولا تخفون فى ضيى » .. هى محاولة بالنسبة لئلا يفسد بختهم
وتقاليدهم كدو ينهى عليهم أكرام الضيف لا فضحه ..

« اليس منكم رجل وشيد » .. اليس ليكم رجل عاقل ؟ .. ان
ما تريدونه — لو تحقق — هو عين الجنون .. والمعل أولى بكم والمفضل ..
أن الأمر أمر رشيد وسننه .. إلى جوار أنه فطرية فطرة ودين ومروءة
ونخوة ..

انتظر قومه حتى فرغ من موعظته القصيرة وشجوا بالضحك .. لو أنه
فجر بينهم فتيلة من النكت ما فعلوا مثلاً فعلوا .. لم تلمس كلماته الفطرة
المفجرة المريضة ، ولا القلب الجليل الميت ، ولا العقل المريض الاحق ..
ظلت الفورة الشاذة على اندفاعها المحموم ..

« قالوا : لقد علمت ما أقام فى بناتك من حق ، وإنك تعلم
ما نريد » [٢] .

مسكدا بصراحة تخفى وراء تجهيل الأمر الذى تعرفه الدنيا كلها ..
لم يقولوا له ما يريدونه لأن الدنيا تعرف ، وهو بالتالى يعرف .. إشارة سبينة
إلى العمل السبينة ..

سقط فى يد لوط ..

لمس ضبطه وهو قريب بين القوم .. نازح إليهم من بعيد بخير عشيرة
تحبيه ، ولا أولاد فكور يذممون عنه .. دخل لوط غاضبا وأغلق باب بيته ..
وضع المزلاج فى الباب وقف يستمع إلى الضحكات والخبرات التى تنهال
على الباب ، فبصر الخشب القديم صريحا مزججا ، يوحى بأنه سيكف عن
مقاومته .. وقف لوط برئمة وراء الباب خجلا وحزنا واسفا ..

(١) من الآية ٧٨ من سورة هود مكية .

(٢) الآية ٧٩ من سورة هود مكية .

كل العراء الثلاثة الذين استصحبهم لوط محبسون هائس صليبي ..
 يهتف بهم هو من اللطال .. وذهبت لوط معه وس نصيبه من هطوبه ..
 ورأه احببته بالآلم لأنهم ونقوا عنه وطمعوا فيه .. لا مرمون انه عمر
 فخر على حبلهم .. وادامت سريكت الفوم على اللب ..

بذات احببته سلفوس وسعه داخل اللب وس .. وسرح لوط في لخصه
 يأس حتى ..

« قل : لو ان لي معكم قوة لو اوى الي ركن شطد !! » .

مسي ان يكون له قوة يصددهم من صمعه .. ومسي لو كان له ركن شطد
 يحمي فيه ويوى اليه .. حب من لوط في شطبه وشربه انه يوى الى ركن
 شطد .. ركن الله الذي لا يخطئ من بينه واوليته .. قل رسول الله ..
 صلي الله عليه وسلم ، وهو يفر هذه الآله « رحمه الله على لوط .. من
 يلقى الى ركن شطد » ..

عندما بلغ الصبي مرويه .. وقال النبي كلمه فطرب مثل مصفور يئس
 .. محرك صبورته وبهموا معه .. اطمعوه انه يوى الى ركن شطد ..

« فاقوا : يا لوط اتنا رسل ربك ان ينصروا اليك » .

لا مخرج يا لوط ولا حلف .. محي من الملائكة .. ولن يحلل اللب هؤلاء
 اللوم ..

انكسر اللب معه ، وانفتح الاعصار المحبوم داخل بيت لوط ..

نمض حبريل .. عليه السلام .. وثالث مرده انصار برمه .. بعد الفوم
 انصارهم .. راهوا محبسون داخل الحدران مخرجوا من اللب وهم يسبون
 انهم يدخلونه .. طيسب انصار حبريل عليه السلام انصارهم .. مثل حطى ..

**« واقد راودوه عن صمعه طيسبا اعينهم طوقوا عظامي وطر .. واقد
 صبحهم بكرة عذاب مستقر » [٣] .**

اللبن الملائكة الى لوط وسدروا انه امرهم ان يصحب اعلم الله الخلل
 ومخرج .. صمبسون اصواب مرويه برلزل اللب .. لا ينفذ معهم احد
 .. كي لا يصيبه ما يصيب الفوم .. اي عذاب هذا .. هو عذاب من نوع
 حرب .. مكى لوقوه بالمرء محرد النصر اليه .. اطمعوه ان امراته محب من
 الصبرين .. امراته كثره بهم وسلمت حنينا مسيها ما انصدهم ..

اخرج يا لوط فقد جاء امر ربك ..

سأل لوط الملائكة : اينزل العذاب بهم الآن .. اسوده ان يرمدهم مع
 للعذاب هو الصبح .. اليس الصبح يقرب ؟

قال تعالى :

« انذر باهلك قطع من القل .. ولا بلغت معكم احد الا امرتك .. انه

(١) الآية ٨٠ من سورة هود مكية .

(٢) من الآية ٨١ من سورة هود مكية .

(٣) الآية ٢٧ و ٢٨ من سورة القمر مكية .

**مصيبها ما أصابهم ، ثم موعدهم الصبح ، ليس الصبح
بقريب (١) .**

خرج لوط مع بناته وزوجته .. ساروا في الليل وغذوا السير .. واقترب
الصبح ..

كان لوط قد ابتعد مع أهله ..

ثم جاء ليراه الله تعالى ..

.....

**« فلما جاء أمرنا جمعنا عائلتها سلفها وامطرنا عليها حجارة
من سجيل منصود . مسمومة عند ربك ، وما هي من الظالمين
ببعيد (٢) » [سورة هود] ..**

.....

قال العلماء : اقتلع جبريل ، عليه السلام ، بطرف جناحه مدنيه السمع
من قراها البعيد .. رفعها جميعا الى منزل السماء حتى سمعت الملائكة
أصوات ديكتهم ونساح كلابهم ، ظلم المدن المبيع وهوى بها من الأرض ..

لثناء السقوط كتبت السماء تطهرهم بحجارة من الجحيم .. حجارة صلبة
قوية يتبع بعضها بعضا ، ومطربة بكسائهم ، ومقدرة عليهم ..

لسائر الجحيم يطهرهم ..

وانتهى قوم لوط تاليا ..

لم يعد هناك أحد .. تكست المدن على رؤوسها ، وغارت في الأرض ،
حتى انفجر الماء من الأرض ..

هلك قوم لوط ومحيت مدنيهم ..

نعولوا الى بحيرة من الموت ..

.....

كأن لوط يسمع أصواتا مروعة .. وكان الهواء خلفه يترقق .. وكان
يحائر أن يلتفت خلفه ..

نظرت زوجته نحو مصدر الصوت فانتبت ..

نهرا حسدا وتفتت مثل عمود ساقط من الملح ..

قال تعالى من مدن لوط :

**« فلخرجنا من كان فيها من المزمين . قبا وجسدا فيها غير بيت
من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم (٣) » .**

(١) من الآية ٨١ من سورة هود مكية .

(٢) الايتان ٨٢ + ٨٣ من سورة هود مكية .

(٣) الايتان ٣٥ + ٣٦ + ٣٧ من سورة الذاريات مكية .

هي آية لم تنعش ..

يؤكد ذلك قوله تعالى :

« **واما فسيبيل نعيم** » [١] .. اى بطريق مسلسلوك الى الان
[سورة الحجر] ..

وقوله تعالى فى الصفات :

« **وانكم لتمرون عليهم مصبحين • وبكليل • لالا تعقلون ؟** » [٢] .

بحسب انها آية ظاهرة .. نال الطياء : أن مكان المفسر السمع .. بحيرة
قريبة .. ملؤها أحاج .. وكلمه الماء اعظم من كنهه مياه البحر الملح ..
ومى هذه البحيرة مسخور محببة دائمة .. توهى بان هذه البحيرة التى
ضرب بها قوم لوط كانت شها مشتملة .

يقال ان النحمة الحالية التى يرميها باسم « البحر الميت » فى فلسطين ..
هى مدن قوم لوط السابقة ..

.....

انطرت سلسلة قوم لوط .. استت معهم واسماؤهم من الارض ..
مخطوا من ذاكرة الحياة والأجساد .. وطويت صفحة من صفحات
الفساد ..

وتوجه لوط اول ما توجه الى ابراهيم ..

زار ابراهيم وقص عليه نسا قومه ..

واذعشه أن ابراهيم كان يعلم ..

ومضى لوط فى دعوته الى الله .. مثلما مضى الطليم الأواء الميهب ابراهيم
فى دعوته الى الله ..

مضى الاثنان ينشران الاسلام فى الأرض ..

(١) الآية ٧٦ مكة .

(٢) الأيالن ١٣٧ ء ١٢٨ من سورة الصفات مكة .

قصة إسماعيل

[عليه الصلاة والسلام]

كان إسماعيل طفلاً حين بدأ سفره القاصد إلى الله ..
حملته إليه وأرقدته على الأرض .. نفس المكان الذي نعره الآن باسم
بئر زمزم في الكعبة ..

ليامها لم تكن الشجر قد أنفجرت تحت قدميه بعد ..
كان المكان قفراً ..

صحراء يخطف وهجها البصر .. وتمتد الرمال ليها إلى الأفق .. ويشيع
اللون الأصفر على امتداد النهر .. وليست هناك قطرة ماء واحدة ..

تعلقت هاجر بتياب إبراهيم وهو يتركها مع رضيعها وينصرف ..
- يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي المقفر ... ؟
- يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا ... ؟
- يا إبراهيم أين تذهب ... ؟

راحت الأم تكرر ما تقوله ، وإبراهيم صلبت لا يحيب ..
لا نعرف على وجه التحقيق ماذا كان احساس إبراهيم وهو يتركها
بواد غير ذي زرع .. غير ذي ماء ..

لقد أمره الله بذلك ، وما هو بسدع بالامر راضياً .. جاء في الإسرائيليات
أن سارة زوجته الأولى أدركتها العيرة من هاجر زوجته الثانية فاضطره
إضطراراً لا مهادها وابنها ..

ونعتقد أن هذه القصة موضوعة .. أن تأمل شخصية إبراهيم يقطع بأنه
لم يكن يتلقى أوامره من أحد غير الله ..

لا نحسب أنه كان يلتفت للشاعر العيرة الأنثوية ، ولا نحسب أنه كان
يتصرف بشكل يثير هذه الشاعر ، ولا نحسب أن شخصية سارة نفسها
كانت تدور حول ذاتها أنثوية .. لقد زوجته من جاريتها هاجر لينجب ، كانت
تلم أنها محوز عقيم .. زوجته بنفسها وقبلت على خدمته .. ومنحت كل
وهودها لرجل ليس في قلبه مكان لحب أحد غير هب خالته ..

ستبعد في تكون سارة معنولة عن رحلة إسماعيل وأمه إلى الجزيرة
العربية ..

قال الله تعالى عن سارة وهاجر :

« رغبة الله ومركبته عليكم أهل البيت ، انه هيبذ مجيد » [١] ..

[سورة هود] ..

ليس الامر امر عورة سلبية .. انما هو تكليف الهى احببت حكمته ، ولعل
بـ « ذهبك انك ميا ذهب » حر ، هى ابرهت ابراهيم ان يحل
انها اسماعيل وتقبه ..

— الى أين يا ابراهيم ؟

رب ساطع هاجر فى الدابة ، وربا ساطع سره فى الأخرى ..

صبت ابراهيم ، فصبت المراتلن ..

به حكمه حاقه لا يرد ابراهيم ان يفتح عنها .. ثم يفتح له اذ منها ،
فهو لا يرى مثلها ، وانى لها يصيب من روعات الأعباء ..
.....

ه هو المسار يرفع من هاجر وهى وحده مع اسما فى الوادى المهور
العالي ، الذهب ..

ه هو اسماعيل رصبها بدأ أولى رحلته الى اذ ..

بلاء له وهو طفل ..

وبلاء لآبيه وهو شيخ جاءه الطفل على كبر ..

نئت يا ابراهيم تعلم ان ليس للأهل من نفسه شيء .. ومن يحب اذ
يحب نفسه ه ، ويحب ما يحبه نفسه ه يحبر سزال ..

ذلك متور من قوايس الحب المرقه ، بقوب الأسله صديا يحب ..

ترتفع أعلام الطاعة فحسب ..

لا يصدق ان ابراهيم كان يعلم لماذا يترك اسماعيل واهه فى هذا المكان ..

لا نطن ان الله تعالى قد أخبره ..

انما أصدر اذ امره بحسب .. وأطاع ابراهيم بحسب .. هما يدو شده
البلاء ومحموسه .. وهما يكتف الصب من أصق أصاقه ، وأعظم أصاقه ..

يسخر الله جليلة ابراهيم .. يسخره فى أحب ما يصره الآباء أحب شيء
لديهم ..

وليس محيى حب الله لابراهيم ، وحب ابراهيم ه ، ان ابراهيم كان حلوا
من المشاعر الاستبئية ..

ان خاقه على الصب الألهى نصي انه كل محرا من المشاعر الإسلامية ،
محرا بغير سلطان ..

كان أحسنه بنسماهيل أعظم وُرق وأهش من أحسن أى والد بنه ،
ورغم نك الفاء على الأرض فى مكان مهلت ، لان الله امره بذلك ..

فلم الصراع في نفسه ، واجتاز محنته ، واظهر ربه على ولده ..
حين أحب ابراهيم ابنه لكثير مما ينبغي ، امره الله بذبحه .. لا يريد الله
أغبراً في قلب أتباعه .. من أحب الله لعمله أن يكون محباً في الحقيقة ،
والحُب في الحقيقة من يملأ قلبه حب خالقه وحده ..

.....

ورث اسماعيل حلم أبيه ..

دعا ابراهيم ربه من قبل :

« رب هب لي من الصالحين » [١] ..

قال تعالى :

« فبشرناه بغلام حليم » [٢] ..

نفس حلم أبيه .. نفس صلاحه ، وتقواه ، وأدب النبوة ..
التقى اسماعيل بأول محنة له وهو طفلاً .. وانتهت المحنة بأن فجر الله
نعت تدميه زمزم لتشرب الأم ، ويرضع المولود ..
والتقى اسماعيل بالمحنة الثابتة في حياته وهو شاب ..

« فلما بلغ معه السعي قال : يا بني : اني ارى في المنام قتي لأهلك

فانظر ماذا ترى » [٣] .. [سورة الصافات] ..

بم تظن الابن أحاب ؟ .. لم يسأل ماذا كتبت صفات الرؤيا .. ثم يستوقف
أمر رؤيا أم مجرد حلم ، لم ينفق والده في رؤياه .. كل ما قلته :

« يا أبت افعل ما تؤمر » [٤] .. لا تلقى من جهتي ، ولا يدركك
الاسي والجزع ..

« ستعذني ان شاء الله من الصابرين » [٥] .. هكذا يواجه الابن
الصالح والده الصالح الى الصبر .. ان صاحب القسطن .. ان المسيحية
والنبيح نفسه صابر ، والأولى بالآب أن يصبر ..

هو مستق بينهما أيهما يصبر أكثر ..

يبقى غايته الله ..

قال تعالى في سورة مريم :

« والذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولا
نبييا . وكان يأمُر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه
مرغوبيا » [٦] .

(١) الآية ١٠٠ من سورة الصافات مكة .

(٢) الآية ١٠١ من سورة الصافات مكة .

(٣) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات مكة .

(٤) من الآية نفسها .

(٥) الآية نفسها .

(٦) الايات ٥٤ ، ٥٥ مكة .

بيت الله تعالى

مثل اسمايل في شبه الحرية العربية ما شاء الله له ان يفتن ..
روح الحمل واستنساها واستعديها ، وساعدت بها رموم على سكتي
المسقة وتعيرها ..

استغرب بها معنى القوافل .. وسكتها القتل .. وكبر اسمايل
وروح .. وراره ابراهيم فلم يعبه في شبه ووحد امراته .. سكتها من عندهم
ودعه ، فضاقت الله من الضيق والسدة .. قال لها ابراهيم اذا جاء
روح يربه ان يحبر عنه مله .. عليا جاء اسمايل ، ووصف له روحه
الرحم .. قال - هذا لي وهو يا يرس يرافك .. الحنن .. هك ..

وروح اسمايل امراء منه .. راره ابراهيم ، بلها من حالها .. فعنسه
لهم من نعمة وحبر .. وطلب حبر ابراهيم بعد الروح له .. ولعل
ابراهيم ها كن بصرف محسن داخل وور ككثف .. ان ابراهيم يهيء
اسمايل ليهه عطس .. وهي مهيه مدح الى هذه الانسلي كله ووجه
كله ورحه كلها .. ولو كثر اسمايل محبا في شبه لصاح حلف محمود ..
.. انه يفرغه ليهه لم يكتف عنها السقر بعد ..

كبر اسمايل .. وبلغ الله ..

وحاءه ابراهيم ..

جاءت اللحظة المناسبة لتبرير حكمة الله لها وقع من لور غليظة ..

قال ابراهيم لاسمايل : يا اسمايل .. ان الله امرني بلير ..

حبر جاءه امر دعه عرض عليه الامر صراحة ، وما هو الا بمرص مله
الامر ممنا ليعمل على يوش به ان يحبه به .. من امل امر احضر من
الدمج والسحبه .. لير لا يمس ذات النسي ، وتيا يمس بلايين الخلق ..

قال اسمايل : فاصح ما امرك به ربك ..

قال ابراهيم : وتعتني ؟

قال : وامبك ..

قال : غلب الله امرني ان ابني هنا بيتا ..

اشتر بيده لعل يرتفع هناك ..

انتهى الامر .. وصدر الامر ببناء بيت الله الحرام ..

هو لو بيت وضع للناس في الارض .. وهو اول بيت عبد لله الانسلي

ربه .. ولما كان آدم هو أول انسان هبط الى الأرض .. تاليه يرجع مشعل
بنائه أول مرة .. قال العلماء : ان آدم بنىء وراح يطوف حوله مثل يطوفه
الملائكة حول مرش الله تعالى ..

فى آدم خبة يعبء فيها الله .. شىء طيبى ان يبنى آدم .. بوصفه نبيا -
ببنا لمعبادة ربه .. وحفت الرحمة بهذا المكس .. ثم مات آدم وموت القرون ،
وطال عليه العهد فضاع اثر البيت وخفى مكانه ..

وها هو اسرايم يتلقى الامر ببناؤه مرة ثانية .. ليطل فى المرة الثانية قائما
الى يوم القيامة ان شاء الله ..

وبدا بناء الكعبة ..

والكعبة مجموعة من الحجارة التى لا تضر ولا تنفع .. ولا تزيد عن غيرها
من الحجارة ولا تقل ، لكنها رغم ذلك رمز للتوحيد الاسلامى ، وتنزيه الله ..

كان آدم على التوحيد الربيع والاسلام والتنزيه المطلق ..

وكان ابراهيم حينها ممسليا ، وما كان من المشركين ..

ولقد بنيت حجارتها من طينائية قلب آدم ، وسكنة ابراهيم وحبه ، وهلم
اسماعيل وصدقه .. لا تكاد تدخل المسجد الحرام حتى يقضى داخلك نيار من
الامن العميق والسلام .. تشفى ذاك .. تدور حول الكعبة .. مثل حركة
النرات وهى تمضى حول النواة ..

سلام عظيم يلا المكان والزمان ، ويملوك كجزء من المكان والزمان ..
قد ترى نفسك فى المرة الاولى ولا ترى البيت ولا ربه ..

وربما رايت البيت فى المرة الثانية ، ولم تر نفسك ولا ربك ..

فادا ذهبت الى الحج ، فلم تر نفسك ولا البيت .. ورايت رب البيت
وحده ، فهذا هو الحج الحقيقى .. وهذه هى الكعبة الاولى من بناء
الكعبة ..

قال تعالى :

« واذا يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا نقبل منا
انك انت السميع العليم . ربنا واحطنا بمسلمين لك ، ومن فويتنا
امة مسلمة لك ، ولربنا مناسكنا وتب علينا انك انت القواب الرحيم .
ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يفلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب
والحكمة ويذكهم انك انت العزيز الحكيم » [١] ..

الكعبة حجرة حجارة من الحجارة .. تبند فى الأرض لمبق الأساس القديم
الذى حضره ابراهيم واسماعيل .. هدمت فى التاريخ أكثر من مرة ، وكان
يمالها بماد فى كل مرة .. هى باقية منذ عهد ابراهيم الى اليوم .. وحين
بعث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تحفقا لدعوة ابراهيم .. وهذا

الرسول الكعبة حيث سبت آخر مرة ، وقد نصر الجهد من ساعها منذ نصر
لئلا يها كيا حفره ابراهيم ..

نفس من هذا ان ابراهيم واسماعيل بدلا فيها وحدها هذا السجلات
— بعد ذلك — مصاعفه على الاف الرجال .. وقد صرح الرسول انه يحب
هدها واعلمها الى ائمة ابراهيم ، لولا قرب عهد انوار الله عليه .
وحشبه ان يفتن الناس هدها وسلاها من جديد ..
سلاها بحيث يصل الى قوائم ابراهيم واسماعيل ..

.....

اي عهد شاق بذله النبيان الكريمان وحدها ؟

كان عليها حفر الاسفل لحق عاتر من الارض ، ومن عليها نطم
الحصار من الصل السبده والبريه ، ونقلها بعد ذلك ، وسويتها ، وسلاها ،
ونحنها .. وكان الامر بمسوحب عهد جبل من الرجال ، ونحنها سدا بها
لا يعرف كم هو الوقت الذي استغرقه ساء الكعبة ، كيا يحول الوقت الذي
استغرقه ساء نفسه بوح ، ائمة ان سبسته توح والكعبة كانت بها بلاذا
لناس ومثونه واحا .. والكعبة هي سبسته بوح اسفه على الارض ادا ..
وهي سطر الراغبين في القباة من حول الطوفان دائما ..

لم يحشنا الله من رس ساء الكعبة .. حشنا من لير احطر واحصدي ..
حشنا من سحر نفسه من كان بسبها .. ودعته وهو بسبها .

«ربما نضل بها ، انه تبت السميع العليم » (١) .

ها هو الزمر يسفر من كعبه الشفاه لرى وجه الحقيقه الصالح ورا ..
.. الخرفض الاصلى هو الرجوع الى الله .. ان يضل السميع العليم ..
ولك عليه احلاس المخلص .. وطامه الطمحين .. وهوى النحس
.. وحشق الملتحين ..

«ربما واحمقا مسلمين لك ، ومن فرسا ليه مسلمية لك » .

ان اعظم مسلمين على وجه الارض يوما يدعوا الى ان يعطيه مسلمين
له .. يهرمل ان القلوب من لسمين من اسامه ترخس — سبسته —
ولا يلبس احدها بكر اذ نطلى ، وحيا بعدان الله لستى ما تكون الصاوة ،
وسمى بهه الصور ، ويسالانه ان يضل عليها .. ويسالانه بعدا الاسلام
وسلح فرجه بها ان يسال الله ان يخرج من فرسها ليه مسلميه نه سبسته
.. يريدان ان يربد عدد الحادين الموهودين والطنسين والركم السحود .

ان دعوه ابراهيم واسماعيل بكتف من اهميات الطب المؤمن .. انه
سبي الله بهه ، ومع هذا يتسلط امر الطبهه .. ذك انهاء من انبى يمر
الطبهه ..

(١) من الآية ١٢٢ سورة الفرقه صبه

(٢) من الآية ١٢٨ سورة البقره صبه .

« ولرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم » (١)

أرنا أسلوب العبادة الذي ترمناه .. أرنا كيف تحب ان نعبدك في الأرض ..

وتب علينا .. انك انت التواب الرحيم ..

بمدحها بتجاوز اهتمامها هذا الزمن الذي يعيش في .. بجوارحه بالحنس ويدعوان الله ..

« ربنا وأبعت فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . انك انت العزيز الحكيم » (٢) .. [سورة البقرة]

تحتت هذه الدعوة الأخيرة .. حين بحث محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ..

تحتت بعد الزمعة وازمنة ..

انتهى بناء البيت ، ولراد ابراهيم حجرا مميذا ، يكون علامة خلصة يبدأ منها الطواف حول الكعبة ..

أمر ابراهيم اسماعيل أن يأتيه بحجر مميز يختلف عن لون حجارة الكعبة ..

كان اسماعيل قد بذل جهدا فوق طاعة البشر .. كان جسده مغطيا من العمل .. وسار على قدر ما وسعه الجهد ، تطية لأمر والده ..

حين عذ ، كان ابراهيم قد وضع الحجر الأسود في مكانه ..

— من الذي أحضره اليك يا أنت ؟

قال ابراهيم : أحضره حبريل عليه السلام ..

لأنه بنى الكعبة ..

وبدا طواف الموحدين والمسلمين حولها ..

ووقف ابراهيم يدعو ربه نفس دمه من قبل ..

ان يجعل أئمة من الناس تهوى الى المكان .. قال تعالى :

« خلجمل أئمة من الناس تهوى إليهم » (٣) .. انظر الى النص ..

ان الهوى يصور انحذارا لا يقاوم نحو شيء .. وقمة ذلك هوى الكعبة ..

من هذه الدعوة ولد الهوى العميق في نفوس المسلمين ، رغبة في زيارة البيت الحرام ..

وسار كل من يزور المسجد الحرام ويعود الى بلده .. بحس انه يزداد عطشا كلما ازداد ربا منه ، ويمتق حنينه اليه كلما بعد منه ، وتجره أوقات

(١) من الآية ١٢٨ سورة البقرة مدنية .

(٢) الآية ١٢٩ سورة البقرة مدنية .

(٣) من الآية ٢٧ من سورة ابراهيم مكة .

الحج في كل عام .. فيشعب الهوى الماخذ لظفرك في القلب يروعا الى
رؤية البيت ، وعطشا الى بئر زمزم ..

واخطر من هذا وذاك .. ودا هيبا لرب الست والشر .. رب العالمين ..

.....

قال تعالى حين جادل المجادلون في ابراهيم واسماعيل :

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان هنيئفا مسلما
وما كان من المشركين » [١] .. سورة آل عمران] ..

علمه الصلاة والسلام .. استجاب الله دعائه .. وكان ابراهيم اول من
سماها المسلمين ..

قال تعالى في سورة الحج :

« وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة ابيكم ابراهيم ، هو
مسلما المسلمين من قبل » [٢]

(١) الآية ٦٧ مدية .

(٢) من الآية ٦٨ مدية .

قصة إسحاق ويعقوب

[عليهما الصلاة والسلام]

لا يفكر القرآن الكريم غير ومضات سريعة من قصة اسحق ..
كان ميلاده حدثا خارقا ، بشرت به الملائكة ، وورد في البشري اسم ابنه
يعقوب ..

وقد جاء ميلاده بعد سنوات من ولادة اخيه اسماعيل الذي لم تكن له به
مين الأب طوال طفولته ..

ولقد قر قلب سارة بولد اسحق وبولد ابنه يعقوب ، عليهما الصلاة
والسلام ..

فهر أننا لا نعرف كيف كانت حياة اسحق ، ولا نعرف لماذا أجابه قومه ..
كل ما نعرفه أن الله كنى عليه كنى من الصالحين ..

أما يعقوب فأول نبي من صلبه .

وهو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم .. اسمه اسرائيل .. كان نيا الى
قومه .. ذكر الله تعالى ثلاثة أجزاء من قصته ..

بشارة ميلاده .. وقد بشر الملائكة به ابراهيم جده .. وسارة جدته ..
أيضا ذكر الله تعالى وصيته عند وفاته ..

وسبذكره الله نيا بعد — بغير إشارة لاسمه — في قصة يوسف ..

نعرف مقدار نقواء من هذه الإشارة السريعة الى وفاته .. تعلم أن الموت
كليلة تدهم الانسان فتنسبه اسمه ، ولا يذكر غير همه ومصيبته .. غير أن
يعقوب لا ينسى وهو يموت أن يدمو الى ربه ..

قال تعالى في سورة البقرة :

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لنيه : ما معبدون
من بعدى ؟ قالوا : نعبد آلهك وآله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحق
آلهنا واحدا ، ونحن له مسلمون » [١] ..

أن هذا المشهد بين يعقوب ونيه في ساعة موت ولحظات الاحتضار ،
مشهد عظيم الدلالة ..

نحن أمام ميت يحتضر ..

(١) الآية ١٣٣ حنكية .

ما هي القصة التي تشغل باله ساعة الاحمر ؟
 ما هي الأفكار التي تصدر دمه الذي يهنا للأمر لا مع سكرات الموت .. ؟
 ما هو الأمر الخطير الذي يريد أن يطمئن عليه قبل موته .. ؟
 ما هي الركة التي يريد أن يحلها لاسننه وأحفاده ... ؟
 ما هو الشيء الذي يريد أن يطمئن - قبل موته - على سلامة وصوله
 للناس .. كل الناس ... ؟

سنجد الجواب على هذه الأسئلة كلها في سؤله هو :

« ما نحبون من بعدى » [١] .

هذا ما يشغله ويؤرقه ويقلق ويحرص عليه في سكرات الموت ..
 قضية الإيمان بالله ..

هي القضية الأولى والوحيدة ، وهي الميراث الحقيقي الذي لا يهره
 الموت ولا يفسده .. وهي الدخر والملاذ ..

قال أساء إسرائيل ' بعد الهك واله آباءك إبراهيم وإسماعيل واسحق
 انها واحدا ونحن له مسلمون ..

والنص فاطح في أنهم بعثوا على الإسلام ..

ان حرهوا منه حرهوا من رحمه الله .. وان ملوا فيه أدركتهم الرحمة ..

.....

ما يعقوب وهو بكل أماءه من الإسلام ويطمس على عقيدتهم ..

ومن موته ابتلى بلاء شديدا في أمته يوسف ..

وكان يوسف سببا مثل يعقوب .. وقد أرسله الله تعالى إلى أهل مصر ..

قصة يوسف

[عليه الصلاة والسلام]

أُنزلت قصة يوسف في القرآن الكريم في سورة كاملة بالاسم نفسه ..

روى في أسباب نزولها أن اليهود سألوا الرسول أن يحكى لهم من يوسف .. أحد أنبيائهم القداس .. وكانت قصته تهرات في أحزاء وبلدت في أجزاء وأضيفت إليها أجزاء ونصت منها أجزاء .. فنزلت في كتاب الله كاملة تفصيلاتها الصغيرة الحقيقة .. تالي تعالى في سورة يوسف :

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ » [١] ..

واحتلف العلماء لم سيث هذه القصة أحسن القصص ؟
تبل أنها تنفرد من بين قصص القرآن باحتوائها على عالم كامل من العبر والحكم ..

وتبل لأن يوسف تجاوز عن أخوته ومبر عليهم وعسا عنهم ..
وتبل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين ، والملة والخوابة ، وسير المفوك والممالك ، والرجال والنساء ، وحيل النساء ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد واللقه ، وتصوير الرؤيا وتفسيرها ، وفي سورة فنية بالمعاهد والانتعالات ..
وقيل : أنها سميت أحسن القصص لأن مآل من كانوا فيها جميعا كان إلى السعادة .. ومع تقديرنا لهذه الأسباب كلها .. نعتقد أن ثمة سببا هابا يسير هذه القصة ..

إنها تضي في خط واحد منذ البداية إلى النهاية .. يلتحم مضمونها وشكلها ، ويفضي بك لاهساس حيق يقهر الله وقلبه وتفلذ أحكابه رغم وقوف البشر ضدها ..

« وَاللهُ غَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ » [٢] .. هذا ما تثته قصة يوسف بشكل حاسم ، لا يفتي جسمه أنه تم بنعومة وأعجاز ..

نقد تعرض يوسف طوال حياته لمؤامرات كتئت ثابته من الصق النساس منه ..

أخوته .. كاد له أخوته جريمة قتل للتخلص منه ، ثم عدلوا عنها وخذلوا نفيه ..

(١) الآية ٣ مكية .

(٢) من الآية ٢١ من سورة يوسف مكية

وقع هذا وهو صبي .. وبيع يوسف في سوق العبد في مصر ، واشتراه من اشعراء مقيمين بصرى .. ثم تعرض لأمراء زوجه رجل هنم .. غلبا رخص أموالها التي به في السجن .. وظل سجيناً فترة .. ورعى هذا الهول كله ، فقد وصل لحيماً إلى حكم مصر .. أعطى مرشداه وصار وزير الخبز الأول .. وبدأ دعوته إلى الله من موقع السلطة الحاكمة ..

وبدئ تفسير الله ، وقصص أمره ..

هذا مضمون القصة ..

أما الشكل الذي قدمت به لكل آية في المحب ..

قدمت القصة صوراً بمنطقه مثل فيلم سهيلاتي محمر ..

يسلمك الشهيد إلى الشهيد ، ومجرى النقل أو النظم موحياً فكراً بشراً للحبال ، وثمة فقرات قيمة تترك لحبال المشاهدين بكلها هو .. وثمة عبق في الصورة بمجرى أي فعل بشري في بني سنه ..

والقصة تبدأ بحلم ..

وتنتهي بتفسير هذا الحلم ..

وليس حلم الأنبياء غير رؤيا صليحة يكشف الله لهم فيها أحداثاً لم يحلم بعد .. غير أنها في بداية القصة لا يعرف أن يوسف بن .. أياً بعض السباق القرآني اسم أبيه ، وهو بطوب ، كما حدث المصطفى ، عليه السلام .. والسلام ..

من هنا أن في سائل الحلم بالدهشة ..

تصوّر ثلاثة العقل أول ما تضيء مشهد حلم .. وننظر إلى تعدي الفيلم الذي بدأ بحلم .. أن الحلم مرادف للنوم .. وبذلك أي قصة بالحلم لمجرى بوحى بالحلم .. غير أن ما يقصى الانصراف هو نفسه أحد أساليب تد القصة ، وأحد عوامل حديها .. يتجاوز القرآن الحلم إلى مشهد يوسف وهو صبي صغير يحدث والده عن رؤياه ..

« ألقا يوسف لأبيه : يا أبت : اني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » [١] ..

تصور نوع التعدي الذي يلغظه وحود الحلم على الحيلة ، وتأميل طائفة الحلال كيف شط لمصورة .. أن الدهش الشري محتاج بأن يحلق داخله صورة لسجود الشمس والقمر والكواكب .. لميسنطيط أن يحكي في القصة ..

بعد الصورة المصورة التي تعدي حال أعظم الفتن السمينيين .. تبدأ قصة يوسف .. أو يبدأ الترابط الزمني من قصة يوسف كما عرّفه الله بترك وتعالى في كتابه ..

رأى يوسف حلماً .. وما هو يمكنه إلا لأبيه ..

— — — — —

(١١ آية) من سورة يوسف مكة ،

« قال : يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكذبوا لك كيدا . ان الشيطان الانس كان عدو مبين » [١] .

حذر الأب ولده ان يظهر رؤياه لآخوته .. ان اخوة يوسف لا يصونه ، ولا يحسون التسلسلته بآبيه ، وينكرون امتلاء قلب الأب به .. لم يكن يوسف اخا شقيقا لهم ، تزوج يعقوب زوجة ثانية غير التي تحببت له لبنائه ، واتجب منها يوسف وشقيقا له .. ويوسف ابن يعقوب ، ويعقوب ابن اسحق ، واسحق ابن ابراهيم .. حلقات ظاهرة في سلسلة ظاهرة ..

ويحس يعقوب من رؤيا انه انه سيكون له شأن .. يحكم جو النبوة الذي يحيط به .. وبحكم نقائه الداخلي وشغليته ..

.....

يقول بعض العلماء :

احس يعقوب ان الله يختار يوسف بهذه الرؤيا ..

« وكذلك يجتبيك ربك » [٢] .

وكذلك يختارك ربك ..

« ويعلمك من تأويل الأحاديث » [٣] .

معنى التأويل هو معرفة المال ، وكشف النتيجة .. وإدراك اسرار لم تقع بعد ..

لها الأحاديث ؟

قالوا انها الرؤى والأحلام .. يستطيع يوسف فيما بعد ان يفسر الأحلام والرؤى فيرى من رموزها الغامضة ما سيقع من أحداث ..

وقالوا ان الأحاديث هي الأحداث .. سيعرف مال الأحداث التي تنتمى اليه من بداياتها وأوائلها .. سيلهمه الله الهاما ان يعرف ..

« ان ربك عليم حكيم » [٤] .

رد النبي العلم والحكمة الى الله في ختام حديثه .. فجاء ذلك مناسبا للبدء ..

.....

وعلى العلماء من يقول ان الآية السابقة ليست جزءا من حوار يعقوب مع ابنه يوسف .. وانها هي ثناء من الله تعالى على يوسف .. اجعلت في نسيج القصة منذ بدايتها .. وهي ليست منها .. فالمفروض الا يعرف يوسف ويعقوب تأويل الحلم وتفسيره منذ البداية .. ونحن نختار هذا الرأي (ذهب اليه القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن) ..

[١] من الآية ٥ من سورة يوسف مكة .

[٢] من الآية ٦ من سورة يوسف مكة . [٣] من نفس الآية .

[٤] من الآية نفسها .

واذن نفهم الحوار فيها آخر ..

ان الله يتحدث هنا من اصابه ليوسف .. وهذا بصري سورة يوسف ..
وليس تعليمه تاويل الاحاديث ، واطلاعه على حقائق الرموز التي تقع في
الحياة او الحلم ، غير محمرا له كفى .. والله اعلم حيث يحفل رسالة ..
تحد حكيمته اسئلتها ، وعليه يحيط ..

اسمع الاب الى رؤيا ابنه وحفره ان يحكمها لاحوه ..

استدب يوسف لتحذير ليه .. لم يحدث احوه في رأى ، واعلم القس
انهم كتبوا بكرهه الى الحد الذي يصعب فيه ان طيس انهم ويحكر لهم
دعائله الخاصة واجلامه ..

يحيى محمد يحقوب واسه .. ونسى. الثالث مشهد آخر .. ثمه طبع
ونظله .. ها هم احوه يوسف بأمروا عليه ..

« فقد كل في يوسف واحوه ايات للثلاثين .
« اذ قالوا : يوسف واخوه احب الي اسما منا ونحن عصبة ، ان انانا
قبي ضلال نحن . اسفلوا يوسف او اطرحوه لرعا بطل لكم وجهه
انكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قاتل منهم : لا تصلوا
يوسف واخوه من غيلة الحب بانطه بعض السيرة ان كنتم
صالحين |»

نقول لوراق الحمد القديم ان يوسف حدثهم عن رؤياه ..

ولا يفيد السهل القرائي ان ذلك وقع .. ولو وقع لكان ذكره على السهم
.. ولكن ادعى ان يمسح حفره عنه فيقبلوه .. ان يوسف اسبغ الامر
ابيه ولم يحدث احوه عن رؤياه .. ومع ذلك طيس الاحوة يكيدون له
ويدبرون له مكره .. ذلك ادعى لانسفهم بالظلم ..

قال احدهم : لماذا يحب ليويا يوسف اكثر منا ؟

قال الثاني : ربما لجماله ..

قال الثالث : يوسف واخوه .. احمل الانبل طب الاب ..

قال الاول : هل ليويا ضلالا منها ..

امرح احدهم خلا لليوسوع ..

— اسفلوا يوسف ..

□ لماذا يفضله .. سمعه من هذه الارض .. بطرحه في لرمي محده ..

— ولماذا لا يفضله ويسريح .. يريد ان يخلو لنا وجهه اسف ..

قال قاتل منهم — حرك الله اعماله شغفه خفية ، لو انكر الله في اعماله
ربما يهولا من القتل — قال هذا القتل :

(١) الايات ٦ ، ٩ ، ١٠ من سورة يوسف مكية .

.. ما الداعي لقتله .. أنتم تريدون الخلاص منه .. عظيم جدا .. قتلوا نلقه في بئر نمر عليها القوافل .. ستلتقطه مائقة وترحل به بعيدا .. سيختفى من وجه أبيه .. ويتحقق غرضنا من إبعاده .. ثم نثوب بعد ذلك من جريمتنا ونعود قوما صالحين .

استمر الحوار بعد فكرة النمر .. فبئر أنه كان يعود إليها كحل من أسلم الحلول .. انهزمت فكرة القتل ، واختيرت فكرة التني والإبصار .. كانت أدكى فكرة ..

نقوم من هذا أن الأخوة ، رغم شرهم وحسدكم ، كان في قلوبهم ، أو في قلوب بعضهم ، بعض خير لم يمت بعد ..

استقر الرأي على القلعة في البئر والتخلص منه .. وتم الاتفاق على موعد التنفيذ ..

وها هي المثلة التالية تكشف عن مشهد جديد بينهم وبين الأب ..

« قالوا : يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وأنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وأنا له لحافظون . قال : أنى فيحزنى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب واقتم منه حافظون . قالوا : لأن أكله الذئب ونحن عصبة أنا أذن لخاسرون » [١] ..

دار الحوار بينهم وبين أبيهم بنحوه وعتاب خفى ، وإثارة للبشاعر ..

.. مالك لا تأمنا على يوسف ... ؟

أمكن أن يكون يوسف شقيقنا ، وأنت تخاف عليه بيننا ولا تسلمنا عليه ، ونحن نحبه وننصح له ونرعاه .. لماذا لا ترسله معنا غدا يرتع ويلعب .. لنضل لصحته الخروج والسبب والانطلاق .. ننظر إلى وجهه الأصفر من حرط البقاء في البيت .. أن الطفل يشحب لأنه لا يمارس في طفولته اللعب ..

وأثار يعقوب نقطة لم ترد في حوارهم ..

المسألة أنه يخاف عليه من ذئب الصحراء .. أكلن يتصد الذئب الداخلية فيهم ، لم ذئب الوحوش .. لا أهد يجرى ..

ورأودوه عن اصطحاب يوسف ، وفقدوا فكرة الذئب الذي يخسلف أبوه أن يأكله ..

أهذا محقول ؟ .. نحن عشرة من الرجال .. فهل نعمل معه ونحن كثرة ؟ .. نكون خاسرين فبئر أهل للرجولة لو وقع ذلك .. لن يأكله الذئب ولا داعي للخوف عليه ..

وأنفق الأب تحت ضغط أبنائه ..

سحبوا يوسف في اليوم التالي وذهبوا به إلى الصحراء .. ابتعدوا أكثر مما يفعلون في كل مرة .. اختاروا بئرا لا ينتطع عنها مرور القوافل وحملوه وهبوا بالعداء في البئر ..

(١) الآيات من (١) إلى (١٤) من سورة يوسف مكية .

واوحى الله الى يوسف انه ساج فلا يحزن . والله سيقامه بعد يومه هذا
وينشئهم بيا قبطوه ..

يقرب المشهد ويمسى مشهد آخر

انه محبوه هذا .. لا يراهم وهم يظنون يوسف في السجن .. مستصمرون
سجل انه ليومهم مصر يوه .. يبروه ان يصيح قبيصة وظفوه عازبا في السجن
.. ثم اوحى الله اليه انه تاج فلا يهرع ..

كان في السجن ماء يظنن جسم يوسف فلم يصب بمسوء .. ظنن وحده في
سجاء السرا ثم تعلق بصخرة ثالثة واعتلاها ..

« وجاءوا اليهم عشية سكون » [١]

المشهد هنا ليل خاطري اسود .. بقطنه صوب نكا صر رحل
والاب يظنن في سبه يدهر عليه املاء اسم اسر .. حيث يحضر طلبة ليل
ظلمه الظلوت . وعليه الاغوية التي تنهدا للصبر .

تسائل يمتقوب : لماذا تمكون ؟ . هل حري في الصبر سيء ؟ . فمواوهم
يزدادون بكاء :

« يا اخانا يا يوحنا يسميل وعركا يوسف عبد جمانا ملكه القبط »
وما انت مؤمن لنا ولم كما صليهن » ..

فوحنا بعد عودنا من السجن بان يوسف قد اسفر في حب القبط .
لم بعد يوسف .. ات ان صديقا ولو ك صليهن . وكما نحن لك يا عبد
لا نكدر عليك .. لقد اهل يوسف فمنا . فاهو فيصير يوسف
وجدنا القبطيس ملطها بالدم ولم نجد يوسف ..

« وجاءوا على قبيصة دم كلب » [٢]

فمواو اسم او مرالا وظفوا قبيص يوسف بدم القبط . وسواو في
التململ ان يهرقوا قبيص يوسف .. فمواو قبيص ك هو صليها . وان
صعد بالدم .. وحي اهد اسماء ما يصور انه من القراء ..

فكر قبيص يوسف امام آية الذي كان يظنن .

واضحك يظنن قبيص به . و معه ودائله في صوء السجل اليهود
في القولة .. راح يظننه في بدء فوجدته صليها بحر حداث واحد .. اي صاء
هنا الذي اهل يوسف ا . هذا اظه من داخر قبيص صير ان يصير
قبيصة ؟ !

لو بان يوسف بردي قبيصة احب رطله صير القبيص ولو بان قد
هذه قبيصة قبيص . فاحسونه ملطها قبيص القبيص بالدم ولو بان ربيده
صامعا .. فركت يظنن من داس بدلي . ومن - د - فله . ومن الاحوية
الفراسمة . ان يوسف لم يهذه قبيص .. لقد كرههم القبط اصبر من سب

(١) الآية ١٦ من ص . يوسف مكية .

(٢) الآية ١٧ من ص

(٣) الآية ١٨ من ص

أكدويتهم .. ولو كانوا أهدأ أعصاباً لما انتطو حكاية الذئب من لم ليهم في
جواره معهم ليلة الأمس ، ليقوموا الليلة بتشيلها إياه ..
لترك الأب أنهم يكذبون .. وعبر عن هذا بقوله :

« قال : بل سوف لكم أنفسكم أمرا ، نصبر جميل ، والله المستعان
على ما تصفون » [١] .

نصرف نبي حكيم .. يسأل المسير الجميل الذي يخلو من الشكاة ..
ويستعين بالله على ما دبروه له ولابنه ..

ينطفئ هذا المشهد وتعود صورة للبشر التي التي فيها يوسف ..
صورة عريضة لسمراء مريضة يبدو هناك في آخرها خط طويل من الأبل
والهيل والرجال ..

نقله في طريقها إلى مصر .. قافلة كبيرة .. سارت طويلا حتى سميت
سهارة .. القافلة كلها تتجه إلى البشر ..

توقفوا للتزود بالماء .. أدلى الدلو في البئر .. فخلق يوسف به .. ظن
من دلاه أنه امتلأ بالماء لمسحه .. يا للبشرى .. هذا غلام .. حكاه حكم
الاشياء المنعقدة التي يلتقطها أحد .. يصير عبدا لمن التقطه .. هكذا كان
تقنن ذلك الرمان البعيد .. فرج به من وجدته في البداية ، ثم رعد فيه حين
فكر في حبه ومسئوليته ، وزهد فيه لأنه وجدته سببا صغيرا ، وربما قال
لنفسه أنه لن يباع بشيء يذكر .. وعول على التخلص منه لدى وصوله إلى
مصر .. ولم يكد يصل إلى مصر حتى باعه في سوق الرقيق بثمن بفس دراهم
معدودة . ومن هناك اشتراه رجل تبدو عليه الاهمية .

« وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فادنى دفره ، قال : يا بشرى ،
هذا غلام ، واسره بضاعة ، والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن
بفس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين . وقل الذي
أشتراه من مصر لامراته : أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه
ولدا ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولتطمع من تلويل الاحاديث ،
والله غالب على امره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » [٢] .

انظر كيف يكشف الله تعالى مضمون القصة البعيد في بدايتها ..
« والله غالب على امره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » [٣] .

لقد انطبقت جدران السعودية على يوسف .
التي في البئر . امين . حرم من أبيه . المتط من البشر . سار مسدا
يباع في الأسواق . اشتراه رجل من مصر .. سار مملوكا لهذا الرجل .
انطبقت المساة ، وصار يوسف بلا حول ولا قوة .. هكذا يظن أي انسان
.. غير أن الحقيقة شيء يختلف من الظن تماما ..

(١) من الآية ١٨ سورة يوسف مكية .

(٢) الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ سورة يوسف مكية .

(٣) من الآية ٢١ سورة يوسف مكية .

ما تصور من أنه ناسف ومحنة وسه .. كل هو أول ميم بعد ساء
يوسف في طريقه إلى محله .. وأنه عاش على مره .. بعد طسره ريم
طسره الآخرين .. بعد من حلال طسره الآخرين مسفده وسحقو وعد أنه ..
وقد وعد الله يوسف سواء .. وه هو يلقى محنة على صاحبه الذي ارأه
وه هو السد بطول بروحه أكثر من حواء عسى أن يصح أو مسفده ولذا ..
وليس هذا السد رحلا بين اسبي ، إنما هو رحل بهم . رحل من السد
أنه في مصر .. مسطام بعد مثل أنه ورير من ورراء أمث . ورير حب
مياه القرآن « الحرر » وأن فقياه أسرس صفون الصفات كسياه على
أورراء . لهذا الحرر . وهذا السد . وهذا الطوى . إلى آخره . وأرجح
الأراء أن العزيز هو رئيس وزراء مصر .

وهكذا يمكن الله ليوسف في الأرض .

سجس كسى في حب رحل يحكم . وسقطه الله من تأويل الأحاديث
والروى . وسجس « به » أمث في مصر يوما . وأنه عاش على أمره . ولكن
أكثر الناس لا يعطون .

ثم هذا كله من جدل منه عليه مصر من لها يوسف .

كل يوسف أحب رحل في عهد .. كل وجهه بحيل صفة من التحيل
السرى المدهنى .. ولكن ساء « مياقه وصفه سريره بصغير على وجهه
مزيلا من الحمال .

وتسر الأيالم ..

بكر يوسف ..

« ولا بلغ الله أشده حكما وعلما ، وكذلك جزى المصين » [١٠] .

لوس صحة العلم على الأمور . وأوس علما بالعباء وأهوالها . وأوس
أسلوب في الحوار يحصع من من سيم الله .. وأوس سلا وعفه . حذاه
شخصية أنسية لا تقنوم .

وأمرك سده أن الله قد أكرمه بمرسال يوسف أنه . أكشف أن
يوسف أكثر من رأى في حيله أنه وأسده وشباهه وكما . وحمله
سده مسئولا عن بيته وأكرمه وعليله كليه .

وكانت امرأة العزيز ترمي يوسف يوما بعد يوم . كانت تعنى إليه
وسجس معه وسامل صباء عيه وساءه وسجس . ويرداد أصمها به لجه
بعد أخرى .

هي جاء اليوم الذي اكتسب فيه المرأة لها عسفه .. ومداب يصهر
هبها ليوسف .

برغم القرآن السفل من أشهد الحصى في حد الحب المشوب بالمراع
والتملك من جانب امرأة العزيز .

سؤال تمالي :

« وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك ، قال : معاذ الله انه ربي احسن ملوأي انه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك نقصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين » [١] .

لا يذكر السياق القرآني شيئا عن منها ومنه ، فنتنظر في ذلك من باب التقدير . لقد أحضر يوسف ميسا من البئر ، كانت هي زوجة في الثالثة والعشرين مثلا ، وكان هو في الثانية عشرة . بعد ثلاثة عشر عاما صارت هي في السادسة والثلاثين ووصل عمره الى الخامسة والعشرين ..

تكون الحادثة قد وقعت في هذه السن ..

أغلب الظن أن الأمر كذلك . ان تصرف المرأة في الحادثة وما بعدها يشير الى انها مكتلة جريئة ، ولقد كان هذا المشهد الذي يرفع القرآن الستار عنه ، ذروة في مشاهد قديمة يتركها السياق لخيالنا نحن ..

لقد أحببت زوجة العزيز يوسف ..

وراودته سراحة من نفسه ، واغلقت الأبواب وقالت هيت لك . لن تترى متى هذه المرة . هذا يعني انه كانت هناك مرات سابقة فرقيها منها . مرات سابقة لم تكن الدعوة ليها بهذه السراحة وهذا التمري .

لقد تربى يوسف في قصر كبير وزراء مصر .. تصور أنك بيئة مترقة وغرافا عريضا ، وامراة حسناء وصغيرة ، وفي الشراة زوجها وصبر عبدا لها .. فهي تستدعيه في حجرة نومها ، وتأمره أن يحضر لها كوبا من الماء مثلا .. أو تظهر عليه بلباسها الشفافة ، أو تظهر له مغلفتها كأنها لاتقصد شيئا أو تعريه ما تعري به النساء الرجال ، تصور أنت هذا كله لفترة تمتد لسنوات

سنوات وهما يعيشان في بيت واحد .. تحت سقف واحد ..

وهي تستبيله ألها وتغريه وتغويه .. وهو على تقواه ، وهي على هواها ثم جاء يوم أخير ..

سئبت المرأة هذا الفاحل المستبر والإباء . قررت أن تغير خطتها .. خرجت من الظميح الى التصريح .. اغلقت الأبواب ومزقت لثمة الحياء وصرحت بعبثها ومطالبته بنفسه .

لعلها قالت : يوسف .. ما أجمل وجهك ،

وربما قال : هكذا سورنى ربي قبل أن أخلق . لست مسئولا عن ذلك قالت وهي تقترب منه : يوسف .. ما أشد نعومة شعرك .

قال : أول شيء يبلى في القبر متى .

(١) الايات ٢٢ ، ٢٣ من سورة يوسف بكه .

قالت : يوسف .. ما أصنى حينك .

قال : بهما أنظر إلى منخلق ربى .

قالت : لست شيئاً خلقه ربك ؟ .. أرفع صررك فتنظر إلى وجهى .

قال : أعالج يوم القيلة .

قالت : أبدو منك وتتساعد منى ..

قال : أريد القرب من ربى .

قال : ملأنى حنك .. صرت هروا من الهواء الذى أبغضه .. أحسك
هنا صرت بعده أراك من حلقى .. لن تفلت منى .

وأدرك يوسف أنها قد مرء إليها وقال :

مصدق الله .

استمر الله العظيم .. بعد أن رمى رب الصالحين بهذا البت . وأكرهى
سيد هذا البت تنفخه . فبها أهور . وأى معاج أسمره لنفسى لو فطفت .

قال تمسلى :

« وقد هبت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » [١] .

اتفق المفسرون حول ههنا بالمصبة . وأحلموا حول هه .. فسر قللى :
أنها هبت به بقصد المصبة وهم بها بقصد المصبة ولم يفل . ومن قدس :
أنها هبت به لنفطه وهم بها لصرها . ومن قال : أن هذا انهم كن بينهما قبل
هذا الطفت .. كل حركة حسبه داخل نفس يوسف فى البس التى أهدر
فيها فرة المراهقة .. ثم صر الله هه . وأصل لتفسير تطمس إليه نفسى
أن هناك تطمينا وتأخيرا فى الآية ..

قال أبو حاتم : كنت اقرأ مرهب القرآن على لى عبدة ، فلما أتيت على
قوله تمسلى :

« وقد هبت به وهم بها » [١] .

قال أبو عبدة : هذا على التقديم والتأخير .

ببسى ولقد هبت به . ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها .

يستقيم هذا التفسير مع حسبه الأنباء .. كما يستقيم مع روح الآيات التى
تلحقه مباشرة

« كذلك تصرف عنه السود والفضلاء أنه من عابها المخلصين » .

هذه الآية التى تشب أن يوسف من عباد الله المحضين ، تتطمع فى نفس
الوقت محقة من سلطان اضطط . أن مصالى لا يلمس يوم العلة

[١] من الآية ٢٤ سورة يوسف - ع مكيه

« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » . [١]

ومادام يوسف من عباده المخلصين ، فقد وضع الأمر بالنسبة اليه . لايعنى هذا ان يوسف كان يخلو من مشاعر الرجولة ، ولا يعنى هذا انه كان نى نقاء الملائكة وعدم احتفالهم بالحس . انما يعنى انه تعرض لاغراء طويل قاموه فلم تمل نمسه يوما ، ثم اسكنها تقواها كونه مطلقا على برهان ربه .

عارفا انه يوسف بن يعقوب النبى ، ابن اسحق النبى ، ابن ابراهيم حشد الأسياء واخليل الرحمن ..

.....

وقع تطور على الصراع بينهما .

تطور الحوار من الكلمات الى الايدى .

مدت امرأة العزيز يديها اليه وحاولت ان تحتضنه .

استدار يوسف مصفر الوجه يجرى الى الباب . انطلقت وراءه امرأة العزيز وهى تتعلق بقميصه مثل غريق يتشبث بسفينة .

وصلا الى الباب معا .

انفتح الباب عن مضجعة .

زوجها واحد اقربها .

« واستبقا الباب وقتت قميصه من جبر ، والنيا سجدما ادى

الباب » [٢] .

لم تكن العائقة ترى زوجها يبرز على مسرح الحادثة .. حتى تصرفت بدهاء وصرعة .

كان واضحا ان هناك صراعا .. يوسف يرتعش حياء وينمقد العرق على جبينه .. وهى مخلولة الثمر متضرجة الوجهتين مضطربة .. وقيل ان يفتح زوجها نمه بكلمة ليسال ، بلدته بالقاء التهمة على يوسف .

« قالت ما جزاء من اراد باهلك سووا ، الا ان يسجن او هذاب

لقيم » [٣] .

اتهمته انه راودها عن نفسها . قالت انه حاول اغتصابها .. نظر يوسف لى وجهها براءة وحلم . كان يئوى ان يكتم سرها ويستر عليها ، فلما اتهمته اضطر اضطرارا للدفاع عن نفسه .

« قال : هي راودتني عن نفسى » . [٤] .

يمر السياق على رد الزوج . ونحسب انه قال :

.. اخفضا صوتيكما . ان لى البيت محيدا من العبيد والخدم . هذه مصالحة خاصة .

[١] من الآية ٢٢ من سورة الحجر بحية .

[٢] من الآية نفسها .

[٣] من الآية ٢٥ من نفس السورة يوسف .

[٤] من الآية ٢٦ نفس السورة .

كان رئيس الوراء يمر شبحا هادئاً الأضواء . والطقة التي تعبر فيها أحداث القصة مرفقة وليست رهيبة ، وهي تعادل الحسن بصفاته عاتقه . . وهكذا جلس رئيس الوراء وسمح بحفظ جمال روحه وجمال يوسف ثم التفت إلى قريبها واستنكر برأيه .

قال قريبها : إن دليل القصة يكمن في قبض يوسف . إذا كان مجرد من الأمن كان هذا معناه أنه حاول اغتصابها . من الصعب أن يبرق قبضه دفاعاً عن نفسه .

قال الروح : فإن كان قبضه ممزقاً من الحلف .

قال الشاهد من أهلها : تكون هي التي راودته من نفسه .

مشهد جلس للتبصير . .

القبض ينتقل بين أيديهم وهي تطلب فيه .

مرفقه الشاهد من أهلها . فوجدته مقطوعاً من الحلف . وطر فيه رئيس الوراء فوجدته ممزقاً من الحلف . ثبتت الهمّة على الروحة . .

حكى الله تعالى هذا المشهد في قوله :

« وشهد شاهد من أهلها : أن كان قبضه قد من قبل خصمك وهو من الكافرين . وإن كان قبضه قد من يدك فكنت وهو من الصائمين . لها رأى قبضه قد من يدك قال : أنه من كذبك ، أن كذبك عظيم » [١] .

لما يكسر الروح من حلقه روحه . . لم يتركه في مرفقه ولم يصرح ولم يغضب .

لم يستطع عليه قيم الطقة إراقته التي وقع فيها لحادث أن يواحه الموت بطلقة وتطلب .

قال : أنه من كذبك .

نسب ما فعلته إلى كيد النساء عموماً . . صرح من حلقه عديد عظم . وهكذا سبق الأمر كما لو كان شاة يسقى .

ولا يحسب أنه يصور المرء أن يقال لها : أن كذبك عظيم . فهو دلالة في حسنها على أنها ليس . به مسمومة بفترة الأسماء على الأسد .

بعدها التفت الروح إلى يوسف قائلاً له :

« يوسف : أفرض عن هذا » [٢] .

أقبل هذا الموضوع ولا يحره اهتماماً ولا تحدث به .

هذا هو المهم . . المحادثة على الطواهر . . لا يريد ثمره حول هذا الموضوع . ثم يحس الروح به لم يزل تساءل روحه به بصره أيسل كيد النساء عموماً .

(١) من الآية ٢٦ + ٢٧ + ٢٨

(٢) من الآية ٢٩ سورة يوسف

ويحاول أن يقول لها شيئاً خاصاً ، يحاول أن يحثها ولكن التعنيف ينهض
به إلى أين يمثل في قوله :

« واستغفري لربك أنك كنت من الخاطئين » [١] .

بعد التمريح الأول .. والعظة الأخيرة . انتهى الزوج الموضوع وصرفه
يوسف .

• لم ينفصل سيد البيت بين المرأة ونفاتها .. كل ما طلبه هو اخلاق الحديث
في هذا الموضوع . غير أن هذا الموضوع بالذات . هي هذه الطبقة الراقية
بالتحديد . لم يكن ممكناً أن يخلق .

لتصور جدران وأذان وعبيد وخدم وجشم . وربما حدث أحد خدم القصر
خادمة يحيا في قصر آخر . ربما حكى هذه الخادمة لحاكم تحبه في قصر ثالث
وربما حكى الزوجة لوصيلتها من يلب استشارتها في الخطوة التالية ..

المهم أن الموضوع بدأ ينتشر .. خرج من القصر إلى تصور الطبقة الحاكمة
أو لراقية يومها .. ووجدت فيه نساء هذه الطبقة مادة شهية للحديث . أن
خلو حياة هذه الطبقات من المعنى ، وامرأها إلى اللهو ، يطلع أهمية تصوى
على اللصاح التي ترتبط بشخصيات شهيرة . وزاد حديث المدينة .

« وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز ترلود غناها عن نفسه ، قد
سلفها حبا ، أنا قراها في ضلال مبعين » [٢] .

ها نحن معرف للمرة الأولى أن المرأة هي امرأة العزيز . وأن الرجل الذي
اشترأه من مصر هو عزيز مصر — أي كبير وزرائها — ربما كثر مجرد وزير
حين اشترأه ثم ترقى ..

المهم أنه الآن عزيز مصر .

وانتقل الخبر من عم إلى عم . ومن بيت إلى بيت .. حتى وصل لامرأة
العزيز .

ربما قيل لها : تتحدث المدينة من قصة لمرامك .

تألت : غرامي من ؟

قيل : بيوسف .

تألت : لا أنكر أنني أحبه .

قيل : تتحدث نساء الوزراء من نهالكك عليه ..

تألت : ماذا يقلن .

قيل : أنك في ضلال مبعين .

تألت وقد بدت تلور : أي ضلال . أن يوسف لا يقاوم .. من الذي يقول

[١] من الآية ٢٦ سورة يوسف بكه .

[٢] الآية ٢٠ من نفس السورة .

أمن في صلال .. هل رأيي يوسف . هل يعرفون مكان حجرة . من الطائفت
هذه ثوبى بأسماء من يثرون .

أصبحت زوجة العزيز فترة وراحت تفكر .

أصبحت إلى قرار . أصعب وأمرها بالحصول الطياء . وصل طياء القصر .

أصبح أيتها بعد مائة كبره في القصر .. وأصرت ألوان الطياء وأسباب
وأمر أن توصع السخنة الحدة إلى حوار المدح المظلم .. وأن توصع
المطرش البيضاء إلى حوار طابق المدح . وأن توصع الرسد والحنثيا
على هذه الشرق في تلك أرمي . ووجهت الدعوة لكل من يحب منها .
ولا يكفها عنها يوسف . وجاء يوم الحنة . وهرعت سناء الصفة أرائه
إلى قصر رئيس الوزراء . كانت الحنة فرصة لا يبرح من أمن الصنف
وأحبها . وأعظم الحوائث الربيه والبرج . وصبرت الدماء على أسماء
طائس من بحره كثر . وطلس سكتت على قوسد والحنثيا ياكل
ويشرب .. وأصبحت الحنة . وفعل الطغام الحدة والشراب الرد فعل
المر في النفوس . فطلعت على سجنها . ورفضت الطحكب وقارب
الفرش .. وبحسبه أن كل امرأة في القصور كانت تملك ليلها بحرف
إلى قصة يوسف . كن بطرس حينما وطئ كل واحد فبهن أيتها نطم ..
هكذا تقضي الأمور في الطينات الراتية .

ولذلك وقع كليب المصحة عني ودعا ببرأ من صحت هي الموسوع .

— سيحب من يرد أمن وأفعه في عوى أمنى الصراي يوسف ..

سقط نسيب على المدة بعد . وبوقفت أهدى الدماء . وسرقت روجة
العرب المشهد من سلبا .. قالت وهي ملبر بحصار أسدح ..

— أعرف أنه من ساهر .. لا أسر أمنى أفعه .. لقد أحس من زمان بعد

أراج أضرأها من الحصار أحيثا ثقلا بفحرج . فطاعت النفوس إلى
فرضها السلق وعلقت الدماء إلى طعنها في هواء .

بدان تقشير التفاح .

كتب العمارة في مصر قد طفت ثوبوا بعد . وكان العرب في
التصور منها ..

وكن أصراف روجه العرب قد أطلق أربها عليا في المرفه .. أذا كانت
روجه العرب بحرف سبها صفت . بهذا معنى أن الحب من حين في الأريب
.. ورغب أن امرأة من تلك حيلة معنى أن روجه العرب لا معنى أن حب
.. أيا معنى أن يكون موضع حب . المصروف أن بهيالك
عليها الرجال .. ودانت المصالحه في هو المرفه عتيا دلت لصر المر
والصراي كل يطوف بها الحدم ..

رفضت امرأة العرب يدها وأثارت أن يدخل يوسف .

وفهم يوسف حجرة الطغام . استخدمته سيدهته لهاء . كانت النساء
ملزمن يقشرون السلطنة .

لم يكذ يدخل الغرفة حتى وقع ما توقعته امرأة العزيز .
بهنت كل المدهومات لهجاة .

ان وجهه يتلأأ برجولة نادرة وجمال ملائكي .. وتعكس حينه تصيرا
من الصفاء المطلق حتى ليرى الانسان اعلام الجنو وهي ترفرف في أعماق
روحه البعيدة ..

بهنت النساء وأكرنه .. واستمر تقطيع الفاكهة بالسكاكين ..
هذه المرة كانت النظرات مسلطة كلها على يوسف .. لم تكن أي امرأة
فيهن تنظر الى الفاكهة التي تقطعها بالسكين .

وبدأت النساء يقطعن ايديهن في ذهول وبغير ان يشعرن .

كان حضور يوسف على مسرح المكان قويا الى الحد الذي ادلهن من
الالم والدم طوال لحظات .

نالت احسدى النساء بصوت خفيض :

— سيعلن الله .

وقالت امرأة أخرى بصوت ناعم تسجنه الدهشة :

— ما هذا بشرا ؟

ونمتت امرأة ثالثة وهي تزيج حصلة من شعرها ارتدت على عينيها

وكادت تعوق الرؤية :

— ان هذا الامك كريم ..

وقفت امرأة العزيز فجأة وقالت :

— هذا الذي وجهه الى اللوم بسببه .. لا انكر انني راودته من
نفسه .. اماكن مائشف بيضاء لتضيق الحراح .. لقد استولى عليكن
يوسف فانظرن ما حدث لا يديكن .

يتنقل المشهد بين يوسف والاصابع التي حزت فيها السكاكين فلم
تسمر منبعتها بشيء .. نحسب ان يوسف كلى ينظر في الأرض
أو بيد مظارنه أمامه في اتجاه لاشيء .. فلما جاء ذكر الدماء نظر الى المادنه
وغوصى بلن الدماء تسيل الى جوار الفتاح من أصابع النسوة .. وأسرع
يوسف لأحضار الضمادات والماء كلفني بعمل في القصر .. نحسب ان امرأة
العزيز قالت وهو يضمد جراح امرأة ..

— لقد راودته من نفسه مااستعصم . ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن
وليكونا من الصاعرين .. نحسب ان يوسف ابتلع كلماتها في نفسه ولم
يخلق .. انه نسي .. ما ساء هذه المرأة أنها احبت نيبا ، نحسب ايضا ان
النساء راودنه من نفسه في المنة .

نالت امرأة خارقة في الجمال من المدهومات ليوسف وهو يضمد جراحها :

- ان محرد نظرت الى بدن يا يوسف فبقي من اصلحي ابي
فضب ..

او يسئل له

- يوسف .. الا تريد جاريةك تلك وتصل الى قبضتك
وتسعدك ..

وربما كنت ساء هذه الحمة ولكن اسلوبا مخفيا من الإغراء .. ربما
استطيت اعدادها سلاح نفس و سلاح الجسد - او سلاح الحسد

لا تعرف ماذا وقع في افئدة ، مدح خيال يسئل ما حدثت .. وسدو
ان الإغراء وحده اليه من كل النساء المدعوات .. وسدو ان يدعو كيد
نصب اقدامه من كل الجاهلات . وسدو من رهن جفنه من الأخرى ..
ووقف يوسف وسط هذه المسه اسفله محرد حثرا .

« قال . رب النفس لعب الي بما يدعوني اليه » ١٠

لم يقل يا ديموس اليه . واصبح ان محرد ظهوره على النساء حذر
الدموة جياعية .

اشرب حواء ، من الدموة سواء بالليل أو النهار أو السبح
أو الصريح .. واستعد يوسف ما قد ان يفتد من يدهن . دما له كسر
بصرف شربه ، ولا يصر نصيبه وسوءه .. دما له ان يصر عنه شدة .
كيلا يسئل اليه ويكون من الجاهلين .

واستطاع له الله ... فسادت الأذى المقلوبة السارية توجع بالأم
... وانصرف هو من صالة الطعام .. واستطاع كل امرأة بهن تضيق
جراحها . واستمر من حمة مولا لروحها نورس اذا مكثها لمسا نصيب
يدها .. وابن كانت .

.....

حكى الله تعالى مشهد المادية في قوله :

« عليا سمعت ميكرهن أرسلت اليهن ، واعندت لهن مكا ، وامن
كل واحدة منهن مكا ، وعلقت : لخرج عليهن ، عليا راحة اكبره
ومطبخ لهن وطى : هلى الله ما هذا سرا ان هذا الا بك
كريم . ملك ملك الذي لمسى به ، ولقد راوينا من نصيبه
جاسمهم ، ولئن لم فعل ما امره الله لفسد ولكونا من الصافرين .
قال : رب : النفس لعب الي بما يدعوني اليه ، والا تصرف على
كدهن نصيب اليهن ولكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه صرف
عنه كدهن ، انه هو السميع العليم » ١١

صرف الله عن يوسف كيد النساء ..

لرفع في ظوب النسيوة بالسا كديلا به ومن به . صابر حين

[١] الآية ٢١ من سورة يوسف مكية .

[٢] الآيت من ٢١ الى ٢٤ سورة يوسف مكية

له نوعا من أنواع الرغبات المستحيلة .. واجتحت هذه الرغبات المستحيلة
فكرى يوسف أكثر من ذي قبل .. راحت النساء يتعشش منه وعن تأثيره
ومهايته ونله .. ويحكين كيف تطلعن أيديهن بالسبكتكين حين رايه ..
وانتشر الخبر من الطبقة العليا الى طبقات الشعب .. بدأ الناس يتحدثون
عن الفتى العمرانى الذى رفض زوجة كبير الوزراء ، وقطعت زوجات الوزراء
أيديهن بسببه ، ولو اقتصر الأمر على ردهات لقصور وعرفها المغلقة لما
اهتم أحد ، لكن الأمر يتسرب الى الشعب .. هية الحكم كله فى الميزان ..
وتحرك الجهاز الحاكم واعتقل يوسف .

أجل السجن .. اسكتنا للألسنة . واسباعا لظلال الشبهات عليه ..
ومحاولة للقضاء على القصة برمتها . ولقد قال يوسف حين دفعته النساء الى
الخطيئة أن السجن أهون عليه وأحب اليه مما يدمونه اليه . ها هي يد
المناسية العليا تبضى به فى التجربة الى نهايتها .. وها هو يدخل
السجن رغم براءته .

ويخله رغم ظهور الآيات على براءته ، ووضوح الأدلة على ادانته غيره ..
لا نمتد أن امرأة العزيز هي السبب فى اذهاله السجن ، نعرف أن رفضه
الحاسم لها أثار كبريائها ، وطعن كرامتها طعنة عميقة ، لكننا معتقد أنها
أحبته حبا عظيما .

وربما كان تحول يوسف السجن نقطة تحول أساسى فى علاقتهما به
.. كانت تهوى اليه وتحبّه ، فلما اتعد منها لنشب الحزن اليه اظفاره فى
قلبا ، وتمنت لو كان خارج السجن ولو لم تله هي ..

ولعل دليلنا على تحول حبها له ، ومديتها بعد ذلك فى الحب ، أنها
اعترفت بعد ذلك أنها حاولت ايقامه فرفض . وبرت اعترافها بقولها :
ليعلم أنى لم أخفنه بالمعيب .. كلن حرصها على مسورتها فى قلبه أهم من
سلامها مع زوجها أو احتفاظها بمقدمها كسيدة ثانية فى مصر . وكلن حبها
له .. وهو كاتب — كان يختلف فى نوعه وعمقه من حبها له وهو حتى
يحبها فى القصر بالامر ..

حين استطالت بينهما المسافة .. وابتد البعد .. وحرمت من رؤيته
.. أحبته نوعا من الحب لا يجعلها تخونه — حتى فى غيابها .

كم تعذبت امرأة العزيز معيها النشوى .. ان مأساتها أنها اختارت
بقلبا الذى يقف على الأرض . رجلا .. قلبه أبحر فى بهار الحب الإلهى
منذ أزمنة ..

دخل يوسف السجن .

تل تصالى فى سورة يوسف :

« ثم بدأ لهم من بعد ما راوا الآيات ليسجننه حتى حين » . [١]

ظهر لهم .. واستقر رأيهم .. رغم براءته وظهور آيات البراءة .
استقر رأيهم على سجنه حتى حين .. الى أجل غير مسمى .. الى مدة غير

(١) الآية ٣٥ من سورة يوسف مكية .

محددة . حتى يخلص ، أصبحت من النقص ، وسحق أسرار إلى سطحا
وسط الناس . ولذا كان الثوراء ، وشبهه قد عرفوا من شبه حجاج - - -
فمنهم ليسوا مغربين من مصر ترى ، .. هذه مهمة ونسبة من خديجها
باعتقني ويتر .

وهذا رسم الآلهة الموء ، جو هذا انصر بخله .. هو "الشمس"
الداخل في "مصور" ، هو "الشمس" الأربعة .. وهو "الشمس" الحس .
أن طول أمثا كل في نكم "الشمس" من الشمس .. ولو عرفنا في نوع
المصنع المصري يومها ، وربما بها كل يحد ، تعرفنا لهذا أصله "الشمس"
المطلق ..

من المصريين يحدون آلهة متعددة . كانوا على عبادة غير الله .. ولقد
رأى من قبل شفت يصبح هربا الشمس حين يصرخون من عبادة الله إلى
عبادة غيره ، وما نحن نرى في قصة يوسف شاهدا حيا يجب من
الآلهة . صغر قرار باعتقله وأجل السجن . بلا قضية ولا محاكمة ،
بسلطة وهتر .. نحن في مصمم بعد آلهة متعددة ، ولطفت بكنية
آلهة متعددة . ولعلك لا تصعب فيه مصر ترى .. بل لعل الصعوبة
فكن في محاولة شيء غير ذلك .

دخل يوسف . الشمس ثلث . الله . من أي الأساليب الحرب إلى الحرب
لأنه ما من الحاح روجه انحرير . ومن أسئلة الثوراء ، وطمعنا لآلهة ،
وترثه الحكم ، وهذا الصداق الحرب الذي حصره في الفترة الأخيرة .
سبب حب لبراء الحرير ولطيف المسود لا يجرى .

كل الشمس بالقصة آلهة مكفا حلقنا بطول فيه ويترك في ربه .

لقد أحس يوسف في الفترة الأخيرة أن لثمة القوي انحصار في
شدها في قصة لم بعد سئل ، بلقاء . ثم يوفق انصره إلى الله
لكن المعنة قوتت عليه اتصاله بربه ..

وما هو الهدوء يحد .

وما هي المعزة استقبل في وحدانية سمع وحسب ويرداد لملأها
بالحبة والرحمة والوحي .

وتنهر يوسف غرضه وجوده في الشمس ، من قوم لرباء يحدون
بظلم الأرباء . لنفوس لا موء إلى الله . أن الظلم انقضى بصل الشمس
الحرب إلى صياح القدي . ومثل استعملها أميل في التوجه إلى الله بفرح
الفرح . كل يحدث الشمس من رحمة الله . وطيفه وجهه لمطوفه .
كل بصل الشمس إليها أصل .. أن يهرم الظن وبعد أرباء مغرب .
ثم ينصر الظن وبعد رب الفؤ العظيم . وظل يلمع عنهم أمعة خسوفه
المعنة وحلولة أعلى وصفاء دعه ، وضاء دموه .

ودخل معه الشمس نفس أحدها رئيس الصلبي ضد المث .
والظلي رئيس القصة الذي يملأه به أمت نورس الصبر لفرح .

وشاهد قدر حيا رأى قصة مع جد . في غير قوي رأيه حرا
تأكل الطير منه .

وشاهد الساقى حلها رأى نفسه فيه يسقى الملك خمرا .

وذهب الاثنان الى يوسف . حدثه كل واحد من حلمه وطلب تفسير ما رآه . وانتهر يوسف الفرصة وراح يدعو الله ، ثم حدث الخباز انه سيموت ويموت ، أما الساقى فسوف يخرج من السجن ويعود الى الملك ، وقال للساقى اذا ذهبت الى الملك فاذكرنى عنده .. قل له : ان هناك سجيناً مظلوماً اسمه يوسف .

ووقع ما تنبأ به يوسف تماماً . قتل الخباز وعفى عن الساقى وعاد الى القصر .. غير أنه نسي أن يحدث الملك من يوسف . لئلا الشيطان أن يذكر يوسف .. ومكث يوسف فى السجن سنوات .

قال تعالى :

« ودخل معه السجن هتيل ، قال أحدهما : أتى أرايتى أمهر خمرا ، وقال الآخر : أتى أرايتى أهل فوق رأسي خبزا تكلل الطير منه ، نبقا بتلوبه ، أتأفراك من المحسنين ، قال لا يلتيكما طعام فزرقانه إلا يلتيكما بتلوبه قبل أن يلتيكما ، فلكما مما علمنى ربى ، أتى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . وألبست ملة أبائى إبراهيم واسحق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن : أرباب متفرقون خير ؟ أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » [١]

بعد هذه الدعوة الحكيمة الى الله .

بعد اثبت حجة على السائلين .. فسر لهما يوسف ما رآه من أحلام :

« يا صاحبي السجن : أما أحكما فسيتى ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتاكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . وقال لأذى ظن أنه ناج منهما : أنكرنى عند ربك ، فتنساه الشيطان ذكر ربه ، غلبت فى السجن بضع سنين » . [٢]

لاحظ كيف يقص السياق القرآنى القصة ، فنرى يوسف لا يجد صاحب النشوى وصاحب المصير السيئ . تخرجوا وتطلعا منه بها .. غير أنهما فهما قصده حين نفذ الحكم فى أحدهما وحكم سراءة الثانى ..

يسقط السياق القرآنى أن المتأويل قد تحقق . وأن الأمر قد قضى على ما أوله يوسف . وبترك هنا فجوة للخيال يسمح فيها ليعرف أن هذا كله قد كان .. ويخرج الناجى الى القصر .. عاد يسقى الملك مرة ثانية . كل المفروض أن يذكر يوسف الذى تنبأ له بالنجاة .. غير أن قصة

(١) الآية من ٢٦ إلى ٤٠ من سورة يوسف مكية .

(٢) الايتان ٤١ و ٤٢ من سورة يوسف مكية .

يوسف بسطت ثيابها من دائرته . مني ثوبه رؤياه ودموه في ثوبه
سوف القصر النقي . وأسد . انشعلت سبده لئلا لو ارمه . كذا
يسبون منهم في ذلك الممر . انشاء هذا كله ذكر يوسف .
ولعل انشطن سيرا مساعا على موضوع يوسف في دمه .

ولث يوسف في سجنه بضع سنين .

تعلما صابرا راضيا داعيا غير قنط .

يظلم المنظر في السجن ريمى في حجرة الملك .

الملك مات بعلم . تسفل الصورة الى حليه . رأى نفسه بقل على
شباطه النيل . كان ماء النيل يهبط أمام عينيه . رأى مؤه مصر من
فحول التمر الى خيط من الحين الحالى من الماء .

وراحت الاسماك مفر وسواب حتى احضت الى حين البحر . خرجت
من البحر سمع طرات سمى . خرجت وراءهن سبع بقرات هزيلة . هلمب
الانقر الهزلة الانقر اسببه . . تحولت الانقر الهزلة الى وحوش
واسمى الانقر السببه . كنى لى وامت بسطت شرعت اسرار
السببه وهي سمى في خوف الانقر الهزلة . سب على شبطه . مل
سمع السبب الحضر في الطين وثقت في
نفس الموضع سبع سبب سبب سبب لى برما من بومه .
لص بقتضاة لا يدرها في سحره .

ارسل الى انرافين والكفة وكبر الزوراء . نص علمه حليه وطلب
تفسير رؤياه .

قال انراف . هذه انشاء محننه . كيف تاكل سم طرات هزيلة
سمع طرات سببه . هذه اصحت احلام .

قال انراف : لعل مولاي اقبل على نفسه في العشاء قليلا . انحدث
من موضوع السبب الحضر واليبسة . .

وقال كبير الوزراء : ايكون مولاي يتخذ فطاه بعديه ويتمرى انشاء
الليل . تقول انشاء أن فلك يستدعى الاحلام .

وقال مخرج الملك له وهو يمارحه : هذا مولاي يكر في الد ونحاط
احلامه .

وهكذا احب آراء الصراء على أن حلم الملك بلا معنى وانه اصحت
احلام

وصل انراف الى النقي ندامت تكره وذكره هم الملك عطيه
الدى راء في البحر . وكره البحر يحوس يوسف حبه الى الملك
وحده من بومه قال له : ان يوسف هو المرشد الذى سيجب مصر
رؤيه . لقد اوصيتى أن تكره منك ولكنى سميت .

وارسل الملك مساقبه الى السجن ليومال يوسف .

قال تعالى :

« وقال الملك : انى ارى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر واخر يابسات ، يا ايها الملا ائتمنى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا : اضغاث احلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين . وقال الذى نجا منها وانكر بعد امة : انا ائبىكم بتأويله فارسلون . يوسف ايها الصديق : افنا فى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر واخر يابسات ، لعلى ارجع الى الناس لعلهم يعلمون » . [١]

تظلمت حجرة الملك وامبات الشئثة بمشهد المجن .

يوسف فى سجنه ..

سلقى الملك يلجا اليه ..

جاء الوقت واحتاج الملك الى رايه .. والله غالب على امره ، ولكن لكثير الناس لا يعملون . مثل يوسف من تفسر حلم الملك . فلم يشترط خروجه من السجن بمقابل تفسيره .. لم يمسأوم ولم يتردد ولم يقتل شيئا غير تفسير الرؤيا .. هكذا براءة النبي حين يلجا اليه الناس فيضيئهم .. ولن كان هؤلاء انفسهم سجاتيه وحلائيه .

قال يوسف لملكى الملك :

« قال : تزرعون سبع سنين دابا ، فما حصدتم فخذوه فى سنبله الا قليلا مما تاكلون . ثم ياتى من بعد ذلك سبع شداد ياكلن ما قديمتم ثهن الا قليلا مما تحصنون . ثم ياتى من بعد ذلك عام فيه يفاك الناس وفيه يعصرون » . [٢]

لهم يوسف رسول الملك ان مصر ستمر عليها سبع سنوات بخصبة تجود فيها الارض بالعلات . وعلى المصريين الا يسرنوا فى هذه السنوات السبع . لان وراءها سبع سنوات مجدية مستاكل ما يخرنه المصريون ، وانفك خزن للفلال ان تترك فى سنابلها كي لا تفسد او يصيبها السوسى او يؤثر عليها الجو .

بهذا انتهى حلم الملك . وزاد يوسف تأويله لحلم الملك بالحدث عن عام لم يحلم به الملك . عام من الرخاء . عام يفاك فيه الناس بالزرع والماء ، وتنبو كرومهم فيعصرون خبرا ، وينمو سمسمهم وزيتونهم فيعصرون زيتا .

كان هذا المنام الذى لا يتقبله رمز فى حلم الملك .. عليها حاصبا او نه يوسف . نبشر به السائق ليشر به الملك والناس .

عاد السائق الى الملك . اخبره بما قال يوسف . دهش الملك دهشة شديدة .

[١] الايات ٤٢ الى ٤٦ من نفس السورة .
[٢] الايات ٤٧ الى ٤٨ و ٤٩ نفس السورة .

ما هذا النقص انه بعد لهم ما سئدع . ويوحهم لملاحة ..
فون ان ينظر امرا او حراء . او ينسره حروفا و مثله ..

امر الملك امره باخراج يوسف من السجن واحضره فوراً اليه .
ذهب رسول الملك الى السجن .

لم ينس هو النقص هذه المرة . كان شمسويه ربيعه . املت النسي
انه كل احد انوراء . ذهب اليه في سجنه . رده معه ان يخرج لعداء الحب
.. فهو يطيه على عجل .

رغم يوسف ان يخرج من السجن الا اذا ثبتت براءته .

يدعونهم كانوا قد انصوب بشيء يدور حول الساء الذي قطع
يديهم ..

لعلهم قالوا مثلاً انه حاول الاعتداء عليهم فادافعوا عن انفسهم ومزقوا
يديهم بالسكاكين .. لعلهم افروا عليه اي افتراء متهاكمت يستحيل
عليه .

كل شيء جائز في التصور والحكم المطلق !

لا يعرف ماذا لم ان يخلص اليه النسي في سرير دخول يوسف
السجن .. كل ما عرفه ان يوسف رغم ان يخرج من السجن الا اذا ثبت
برأته .. وهاهو يميل اليه في سؤال السوء .. بطلان محركة
المؤنة الضميرة التي لم يسطيع ليدبر .

« وقال الملك : اني به ، طبا حاتم الرسول قال : ارجع الي
ربك فليحكم ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن ، ان ربي
يكفيهن عليم . » [1]

عاد الرسول الى الملك .

صرح الملك حين رآه : لي يوسف !

قال رسول الملك في السر .

نسي انت من مخطئه وقال انه امرت بالخصاره .

قال رسول الملك : رغم ان يخرج من السجن الا اذا ثبت براءته .
وحلفه حلائكم في موضوع النسوة اللاتي قطعن ايديهن .

قال الملك : استدع روحيف الزوراء واحضروا امرأة الصرير .
ان . انصر الصبيح على الفور ..

كل الملك مصحفاً يمس ان يوسف قد تعرض لحصة لا يبريها الملك
على وجه التحليل .. ربما سمح الملك شلخاف فدييه سرده من روحه
كثير وزياده وقصه حيا لم يمس لشرارة روحها .. غير ان انت لم

بحر ما سمع اهتماما ، فقد كانت هذه القصص شيئا معنادا مكررا
ولا يبدو مريئا في حيا التصور .

حضرت امرأة العزيز ونساء المادية .

سأل الملك : ما هي قصة يوسف .. ما الذي تعرضه عنه .. هل
صحيح أنه ..

تألمعت إحدى النساء لملك ثالثة ؛ حاش لله .

وقالت امرأة أخرى : لا نعرف أنه ارتكب سيئة واحدة ..

وقالت امرأة ثالثة : كن في طهر الملائكة .

لنفتت الأنظار لامرأة العزيز .. كانت شاحبة الوجه قد نقص وزنها
إلى النصف .. هدها الحزن على يوسف وهو في سجنه .. وزادت حينا
إلى رؤيته . وتغير نوع حبها له بعد محنته .

عثرمت مشجاعة العائقة أنها كتبت كاذبة وهو صادق . لقد راودته
عن نفسه فرفض . أكتت أنها تقول ما تقول لا خوفا من الملك أو من
النساء ، وإنما ليعلم يوسف أنها لم تخنه بلعيب . لم يزل ذهنها يدور
حول يوسف ، هو الذي يعينها وحده دون سائر الخلق . وثبتت براءة
يوسف أمام الجميع . حكى الله بها هذا التحقين والمحكمة في قوله تعالى :

« قال : ما خطبك إذ راودتني يوسف عن نفسه ؟ قلن : حاش لله
ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ،
أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . » [١] ذلك ليعلم أني لم أخنه
بالغيب ، وإن الله لا يهدي كيد الخائنين . » [١]

بحسب الحيات القرائن لنا اعتراف امرأة العزيز ، بالمناظر موحية ،
تشكى بها وراءها من انفعالات ومشاعر صبيحة .

— أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين .

شهادة كاملة بقلمها هي ، وبراعته ومظانته وصدقه هو .

شهادة لا يطلع فيها خوف أو خشية أو أي اعتبار آخر .. بقي السياق
القرائني بحالز أعبق من هذا كله . حرصها على أن يحترمها الرجل الذي
أهل كبريائها الأنثوية ، ولم يعأ بفتنتها الجسدية . ومصلوثة يئسمة
لصحيح صورتها في ذهنه . لا تريد أن يستمر على معاليه وحقاره
لها كخاطئة . تريد أن تصحح لمكرته عنها .

— ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب .

لمت بهذا السوء الذي يتصوره هي .

لعلها بدلت شكى وهي تقول :

(١) آيات ٥١ ، ٥٢ سورة يوسف مكية .

« وما أجرى موسى ، أن النصي لا يطره بالقوة إلا ما رهم ربي ،

أن ربي غفور رحيم » [١] .

إن سبل الآلف يوحى أن أمراء المصريين قد تحولت إلى فئس يوسف . تحولت إلى موجد . أن سطر يوسف ظل مقله هؤلاء في حياتها . أمست مربة وأصبحت مثله . وأصبحت على السعد ، ولا رأت هي الأمراء العائنه التي لا يبت إلا أن سبل مقله بكنه بعه . أو حاصره أرباح .. ولو بالحب .. وعلى السعد .. ودون لقاء أو أهل في لقاء .

« ومثل الملك : أنومي به استعماله نصي ، طبا كليه قال : أنك اليوم أيضا مكن لين . قال : أعطني على جرائن الأرض التي حصلت فلم . وكذلك مكن يوسف في الأرض ببوا منها حيث يشاء ، نصب برهنا من ساء ولا يضح لمر المحسنين . ولاهر الإهره خير للناس آمنوا وكنوا ينتقون [٢] » .

.....

يحمل النسيان القرأني بعد ذلك قصة أمراء التحرير ثانيا ، يستقطها من المذهب . على حرف يدا كل من أمراها بعد شهادهما الحريه التي أملت فيها ضمنا لحياتها بدين يوسف .

وقد لمت الأساطير دورها في قصة المرأة ..

قبل أن يروها ملك وبريخت من يوسف . فلتكتشف أنها عذراء .. وأعرفت له ن روحها كن شيف لا يفرح النساء ..

وقبل أن يصرها صاع يصب أسيراتها في الكاء على يوسف . حرجت من نصرها وشافت في طرفت أديمه . طبا صغر يوسف كبرها للورر . وحتي بوكه يوما هتفت به أمراء سمر . مكف نيس . سمن من حبل الملوك عبيدا بالمعصية . ومن السعد ملوكا بالظلمه ..

ملك يوسف صوت من هذا ؟ .. قبل له . هذه أمراء التحرير ، انهدر حلقها بعد مر .. واستدعاها يوسف وسألها هل تعرفين في نفسك من حث لي شيئا ؟

قلت سمره لي وحيث أحب إلى من الدنيا يا يوسف .. فأولى بهابه سوطك .. فأولها . فومعه على مبرها . موجد أسير في يده أسطرابا وأرتعاشا بن خفقان قلها ..

وليت أسير آخرى عذراء . سدو بها أم الحية السعديه وهي صبح فيه القرأيا بتبيل السعد في الحميم .. سر أن السمين النري تصور صاب بهله الرأ .. أعطها من سدو القصه . بعد أن شفت ليوسف .. وهذا بعد المرض الذي من القصه . فالتفقه أسير قصه يوسف وليست قصه الرأ .. وهذا أيضا بعد المرض الذي . لقد صرحت الرأ

.....

(١) الآية ٥٢ سورة يوسف بكة

(٢) الآية من ٥٤ إلى ٥٧ سورة يوسف بكة .

ثم اختفت في الوقت المناسب .. اختفت في قصة تأسيسها .. وشباب
اختفاءها غموض في معجز .. ولربما بقيت في الذاكرة باحتفائها هذا ربما
أطول مما كانت تقضيه لو عرفت بقية قصتها ..

.....

قال الملك : ائتوني به استخلصه لنفسى ..

دخل يوسف على الملك ، تحدث معه الملك بسطه وأحاب يوسف ..

تحدث الملك بلغة ثانية ، فجاوبه يوسف بالعربية .. سأله الملك : اى
لسن هذا ؟ .. قال يوسف هذا لسان اسماعيل عم ابنى ..

تحدث مع الملك بالعبرانية .. سأله الملك ما هذا اللسان ؟ .. قال : هذا
لسن آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب .. وكان الملك يتكلم بأكثر من لسان ،
كل يجيد أكثر من لغة .. ووجد يوسف يجيد أكثر من لغة ..

ادهمت الملك ثقافة يوسف .. ومعرفته العميقة .. وذلك الحديث الى
الحلم .. ونصح يوسف لك بأن يبدأ تخطيطا صارما لجميع الطعام وتخزينه ،
لمواجهة سنوات القحط .. وأنهم الملك ان المجاعة ستعم مصر وما حولها من
الديار .. وينبئ أن تستعد مصر لمواجهة الموتف بالنسبة لها وغيرها من
الملاذ المحيطة بها .. نفهم من هذا أن مركز مصر الممتاز كان حقيقة تاريخية
قديمة ..

وتسأل الملك عن تنفيذ الخطة .. قال قيسا قاله ، كما أورد تفسير
القرطبي :

— لو جمعت أهل مصر ما اطاقوا هذا الأمر .. ولم يكونوا فيه أبناء .

كان الملك يقصد الطبقة الحاكمة وما حولها من طبقات .. ان العنور على
الأمانة في الطبقة المتربة شديد الصموية ..

بعد اعتراف الملك ليوسف بهذه الحقيقة ..

قال يوسف : اجعلنى على خزان الأرض .. ابنى حفظ علمي .

لم يكن يوسف في كلمته يقصد النفع أو الاستفادة .. على العكس من
ذلك .. كان يحتل لسانه طعام شحوب جائعة لمدة سبع سنوات .. شحوب
يسكن أن تمرق هكاهما لو جاءت .. كن الموضوع في حقيقته تضحية من
يوسف ..

لا يثبت السياق القرآنى ان الملك وافق .. فكأنما يقول القرآن الكريم ان
الطلب تضمن الموافقة .. ريادة في تكريم يوسف ، واظهار مكانته عند الملك
.. يكفى أن يقول ليجلب .. بل ليكون قوله هو الجواب ، ومن ثم يحذف
رد الملك .. وبنهنا شريط الصور المعروضة ان يوسف قد صار في المكان
الذى اقترحه ..

وهكذا مكن الله ليوسف في الأرض ..

صار مسئولاً عن خزان مصر واقتصد بها .. صار كبيراً للوزراء ..

ولعل الجمع بين وصفي رئيس الحكومه ورئيس الخزانه قد ارسيت
مقايدها ..

ولا يستلزم الفرائى كيف يعرف يوسف فى مصر .. يعرف له حكمهم
عليه .. يعرف انه أمين وصالح .. لا خوف لمن على اقتصاد مصر ..
دارت عجلة الزمن ..

طوى السنين دورها ، ويرى برورا سمرعا على سبوات الرعاة ، وهما
سبوات المعامه .. وهما بعض السبق الفرائى ذكر الملك والوراء .. كل
الامر كله قد صار ليوسف .. وه هو الفرائى لا يذكر لنا أن المعامه بدأت ..
لا يصف لنا بعدها ، أنها بمرس يشهد بصورا لاهو يوسف وقد جاءوا من
مسطح لاسباع طعام من مصر .. طعام خبز بورع يصعد بتمه بطنه
الطنف ، وهو يعلم انه يعرف العالم الا فى قبة خضارته ، بعد شواء علم
الحظير والاصناف الموجه ، وكان قصد يوسف أن يوارى بين حجاب
المحدثين والرمز الصور الذى يصنع فيه تاتويش .. ولم يكن كل من يملك
الشر ، سرى المادى لى مصطنع سر وه شعريا وبهوت الأحرار ..
وقبل انه ذكر معنى كل فرد من الصرا الواحد هيل مصر ..

ها ، هو يوسف من الصرا .. جاءوا سماعوا طعاما من مصر ..

بنو الأهل العائمه المصريه : لو شئت مصر وهاع العالم .. على مصر
طفيه .. ولو هات مصر به بقسمها العالم .. هى الأم الأولى ، وبعدها
المبدوءة بالخير على الأرض قديمه وعريقه ..

جاء الاخوة الذين القوه فى الشر ..

ها ، أولاد بطو - من صروف العياصر الطويلة صالحة العالم ..

وهو بعض على عرس مصر .. حاكما مطاعا شير وبهى .. وينحكم فى
لقبه حبس الأسس .. يحف من هولته ورراوه ورجلته وحده وأبيه ..

عرف يوسف اخوته على الفور .. ولم يعرفوه هم ..

يسجل أن يمبر طيف يوسف أنكارهم الآن .. لقد تخلصوا منه من زمان
مجد .. وساق بهم الحال فجاءوا من مسطح سجنون من الصمم فى
مصر ..

والعزى يوسف هو ، مع اخوته ، مصر أن يشك لهم من غيبه ..

كان بعد لاهو - - -

وكان معهم أحد عشر نجيرا ..

سأله يوسف - مستخدما أحد المرهين - لكن لا يتحدث لهم
الصرايه

- طاب نفسى ، امنا ، كل اسب من مصر من الطعام .. كم عذبتكم ؟

قالوا : نحن أحد عشر ..

قال يوسف للترجمان قل لهم : ائتمكم مخالبه للفئنا .. وزيكم يخالف زيننا .. قلعلكم حواسيس ..

نالوا : والله ما نحن بجواسيس .. بل نحن بنو أب واحد .. شسيخ طيب ..

سال يوسف : قلتم أن عددكم احد عشر .. ولكتم عشرة ... ؟

نالوا : كنا اتنى عشر لفا .. هلك لنا أخ فى البرية .. ولما أخ آخر يحبه ابونا ، ولا يستطيع أن يصبر على فراقه .. حننا بصبره بدلا منه ..

قال يوسف : كيف ائلكم من صدقكم ؟

نالوا : اختر شيئا تسكن اليه نفسك ..

قال يوسف : يقضى النظام ألا تصرف لأحد غير موجود .. اتنوس ياخيكم لأصرف له طعامه .. ألا ترون أنى أوفى الكيل ... ؟

استمر الحوار بين أخوة يوسف ويوسف .. أفهمهم يوسف أنه سيستشيهم هذه المرة .. فإذا جاءوا فى المرة القادمة بغير أخيههم علن يصرف لهم .. قالوا له سنحاول اقتناع والده بأن يتركه معنا ..

قال تعالى :

« وجاء أخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بحهائهم قال : اتنوني ياخ لكم من أبنيكم ، ألا ترون أنى أول الكيل وأنا خير المنزلين ؟ . فإن لم تننوني به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا : سنأود عنه أباه وأنا لماعلون . وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون » [١] ..

بثوب المشهد لى مصر ، ويضىء فى أرض كتمان ..

رجع الاخوة الى أبيهم .. قبل أن يتركوا أحمال الحمل ويفكوا متاعهم دخلوا على أبيهم ..

— منع هنا الكيل ..

□ وقع هذا بسبب احتياطك بإنك ..

— قالوا لن مصرف طعاما لن لا يحضر ..

□ لماذا لا تأمنا عليه ؟ .. أرسله معنا وأنا له لحاظون ..

كل واضحا لن الحوار يستهدف إخراج الأب وتحيله مسئولية عدم صرف الطعام لهم ..

ورد الأب بأدب الانبياء :

قال انه لا يأمنهم على ابنه الصغير الا كما آمنهم على يوسف من قبل ، وأنه

(١) الآيات من ٥٨ الى ٦٢ سورة يوسف مكة .

لا يعيبا يقولهم : انا له لحافظون .. ماله خير حافظا ، وهو ارحم الراحمين ..

ومض الأبناء أوعيتهم ليخرجوا ما فيها من غلال .. فاذا هم يحصدون منها مساعنتهم التي ذهبوا يشترون بها .. مردودة اليهم مع الغلال والطعام .
ورد الثمن بشبر الى عدم الرغبة في البيع ، او هو اندار بذلك .. وربما كان احراح لهم ليمودوا لسداد الثمن مرة أخرى ..

واسرع الأبناء الى ابيهم ..

قالوا : يا انا ما نعى .. لم نكذب عليك .. لقد رد الينا الثمن الذي ذهبنا نشترى به ..

هذا معناه انهم لن يبيعوا لنا الا اذا ذهب لحونا معنا ..

واستمر حوارهم مع الاب .. انهووه ان همه لاسه والتصباقه به يفسد مصالحهم ، ويؤثر على اقتصادهم ، وهم يريدون ان يتزودوا اكثر ، وسوف يحفظون اناهم لك الحفظ واعطيه ..

وانتهى الحوار باستسلام الاب لهم .. بشرط ان يعاهدوه على العودة باسبه ، الا اذا خرج الامر من ايديهم واحيط بهم .. معصهم الاب الا يدخلوا — وهم احسد عشر رجلا — من باب واحد من ابواب مصر .. كي لا يلسوا انتشاء احد .. ووبها خشي عليهم ابوهم شيئا كالسرقة او الحسد .. لا يقول لنا السياق ملذا كان يخشى الاب ، ولو كان الكشف عن السبب مهما لقل .

توكل يعقوب على الله واسلمهم ولده ..

قال تعالى :

« فلما رجعوا الى ابيهم قالوا : يا انا : منع منا الكيل ، فارسل معنا انا بنا كئل ، وانا له لحافظون . قال : هل امكم عليه الا كما امكم على اخيه من قبل ، ماله خير حافظا وهو ارحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وحنوا بضاعتهم ردت اليهم . قالوا : يا انا : ما نبغى ، هذه بضاعتنا ردت اليها ، وبمير اهلنا ونحفظ اناها ويزداد كيل بمير ، ذلك كيل يسر . قال : ان ارسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتينني به الا ان يحاط بكم . فلما اتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكئل . وقال : يا بني لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من ابواب متفرقة ، وما ائني عنكم من الله من شيء ، ان الحكم الا لله ، عليه توكلت ، وعليه طيبوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث امرهم ابوهم ما كان يقنى عنهم من الله من شيء ، الا حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وانه لنو علم لما علمناه ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون » [١] ..

.....

عاد اخوة يوسف الأحد عشر هذه المرة ..

(١) آيات ٦٢ الى ٦٨ سورة يوسف مكية .

« ولما دخلوا على يوسف أوى إليه أخاه ، قال : اتى تا لحوك
فلا تتشس بما كانوا يعملون » [١] .

يتفرز السياق قلنا الى مشهد يوسف وهو يحتضن أخاه ويكشف له وجده
سر قرابته ، ولا ريب ان هذا لم يحدث فور دخول الأخوة على يوسف ، والا
لاكتشفت لهم قرابة يوسف ، انما وقع هذا في خفاء وتلطف ، فلم يشعر
أخوته ، غير ان السياق المعجز يقتر الى اول خاطر ساور يوسف عند دخولهم
عليه ورؤيته لأخيه ..

وهكذا يجعله القرآن أول عبل ، لأنه كان أول خباطر ، وهذه من دقائق
التعبير في هذا الكتاب العظيم ..

يطوى السياق كذلك فترة الضيافة ، وما دار فيها بين يوسف وأخوته ،
ويعرض مشهد الرحيل الأخير ..

ها هو يوسف يدبر شيئا لأخوته ..

يريد أن يحتفظ بأخيه الصغير معه ..

يبلغ لى احتفاظه بأخيه سببى أحزان أبيه ، وربما حركت الأحزان الجديدة
أحزانه القديمة ، وربما ذكره هذا الحادث بفقد يوسف ..

سليم يوسف هذا كله .. وها هو يرى أخاه .. وليس هناك داعي حاصر
لاحتفاظه به ، لماذا يفعل ما فعل ويحتفظ بأخيه هكذا ؟

يكشف السياق عن السر في ذلك .. ان يوسف يتصرف بوحى من الله ..
يريد الله تعالى أن يصل بين ثلاثة ليحبوب الى الدرة .. حتى اذا جلوز به
مسطحة الألم المشرى المحتل وغير المحتل ، وراء صابرا ، رد اليه انبيه معا
ورد اليه بصره ..

انتمى يوسف من تعبيرة ..

أمر رجاله أن يخفوا كأس الملك الذهبية في متاع أخيه خلسة .. وكانت
الكأس تستخدم كمقيال للخلال .. وكانت لها قبتها كمقيار في الوزن الى
حوار قيمتها كذهب خالص ..

أخفى الكأس في متاع أخيه .. ونها أخوة يوسف للرحيل ومعهم أخوهم
.. لم أغلقت أبواب العاصمة .. ولئن مؤذن :

— ايها العبر .. انكم سارقون ..

كانت صرخة الجند تعنى وقوف القوافل جيبا .. وانطلق الاتهام لوق
رؤوس الجميع كقطاء خلى فامض ..

اتل الناس وأقبل معهم أخوة يوسف ..

— ماذا تفقدون ؟

هكذا تسأل أخوة يوسف ..

قال الحدود : نعمد صواع الملك .. ضاعت كاسه الذهبية .. ولن بحره
بها مكافأة .. منعطيه حمل بعير من العلال ..

قال اخوة يوسف براءة : لم نأت لنفسد في الارض وبسرق ..

قال ضباط يوسف [وكان يوسف قد وجههم لما يقولونه] : اي جزاء
نحبرن توقيعه على السارق ؟

قال اخوة يوسف : في شريعتنا يعتبر من سرق هذا لمن سرقه ..

قال الضابط : منطلق عليكم قانونكم الخاص .. لن يطبق عليكم القانون
المصري الذي يقضي بسجن السارق .. كانت هذه الايام كيدا وتدبرا
من الله تعالى ، اللهم يوسف ان يحدث بها سلطه .. ولولا هذا التفسير الالهي
لاجمع على يوسف ان ياخذ اهله .. فقد كان دين الملك او قانونه لا يقضي
باعتناق من سرق ..

التفت كبير الضباط وأمر : ايدوا التفتيش ..

كان يوسف يرتب هذا كله من مكانه على العرش ..

كان قد أصدر امره لضباطه ان ييدوا تفتيش اخوته اولا .. فلا يحرجون
كاس الملك الا في التفتيش الأخير ..

تم تفتيش الاح الاول ، والثاني ، حتى وصلوا الى الصائر .. لم يجدوا
شئنا ..

اطلب اخوة يوسف الى مراعاتهم من المرقه وسلبوا المسعداء ، وقالوا
لم يبق الا شقيقنا الصغير ..

قال يوسف [وهو يدخل للمرة الاولى] : لا داعي لتفتيشه .. لا يبدو انه
سارق ..

قال اخوة يوسف : لن نرحل الا اذا انتش مناعه .. ليعلن قلبك وسلبك
قلوبكم .. انت اثناء شيخ طيب ، ولسنا سارقين ..

وايذت ابدي الضباط الى رحل اخيه ، واخرعت كاس الملك ..

صار اخو يوسف هذا ليوسف بمقتضى قانونهم الذي طبقه القضاة على
الحادث ..

اعتب ذلك مشهد غريب لشاعر ..

ان احساس الاخوة براحة الانتقاذ والنجاه من التهمة ، جعلهم يستبدون
باللوم على شقيق يوسف ..

قالوا : ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل ..

انهم يتنصلون من تهمة السرقة ، ويلقونها على هذا الفرع من اسن
يعقوب ..

سمع يوسف ماذنيه اتهامهم له ، واحس بجزر عميق .. كم يوسف

أحرأته فى نفسه ولم يظهر مشاعره .. قال بينه وبين نفسه .. أنتم شر
مكنا ، والله أعلم بما تصفون ..

لم يكن هذا سلباً لهم ، بقدر ما كان تقريراً حكيماً لمساعدة من قواعد
الأمة ..

أراد أن يقول بينه وبين نفسه .. أنكم بهذا القذف شر مكنا عند الله
من المكذوف ، لأنكم تذفون بريئين بتهمة المردة .. والله أعلم بحقيقة
ما تقولون ..

سقط المصبت بعد تعليق الأخوة الأخير .. ثم ألقى احساسهم بالنحلة ،
وتذكروا معقوب .. لقد أخذ عليهم عهداً فليظا ، أن لا يفرطوا فى ابنه ..

وبدأوا استرحام يوسف

يوسف أيها العزيز ..

يوسف أيها الملك ..

ان له أبا شبيخا .. فخذ أحداً مكانه .. أنا نراك من المحسنين ..

قال يوسف بهنوء : كيف تريدون أن نترك من وجعنا كأس الملك عنده ..
وماخذ بدلاً منه أنسلنا آخر .. هذا ظلم .. ونحن لا نظلم ..

حاول الأخوة أن يستمروا فى استرحامه ، ولكن الضباط والجنود انهموهم
أن عزيز مصر .. يوسف الصديق .. قد تكلم وانتهى الأمر .. لينصرفوا
ويتركوا أخاهم عبداً عنده ..

وتحرك أخوة يوسف ..

لا يدرون كيف يتصرفون فى مصيبتهم الجديدة .. ولا كيف يواجهون أباهم
بما حدث ..

جلس لكبرهم على الأرض وقال : لن نتحرك من مكنا .. لقد عرستم من
قبل فى يوسف .. وما أنتم تفرطون فى أخيه .. أرجعوا إلى أبيكم بحبرى
.. لمقولوا له ما حدث ..

.....

قال تعالى :

« فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ، ثم ألن مؤذن
إيتها العير أنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم : ماذا تفعلون .
قالوا : نفقد سواع الملك، وإن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا :
فإنه لقد علمتم ما جئنا لنفسد من الأرض وما كنا سارقين . قالوا
فما جزاؤه أن كنتم كاذبين . قالوا : جزاؤه من وجد فى رحله فهو
جزاؤه ، كذلك مجزى الظالمين . فبدأ يؤعينهم قبل وعاء أخيه ، ثم
أستخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كفنا ليوسف ، ما كان يلفظ أخاه
فى دين الملك — إلا أن يشاء الله — نرفع درجات من نشاء ونفوق
كل ذى علم عليهم . قالوا من يسرق فقد سرق أخ له من قبل ،

فأمرها يوسف لي بنفسه ولم يبدعها لهم ، قال أنتم ثمر مكاننا والله أعلم
بما تصون . قالوا : ما أبها العزيم أن له أبا شمعها كبيرا ، مجد لديها
مكانته ، أبا مراك من المحسنين . قال : هذا الله أن يلهي الآ من وهذا
مناعا عبده ، أبا أبا لظالمون . طلبا استملوا منه خلصوا نجا ،
قال كبرهم ألم بطلوا أن أبائكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن
قل ما فرطتم في يوسف . هلن أبرج الأرض هي يالئن لي أبي لو
يحكم الله لي وهو خير الحكمين « [١] » ..

.....

استقر رأي الإخوة على العودة بمر شغلهم الكبر وأحسهم الصبر .

دخلوا على أبيهم فقاتلوا :

— يا أبانا إن أبناك سرق ..

سأول الأب مدعنا ، وكنته يكتم مسحة : ماذا يقولون ؟

حدثوه عما وقع .. أخبروه أنهم يقولون له : شهدوه بأبائهم . وليسأل
من كنوا معهم في مصر .. ليسأل القائمة التي جدوا فيها .. أنهم صدقون
هذه المرة فقد كان هناك شهود طيلة الوقت ..

استمع يعقوب إليهم وقال بحر صر . وعين دامعة :

— بل سأولت لكم أنفصكم أمرا .. فصر صر .. عمي الله أن يئس بهم
جميعا .. أنه هو الحكيم الحكيم ..

لم يصدق يعقوب .. هربهم من قبل فلم ير بهم صدق .. انتهى الأمر
وانغلت عليه أبواب الوحدة .. صار وحيدا بغير أبه الذي أحبها أكثر ما
أحب منه أبنته .. كان يعقوب شحبا محوا .. ها هو الله ينسبه في
شمسوته بوحدة موحدة .. مير أن يعقوب يرمى نفسه بالصبر . وسوكتا
عليه ، وينوي أن يكون مبره حيلة بغير شكاه لأحد .. إلا الله .. وهو يؤمل
في الله خيرا ، ويرجو أن ياتيه نسيانه جميعا .. أنه هو الحكيم بحاله ،
الحكيم ، الرؤوف ، الوود ..

انكأ يعقوب عائدا لمرضه ..

لم يكد يستدير ويمضي حتى هاج الحادب الجديد حربه الصدم على
يوسف ..

— يا أبا علي يوسف ..

هرب من قلبه مبرشته ذئبع بالحب .. وأملاب عبده بديوع كبيرة
راحت يريد حربه أشملا ، بدلا من تسكيه وأطفائه ..

بصلما الله على حوار الإخوة ولفاتهم بأنهم في قوله تعالى :

« أرجعوا إلي ليحكم بكم فقالوا : يا أبانا : إن أبناك سرق . وما شجنا إلا

(١) الآيات من ٧- إلى ٨- سورة يوسف بكه .

بما علمنا ، وما كنا للغييب حافظين . وأسأل القرية التي كنا فيها ،
والعبر التي أقبلنا فيها ، وأنا لصادقون . قال : بل سولت لكم انفسكم
أمرا فصبور جميل ، عسى الله ان ياتيني بهم جميعا ، انه هو العليم
الحكيم » ..

« وتولي عنهم ، وقال : يا اسفا على يوسف . وابيضت عيناه
من الحزن فهو كظيم » [١] ..

أسلمه البكاء الطويل الى لقد بصره .. او ما يشبه لقد بصره ..

اهناك من يقول : كان نبيا ويبكى هذا البكاء .. ألمس البكاء لونا من ألوان
الأيأس ؟ .. ونقول ردا على ذلك : ان الأنياء هم أعظم الناس أهساسا
بالشاعر ، وأعمقهم تأثرا ، وأشدهم استجابة للتأثرات ..

والبكاء درجة من درجات الحب .. ولون من ألوان الشكوى الى الله ..
ولقد كان يعقوب يبكى لأنه صاحب قلب كبير .. ولم يكن يبكى أمام أحد ..
كان بكائه شكوى الى الله لا يعلمها إلا الله .. ثم لاحظ اننا أنه لم يمد يصر
ورجعوا أنه يبكى على يوسف ، وهاجبوه في مشاعره الانسانية كأب ..
حزروه بأنه سبهلك نفسه ..

« قالوا : فانه نقنا فذكر يوسف حتى تكون حرمنا او تكون من
الهاكين . قال : انما أشكو بلى وهزنى الى الله ، وأعلم من الله
ما لا تعلمون » [٢] ..

ردهم جواب يعقوب الى حقيقة بكائه ..

انه يشكو همه الى الله .. ويعلم من الله ما لا يعلمون .. فليتركوه في
بكائه وليصرفوا همهم لشيء أجدى عليهم ..

« يا بني : اذهبوا فخصموا من يوسف وأخيه ، ولا تلبسوا من روح
الله ، انه لا يلبس من روح الله إلا القوم الكافرون » [٣] ..

انه يكشف لهم في حق أهازنه من أمه في روح الله .. انه يشعر بان
يوسف لم يست كما تلبسوا .. لم يزل حيا ، فليذهب الاخوة بحثا عنه ..
وليكن دليلهم في البحث ، هذا الأمل العميق في الله ..

تحركت القافلة في طريقها الى مصر ..

اخوة يوسف في طريقهم الى العزيز .. تدهور حالهم الاقتصادي والنفسي
.. ان فقرهم وحرث أبيهم ومحاصرة المتاعب لهم ، قد هدئت قواهم تماما ..

ها هم يدخلون على يوسف .. معهم بضاعة رديئة .. جاءوا بشئ لا يبيع
لهم شراء شيء ذي بال ..

١) الآيات من ٨٠ الى ٨٦ سورة يوسف مكية .

٢) الآيات ٨٥ ، ٨٦ سورة يوسف مكية .

٣) الآية ٨٧ سورة يوسف مكية .

قال تمسالي :

« فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيز مسنا وأهنا الضر ، وحننا
بضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكلب ، وصديق علينا ، إن الله يعزى
المعتصدين » [١] ..

انتهى الأمر بهم إلى القبول ..

انهم يسألونه أن يصدق عليهم .. ويستميلون قلبه ، متذكرون أن الله
يجزى المعتصدين ..

عندئذ ...

وسط هوانهم واتعداد حالهم ..

حدثهم يوسف بلعنهم ، بخير واسطة ولا مترجم ..

« قال : هل علمتم ما فعلكم يوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا :
إنك لأت يوسف ؟ قال : أنا يوسف ، وهذا أخى ، قد من الله
علينا ، أنه من سبق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا :
تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين » [٢] ..

يكاد الحوار يتحرك بآدق تعبير عن مشاعرهم الداخلية .. فاجأهم عزيز
مصر بسؤالهم عما فعلوه بيوسف .. كان يحدث بلعنهم فأدركوا أنه يوسف
.. وراح الحوار ببعض فيكشف لهم خطيئتهم معه ..

لقد كلدوا له والله غالب على أمره ..

مرت السنوات ، وذهب كيدهم له .. وفقد بدير الله المحكم الذى يقع
بأعجب الأساليب .. كل القاذو فى البئر هو بداية مموّدة إلى السلطة
والحكم .. وكان إيمانهم له عن أبيه مسببا عن ريبه حب يعقوب له ..
وها هو الستار يفتح عليهم .. وهو بملك رقبهم وحياتهم ، وهم يقولون فى
موقف استجداء عطفه .. أنهم يحتبون حوارهم معه يقولهم :

— تالله لقد آثرك الله علينا .. وإن كنا لخاطئين ..

إن روح الكلمات واعتراهم بالخطأ يشى بخوف منهم عيبى بجراح نفوسهم
.. ولعلمهم فكروا فى انتقامه منهم وارتفعت قرائنهم .. ولعل يوسف أحسن
ذلك منهم مطمانهم بقوله :

« لا تقرب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ..

لا مؤاحدة ، ولا لوم ، انتهى الأمر من نغسى ودانت جذوره .. لم يقل لهم
اسئلى أسامحكم أو أعفركم ، إنما دعا الله أن يعمر لهم . وهذا يتضمن أنه عفا
عنهم وتجاوز عنه ، ومضى بعد ذلك خطوات .. دعا الله أن يعمر لهم ..
وهو سى ودعوته مستحانة .. وذلك نسامح براه آية الآيات فى النسامح ..

(١) الآية ٨٨ سورة يوسف مكية .

(٢) الآيات من ٨٩ إلى ٩٦ سورة يوسف مكية .

ها هو يوسف ينهي حوارهم معهم بثقله مضاعفة لأبيه .. يعلم ان ابيه قد
أبضت عيناه من الحزن عليه .. يعلم انه لم يمد يده .. لم يدر الحوار
حول ابيه لكنه يعلم .. يحس قلبه .. خلق يوسف قميصه وأعطاه لهم ..

« اذهبوا بقيمى هذا خالفوه على وجه أبى يات بصيرا » ولتوني
بأهلكم أجمعين » [١] .

وعادت القافلة الى فلسطين ..

يثوب المشهد في مصر ، ويضئ في فلسطين ..

نحن في بيت يعقوب ..

يجلس الرجل في حجرته ، أبهى العينين ، تدحرف البكاء لخدودين في
وجهه ..

ينفض الرجل ثجاة ..

لثة تحول في وجه الشيخ المحزون الأعمى .. ها هو يدلل ثيابه ويخرج
على زوجات أبنائه ..

وقف في فناء الدار ، ورفع رأسه الى السماء ، وتشيم الهواء بلوة ..
ملا صدره من الرياح الناعمة من مصر .. ثم استدار هائدا لفرغته ..

نالت زوجة الابن الأكبر لزوجات الأبناء الآخرين :

— خرج يعقوب اليوم على غير عادته .. قلبى يحدثنى بشيء .. هجر
هزلته ووقف في الفناء .. تنظر الى السماء وهو أعمى فكيف تنظر الى السماء
.. لا أعرف .. ولكنى أقسم أنني لمحت ظل ابتسامة في وجهه ..

تساطت نساء الأبناء بالدهشة :

— نقولين انه ارتدى ثيابا جديدة ؟ .. ونقولين انه ابتسم ؟

وتهرع النساء اليه .. لا ظل لابتسامة في وجهه .. أكان وهسا ما رآته
المرأة ... ؟

سألته النسوة : يم تحس اليوم أيها الجليل ؟

قال الشيخ : انى لأجد ريح يوسف ..

وزابت النسوة .. فاضلك : لولا ان تفتنون ..

انفضت عنه زوجات الأبناء ، ودار بينهن الحوار :

— لا أمل في الشيخ .. سيهلكه البكاء على يوسف ..

□ هل تحدث عن قميصه ؟

— لا أعرف .. قال : انه يجد ريحه ..

□ سأل ذاكرة الشيوخ مع الوقت وهذا على العكس .. ترداد ذاكرته
مضاء وحده ..

— لم يرل الحادث طربا في ذهنه ..

□ تقولين أنه بدل ثيابه ..

— لعله جن ..

□ الجنون وحده هو الذي يبعث صور من نحب ورائحتهم ..

يومها طلب الشيخ كوبا من اللبن .. كان صائما فأططر عليه ، ولأول مرة
يطلب الطعام ولا يفرص عليه .. وراح المساء يبدن ثيابه بيظه .

القافلة تسير بتقييس يوسف .. كلن التقييس مفضا في التمتع .. كان
مخلصا بندي الحقول ورتحه الأرض الطيبة وعطر يوسف ودفء الشمس
التي أنضجت القمح ..

وتتقرب القافلة من قرية الشيخ ..

الشيخ يدور في غرفته ..

بصلي طويلا ، ويرفع يديه للسماء ، ويعاود استنشاق الهواء ، والكاء ..
سببا لتقييس المدي بالشمس ورائحة يوسف في طريقه اليه ..

« ولما فصلت العبر قاتل أبوههم : أنى لأجد ربيع يوسف لولا أن
تفقدون . قالوا تالله أنك أنى ضللك القديم . فلما أن جاء البشير
اللقاء على وجهه عازد بصيرا . قال ألم نقل لكم أنى أعلم من الله
ما لا تعلمون ؟ قالوا : يا أبانا : استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين .
قال : سوف استغفر لكم ربى أنه هو العفور الرحيم » [١] ..

ها هو المشهد الأخير في قصة يوسف ..

بذات قصته برؤيا .. وها هو الخيام تاويل رؤياه ..

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، وقال : انخلوا مصر
— أن شاء الله — آمين . ورفع لمويه على العرش وخرأ له
سجدا ، وقال : يا أبت : هذا تاويل رؤيائى من قبل ، قد جعلها
ربى حقا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من
البدو من بعد أن نزع النسطان بى وبين أهوى ، أن ربى لطيف
بما يشاء ، أنه هو المعلم الحكيم » [٢] .

تأمل الآن مشاعره ورؤياه تحقق .. أنه يدعو ربه ..

« رب قد آتفتى من الملك ، وعلمنى من تاويل الأحاديث ، فاطر
السموات والأرض ، أنت ولى فى الدنيا والآخرة ، توغنى مسلما ،
والحقنى بالصالحين » [٣] .

.....

(١) الآية من ٩٤ الى ٩٧ سورة يوسف مكية .

(٢) الآية ٩٩ الى ١٠٠ سورة يوسف مكية .

(٣) الآية ١٠١ سورة يوسف مكية .

هى دعوة واحدة ..

— توغنى مسلما ..

.....

لا نريد أن نترك قصة يوسف الكريم ابن يعقوب الكريم ، قبل أن نلاحظ
هذه الملاحظة ..

فى قصة سيدنا إبراهيم ، ينزع الحب الغريزى من قلبه لابنه سيدنا
إسماعيل ، حتى يصير القلب خالصا لله وحده ، فإذا تحقق الأمر يرفع أمر
الذبح ويأتى الهداء ..

وثمة مسألة فى قلب سيدنا يعقوب .. بالمسبة لابنه يوسف ، أحب يوسف
لابنى بضياعه ، فلما سر قلبه خالصا لله دون أغيار من يوسف ولعبه ،
رد الله إليه ولداه ..

وثمة مسألة فى قصة الأنك .. اذ ينزع ميل سيدنا محمد ، صلى الله
عليه وسلم ، إلى السيدة عائشة ، رضى الله تعالى عنها ، حتى يصير القلب
خالصا لله دون أغيار .. بعدها تنزل برائتها وتحل مكانها باسم الله ..
بكلمة الله ..

قصة شعيب [عليه الصلاة والسلام]

يمتدد كثير من الناس في زملتنا أن الدين مجموعة من القضايا
المجردة ، والقيم الأخلاقية ..

وهذا اعتقاد قديم وساطي .. إن الدين في حقيقته الثانية أسلوب للحياة والتعامل
حقيقته الأولى أنه صلة بالله ..

وهذا كان الفصل بين قضايا التوحيد والألوهية ، والقيم الأخلاقية ، وسلوك
الناس في حياتهم اليومية ، يعني تحريد الدين من حياته ، وتحويله إلى مجموعة من
الطقوس المزركنة والرسوم اللينة

ولقد أبرزت قصة شعيب هذا المعنى بشكل واضح ..
لرسول الله تعالى شعيباً إلى أهل « مدين » ..

« وإلى مدين أخاهم ثموديا » قال : يا قوم : اعبدوا الله ما لكم من
الله غيره » (١) ..

نفس الدعوة التي يدمسوها كل نبي .. لا تختلف من نبي إلى آخر ..
لا تتبدل ولا تتردد ..

هي أساس العقيدة .. وبغير هذا الأساس يستحيل أن ينهض نساء ..
بعد وضع الأساس .. يبدأ شعيب نبي تفصيل دعوته ..

« ولا تنقصوا المكيال والميزان ، أتني أراكم يفرح ، وأتني أخلف عليكم
عذاب يوم محيط » (٢) .. [سورة هود] ..

بعد قضية التوحيد مباشرة .. ينتقل النبي إلى قضية المعاملات اليومية
.. قضية الأمانة والعدالة .. كل أهل مدين ينقصون المكيال والميزان ،
ولا يعطون الناس حقهم .. وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد .. كما
تمس كمال المروءة والشرف ، وكل أهل مدين يعترضون مخس الناس أشياءهم
.. نوعاً من أنواع المهاراة في البيع والشراء .. ودعاهم في الأخذ والعطاء ..
ثم جاء بيهم وأنهمهم أن هذه نداء وسرقة .. أنهمهم أنه يخلف عليهم بمسها
من عذاب يوم محيط ..

(١) من الآية ٨٤ سورة هود مكة ،

(٢) من الآية ٨٤ سورة هود مكة ،

انظر الى متفل الإسلام الذي بحث به شعيب في حياة الناس ، الى الحد الذي يرقب فيه عملية البيع والشراء ..

«ويا قوم : اوعوا المكيل والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعفوا في الأرض مفسدين » [١] ..

لم يزل شعيب ماضيا في دعوته .. ها هو يكرر تصحه لهم بصورة ايجبية بعد صورة الفهي السلبية .. انه يوصيهم ان يوفوا المكيل والميزان بالقسط .. بالعدل والحق .. وهو يحذرهم ان يبخسوا الناس أشياءهم .. وليس محسن الناس أشياءهم أو حقوقهم مقصورا على البيع والشراء ، انما هو أمر عام يمس علاقات العمل .. ويحكمها بمقياس حديد كل الجودة .. هو معيار الأمانة .. وهكذا تبسود عقيدة التوحيد طفرة ضيقة في طريق الأمانة والعدالة وتميز الطوب الناس ومسلوكهم وتصرفاتهم في الحياة اليومية ، سواء في علاقات العمل والانتاج ، أو علاقات التبذل ، أو التصرفات الشخصية المحت ..

ان التمييز القرآني يقول :

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم » [١] .. وكلمة الشيء تطلق على الأشياء المادية والمعنوية .. وتدخل فيها الأعمال وعلاقات الاساج .. ويعني النص تحريم الظلم ، سواء كان ظلما في وزن السلعة أو الخسرات ، أو ظلما في تقييم مجهود الناس واعمالهم ..

ذلك ان ظلم الناس يشجع في جو الحياة مشاعر من الالم واليأس والامبالاة ، وتكون النتيجة ان يهزم الناس من الداخل ، وتنهار علاقات العمل ، وتلحقها الفهم .. ويشجع الاضطراب في الحياة .. ولذلك يستكمل النص تحذيره من الانسداد في الأرض ..

« ولا تعفوا في الأرض مفسدين » بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين » [٢] ..

لعلنا .. هو تعمد الانسداد .. والتصد اليه ..

ولا تعفوا في الأرض مفسدين .. لا تعفوا في الأرض متعبدين فاسدين .. بقية الله خير لكم .. ما عند الله خير لكم .. ان كنتم مؤمنين .. بعدها يخلو بينهم وبين الله الذي دعاهم اليه ..

ينحي نفسه ويغويهم انه لا يملك لهم شيئا .. ليس موكلا عليهم ولا حفيظا عليهم ولا هارسا لهم .. انما هو رسول يلهمهم رسالات ربه ..

« وما آتانا عليكم بحفيظ » [٣] ..

.....

بهذا الأسلوب يشعر شعيب قومه بأن الأمر حد ، وخطير ، وثقيل .. وهو يرفع الستار عن عاقبة المسادهم ويتركهم أمام العاقبة وحدهم ..

(١) من الآية ٨٥ من سورة هود مكة .

(٢) من الآية ٨٥ وآية ٨٦ من سورة هود مكة .

(٣) من الآية ٨٦ سورة هود مكة .

انتهى الجزء الأول من حوار شعيب ..

كان هو الذى يتكلم .. وكان قومه يستمعون .. توقف هو عن الكلام وتحدث قومه ..

« معوا : يا شعيب : أصلاتك تأمرنكم أن تترك ما يعبد آبائنا ؟ أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟ إنك لآنت الحكيم الرشيد » [١] ..

كان أهل مدين كثارا يتطعمون المسكين ، ويخفون المارة ، ويمدون الأيسكة ..

وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها .. وكثروا من أسوأ الناس معاملة ، يبخسون الكيل والميزان ويطفنون فيها ، ويأخذون بالرائد ويذبحون بالناقص .. أنظر بعد هذا كله إلى حوارهم مع شعيب ..

قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك ... ؟

كان هذه الصلاة عميدة هناك تدفع شعبا وتوسوس له وتأمره فيطيع دون تردد وتكون تفكير .. لقد تحول شعيب — بسبب صلاته — إلى آلة متحركة وأداة لا تسمى ..

« أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آبائنا ؟ » [٢]

بهذا التهمك الخفيف والسفيرة المدهشة .. واستهوا الأجر .. لقد تجرت صلاة شعيب وجنت وأمرته أن يأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم .. ولقد كان آباؤهم يعبدون الأصجار والنباتات .. وصلاة شعيب تأمرهم أن يعبدوا الله وهذه .. أى جراءة من شعيب .. أو غلغل أى جراءة من صلاة شعيب .. بهذا المنطق السلفى الهزئ وجه قوم شعيب خطتهم إلى نبيهم .. ثم عادوا يتساملون بدهشة سافرة :

« أو إن نفعل فى أموالنا ما نشاء » [٣] .

تخيل يا شعيب أن صلاتك تتدخل فى أرادتنا ، وطريقة تصرفنا فى أموالنا ..

ما هى علاقة الإيمان والصلاة بالمعاملات المخفية ؟

بهذا التساؤل الذى خلفه قوم شعيب ثمة فى الفكاهة .. طرخوا إمامه قضية الإيمان ، وأنكروا أن تكون لها علاقة بسلوك الناس وتعاملهم .. واقتصدهم ..

هى قضية قضية آذن ..

هذه المحاولة للتفريق بين الحياة الاقتصادية والإسلام ، وقد بحث به كل الأنبياء ، وأن أخلفت أسماؤه ..

هذه المحاولة قديمة من عبر قوم شعيب ..

(١) الآية ٨٧ من سورة هود مكة .

(٢) نفس الآية ٨٧ من سورة هود مكة .

(٣) من الآية ٨٧ سورة هود مكة .

لقد أنكروا أن يتدخل الدين في حياتهم اليومية ، وسلوكهم ، واقتصادهم ، وطريقة انفاقهم لأموالهم بحرية .. أن حرية انفاق المال أو أهلكه لو انصرف فيه شيء لا علاقة له بالدين .. هذه حرية الإنسان الشخصية .. وهذا ما به الحاصل ، ما الذي لخصه الدين على هذا وذاك ؟

هذا هو فهم قوم شعيب للإسلام الذي جاء به شعيب ، وهو لا يختلف كثيرا لو قليلا عن فهم عديد من الأقوام في زماننا الذي نعيش فيه ..

ما للإسلام وسلوك الناس الشخصي ، وحياتهم الاقتصادية ، وأسلوب الإنتاج ، وطرق التوزيع ، وتصرف الناس في أموالهم كما يشاءون .. ما للإسلام وحياتهم اليومية ... ؟

« أنك لآنت العليم الرشيد » [١]

يريدون أن يقولوا له ، لو كنت حليفا رشيدا لما قلت ما تقول ..

أنهم يهودون إلى السخرية منه والاستهزاء بدعوته ..

ولو أنك سألت قوم شعيب عن تصورهم للدين : ما داموا ينكرون أنه أسلوب في الحياة يجعلها أرشد وأنظف وأعدل وأحرر بخلافة الله في الأرض .. لو أنك سألتهم عن الدين لأتباكوا أنه محبوسة من القيم الروحية الطيبة التي لا تتدخل في الحياة اليومية .. وبهذا الفهم يتحول الدين إلى حلية من حلي الزينة ..

وهذا فهم مضطك .. لأن الله لا يرسل الأنبياء والرسالات للزينة أو اللهو .. سبحانه وتعالى علوا كبيرا على ذلك ..

إنما يرسل الله أنبياءه بأسلوب جديد للحياة ..

أسلوب يملأ على قيم وأفكار لا يكون لها أي معنى إذا لم تتحول إلى نظام يحكم الحياة العلمية ، ويحكم الحياة الخاصة .. يحكم هذه وتلك على امتداد الوقت ..

بهذا الفهم يستقيم معنى الدين .. وبهذا المتصور نفهم تدخل الدين في أمور الحياة اليومية ، ابتداء من علاقات الحب ، إلى نظم الزواج ، إلى أسلوب قضاء الاجازات على الشواطئ ، إلى طريقة انفاق النقود وتوظيفها إلى نظم توزيع الثروات وأعمالها ، واستغلال العمل البشري وتهيئة الظروف للإنتاج ..

يحكم الدين هذا كله .. إذا فهم الناس هذا ، صار الدين دينا بحق ، والا كان الأمر هزلا في هزل .. ولقد أدرك شعيب أن قومه يسفرون منه لاستيادتهم تدخل الدين في الحياة اليومية .. ولذلك تطلب منهم تطلق صاحب الدعوة الواقف من الحق الذي معه ، وتجاوز مسخريتهم لا يبالغها ، ولا يتوقف عندها ، ولا يناقشها .. تجاوز السخرية إلى الجد .. أنهمم أنه على مينة من ربه .. أنه نبي يعلم .. وهو لا يريد أن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ، أنه لا ينهاهم عن شيء ليحقق لنفسه نفعاً منه .. أنه لا ينصحهم

(١) من الآية ٨٧ سورة هود مكية .

بالأمانة ليخبر له السوق ليستفيد من التلاعب .. انه لا يفعل شيئا من ذلك .. انما هو مبني .. وما هو بلخص لهم كل دموع الانبياء هذا التلخيص المعجز :

« ان اريد الا اصلاح ما استطعت » [١] .. ان ما يريد هو الاصلاح .. هذه هي دموع الانبياء في مفسونها الحقيقية وعمقها السعيد .. انهم مصلحون اساسا ، مصلحون للعقول .. والتلوب .. والحياة العلمية .. والحياة الخاصة ..

« قال : يا قوم : ارايتم ان كنت على بينة من ربي ، ورزقني منه رزقا حسنا ، وما اريد ان اخالفكم الى ما اتهاكم عنه ، ان اريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توقي الا بالله ، عليه توكلت ، واليه انيب » [٢] ..

بعد ان أوضح اهدافه لهم ، وكشف عن حقيقة دموته .. استعمار لعقولهم اجنحة وطف بها في كتاب التاريخ الشري ، اراهم مصارع من كل قبلهم من الناس .. قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح .. وما قوم لوط بسعيد .. ويبدأ شعيب حوارهم معهم بأن ينبيههم الى ان عنادهم معه قد يحملهم على تكذيبه ومخالفته .. ومخالفة الانبياء تنتهي الى نتائج مؤسفة .. يهلك المكذبون دائما ..

« ويا قوم : لا يجرمنكم شنائي ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح لو قوم هود لو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد .. واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ، ان ربي رحيم ودود » [٣] ..

بعد دموعهم الى الله ، وبيان اسلوب الاصلاح ، وتحذيرهم من العناد ، وتخويفهم من مصارع المكذبين السابقين .. يفتح لهم النبي باب الاستعمار والثوبة .. ويلفتهم بالرفق الى ربه الرحيم الودود ..

ويبدو ان قوم شعيب كانوا قد اختاروا العذاب .. ان تسوء قلوبهم واصرارهم على مكاسمهم الحرام ، ورضاء النظام الحاكم عن نفسه ، واصرارهم على الوقوف ضد شعيب ، نجح هذا كله في أن يصوغ الجواب التالي على المسئلة الكبار :

« قالوا : يا شعيب : ما نفقه كثيرا مما تقول » [٤] ..

لا نفهم عنك .. انت تخرب .. لا تقول ما يفهم ..

« وانا اقراك فينا ضعيفا » [٥] ..

ضعيف لان الفقراء والاحياء هم الذين آمنوا به ، لها الاغنياء والكبراء واتباعهم فقد وقفوا جميعا ضده .. وهو بالحساب البشري لا يملك قوة كافية للرضى دموته .. هو اذن ضعيف ..

(١) من الآية ٨٨ سورة هود مكية .

(٢) الآية ٨٨ سورة هود مكية .

(٣) الايات ٨٩ - ٩٠ سورة هود مكية .

(٤) الآية ٩١ سورة هود مكية .

« ولولا رهطك لرجمناك » [١] .

لولا اهلك وقومك ومن يتبعك لحفرنا لك حفرة وقلنا لك ضربا بالحجارة ..
« وما انت علينا بعزيز » [٢] .

انتقل القوم من المسحورية به الى الهجوم عليه .. اقام عليهم الحجة بعد
سخريتهم الجاحلة ، فغيروا أسلوبهم في الحوار .. اتهموه أنهم لا يفهمون
ما يقول ، وأنهم يرويه ضحيفا ودليلا ، ولولا أنهم يخافون من أهله أو يصعب
عليهم أهله لقتلوه .. كسلوا عن كراهيتهم له وتمنيهم قتله لولا أسباب
تتصل بأهله ..

وتلطف معهم شعيب ..

نجاوز عن اساعتهم اليه ومسالهم سؤالا كان هدفه ايقاظ عقولهم ..
« قال : يا قوم ارهطى امر عليكم من الله » [٣] .

لبن العقل ان يتصوروا ذلك .. . انهم يسهلون تقدير حقيقة القوى التي
تتحكم في الوجود .. ان الله هو وحده العزيز .. وهو وحده القوى ..
والمروص ان يدركوا ذلك .. المخروض الا يقيم الاتساع وزنا في الوجود
لغير الله .. ولا يحثي في الوجود غير الله .. ولا يعمل حسابا في الوجود
لقوة غير الله .. ان الله هو التاعر فوق عباده ..

ويبدو ان قوم شعيب ضاعوا ذريعا بشعيب ..
واجتمع رؤساء قومه ..

« قال الملا الذين استكبروا من قومه : قنفرجلك يا شعيب والذين
آمنوا معك من قريتنا او انعمودن في ملتنا » [٤] .

دخلوا مرحلة جديدة من التهديد .. هددوه بالقتل ، وها هم يهددونه
بالطرد من قريتهم .. خبروه بين التشريد ، والمودة الى دينتهم وملتهم التي
تعبد الأشجار والجمادات .. وأنهم شعيب ان مسألة عودته في ملتهم
مسألة ليست ضمن المسائل الواردة في المفاوضات .. لقد جاء الله من
ملتهم ، فكيف يعود اليها ؟ .. انه هو الذي يدعوهم الى ملّة التوحيد ..
فكيف يدعوهم الى الشرك والكفر ؟ .. ثم أين تكافؤ الفرص ؟ .. انه يدعوهم
بفرق ولين وحب .. وهم يهددونه بالقوة ..

واستمر الصراع بين قوم شعيب وتببيهم ..

حمل أمانة الدعوة هذه الرؤساء والكبراء والحكام .. وبدا واضحا
الا لبل فيهم .. لقد اعرسوا عن الله .. اداروا ظهورهم له ..

« واتخذتموه رؤسكم ظهريا ، ان ربي بما تعملون محيط .. ويا قوم :
اهبطوا على مكثكم اني اهلل ، سوف تعلمون من ياتيه عذاب
يفزيه ومن هو كاذب ، وارلقبوا اني معكم رقيب » [٥] .

(٢١) الآية ٩١ سورة هود مكة .

(٢٢) من الآية ٩٢ سورة هود مكة .

(٢٣) من الآية ٨٨ من سورة الأعراف مكة .

(٢٤) من الآية ٩٢ ، وآية ٩٣ من سورة هود مكة .

نفخ شهب يديه منهم ..

لقد هجروا الله ، وكتبوا نبيه ، واتهموه بأنه مسحور وكاذب ..

غلب كل واحد .. ولينظروا جميعا أمر الله ..

وانتقل الصراع الى تحد من لون جنيد ..

راحوا يطالبونه بأن يسقط عليهم كسفا من السماء ان كان من الصائقين ..

راحوا يسألونه عن عذاب الله .. أين هو ؟ .. أين هو ؟ .. ولماذا تأخر ... ؟

سخروا منه .. وانتظر شهب أمر الله ..

وأوحى الله اليه أن يخرج المؤمنين ويخرج معهم من القرية .. وخرج شهب .. وجاء أمره تعالى ..

((ولا هاد أمرا نهنا تسميا والذين آمنوا معه برحمة متكاملت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كان لم يغنوا فيها ، إلا بعدا لحدين كما بعثت نودا [١] .

هي صيحة واحدة ..

صوت جاءهم من غمامة انزلتهم .. ولعلمهم فرحوا بما تصوروا انها تحمله من المطر ..

ثم فوجئوا أنهم لأم عذاب عظيم ليوم عظيم ..

انتهى الأمر ..

أدركتهم صيحة جبارة جعلت كل واحد فيهم يجرم على وجهه في مكانه الذي كان فيه في دأره .. صعدت الصيحة كل مخلوق هي ..

لم يستطع أن يتحرك أو يجرى أو يخطيء أو ينقد نفسه ..

جرم في مكانه مصروعا بصيحة ..

ولسبل الستار على القوم ..

(١) القرآن ٩٤ : ٩٥ من سورة هود مكية .

الياس [عليه الصلاة والسلام]

هو نبي الله الياس ، عليه الصلاة والسلام ..

جرى الصراع بينه وبين قومه حول منم يقال له « بعمل » ..

دعاهم الى الله .. فلبوا الا ان يدعوا معلا .. وانطوت صفحة الحياة واحتصر السياق فترة الحياة الدنيا ، فلذا هم محضرون امام الله يوم القبلية ..

قال تعالى في سورة الصافات :

« وان الياس ابن المرسلين . الذ قال لقومه : الاتقون . فندعون معلا وتلرون احسن الخلقين . الله ربكم ورب آبائكم الاولين . فكلبوه فانهم لحضرون . الا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه في الاخرين . سلام على الياسين . انا كذلك نجزي المحسنين . انه من عبادنا المؤمنين » [١] ..

.....

هذه الايات القصار هي كل ما يذكره الله تعالى من قصة الياس .. وأرجح الآراء ان الياس هو النفس المسمى ايليا في التوراة .. ويورد القديس برنابا نص نصائح ايليا ، وهو نص غير معروف في التوراة .. وهو نص نوره لما يشبهه من حكمة عميقة وصفاء خالص ، وهو نص يبدأ من الآية ٢٣ الى الآية ٢٩ من انجيل برنابا ..

يبدأ الكتيب هكذا : « ايليا عبد الله يكتب هذا لجميع الذين ينتفون ان يسبروا مع الله خالقهم . ان من يحب ان يتعلم كثيرا يخلف الله قلبا ، لأن من يخاف الله يقنع بأن يعرف ما يريد الله فقط ..

ان من يطلب كلاما مزوقا لا يطلب الله الذي لا يفعل الا لويبح خطابا .. على من يشتهون ان يطلبوا الله ان يحكموا اغلاق ابواب بيتهم ونوافذه ، لان السيد لا يرضى ان يوجد خارج بيته ، حيث لا يحب ، فلهرسوا بشاعرهم واهرسوا قلبكم ، لأن لا يوجد خارجا عنا في هذا العالم الذي يكرهه ..

على من يريدون ان يعملوا اميالا سالحة ، ان يلاحظوا انفسهم ، لأنه لا يجدى المرء نفعا ان يربح كل العالم ويخسر نفسه ..

(١) الايات من ١٢٢ الى ١٢٢ من سورة الصافات مكة .

على من يريدون تعليم الآخرين أن يعيشوا الفضل من الآخرين ، لأنه لا يستفاد شيء ممن يعرف أقل منا نحن ، فكيف أن يصلح الحاطئ حياته وهو يسمع من هو شر منه بعلمه ..

على من يطلبون الله أن يهربوا من مخالطة الشر ، لأن موسى لما كان وهذه على جبل سيناء ، وجد الله وكلبه كما يكلم الحليل خليله .

على من يطلبون الله أن يفرجوا مرة كل ثلاثين يوما الى حيث يكون أهل العالم ، لأنه يمكن أن يعمل في يوم واحد أعمال سنتين من خصوص شغل الذي يطلب الله ..

عليه متى تكلم ، أن لا ينظر الا الى تدبيره ..

عليه متى تكلم ، أن لا يقول الا ما كان ضروريا ..

وعليهم متى اكلوا ، أن يتوبوا عن المائدة وهم دون الشبع .. مفكرين كل يوم انهم لا يملعون اليوم التالي .. وصارعين وقتهم كما يتنفس المرء ..

ليكن ثوب واحد من جلد الحيوانات كافيا ..

على كتلة التراب أن تنام على الاعمى ..

ليتك كل ليلة سامعتان من النوم ..

عليه الا يعض احدا الا نفسه ..

وعليهم أن يكونوا واقفين أثناء الصلاة بحرف ، كأنهم أمام الدبونة الآنية ..

لتعلموا ان هذا في خدمة الله مع الشريعة التي امطاكم اياها الله على يد موسى .. لأنه بهذه الطريقة يمدحون الله ، وانكم ستشعرون في كل زمان ومكان انكم في الله ، وأن الله فيكم ؟ ..

انتهى ما لورده انجيل برنابا عن كتيب ايليا .

قصة إدريس [عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى في سورة مريم :

« والذكر في القلب إدريس أنه كان صديقاً نبياً . ورفعناه مكاناً
علياً » . [١]

لا نعرف متى عاش إدريس . ولا من كان قومه . ولا كيف رفعه
الله مكاناً علياً .

إن الأساطير تقول إن إدريس هو أوزيريس بطل الأسطورة المصرية
القديمة . وقد كان الها وثنيا مرقه « مت » . . . ولعبت إيزيس روجه دوراً
في إعادته إلى الحياة . ويس بين أيدينا ما نعلم أن إليه من مصادر لتحكم
برأي في موضوع إدريس .

ربما كان إدريس نبياً كريماً بحث في مصر ورفع الله إليه مثل عيسى
ابن مريم ، فلما رفع ألقن قومه به وصار الها في الأسطورة . .

وربما كان ما حدث شبيهاً آخر تماماً .

لم يرد في كتاب الله عنه ما يكشف الغموض الذي أحاط به .

ونحن لا نعرف إلا أنه كان صديقاً نبياً . . رفعه الله مكاناً علياً .

(١) الآيات ٥٦ ، ٥٧ من سورة مريم مكية .

قصة اليسع

[عليه الصلاة والسلام]

من أنبياء الله تعالى ، الذين يذكر الحق أسمائهم ويتلى عليهم ، ولا يحكى قصصهم .. نبي الله تعالى « اليسع » .

قال تعالى فى سورة ص :

« وانكر هيانا ابراهيم واسحق ويعقوب اولى الأيدي والأبصار .

انا لخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وانهم عندنا من المصطفين

الأخير . وانكر اسماعيل واليسع وذا النفل وكل من الأخيار [١]

وارجع الأقوال أن اليسع هو اليسع الذى تتحدث عنه التوراة ..
ويذكر القديس برنابا انه أقام من الموت اسمعئلا كيمجرة ..

(١) الآيات ٤٥ الى ٤٨ مكية .

قصة ذا الكفل

[عليه الصلاة والسلام]

أدخل الله تعالى ذا الكفل في رحمته .

أتى عليه كعبد صلب . وذكره مع إسماعيل وإدريس .

قال تعالى في سورة الأنبياء :

« وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين • وأدخلناهم
في رحمنا أنهم من الصالحين » [١]

قبل أنه تكفل لبني قومه أن يقضي بينهم بالعدل ويكتبهم لهم • • فعل
• • لمسي ذا الكفل •

تمسحت الأساطير حوله حديثا من الحكايات • وذكره القرآن مجرد ذكر
واتى عليه بغير أن يقدم قصته • •

حتى زس دموته مجهول • • لا يعرف من كان قومه ، ولا كيف يمك اليوم ،
ولا لماذا أجلاه •

(١) الأنبياء ٨٥ و ٨٦ بحقه •

أنبياء قوم ياسين [عليهم الصلاة والسلام]

قال تعالى في سورة [يونس] :

« واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون . اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا : انا اليكم مرسلون . قالوا : ما انتم الا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، ان انتم الا تكذبون . قالوا : ربما يعلم انا اليكم المرسلون . وما علينا الا البلاغ المبين . قالوا : انا نطيرنا بكم ، فن لم تنتهوا لفرجكم ولا يمسكم منا عذاب اليم . قالوا : طائركم محكم قلن لكونكم بل انهم قوم مسرفون » . [١]

يحكى الحق تبارك وتعالى قصة انبياء ثلاثة بعير ان يذكر اسماءهم . كل ما يذكره السياق ان القوم كذبوا رسولين فترسل الله ثالثا يعرزمهم . وأمر انفس انهم رسل ، كذبوهم ، فلما اقام الرسل عليهم الحجة ، قال قومهم انهم تشابهوا منهم . وهددوهم بالرحم والقتل والعذاب الاليم . ورفض الانبياء هذا التهديد ، واتهموا قومهم بالاسراف . . اسرافهم في ظلم انفسهم .

لا يقول لنا السياق ماذا كان من أمر هؤلاء الانبياء ، انما يذكر ما كان من أمر انفس آمن بهم . آمن بهم وهدده . ووقف بجهنم اتلية خبيثة ضد اقلية كاهرة .

انسان جاء من اتشى المدينة يسمى . .

جاء وقد تفتح قلبه لدموة الحق . لم يكذب بل أعلن ايماته حتى قتله الكافرون .

قال تعالى :

(لوحاء من اتشى المدينة رجل يسمى ، قال : يقوم : اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسئلكم لجزا وهم مهتدون . وصلى لا اعيد الذي فطرني واثيه ترجعون . اتخذ من دونه الهة ، ان يدن الرحمن بغير لا نحن عني شفاعتهم شيئا ولا ينظرون . انى اذا فلى سائل مجيب . انى آمنت بربكم فاسمعون » . [١]

(١) الايات من ١٢ الى ١٩ مكية .

(٢) الايات من ٢٠ الى ٢٥ سورة يونس مكية .

اختصر السياق القرآني فكر القتل ، وكشف الستار عن لحظة ما بعد الموت .

لم يكد الرجل المؤمن يلفظ آخر أنفاسه حتى صدر إليه أمر الله تعالى
« **قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ** » ، قال : **يا ليت قومي يعلمون** . بما غفر لي ربي
وجعلني من المكرمين » [١] .

تجول السياق أسماء الأنبياء وقصصهم ليبرز قصة رجل آمن .. ثم
يذكر لنا السياق اسمه .

اسمه لا يهم .. المهم ما وقع له .. لقد آمن بالأنبياء الله .. قبيل له
ادخل الجنة .

ليكن ما كان من أمر تعذيبه وقتله .

ليس هذا في الحساب النهائي شيئاً له قيمته .

فكمن الثيمة في دخوله نور اعلانه أنه آمن . نور قتله .

« **إني آمنت بربكم فاسمعون** » **قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ** » [٢] .

(١) الأبنان ٢٦ ، ٢٧ سورة يس مكية .

(٢) من الأبنان ٢٥ ، ٢٦ سورة يس مكية .

قصة أيوب [عليه الصلاة والسلام]

يقول النثر عن صبر اعظم الصابرين فيهم حين يبلغ ذروته ... انه
كصبر أيوب ، وقد ذهب أيوب مثالا على الصبر في كل لغة ودين وثقافة ..
وقد اتى الله تبارك وتعالى على عبده أيوب في محكم كتبه ..
قل تعالى :

« انا وجدناه صابرا ، نعم العبد ، انه اواب » [١] .

والأوبة هي العودة الى الله تعالى . وقد كان أيوب دائم العودة الى الله
بالذكر والشكر والصبر . وكان صبره سبب نجاة وسر ثناء الله عليه .
والقرآن يمكث من نوع مرضه فلا يحدده .. وقد مسحت الأساطير هيدا
من الحكايات حول مرضه .. قيل انه مرض مرضا حاديا متفرا نعلب
الناس الإعتراب منه بسببه .

يقول سفر أيوب في التوراة :

مفرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح ردى من
باطن قدمه الى هامته . فآخذ لنفسه شقفة فيحنك بها وهو جالس
في وسط الرماد . ص ٢ .

وتال هذا السفر نفسه على لسان أيوب :

« لانه مثل غيزى ياتينى اتينى ، ومثل المياه تنسكب زغرتى » . ص ٣ .

وتال هذا السفر نفسه :

قد كرهت نفسى حياتى . اسبب شكواى . اتكلم في مرارة
نفسى . ص ٩ .

ونحن نرمض هذا كله كحقيقة واقعة ، ولا نرى بأسا من قوله كميل
فتى حكاة بعد ذلك الشعراء على لسانه ، ويلغوا في وصف أهـاسه
هذه المجاعة الأدبية التى براها في قول القائل :

مطوفان نوح عند نوحى كادى
وايقاد نهران الخليل كلوعى
فلولا زغرئى أقسرتنى سداسى
ولولا دسومى أهرقتنى زغرئى

ان ابن الفارض في السنين الساتين يتحدث عن احسنه . فيرى ان
دموعه اعظم من طوفان نوح او هي مثله ، ويرى ان نيران هواء نقشه النار
التي لقي فيها ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .. وهذا كله من الصور
البصية الساسخرة التي لا يحول عليها الى نطق الحقائق ، ولا يلتفت اليها
خارج منطقة الادب والفن .

ننظر الى تعبير التوراة :

فخرج الشيطان من حضرة الرب .

نعلم كمسلمين ان الشيطان قد خرج من حضرة الرب منذ ان خلق الرب
آدم عليه الصلاة والسلام .. فمضى عاد الشيطان الى حضرة الرب .
نحن امام تعبير ادبي وليسنا امام حقيقة مادية .

.....

ماهي حقيقة مرض ايوب وما هي قصته ..

ان اشهر رواية عن قصة ايوب وصمره هي الرواية التالية ..

تحدث ملائكة الارض فيما بينهم عن العلق ومبادئهم .. قال قائل منهم :
- ما على الارض اليوم خير من ايوب .. هو اعظم المؤمنين ايماناً
واكثرهم عبادة لله ، وشكراً على نعمه ، ودعوة له .

وسمع الشيطان ما يقال .. فغصاه ذلك .. وطار الى ايوب محلولاً
اعواءه .. ولكن ايوب تبس .. قلبه هو الصماء لله والحب لله .. وليس
للشيطان عليه سبيل . حين يشي الشيطان من اقواء ايوب ، قال لله تعالى :

- يارب .. ان عبدك ايوب الذي يعبدك ويقدسك .. لا يعبدك حباً
وانما يعبدك لاغراض .

يعبدك ثمناً لما منحه من مال وبنين ، وما اعطيته اياه من ثروة وعقل ..
وهو يطمع ان تحفظ عليه ماله وثرأه وأولاده .. وكان النعم الحديد التي
منحتها له هي السر في عبادته .. انه يخاف ان يسبها الفناء او تروى
.. وعلى ذلك فصاحبه مشوية بالرغبة والرغبة .. يشبع فيها الحوف
والصعب .. وليست عبادة خالصة ولا حباً خالصاً .

ونقول الرواية ان الله تعالى قال لابليس : ان ايوب عبد مؤمن خالص
الايمن .. وليكون ايوب قبساً في الايمان ومثلاً عاليًا في الصبر ..
قد احببتك ماله وعقله .. افعل بها ما تريد .. ثم انظر الى ما تنتهي .

وهكذا انطلقت الشياطين فأتت على ارض ايوب وابلاكه وزروعته وبعبه
ومررتها جميعاً .. واتحدر ايوب من قمة الثراء الى حضيض الفقر فجأة
.. وانتظر الشيطان تصرف ايوب .. وقال ايوب :

عارية لله استردها .. ووديعة كانت عندنا فآخذها ، معنا بها
دهراً ، فالحمد لله على ما أنعم ، وسلبنا ايماناً اليوم ، فله الحمد معطياً
وسلباً ، راضياً وساخطاً ، نلناها وضلنا ، وهو مالك الملك يؤتي الملك

من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويمزج من يشاء ، ويذل من يشاء .

ثم خر أيوب ساجدا .. وترك إبليس وسط دهشته المخزية .
وعند الشيطان يقول لله تعالى :

— يا رب .. إذا كان أيوب لم يقبل النعمة إلا بالحمد ، والمصيبة إلا بالصبر ، فليس ذلك إلا اعتداداً بما لديه من أولاد .. أنه بطمع أن يشتد بهم ظهره ويستفرد بهم ثروته ..

تقول الرواية أن الله أباح للشيطان أولاد أيوب .. فزلزل عليهم البيت الذي يسكنون فيه فقتلهم جميعاً .. وهنأ قتل أيوب داعياً ربه :

— إله أعظم .. والله أخذ .. فله الحمد معطياً وسالماً ، سافطاً ورانها ، نافعاً وخسراً .

ثم خر الله ساجدا وترك إبليس وسط دهشته المخزية ..

وعند إبليس يذموا الله ، أن أيوب لم يزل صابراً لأنه معافي في بدنه .
ولو لك سلطتي يارب على بدنه .. ثمسوف بكف عن صبره ..

تقول الرواية أن الله تعالى أباح حسد أيوب للشيطان بقصر فيه كيف يشاء . فضرب الشيطان جسد أيوب من رأسه حتى قدميه ، فمرض أيوب مرضاً جليداً راح لحمه فيه يتسلط ويتفحج .. حتى هجره الأهل والصحاب ، ولم يعد معه إلا زوجته ..

وظل أيوب على صبره وشكره لله تعالى .. حمد الله على إيلام الصحة ، وحمده تعالى على بلاء المرض .. وشكره في الحاليتين ..

وازداد غيظ الشيطان فلم يعرف ماذا يفعل ، وهنا جمع إبليس مستشاريه من الشياطين وحدثهم بقصة أيوب وطلب رأيهم بعد أن أعلن بأسه من أقواله أو أفعاله من صبره وشكره .

وقال أحد الشياطين : لقد أخرجت آدم أباً البشر من الجنة . فمن أين نتيته .

قال إبليس : آه .. تقصد حواء ..

واستجبت في عقل إبليس [لو كان له عقل] فكرة جديدة .. ذهب إلى امرأة أيوب وملاً قلبها بقلأس حتى ذهبت إلى أيوب تقول له :

— حتى متى يعذبك الله . أين المال والميل والمسدق والرفيق ، أين شريك الذاهب وعزك القديم .

وأحلب أيوب أمراته : لقد سول لك الشيطان أمراً .. اتراك تبكي على عزك وولدك ..

قللت : لماذا لا تدعوا الله أن يزيح بلكاوي ويشفيك ويكشف حزرك .

قال أيوب : كم مكنتني إرضاءاً ؟

قالت : ثمانين سنة .

قال : كم لبثنا في البلاء !

قالت : سبع سنونات ..

قال : استحي أن اطلب من الله ربح بلائي ، وما قضيت فيه مدة رخائي .

لقد بدا إيمانك بضعف .. وضيق بقضاء الله قلبك .. لأن برئت وعادت إلى القوة لأمرئك مائة عسا .. وحرام بعد اليوم أن أكل من يدك طعاما لو شربا لو أكلتك أمرا .. فلهيبي عني ..

وذهبت زوجته وبقي أيوب وحيدا مساهرا .. يحتل ما لا تحتله الجبال .. أخيرا فرغ أيوب إلى الله داعيا متحسنا لا متبرما ولا متسخطا .. ودعا الله أن يشفيه فاستجاب له الله ..

.....

هذه أشهر رواية عن لفظة أيوب وصبره ، ونحن نحس أنها موضوعة .. لأنها تتفق مع نص التوراة حول مرض أيوب ..

أيضا نستبعد أن يكون مرضه منقرا أو مشبوها كما تقول أساطير القدماء .. نستبعد ذلك لثانيه مع منسوب النبوة .. كل ما نستطيع أن نقطع به هو ما حدثنا عنه القرآن . وهو وحده الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

قال تعالى في سورة [الأنبياء] :

« وَايُوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ : إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .
فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ فَعُدُّنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ، وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى الْعَابِدِينَ » [١] .

نعم مما سبق أن أيوب كان حسدا صالحا من عباد الله . أراد الله امتحانه في ماله وأهله وحسبه . ضاع ماله وأصبح فقيرا بعد أن كان أغنى الأعيان . ولقد أهله وبدأ يعرف معنى الوحدة . ومرض جسده مرضا عظيما كان يتألم له . ولكنه صبر على هذا كله وشكر .

وطال مرضه واستطال بلاؤه وعظم هجران الناس له ، حتى صار يقضي أيامه كلها وحيدا مع المرض والحزن والوحدة .

وانطبقت أضلاع المثلث الكتيب على حياته : المرض والحزن والوحدة . ورغم ذلك لم يفس الصبر .. كان صبره متجاوزا لملائه ومتوقفا عليه .

وجاءته يوما أحدي الأتكل الشيطانية .. راحت تحوم حول قلبه . قالت له الفكرة : يا أيوب : هذا الألم والعذاب الذي تحسسه بسبب منى . ولو أنك توقفت عن الصبر يوما واحد لذهب منك الألم وشفيت .

وتهاشمي الناس حول أيوب فقالوا : لو كان الله يحبه ما ابتلاه بسكل ما ابتلاه به .

(١) الآية ٨٣ و ٨٤ مكية .

وكلنا الفكرتين متاهكتان ، فإن الشيطان لا يستطيع أن يمس أحدا
إلا بإذن الله . كما أن الله تبارك وتعالى لا يجعل حبه للسلس مرادفا
للسلاقتهم ، إنما يمتحنهم كما يشاء ويبتليهم كما يحب .

.....

راحت فكرة الشيطان تدور حول قلب أيوب مظلما تدور ذبابة صيف
حول رأس انسان محقق . وازاح أيوب بيده الفكرة وهو يتنسم لنفسه
ويقول :

— أخرج أيها الشيطان ، لن اتولف من الصبر والشكر أو العبادة .
وخرجت الفكرة بالثمة من عقل أيوب . وجلس أيوب غاضبا لأن
الشيطان نجرا عليه وتصور أنه يمكن أن يفرجه أو يفرجه ، مستقلا وحدته
وأسماء ومرضه .

وحصرت روجة أيوب متأخرة فوجدت أيوب عاصبا . كانت تلف رأسها بعطاء
وكانت قد أحصرت إليه طعاما طيبا .. وسأله أيوب : من أين جاءك النقود . وأقسم
أيوب أن يصريها مائة ضربة بالعصا عندما يشي . كان صبره وسعا مثل بحر عظيم . ثم
اكتشف في الماء أن روجته قد قصت شعرها لتحصر إليه طعاما يأكله .

وخرج نبي الله تعالى إلى الجبال يدعو ربه .

قال تعالى في سورة [ص] :

« والذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه : انى مسنى الشيطان بنصب
وعذاب . أركض برجزك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له
أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك
ضغنا فاضرب به ولا تحنت ، أنا وجناتنا صابرا ، نعم العبد
أنه أواب » [١] .

.....

كيف نفهم قول أيوب :

« انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » [٢] .

يريد أيوب أن يشكو لربه جراحة الشيطان عليه وتصوره أنه يستطيع
أن يعويه . ولا يعتقد أيوب أن ما به من مرض قد جاء بسبب الشيطان .
هذا هو الفهم الذى يليق بعصبة الأنبياء وكما لهم .

أمره الله تعالى أن يستحم في عين من عيون المياه في الجبل .. لئلا
أن يشرب من ماء هذه العين .. وجرى أيوب فاعتسل وشرب .. ولم يكذب

(١) الآية من ٤١ إلى ٤٤ مكية .
(٢) من الآية ٤١ من سورة ص مكية .

يشرب آخر جرعة من الماء حتى أحس أنه شفى فجأة .. زایلته الحمى ،
وزعب عنه الألم ، وعادت حرارته الى درجة الحرارة العادية ..

وذهب الله لايوب أهله ومثلهم معهم رحمة من عنده سبحانه .. ولم يعد
ايوب وحيدا .

وهبه الله أضعاف ثروته كرما من عنده ، فلم يعد ايوب فقيرا . .

عاد اليه صحته بعد طول المرض .. وشكر ايوب الله ، وكان قد
أقسم أن يضرب امرأته مائة ضربة بالعصا عندما يشفى ، وها هو قد
شفى ، وكان الله سبحانه وتعالى يعلم أنه لا يتيسر ضرب امرأته .. ولكن
لا يهتف في نفسه أو يكذب فيه ، أمره الله أن يجمع هزيمة من أعواد
الريهان عندها مائة ، ويضرب بها امرأته ضربة واحدة ، وبذلك يكون قد
بر في نفسه ولم يكذب ..

وجزى الله ايوب على صبره أن مسح في القرآن الكريم وقال عنه :

« **أنا وجنناه صابرا ، نعم العبد انه لاراب** » [١] .

(١) من الآية (٢١) من سورة ص مكية ،

قصة يونس [عليه الصلاة والسلام]

هو النبي الكريم يونس بن متى .
تدل منه سيد الخلق وأمام البشر والرحمة المهداة للمسلمين .. محمد بن
عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ؛
« لا تتخلونى على يونس بن متى » .

.....

كانوا يسمونه يونس .. وذا النون .. ويونان .
وكل نبيا كريما أرسله الله الى قومه فراح يعظهم ، ويصيحهم ،
ويرشدهم الى الخير ، ويذكرهم بيوم القيامة ، ويخوفهم من النار ، ويحببهم
الى الجنة . ويأمرهم بالمعروف ، ويمنعهم من المنكر الى عبادة الله وحده .
وظل ذو النون يصيح قومه فلم يؤمن منهم احد ..
وحاء يوم على يونس فاحس باليأس من قومه .. وامتلا قلبه بالغضب
عليهم لانهم لا يؤمنون ، وخرج مقاصبا وقرر هجرهم .
حكى الله تعالى حكايته مبتدئا بقوله :

« وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه .. » [١] .

لا احد يعرف عنف المشاعر والاحاسيس التي راحت تعتيل في نفس
يونس غير الله وحده .. كان يونس غاضبا من قومه ، كان حلقا آسفا
وهزينا مخرج ..

ذهب الى شاطئ البحر وقرر ان يركب سفينة تنقله الى مكان آخر ..
لم يكن الامر الالهى قد صدر له بان يترك قومه او ييأس منهم ، وظن
يونس ان الله لن يقدر عليه عقوبة لانه ترك قومه ، غلب عن يونس عليه
السلام ان النبي مأمور بالدعوة الى الله فقط ، ولا عليه ان تنجح الدعوة او
لا تنجح .. المفروض ان يدعو الله ويترك مسألة النجاح او عذبه لحالتي
الدعوة .

كانت السفينة ترسو في الميناء الصغير ، والشمس تنحدر نحو المغرب ،
والأمواج تصرب الشاطئ وتتكسر على الصخور ، ولاحظ يونس ان سكة

(١) من الآية ٨٧ من سورة الانبياء مكة ..

طفلة تتلوم الموج ولا تعرف كيف تتصرف ، وأقبلت موجة كبيرة لطمعت
السكة وحطمتها على الصخور ، وأحس يونس في قلبه ملاحرن والأسف
على السكة الصغيرة . قال لنفسه لو كانت معي سكة كبيرة لربما
نجت .

وتفكر حاله وكيف يترك قومه . وزاد اهتمامه بالغضب والحزن .
ركب يونس السفينة .

كان مضطربا لا يعرف أنه يفر من قدر الله الى قدر الله .

لم يكن معه طعام ولا كيس لمتعة ولا اصنفاء يصحبونه الى الرصيف
مودعين .

كان وحده تلبا .

خطا بقلبه على سطح السفينة ، نصر العشب هريرا مزعجا زاد في
انقباضة قلبه .

سأل القبطان وهو يجلس الى طاولة عمله ؟

— ماذا تريد ؟

وقع السؤال على يونس وقوع الصاعقة .

— أود أن أسافر على سفينتكم . . هل بقي على ابحاركم وقت طويل ؟

كأن صوت يونس مضطربا يشي بالغضب والخوف والرهبة والقلق .

قال القبطان وهو يرفع رأسه : نبحر مع ارتفاع المد التالي .

لم يزل القبطان يحدق في وجه يونس .

قال يونس بنفاد صبر وقلق : ألا تبادرون بالبحار قبل ذلك يا سيدي .

قال القبطان : انحاربا مع المد منيرة يرضى بها كل مسافر شريف .

واها لك يا يونس . . ها هي طعنة اخرى . .

أسرع يونس يحول مكر القبطان عن ريبته بل تسأل :

— مسافركمكم . كم تبلغ اجرة السفر ؟ فأدفع على التو .

قال القبطان ، لا نقبل غير الذهب .

قال يونس : لا بأس .

نظر القبطان الى يونس . كان قبطان السفينة حسيبا لمعا يستطيع
أن يستشف بنافذ بصره خوف الناس لو قتلهم ، ولكن تردده على الموانئ
وزيارته للمعالم ورؤيته للمعالم والناس قد جعلته رجلا يستطيع أن
يحين مشاعر الناس . . وأدرك القبطان أن يونس يفر من شيء ما . .
وتصور القبطان أن يونس قد ارتكب جريمة ما . . ولم يكن جشع القبطان
يسمح له بأن يلصق أي جريمة لدى مرتكبها ، إلا إذا كان مقترفاها ملصقا .

ان الخطيئة التي تتبكن من دمع الأجرة في عالم القبطان .. تستطيع
ان تستلخر حرة طليقة تون حوار سفير . فاداً كانت الفضيلة مسكينا مدقما
أوتفوه عند كل الحدود . لذلك أراد القبطان ان يختبر يونس قبل ان يسمح
له بركوب السفينة .

سأله ثلاثة أضعاف الأجرة التي يدفعها غيره من المسافرين . وكان
يونس في حالة من خيق الصدر والغضب العنيف والرغبة في الخروج من
هذا البلد لدفع ما طلبه منه القبطان . وأبى القبطان القطع الذهبي
وراح بعضها بأسنانه ويحاول أن يجد فيها قطعة مزيعة .. فلم يجد .
ووقف يونس يلقى هذه الطعنات كلها وصدره يطو ويهبط مثل الرجل ..
وأخيرا مسح له القبطان بالسكر .

قال يونس : حدد لي غرفتي ياسيدي ، لنفسي متعب أريد أن أرتاح
قليلا .

قال القبطان : ذلك يبدو من ملامحك .. هك غرفتك .
اشترى القبطان بوبه .

المر يونس نفسه على الفراش بملابسه كما هو .. وحاول النوم
حيثا . كانت صورة السكة الصغيرة وهي تنبثق على الصغير لا تريد أن
تغادر مخيلته . وأحس يونس أن سقف الغرفة جاثم على جبهته . أخذ
يئنهد ضيق الصدر في هواء محصور راكد . وكان في غرفة يونس قنديل
معلق يتلرجح تارجها وأنها وقد شدد عند وسطه إلى الجدار بلولب .
وعندما تربعت السفينة بسبب ثقل الرزم الأخيرة التي أقيت فيها بقي
القنديل واللمب وكل ما يتصل بهما في وضع انحراف مستمر بالنسبة
للغرفة .. ومع أنه كان في الحقيقة مستقيما مستقيمة لا تخطئها العين ،
فانه بدا للعين منحرفا في المستويات الحادة التي كان محلها بينها . وراح
يونس وهو راكد على فراشه يدور بعينيه في سقف الغرفة ، لم تجد
نظراته الثقلة أي ملاذ لها .. أن أرض الغرفة وسقفها وجوانبها تسحو
جميعا بقلته . والقنديل معلق ومقل فيها .. وبين يونس قنذلا :

— كذلك هو ضمهري معلق داخل نفسي على استقامة ، وهو يتوهج
مخبطا إلا أن الغرفة التي تحتها روعي مثقلة .

ويعد صراع اليم نشب في نفس يونس وهو ملقى على فراشه ، أثقله
عبء تعاضته الباطنة ، وهوى به فريقا متحبطا في نوم تلقى لا يكاد يستسلم
فيه للنماس حتى يفوق قزعا بلا سبب مفهوم ..

.....

وهان وقت المد .. وألقت السفينة حبالها ، وانسابت على وجه الماء
مبتعدة عن الرصيف .

مضت السفينة طوال النهار وهي تشق مياهها هادئة وتهب
عليها ربح طليقة .

وهاء الليل على السفينة ..

وانقلب البحر فجأة ..

هبت عاصفة مخيفة كادت تشق السفينة .. وبعثت الأمواج كمن فقدت عقلها فراحات ترتفع كالجمال وتهبط كالوديان وتلعب بالخشاب المركب . راحت الأمواج تكسح سطح المركب وتمسدم الراكبين فوقه وتغرق ملابسهم بالمياه .

ووراء السفينة كان حوت عظيم يشق المياه وهو يفتح فمه ..

صدرت الأوامر الى أحد الحيطان المطيعة في قاع البحر أن يتحرك الى السطح . وأطاع الحوت الأمر المسافر اليه من الله وأسرع الى سطح البحر .. مضى بمنقب السفينة كما تقضى الأوامر .

واستمرت العاصفة ، وأهلب رئيس النوتية بالأيدي لن تحفف لصل السفينة ، وطرحت الصدايق والرزم والجرار لضباع صوت جليتها وهي تلقى في الماء . وزاد صراخ الرياح وهب يونس فزعا من نومه فرأى كل شيء يهتر في العرفة . مبنا حلول أن يقف مستدلا فلم يستطع . صعد الى السطح لم يكذب براه القبطان حتى تذكر شكوكه وصرخ .

— لقد ثارت العاصفة في غير وقتها المعبود .. معنا على سطح السفينة رجل خطيء ثارت بسببه العاصفة .. مسجى القرعة على الركاب .. من خرج اسمه القيناء في البحر ..

كان يونس يعرف أن هذا تقليد من تقاليد السفن عندما تواجه العواصف ، وهو تقليد وثني غريب ، ولكنه كان مقبلا ليأمله ، وبدا يلاء يونس ومحنته . لها هو النبي الكريم يتعرض للخضوع للقوانين الوثنية التي كانت تعتبر أن للبحر آلهة تتور وللريح آلهة تقور ولابد من إرضاء هؤلاء هؤلاء .

وسامهم يونس كارها فوضّح اسمه مع أسماء الركاب .. وأجريت القرعة فخرج اسمه .

وأعيدت القرعة مرة ثانية كما هي العادة فخرج اسم يونس ..

لم يعد هنالك غير إجراء القرعة مرة ثالثة ثم يستقر الرأي على من يلتقونه في البحر . وأحاطت الأنظار بيونس .. أثلثت حوله نظرات الشك مثل ثوب من النار ..

وأجريت القرعة للمرة الثالثة ..

ونق قلب يونس وقبطان السفينة يقرأ اسمه للمرة الثالثة ..

انتهى الأمر وتقرر أن يرمى يونس نفسه في البحر .. أدرك يونس وهو يحتل خشب السفينة أنه قد أخطأ حين ترك قومه فاضلها وطن أن الله لن يوقع عليه عقوبة ..

أخطأ يونس لأنه ترك قومه بخير إذن الله .. وما هو الله سبحانه وتعالى يعاقبه .. ولم يونس على حاجز السفينة ينظر الى البحر الهائج والأمواج السوداء .. كتبت الدنيا ليلا ، وليس هناك قبر ، والنجوم تختفي وراء ضباب أسود .. ولون المياه أسود ، والبرد ينفذ الى العظام .. والمياه تغطي كل شيء ..

ومصرخ مسوت القبطان :

— اقتل أيها المسافر المجهول ..

واشتد عواء الحاصلة الفلجية .. وجاهد يونس ليحفظ بتوازنه ويسقط
في البحر محتدل القلعة محتفظا بشجاعته .

وخيل إلى بحارة السفينة أنه يتباطأ في القلاء نفسه .. فرمقوا إلى
آلهة البحر يدا داعية ، وأمسكوا يونس بالأخرى وطروه في البحر وهم
مشغولون .

هوى يونس كأنه المرساة المطروحة .

وجد الحوت أمليه يونس وهو يطفو على الموج .. أبسسم الحوت .
ها قد أرسل الله إليه طعام الغشاء ..

تلقت الحوت يونس من خوف الهياج الجامح . وأغلق أنفابه الحاجبة
عليه كأنها مز البج بضاء يمتلئ بها باب سجنه .

وعاد الحوت إلى أعماق البحر .

فأدراخيا قد ملأ معدته .

وفوجيء يونس بمنسه في بطن الحوت ، والحوت يجري به في جوف
البحر ، والسر يجري به في جوف الليل .. ظلمات ثلاث .. بعضها فوق
بعض .

ظلمة جوف الحوت ..

وظلمة قاع البحر ..

وظلمة الليل ..

تصور يونس أنه مات .. هرك هوايه فوجد نفسه يتحرك .. هو
هي أدن .. لكنه سجين وسط ظلمات ثلاث ..

وبدا يونس يئس .. ويسبح الله ..

بدا رحلة العودة إلى الله وهو سجين وسط الظلمات الثلاث .

تحرك قلبه بالتسبيح لله وتحرك بعدها لسانه بقوله :

« لا إله إلا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين .. »

« لا إله إلا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين .. »

« لا إله إلا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين .. » [١] .

كل يونس منكفئا على وجهه في بطن الحوت . ورغم ذلك فقد راح
يسبح الله .. وكان الحوت قد تعب من السباحة فرقد على بطنه في قاع
البحر واستسلم للنوم .. واستمر يونس في تسبيحه لله .. لا يتوقف ولا

(١) من الآية ٨٧ سورة الأنباء مكة .

يهذا ولا ينقطع سكانه . لم يسكن يأكل لو يشرب لو يتحرك . كان صائبا طعابه هو التسبيح .

وسميت الأسماك والعينان والنباتات وكل المخلوقات التي تعيش في أعماق البحر صوت تسبيح يونس . . كان التسبيح يصدر من جوف هذا الحوت دون غيره . . واحتبعت كل هذه المخلوقات حول الحوت وراحت تقوم بتسبيح الله هي الأخرى . كل واحد بطريقته الخاصة ولغته الخاصة .

واستيقظ الحوت الذي ابتلع يونس على أصوات التسبيح هو الآخر . . فشاهد في قاع البحر مهرجانا عظيما من الحينان والأسماك والحيوانات البحرية والطحالب والصخور والرمال وهي تسبح الله . . واشترك الحوت في التسبيح وأدرك أنه ابتلع نبيا . . أحس الحوت بالخوف ولكنه قال لنفسه :

— لماذا أخاف . . الله هو الذي أمرني بأنلأعه . .

ومكث يونس في بطن الحوت زمنا لا نعرف بمقداره . .

ظل طول الوقت يقوم بتسبيح الله ويقول بقلبه ولسانه ودموعه :

« لا إله إلا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين » [١]

ورأى الله سبحانه وتعالى صدق يونس في توحيته . . سجع الله تعالى تسبيحه في جوف الحوت . . وصدرت الأوامر للحوت أن يخرج إلى سطح البحر ويقلب يونس من جوفه عند جزيرة حددتها الأوامر . .

ولطاع الحوت . .

كان الحوت قد أرسى جسده على الصي عظام المحيط .

ثم سجع الله عز وجل من الظلمات نداء النبي السجين ألقاب . . وأمر الله تعالى الحوت بمعاء من عظم البرد الزمهرير وظلمة البحر يقرب صعدا نحو النداء والشمس المنعشة ومتع الأرض .

وقذف يونس إلى البر فوق جزيرة عارية .

أن جسده ملتهب بسبب الأحياض في معدة الحوت . وكان هو مريضا ، واشترقت الشمس فلبست ثلثتها جسده الملهب فكاد يصرخ من الألم لولا أنه هناك وعاد التسبيح .

وقالت الله تعالى عليه شجرة من يقطين . . وهو سات أوراقه مريضة تقى من الشمس . . ثم شفاه الله تعالى وعفا عنه . وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون . وأتممه الله تعالى أنه لولا التسبيح لظل في جوف الحوت إلى يوم القيامة .

قال تعالى في سورة الصافات :

« وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشهون . فاستنصر

فكان من المحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان

[١] من الآية ٨٧ سورة الأنبياء مكة .

من المسبحين . فلبث في بطنه الى يوم يبعثون . فنبذناه بالعماء
وهو يسقيم . واتينا عليه شجرة من يقطين . وارسلناه الى مائة
الف او يزيدون . فأمتوا فسمعناهم الى حين (١) .

وقل تعالى في سورة الانبياء :

« ولذا التون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه ، فنادى في
الظلمات ان لا اله الا انت سبحتك اني كنت من الظالمين .
فاستجنا له ونجينا من الغم وكذلك تنجي المؤمنين » (٢) .

نريد الآن ان ننظر فيما يسميه العلماء ذنب يونس .

هل ارتكب يونس ذنبا بالمعنى الحقيقي للذنب ..
وهو يذنب الانبياء ؟

الجواب ان الانبياء معصومون .. غير ان هذه العصمة لا تعني انهم
لا يرتكبون اشياء هي عند الله امور تستوجب العقاب

المسألة نسبية افن ..

يقول العارمون بالله ان حسان الأبرار سيئات للقرين .. وهذا صحيح

فلسنظر في فرار يونس من قريته الجاحدة المعقدة .

لو صدر هذا التصرف من أي انتمسك مصالح غير يونس .. لكل
ذلك منه حسنة يثاب عليها . فهو قد غر بدينه من قوم مجرمين ..

ولكن يونس نبي أرسله الله اليهم . والمفروض أن يبلغ عن الله ولا يعا
منهية التبليغ لو ينتظر نتائج الدعوة .. ليس عليه الا البلاغ ..

خروجه من القرية اذن .. هي ميزان الانبياء .. امر يستوجب
تعليم الله تعالى له وعقابه .

ان الله يلقين يونس درساً في الدعوة اليه .

لبدعو النبي الى الله فقط .

اي أرسله لبدعوا فحسب . هذه حدود مهته وليس عليه أن يتجاوزها بعصره أو
قبه ثم يحزن لأن قومه لا يؤمنون . ان لوطا مكث في قومه يدعوهم سوات عديدة فلم
يؤمن فيهم أحد . ورغم ذلك لم يخرج لوط فرارا بأهله ونفسه ودينه من قريته . ظل
يدعوهم حتى جاءه أمر الله وأرسل إليه ملائكته بأذن الخروج .

ساعنها خرج لوط ..

لو خرج قبلها لموقب مثل يونس .

(١) الآيات ١٢٩ الى ١٤٨ من سورة الشعراء بحكة .

(٢) الآية ٨٧ الى ٨٨ بحكة .

ولقد خُرج يونس بغير إذن فنظر ماذا وقع لقومه . لقد آمنوا به
بعد خروجه ..

قال تعالى في سورة يونس :

« فلولاً كانت قرية آمنت فنقمها لئلا يؤمنوا ، الا قوم يونس ، الا آمنوا

كشفتنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين » [١]

.....
.....

وهكذا آمنت قرية يونس ..

ولو انه مكث فيهم لأدرك ذلك وعرفه وأطمان قلبه وذهب غمّه .
غير أنه كلى متصرها .. وليس تصرمه هذا سوى فيض في رغبته أن
يؤمن الناس ، وإنما اندفع الى الخروج كراهية لهم لمحمد ايستقيم ..
فحلقه الله وعليه أن على النبي أن يدعو للإسلام بحسب ..

ليس عليه أن يؤمن الناس .

ليس عليه هدايتهم .

قصة موسى وهارون [عليهما الصلاة والسلام]

مكث يعقوب أو إسرائيل في مصر مذ جاءها ليلتقي بابنه يوسف .. حتى اذا حضرته الوفاة دفنوه حيث ولد في فلسطين .. وفصل أبناء إسرائيل أن يعيشوا في مصر في ظل يوسف .. ثم دهم إلى العيشاء في مصر خيرها الكثير واستواء أرضها واعتدال المناخ .

عاش أبناء إسرائيل في مصر زمنا . تزوجوا وتكاثروا وزاد عددهم . ومرت سنوات .. ومات يوسف ..

كفى يوسف قد حول مصر إلى دين الإسلام أثناء حكمه . كفى يوسف على الإسلام . وكل أنبياء الله تعالى على الإسلام ، امتداء من آدم إلى محمد . ويصرف الإسلام هنا إلى معنى توحيد الله تعالى بالمعبودة والتصد والسؤال . وإسلام الوحه والعمل والنية لله . هذا ما نقصده من كلمة الإسلام اذا أطلقت ، ولا نقصد النظام الاجتماعى الذى جاء به خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم . فقد كان هذا النظام يتقدما عن الأنظمة الاجتماعية التى جاء بها الأنبياء ، وإن بقى جوهر العقيدة واحدا لا يختلف من آدم إلى محمد .

وحين صار يوسف عزيزا لمصر وكبيرا للوزراء فيها تحولت ديانة مصر إلى التوحيد والإسلام ، لقد كان يدعو للإسلام في مسجده بقوله :

« الربوب مفترقون غير أن الله الواحد القهار » [١] .

ودعا يوم تحقيق رؤياه بقوله :

« توفنى مسلما والحقنى بالمسلمين » [٢] .

وحين مات يوسف هجرت مصر نظام التوحيد إلى تعبد الآلهة مرة أخرى . وأغلب الظن أن هذا تم بكيد الطبقة الحاكمة وتبجيرها ، فقد كتبت هذه الطبقة في ظل نظام التوحيد لا تكاد تتميز بشيء عن الجواهر العريضة .. وكان من مصلحتها إذن أن يعود نظام الأرباب المتفرقين .. ويعود نظام الفرعون الآلهة .. وهكذا توالى على مصر أسر من الفراعنة الذين زعموا أنهم آلهة أو يمثلون الآلهة أو ينطقون باسمها .

والأصل في الشعب المصرى أنه شعب متحضر ، يعنيه بناء الحضارة ، ويملك وجدانا دينيا عميقا ، وربما آمنت طبقات عديدة من الشعب المصرى

(١) من الآية ٢٩ من سورة يوسف مكة .

(٢) الآية ١٠١ سورة يوسف مكة .

إن الفرعون ليس لها ، غير أن إيمان المصريين الكامن في أعماقهم لم يكن يرضى الحاكم ، طالما أنه لا يتحول إلى الظهور أو الثورة ويسفر من وجهه .
كلن الفرعون لا يريد من تومه غير الطاعة . ليؤمنوا في قرارة أنفسهم
بما يحبون من آلهة . الآلهة الوثنية المتحدة في مصر كثيرة . أهم شيء
أن يكون ملهوما أن الفرعون يهيم على جميع أنواع الآلهة ويرمز لها ويتكلم
باسمها . وكان هذا ملهوما في مصر ..

وعلى حين تعددت آلهة الشعب المصري . مع إيمانه بالله مركزي هو
الفرعون .. كانت الطبقة الحاكمة تقتصر على عبادة الفرعون وانتفاذ
أوامره وتصديق استبداده .. وبطاوغة أعظم نزواته جنونا ..

ولسوف نحس ونحن نتصفح مما أوراق موسى عليه الصلاة والسلام ،
كيف كل الشعب المصري يعيش في عصره . كانت الجسائر مستبلة
مستعبدة تطيع الفرعون ، وتضي خاتمة تحت ظل وزرائه وقادة جسده ،
وتسمع إلى أذنيه الألوهية دون أن تحرك ساكنا .

حكى الله تعالى في قرآنه الكريم عن فرعون موسى قال في سورة
النازعات :

« فحشر قنادي . فقال : أنا ربكم الأعلى » (١)

وحس الناس رؤوسهم للكلية الكافرة واطاعوا — ربما على كره —
مقالة الفرعون .

ودفع الشعب ثمن خنوعه لفرعون .. وقد كلن ثبنا باعظا لو قميس
بالثورة عليه .

عادت مصر إلى نظام تهدد الآلهة بعد فترة التوحيد المضيق القصيرة
التي قضياها فيها يوسف .

أما أبناء يعقوب ، أو أبناء إسرائيل ، فقد انصرفوا عن التوحيد وقلدوا
المصريين .. لولا بعض أسر ظلت على التوحيد وإن أخفت ذلك ..

وقد حياء وقت على أبناء إسرائيل تزايدوا فيه وتكاثروا واشتغلوا
في عديد من الحرف وملاوا أسواق مصر .

.....

مرت أيام ..

وحكم مصر ملك جبار كلن المصريون يعبودونه .

ورأى هذا الملك بنى إسرائيل يتكاثرون ويزيدون ويملكون ..
سمعهم يتحدثون عن نبوءة غامضة تقول أن واحدا من أبناء إسرائيل
سيسقط فرعون مصر من عرشه ، وربما كانت النبوءة حليبا من
أحلام اليقظة التي تحبش بها قلوب الأقلية المضطهدة ، وربما كانت بشارة
في صغفهم . مهما يكن من أمر ، فقد ملعت هذه النبوءة أسماع الفرعون ،
وأصدر الفرعون أمره العجيب ألا يلد أحد من بنى إسرائيل

كلن معنى هذا الأمر ببساطة أن يقتل كل من يولد من الأولاد الذكور .
 وبدا تطبيق النظام ، ثم قال خبراء الاقتصاد لفرعون أن الكبار من
 بنى إسرائيل يموتون بآجالهم ، والصغار يذهبون ، وهذا سينتهى إلى
 اغناء بنى إسرائيل عن طريق بيع الفرعون ثروة بشرية تعمل له ويستثمرها
 ويستحيي نفسها . . . والافضل أن تنظم العملية بالشكل التالى . .
 يذهبون الذكور فى علم ويتركونهم فى العلم الذى يليه .
 ووجد الفرعون أن هذا الحل أسلم من الناحية الاقتصادية .
 وحملت أم موسى بهسارون فى العلم الذى لا يقتل فيه العلمان ، فولدته
 مملوكة آمنه .

فلما جاء العلم الذى يقتل فيه العلمان ولد موسى .
 حصل ميلاده خوفا عظيما لأمه . . حلفت عليه من القتل . . راحت
 ترضعه فى السر . ثم جاءت عليها ليلة مباركة لوصى الله اليها فيها . .
 « واولهنا الى أم موسى ، أن أرضعيه ، فإنا طعنت عليه فالتقى فى اليوم ،
 ولا تخافى ولا تعزنى ، أنا رافوه اليك وجاعلوه من المرسلين » [١] .
 سورة القصص

لم يكذب وحى الله ينتهى حتى اطاعت أم موسى هذا النداء الرحيم
 المقدس . . أبرت مصنع صندوق صغير لموسى . . أرضعته ووضعت فى
 الصندوق . . وذهبت الى شاطئ النيل وألقته فى المياه . .
 كان قلب الأم ، وهو أرحم القلوب فى الدنيا ، يملأه بالآلم وهى ترى
 ابنها فى النيل ، لكنها كانت تعلم أن الله أرحم بموسى منها ، أن الله يحبه
 أكثر منها ، والله هو ربه ورب النيل . .

لم يكذب الصندوق ولمس مياه النيل حتى أصدر الخلاق أمره الى
 الأمواج أن تكون هائلة حامية وهى تعمل هذا الرضيع الذى سيكون نبيا
 نبيا بعد ، ومثلما أصدر الله تعالى أمره للنار أن تكون بردا وسلاما على
 إبراهيم ، كذلك أصدر أمره للنيل أن يحمل موسى بهدوء ورفق حتى
 يسلطه الى قصر فرعون . . وحملت مياه النيل هذا الصندوق العزيز الى
 قصر فرعون . . وهناك أسلمه الموج للشاطئ وأوصى عليه الشاطئ . .
 وقالت الرياح للعشب الذى يرقد بجوار الصندوق : لا تتحرك كثيرا فان
 موسى نائم . . وأطاع العشب أمر الرياح وظل موسى نائما . .

أشرقت الشمس فى ذلك الصباح على قصر فرعون .
 وخرجت زوجة فرعون تتبشى فى حديقة القصر كما فعلت كل يوم . .
 لا تعرف ما الذى جعلها تبشى بمسألة لطول ممسا تشبه عادة كل يوم فى
 الحديقة . .

كانت زوجة فرعون تفتلك كثيرا من فرعون . . كان هو كلفرا وكانت
 هى مؤمنة . . كان هو قلسيا وكانت هى رحمة . . كان جبارا

وكانت رفيعة وطيبة .. وابغسا كانت حزينة .. لم تكن تلد .. وكانت
تتمنى أن يكون عندها ولد .

توفيت زوجة الفرعون عند حديقته من أشجار اللؤلؤ .. هبكت الرائحة
المعطرة إليها أحسبنا محزننا بالوحدة .

في نفس هذا الوقت .. كان جواربها يملآن الجرار من النهر ..

كان الصندوق يرتد عند اتساعهم .. حملن الصندوق كما هو إلى
زوجة فرعون .. أمرتهم أن يفتحوه ففتحوه .. رأت موسى داخله فاحسنت
أنها تحبه كابنها ، ألقي الله في قلبها محبته فظهرت دموعها وحملتته من
الصندوق ، راحت تقبله وهي تبكي . استعظم موسى وبدأ يبكي هو الآخر
.. كل جلقا يحتاج إلى راحة الصباح ليكي ..

جلس فرعون على مائدة الانطاس ينظر زوجته فلم تحضر .. خرج
غاضبا يبحث عنها .. لوجيء بها تحيل موسى وهي تغرقه بالقبلات
والدموع ..

سأل فرعون من أين جاء هذا الرضيع ، فصدلوه لثهم وجدده في
صندوق بحوار الشاطئ .. قال فرعون بنفاء :

آه .. هذا أحد أطفال بني إسرائيل .. ليس المفروض أن يقتل
أطفال هذه الأمة !

صرخت زوجته وهي تضم موسى إلى صدرها أكثر :

« وقالت امرأة فرعون : قسرة عين لي ولك ، لا تظفوه عسى أن
ينمنا أو نتخذ ولدا » (١) .

دهش فرعون كثيرا وهو يرى زوجته تضم لمصدرها هذا الرضيع
الذي وجدده على الشاطئ . دهش أكثر لأن زوجته كانت تبكي من
الفرح وهو لم يرها تبكي قبل ذلك من الفرح ، وأحس فرعون أن زوجته
تحميك بهذا الطفل كما لو كان ابنها ، قال في نفسه لعلها تفكرت
أنها لا تتجيب لطفلا وتريد هذا الطفل ..

أخيرا وافق فرعون على ما تقوله زوجته .. استعجاب لرغبته وسمح
لها أن تربي هذا الطفل في قصره .

.....

لم يكد فرعون يستجيب لزوجته حتى شاهد وجهها يضيء من الفرح .
لم ير فرعون زوجته فرحة قبل ذلك أبدا .. كان يحضر لها الهدايا
والجواهر والعبيد فلا يشم ابتساما واحدة ، وظن فرعون أنها لا تعرف
معنى الابتسام ، وما هو ذا يراها الآن وكل وجهها ابتسامة مشينة
واحدة ..

(١) من الآية ٩ سورة القصص مكة .

بكى موسى من الجوع فالتفت زوجته فرعون الى انه جائع ..
فالت فرعون :

— ابنى الصغير جئ ..

قال فرعون : احضروا له المراضع ..

حضرت مريضة من القصر واخذت موسى لترضعه فرفض ان
يرضع منها ..

— احضروا مرضعة ثنية 1

حضرت مرضعة ثنية وثلاثة وعشرة وموسى يبكي ولا يريد ان يرضع
.. وبدأت زوجة فرعون تبكي هي الاخرى بسبب بكائه ، ولم تكن تعرف
ماذا تفعل .

لم تكن زوجة فرعون هي وحدها الحزينة الباكية .. كانت ام موسى
هي الاخرى حزينة باكية .. لم تكن ترمى موسى في النيل حتى احسنت
انها ترمى قلبها في النيل . غاب الصندوق في مياه النهر واختفت اثاره
.. وجاء الصباح على ام موسى فاذا قلبها فارغ يدوب حزنا على ابها ،
وكادت تذهب الى قصر فرعون لتبذلهم نيا ابنا وليكن ما يكون .. فولا
ان الله تعالى ربط على قلبها وملا بالسلام نفسها مهدات واستكانت
وتركت امر ابناها .. كل ما في الامر انها قالت لاخته : اذهبي مهدوه الى
حوار قصر فرعون وحسولي ان تمرى ماذا حدث لموسى .. واياك ان
يشمروا بك ..

وذمبت اخت موسى بهدوء ورفق فاذا بها تسمع القصة الكاملة ..
رأت موسى من بعيد وسمعت بكاءه ، ورائهم حائرين لا يعرفون
كيف يرضعونه ، سمعت انه يرفض كل المراضع .. وقالت اخت موسى
لحرس فرعون :

هل ادلكم على اهل بيت يرضعونه ويكفلونه ويهتمون بأمره ويحفظونه ؟
ثالث زوجة فرعون :

— لو احضرت لنا مرضعة يقبل الرضاعة منها فسوف ابعثك
جائزة عظيمة ، اى شيء تطلبينه ستحصلين عليه ..

وعادت اخت موسى واحضرت امه .. وارضعت له فرفض .. ونهالت
زوجة فرعون وقالت « خذيه حتى تنتهي فترة رضاعته واعيديه اليها
بعدها ، وسنعطيك اجرا عظيما على تربيتك له » .

وهكذا رد الله تعالى موسى لامه كي تفر عينها ويهدأ قلبها ولا يحزن
ولتعلم ان وعد الله حق وان كلمته سبحانه تنفذ رغم اى شيء ..
ودغم كل شيء !

.....
.....

قال تعالى في سورة القصص :

« وأصبح فراد أم موسى فارغا إن كانت اتبدي به ، لولا إن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به من جنب وهم لا يتكلمون . وهرمنا عليه الرافض من قبل ، فقالت : هل أنلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ . فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون [١] » .

.....

اتيت أم موسى رضاعته وأسلمته لبیت فرعون .. كان موضع حب الجميع .. قال تعالى في سورة طه :

« وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني [٢] » .

كان لا يراه أحد إلا أخيه .. وها هو في أعظم قصور الأرض يتربى بحفظ الله وعنايته ..

بدأت تربية موسى في بيت فرعون .. وكان هذا البيت يضم أعظم المربين والمدرسين في ذلك الوقت .. كتبت مصر أيامها أعظم دولة في الأرض ، وكان فرعون أقوى ملك في الأرض ، ومن الطبيعي أن يضم قصره أعظم المدرسين والمتفكرين والمربين في الأرض .. وهكذا شاعت حكمة الله تعالى أن يتربى موسى أعظم تربية وأن يتعمده أعظم المدرسين ، وأن يتم هذا كله في بيت عدوه الذي سيصلبهم به قيدا بعد تنفيذ المشيئة الخالق ..

وكبر موسى في بيت فرعون .. تعلم الحساب والهندسة والفلك والكيمياء والطب والصفات .. كان ينلم في حصة الدين ، لهذا لم يكن يسمع الكلام الفارغ الذي يقوله المدرس من تلوينة فرعون ، وفي المرات القليلة التي سمع فيها أن فرعون اله ، كان يسخر في نفسه من هذا الكلام ، فهو يعيش مع فرعون في بيت واحد ويعرف أكثر من غيره أن فرعون مجرد إنسان ولكنه ظالم .

كان موسى يعلم أنه ليس ابناً لفرعون ، إنما هو واحد من بني إسرائيل .. وكان يرى كيف يضطهد رجال فرعون واتباعه بني إسرائيل .. وكبر موسى وبلغ أشده ..

دخل المدينة على حين غفلة من أهلها .

وراح يتشكى فيها .

.....

وهذا موسى رجلاً من كتياب فرعون وهو يقتتل مع رجل من بني

(١) الآية من ١٠ إلى ١٢ سورة القصص مكة .

(٢) من الآية ٣٦ مكة .

اسرائيل ، واستمات به الرجل الضعيف فتدخل موسى وأزاح بيده الرجل الظالم فقتله . كان موسى نوباً الى الحسد الذي يكنى فيه أن يضرب بيده ضربة واحدة ليزيح خصمه فإذا هو يقتله . . ولم يكن موسى يقصد قتل الرجل الآخر ، وغويء به وقد ملت . .

قال موسى لنفسه :

هذا من عمل الشيطان أنه عدو مظل مبین . .
ودعا موسى ربه . . قال :

رب انى ظلمت نفسى فافقر لى .

وغفر الله تعالى له ، أنه هو الغفور الرحيم . .
.....
.....

قال تعالى فى سورة القصص :

« ولا بلغ أشده واستوى آتيناه هكبا وعلما ، وكذلك نهضى المصنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، موجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستفاته الذى من شيعته على الذى من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، قال : هذا من عمل الشيطان أنه عدو مظل مبین . قال : رب : انى ظلمت نفسى فافقرلى ، فغفر له ، أنه هو الغفور الرحيم . قال : رب بما اتعبت على فلان أكون ظهيرا للمجرمين » . [١]

أصبح موسى فى المدينة خائفا يترقب . .

تعبير مصور لهينة معروفة . . هيئة انسان مزع يتوقع الشر فى كل خلوة ، ويلتفت لأوهى الحركات وأخفاها . .

ويبدو أن موسى كان نموذجا لمزاج مصبى مندفع .

أن موسى يندفع لنجدة الاسرائيلى .

بيده تدفع بوكزة هدفها إبعاد المصرى وتحتيته . . لماذا هو يقتل .

يعتبر هذا القتل فى القوانين الوضعية قتلًا خاطئا . لا بالمسدة من قبله ولا تنعقد عليه نيته ، وبالتالى لا يكون الجزاء فيه عسيرا . . أنها ينظر القضاء بالتخفيف الى الواقعة باعتبارها قتلًا خطأ .

لا يمكن اعتبار الواقعة بالتكليف القانونى ضربا لفضى الى موت . . لأن الضرب لم يكن مقصودا هو الآخر . لم يكن موسى يضرب الرجل . كل ما فعله أنه وكزه [بمعنى دفعه بيده أو أزاحه بيده] .

ولسوف نلاحظ أن موسى يكاد يكون هو الوجه الآخر لابراهيم .

كلاهما من أولى العزم الكبار . فبر أن ابراهيم نموذج للطم والرقعة ، وموسى نموذج للدفاع والقوة .

[١] الآيات من ١٤ الى ١٧ سورة القصص مكة .

هو تكوين نفسى خلقه الله تعالى عليه ..

أصبح موسى فى المدينة خائفا يترقب .. وعد بالأمس انه لن يكون ظهيرا للجرمين .. لن يتدخل فى المشاجرات بين المجرمين والمشاعيين ليدفع عن احد من شيعته .

ولم يجرىء موسى أثناء سيره بنفس الرجل الذى اتقده موسى بالأمس وهو يناديه ويستصرخه اليوم .. كان الرجل مشتبكا فى حراك مع احد المصريين .. وأدرك موسى أن هذا الاسرائيلى مشاعب ..

أدرك انه من هوة المشاجرات .

وصرخ موسى فى الاسرائيلى يحفه قائلا : انك لغوى مبین .

قال موسى كلمته وانفد نعرهما يريد البطش بالمصرى .

واعتقد الاسرائيلى أن موسى سيبطش به هو .. ففهم الخوف من موسى الى استرحامه صارخا .

— يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسك بالأمس . ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين .

لم تكد كلمات الاسرائيلى تقع من فيه أمام موسى حتى توقف موسى . سكنت منه العصب وتفكر ما فعله بالأمس ، وكيف استعصر وتاب ووعده أن يكون ظهيرا للمجرمين .. استدار موسى عثدا ومشى وهو يستعصر ربه .

وأدرك المصرى الذى كان يتشاجر مع الاسرائيلى أن موسى هو المسئول المصرى الذى عثروا على عثته أمس . وكثفت سلطات البوليس المصرى قد فشلت فى معرفة قاتله .. وطار المصرى عدوا الى رجال الأمن .. وانكشف سر موسى .. ظهر أمره .. وجاء رجل مصرى مؤمن من أقصى المدينة مسرعا همسا فى اذن موسى أن هناك اتجاها لقتله . صحه أن يخرج من مصر على عجل .

.....

قال تعالى :

« فاصبح فى المدينة خائفا يترقب ، فاذا الذى استعصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى : انك لغوى مبین . فلما ان أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما ، قال : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسك بالأمس ؟ ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين . وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال : يا موسى ان الملا ياتمون بك فيقتلوك ، فانخرج لى لك من القاصحين » [١]

.....

يخفى الله هنا اسم الرجل الذى جاء يحذر موسى .

[١] الآية من ١٨ الى ٢٠ سورة القصص مكة .

ونرجح أنه كان رجلا مصرياً [من ذوي الأهمية] بنفس الآيات ، فقد اطلع على مؤامرة تهلك لموسى من مستويات عليا ، ولو كن شخصية عادية لما عرف .. يعرف الرجل أن موسى لم يكن يستحق القتل على قننه بالأمس .. لقد قتل الرجل خطأ .. والجريمة في القانون المصري لتقديم مقوبتها السجن .. ما الذى أبرز فكرة قتل موسى إذن .. أن هناك عبارة في نصيحة المصري لموسى تضع يدنا على الجواب .

هذه العبارة هي قوله [أن الملا يلتزمون بك] .

الملا هم الرؤساء المسئولون عن الأمن . وهم يعدون له مؤامرة .. أن الجريمة عادية ، لا تقتضى غير عرض الأمر على القضاء والحكم بالسجن فيها ما الذى أدخل الملا هنا ؟ وجعلهم طرفا شخصيا في النزاع ، ودفعهم للتأمر على قتله . نحسب أن مدير البوليس المصري لم يكن يحب موسى . كان يعلم أنه من أبناء إسرائيل . وكل من يرى في وصول السنوق إلى قصر الفرعون مكيدة نبرها له أعداؤه الطالبون في منصبه .. كيف افلت منه أحد أبناء إسرائيل في العام الذى لا ينسى أن يفلت فيه أحد .

هذا يحى قراحه وتراجى رجاله .. وكم نصح الرجل بقتل موسى ، وكان الفرعون يحيد الفكرة فلما حان التنفيذ تقهقر أمام حب زوجته لموسى وحسوها عليه وتعلقها به .. أخيرا جاءت الفرصة .

قال له أحد رجاله أن موسى هو قاتل المصري الذى عثروا على جثته بالأمس .. انتهى الأمر وجاءته نمرسته في قتل موسى . من يدافع الآن عنه . لقد جاء بهوسى في جنسية قتل ميد ..

استخف الفرح كل من كانوا يكرهون موسى من رجال القصر .. وتقرر قتله .. ثم أرسل الله لموسى مصريا عاقلا يحذره وينصحه بالفرار من وجه الظالمين .

.....

قل تعالى :

« اخرج منها خائفا يترقب ، قال رب انجنى من القوم الظالمين » (١) .

صورة أخرى لموسى وهو مطارد ..

خرج على الفور .. خائفا يترقب ويتسرع ويترقب .. في قلبه دعاء له .. رب انجنى من القوم الظالمين .. وكان القوم ظالمين حقا .. ألا يريدون تطبيق عقوبة القتل العمد عليه ، وهو لم يفعل شيئا أكثر من أنه مد يده وأراح رجلا نقتله خطأ .

خرج موسى من مصر على عجل .. لم يذهب إلى قصر فرعون ولم يغير ملبسه ولم يأخذ طعاما للطريق ولم يعد للسفر عنده .. لم يكن معه من دواب الأرض دابة تحمله على ظهرها وتوصله .. ولم يكن في قلعة .. أنها خرج ببجدة أن جاءه الرجل المؤمن وحذره من فرعون ونصحه أن يخرج .

(١) الآية ٢١ سورة القصص مكية .

أختر طريقاً غير مطروق وسلكه . فخل في الصحراء مباشرة وانته الى حيث قدرت له العناية الالهية أن يتجه . لم يكن موسى يسير تاصداً مكتافاً معينا .. هذه أول مرة يخرج فيها ويمبر الصحراء وهذه ..

ظل يسير بنفسية المطارد حتى وصل الى مكان ..

كان هذا المكان هو مدين ..

جلس يرتاح عند بئر عظيمة يسقى الناس منها دوابهم ..

لم يكن له طعام سوى ورق الشجر ، وكان يشرب من الآبار التي يجدها في الطريق .. وكان حثيثاً طوال الوقت فن يرسل فرعون وراءه من يقبض عليه ..

لم يكذ موسى يصل الى «مدين» حتى ألقى بنفسه تحت شجرة واستراح . نال منه الجوع والنعب ، وسقطت نعله بعد أن ذابت من مشقة السير على الرمال والصخور والقراب .. لم تكن معه نقود لشراء نعل جديدة . ولم تكن معه نقود لشراء طعام أو شراب . لاحظ موسى جماعة من الرعاة يسبقون غنهم ، وتذكر أنه جئع وعطشان ، قال لنفسه : أهلاً بطنى من الماصدين لا ليك من الطعام .. سار موسى الى مكان الماء ، قبل أن يصل وجد امرأتين تكتن غنهما أن تخطط بغنم الثوم ، أحس موسى بما يشبه الإلهام أن الفتاتين في حاجة الى المساعدة . نسي عطشه وتقدم منهما وسأل هل يستطيع أن يساعدهما في شيء .. قالت الفتاة الكبرى :

— نحن ننتظر أن ينتهى الرعاة من سقى غنهم لنسقى .

سأل موسى :

ولماذا لا نسقيان ؟

تسالت الصغرى :

— لا نستطيع أن نراهم الرجال .

اندفع موسى لأنها يرمين الغنم .. المفروض أن يرمى الرجال الأغنام . هذه مهمة شاقة ومتعبة وتحتاج الى اليقظة .

سأل موسى :

إذا يرمين الغنم ..

تسالت الصغرى :

— أبونا شيخ كبير لا تساعده صحته على الخروج كل يوم للرمى .

قال موسى : ساسقى لكما .

سار موسى نحو الماء .. اكتشف أن الرعاة قد وضعوا على غن النمر صخرة ضخمة لا يستطيع أن يحركها غير عشرة رجال .. اختفى موسى الصحرة ورفعها من غن النمر .. مغرت عروق رفته ويديه وهو يرفع الصخرة .. كان موسى قويا .. سقى لهما الغنم وأعاد الصخرة الى مكانها وتركها وحدها يجلس تحت ظل الشجرة ..

وتذكر لحقتها أنه نسي أن يشرب .. وكان بطنه ملتصقا بظهره من الجوع .
تذكر الله وشاداه في قلبه :

— رب أنى لما أنزلت إلى من خير فقير .. [١]

قال تعالى :

« ولما توجه تلقاء مدين قال : هي ربي ان يهتدي سواء السبيل .
ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من
دونهم امراةين تلودان ، قال : ما خطبكما ؟ قلنا : لا نسقى حتى
يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى إلى الظل ،
فقال : رب أنى لما أنزلت إلى من خير فقير » [٢] .

.....

.....

ندع موسى حالسا تحت ظل الشجرة .. لتري ماذا كئن من امر الفتاتين
الفتين سقى لهما .

عادت الفتاتان إلى أبيهما الشيخ .

سأل الأب :

— عدتيا اليوم سريعا على غير العادة ؟!

قالت الكبرى :

— كلن حطبنا اليوم عظيما يا أبى . . تعلمنا مع رجل كريم سقى لنا القنم
قبل أن يسقى الرعاة .

قال الأب : الحمد لله .

قالت البنت الصغرى : امتقد يا أبى أنه قائم من سفر بعيد .. وجائع ؛
رأيت وجهه مجهدا رغم قوته .

سأل الأب لابنته :

— اذهبي إليه وقولى له : ان أبى يدعوك لمعطيك أجر ما سقيت لنا .

وطارت البنت تجري لموسى وقلبا يخلق .

وقفت أمام موسى وأبلغته رسالة أبيها، ونهض موسى وبصره في الأرض .
أنه لم يسقى لهما القنم وهو ينتظر منهما أجرا ، وأتما مساعدتهما لوجه الله ،
غير أنه أحس في داخله أن الله هو الذي يوجه قلبه لمنهض .. سكرت
البنت لباه .. هبت الرياح فضربت ثوبها لمخض موسى بصره خياء وقال
لها :

— متسير أنا أمامك وتبهينى أنت إلى الطريق .

وصلا إلى الشيخ .

(١) من الآية ٢٤ سورة القصص مكية .

(٢) الآية من ٢٢ قمر ٢٤ سورة القصص مكية .

قال بعض المسلمين ان هذا الشيخ هو النبي شعيب . عمر طويلا
بعد موت قومه . وقيل انه ابن اخي شعيب . وقيل ابن عمه . وقيل رجل
مؤمن من قوم شعيب الذين آمنوا به .

لا تعرف اكثر من كونه شيخا صالحا .

قدم له الشيخ طعام العشاء وسأله من اين هو قائم والى اين هو ذاهب .
حدثه موسى عن قصته . قال له الشيخ : لا تحف . . نجوت من القوم
الظالمين . هذه البلاد لا تتبع مصر ، ولن يصلوا اليك هنا . اطمئن موسى
ونبهض لينصرف .

قلت ابنة الشيخ لابيها هيسا :

— يا ابنت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين .

سألها الاب : كيف علمت انه قوى ؟

قالت : رفع وحده صخرة لا يرميها غير عشرة رجال .

سألها :

— وكيف علمت انه ليهين ؟

قالت :

رفعني ان يسير خلفي وسار أمامي حتى لا ينظر الى وائا أمشي . . وطوال
الوقت الذي كنت اكله فيه كان يضع يديه في الأرض هيا واهيا .

وعاد الشيخ لموسى وقال له :

— أريد يا موسى ان أزوجه احدى ابنتي على ان تعمل في رعي الغنم عندي
ثمانى سنوات ، فان أتممت عشر سنوات ، فمن كرمك ، لا أريد ان اتبعك ،
ستحدثني — ان شاء الله — من الصالحين .

قال موسى :

— هذا اتفاق بيني وبينك . . والله شاهد على اتفاقنا . . مسوء قضيت
الثباتى سنوات أو العشر سنوات فانا حر بعدها في الذهاب . .

قال تعالى في سورة القصص :

« فجاته اهداهما تبعي على استعجاب ، فقلت : ان ابني يدمرك
ليجزيك اجر ما سئيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال :
لا تحف نجوت من القوم الظالمين . قالت اهداهما : يا ابنت استأجره
ان خير من استأجرت القوى الامين . قال : اني أريد ان اتبعك
اهدي ابنتي هاتين ، على ان تلجوني لماني حجج ، فان أتممت عشرة
فمن عندك ، وما أريد ان اتبعك ، ستحدثني — ان شاء الله — من
الصالحين . قال لك بيني وبينك ، ايها الاجلين قضيت فلا عدوان
علي ، والله على ما نقول وكيل » . [١]

.....
.....

تصرف كثير من الاعلام حين تجيء الى هذا الموضوع ، الى أسئلة لا تنم الا عن الفضول . يتساءلون أى أنثى الشيخ تزوج موسى . أهى الكبرى أم الصغرى ؟ وأى الأجلين قضى موسى عشر سنوات أم ثمان سنوات ؟ . وهم يشرمون فى فيه من الأساليب والروايات ، ونسقت أن موسى تزوج إحدى أنثى الشيخ . لا نعرف من كفت ، ولا ماذا كان اسمها . نعتقد أنه تزوج التى ذهبت إليه قدموه لأبيها ، ثم حثت أباهما على استنحاره بعد ذلك . يكشف السياق القرآنى عن لون من ألوان الإعجاب الرافى الذى يجيش بنفسها تجاهه . . . ولعل الشيخ أدرك بحكمته أن ابنته قد اختارت بطلبها وانتهى الأمر ، ولعله حين حدث موسى عن تزويجه ترك له حرية الاختيار . ولعل موسى اختار من اختارته ، ولعل هذا ثم بنفس اندفاع موسى وسرمته . أما من كانت هذه البنت ؟ اكتفت الكبرى أم الصغرى . بهذه مسألة سكنت عنها السياق القرآنى ، وإن كنا قد أشار إليها إشارة موحية محزنة بقوله :

« نجاته أجداهما نمش على أستهياء » . [١]

أيضا يمكن السياق القرآنى من الأجل الذى قضاه موسى ، هل قضى السنوات العشر ثم اقتصر على ثمانى سنوات وإن كنا نعتقد . . استنادا الى طبيعة موسى وكرمه ومهوته وكونه من أولى العرم . . انه قضى الأجل الأكبر . وهذا ما يؤكد حديث ابن عباس رضى الله عنهما . وهكذا عاش موسى بخدم الشيخ عشر سنوات كاملة .

وكان عمل موسى يتحصر فى الخروج مسج الفجر كل يوم لرعى الأغنام والسفلية لها . . ونحسب أن فترة السنوات العشر التى قضاه موسى فى مدين كانت تدبيرا ألهيا من الله له . .

ان موسى على دين يعقوب .

أبوه المعبد هو يعقوب .

ويعقوب هو حفيد ابراهيم . . وموسى اذن من أحفاد ابراهيم . . وكل نبي بعد ابراهيم جاء من صلبه .

فلهم من هنا ان موسى كان على دين آباءه واجداده . . كان على الاسلام والتوحيد .

وما هو الوقت يجيء عليه ليعتزل عشر سنوات بعيدا عن أهله وقومه . .

وغرة السنوات العشر هذه كانت فترة هامة فى حياته . .

كانت فترة من غترات التأهيل الكبرى .

قطعا كان ذهن موسى يدور مع التجوم كل ليلة . وكان يشبع شروق الشمس وغروبها كل نهار ، وكان يتأمل النباتات كيف يشق التربة ويظهر ، ويظفر للماء كيف يحيى الأرض بعد سوتها المتردهر . . قطعا كان يسبح بذهنه فى كتاب الله

(١) من الآية ٢٥ سورة القصص مكة .

المفتوح للأبصار والأفئدة .. كان يسبح بدهنه في كون الله ، وتتركه الدهشة وبدركه العجيب .

غير أن هذا كله ظل كسنا في نفسه مستقرا بها .

لقد تربى موسى في قصر الفرعون المصري .

هذا معناه أنه كل مصري ثقافته ، مصرياً بطعامه وشرابه ، مصرياً بجسده وقوته . هذا الوعاء المصري بالبلاد والثروة .. كان يهيا ليتلقى وحياً الهيا من لون جديد .. وحياً الهيا مباشراً يجرى بغير رسول من الملائكة .. أنبأ بكلمة الله تكليماً بغير واسطة .. لابد إذن من فترة أعداد عقله ونفسه .. انتهت فترة الأعداد الحسابية في مصر ، وتربى موسى في قصر أعظم ملوك الأرض ، في دولة هي أعنى دولة في الأرض . وشب عباقراً قويا يتكفى أن يمد يده ليزيح أحداً حتى يقتله ..

بقى إذن أن يضاف إلى الأعداد البدنية أعداد روحه مماثل . أعداد يتم في عزلة تامة ، وسط صحراء ومراع لا يعرفها موسى قبل ذلك . وسط أناس غريباء لم يره من قبل .. وذلك ما وقع .

كان الصمت طريقته ..

وكانت العزلة مركبه ..

وكان الله يستكمل لثيابه وكليمه أدواته لينجبل موسى بعد ذلك أمانة الأمر بالحق .

... ..

جاء على موسى يوم ..

انتهت الفترة المحددة .. واستبقت في قلب موسى حين غاص إلى مصر .

يريد أن يعود إلى مصر ..

لقد سقطت عقوبته بفضي المسدة .. يعلم ذلك .. لكنه يعلم أيضاً أن القتول في مصر رهن إشارة الحاكم ، أن شاء أخذه في العقوبة فعل ، ولو لم يكن مستوحاً لها ، وإن شاء العفو عنه — رغم استحقاقه للعقوبة — فعل .. كان موسى يعلم ذلك ، ولم يكن واثقاً من نجاته في مصر مثل ثقته من قبله هيسا ..

رغم ذلك ، انشب الحسب لظفروه في روحه برغبة في الرحيل ..

كان موسى سريعاً وحسباً في اتخاذ القرارات .

قال لزوجته : غداً نبدأ سفرنا إلى مصر .

تالت زوجته لنفسها : في الرحيل ألف خطر لم يسفر عن وجهه بعد .

لم يكن موسى نفسه يعرف السر في قراره السريع المفاجيء بالمودة إلى مصر .. منذ عشر سنوات خرج هارباً .. رأسه مطلوب في مصر ..

فليلاً يعود إليها اليوم .. هل اشتاق إلى أمه وأخيه ؟ .. هل فكر في زيارة زوجة القرمون التي ربهته كأم وأحبته كأم ؟ ..

لا أحد يعرف ماذا دار في نفس موسى وهو عائد إلى مصر .. كل ما نعلمه أن طاعة ساحة الأقدار آله ديمته لاتخاذ القرار متخذة .

وما هي الأقدار العليا توجه خطواته لأمر شديد الأهمية عظيم الخطر .
.....
.....

خرج موسى مع أهله وسار .. اختفى القمر وراء أسراب من المسحاب الكثيف وساد انظلام . اشتد البرق والرعد وأمطرت السماء وزادت حدة الرد والظلام .. وتاه موسى أثناء سيره .. التقط قطعتي من الصخر وراح يضرب أحدهما بالآخر ليشتعل نارا يرى في هوائها أين يسير ، ولكنه لم يستمع . كانت الرياح القوية تطفئ الشرارة الضميمة .. ووقف موسى حائراً يرتعش من البرد وسط أهله .. ثم رفع رأسه فشاهدها من بعد ..
شاهد نارا عظيمة تشتعل من بعد ..

امتلا قلبه بالفرح فجأة .. قال لأهله : اني رأيت نارا هناك .. أمرهم أن يعللوا مكتهم حتى يذهب إلى النار لعلهم يأتيهم منها بحبر ، أو يجد أحدا يسكنه من الطريق فيبتدى إليه ، أو يحضر إليهم بعض أخسائسها المشتعلة لتدفئتهم .

ومطر أهله إلى النار إلى بشر إليها موسى فلم يروا شيئاً .. أحاديه وجلسوا ينتظرونه .. وتحرك موسى نحو النار ..

سار موسى مسرعاً ليدفي نفسه .. يده اليمنى تمسك عصاه .. جسده مبطل من المطر .. ظل يسير حتى وصل إلى واد يسبونه طوى .. لاحظ شيئاً قريب من هذا الوادي .. لم يكن هناك برد ولا رياح .. شبة مبيت عظيم ساكن .. واقتراب موسى من النار .. لم يكن يقترب منها حتى تودى :
« ان بورك من في النار ومن حولها ، وسبحان الله رب العالمين » (١) .

توقف موسى فجأة .. وارتعش .. كان الصوت يحىء من كل مكان ولا يحىء من مكان محدد ..

نظر موسى في النار وعاد يرتعش .. وخذ شجرة خضراء من الشوك وكلها راد تلعب النار زادت حدة الشجر . المفروض أن تتحول الشجرة إلى اللون الأسود وهي تحترق .. لكن النار تزيد واللون الأخضر يزيد .. راح موسى يرتعش رغم الغم والعرق .. كانت الشجرة في جبل غريب من ميمته ، وكان الوادي الذي يقف فيه هو وادي طوى .. ووضع موسى يديه على ميمته من شدة النور بهلة وخوفاً على بصره ..

وتسائل في نفسه :

— نار أم نور ؟!

(١) من الآية ٨ سورة النمل مكية .

(٢) من الآية ٨ سورة النمل مكية .

ثم ارتجت الأرض بالخشوع والرهبة والله عز وجل ينادي :

— يا موسى .. [١] .

رفع موسى رأسه وقال :

مسم .

قال الله عز وجل : انى انا ربك [٢] .

ارداد ارتعاش موسى وقال :

نعم يارب .

قال الله عز وجل : ما خلعت عليك انك بالواذى المقدس طوى [٣] .

انحنى موسى راكعا وجبده كله ينتفضر وخلق نطيه .

عاد الحق سبحانه وتعالى يقول :

« وانا اخبرتك فلم تنع لم ايوحي . انى انا الله لا اله الا انا

فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى . ان السبابة آتية اكاد اخفيها

تجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها

وانصع هوأه فتردى [٤] .

زاد انتفضى جسد موسى وهو يتلقى الوحي الالهى ويسمع الى ربه وهو

يخاطبه ..

قال الرحمن الرحيم :

— وما لك بيمينك يا موسى ؟ [٥] .

اردابت دهشة موسى .. ان الله سبحانه وتعالى هو الذى يخاطبه ،

والله يعرف أكثر منه أنه يمسك عصاه .. لماذا يسأله الله ان ادا كل يعرف

أكثر منه .. لاشك أن هناك حكمة عليها لذلك .

أجاب موسى وصوته يرتعش :

— هي عصاى انوكا عليها وأعشى بها على غنى ولى فيها مارب

أخبرى . [٦] .

قال الله عز وجل :

— انها يا موسى .. [٧] .

رمى موسى العصا من يده وقد رابت دهشته .. وتوجىء بأن العصا

تتحول فجأة الى ثعبان عظيم الحجم هائل الجسم .. وراح الثعبان يتحرك

(١) من الآية ١١ سورة طه مكية .

(٢) من الآية ١٢ سورة طه مكية .

(٣) من الآية ١٣ سورة طه مكية .

(٤) الآيات ١٣ الى ١٦ مكية .

(٥) الآية ١٧ سورة طه مكية .

(٦) من الآية ١٨ سورة طه مكية .

(٧) من الآية ١٩ سورة طه مكية .

بسرعة .. ولم يستطع موسى أن يفلت من خوفه .. أحس أن يده يتزلزل من
الخوف ، فاستدار موسى فزعا وبدأ يجرى .. لم يكذب يجرى خطوتين حتى
ناداه الله !

يا موسى : لا تخف أنتي لا يخطئ لذي المرسفون [١] [سورة النمل].
أقبل ولا تخف أنك من الآمنين [٢] [سورة القصص] .

عاد موسى يستدير ويقف ..

لم تزل العصا تتحرك .. لم تزل الحية تتحرك ..

قال الله سبحانه وتعالى لموسى :

— خذها ولا تخف .. سنعيد لها سيرتها الأولى [٣] [سورة طه] .

يد موسى يده للحية وهو يرتعش .. لم يكذب يلمسها حتى تحولت في يده
الى عصا . عاد الامر الالهى يصغر له :

**اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .. واضمم اليك
جناحك من الرهب [٤] [سورة القصص] .**

وضع موسى يده في جيبه وأخرجها فإذا هي تتلألأ كالقمر .. أراد أنفعال
موسى ما يحدث ، وضع يده على قلبه كما أمره الله فذهب خوفه تايها ..

أطمان موسى وسكت .. وأصدر الله اليه أمرا بعد هاتين المعجزتين
معجزة العصا ومعجزة اليد ..

لن يذهب الى فرعون ليدعوه الى الله برفق ولين ، ويأمره أن يخرج بني
اسرائيل من مصر ..

واندى موسى خوفه من فرعون .

قال انه قتل منهم نكما ويخاف ان يقتلوه ..

توسل الى الله أن يرسل معه اخاه هارون .. طمأن الله موسى انه سيكون
معهما يسمع ويرى ، وأن فرعون رغم قسوته وتجبره لن يسبهما بسوء .
أنهم الله موسى انه هو الغالب ..

ودعا موسى وأبتهل الى الله أن يشرح له صدره وييسر أمره ويسمعه القدرة
على الدعوة اليه ..

قال تعالى في سورة طه :

**« وهل أتاك حديث موسى ؟ . إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا اني
أتست نارا لعلى آتاكم منها نقيس او احد على النار هدى . فلما
انها نودي يا موسى . اني أنا ربك خلع عليك انك بالوادي**

(١) من الآية ١٠ سورة النمل مكة .

(٢) من الآية ٢١ سورة القصص مكة (٣) من الآية ٢١ سورة طه مكة .

(٤) من الآية ٢٢ سورة القصص مكة .

المقدس طوي . ولما اخترتك فاستمع لما يوحى . انتى قنا الله لا اله الا انا فاعبدنى واتم الصلاة لذكرك . ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل بفس بما تسعى . فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى . ومانك يميمك يا موسى . قال هى عصاى اتوكا عليها واحشى بها على غنمى ولى فيها مآرب لخرى . قال لاقها يا موسى ، فخلقاها عازا هى هبة نسى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى . واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية اخرى . قريك من آياتنا الكبرى . اذهب الى فرعون انه طغى . قال : رب : اشرح لى صدرى . ويسر لى امرى . واهل عقدة من لساني يفقهوا قولى واجعل لى وزيرا من اهلى ، هارون اخى ، لتشد به ازرى ، واشركه فى امرى ، كى تسبحك كثيرا وتذكرك كثيرا ، انك كنت بنا بصيرا . قال قد اوتيت سوؤك يا موسى . واقد مننا عليك مرة اخرى . اذ لوحيانا الى لك ما يوحى . ان افذهبه فى التابوت فانذهبه فى اليم فليقله اليم بالساهل يلقاه عدو لى وعدو له . ولقبت عليك محبة منى وقصصت على عبي . اذ تمشى ارضك تقول هل اذلکم على من يکنفه فرجعتک الى لک کى تقر عبيها ولا تعزن . وقتلت نفسا فحييتک من الفم ومثاک قوما . فلبثت سنين فى اهل مدين ثم جئت على قدر — يا موسى — واسطقتک لنفسى (١) .

.....

لا نعرف ماذا نقول تعليقا على قول الله تعالى لعبد من عباده ..

« يا موسى .. واسطقتك لنفسى » . (٢)

احترار الله موسى واسطعته لنفسه .. سببته .. وظك قصة من ثمم التشريف لا نعرف احدا يلعبها فى ذلك الزمان البعيد غير موسى عليه الصلاة والسلام .

قتل موسى راجعا لاهله بعد اصطفاه الله له واختياره رسولا الى مرمون .
لتحذر موسى باهله قاصدا مصر .

يعلم الله وحده أى أفكار عبرت ذهن موسى وهو بحث خطاه قاصدا مصر . انتهى رمان التأمل ، وانطوت أيام الراحة ، وجاءت الاوقات الصعبة اهيرا ، وه هو موسى يحمل امانة الحق ويمضى لهواحه بها مطش اعظم جباله مصره وامتاعهم . يعلم موسى ان فرعون مصر طاعية .. يعلم انه لن يسططه بنى اسرائيل بعير سراع .. يعلم انه سيقف من دموته موقفه الانكسر والكبرياء والتعاهل . لقد امره الله تعالى ان يذهب الى فرعون . ان يدموه بلين ورقى الى الله . اوحى الله لموسى ان فرعون لن يؤمن .. ليدعه موسى وشانه . وليركز على اطلاق سراح بنى اسرائيل والكف عن تعذيبهم . قال تعالى لموسى وهارون :

(١) (١١) ايات ٩ الى ١١ مكية .
(٢) (١٢) اية ١١ سورة طه مكية .

« فليتيه غفولا أنا رسولا ربك فرسل معنا بني إسرائيل
ولا تطيعهم » [١] .

هذه هي المهمة المحددة .

وهي مهمة سوف تصطبغ بالآلاف العقبات . أن فرعون يعذب بني إسرائيل
ويستعبدهم ويكفهم من الأمل مالا طائلة لهم به ، ويستعصى نساءهم ،
ويضج أبناءهم ، ويتصرف فيهم كما لو كانوا ملكا خاصا ورثه مع ملك مصر .

يعلم موسى أن النظام المصري يقوم من بنيته الأساس على استعباد بني
إسرائيل واستغلالهم وجاهدهم وطاعتهم في الدولة ، فهل يفرط الفرعون
في بناء الدولة الأساسى سسلطة ويسر .

ذهبت الأفكار وجاءت ، فاختصرت مشكلة الطريق .. ورفع الستار عن
مشهد المواجهة .

واحه موسى فرعون بلين ورنق كما أمره الله .

« اذهب إلى فرعون أنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو
يخشى » [٢] .

حدثه من الله . عن رحمته وحننه . عن وجوب توحيده وملائته .

حاول ليهظ جوانبه الانسانية في الحديث . ألمح إليه أنه يملك مصر ،
ويستطيع لو أراد أن يملك الجنة . وما عليه لذلك إلا أن يتقى الله ..

استمع فرعون إلى حديث موسى فجزأ شبه هزى ، وقد تصوره مجنونا
تجرا على مقامه السامى .. ثم رفع يده وتحدث .

— لماذا تريد . قل : لماذا تريد واختصر ؟ .

قال موسى : أريد أن ترسل معنا بني إسرائيل .

سأل فرعون : ماى صفة أرسلهم معك وهم صاى .

قال موسى : أنهم عباد الله رب العالمين .

تسأل فرعون — هازئا — ألم تقتل أن اسبك موسى .

قال موسى : نعم .

قال فرعون : أليس موسى الذى التطناه من النبل طفلا لا حول له ولا قوة
أليس موسى الذى ربناه في هذا النصر وأكل من طعمنا وشرب من مائنا
وأعرقه خيرا وأحسننا إليه .. أليس موسى القاتل لينا بعد . الفار لينا بعد
تقتل الرجل المصري لو لم تخشى الذاكرة . ألا يقولون أن القتل كفر . كنت
كفرا ولنت تقتل الآن ..

(١) من الآية ٢٧ سورة طه بحكة .

(٢) الآية ٢٨ : ٢٩ سورة طه بحكة .

أنت موسى إذن .. الفر من القاتون المصري .. الهارب من وجه العدالة .. ثم تجيء الى وتحدثني ..

لهم كنت تحدثني يا موسى .. لقد نسيت ..

لهم موسى أن فرعون يفكره ببلانيه ويس عليه أنه رياء واحسن اليه ، لهم أيضا أن الفرعون يهدده بعادث القتل القديم .. وتجاوز موسى سقرية فرعون ولفهم أنه لم يكن ككفرا حين قتل المصري . وانما كان صاللا لم يوح الله اليه .

لفهم أنه فر من مصر لأنه خاف انتقامهم منه رغم أن القتل كان خطأ ولم يكن يقصده . أهمه أن الله وهبه حكما وحمله من المرسلين .

حكى الله تعالى في سورة الشعراء جزءا من الحوار بين موسى وفرعون .
قال تعالى :

« واذ نادى ربك موسى أن أنت القوم الظالمين . قوم فرعون ، الأيقون ؟ .
قال : رب : أنى أضاف أن يكذبون . ويضيق صدري ولا ينطلق لساني
أرسل إلى هارون . ولهم على نسب فخاف أن يقتلون . قال : كلا
فلاهما بآياتنا أنا معكم مستمعون . فتيا فرعون بقولا أنا رسول
رب العالمين . أن أرسل معنا بنى اسرائيل . قال : ألم نربك نبيا وأيدا
ولفت غيبا من شمرك سنين . وفعلت لعنك أقتى فعلت وقت من
الكافرين . قال : فعلمها إذا وأنا من الضالين . ففريت منكم لما خضعتكم
فوهب لى ربي حكما وجعلنى من المرسلين » [١]

.....
.....

وتغلب طبيعة موسى المنفعة عليه .. أن من الفرعون عليه وتذكيره
باحسانه عليه يثير طبيعته المنفعة .. نادا هو يحاطب فرعون قائلا :

— تلك نعمة تمنها على أن عبيدت بنى اسرائيل » [٢]

يريد موسى أن يقول له .. هل تظن أن النعمة التي تمنها على .. من أنك
أحسننت الى وأنا رجل واحد من بنى اسرائيل .. هل تظن هذه النعمة تتنزل
ما استخدمت هذا الشعب الكبير يأكيله ، وامستدنتهم في اصبالك وخديمتك
واشعالك . أن كان هذا بذاك وظلوعك المنطق على ذلك فمنهم متمادلون إذن
.. ليس غيبا دأب ومدين ، وان لم يكن هذا بذاك مايهما أكبر ؟ . وعلى أي
الحالات فالأمر أمر دعوة الى الله .

أمر لم أنك به من تلقاء نفسي . لست موقدا من شعب بنى اسرائيل .
لست موقدا من قبل نفسي .. انما أنا موقد من الله تعالى .. أنا رسول رب
العالمين . عند هذا الحد تدخل الفرعون في الحديث .

(١) الآية من ١٠ الى ٢١ مكة .
(٢) الآية ٢٢ سورة الشعراء مكة .

« قال فرعون : وما رب العالمين » (١) .

قال موسى :

« رب السماوات والأرض وما بينهما أن كنتم موقنين » . [٢] .

التفت فرعون لمن حوله وقال هاتوا :

« ألا تستمعون » . [٣] .

قال موسى متجاوزا سحرة الفرعون :

« ربكم ورب آبائكم الأولين » . [٤] .

قال فرعون محتلبا من جاءوا مع موسى من بني إسرائيل :

« أن رسولكم الذي أرسل اليكم لجنون » . [٥] .

عاد موسى يتجاوز اتهام الفرعون وسحريته ويكبل :

« رب المشرق والمغرب وما بينهما أن كنتم تعقلون » . [٦] .

حكى الله تعالى في سورة الشعراء جزءا من حوار فرعون وموسى . .

قال تعالى :

« قال فرعون : وما رب العالمين ؟ قال : رب السماوات والأرض وما
بينهما أن كنتم موقنين . قال لمن حوله : ألا تستمعون : قال : ربكم ورب
آبائكم الأولين . قال : أن رسولكم الذي أرسل اليكم لجنون . قال :
رب المشرق والمغرب وما بينهما أن كنتم تعقلون » . [٧] .

.....
.....

يذكر الله تعالى في سورة طه جزءا من مشهد لقاء فرعون بموسى . .

قال تعالى :

« فأتياه فقولا : أنا رسول ربك ، فارسل معنا بني إسرائيل ولا نعذبهم
قد جئناك بأية من ربك والسلام على من أتبع الهدى . أما قد لوهي
البناء أن العذاب على من كذب وتولى » . قال : فمن ربكما يا موسى ؟ .
قال : ربنا الذي أمطى كل شيء خلقه ثم هدى » . قال : فما بال القرون
الأولى . قال : عليها عهد ربى في كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى (٨) .

(١) المربع كله آية ٢٣ سورة الشعراء مكية .

(٢) من الآية ٢٤ سورة الشعراء مكية .

(٣) من الآية ٢٥ سورة الشعراء مكية .

(٤) من الآية ٢٦ سورة الشعراء مكية .

(٥) من الآية ٢٧ سورة الشعراء مكية .

(٦) من الآية ٢٨ سورة الشعراء مكية .

(٧) الآيت ٢٣ إلى ٢٨ سورة الشعراء مكية .

(٨) الآيت ٢٧ إلى ٥٢ مكية .

نلاحظ أن فرعون لم يكن يسأل موسى عن رب العالمين أو رب موسى
وهارون بقصد السؤال المراءى والمعركة . إنما كان يهزأ . ولقد أحله موسى
اجابة جامعة مانعة محكمة .

قال : ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

هو الخالق . خالق الاجناس جميعا والنوآت جميعا . وهو هاديا بها
ركب في فطرتها وجبلتها من خواص تهديها لاسباب عيشها . وهو الموحي
لها على اى حال . وهو القابض على ناصيتها في كل حال . . وهو العظيم
بها والشاهد عليها في جميع الأحوال .

توحى العبارة القرآنية بهذا كله وأكثر . . لتأمل ايجازها المعجز .

« ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . [١] .

اتزلقت العبارة على ذهن فرعون المسبك مثلما تزلق قطرة من الرشق
على سطح من الزجاج . لم تترك أثرا أو علامة . وهاهو فرعون يسأل :

— فما بال القرون الأولى لم تعبد ربك هذا ؟

لم يزل فرعون ماضيا في استكباره واستهوائه . ويرد موسى ردا يلعبه
الى أن القرون الأولى التي لم تعبد الله ، والتي هدته معا ، لن تترك معبر
مساخه وجراء . كل شيء معلوم عند الله تعالى . . هذه القرون الأولى عليها
عند ربى في كتاب . أحصى الله ما عملوه في كتاب . لا يغفل ربى . . اى
لا يعيب عنه شيء . ولا ينسى . . اى لا يعيب من شيء . . ليطمئن الفرعون
مالا من ناحية القرون الأولى والآخره وما بينهما . . أن الله يعرف كل شيء
ويسجل عليها ما عملته ولا يضيع شيئا من أجورهم .

عاد موسى يكمل حديثه عن ربه .

« الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا ، وتنزل من السماء
ماء فنخرجنا به قرواحا من نبات شتى . كلوا وارعوا فمماكم أن هي
ذلك آيات لأولى القوم . منها علماكم وميها نعيذك ومنها نفرجكم
قارة اخرى » . [٢] .

.....

لفت موسى نظر فرعون الى آيات الله في الكون . ودار به مع حركة
الرياح والمطر والنسك وأوصله مرة ثانية الى الأرض ، وهناك أهمه أن الله
خلق الإنسان من الأرض ، وسيعيده اليها بالموت ، ويحرره منها بالبعث .

كان هناك بعثا آئن . .

وسيقف كل انسان يوم القيامة أمام الله تعالى . . لا استثناء لاحد . .
سيقف كل عباد الله وخلقهم أمامه يوم القيامة . بما في ذلك الفرعون .

(١) من الآية ٥٠ سورة طه بكة .

(٢) الآية من ٢٢ الى ٥٥ بكة .

بهذا جاء موسى مبشرا ومُنذرا .

لم يعجب فرعون هذا التفخير ، وتصاعد الحوار بينه وبين موسى . .

كان الحوار يصر من الصراع بينهما . . سخفت حدة الصراع لتغيرت لهجة الحوار . . أقام موسى الحجة الدامغة على فرعون ، لقلع عليه الحجة العقلية . . ولكن فرعون بنفقت خارجها من دائرة الحوار السذي بنى على المنطق ، وبدأ حوارا من نوع جديد . نوع لا يطبق موسى مجاراته فيه . . انه يهاجم موسى ويهتده ويهتقره ويصبه .

أعطى فرعون ظهره للحق الذي جاء به موسى . وتجاهل دعوته . وبدأ يهاجمه في شخصه وملابسه وطريقة نطقه للكلمات . .

أشار لمن حوله الى فقر موسى . . وملابسه الصوفية الخشنة . وهذا التردد الذي يصاح لسأته عند نطق بعض الكلمات .

بعد هذا التحقير لموسى . . عمد الفرعون الى أسلوب الحكم المطلق . .

سأل موسى كيف يجرؤ على عبادة غيره . . الا يعرف موسى أن فرعون اله . كيف يجهل موسى هذه الحقيقة رغم أنه مربي في قصر الفرعون ويعرف !

بعد أن أعلن فرعون عن انوبيته بصفة مبدئية . سأل موسى كيف تحصرا على عبادة غيره . . أن هذا معناه السجن . . ليس عندنا لمن يتخذ الها غير الفرعون . . سوى السجن . .

« قال : لأن اتفعلت الها غيرى لأجعلك من المسجونين » . [١]

أدرك موسى أن الحجج العقلية لم تفلح . أن الحوار الهادئ ينقلب من السخرية الى المن الى التحقير الى التهديد بالسجن . أدرك موسى أن وقت إظهار المعجزة قد جاء .

قال للفرعون بعد تهديده له بالسجن . .

« قال : لو تو جئتك بشيء مبين » . [٢]

انه يتحدى الفرعون . . وها هو يقبل تحديه . . ويمتلق صدقه على أن يأتيه بهذا الشيء المبين .

« قال : علمت به أن كنت من الصالحين » . [٣]

التقى موسى فصاء في صالة القصر العظيمة .

في البداية ، حين الى فرعون أن العصا سقطت من موسى بسبب ارتباطه بعد أن طلبه بإظهار الدليل على صدقه .

(١) الآية ٢٩ من سورة الشعراء مكية .

(٢) الآية ٣٠ سورة الشعراء مكية .

(٣) الآية ٣١ سورة الشعراء مكية .

تحولت أنظار الواقفين جميعا إلى العصا وهي ترتطم بأرض الصالة الرخامية .

لم تكن العصا تلمس الأرض حتى تحولت إلى ثعبان هائل يتحرك بسرعة . اتحه الثعبان الهائل نحو فرعون . شحب وجه فرعون من الخوف ، وانكشى في كرسيه ، وصرخ أن يبعدوا عنه الثعبان .

مد موسى يده إلى الثعبان فعاد في يده إلى عصا كما كان .

سقط الصمت بعد هذه الآية ..

عاد موسى يكشف ألبم الواقفين معجزته الثانية . أدخل يده في حبيه وأخرجها فإذا هي بيضاء كالقمر . شحبت كل أنواء القصر وبسومه ألبم هذا التور الجديد . وظهر وجه فرعون أخضر من الخوف .

قال تعالى : « فالتقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين » ونزع يده فإذا هي بيضاء الظلمين » [1] سورة الشعراء .

صمتت الأصوات في القصر . وانغرس تأثير المعجزتين في النفوس يحيل تبرا من الخوف أول ما يحيل .. ثم عاد موسى يده إلى حبيه فعادت كما كانت .

ذاب النور المدهش الذي حملته الآية الثانية إلى المكان .

قال فرعون منتقع الوجه :

— اذهب الآن .. نتحدث فيما بعد .

استدار موسى وخرج من القصر .

كان فرعون ذاهلا .. جال تفكيره فيما يمكن أن يقع في المملكة لو انتشر فيها خبر المعجزتين وتحدث الناس من موسى وهارون . أصدر الفرعون أمره بإسدال الصمت على الموضوع ، ولكن خضع القصر وجواريه وهزه من بنى إسرائيل شهدوا المعجزتين . وملأوا الدنيا حديثا عنها .

ميت فرعون مصر تماما حين واجه المعجزتين . فلما خرج موسى من قصره تحول من الدهول والخوف إلى الغضب العنيف .. انفجرت ثورته في وزرائه ورجاله وراح يعنفهم بلا سبب . أمرهم بالخروج من مجلسه وخلأ نفسه .. حاول أن يفكر في الموضوع بعنوه أكثر .

شرب عدة كؤوس من الخمر فلم يذهب غضبه .. ثم أصدر أمره بالاجتماع خطير يدمى إليه كل وزراء مصر وقلائتها ومسؤوليها . وأصدر الفرعون أمره لهامان ، كبير وزرائه ، أن يشرف بنفسه على عقد الاجتماع .

واجتمع الملا من قوم فرعون .

دخل فرعون الاجتماع ووجهه متصلب . كان واضحا أنه لن يستسلم بسهولة ، أنه يقيم ملكه على أساس أنه إله يعبد المصريون . وهو يستند بهم ويتحكم فيهم ويستغلهم طبقا لهذه الفكرة .. وأما هو موسى يجره

(1) آيتين ٢٢ و ٢٣ مكية .

ليهدم كل ما بناه .. أسطشوه أن موسى يقول إن هناك الها واحدا لا اله غيره في الكون . معني هذا أن فرعون كاذب .

لم تكن هذه الفكرة تستقر في رأس فرعون .. حتى التفت إلى كبير وزرائه هامان .. كانت الفلسفة التاريخية منعقدة .. ولم يكن هناك من تجرأ على فتح فمه بعد . انتح فرعون الجلسة بأن ألقى على هامان سؤاله المفاجيء :

— هل أنا كاذب يا هامان ؟

ركع هامان متدهشا ونسأله .

من الذي تجرأ على الكفر بالفرعون .

قال فرعون مقطعا :

— موسى . ألم يقل إن هناك الها في السماء ؟

قال هامان مؤكدا .

— موسى يكذب يا مولاي .

قال فرعون نائدا الصبر وهو يدير وجهه إلى الجهة الأخرى .

— أعرف أنه يكذب .

ثم ملطنا إلى هامان

« وقال فرعون : يا هامان : ابن لي صرحا لعلني أبلغ الأسباب .
أسباب السماوات فاطلع إلى اله موسى واتى لأظفنه كالإب » [١]
سورة غافر .

أصدر الفرعون أمره الملكي ببناء صرح ضاهق يفترض في ارتفاعه أن يصل إلى السماء . استند الأمر الفرعوني إلى حصار مصر وولمها بالناء ، غير أنه تجاهل القوانين الهندسية الحاكمة ، ورغم ذلك رد هامان مسلطا وهو يعرف باستحالة بناء مثل هذا الصرح .

— سأصدر أمرا ببنائه على الفور .. لكك يا مولاي .. واسمح لي بالاعتراض للمرة الأولى على الفرعون .. لن تجد شيئا في السماء . ليس هناك اله غيرك .

استمع فرعون إلى اعتراض رئيس وزرائه راضيا لكنه يستمع إلى حقيقة مقروءة .. ثم أعلن في اجتماعه الشهير كلمته التاريخية .

« يا أيها الملأ : ما علمت لكم من اله غيري » [٢] . سورة القصص .

حتى الجميع رؤوسهم موانقين .

(١) الآية ٢٩ وحده من آية ٢٧ بكية .

(٢) من الآية ٢٨ بكية .

كان بينهم اثنان أو ثلاثة . لم يزل في رؤوسهم عقل . وكان هؤلاء الثلاثة يعرفون أن فرعون هو الذي يكذب . ورغم ذلك سكتوا على الكذب ووافقوه . وقد كانت هذه الموافقة الشعب المصري غالبا . دفع الجنود المصريون من بينهم قريبا بعد ثمن نفاق قائلهم وموامة وزرائهم وخضوع كهنتهم لجنون الفرعون .

قال فرعون وهو يسأل مستشاريه : ماذا قلتم في موسى ؟

قال هاسان : هو كاذب .

وقال وزير آخر : اعتمد أنه مجنون .

وقال كاهن أثيب — خشى أن يضيع بينهم لو لم يقل شيئا — : انصور أن يباصله ..

تطلع الفرعون :

— أنتم تصفون موسى ، ولكم لم تجيبوا عن سؤالى بعد .

ما هي حقيقة موسى .. ما هي المؤامرة التي يخبئها وراء ظهره .

سكت المستشارون حولا ونفاقا من فرعون . وانتظروا أن يضع هو الكلمات في أفواههم ليردوها معه ككبيخاوات .

قال فرعون بعد لحظة صمت تلمسني مضحك :

— اعتمد أن موسى ساحر عليم .. يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فلماذا تأمررون .

من المعروف في أنظمة الحكم المطلق أن اجتماع وجوه القوم وكبارهم لإبداء الرأي أمام الحاكم المطلق لا يعنى أكثر من اجتماعهم لتلقى الرأي وترديده بسد ذلك .

قال المستشارون بعد أن أعطاهم فرعون حبل الكلمات :

— صدق فرعون . أن موسى ساحر، لقد انحلت المشكلة، سنرجي موسى

وأخاه ويبعثا سائر الفرعون في مصر كلها ليخضر السحرة ، فإذا حضر السحرة وقبوا أمام موسى واشتوا أنه ساحر وهزموه .. وبذلك نكشفه أمام المصريين وأبناء إسرائيل ..

تم الاتفاق في هذه الجلسة التاريخية على ذلك . وخرج من قصر الفرعون عشرة رجال ركبوا مركباتهم وأسرعوا يفرقون في مصر .. ونودي ثلثي يوم في أسواق مصر كلها : أن على جميع السحرة الماهرين التوجه إلى قصر فرعون لاير هام .. واستدعى فرعون نبي الله موسى وحاول تهديده وأخافته ، ولكن موسى ظل على هدوئه .

قال فرعون لموسى :

— أنت ساحر يا موسى .. ولقد قررت أن أكشفك أمام الجميع وبعد أيام قليلة يخضر السحرة .

سأل موسى :

بنى القى بالسحرة ؟

قال فرعون : هناك مناسبة قريبة لحشد الناس واجتماعهم .. هي يوم
الزينة .. يوم شم النسيم .. يوم تزين الارض بقدوم الربيع .. سيكون
الاجتماع هائلا .. وسوف تهزم .. وانا امطيك حق التراجع من الان .. اننى
امتحك فرصة أخيرة لاتخاذ ماء وجهك .

قال موسى متجاهلا كلام الفرعون الاخير :

— اتفقنا على الموعد .

موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى ..

قال فرعون :

— اى وقت ستحضر ؟

قال موسى :

— سأحضر ان شاء الله فى الفجر .. فى بداية النهار ..

قال تعالى فى سورة طه : « ولقد فريناك آياتنا كلها فكذب وبى »
قال : اجئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . ظننتك تسحر
مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا انت مكانا سوى .
قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى (١) .

انصرف موسى مطمئنا ..

وبدلت وفود السحرة تصل الى قصر فرعون .

وحين اجتمعوا جميعا لير فرعون باخلافهم عليه .. مسجد السحرة
لفرعون حين دخلوا عليه .

أمرهم فرعون بالوقوف ، وراح يتشكى بينهم ويتأمل وجوههم وملابسهم
وهو صامت يفكر ، ثم وقف فجأة وقال :

— ايها السحرة .. نحن نواجه مشكلة صغيرة ، وقد أمرت بلعنكم
لعلها ..

هنى السحرة رؤوسهم واستمعوا .

عاد الفرعون يتحدث :

— حاضرا رجل يدعى انه رسول من الله ، راح اسمه موسى ، ومعه
أخوه هرون .. وموسى هذا ساحر أبهر منى واتذر ..

يجب أن نهرموه هزيمة مطلقة لا يستطيع رفع رأسه بعدها ..

ضى السحرة رؤوسهم وظلوا صامتين ..

(١) الآيات من ٥٦ الى ٥٩ مكة .

قال فرعون :

— لماذا لم يسألني أحدكم عن سحر موسى !!

رد أحد السحرة بهدوء :

— نحن ننتظر من فرعون العظيم أن يحدثنا بنفسه .. لا نريد أن
تقطعك يا مولانا .

قال فرعون بغضب :

— ألقى عصاه فإذا هي ثعبان كبير ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين .

لمت الابتساعات في وجوه السحرة وقال أحدهم :

— ليطيئن قلب الفرعون .. هذه لعبة قديمة ، لعبة العصا التي
تتحول إلى ثعبان .. أنها لا تتحول إلى ثعبان .. أنها يخيل إلى الناس أنها
تتحرك وهي ثابتة ..

قال فرعون :

— لا أريد أن تحظى في نقاش حول أصول صنعة السحر .. أريد
أن تهزموا موسى .. لقد أتفتنا على اللقاء يوم الزينة .

سيجتاح الشعب المصري كله ويشاهدكم وأنتم تهزمونه .

يجب أن تغلبوه ..

انتهى كلام فرعون وانتظر أن ينصرف السحرة ولكنهم ظلوا وأكلمين
.. فسأل أحدهم :

— لم يحدثنا مولانا الفرعون عن أهم شيء لو قلنا له موسى .

سأل فرعون مندهشا :

— ماهو أهم شيء هذا !!

قال أحد السحرة :

— أجزنا إن كنا نحن الفالبيين .

قال فرعون ضاحكا :

— سأرضى عنكم ، وستكونون من المقربين .. سننتقي وظائق جديدة
في القصر للسحرة .. اطمئنا تماما للأجر ..

أنتسم فرعون وهو يرى وثوق السحرة من أنفسهم ، وأجرهم
بالانصراف وانصرف هو إلى مائدة الخداء ..

انفتحت نفسه فجلس يأكل .. قال وهو يلتهم فخذ خروف مسبق .

— اتسدت نفسي من الأكل من يوم أن جاء موسى .. التريت نهائيه
على أي حال .

قال تعالى في سورة الأعراف :

« وقال موسى : يا فرعون : أتني رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق . قد جننتكم بيعة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل . قال : أن كنت جئت بآية مني فأت بها إن كنت من الصادقين . فلقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين . قال الملا من قوم فرعون : أن هذا ساهر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فهاذا ناهرون . قالوا لرجله وأخاه وأرسل في الخائن حاشرين . يقول بكل ساهر عليم . وجاء السحرة فرعون قائلوا : أن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قائل نعم ، وأنكم لن المفزيين (١) » .

.....

وجاء يوم الزينة ..

وأخرج الناس من بيوتهم وهم يتحدثون عن اللقاء بين موسى وفرعون .
بدأ الناس يتوجهون إلى مكان الاحتفال منذ الصباح المبكر .. لم يكن هناك أحد في مصر لم يعرف قصة التحدى واللقاء ..

وهل الناس حين وصل السحرة .. كما ظنوا حين وصل فرعون .. ثم ساءت سمعة نبييل حين وصل موسى وهرون .

كان مكان الاحتفال مكشوحا إلا من مظلة فرعونية لتقي رأس الفرعون من حرارة الشمس .. ووقف فرعون وسط أبنائه وجنوده وقواده وهو يرتدى الذهب والجواهر ، ووقف موسى مطاطيء الرأس يذكر الله في نفسه .. سمعت الأصوات ساها وتقدم السحرة إلى موسى ..

قال السحرة لموسى :

— لما إن تلقى وأما أن نكون أول من ألقى ..

قال موسى :

— بل اتقوا .

قال السحرة : مرة فرعون أنا لمحن العالميون ..

قال موسى : ولكنكم ، لا تفتروا على الله كذبا فيسحقكم بعذاب .

قال بعض أهل الحقائق .. انفت موسى فإذا جبريل على يمينه يقول له يا موسى .. ترمق بأولياء الله .. قال موسى لنفسه : هؤلاء سحرة جاءوا ينصرون دين فرعون .. عاد جبريل يقول : ترمق بأولياء الله .. هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك ، وبعد صلاة العصر في الجنة .

.....

رمى السحرة بمعصيهم وجنابهم فإذا المكان يتلوى بالنعابين نحاة ..

(١) الآيات من ١٠٤ إلى ١١٤ مكية .

سحروا أمين الناس واسترهبوهم وجاعوا بسحر عظيم ..
وهل المصريون .. وابتنم الفرعون ابتسامة واسعة وقتل في نفسه ..

— لقد تم القضاء على موسى الآن .. ان معجزته ان العصا تتحول في يده الى حية .. ها هو فرعون يحضر له عشرات السحرة الذين لتحول العصا والحبال في أيديهم الى حيات ..
زادت ابتسامة فرعون ..

ونظر موسى عليه السلام الى حبال السحرة وعصيم وشعر بالخوف ..
أوحس في نفسه خفة موسى . تذكر ما قاله له حيريل وأحس بالخوف ..
كيف يمكن أن يدخل هؤلاء السحرة الجنة ويكونوا أولياء الله .. مثلما يطأ النور ثنية أو ثنيتين ويسود الظلام .. شعر موسى بذلك .. ولا أحد يعرف حقيقة الافكار التي عبرت ذهن موسى وهو يقف في ملائمة الفقيرة مع أخيه إيلم كل هذا الحشد العظيم من حرس الفرعون وجنوده .. لم يستمر أحسن موسى بالخوف ، عاد النور بضوء داخله والله سبحانه وتعالى يقول له :

« لا تخف أنك أنت الأعلى . وألق ماني يمينك خلفك ماضعوا ،
انما صنعوا كيد ساحر ، ولا يطلع الساحر حيث أتى (١) » .

ألملم موسى حين سمع رب العالمين يطمئنه .. كفت يده عن ارتعاشاتها الحنيفة ، ورفع موسى عصاه وألقاها فجأة ..

لم تكد عصا موسى تلمس الأرض حتى وقعت المجرزة .

شاهد الناس والسحرة وفرعون وجنوده شيئا لم يشاهده أحد من قبل في العالم .. المعروف ان الساحر يستطيع أن يحدع أمين الناس ويوهمهم ان الثعبان يتحرك وهو ثابت ، ان العصا تتحرك وهي ثابتة ..
لكن ما حدث ساعتها كن شيئا مخطئا تماما ..

لم تكد عصا موسى تلمس الأرض حتى تحولت الى ثعبان جبار سريع الحركة ، وتقدم هذا الثعبان فجأة نحو حبال السحرة وعصيم التي كانت تتحرك وبدأ يأكلها واحدا بعد آخر .. راحت عصا موسى تأكل حبال السحرة وعصيم بسرعة مخيفة ..

لم تكد تلمس دقائق حتى كانت الساحة خالية تماما من كل حبال السحرة وعصيم .. اختفت الحبال والعصى في مطن عصا موسى .. وتحرك الثعبان العظيم نحو موسى ومد موسى يده لنحول الثعبان الى عصا ..

(١) جزء من آية ٦٨ وآية ٦٩ سورة طه مكية .

وأدرك السحرة أنهم ليسوا أعلم سحر ..
 أنهم سادة السحر وأعظم العلماء في زمانهم .. وما راوه منذ لحظات
 لا يدخل في باب السحر أو العلم .. إنما هذه معجزة من الله ..
 وألقى السحرة أنفسهم على الأرض ساجدين ..
 قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون .
 شهد المصريون وأبناء إسرائيل هذه المعجزة الملقطة .. شهدوا سحود
 السحرة لموسى وهارون ..
 وأمس فرعون أن الأمر يئس من يده فنهض وقفا وصاح في السحرة :
 — كيف تؤمنون به قبل أن أعطيكم اثنا بذلك ؟

قال السحرة :

— لا يحتاج الإنسان إلى إذن .

قال فرعون : إنما مؤامرة واضحة .. إنه لكبيركم الذي علمكم السحر
 .. ستقطع أيديكم وأرجلكم .. ستمصلبون في جذوع النخل ، إنما مؤامرة
 واضحة .

قال السحرة :

— أمل ما تريد أن تملكه يا فرعون .. إن نصلك على هذه المعجزة
 الإلهية .. أنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أجبرتنا عليه من السحر ..
 والله خير وأنتى .. ولو عذبنا وقتلنا وصلبنا فذاك تعذبنا في هذه الحياة
 .. وهي لا شيء بجانب الآخرة .. ونحن نطمح في مغفرة الله ودخول الجنة
 .. وأصدر الفرعون أمره بصلب السحرة جميعا ..

ووقف الناس يتفرجون على ما يحدث .. لم تكن شهادة السحرة لموسى
 شيئاً يستهان به .. أن هؤلاء هم صفوة المجتمع المصري .. هم علماء ..
 وقد سجد علماء مصر للحق ، فخذلهم الناس وتركوهم لمصيرهم . كان الحق
 واضحاً ورغم ذلك أكتفى الناس بالفرجة ، ولو أن كل واحد من المصريين
 انحنى على الأرض وتناول قطعة من الطوب وقذف بها فرعون لسقط فرعون
 وتغير تاريخ مصر .. ولكن الذي حدث أن أحداً لم يتحرك من مكانه ، أكتفى
 الناس بالفرجة ، ودفع الناس فيما بعد ثمن هذه الفرحة ..

غرق الناس فيما بعد ثمناً لجبن يوم واحد .

وأبدل الستار على هذا اليوم العظيم .. وانصرف موسى وهارون ..
 وعاد الفرعون لقمصره ..

.....

حكى الله تعالى في سورة الأعراف ما كلف من أهر السحرة وموسى ..
 قال تعالى :

« قالوا : يا موسى : أما لن تلقى وأما لن تكون نحن الملقين . قال : اقنوا ،
 فلما تلقوا سحرهم أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .
 ولوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون . . فوقع
 الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هناك وانتقبوا صالرين .
 وألقى السحرة ساجدين . قالوا : أما برب العالمين . رب موسى
 وهارون . قال : فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم . إن هذا لكم
 مكرموهم فاعترفوا بشكرهم . فخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لا تطعن
 أبديكم وأرجلكم من خلاف ثم لا أضيفكم لكم . قالوا : أنا إلى ربنا
 منتقلون . وما تقم مما إلا أن آمنا بأيات ربنا لما جاءتنا . ربنا افرغ
 علينا صبرا وتوفنا مسلمين » (١) .

انقلب السحرة المصريون إلى الاسلام الذي جاء به موسى . .

آموا بالله . . وسعدوا بهم إلى جدوع اتخذ لصيقا
 وأرسلهم ، وهم يسألون الله أن يتوفاهم مسلمين
 فمات عليه السلام : « هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك
 في الجنة » .

لم يكد العصر يدخل حتى كانت أجسام السحرة
 متولها كانت أجسادهم تشخب بما وهى بصلوبة يشنها جنود الفرعون
 بالمسهم القوية .

انكفأ فرعون على مشكلته الجديدة .

مدات سلسلة اجتماعات خطيرة في قصره
 واستدعى المسئول عن الجيش
 والبوليس ، واستدعى — ما نسبته اليوم — مدير الاستخبارات ، واستدعى
 الوزراء والأمراء والكهنة وراح يستدعى كل من يملك قوة للتأثير في سير
 الحوادث ، أو يتصور أنه يملك هذه القوة .

سأل الفرعون مدير استخباراته : ماذا يقول الناس ؟

قال : نشر رجالي بينهم أن كسب موسى لهيمنة كان مؤامرة دبرها معه
 كبير السحرة . وقد تم اكتشاف المؤامرة التي يعتد أن جهات مجهولة تمويلها .

سأل الفرعون مدير البوليس : ماذا تم في جثث السحرة .

قال : ملقها رجالي في الميادين العامة والأسواق لأرهاب الناس . ونحن
 نسمع أن الفرعون يقتل كل من له علاقة بالمؤامرة .

سأل الفرعون قائد الجيش : ماذا يقول الجيش ؟

قال : يقتنى أن تصدر له الأوامر للحركة في أي اتجاه يحدده الفرعون .

قال فرعون : لم يأت نور الجيش بعد ، سبأني دوره .

(١) آيات من ١١٥ إلى ١٢٦ مكية .

سكت فرعون .. ونحرك هامان كبير الوزراء ورفع يده يطلب الكلمة .
سمح له فرعون فقال هامان :

— هل مسترك موسى وقومه ليهضدوا في الأرض ويتركوا هبلتك .

قال فرعون : انت تقرا انكاري يا هليل . مستنقل ابناءهم وسلاحهم
نساءهم وانا موتهم قاهرون .

اصدروا التعليمات بذلك . وانطلق رجال الفرعون يقتلون الاناء ويستهبكون
النساء ويسجنون من يحرض .. ووقف موسى يشهد ما يحدث دون أن يملك
التدخل أو يقوى على دفعه .. كل ما فعله انه أمر قومه بالقصر . أمرهم أن
يستمتنوا بالله ويصبروا على الحنة . ضرب لهم مثلا بالسحرة المصريين الذين
احتلوا في الله ما احتلوه بغير شكاة . انهيمهم أن حنود فرعون يصرمون
في الأرض كما لو كانت الأرض ملكا خالصا لهم ، غير أن هذا ليس صحيحا ..
سيرت هذه الأرض من بتقى الله .. واتشاع أروهاب الفرعون في نفوس بني
اسرائيل روحا من الانهرام والتشاؤم . وقالوا لموسى : لودينا من قبل أن
تاتينا ومن بعد ما جئتنا . كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك اليها . كأنهم
يقولون له أن وجودك لا يؤثر في شيء .. نهض وحسنا قهيا .. ورد موسى
جهلهم وانهمم أن الله سيهلك عدوهم ثم يستخلصهم في الأرض غيرى كيف
يسلوا .. مير انهم استمروا على شكيتهم وبلديهم .

وبدا موقف موسى صعبا .. انه يواجه غضب الفرعون ومؤمراته ،
وتدمير قومه في نفس الوقت . ووسط هذه الظروف تحرك قارون . كان
قارون من أبناء اسرائيل ، كان من قوم موسى لبني حليم . أن ثرائه وظروفه
جعلاه أثرب طبخيا وعاطفيا الى نظم الفرعون . يحدثنا انه من كنوز قارون
يقول — سبحانه وتعالى — أن مفتاح الصحرات التي تضم الكنوز ، كان
يصعب حملها على مجموعة من الرجال الأثداء . ولو مرفعا عن مفاتيح
الكنوز هذا الحال ، فكيف كانت الكنوز ذاتها . كان لقارون عدد عظيم من
الهيل والمركبات والرجال والحرس ، وكانت مركباته مطعمة بالفضة والذهب .
وكانت سروج هيله المطعمة مصمومة من العلد المزين بالذهب والفضة
والبرونز والتحاس . وكان قارون إذا خرج في رفته ، ومضى موكبته تحت
الشمس ، تلالا الذهب والتحاس تحت أشعة الشمس ، وحطفت الوهج أصوار
أهل الدنيا .. وكان طبعيا أن يملك قارون مع أمواله كبرياء لا يفلح معها
نصح . ويبدو أن ثرائه وكبرياءه أسلماه معا لاحتساب متصل بالفرح ، صارت
ضحكه أشهر ضحكة في بني اسرائيل ، وصار موكبته أشهر المراكب بمد
موكب الفرعون وموكب هامان . كان الاتسار يملكن مصر كلها ، ولم يكن
قارون يملك غير جزء من مصر على أي حال .

ويبدو أن العقلاء من قومه مصحوا أن يفكر قليلا في آخرته ، ولعلهم قالوا
له : أن أحدا لا ينصحك بترك الدنيا كلها والاضراط في سلك الراهدين . انها
نصحوه ألا ينسى نصيبه من الدنيا ، وكان هذا النصح مأهودا به ولا حاجة
اليه ، كما مصحوا ألا ينسى نصيبه من الآخرة . ويبدو أن قارون اكتفى بنصيبه
من الدنيا ، وألوهيه عقله في هذا الثراء حاده بسبب علمه ، كما ألوهيه تراءه
أن الله يصمه . وذهبت به الظنون الى انه أفضل من موسى .. أن موسى مقهر
وقارون شديد الثراء . كيف يكون المقبر الذي لا يرتدى لثورة واحدة من

الذهب ، الفضل عند الله من الفنى الذى يصنع سروج خيله من الذهب . هكذا اتفق قارون مع فرعون فى مظهره الى موسى . . وكان فرعون يحكم على الأفراد من واقع ثرائهم المادى ، كذاب الجاهلين . (هَذَا الَّذِي هُوَ مَعِينٌ وَلَا يَكُنْهُ يَبِينُ) كانت هذه كلمة فرعون عن موسى . . اتفق رأى فرعون وقارون بالنسبة لموسى . . وكان قارون يحكم مركزه وثرائه صديقا لفرعون ونظام حكمه . ويبدو أن قرون وفرعون وهامان لم يكونوا وحدهم سحاة هذا الوهم ؛ كان قوم فرعون . . اى المصريين ينظرون الى موسى نظرتهم الى ساحر هزم سحرتهم . . ولا يعنى هذا أن مصر اجدبت او خلت من الفضل ، كل فى المصريين من يؤمن بموسى ، ويخفى اياته خشية بطش الفرعون . وكان من قوم موسى من ينظر الى موسى وقارون ويتأرن بينهما . وكان هناك من يتسائل ببلاهة : اذا كان الله يحب موسى حقا فلماذا جعله مقبرا ، ويبدو أن قارون كان غتة لقومه ، وللمصريين على السواء .

كل اذا خرج لى زينته قال الدين يريدون الحياة الدنيا :

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ، اِنَّهُ لَفُضِّلَ عَظِيمًا) [٢١] .

وكان العقلاء — رغم قلتهم — يرون أن ثراء قارون العظيم لا يعنى شيئا فى ميران الله . لا يرى الله الفضل فى الذهب والكتوز والالاء والخمر والملبسية ، اذا كانت النفوس قد اظلمت من الداخل .

وكان موقف موسى سببا وسط هذه الظروف كلها .

وفى هذه اللحظات الحرجة ، تحرك قارون ضد موسى . كل موسى — كنبى — رجلا يتصف بالمقاء العظيم . ويبدو أن قارون اتفق مع فرعون على مجنونة استنطاع موسى فى عبوس الشاعة ، عن طريق اتهامه بتهمة ثقل بالنقاء .

وهكذا فوجيء موسى يوما وهو يقف وسط قومه ، ويدعوهم الى الله ، فوجيء بالمرأة يعنى نقدته بتهمة مؤداها انه كلن فى ثرائها امس .

ونحسب أن موسى فوجيء بهذه التهمة ، ولم يحرف ماذا يقول فيها ، او كيف يدفع عن نفسه اتهام البغى . . واقلب الظن انه صلى لله ثم اتبل عليها فسألها لماذا اتهمه بها لم يحدث ، وانهارت المرأة باكىة مستغفرة تعذته أن قارون أعطاها نقودا مقابل الصاق هذا الاتك بموسى .

ودعا موسى على قارون . .

وشاء الله تعالى أن تقع معجزة تضع الامور فى اماكنها الصحيحة وتبين للناس أن الله هو القاهر القاهر ، وأن المال غتة وليس فضلا تقاس به لقدار الساس .

وكانت هذه المعجزة هى خسف الله لقارون وداره وكثوره .

خرج قارون على قومه فى زينته . . فانشقت الارض تحت قدميه وهوى لى الارض . لا يعرف اكان ذلك زلزالا ينتظر منذ خلق الارض لحظة ميلاده ليقع ، او كان ذلك زلزالا امراء الله أن يقع فى هذه اللحظة . . كل ما نعرفه أن

[١] الآية ٥٢ من سورة الرعد مكية .

[٢] من الآية ٧٩ من سورة القصص مكية .

الأرض انتشلت وانطعت قارون .. وانطعت معها أرضه وتصوره وماتته
 وذبحه وفطسته وكقوزه ورجله .. وتقول بعض الأساطير أن ملكه كان
 في النجوم . ولي بحيرة قارون التي يعرفها المصريون بهذا الاسم .. كتبت
 هي بوضع أرض قارون وتصوره وكقوزه .. وعلى أي حال .. أن النص
 القرآني لا يحدد بكل هذا الصنف ، ولا يحدد زمانه .. لذا يحكى ما وقع
 فصب .. وليس تحديد المكان أو الزمان يضيئ شيئا إلى جوار البحيرة
 المستطعة بيا حدث .

قال تعالى في سورة القصص :

« أن قارون كان من قوم موسى فعلى علمهم ، واتبعوا من الكفر ما أن
 معاناه لقوم بالعصية أولى القوة ، إذ قال له قومه : لا نخرج ، أن الله
 لا يحب الفرجين . وأبغى فيها أنك الله الغار الآخرة ، ولا نسي نصيبك
 من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا نبغ القصد في الأرض
 أن الله لا يحب المفسدين . قال : إنما توبته على علم عبي ، لو لم يعلم
 أن الله قد أحاط به قبله من القرون من هو أشد به قوه وأكثر جبراً
 ولا يسأل عن أمرهم المجرمون . فخرج على قومه في زينته ، قال
 الذين يريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثل ما لوتى قارون ، أنه
 لا هو حذو عظيم . وقال الذين آمنوا العلم : ويلكم ، لو أب الله خير لمن
 آمن وعمل صالحاً ، ولا يظلمها إلا الصابرون ، ففسخها به ومداره
 الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من
 المنصرين . وأصبح الذين آمنوا مكانه بالآسي يقولون : ويكأن الله
 يمسك الزلزال أن ينشأ من عباده ويغير ، لو أن من الله عليها لفسخه
 بنا ، ويكفنه لا يطلع الكافرون . تلك الغار الآخرة نعمتها الذين
 لا يريدون علواً في الأرض ولا مصلحاً ، والمثابة البقطن (١) .

ولقد كثير من القدماء ليل هذا العلم الذي لدى قارون أنه قد لونه .
 قال بعضهم أن هذا هو علم الكهنة الذي يتحول سببه المجلس إلى ذهب ،
 وقال بعضهم أنه كان يعرف اسم الله الأعظم ، فاستعمله في تحويل المواد إلى
 ذهب . وأكثر عليه الحفلاء من القدماء أن يعرف اسم الله الأعظم ، وهو
 منقذ ، كما تكروا عليه صممة الكهنة .. ونسب أن هذا كله أساطير
 لا صلاح لتفسير لسبب ثرائه ، معتقد أنه كل رجل ظالم ، ورث غشياً
 واسمه لاستعملها في تشبه لروحه ، ولا بأس بعمل غير مشروع هنا لو هناك ،
 ولا بأس من صداقة الفرجين والمصالحات التي تتجها بكل هذه الصداقة .
 ولا بأس من الوقوف عند موسى ، إذا خلى فلك ينفق مع المصلحة .. ولا بأس
 من ظلم هنا وظلم هناك .. بعدها يكون من المنطقي أن يقول أنه لو أن
 على علم عده .. لقد أهدأ أنرجل نفسه في الكتب والظلم حتى سمع لروحه .
 أن الاعتراف عن الإيمان بالله .. ولو شعرة واحدة .. ينمى بالأسفل إلى
 كبرياء تضرب معها الحقائق ، ونهبط الأمور ، ويسبح الإدماء الكلاب
 شيئاً بنطقها ومعهوماً ولا حاجة لتطليله ..

لم يكن خفف قارون بهم ، حتى ارتفعت رؤوس المؤمنين بسوسى وانتشع
 فيهم بعد طول استيلاء .

(١) الآية من ٧٦ إلى ٨٢ مكية .

عليه المصريون وابناء اسرائيل هذه المحزنة . وهذا الصراع بين موسى وفرعون يصل الى ذروته .. وأيقن فرعون أن موسى يهدده في ملكه ..

كأن موسى — مثل كل الأنبياء — يحمل برسائله حكما بالاعدام على شرور عصره ومراكز القوة الطاغية .. واتحدت شرور العصر في قصر الفرعون .. وهناك طرح فرعون مصر فكرة قتل موسى ..

كان فرعون قد صار الى اقتناع بأن قتل موسى هو الكيل لحل مشكلته ..

« وقال فرعون : فرونى قتل موسى ولأبدع ربه ، أتى أخاك أن يبدل دينكم لو أن يطهر في الأرض المساء » (١) .

سنلاحظ أن فرعون يرتدى بسوح الداعين الى الحق ، أنه يختص لنفسه مهام الأنبياء ، ويحالف على الناس أن يضلهم موسى .. وهو يقترح على وزرائه وكبار رجاله أن يتركوه يقتل موسى .. والمفهوم الطبيعي أنه لن يقتل موسى بيديه ، وإنما هو يطرح فكرة قتله أسلهم ، لتقوم سلطات الدولة بتنفيذها . ونعتقد أن هلمن حذ الفكرة ، وتكونت جهة من المناهقين الذين يؤيدون فكرة الفرعون .. كانت الفكرة تحصل على التصديق ، لولا رجل من آل فرعون .. رجل من رجال القوة الكبار ، لا يذكر القرآن اسمه ، لأن اسمه لا يهم ، لم يذكر صفته أيضا لأن صفته لا تعنى شيئا . إنما ذكر القرآن أنه رجل مؤمن .. ذكره بالنسبة التي لا قيمة لصفة بعدها . تحدث هذا الرجل المؤمن ، وكان يكتم أوبقته ، تحدث في الإجتياح الذي طرحته فيه فكرة قتل موسى وأثبت علم الفكرة وسطحيتها . قال أن موسى لم يقل أكثر من أن الله ربه ، وجاء بعد ذلك بالادلة الواضحة على كونه رسولا ، وهناك احتمالا أن ثالث لهما ، أن يكون موسى كاذبا ، أو يكون صادقاً ، فإذا كان كاذبا فعليه كذبه ، وهو لم يقل ولم يفعل ما يستوجب قتله . وإذا كان صادقا وقتلته ، فما هو الضمان من نجاةنا من العذاب الذي يحلنا به . تحدث المؤمن الذي يكتم أيقته فقال لقومه : إنما الميهم في مراكز الحكم والقوة ، مثلما كان قيسرون بالأمس في مركز الثراء والقوة ، ثم أصابه ما أصابه .. من ينصرنا من بأس الله إذا جاء ، ومن ينقلنا من عقوبته إذا حلت .. أن أسراهما وكذبنا قد مضى . وبدت كلباته مقبسة .

أنه رجل ليس متبها في ولائه للفرعون .. وهو ليس من اتباع موسى .. والمفروض أنه يتكلم بدافع الحرس على مرئى الفرعون .. ولا شيء يسقط العروش كالكتب والإسراف وقتل الإبرياء .

ومن هذا الموضع استبحت كلبات الرجل المؤمن قوتها .. بالنسبة الى فرعون ووزرائه ورجاله ..

ورغم أن فرعون وحد فكرته في قتل موسى ، صريحة على المثدة ، رغم تخوف الرجل المؤمن للفرعون .. رغم ذلك قال الفرعون كلبته التاريخية التي ذهبت مثلا بعدة لكل الطغاة .

« قال فرعون : ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيلا للرشاد » (٢)

(١) الآية ٢٦ من سورة غافر مكية .

(٢) من الآية ٢٦ سورة غافر مكية .

هذه كلية الطغاة دائما حين يواجهون شعوبهم .. ما أريكم إلا ما أرى .. هذا رأينا الحاصل . وهو رأى يهديكم سبيل الرشاد . وكل رأى ميره خاطيء .. وينبئى الوقوف ضدّه واستنساله .

حدثنا الله عن هذا الموتى في سورة غافر .

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : اتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ، فمن ينصرنا من بلى الله أن جاءنا ؟ قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » [١] .

لم تتوقف المناقشة عند هذا الحد ..

قال فرعون كلمته ولكنه لم يفتح بها الرجل المؤمن .. وعاد الرجل المؤمن يتحسب :

« وقال الذي آمن يقوم : أتى أخاك عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل داب قوم نوح وعاد ولهمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد . ويأتى أخاك عليكم يوم التنگ . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم : لن نبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتفقم . كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » [٢] .

ملاحظة في هذا الحديث اختلافا من الحديث السابق .. ان الرجل المؤمن يفرس في حديثه الأخير في أمثاق التاريخ ، وهو يقدم لفرعون وقومه أدلة كافية على صدق موسى .. وهو يحذرهم من الساس به . لقد سمعتم أمم ككبرت برسائها ، فاهلكها الله . قوم نوح ، قوم عاد ، قوم ثمود .. لمدا نذهب بعيدا . ان تاريخ مصر فيه الدليل على صحة قوله ، لقد جاء يوسف بالبينات فشك فيه الناس ثم آمنوا به بعد أن كانت النجاة تفلت منهم ، ما هي العرامة في إرسال الله للرسول ؟ .. ان التاريخ القديم ينبئى أن يكون موضع نظر . لقد انتصرت القلة المؤمنة — هي أصبحت مؤمنة — على الكثرة الكافرة .. وسحق الله تعالى الكافرين . أغرقهم بالطوفان ، وصعقهم بالصرح .. أو خسف بهم الأرض .. ماذا سطر أس ؟ ومن أين تعلم أن وقوفنا وراء الفرعون لن يضمننا وبهلكنا جميعا ؟ كان حديث الرجل المؤمن المثقف ينطوى على مدد من التحذيرات المحبلة .. ويبدو أنه ألقع العاصرين بأن فكرة قتل موسى فكرة غير مأبونة المواقب .. وبالتالي فلا داعى لها .. بعدها حاول أن يلهمهم الى الحق الذى جاء به موسى .. إنه ينتقل من التلميح الى التصريح .. الى الجهر بالحقق .

(١) الآية ٢٨ ، ٢٩ من السورة .

(٢) الآيات ٢٠ الى ٣٥ من السورة .

« وقال الذي آمن : يا قوم : اتبعون اهدكم سبيل الرشاد . يا قوم :
لما هذه الحياة الدنيا متاع ، ولن الآخرة هي دار القرار . من عمل
سبيحة فلا يحزى الا مثله ، ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهو
مؤمن فلنؤتاه فلهذا يدخلون الجنة .. يرزقون فيها بغير حساب » (١) .

انتهى الامر وانكشف ايمان الرجل المؤمن .. انكشف انه مؤمن لم يعد
يكنم ايمانه . أعلن ايمانه في نهاية الحديث صراحة .. قال :

« ويا قوم : مالي اهدوكم الى النجاة وتدعونني الى النار . تدعونني
لا كفر بالله واترك به مالي لي به علم ، وانا اهدوكم الى العزيز
الغفار . لا جرم ان ما تدعونني اليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في
الآخرة ، وان مردنا الى الله ، وان المشرفين هم اصحاب النار .
ستفكرون ما اتول لكم ، وانفوس امري الى الله ، ان الله بصير
بالعباد » (٢) .

أنهى الرجل المؤمن حديثه بهذه الكلمات الشجاعة .. بعدها انصرف ..
انصرف فتحول الجالسون من موسى اليه .. بدلوا يسكرون له .. سداوا
بحديثون عما صدر منه .. ايدرج هذا تحت حياته المعطى للنظام أم لا يندرج
.. لقد أنهم فرعون ووزراءه بأنهم سيهلكون في النار . نحسب ان الله أرسل
هذا الرجل المؤمن من رحل فرعون ، ليشغل فرعون عن موسى . يكشف سياق
النس القرآني ان هذا الرجل .. يمثل المتقين المصريين الذين كتوا ويعلمون
التاريخ ويحللونه ، ويملكون قدرة على ربط الاحداث ومعركة الاسباب
واستخلاص النتائج .. ثم تهديهم عقولهم الى الحق .

وقد اشغل فرعون بهذا الرجل عن موسى فترة . كل الرجل المؤمن من
أهل فرعون . قريبه واحد رجل دولته ، وايمانه يحمل قصر الفرعون يبدو
متقسما بالنسبة لموسى .. وهو يحض انتصارا عظيما لموسى . وقتله قد
يشير طمعة المتقين المصريين — بوصفه واحدا منهم — وهكذا واجه فرعون
مشكلته المستحيلة الحل .. ان قتل الرجل المؤمن غير مأمون العاقبة، والانتقام
عليه غير مأمون العاقبة .. وراحوا يسكرون له ويدبرون .. وتدخلت نهاية
الله تعالى « فواته الله سبغت ما مكروا وحاق بال فرعون سوء العذاب » .

انشغل فرعون فترة بهذه القضية الجديدة . فبر أنه لم يتنازل عن كبريائه
وبرسل بني اسرائيل مع موسى . ظل على عذابه وتفسيره لهم واستحياته
للنساء وقتله للإتساء .

وشاء الله تعالى ان يثدد على آل فرعون .. ابتلاء لهم وخسوف ، ولكي
يصرفهم عن الكيد لموسى والرجل المؤمن ، واشتد لنوبة موسى وسدته في
نفس الوقت .

وهكذا سلط الله على المصريين امواج الجندب .

أحدث الأرض وشح النيل ونقصت الثمار وارتفعت الأسعار وجاع الناس،
واشتد القحط وأخذ بخلق الأمة المصرية .

(١) الآيات من ٢٨ الى ٤٠ سورة طه مكية .

(٢) الآيات من ٤١ الى ٤٤ سورة طه مكية .

ومن المعروف أن هذه العقوبة تصيب الناس دائما حين ينصرفون عن الإيمان والفتوى .. يقول الله تعالى في محكم كتابه في سورة الأعراف :

« ولولا أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » [١] .

انطبق القانون القديم على أهل مصر لمسيين :

وتوقعهم موتف المتفرج من قتل السحرة ..

ووتوقعهم موتف المتفرج من طعيل هاكمهم ..

ومن المدهش أن قوم فرعون أرجعوا هذا الجذب والقحط والجوع إلى سبب عريب ، قالوا أنهم تشاءموا من موسى .. أن ما أصابهم من جوع وعقر ومقتى في الثمرات أصابهم بسبب وجود موسى بينهم .

واشدد ظلمهم واشدد مدحهم من أنراك الحق ، فاعتقدوا أن سحر موسى هو المسئول عما أصابهم من قحط . وصور لهم حقيقتهم أن هذا الجذب الذي أصاب أرضهم ، آية جاء بها موسى ليسحرهم بها ، وهي آية لن يؤمنوا بها . ومن المفهوم ضيقنا أن هذه لم تكن أنكار العامة من الناس ، أسا هي أنكر الطبقة الحاكمة التي أشاعت هذا الرأي ، وروحت له ، فردده الناس بعد ذلك .. ولقد استتبع بغاء الصراع واستداد ، أن يحاكمهم الله تعالى ويشدد عليهم أكثر وأكثر .

قال تعالى :

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وأن تصيبهم سينة بطروا بموسى ومن معه ، إلا أننا ظلمهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقلوا : مهما نتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » [٢] .

شدد الله عليهم مع اختلاف الأساليب لعلهم يرجعون إلى الله ، ويطلبون بنى إسرائيل ويرملونهم معه .

أرسل عليهم الطوفان ، بعد سنوات الجذب الجديدة جاءت سمة قاضي فيها الليل وأمرق الأرض فاستعالت المراعاة . وبعد أن كان عذابهم وجوعهم يضع من قلة المياه ، نبع عذابهم وجوعهم هذه المرة من زيادة المياه .. وهرموا إلى موسى ..

كانت المشكلة تستدعي تدخله .

« قالوا : يا موسى : ادع لنا ربك بما عهد عندك لن نكشف عنك الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل » [٣] .

(١) من الآية ٦٦ سورة الأعراف مكة .

(٢) الآيات ١٢٠ إلى ١٣٣ سورة الأعراف مكة .

(٣) من الآية ١٣٤ سورة الأعراف مكة .

ودعا موسى ربه فكشف عنهم عذاب اشراق الأرض . توقف تدفق المياه وشربت الأرض مائها وعادت صالحة للزراعة . وطلبهم موسى بتحقيق وعدهم له بإطلاق سراح بني إسرائيل ، فلم يجيبوه .

ووقعت آية الجراد ..

أرسل الله أسرابا من الجراد حطت على الزروع والثمار ، فلما طارت منها كانت الزروع والثمار قد اختلفت . أكل الجراد طعام المصريين فهرعوا الى موسى يسألونه أن يدمو ربه فكشف عنهم هذا العذاب .. وسوف يرسلون معه بني إسرائيل هذه المرة . ودعا موسى ربه فكشف عنهم العذاب ورحل الجراد عائدا من حيث جاء .. وعافوا يزرعون الأرض .. وطلبهم موسى بإطلاق سراح بني إسرائيل فراحوا يبطلونه ، حتى نكد انهم ليسوا بجادين في وعدهم له .

ووقعت آية القمل ..

انتشر القمل بما يحمله من أمراض .. وتكرر لجوؤهم الى موسى وتكررت وعودهم له وتكرر دعائه له .. وتكرر اخلاصهم لوعدهم .

ثم وقعت آية الضفادع .. امتلأت الأرض بالضفادع فجاء .. كانت تتوالى في أطعمة المصريين وتشركهم بيوتهم وترجعهم اعظم الازحاج .. وذبحوا الى موسى ووعدوه لسأل ربه فكشف عنهم ماخلفوا وعدهم .

ثم وقعت آخر الآيات وهي الدم .

تحولت مياه النيل الى دم لا يستطيع أن يشربه أحد ..

ونلاحظ أن الآيات السابقة كانت آيات من النوع المتوقع في بيئة زراعية تقوم حياتها على النهر .. فميتا أو أجمتا .

إن نقص مياه النيل أو زيادته أو هجوم الجراد أو القمل أو الضفادع .. هذه كلها أمور ليست جديدة على المصريين .. الجديد هو وقوعها بهذا العنف المفاجئ ، واختلافها بنفس العنف المفاجئ .

أما آخر الآيات فكانت من لون لم تالفه البيئة المصرية .. كانت آية تكبر من كل ما سبقتها من الآيات .. تحولت مياه النيل الى دم .. وتم هذا التحول بالنسبة للمصريين وهدم ، فكان موسى وقومه يشربون مائها عادية وكان أي مصري يبلا كأسه ليشرب ، يكتشف أن كأسه ملوئ بالدم .

واهتز المصريون كما اهتز قصر الفرعون أمام هذه الآية الرهيبة الجديدة .

وهرعوا الى موسى يتوسلون اليه أن يدمو ربه وسوف يطلقون سراح الاسرائيليين هذه المرة .

ودعا موسى ربه فاكشف العذاب عن المصريين ، ورغم ذلك رفض قصر الفرعون أن يسمح له باصطحاب قومه والرحيل .

على العكس من ذلك .. اشتد الفرعون صلابة وقحة .. وأعلن فرعون في نومه أنه اله .. ليس له ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحته ، أعلن

ان موسى ساحر كاذب .. ورجل فقير لا يرتدى اسورة واحدة من الذهب .
قال تعالى في سورة الزخرف :

« ولقد ارسلنا موسى باياتنا الى فرعون وملئه ، فقال : انى رسول رب العالمين . فلما جاءهم باياتنا اذا هم منها يضحكون . وما يريهم من آية الا هي اكبر من لفتها ، واخذناهم بالعذاب لمعلمهم يرحمون . وقالوا : يا ايها الساحر : ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمنتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكتون . ونادى فرعون فى قومه قال : يا قوم : اليس لى ملك مصر ؟ وهذه الأنهار تجري من تحتى ، أفلا تبصرون ؟ لم آتكم من هذا الذى هو موعن ولا يكاد يبين . فلولا لطفى عليه اسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فلطاعوه ، انهم كانوا قوما فاسقين » [١] .

انظر الى التعبير القرآنى

— فاستخف قومه .. فلطاعوه .

استخف بمقولهم . واستخف بحريتهم . واستخف بمستقبلهم . واستخف بأديبتهم .. فلطاعوه ..

الليست هذه طاعة غريبة .. فتضحى العرامة حين تعلم انهم كانوا قوما فاسقين . ان الفسق يصرف الإنسان من الالتفات لمستقبله ومصالحه واموره ، ويورده الهلاك . وذلك ما وقع لقوم فرعون .

يقول تعالى :

« فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم اجمعين . فجمعناهم سلفا ومثالا للآخرين » [٢] .

بدا واضحا ان فرعون لن يؤمن لموسى .. ولن يكف من تصفيه لبنى اسرائيل ، ولن يكف من استخفافه بقومه ..

هناك دعا موسى وهارون على فرعون ،

« وقال موسى : ربنا انك اتيت فرعون وملأه زينة واموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على ابوالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم . قال : قد اجيبتم دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » [٣] سورة يونس .

وجاء الاذن لموسى بالخروج من مصر واسطحاب قومه معه .

وكان موقف قومه غريبا .. لم يؤمن كل قومه بعد . قال تعالى في سورة يسوس :

(١) الايات من ٤٦ الى ٤٢ مكية ١١٤ مكية .

(٢) الآية ٥٥ سورة الزخرف مكية .

(٣) الايات ٨٨ ، ٨٩ مكية .

« فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم
ان يفتنهم ، وان فرعون لعالى فى الأرض ، والله لئن لمصرين » (١) .

انتهى الأمر وقرر الله وضع حد لجرائم فرعون بعد ان أملى له . صدر
الأمر لموسى بالخروج . . واستلذ بنو اسرائيل فرعون فى الخروج الى
لهم ، فانس لهم وهو كاره . وتجهزوا للخروج وتأهبوا له ، وحملوا معهم
خيلهم واستعاروا من حلى المصريين شيئا كثيرا . . وجاء الليل عليهم فقتلهم
موسى وسار بهم نحو البحر الأحمر قاصدا بلاد الشام . وتحركت رسل
فرعون ومخبرائه ، وبلغت الأخبار فرعون ان موسى قد سحب قومه وخرج .

وارسل فرعون أوامره فى مدن المملكة لحشد جيش عظيم . . وساق
فرعون فى اسباب جمع الجيش هذه الحجة القوية . . قال ماقصص... كما
قال عز وجل فى كتابه :

« وانهم لما لفتاظون » (٢) .

لقد غاظنى موسى . . غاظنى شخصا . . وعددهم قليل . . وغفلنا عنهم
كثير . . وهى الحرب ابن . كان فرعون طامية صريحا . . لم يحلوا اخفاء
تواياه وراء كلمات كبيرة يقول مثلا ان أمن لمملكة مهدد ، او ان النظام
الاقتصادى يمكن ان يتعرض للانهيار لو خرجت كل هذه الأيدي العاملة
الرحيصة . . أبدا . . لم يقل ذلك واكتفى بالتصريح بأنه ممتاز . . لقد
غاضه موسى . . وهذا سبب كاف لحشد الجيش .

وصدق الناس فرعون للمرة الألف بعد كنه . . لم يمارسه أحد ، ولم
يلفت نظرة احد الى تناهة السبب الذى جمع له الجيش . . كان كبرياء فرعون
الشخصى هو الأمر الوارد . . وكان يكفى قلبا .

تحرك جيش فرعون فى أمته وعظيته وسلاحه وخرج وراء موسى . .
جلس فرعون فى مركبته الحربية يقابل الجيود حوله ويستسم . .

ماذا لو أنه فعل ذلك من أول لحظة وانتهى من موسى وقتله . .

على أى حال . . هـ هو فى طريقه لقتل موسى وانهاء المشكلة كلها . .

وقف موسى أمام البحر الأحمر . .

من بعيد . . ثار غبار قوى يشى بأن جيش الفرعون يقترب . . بعدها
ظهرت اعلام الجيش . . وامتلا قوم موسى بالترعب . كل الموقف حرجا
وحظيرا . . ان البحر أمامهم والعدو وراءهم وليست أمامهم قرصة واحدة
للقتل . . انهم مجموعة من النساء والأطفال والرجال غير المسلحين .
سيدبهم فرعون عن آخرهم . . صرحت بعض الأصوات من قوم موسى

— سيدركنا فرعون .

قال موسى — كلا . . ان معى سيهين .

(١) الآية ٨٢ من سورة يونس مكية .

(٢) الآية ٥٥ من سورة الشعراء مكية .

لا تعرف كيف كان موسى يحس أو يلمح ما تعهد .. غير أنه لم يكذب بلجأ
إلى الله بهذه الثقة ، حتى لوحي الله تعالى إليه أن يضرب بمعصاه البحر ..
لاحظ انعدام العسلة المتعلقية بين ظهور جيش فرعون ، وضرب البحر
بالعصا .. غير أن مشيئة الله تنفذ لأغرب الأسباب المتعارضة مع المنطق
البشري . لقد أراد الله تعالى أن تقع المعجزة .. فأوحى إلى موسى أن يضرب
بمعصاه البحر . كان ضرب البحر بالعصا مجرد « سبب » رتب عليه الحق
انشقاق البحر .. لم يكذب موسى برفع عصاه حتى نزل جبريل عليه السلام
إلى الأرض .

ضرب موسى البحر بمعصاه فانشق البحر نصفين .. انشق عن طسريق
صلب يابس من بينه الأمواج وعن يساره الأمواج .

وتقدم موسى قومه وسار بهم حتى عبر البحر .. كتبت المعجزة هائلة ..
إن الأمواج كتبت تسطرع وتطو وتهبط حتى إذا جاءت إلى الطريق بدت
كلن يدا خفية تمنعها من أن تفرقه لو حتى تبطله .

انتهى عبور موسى البحر مع قومه ..

ووصل فرعون إلى البحر .. شاهد هذه المعجزة .. شاهد في البحر
طريقا يابسا يشقه نصفين .. لمس فرعون بالخوف ولكنه زاد في عناده
وأمر حريته العربية بالتقدم فتقدم الجيش وراءه ..

حين انتهى موسى من عبور البحر .. التفت إلى البحر وأراد أن يضربه
بمعصاه ليعود كما كان . ولكن الله أوحى إليه أن يترك البحر على حاله .
كان موسى يريد أن يفصل البحر بينه وبين فرعون لينجو قومه .. ولو أنه
ضرب البحر بمعصاه فعاد كما كان لنجا موسى ونجا فرعون .. وكان الله
تعالى قد شاء افراق الفرعون . ولهذا أمر موسى أن يترك البحر على حاله ..
أوحى إليه سبحانه « والترك البحر وهو » أنهم جند مفرقون (١) .

وصل فرعون بجيشه إلى منتصف البحر .. تعدى منتصفه وكاد يصل
إلى الضفة الأخرى .. وأصدر الله تعالى أمره إلى جبريل بحرك جبريل الموج

انطبقت الأمواج على فرعون وجيشه .

وغرق فرعون وجيشه .

غرق الضاد ونجا الأيمان بالله ..

ورأى فرعون وهو يفرق بمعه في النار .. لمرك وقد انكشف عنه
الحجاب ، وبخل في سكرات الموت ، أن موسى كلن صادقاً وأنه ضيع نفسه
بمعاداته وحربه .. وآمن فرعون .

قال تعالى :

« حتى إذا فكره الفرق قال : أمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به

بنو إسرائيل ، وقا من المسلمين (٢) .

وقد كانت توبته غير مقبولة ولا صحيحة . فهي توبة تجيء بعد معينة
المعذاب والدخول في الموت . قال له جبريل :

(١) الآية ٢٤ من سورة الدخان مكة .

(٢) الآية ٩٠ من سورة يونس مكة .

« الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » . {١}

بمعنى لا توبة ..

انتهى وقت التوبة المحدد لك وحلكت . انتهى الأمر ولا نجاة لك . سينجو جسحك وحده .. ستبوء وتغذب الأمواج جثتك الى الشاطئ . لتكون آية لمن خلفك .

« فاليوم ننهيك ببغتك لتكون لمن خلفك آية » ، وإن كثيرا من الناس من آياتنا لغافلون » . {٢}

كان ما وقع لفرعون تحقيقا لسنة لولية خلت في مباد الله .. لا ينفع الإيمان بعد العذاب . قال تعالى في سورة غافر .

« فلما راوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما راوا بأسنا » ، سفه الله التي قد خلعت في عباده وخسر هالك الكافرون » {٣} .

قص الله تعالى موقف المواجهة بين فرعون وموسى في قوله تعالى في سورة الشعراء :

« واولهنا الى موسى ان نمر بعبادى انكم مقبوعون » فرسل فرعون في المذائن حاشرين . ان هؤلاء لشرمة قبطون . وانهم لنا لافطون . وانا لجمع حانثون . فافرجناهم من جهات وعيون . وكنوز ومعلم كريم . كذلك واورثناها بني اسرائيل . فالتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال اصحاب موسى : لنا الحركون . قال : كلا ، ان معي ربي سيهدين . واولهنا الى موسى : ان اضرب بمصك البحر فتنطق مكان كل فرق كالطود العظيم . وارتضا ثم الآخرين . واتجينا موسى ومن معه اجمعين . ثم افرقنا الآخرين . ان في ذلك لآية ، وما كان اكثرهم مؤمنين . وان ربك لهور العزيز الرحيم » . {٤} .

اسدل الستار على طغيان الفرعون . ولغظت الأمواج جثته الى الشاطئ ..

لا نعرف على أى شاطئ لغظت الأمواج جثة الرجل الذى يدعى الألوهية .

الرجل الذى لم يمارضه أحد ! .

اغلب الظن ان الأمواج لغظت جثته على الشاطئ القريى .. مرآة المصريين ولذكوا أن الهمم الذى عبثوه وأطاموه كن عبدا لا يقدر على دفع الموت عن رقبته .

بعد ذلك .. نزل السفار تبارا على المصريين .. لا يحدثنا القرآن الكريم عما فعلوه بعد سقوط نظام الفرعون وفرقه مع حيشه . لا يحدثنا عن ردود فعلهم بعد أن نمر الله ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا به مشغولين وبشبهون .

{١} الآية ٦١ سورة يونس مكية .

{٢} الآية ٦٢ سورة يونس مكية .

{٣} الآية ٨٤ سورة غافر مكية .

{٤} الآيات ٥٢ الى ٦٨ سورة الشعراء مكية .

يستكت السباق القرائى عنهم .. ويستعدهم تماما من التاريخ والاحداث .
 وبلغت السباق الى موسى وهارون .. وماذا كان من لبر بنى اسرائيل
 معها .. لقد مات فرعون مصر .. غرق ايلم هيون المصريين وبنى اسرائيل
 .. ورغم موته ، فقد ظل اثره باقيا فى نفوس المصريين وبنى اسرائيل .

من الصعب على سنوات القهر الطويلة والذل المكثف ان تمر على نفوس
 الناس من الكرام .

لقد صنع فرعون فى نفوس بنى اسرائيل شيئا سنفركه من الآيات بعد
 قليل .. لقد هودهم الدل لنير الله . كسر فى نفوسهم شيئا من الداخل .

هرم ارواحهم ، فانطوا لسلن المهزومين على الاعجاب بمن هزمهم ..

انسد مسرتهم فعذبوا موسى عذابا شديدا بالساد والجهل ..

كانت معجزة شق البحر لم تزل طرية فى اذهنتهم .

كانت رمال البحر الرطبة لم تزل عالقة بفعل بنى اسرائيل ، حين مروا
 على قوم يعبدون الاصنام .. وبدلا من ان يظهروا استيائهم لهذا الظلم للمقل ،
 وعلموا الله ان عداهم للايمان بدلا من ذلك اذتموا الى موسى وطلبوا منه ان يجعل
 هم اله يعبدونه مثل هؤلاء الناس . وليس هناك أحد أحسن من أحد ..

ادركتهم الفيرة لمرأى الاصنام ، ورغبوا فى مثلها ، وعاودهم الحنين لايام
 الشرك القديمة التى عاشوها فى ظل فرعون ، ولقنهم موسى الى جهنم هذا .

قال تعالى :

وجاوزنا بنى اسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام
 لهم ، قالوا : يا موسى : اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال : أنكم قوم
 تجهلون . ان هؤلاء منبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يصلون . قال :
 افخر الله ابغيتكم الها وهو غفلكم على العالمين ؟ . واذا اتجنبتكم من آل
 فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم
 وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم . [١]

مار موسى يقومه فى سيناء .. وهى صحراء ليس فيها شجر يبنى من
 الشمس ، وليس فيها طعام ولا ماء .. وأدركتهم رحمة الله فساق اليهم المن
 والسلوى وظللهم القيلام .. والمن مادة يميل طبعها الى الحلاوة وتفرحها
 بعض اشجار الفاكهة ، حملت الرياح اليهم هذه المادة مغلطة ق أوراق الشجر .
 وساق الله اليهم السلوى وهو نوع من أنواع الطيور يقتل أنه « المسبان »
 وحين اشتد بهم الظمأ الى الماء ، وسيناء مكن يخلو من الماء ، ضرب لهم موسى
 بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا من المياه .. وكان بنو اسرائيل
 ينقسمون الى ١٢ سبطا . فامرسل الله المياه لكل مجموعة . ورغم هذا الاكرام
 والحفاوة . تحركت فى النفوس التواءاتها المريضة .. واحتج قوم موسى
 عليه بانهم سئوا من هذا الطعام ، واشتاتت نفوسهم الى النمل والنوم
 والقول والعفس ، وكانت هذه الأطعمة اطمية مصرية تقليدية .. وهكذا

(١) الآية من ١٢٨ الى ١٤١ سورة الاعراف مكية .

سأل بنو إسرائيل نبيهم موسى أن يدعو الله ليخرج لهم من الأرض هذه
الطعام .

وعاد موسى يلفتهم الى تللمهم لانفسهم ، وحينئذ لايم هوانهم في مصر ،
وكيف انهم يتبطرون على غير الطعام واكرمه ، ويريدون بدله اثنى الطعام
ولسواء .

تسلسال تعالى في سورة البقرة :

« واذا قلتم يا موسى : ان نصبر على طعام واحد ، فادع ثارا ربك يفرج
لنا مما تنبت الأرض من بقلا وقتاتها وخرمها وعدسها وبصلها ، قال :
لتنسبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير ؟ اميطوا مصرا فان لكم
ما سئلكم » (١)

.....
.....

سار موسى بقومه في اتجاه بيت المقدس ..

امر موسى قومه بدخولها وقتال من فيها والاستيلاء عليها .
ها قد جاء امتعاتهم الاخير .. بعد كل ما وقع لهم من المعجزات والآيات
والخوارق . جاء دورهم ليحاربوا .. بوصفهم مؤمنين .. قوما من عبدة
الامتنع ..

ورفض قوم موسى دخول الأرض المقدسة ،

وحدثهم موسى عن نعمة الله عليهم . كيف جعل نبيهم أنبياء ، وجعلهم
ملوكا يرثون ملك فرعون ، وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين .

وكان رد قومه عليه أنهم يخافون من القتال . قالوا : ان فيها قوما حبارين ،
ولن يدخلوا الأرض المقدسة حتى يخرج منها هؤلاء .

وانضم لموسى وهارون اثنان من القوم .. تقول كتب القدماء أنهم خرجوا
في سبائة الف .. لم يجد موسى من بينهم غير رجلين على استعداد للقتال
.. وراح هذان الرجلان يحولان اقناع القوم بدخول الأرض والقتال ...
قالا : ان مجرد دخولهم من الباب سيحمل لهم النصر . ولكن بنى إسرائيل
جيبها كانوا يتدنثون بالجن ويرتعشون في أعينهم ..

مرة اخرى تعاودهم طبيعتهم التي عاودتهم قبل ذلك حين رأوا قوما يمكنون
على أصنامهم .. لمسحت فطرتهم ، وانهزموا من الداخل ، واعتلوا النمل ،
فلم يجد في استطاعتهم أن يحاربوا .. وان مقى في استطاعتهم أن يتوتحوا
على نبي الله موسى وربه ..

وقال قوم موسى له كلتكم الشبهة :

« اذهب انت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون » [٢]

هكذا بصراحة وبلا التواء .

(١) من الآية ٦١ من سورة البقرة مخفية .
(٢) من الآية ٢٤ من سورة المائدة مخفية .

أدرك موسى أن قومه ما عادوا يصلحون لشيء . ملت الفرعون ، ولكن آثاره في النفوس باقية بحاجة شفاؤها لفترة طويلة . عاد موسى إلى ربه يحدثه أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه . . دعا موسى على قومه أن يفرق الله بينهم وبينهم . .

وأصدر الله تعالى حكمه على هذا الجيل الذي غسدت فطرته من بني إسرائيل . . كان الحكم هو التيه أربعين عاماً . . حتى يموت هذا الجيل أو يصل إلى الشيخوخة . ويولد بدلاً منه جيل آخر ، جيل لم يهرمه أحد من الداخل ، ويستطيع ساعته أن يقاتل ولي يتصر .

قال تعالى في سورة المائدة :

« واذ قال موسى لقومه : يا قوم : انكروا نعمة الله عليكم ، اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ، وأماكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا تزنطوا على أفياركم فتتقلبوا خسرين . قالوا : يا موسى ان فيها قوماً جبارين وأنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يقاتلون اتعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا : يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . قال : رب اني لا أملك إلا نفسي وأخي ، هاترين بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، فلا تلس على القوم الفاسقين » [١] .

بدلت أيام التيه . .

بدأ المسير من دائرة مغلقة . . تنتهي من حيث تبدأ ، وتبدأ من حيث تنتهي .

بدأ المسير إلى غير مقصد . . ليلاً وبهلاً وصباحاً ومساءً .

دخلوا البرية عند صسيناء . .

عاد موسى إلى نفس المكان الذي التقى فيه بكلمات الله أول مرة . .

نزل بنو إسرائيل حول الطور وصعد موسى الجبل وحده . . وهناك أنزلت عليه التوراة . وكتبه ربه تعالى . .

فمن أن يصعد موسى إلى ميقات ربه ، استخلف أخاه هارون في قومه .

تركه مسئولاً عنهم ومضى إلى ربه .

قال تعالى في سورة الأعراف :

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممتناها بعشر ، فلم ميقات ربه لأربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون : اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المستدين » [٢] .

(١) الآيات من ٢٠ إلى ٢٦ سورة المائدة مدنية .

(٢) الآية ١٤٢ مكية .

قول القدماء أن موسى صام ثلاثين يوما ليلا ونهارا مبهر أن يفوق طعما قط . ثم كره أن يكلم ربه وريح فيه ريح هم الصائم ، لفتاؤل من ضات الأرض فيضغه ، فقال له ربه : لماذا لفطرت ، وهو أعلم بما كان . قال : أي رب ، كرهت أن أكلبك إلا وفسى طيب الريح . قال أوما علمت يا موسى أن ريح هم الصائم عدى أطيب من ريح المسك . أرجع نصم عشرة أيام ثم اتقنى . ففعل عليه السلام ما أمره ربه به ..

ونحن لا نعرف — معرفة يقينية — لماذا صام موسى أربعين ليلة بدلا من ثلاثين .

كل ما معرفه أن الله تعالى قد زاد على الثلاثين ليلة عشر ليال أخوي من الصوم وأنزلت التوراة على موسى . أنزلت عليه الوصايا العشر . وكانت هذه الوصايا العشر هي :

- ١ — الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له .
 - ٢ — التمس من الحلف بالله كاذبا .
 - ٣ — الأمر بالمحافظة على السبت (بمعنى تفريغ يوم من أيام الأسبوع للعبادة) .
 - ٤ — الأمر بلكرام الأب والام .
 - ٥ — محرمة أن الله وحده هو الذى يعطى ويمنع .
 - ٦ — لا تقتل .
 - ٧ — لا تزن .
 - ٨ — لا تسرق .
 - ٩ — لا تشهد شهادة زور .
 - ١٠ — لا تمدن عينيك الى بيت صاحبك لو امراته أو عبده أو ثوره أو حماره .
- قال علماء السلف أن مضمون هذه الوصايا العشر قد تضمنتها آيتان من القرآن ، هي قوله تعالى في سورة الانعام :

« قل : تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم : الا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده ، واولعوا الكيل واليزان بالنسط ، لا تكلف نفسا الا وسعها ، واذا قنتم فاعدلوا ولو كان ذا قربي ، ويعهد الله اوامرا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تفكرون . » [١]

يفس الله تشارك وتعالى علينا ماذا كان من امر موسى حين ذهب لحققت ربه . كان موسى يصومه — أربعين ليلة — يقرب من ربه أكثر .. وكان موسى

بتكليم الله له يزداد حيا في ربه لكثير .. ونحن لا نعرف أي مشاعر كانت تجيش في قلب موسى عليه الصلاة والسلام حين سأل ربه الرؤية .

أهبتنا كثيرة يدفع الحب النشوي الناس الى طلب المستحيل .. فما بالك بالحب الالهي ، وهو اصل الحب ..

ان عمق احساس موسى بربه ، وحبه لخالفه ، وانديامه الذي لم يرل يميز شخصيته .. دفعه هذا كله الى ان يسأل الله الرؤية . قال تعالى في سورة الاسراف :

« ولما جاء موسى ليقتنا وكلمه ربه . قال : رب ارنى انظر اليك » [١] .

هكذا بتدافع العاشقين الكبار سأل موسى ربه ما سأل - وجاءه رد الحق عز وجل .

« قال : لن تراتني » .. [٢] .

ولو ان الله تبارك وتعالى قلها ولم يزد عليها شيئا ، لكن هذا عدلا منه سبحانه ، غير ان الموقف هنا موقف حب الهى من جانب موسى . موقف اندفاع ببره الحب . ولهذا أدركت رحمة الله تعالى موسى ..

انهم انه لم يراه ، لان احدا من المخلوق لا يصمد لنور الله .. امره ان ينظر الى الجبل . فان استقر مكانه فسوف يراه . قال تعالى :

« ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراتني ، فلما نجلى ربه للجبل جعله سكا وخمر موسى صمعا » [٣] .

لا يصمد لنور الله احد .

أدرك موسى هذه الحقيقة وعانيتها بنفسه .. والصمق هو الموت لو الاخفاء . ونحن لا نعرف البترة التي تضاهي موسى غالبا عن حياته أو وعيه .. غير انه حين اتفق ..

« فلما اتفقت قال : سبعتك .. ثبت اليك ولنا اول المؤمنين » [٤] .

وقف المنسرون القدماء كثيرا امام هذه الآيات . تساطوا مثلا كيف يطلب موسى رؤية الله مع علمه بانها غير ممكنة .

وفنازموها في ذلك فذهب المعتزلة الى رأى ، وذهب اهل السنة الى رأى ، وكان مدار الحديث كله كيف لا يعلم النبي وهو أقرب خلق الله اليه ان رؤية الله مستحيلة .. وهكذا انصرفنا عن عمق الآيات البعيد ، ورحنا نبحت حول هزئيات لا تغنى ولا تسمن ..

(١) من الآية ١٤٣ مكية .

(٢) من الآية ١٤٣ مكية .

(٣) من الآية ١٤٣ سورة الاسراف مكية .

(٤) من الآية ١٤٣ سورة الاسراف مكية .

اعتقد أن هذا الموقف من موسى — يمثل قمة من قيم الحب ، وميتا من
أصناف الوجد — لا مثيل له في كل سيرة موسى .

نحن أمام ذروة الحب ..

والحب لا يريد غير الرؤية ، ورؤية الله عز وجل مستحيلة ، هذا هو منطق
المثل والأصناف . لكن .. متى كان الحب يعا بالمنطق أو يستمع للأعصاب
.. وهكذا ينمى موسى إلى التجربة وهي تجربة قام بها بدلا عما جيبما ..
كان أجراتا من الطلب ، وكان أسبقنا إلى الصق ، وأنت لنا بحمدك الكريم
وروحه الطاهر أن أهدا لا يصيد لنور الله ..

هـ هو يلقي لهجد الله ويتوب إليه ويستغفره ..

« قال : سبعتك تبت إليك » [١] .

من أي شيء كل موسى يتوب ..

قال الموقية كان يتوب من اندفاعه عاشق عظيم سأل الحال وهو يعلم
أنه محال ..

وذلك تلميح مقنع .. يؤكد ذلك سياق الآيات ..

اتظر إلى آية الله وكيف يلقه إلى ما أنعم عليه من نعم ، قال تعالى
ل موسى :

« قال : يا موسى أتني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي ،
فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له في الألواح من كل شيء
موعظة وتفصيلا لكل شيء . فخذها بقوة ، وأمر قومك ياخذوها
باهتسها » [٢] .

وتف كثير من المفسرين أمام قوله تعالى ل موسى :

« أتني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي » [٣] .

وأجريت مقارنات بينه وبين غيره من الأنبياء . فقول أن هذا الاصطفاء كان
خاصا بعمره وحده ، ولا ينسحب على العصر الذي سبقه لوجود إبراهيم فيه ،
وإبراهيم خير من موسى ، أيضا لا ينطبق هذا الاصطفاء على العصر الذي
يأتي بعده ، لوجود محمد بن عبد الله فيه ، وهو أفضل منها .

ونحب أن نبتعد عن هذا الجدال كله .. لا لأننا نعتقد أن كل الأنبياء سواء
.. أن الله سبحانه وتعالى يحدثنا أنه فضل بعض النبيين على بعض ، ورمح
فرحات بعضهم على البعض .. غير أن هذا التفصيل ينبغي أن يكون منطق
محرمه علينا ، ولنتف نحن في موقع الإيمان بجميع الأنبياء لا متعده . ولنؤد
مهمهم فروض الاحترام على حد سواء . لا يعني أن يخوض الخاطئون في
درجات المعصومين المختارين من الله .. ليس من الأدب أن تفاضل نحن بين
الأنبياء . الأولى أن تؤمن بهم جميعا .

.....

(١) من الآية ١٢٢ سورة الأعراف مكة .

(٢) الأعراف ١٤٤ و ١٤٥ سورة الأعراف مكة .

(٣) من الآية ١٤٤ سورة الأعراف مكة .

انتهى ميقات موسى مع ربه تعالى .. وعاد عضبان أسفا الى قومه .. لم يكن في الوجود كله انسان في مثل رضاه .. لكنه يعلم من ربه آتياه تسوده فينقلب الى قومه غضبان أسفا ..

قال تعالى في سورة هـ :

**وما اعطاك عن قومك يا موسى . قال هم اولاء علي ائري ،
وجعلت اليك رب ترضى . قال فانا قد اتينا قومك من بعدك واتصلهم
السامري ، فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا (١) .**

انحدر موسى من قمة الجبل وهو يحمل الواح التوراة ، قلته يغلى بالقصب والاسب . نستطيع ان نحيل انفعال موسى وثورته وهو بحث خطاه بحر قومه .

لم يكذ موسى بفادر قومه الى ميقات ربه .. حتى وقعت فتنة السامري . وتتصل هذه الفتنة ان بنى اسرائيل حين خرجوا من مصر ، صاحبوا معهم كثيرا من حلى المصريين وذهبهم ، اخذوه للتفتح به في احتفالهم الذي ادموه ، ثم نجوا بعد معجزة شق البحر ، وانطلق البحر على فرعون وجنوده فغرقوا ، وصار ما معهم من الذهب سكا لهم .. ويبدو ان هارون عليه السلام ، ابرك ان هذا الذهب ليس من حلقهم ، فاحذو منهم وفتنه في الارض .. لم يكن القوم في حاجة اليه .. كانوا يعيشون في التيه .. يسهرون وسط صحراء لا يسمعهم فيها اذهب . حفر هارون شقيق موسى حفرة والقى فيها الذهب واهل عليه التراب . ورآه السامري وهو يذلن الذهب فاستخرجه بعد ذلك ، وصهره ، وصنع منه تمثالا لمجل يشبه المجل انيس ، معبود المصريين ، وكل السامري فيها يمدو نعلها محترقا او صائعا سابقا ، فصنع المجل مجوقا من الداخل ، ووصفه في اتجاه الريح ، بحيث يدخل الهواء من فتحة الحلفية ويخرج من لفته فيحدث صوتا يشبه خوار المعجل الحقيقية ..

ويقال ان سر هذا الخوار ، ان السامري كان قد اخذ قبضة من تراب سار عليه جبريل عليه السلام حين نزل الى الارض في معجزة شق البحر .. اي ان السامري ابصر بما لم يمسروا به ، ففرض قبضة من اثر الرسول [جبريل عليه السلام] فوضعاها مع الذهب وهو يصنع منه المجل وكان حريل عليه السلام لا يسير على شيء الا كنت فيه الحياة ، فلما اضاف السامري التراب الى الذهب ، وصنع منه المجل ، خار المجل كالبحول الحقيقية ..

هذه قصة السامري التي القاهها لموسى ، ونعتقد انه كقلب .. ان كمره يرجع عندنا كذبه ..

نعلم الآن ان التراب اذا اضيف الى الذهب وصهر ، انفصل التراب من الذهب وترك تجويفا في مكان انفصاله ، والغلب الظن ان السامري استنهم هذا التراب ، كأي تراب آخر ، في صنع تحويف داخل المجل ، بحيث تحول التمثال الى تمثال له صوت ..

بعد ذلك ، خرج السامري على بنى اسرائيل بما صنعه ..

(١) الآيات ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ سورة طه مكية ،

سألوه ما هذا يا سامري ؟

قال هذا الهكم والله موسى !

قالوا : لكن موسى ذهب لمقات الهه .

قال السامري لقد نسي موسى . ذهب لنقاد ربه هناك ، بينما ربه هنا .

وهبت موجة من الريح فدخلت من قبر المعجل الذهب وخرجت من فمه
لفار المعجل .

وعند بنو اسرائيل هذا المعجل ..

لعل دهشة القاريء تثار لهذه الفتنة .. كيف يمكن الاستغناء بمقول
القوم لهذه الدرجة .. لقد وقعت لهم معجزات هائلة .. فكيف يتقلبون الى
عبادة الاصنام في لحظة ..

تقول هذه الدهشة لو نظرنا في نفسية القوم الذين عبدوا المعجل . لقد
ترموا في مصر ، ايام كانت مصر تعبد الاصنام وتقدس فيها قدس المعجل
أئيس ، وتربوا على الذل والعبودية ، وانكسر داخل انفسهم شيء ، التوى
في فطرتهم شيء ، ومرت عليهم معجزات الله فصالحفت نفوسا تالفة الامل .
لم يعد هناك ما يمكن ان يستمه لهم أحد . ان كلمت الله لم تعدهم الى الحق ،
كما ان المعجزات الحسية لم تقنعهم بصدق الكلمات ، ظلوا داخل ايمانهم
من عبدة الأوثان . كانوا وثنيين مثل ساداتهم المصريين القضاة . ولهذا
السبب انقلبوا الى عبادة المعجل .. ولم يكن انقلابهم هذا مفاجأة لنا نحن
اهل هذا الزمان ، فانهم بعد خروجهم من معجزة شق البحر شاهدوا قوما
يعبدون الاصنام فسألوا موسى ان يجعل لهم آلهة يعبدونها مثل هؤلاء القوم .
المسألة اذن قديمة ومزمنة .. والرغبة في عبادة الاصنام ، هي نفسها
عبادة الاصنام ، ولقد كان كل ما فعله السامري ، انه استغل حنين القوم الى
عبادة الأوثان ، استغل حلجة نفسية شبه عامة وحققها لهم حين قدم اليهم
معجزة . واختار ان يكون المعجل ذهبا لانه يعلم ضعف بنو اسرائيل ازاء
الذهب ميموما ..

وهكذا انتشرت فتنة السامري ، وموجه هارون عليه الصلاة والسلام يوما
بان بنو اسرائيل يعبدون معجلا من الذهب .

انفسوا الى تمسين . الاقلية المؤمنة أدركت ان هذا هراء . والاعلبية
الكفرة طلوعت حبستها لعبادة الأوثان .

ووقف هارون وسط قومه وراح يعظهم . قال لهم : انكم فتنتم به ، هذه
فتنة ، استعمل السامري جهلكم وفتنكم بمعجزة .. ليس هذا ربكم ولا رب
موسى .

« ان ربكم الرحمن فاتبعوني واطيعوا امرى » . [١]

ورفض عبدة المعجل موعظة هارون . كانوا مجموعة من الجاهلين الذين
مرت عليهم الكلمات مرور المسمم بالحجارة .. لم تفعل فيها شيئا .. وعند

(١) من الآية ٩٠ سورة طه مكة .

هارون يعظلم ويذكرهم بمعصيات الله التي أنفذهم بها ، وتكريمه ورعايته بهم ، فلمصموا آذاهم ورفضوا كلماته ، واستصغموه وكادوا يقتلونه ، وأنهوا مناقشة الموضوع بتأجيله حتى عودة موسى . . كل واضح أن هارون أكثر لبنا من موسى ، لم يكن يهله القوم للينه وشفتته . وحتى هارون أن يلجأ إلى القوة ويحطم لهم صنهم الذي يصنونه فتثور فتنة بين القوم . ويحدث ما يشبه الحرب الأهلية . أثر هارون لتجليل الموضوع إلى أن يحضر موسى .

كان يعرف أن موسى بشخصيته القوية ، يستطيع أن يضع حدا لهذه الفتنة فون أراثة هناك .

واستبر القوم يرتصون حول المعجل . .

كان السامري — لعمه الله تعالى — هو صاحب هذه الفتنة القديسة . . فتنة الرقص والتواجد حول الأوثان . وهي فتنة لم تزل مظاهرها حية إلى اليوم رغم اندثار عبادة الأولان ، يقوم بها الناس في زماننا بحسب بنية من أريدركوا أصلها القديم وكونها ديانة الكفار وعباد المعجل .

أورد القرطبي في أجزاء ابتدئ عشر في تفسيره لفتنة السامري . . هذه المسألة .

قال : « سئل الإمام أبو بكر الطرطوشي : ما يقول سيدنا الفقيه في جماعة من رجال ، يكتفون من فكر الله تعالى ، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أنهم يوفقون بالقضيب على شيء من الأديم . ويقوم بعضهم يرتص ويتواجد حتى يقع قضيبا عليه . ويحضرون شيئا يأكلونه . . هل الحضور معهم جائز أم لا . أفنونا بأهورين » .

أجاب القرطبي على هذه المسألة نقلا عن ابن تيمية قال : « مذهب السوفية [يقصد الرافضيين] بطرفة وجهالة وضلالة . وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله . وأما الرقص والتواجد فقول من أحدثها أصحاب السامري . لما اتخذ لهم محلا حسدا له حوار قاموا يرتصون حواله ويتواجدون . فهو دين الكفار وعباد المعجل » .

وأما كان يجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كانوا على رؤوسهم الطير من الوثاق . يسمى المصلطون وتوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها . ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم . ولا أن يعيهم على باطلهم . هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين ، وبالله التوفيق » .

انتهى كلام القرطبي المتمثل بهذه المسألة . فقابل مضاء دعته وتجاوز ، وربطه لندمة الرقص السوفى الحديث بعبادة المعجل القديم والرقص حوله .

.....

انحدر موسى عتدا لغومه فسمع صياح القوم وجلبتهم وهم يرتصون حول المعجل . . توقف القوم حين ظهر موسى ومساك صيت .

صرح موسى بقول :

« بئسما خلقتموني من بعدى » (١) .

انجبه موسى نحو هارون والتي ألواح التوراة من يده على الأرض . . كان
أعصار العاصب داخل موسى يتحكم فيه الآن تهاب .

مد موسى يديه وأمسك هارون من شعر رأسه وشعر لحيته وشدّه نحوه
وهو يرتعش .

قال موسى :

« يا هارون : ما جعلك الذرايعهم ضلوا إلا تتبعن ، العصيت لبري (٢) »

إن موسى يتساءل هل عصي هارون لبره . كيف سكّت على هذه الفتنة ؟
كيف طأوهم على الفتاة معهم ولم يخرج ويتركهم ويتركهم منهم ؟ كيف سكّت
عن مخالفتهم أصلاً ؟ . . أن السكّت عن الخطأ مشهورك غيبه بشكل ما .

زاد الصبوت عمقا بعد جيلة موسى الماضية .

وتحدث هارون إلى موسى . . رجا منه أن يترك رأسه ولحيته . . بسحق
انتباهها لأم واحدة . . وهو يذكره بالأم ولا يذكره بالآب ليكون ذلك آدمي
لاستشارة مشاعر الحق في نفسه .

« قال : يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا براسي » (٣) .

المهمه أن الأمر ليس فيه عصيان له . . وليس فيه رضاء بموقف عبدة العجل
.. إنما خشي أن يتركهم ويبغض ، فبساله موسى كيف لم يبق فيهم وقد تركه
مستولا عنهم ، وخصي لو قاومهم بعنف أن يثير بينهم قتالا فبساله موسى كيف
فرق بينهم ولم ينتظر عودته .

« انى خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي » (٤) .

أنهم هارون أخاه موسى برفق ولين أن القوم استضعفوه ، وكانوا يقتلونهم
حين قاومهم ، رجا منه أن يترك رأسه ولحيته حتى لا يشمت به الأعداء ،
ويستخف به القوم زياده على استضعفهم به . المهمه أنه ليس ظالما مثلهم
حين سكّت على ظلمهم .

« يا ابن أم أن القوم استضعفوني وكانوا يقتلوننى فلا تشمت بى
الأعداء ولا تجعلى مع القوم الظالمين » (٥) .

أدرك موسى أنه ظلم هارون في غضبه الذى أشعلته غيرته على الله تعالى
وجرحه على الحق . . أدرك أن هارون تصرف أفضل تصرف ممكن في هذه
الظروف .

(١) من الآية ١٥٠ سورة الامراء مكية .

(٢) الآية ٩٢ ، ٩٣ سورة طه مكية .

(٣) من الآية ٩٤ سورة طه مكية .

(٤) من الآية ٩٤ سورة طه مكية .

(٥) من الآية ١٥٠ سورة الامراء مكية .

ترك رأسه ولحيته واستغفر الله له ولاخيه ..

التفت موسى لقومه وتساءل بصوت لم يزل يضطرب غضبا :

« يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟ أخطأ عليكم العهد ؟ أم أردتم
أن يهل عليكم غضب من ربكم فمخلفتم موعدى ؟ » [١]

أنه يصنعهم ويوبخهم ويلقنهم بكسرة مريضة الى غباء ما علوه .

هناك موسى يقول - فاصبا أسد الغضب :

« ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة
الدنيا ، وكذلك نجزي المفترين » [٢]

لم تكذ الجبال تبثع لصداء الصوت الغاضب حتى تكس القوم رؤوسهم
وأدركوا حملاتهم .. كلن انصراؤهم واضحا على الحق الذى جاء به موسى .

لبعد كل ما فعله الله تعالى لهم ، ينكثون على عبادة الأصنام .. ليصيب
عنهم موسى أربعين يوما ثم يعود ليجدهم يعبدون مجلا من الذهب ..

أهذا تصرف نوم ، عهد الله اليهم بأمانة التوحيد فى الأرض ؟

التفت موسى الى السامري بعد حديثه القصير مع هارون .. لقد انت
له هارون مراعاة كمسنول من قومه فى فينته ، كما مكثت القوم ونكسوا
رؤوسهم أمام ثورة موسى ، لم يبق الا المسنول الأول عن الفتنة .. لم يبق الا
السامري .

تحدث موسى الى السامري وغضبه لم يهدأ بعد .

« قال : فما خطبك يا سامري ؟ » [٣]

أنه يسأله عن قصته ، ويريد أن يعرف منه ما الذى حمله على ما صنع ..

قال السامري :

« بصرت بما لم يصبوا به » [٤] .. رأيت حبريل وهو يركب فرسه
فلا تطع قدسيا على شيء الا دبت فيه الحياة ..

« فقبضت قبضة من أثر الرسول » [٤] .. أخذت حفنة من التراب
الذى سار عليه حبريل والتديها على الذهب ..

« فنبذتها ، وكذلك سوفت الى نفسى » [٤] .. هذا ما سبقتنى نفسى
اليه ..

لم يناقش موسى ، عليه اسلام السامري فى ادعائه .. انها قذف فى

(١) من الآية ٨٦ سورة طه مكية .

(٢) الآية ١٥٢ سورة الاحزاب مكية .

(٣) الآية ٩٥ سورة طه مكية .

(٤) من الآية ٦٦ سورة طه مكية .

وجهه حكم الحق .. ليس المهم ان يكون السامري قد رأى جبريل ، عليه السلام ، فقبض قبضة من اثره .. ليس المهم ان يكون خوار المعجل بسبب هذا القرب الذي صار عليه فمرس جبريل ، لو يكون الخوار بسبب ثقب اصطنعه السامري ليخور المعجل .. المهم في الامر كله جريمة السامري ، وقتلته لقوم موسى ، واستعلاؤه اعجاب القوم الذين بسائلتهم المصريين ، وتقليدهم لهم في عبادة الأوثان .. هذه هي الجريمة التي حكم فيها موسى ، عليه السلام ، بحكمه المزدوج :

« قال : فالذهب فان لك في الحياة ان تقول لا مساس ، وان لك موعدا لمن تخلفه ، وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا ، فحرقته ثم فتنسفه في اقيم نسفا » [١] .. [سورة طه] ..

حكم موسى على السامري بالوحدة في الدنيا ..

يقول بعض المفسرين : ان موسى دعا على السامري بان لا يمس أحدا ، معللة له على مسه بما لم يكن ينبغي له مسه ..

ونعتقد ان الامر اخطر كثيرا من هذه النظرة السريعة .. ان السامري اراد مفتنته خلال بني اسرائيل وجميعهم حول عجله الوثني والسيادة عليهم ، وقد جاءت عقوبته مساوية لجريمته ، لقد حكم عليه بالنفي والوحدة ، هل مرض السامري مرضا حاديا يشاء صار الناس ياتون من لمس له لو مجرد الاقتراب منه ؟ .. هل جاءه الفئذ من خارج حسده ؟ .. لا نعرف ماذا كان من امر الاسلوب الذي تمت به وحدة السامري ونبيذ المحتشع له .. كل ما نعرفه ان موسى اوقع عليه عقوبة رهيبة ، كان أهون منها القتل ، فقد عاش السامري منعزلا محترقا لا يلمس شيئا ولا يمس أحدا ولا يقترب منه مخلوق .. هذه هي عقوبته في الدنيا ، ويوم القيامة له عقوبة ثانية ، يبهما السياق لتجزيه ظللها في النفس اخطر وأرعب .

بعض موسى بعد فراغه من السامري الى المعجل الذهب والقاء في النار .. لم يكتف بصهره لئام عيون القوم اليهوديين ، وانما نسفه في البحر نسفا .. تحول الاله المعبود لئام عيون المفتوين به الى رماد يتطاير في البحر .. ارتفع صوت موسى :

« انما الهكم الله الذي لا اله الا هو ، وسع كل شيء علما » [٢] ..

هذا هو الهكم ، وليس ذلك الصنم الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ..

بعد ان نسف موسى الصنم ، وهرغ من الجثى الأملى ، التفت الى قومه ، وحكم في القضية كلها فانهم ظلموا انفسهم ، وترك لبيدة العجل محلا واحدا للتوبة .. وكان هذا المجال ان يقتل من اتبعوا المعجل انفسهم ..

قال تعالى :

« واذا قال موسى لقومه : يا قوم : انكم ظلمتم انفسكم باقتنائكم العجل ، فقوموا الي بارئكم ، فاقبلوا انفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب

(١) الآية ٩٧ سورة طه مكية .
(٢) الآية ٩٨ سورة طه مكية .

عليكم انه هو التواب الرحيم (١) ..

كانت العقوبة التي فُرِها موسى على عبدة المجل مهولة ، وتتلق مع الجرم الأصلي ، أن صلاة الأوثان اهدار لحياة المقتل ومصحوفه ، وهي المصحوة التي تميز الانسان عن غيره من البهائم والجمادات ، وازاء هذا الازهاق لمصحوه المقتل ، تجيء العقوبة ازهاقا لحياة الجسد نفسه ، فليس بعد المقتل للانسان حياة يشير بها .. ومن نوع الجرم جاءت العقوبة ..

جاءت قاسية ثم رحم الله تعالى وتلىب .. انه هو التواب الرحيم ..

.....

اخيرا .. سككت عن موسى الغضب .

تأمل تمبير القرآن الكريم الذي يصور الغضب في صورة كائن يتود نصرعات موسى ، ابتداء من الفلته لألواح التوراة ، وثبده للحبة أخيه ورأسه . واستاء بنسف العجل في البحر ، وحكه بالقتل على من اتخذوه ربا .

اخيرا سككت عن موسى الغضب . زابله غفسيه في الله ، وذلك أرفع أنواع الغضب وأجسرها بالاحترام والتوقير .. التفت موسى الى مهمته الأصلية حين زابله غضبه فتذكر انه ألقى الألواح التوراة .. وهاد موسى يأخذ الألواح ويعاود دعوته الى الله .

قال تعالى :

« ولا سككت عن موسى الغضب اخط الألواح ، وفي فسختها هدى ورهبة للذين هم لربهم يرهبون » (٢) .. (سورة الأعراف) ..

وقد استدل بعضهم بقوله « وفي فسختها » على انها تكسرت ، ونحن لا نعرف اكانت الألواح من مادة يجوز عليها التكسر أم لا .. كما ينفي ابن كثير هذا الاستدلال ، ويرى انها بقيت على حالها ..

ومهما يكن من أمر .. فقد عاد موسى الى هدوئه ، واستأنف جهاده في الله ، وقرأ الألواح التوراة على قومه . أمرهم في البداية أن يأخذوا ماكتبها بقوة وعزم ، ومن المدهش أن قومه سلوهموه على الحق . قالوا : انشر علينا الألواح نس كانت أوامرها ومواهبها سهلة فلتناها . فقال موسى : بل اتبلوها بما فيها . فراحوا مرارا ، فأمر الله تعالى ملائكته فرفعت الحبل على رؤوسهم حتى صار كتفه غميلة فوقهم ، وقيل لهم : ان لم تقبلوها بما فيها سقط ذلك الحبل عليكم ، فقلوا ذلك ، وأمروا بالسجود تسجدوا .. وخضعوا خضودهم على الأرض وراحوا ينظرون الى الجبل فوقهم علما ورعبا ..

قال تعالى :

« واذا نفقا الجبل فوقهم كانه ظلة وظنوا انه واقع بهم ، خذوا

(١) الآية ٥٥ من سورة البقرة مدنية .

(٢) الآية ١٥٤ مكية .

**ما آتيناكم بقوة والذكروا ما فيه لعظمتكم تلقون (١١) .. [سورة
الاعراف] ..**

وهكذا أثبت قوم موسى أنهم لا يسلمون وجوههم إلا إذا لويت أعتاقهم
بمعزة حسية ماهرة تلقى الرعب في القلوب وتنتي الأقدام نحو سجاد تاهر
يدفع الخوف اليه فلما ..

وهكذا يساق الناس بالعصا الإلهية إلى الإيمان ، يقع هذا في طفولة
الجنس البشري ، وهيب الوحي والتفجع الكافرين لقبام الاقتناع العقلي ،
ولعلها هنا تشير مرة أخرى إلى نفسية قوم موسى ، وهي المسئول الأول عن
عدم اقتناعهم إلا بالقوة الحسية والمهرات الباهرة .. لقد تربى قوم موسى
ونشأوا وسط هوان وعسف ، أهدرت فيه أسانيدهم والقوت فطرتهم .. ولم
يعد ممكنا بعد إردهار الدل في نفوسهم واعتيادهم إياه ، لم يعد ممكنا أن
يساقوا إلى الخير إلا بالقوة .. لقد اعتقدوا أن تفسيرهم القوة القاهرة
لسادتهم القدامي ، ولابد لسيدهم الجديد [وهو الإيمان] من أن يقاسي
الأموال لتفسيرهم ، وإن يلحقا مضطرا إلى أسلوب القوة ليقدّم من
الهلاك .

لم نمر جريمة عبادة العجل دون آثار ..

أمر موسى علماء بني إسرائيل وخيارهم أن يستعظروا الله ويثوبوا إليه ..
اختر منهم سبعين رجلا ، انخير فالخير ، وقال أنطلقوا إلى الله فثوبوا إليه
بما صنعهم وسلوه التوبة على من تركتم وراعكم من قومكم .. صوموا
وتطهروا وطهروا ثيابكم ..

خرج موسى هؤلاء السبعين المختارين ليقتل حده له الله تعالى .. دنا موسى
من الحبل ، فلما عمود من العمام يتعشى الحبل كله .. فحل موسى في
القبلم ، وقتل للقوم أدنوا فدنوا .. وكلم الله تعالى موسى ، وكان موسى إذا
كلم الله وقع على حبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه
لو يطبق احتياله ، وضرب الحجاب على موسى وهو يكلم ربه ، وسمع
السبعون الذين اختارهم موسى .. سمعوا موسى وهو يكلم ربه ..

ولعل معجزة كهذه المعجزة تكون الأبرة ، وتكون كافية لحمل الإيمان إلى
القلوب مدى الحياة . غير أن السبعين المختارين لم يكتفوا بما استمعوا
إليه من المعجزة .. إنما طلبوا رؤية الله تعالى ..

قلوا سمعنا ومريد أن نرى ..

قلوا لموسى ببساطة :

« يا موسى إن تؤمن لك حتى يرى الله وجهه » [٢] ..

هي مأساة تشير أئند اندهشة .. وهي مأساة تشير إلى صلاية القلوب
واستمسكها بالحسنة والمديت ..

كقوله الطلبي الكائنات بعقوبة صاعقة ..

(١) الآية ١٧١ مكية .

(٢) من الآية ٥٥ سورة البقرة مدنية .

أخذتهم رجلة مدمرة صفت ارواحهم وأجسادهم على النور .

ماتوا ...

أدرك موسى ما أحدثه السمعون المختارون عبلاء الأسى وقام يدعو ربه ويستأذنه أن يعمو عنهم ويرحمهم ، وألا يؤاخذهم بما فعل السفهاء منهم ، وليس طلبهم رؤية الله تبارك وتعالى وهم على ما هم فيه من البشرية الناقصة وقسوة القلب غير سفاهة كبرى ..

سفاهة لا يكرر عنها إلا الموت ..

قد يطلب النبي رؤية ربه ، كما عمل موسى ، ورغم انطلاق الطلب من واقع الحب العظيم والهوى المسيطر ، الذي يبرر به له من منطق خاص هذا الطلب ، رغم حدا كنه يحبر طلب الرؤية تجاوزا للحدود ، يحاكي عليه النبي بالصق ، فما بالنا يصدر هذا الطلب من بشر خاطئين ، بشر يحدون للرؤية مكاف وزمانا ، ويشترطون أن تكون جبهة .. بشر يطلقون أيانهم على هذه الرؤية ، بعد كل ما لقوه من معجزات وآيات ..

اليس هذا سفاهة كبرى ... ؟

وهكذا سبق من طلب الرؤية .. ووقف موسى يدعو ربه ويستعطفه ويرخصاء ..

قال تعالى :

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال : رب : لو شئت اهلكتهم من قبل وأياي ، اهلكنا بما فعل السفهاء منا ، أن هي إلا فتنتك نضل بها من تشاء ، ونهدي من تشاء ، أنت ولينا فافقر لنا وأرحمنا وانت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة أنا هبنا إليك » [١] ..

هذه كانت كلمات موسى لربه وهو يدعو ويرخصاء ..

ورضى الله تعالى عنه وغفر لقومه فأحييهم بعد موتهم ، واستمع المخاضون في هذه اللحظات الباهرة من تاريخ الحياة إلى النبوة بجنى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ..

قال تعالى :

« قال : عذابي أصيب به من تشاء ، ورحمتي وسعت كل شيء ، فسكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول أقبي الأسمى الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم المنهات ويضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه وصروا آلهم أو أولادهم الذين أتوا معه أولئك هم المفلحون » [٢] [سورة الاعراف] ..

(١) الآية ١٥٥ وجزء من آية ١٥٦ سورة الاعراف مكة .

(٢) بقية الآية ١٥٦ وآية ١٥٧ سورة الاعراف مكة .

سنلاحظ طريقة الربط بين الحاضر والماضي في الآية ، ان الله تعالى يتجاوز زمن مخاطبة الرسول في الآيات الى زمنين سابقين ، هما نزول التوراة ونزول الانجيل ، ليقرر انه [تعالى] بشر بهما في هذين الكتابين الكريمين ..

نعتقد ان ايراد هذه البشري جاء يوم سحب موسى من قومه سبعين رجلا هم علماء بني اسرائيل وفضل من فيهم ، ليقاتل ربه ..

في هذا اليوم الخطير بمعجزاته الكبرى ، ثم ايراد البشري بآخر انبياء الله عز وجل ..

.....

يقول ابن كثير في كتابه تسمى الانبياء ، نقلا عن قتادة .. ان موسى قال لربه : يا رب انى اجد في الألواح امة هي خير امة اخرجت للناس ، يأملون بالمعروف وينهون عن المنكر ، رب اجعلهم امتي .

قال : تلك امة احبب ..

قال : رب انى اجد في الألواح امة اتاجلهم في مسدودهم يقرأونها .. وكان من قبلهم يقرءون كتبهم نظرا ، حتى اذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوها .. وان الله اعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه احدا من الامم .. رب اجعلهم امتي ..

قال : تلك امة احبب ..

قال : رب انى اجد في الألواح امة يؤمنون بالكتاب الاول وبالكتاب الآخر ، ويعملون فضول الفضالة .. فاجعلهم امتي ..

قال : تلك امة احبب ..

قال : رب انى اجد في الألواح امة صدقتهم ياكلونها في مطونهم ، ويؤجرون عليها ، وكان من قبلهم من الامم اذا تصدق ادهم بمسقة قتلته منه بعث الله عليها نارا فاكلتها ، وان ردت عليه تركت فاكلها السباع والطير .. وان الله اخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم .. رب فاجعلهم امتي ..

قال : تلك امة احبب ..

قال : رب فاني اجد في الألواح امة اذا هم ادهم محسنة ثم عملها كتبت له مشرة ائبالها الى سببائه ضعف .. رب اجعلهم امتي ..

قال : تلك امة احبب ..

.....

بكث موسى في قومه يدموهم الى الله .. ويبدو ان نفوسهم كانت ملنوبة بشكل لا تخطئه عين الملاحظة ، وتبدو لجاجتهم ومناذهم فيها يعرف بقصة

البقرة .. فلان الموضوع لم يكن يقتضى كل هذه المفاوضات بينهم وبين موسى ، كما أنه لم يكن يستوجب كل هذا الضجيج ..

ولسل قصة البقرة ان قتيلا ثريا وجسد يوما لى بنى اسرائيل ، واختمهم أهله ولم يعرفوا قتله ، وحين أعياهم الأمر لجأوا لموسى ، ويبدو ان هذا القتل كان رهلا له مركزه لى بنى اسرائيل ، ويبدو ان خفاء قتله كال داما لشيء يشبه اللقنة ، ولجا بنو اسرائيل لموسى ليلاجأ لربه .. ولجا موسى لربه فأمره أن يأمر قومه أن يذبحوا بقرة .. وكان الخروض هنا أن يذبح القوم لأول بقرة تصادقهم .. شهر انهم بدأوا مفاوضاتهم باللحاجة .. أتبعوا موسى بآله يسخر منهم ويخذلهم هروا ، واستعاض موسى ماله أن يكون من الحاهنين ويهرح معهم .. ففهم أن حل القضية يكمن لى ذبح بقرة ..

ان الأمر هنا أمر معجزة ، لا علاقة لها بالمألوف لى الحياة ، لو المصاد بين الناس ..

ليست هناك علاقة بين ذبح البقرة ومعرفة القاتل لى الجريمة الفليضة التى وقعت ، لكن متى كانت الأسباب المنطقية هى التى تحكم حياة بنى اسرائيل ، ان المعجزات الخارقة هى العفون السائد لى حياتهم ، وليس استمرارها لى حادث البقرة لمرأ يوحى بالمعجب أو يثير الدهشة ..

لكن بنى اسرائيل هم بنو اسرائيل .. مجرد التفاصيل معهم حنت .. مستوى لى ذلك الأمور الفئوية المعتادة ، وشئون المعتدة الهامة .. لابد ان يحسنى من يتصدى لأمر من أمور بنى اسرائيل ، وهكذا يصلى موسى من أيدائهم له وانها لى بالخرية منهم ، ثم ينبئهم انه جاد فيما حدثهم به ، ويعاود أمره ان يفتحوا مقرة ، وتعود الطبيعة المراوغة لى اسرائيل الى الظهور ، تعود اللحاجة والالتواء ، فينسطون : هى بقرة عادية كما عهدنا من هذا الجنس من الحيوان ؟ .. أم انها خلق آخر تدر بزية ، فليدع موسى ربه ليبين لهم ما هى .. ويدعو موسى ربه فيزداد التشديد عليهم ، وتحدد البقرة أكثر من ذى قبل ، بأنها بقرة وسط .. ليست بقرة مستنة ، وليست بقرة فتية .. بقرة متوسطة .. الى هنا كان ينبغى ان ينتهى الأمر ، غير ان المفاوضات لم تزل مستمرة ، ومراوغة بنى اسرائيل لم تزل هى التى تحكم مائدة المفاوضات .. والأسئلة الفرية لم تزل تترى .. ما هو لون هذه البقرة ؟ .. لماذا يدعو موسى ربه ليسأله عن لون هذه البقرة ؟ .. لا برامون مقتضيات الأدب والوقار اللأزمين لى حق الله تعالى وحق بييه الكريم ، وكيف أنهم ينمى ان يخلطوا من تكليف موسى بهذا الاتصال المتكرر حول موضوع بسيط لا يستحق كل هذه اللحاجة والمراوغة .. ويسأل موسى ربه ثم يحدثهم عن لون البقرة المطلوبة .. فيقول انها بقرة صفراء ، غاصع لونها ، تسر الماظرين ..

وهكذا حدثت البقرة بأنها صفراء ، لونها مشرب بحبرة ، ورغم وضوح الأمر ، فقد عادوا الى اللحاجة والمراوغة ، فشدد الله عليهم كما شددوا على نبيه وآخوه .. عادوا يسألون موسى ان يدعو الله ليبين ما هى ، فان البقر تشابه عليهم .. وحدثهم موسى عن بقرة ليست معدة لحرق ولا لفسى ، سلمت من الحبوب ، صفراء لاشية لنها ، بمعنى خالصة الصفرة .. انتهت بهم اللحاجة الى التشديد .. وبدأو بحثهم عن بقرة بهذه الصفات الخاصة ..

أخيرا وحدها عند بيتهم فلأشتروها منه وذهبوها .. ولمسك موسى نيل البقرة وصرب به القتل فنهض من موته .. سأل موسى عن قاتله فحدثهم منه ثم عاد إلى الموت ..

وشاهد بنو إسرائيل معجزة أحياء الموتى أمام أعينهم ، استمعوا ما آداهم إلى لسم القاتل .. انكشف غموض القضية التي حيرتهم زمنا طالا بسبب لجأجتهم وتمنتهم ..

قال تعالى :

« واذ قال موسى لقومه : إن الله يأمركم أن تطهروا بقرة ، قالوا انتخذنا هزوا ، قال : أعود بك أنه إن لكون من الجاهلين . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ، قال : أنه يقول أنها بقرة لا غرض ولا بكر عوان بين ذلك فاقطعوا ما تؤمرون . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال : أنه يقول أنها بقرة صفراء ماتيعة لونها فسر القاطرين . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن الحق تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال : أنه يقول أنها بقرة لا ذلول تشبه الأرض ولا تمسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ، قالوا : الآن جئت بالحق فذهبوها وما كفوا يفعلون . واذ قتلتم أنفسا فلدارنم فيها : والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا : اضربوه ببعضها ، كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته فاعلمون » [١] .. [سورة البقرة] ..

يود أن نلفت انتباه القاري إلى سوء ادب القوم مع نبيهم وربيهم ، ولعل السياق القرآني يورد ذلك عن طريق تكرارهم لكلمة « ربك » التي يخطئون بها موسى .. وكان الأولى بهم أن يقولوا لموسى ، ناديا ، لو كان لابد أن يقولوا :

— ادع لنا ربنا ..

لما أن يقولوا له :

— ادع لنا ربك ..

فكأنهم يقتصرون ربوبية الله تعالى على موسى .. ويغفرون أنفسهم من شرف العبودية له .. انظر إلى الآيات كيف توحى بهذا كله .. ثم تأمل سحرية السياق منهم لمجرد إيراد لقولهم :

« الآن جئت بالحق » [٢] ..

بعد أن ارهقوا نبيهم ذهابا وحيثة بينهم وبين الله عز وجل ، بعد أن ارهقوا نبيهم بسؤاله من سعة البقرة ولونها ومنها وعلاماتها المميزة ، بعد تعنتهم وتشديد الله عليهم ، يقولون لنبيهم حين جاءهم بما يندر وجوده ويندر المنور عليه في البقر عادة ..

يسألتها قالوا له : « الآن جئت بالحق » .. كأنه كان يلعب قبلها معهم ، ولم يكن ما جاء به هو الحق من أول كلمة لآخر كلمة ..

(١) الآية من ٦٧ إلى ٧٢ مكية .

(٢) من الآية ٧١ إلى ٧٣ مكية .

ثم انظر الى ظلال السباق وما تشي به من ظلمهم :

« فليحوها وما كفروا يفعلون » [١] ..

ألا توحى لك ظلال الآيات بمعتقدهم وتساويفهم وميلاتهم ولجاجتهم في الحق .. هذه اللوحة الرائعة تشي موقف بني اسرائيل على موائد المفاوضات ..

هي صورتهم على مائدة المفاوضات مع نبيهم الكريم موسى ..

.....

قاسى موسى من قومه أشد المقاساة ، وعانى عناء عظيما ، واهتمل في تسليمهم رسالته ما أهتمل في سبيل الله ..

ولعل مشكلة موسى الأساسية انه يمت الى قوم طال عليهم المهد بالقبول والذل ، وطال بقالهم في حو يخلو من الحرية ، وطال مكتبهم وسط عبادة الأصنام ، ولقد نحتت المؤثرات العديدة المختلفة في ان تخلق هذه النفسية الملتوية الخائفة المعزومة التي لا تصلح لشيء .. الا أن تعذب ثيابهها ومصلحيها ..

وقد عذب بنو اسرائيل موسى عذابا مستطيع — نحن أبناء هذا الزمان — أن ندرك وقعه على نفس موسى النقية الحساسة الكريمة .

ولم يقتصر العذاب على العصيان والخفاء واللجاجة والجهل وعبادة الأوثان ، وإنما تعدى الأمر الى إيذاء موسى في شخصه ..

قال تعالى في سورة الأحزاب :

« يا أيها الذين آمنوا ، لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما

قالوا وكان عند الله وجيها » [٢] ..

ونحن لا نعرف كنه هذا الإيذاء ، ونستشهد رواية العلماء التي يقولون فيها أن موسى كان رجلا حيبا يستقر دائما ولا يحب أن يرى أحد من الناس جسده لانتهمه اليهود بأنه مصاب بمرض جلدي أو برص ، فأراد الله أن يبرئه مما قالوا ، فذهب يستحم يوما ووضع ثيابه على حجر ، ثم خرج فإذا الحجر يحرق بثيابه وموسى يجري وراء الحجر عاريا حتى شاهده بنو اسرائيل عاريا وليس بجلده عيب .. يستبعد هذه القصة لتهاافتها ، فانها الى جوار خرافة جرى الحجر بلباسه ، لا تعطى موسى حقه من التقدير ، وهي تتنافى مع عصمته كنبى .. ونعتقد أن اليهود آذوا موسى إيذاء نفسيا ، هذا هو الإيذاء الذي يدمى النفوس الكريمة ويجرحها حقا ، ولا نعرف كيف كان هذا الإيذاء ، ولكننا نستطيع تحيل المدى العبقري الآثم الذي يستطيع بلوغه بنو اسرائيل في إيذائهم لموسى ..

ولعل أعظم إيذاء لموسى ، كان نكول بني اسرائيل عن القتال من أجل نشر عقيدة التوحيد في الأرض ، أو على أقل تقدير ، السماح لهذه العقيدة أن

(١) من الآية ٧١ سورة البقرة مدنية .

(٢) الآية ٦٩ سورة الأحزاب مدنية .

لمستقر على الأرض في مكان ، وتأمين على نفسها ، وتمارس تعبداتها في هدوء ..

لقد رفض بنو إسرائيل القتال .. وقالوا لموسى كلمتهم الشهيرة :

« اذهب أنت وريك فقاتلا أنا ها هنا قاعدون » [١] ..

وبهذه النفسية .. حكم الله عليهم بالقية .. وكان الحكم يحدد أربعين عاما كلبلة ، وقد مكث بنو إسرائيل في ألتية أربعين سنة ، حتى فنى جيل بأكمله .. فنى الجيل الخائر المهزوم من الداخل ، وولد في ضياح الشتات وقسوة التيه ، جيل جديد .. جيل لم يترب وسط مناج وتقى ، ولم يشل روحه انعدام الحرية .. جيل لم يتهمز من الداخل ، جيل لم يعد يستطيع الابتاء فيه ان يفهموا لماذا يطوف الآباء هكذا بغير هدف في تيه لا يبدو له أول ولا تسعين له نهاية .. الا خشية من لقاء العدو .. جيل صار مستعدا لدفع ثمن آدميته وكرامته من دمائه .. جيل لا يقول لموسى اذهب أنت وريك فقاتلا أنا ها هنا قاعدون ..

جيل آخر يشقى قيم الشهامة العسكرية ، كجزء هام من نسيج اى دولة من دويلات التوحيد ..

احيرا ولد هذا الجيل وسط تيه الأربعين عاما ..

ولقد قدر لموسى .. زيادة في معاناته ، ورفعا لدرجته عند الله تعالى .. قدر له الا تكتمل مبناه بمرأى هذا الجيل ..

نقد مات موسى ، عليه الصلاة والسلام ، قبل ان يدخل بنو إسرائيل الأرض التي كتب الله عليهم دخولها ..

قال الله تبارك وتعالى عن موسى في سورة مريم :

« والذكر في الكتاب موسى ، آتاه كلاً مخلصاً وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا » [٢] ..

وقال تعالى عنه في سورة الاعراف بعد طلب رؤية الله :

« قال : يا موسى : اننى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » [٣] ..

وقال عز وجل عنه في سورة النساء :

« ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما » [٤] ..

(١) الآية ٦٥ سورة الكهف مكية .

(٢) الآيات ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ سورة مريم مكية .

(٣) الآية ١٤٤ سورة الاعراف مكية .

(٤) الآية ١٦٤ سورة النساء مدنية .

ونال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين كان قومه يؤذونه في الله :
قد أودى موسى بأكثر من ذلك فصير ..

.....

مات هارون قبل موسى برمن قصير ..

واقترب أجل موسى ، عليه الصلاة والسلام .. وكان لم يزل في التيه ..
قال بدعو ربه : رب أنقذني إلى الأرض المقدسة رمية حجر ..

أحب أن يموت قريباً من الأرض التي هاجر إليها .. وحث قومه عليها ..
ولكنه لم يستطع ، ومات في التيه .. وفن عند كتيب أحر حدث عنه آخر
أنبياء الله في الأرض حين أسرى به .. قال محمد ، صلى الله عليه وسلم :
لما أسرى بي مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكتيب الأحمر ..

.....

تروي الأساطير حديثاً من الحكايات حول موت موسى ، وتحتكي أنه ضرب
ملك الموت حين جاء يستل روحه ، نفقاً عينه .. وأمثال هذه الخرافات كثيرة
.. ومن المؤسف أن يتداولها علماء لهم احترامهم ، وإن كانوا لا يميزون بين
الذهب والتراب ، فهم يبدون كعاطب ليل يفسم العث إلى النفيس ، ويكوم
الهرء على الحقائق حتى تختفي الحقائق ..

مات موسى عليه الصلاة والسلام ، ميتة طيبة كريمة ، أغلب الظن أنه
اشتاق إلى رؤية الله عز وجل ، وقد نفسه الحب إلى طلبها في حياته ،
وها هي فرصته تزيد عليها بعد موته ..

وإذن يستقبل كريم الله موته بنفس راضية وقلب مطمئن وروح ترفع إلى
الحق وتتجمل لقاءه وتستبشر ..

عليه الصلاة والسلام ..

الخضر [عليه الصلاة والسلام]

من أعجب قصص القرآن وأعظمه غبوصا ، قصة عبد إناة الله رحمة من منده ، وعلمه من لغنه عليا ..

نرد القصة في سورة الكهف .. وتبدأ بهذه الآيات التي نحكى عن موسى ما عقد عليه نيته ..

«وإذ قال موسى لفتهاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أوأباضي
هتبا» [١] ..

الكلبة الفليضة تشير الى أن موسى قد عقد عزمه على الاستمرار في السير احتلها طويلة ، إلا اذا بلغ مجمع البحرين ..

ثمة موعد هام ينتظره موسى مند مجمع البحرين ..

ثمل غبوص المكان ..

أهدد المفسرون أنفسهم طويلا لتحديد الغالب المحيط بهذا المكان ، فقبل انه بحر فارس والروم ، وقبل بل بحر الأرمن أو القلزم ، وقبل عند طنجة ، وقبل في البريقيا ، وقبل هو بحر الإندلس .. ولا يقوم الدليل على صحة مكان من هذه الأمكنة ، ولو كان تحديد المكان مطلوبيا لتحده الله تعالى .. وإنما أبهم السياق القرآني المكان ، كما أبهم الزمان ، كما ضبب أسماء الأشخاص لعكبة عليا ..

أن القصة تتعلق بعلم ليس هو علمنا القائم على الأسباب .. وليس هو علم الأنبياء القائم على الوحي .. إنما نحن أمام علم من طبيعة غامضة أشد الغبوض .. علم القدر الأعلى ، وذلك علم أسدلت عليه الستار الكثيرة ..

مكان اللقاء مجهول كما رأينا ..

وزمان اللقاء غير محروك هو الآخر .. لا تعرف متى تم لقاء موسى بهذا الصد ..

وهكذا تمضي القصة يغير أن تحدد لك مسطورها مكان وقوع الأحداث ، ولا زمانه ، يخفى السياق القرآني أيضا اسم أهم أبطالها ..

(١) الآية ٦٠ سورة الكهف مكة .

بشير اليه الحق تبارك وتعالى بقوله :

« عبدا من عبائنا آتينا رهبة من عندنا وعلفناه من لثنا علما » [١]

هو عبد أخفى السياق القرآني اسمه ..

هذا العبد هو الذي يبحث عنه موسى ليتعلم منه ..

ان موسى كليم الله عز وجل ، واحد اولى العزم من الرسل ، وصاحب معجزة المعصا واليد ، والى الذي أنزلت عليه التوراة دون واسطة ، وسما كليمه الله تكليما .. هذا النبي العظيم يتحول في القصة الى طالب علم متواضع يحتفل استاذاه ليتعلم .. ومن يكون معلمه غير هذا العبد الذي يتجاوز السياق القرآني اسمه ، وان حدثتنا السنة المطهرة انه هو الخضر .. عليه السلام ..

ويسير موسى مع العبد الذي يتلقى عليه من الله بغير اسباب التلقى التي نعرفها ، في البداية يرفض الخضر صحبة موسى .. يفهمه انه لن يستطيع معه صرا ..

ثم يوافق على صحبته بشرط .. ألا يسأله موسى عن شيء حتى يهتد به الخضر ..

والخضر هو الصبي المبهمة ذاته ، انه لا يتحدث ، وتصرفاته تثير دهشة موسى الصبيقة ، ان هناك تصرفات يأتيها الخضر وترتفع امام عينى موسى هي لتصل الى مرتبة الحرائم والكوارث .. وهناك تصرفات تبدو لموسى بلا معنى .. وتثير تصرفات الخضر دهشة موسى ومعارضته .. ورغم علم موسى ومرتبته ، غائبه يجد نفسه في حيرة عميقة من تصرفات هذا العبد الذي آتاه الله من لثنه علما ..

ان علم موسى بالشريعة ، يعق حائرا امام علم هذا العبد بالحقيقة .. كان الشريعة حزن من الحقيقة ، وأحيانا تكون الحقيقة غامضة أعظم العموش ، خفيه أشد الخفاء ، حتى تستعصي على فهم الأنبياء ..

ان السحاب الكثيف الذي احاط بهذه القصة في القرآن ، قد تساقط فيها بعد أمطار غزيرة شربت منها كل المذاهب الصوفية في الاسلام ، بل لقد نشأ الاعتقاد في وجود عباد الله ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، ويعظم الأنبياء والشهداء على علمهم ، نشأ هذا الاعتقاد من هذه القصة ..

وقد اختلف العلماء في العمر ، فيهم من يعتبره وليا من أولياء الله ، وفيهم من يعتبره نبيا .. وقد نسجت الأساطير نفسها حول حياته ووجوده ، قيل انه لا يرال حيا الى يوم القيامة ، وهي قضية لم ترد بها نصوص أو آثار يوثق فيها ، فلا نقول فيها الا انه مات كما يموت عباد الله .. وتبقى قضية ولايته ، أو نبوته .. وهي قضية محيرة حقا .. نرجئها حتى ننظر في مصالحة كما لوردها القرآن الكريم ..

.....

(١) من الآية ٦٥ سورة الكيف بكة .

قام موسى خطيباً في بني إسرائيل ، يدعوهم الى الله ويحدثهم عن الحق ،
ويبدو ان حديثه جاء جليهاً ماثلاً ، رائعاً ، مبداً كما لو كان يلخص حكمة
الدنيا في السطور المختصرة التي قاء بها .. بعد ان انتهى من خطابه ساله
أحد المستمعين من بني إسرائيل :

— هل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله ؟

قال موسى متدفعاً : لا ..

وساقى الله تعالى عتبه لموسى حين لم يرد العلم اليه ، فبحث اليه جبريل
يسأله :

□ يا موسى .. ما يدريك أين يقع الله عليه ..

أفرك موسى انه تسرع .. وعاد جبريل ، عليه السلام ، يقول له :

□ ان الله مبداً لجميع البحرين هو أعلم منك ..

نقلت نفس موسى الكريمة الى زيادة العلم ، وانعدت نهته على الرجل
لصاحبة هذا العبد العالم .. سأل كيف السبيل اليه .. فأمر أن يرحل ، وأن
يحمل معه حوتا في مكل ، أي سبكة في سلة .. ونى المكل الذي ترد فيه
الحياة لهذا الحوت ويترسب في البحر ، سجد العبد العالم ..

انطلق موسى — طالب العلم — ومعه قناه .. وقد حمل الفتى حوتا في
سلة ..

انطلقا بحثا عن العبد الصالح العالم ..

ان المكان الذي يبحثان عنه قليل .. والأمر مطلق بمعجزة ارتداد الحياة
للسبكة القابعة في السلة وتصريفها الى البحر .. وكل شيء مضطرب .. ولكن
موسى يعتقد عزيمته على العثور على هذا العبد العالم ولو اضطره الأمر الى
أن يسير أحقاباً وأحقاباً ..

« واذا قال موسى لقناه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أوامضي
حقباً » [1] ..

قال موسى لقناه : لا تكلفك إلا أن تضرني بحيث يفارقك الحوت ..

قال لقناه : ما كلفتني بشيء كبير ..

وصل الإنسان الى صخرة جوار البحر .. رند موسى واستسلم للعاصف ،
وبنى الفتى ساهراً .. وألقت الرياح أحدها الأمواج على الشاطئ ، فأصاب
الحوت رذاذ لدغت فيه الحياة وتلرز الى البحر .. واتخذ سبيله في البحر
سرياً ..

وكان تسرب الحوت الى البحر علامة أعلم الله بها موسى لتحديد مكل لقائه
بالرجل الحكيم الذي جاء موسى يتعلم منه ..

بهض موسى من موه فلم يلاحظ ان الحوت تسرب الى البحر .. ونسى

لغذاء الذى يصحبه أن يحفنه بها وقع للحوت .. وسار موسى مع نناء بقية يومهما ، وقد نسبها هوتهما ..

ثم تذكر موسى غذاءه وحل عليه التعب ..

قال لعتاء : آتينا غذاءا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ..

ولم يزل ذهن الفتى ما وقع ..

ساعتئذ تذكر الفتى كيف تسرب الحوت الى البحر هناك .. وأضر موسى بما وقع ، واعتذر اليه بأن الشيطان انشاء أن يفكر له ما وقع ، رغم غرابية ما وقع ، لقد اتخذ الحوت سبيله فى البحر هجبا .. كان أمرا عجيبا ما رآه فتى موسى .. لقد رأى الحوت يشق الماء ليترك علامة وكأنه طير يتلوى على الرمال ..

سعد موسى من مروق الحوت الى البحر ، وقال : فلك ما كنا نبيع .. هذا ما كنا نريده ..

أن تسرب الحوت يحدد المكان الذى منطلقى منه بالرحل العالم .. ويرتد موسى وعتاء يقصان أثرهما عائدتين ..

انظر الى بداية القصة ، وكيف تجريه فليخبة لقد الغموض ، مبهمة اعظم الابهام .. لا تكاد ترفع ستارا أمامك حتى تكتشف وجود أسرار أخرى ..

اخيرا وصل موسى الى المكان الذى تسرب منه الحوت .. وصلا الى الصخرة التى نالها عندها ، وتسرب عندها الحوت من السلة الى البحر .. وهناك وجدا رجلا ..

لا نعرف اسمه ، ولا نعرف شكله ، ولا ندري من ملابسه شيئا .. ولا نعرف سبه أو ملامحه ، كل ما ندريه عنه هو هذا الوصف الداخلى البحت الذى يصفه به السياق القرآنى ..

« فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لغنا علمنا » [١] ..

هذا هو الجانب الهام فى القصة .. أن القصة كلها تقع داخل النفوس ، وليس رسم الأظفار أو تحديد الملامح والظلال بأمر ذى بل ..

قال تعالى :

« فلما بلغا مجموعتهما نسيباهوتهما ، فالتفت سبيله فى البحر سريعا . فلما جاوزا قال لعتاء آتينا غذاءا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال لرايت إذ لوينا الى الصخرة فتلى نسيبت الحوت ، وما تنسقيه الا الشيطان أن انكره ، واتخذ سبيله فى البحر هجبا . قال لك ما كنا نبيع ، فأرتنا على أثرهما قصصا . فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لغنا علمنا » [٢] ..

.....

(١) الآية ٦٥ سورة الكهف مكية .

(٢) الآيات من ٦١ الى ٦٥ سورة الكهف مكية .

يقول البخاري أن موسى وفتاه وجدا الخضر على طنفسة خضراء على كبد
المحر مسجى بثوبه .. وقد جعل طرفيه تحت رجليه ، وطرفيه تحت رأسه ..
فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال :

— هل مازحك سلام .. من أنت ؟

قال موسى : أنا موسى ..

قال الخضر : موسى بنى إسرائيل .. عليك السلام يا نبي بنى إسرائيل ..

قال موسى : وما أمراك بهي ... ؟

قال الخضر : الذي أمراك بهي وذلك على .. ماذا تريد يا موسى ... ؟

قال موسى ملاطفا مبالغا في التواضع : هل أتبعك على أن تعلمن ما علمت
رشدًا ... ؟

قال الخضر : لما يكتيك أن التوراة يسديك .. وإن ألجى ياتيك ..
يا موسى أنك لن تستطيع معي صبرا ..

نريد أن نتوقف لحظة لنلاحظ الفرق بين سؤال موسى اللطيف المذلل في
الآية .. ورد الخضر الحاسم ، الذي يفهم موسى أن عليه لا ينبغي لموسى أن
يعرفه ، كما أن علم موسى هو علم لا يعرفه الخضر .. يقول المنسرون أن
الخضر قال لموسى : إن علمي أنت تجهله .. ولن تطيق عليه صبرا ، لأن
الظواهر التي ستحكم بها على علمي لن تشفى قلبك ولن تعطيك تفسيرا ،
وربما رأيت في تصرفاتي ما لا تفهم له سببا أو تدرى له حلة .. وأذن لن
تصبر على علمي يا موسى ..

أهمل موسى كليات الصد الفلسفية وعاد يرفوه أن يسمح له بمصاحبته
والتعلم منه .. وقال له موسى فيما قال أنه سيجده أن شاء الله صابرا ولا
يعمى له أمرا ..

تأمل كيف يتواضع موسى كلم الله ويؤكد للعبد المذلل بالخفاء أنه لن يعمى
له أمرا ..

قال عبد الله الذي لا يشي السياق القرآني باسمه ، قال لموسى أن هناك
شرطا يشترطه لقول أن يصاحبه موسى ويتعلم منه . استفسر موسى عن
هذا الشرط فحدد العبد الصلابة المعالم بالصمت .. ألا يسأل موسى عن
شيء حتى يحدثه عبد الله عنه ..

وافق موسى على الشرط وانطلقا ..

انظر قوله تعالى في سورة الكهف :

((قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن ما علمت رشدًا . قال :

إنك لن تستطيع معي صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟ .

قال : ستعذبن أن يشاء الله صابرا ولا أخصي لك أمرا . قال : فإن

أتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا)) [١] ..

(١) الآيات من ٦٦ إلى ٧٠ سورة الكهف مكة .

اتطلق موسى مع الخضر يمشيان على سسل البحر .. مرث سفينة
فكلبهم ان يحملوهم ، وعرف اصحاب السفينة الخضر فحملوه وحملوا
موسى بغير اجر ، اكراما للخضر ، وفوجيء موسى حين رست السفينة
وغادرها اصحابها وركابها .. فوجيء ان الخضر يتعلم ميهسا ، لم يكن
اصحابا يبتعدون حتى بدا الخضر يخرق السفينة .. اقتطع لوحا من ألواحها
والقاء في البحر فحبلته الأمواج بعيدا ..

كان موسى يصاحب الخضر ويرقب تصرفاته ويفكر ..

— يا الذي جئت أصنعه هنا بمصاحبة هذا الرجل ؟ .. لماذا لم ابق في
بنى اسرائيل اتلو عليهم كتاب الله فيطيعوني .. لقد حملنا اصحاب السفينة
مغير اجر .. لكرمونا .. وه هو معلم يخرقها ويلبسدها ..

كان التصرف من وجهة نظر موسى شيئا مريب .. وغلبت طبيعة موسى
المتدفعه عليه ، كما حركته غيرة على الحق ، فاندفع يحدث استلذه ومعلمه
وقد نسي شرطه الذي اشترطه عليه ..

قال : اخرقتها لتغرق اهلها .. لقد جئت شيئا امرا .

وهنا يلتفت العبد الرباني نظر موسى الى عث محاولة التعلم منه ، لانه لن
يستطيع الصبر عليه ، ويعتذر موسى بالنسيان ويرجوه الا يؤاخذة والا يرفعته
.. ويسيران معا .. يبران على حديقة يلعب فيها الصبيان .. حتى اذا
نصوا من اللعب انتهى كل واحد منهم ناحية واستسلم للنعاس .. فوجيء
موسى ان العبد الرباني يقتل غلاما .. ويلوذ موسى سائلا عن الجريمة التي
ارتكها هذا الصبي ليقتله هكذا .. ويعاود العبد الرباني تفكيره انه انبهه
انه لن يستطيع الصبر عليه .. ويعتذر موسى بأنه سى ولن يعاود الاسئلة ،
ويسأله العبد الرباني .. ماذا لو عاود الاسئلة ولم يلجأ الى الصمت كما
انتقم ؟

ويقول موسى : يكون هذا آخر عهدى بمصاحبتك ..

ويمضي العبد ، ويمضي معه موسى ..

يخلآن قرية مخيلة ، لا يعرف موسى لماذا ذهب الى القرية ، ولا يعرف لماذا
يبينان فيها .. فقد ما معها من الطعام ، فاستطعما أهل القرية فأبوا ان
يضيفوها .. وجاء عليهما النساء ، وأوى الاثنان الى خلاء فيه حذار يريد ان
ينقض .. حذار ينهوى ويكاد أن يهم بالسقوط .. وفوجيء موسى بان الرجل
العابد يمشى الليل كله في سلاح العذار وشائه من جديد .. ويندهش
موسى من تصرف رفيقه ومعلمه ، ان القرية مخيلة ، لا يستحق من فيها هذا
الميل العسائي ..

قال : لو شئت لاتخذت عليه اجرا ..

انتهى الامر بهذه المصارة ..

قال عبد الله لموسى : هذا لراق بيني وبينك ..

تقد حذر العبد الرباني موسى من مخبة السؤال ، واتذره ان يكون السؤال
الثالث هو خاتمة اللقاء ..

ويكشف الصد الرباني لموسى عن السر الذي غمض عليه وحبره ، ودفعه الى الأسئلة ..

من كل تصرفات الصد الرباني التي أثرت موسى وحبرته لم يكن حين سطحا تصدر عن أمراء ..

كل ينفذ إرادة عليا .. وكانت لهذه الإرادة العليا حكمتها الخفية ، وكانت التصرفات تثنى بالقسوة الظاهرة ، بينما تخفى حقيقتها رحمة جانبية .. وهكذا تخفى الكوارث أحياناً في الدنيا جوهر الرحمة ، وترتدى السم شهاب المسائب وتحدد أسكر ، وهكذا يتناقض ظاهر الأمر وباطنه ، ولا يعلم موسى ، رغم علمه الهائل غير قطرة من علم الصد الرباني ، ولا يعلم الصد الرباني من علم الله إلا مقدار ما يأخذ العصور الذي يثلل مقارده في السر ، من ماء البحر ..

قال تعالى :

« فاطلقا ، حتى إذا ركبنا في السفينة خرقها » قال : لخرقنها لفتوق أهلها ؟ قد جئت نجيا أمرا . قال : ألم أقل أنك لن تستطيع معي صبرا ؟ قال : لا تؤولني بما نسيت ولا ترهقني من أمرى عمرا . فاطلقا ، حتى إذا لقيا غلاما مقلتا ، قال : اقتلت بصبا زكية بغير معي ؟ قد جئت نبيا نكرا .. قال : ألم أقل لك أنك لن تستطيع معي صبرا ؟ قال : إن سألته عن شيء بعده فلا تصابني ، قد بلغت من لدني عذرا . فاطلقا ، حتى إذا لقيا أهل قرية استنصموا أهلها فلبوا أن يصيروهما ، عودا بهما جدارا يريد أن ينقض فلقبه ، قال لو شئت لأتخلفت عليه لجرا . قال : هذا فراق بيني وبينك ، سأنبئك بتلويح ما لم تستطع عليه صبرا . أما القصص : فكانت لمساكين يصطرون في البحر فاردت أن أمسها وكان وراهم ملك يلبس كل سحبة فصبا . وأما الغلام : مكان أبواه مؤمنين فطشبا أن يرهقهما طغيانا وكفرا . فأردنا أن يبدلها ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رهبا . وأما الجدار : فكان لفلانين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويصنعهما كنزهما ، رهبة من ربك ، وما فعلته من أمرى ، فكان تلويح ما لم تستطع عليه صبرا » (١) ..

كشف الصد الرباني لموسى شيئين في نفس الوقت ..

كشف له أن عليه [أي علم موسى] حدود .. كما كشف له أن كبرا من المصائب التي تقع على الأرض تخفى في رداثها الأسود الكثيب رحمة عطشى .. أن أصحاب السفينة يستصرون خرق سفينتهم مصيبة حاقهم ، بينما هي نعمة تنفخ في ربي المصيبة .. نعمة أن تكشف القلوب عن وجهها إلا بعد أن تحلب الحرب وبصائر الملك كل البشر الموهودة فصبا ، ثم بلغت هذه السفينة النقلة المهمة .. وبذلك يبقى بصير رربي الأسرة عندهم كما هو ، فلا يموتون جوما ..

(١) الآية من ٢١ إلى ٨٢ سورة الكهف بحقه .

أيضا سيحتمر والد الطفل المقتول ولما ان كثرة قد ذهبتا لقتل وحيدهما الصغير البريء .. غير ان موته يمثل بالنسبة لهما رحمة عظمى ، فان الله سبحانه يبدل ما يراه من غلابة برعاهما في شيخوختها ولا يرعتهما طفيلتا وكفرا كالعلم المقتول ..

وهكذا تختلف النعمة في ثياب المحنة ، وترتدى الرحمة قناع الكارثة ، ويختلف ظاهر الأتساءل من باطنها حتى ليحتج بي الله موسى على تصرفه بجرى لئامه ، ثم يلفته عبد من عباد الله الى حكمة التصرف ومعزاء ورحمة الله الكلية التي تعني نفسها وراء اقنعة عديدة ..

.....

علاء موسى الى لقاء وصحه عائدا الى بني اسرائيل ..

يمتلئ موسى الآن ميادين الصوفيين الهادى .. لقد تعلم منهم شيئين : الا يخطر بخله في الشريعة ، فهناك علم الحقيقة .. والا ينحهم قلبه لمصائب البشر ، فربما تكون يد الرحمة الحائلة تخلق سرها من اللطف والانتقاد ، والايأس وراء اقنعة الحزن والالام والموت ..

.....

هذا هو الدرس الذي تعلمه موسى كليم الله عز وجل ورسوله من هذا المجد المذتر بالخفاء ، لقد خرجت شخصية هذا العبد الرباني من ضباب الزمن ثم علت تخطى كما جاءت في ضباب الزمن .. بعد ان مضى العبد اكتشف موسى انه اطلع على بحر جديد من العلم ليس هو بحر الشريعة الذي يشرب منه أنبياء الله ، عليهم صلاة الله وسلامه ..

نحن امام بحر الحقيقة هنا ..

لهم علم القدر الاعلى ..

لهم هذا العلم الذي لا يمكن النظر فيه بعقولنا البشرية ، او منطقنا المعتاد في النظر الى العلوم .. فليس هذا العلم هو العلم التجريبي الذي نعرفه على الارض ، وليس هو يعلم لانبياء الذي يوحى الله به اليهم ، انما نحن امام نوع من العلم جديد ..

من يكون صاحب هذا العلم الفذ ... ؟

اهو ولي او نبي ... ؟

يرى كثير من الصوفية ان هذا العبد الرباني ولي من اولياء الله تعالى ، اطلعه الله على جزء من علمه اللدني فخير اسباب انتقال العلم المعروفة .

ويرى بعض العلماء ان هذا العبد الصالح كان نبيا ..

ويحتج اصحاب هذا الرأي بأن سياق القصة يدل على تبوه من وجوه :

١ — اهدمها قوله تعالى :

« فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لنا

٢ — والثاني قول موسى له :

« هل أتبعك على أن تعطين مما علمت ورشدا ؟ » قال : أنك لن تستطيع معي صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟ . قال : أستعفى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال : فإن أتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » [٢] ..

ولو كان وليا ولم يكن بنى ، لم يخاطبه موسى هذه المخاطبة ، ولم يرد على موسى هذا الرد . ولو أنه كان غير نبي ، لكان هذا معناه أنه ليس بمعصوما ، ولم يكن هناك داع لموسى ، وهو النفس العظيم ، وصاحب العصية ، أن يلتبس علما من ولى غير واجب العصية ... !

٢ — والثالث إن الخضر أقدم على قتل ذلك السلام بوحي من الله وأمر منه .. وهذا دليل مستقل على نبوته ، وبرهان ظاهر على عصيته ، لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس مجرد ما يلقى في خلده ، لأن خاطره ليس بواجب المعصية .. إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق .. وأن معنى اتدأ الخضر على قتل السلام دليل على نبوته ..

٤ — والرابع قول الخضر لموسى :

« رحمة من ربك وما فعلته عن أمري » [٣] ..

يعنى أن ما فعلته لم أعلمه من تلقاء نفسي ، بل أمر أمرت به من الله وأوحى إلى فيه ..

هذه آراء العلماء والزهاد .. اخبر العلماء أن يكون الخضر نبيا ، واختار الصمد والزهاد والصوفية أن يكون وليا من أولياء الله ..

ومن كلمات الخضر التي أوردها الصوفية منه .. قول وهب بن منبه : قال الخضر : يا موسى أن الناس معذبون في الدنيا على قدر عيوبهم بها .. وقول بشر بن الحارث الصافي .. قال موسى للخضر : أوصني .. قال الخضر : يصر الله عليك طاعته ..

وتخاصم العلماء والزهاد حول الخضر .. نادى كل فريق لنفسه .. ونشأ هذا الخصام من اعتبار العلماء أنفسهم ورثة الأنبياء ، وأهل الشريعة ، ومن اعتبار الصوفية لأنفسهم أهل الحقيقة ، التي كان يمثلها

(١) الآية ٦٥ سورة الكهف مكية .

(٢) الآيات ٦٦ إلى ٧٠ سورة الكهف مكية .

(٣) من الآية ٨٢ سورة الكهف مكية .

ونفسك نحن عن رأينا فيه ، حيرة وعجزاً عن الوصول الى يقين .. فنحن
نميل الى اعتبار نبيينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، غير أننا لا نجد نصاً في سياق القرآن
على نبوته ، ولا نجد نصاً مانعاً من اعتباره ولياً آتاه الله بعض علمه
اللغنى ..

ولعل هذا القموض حول شخصه الكريم جاء متعمداً ، ليقدم الهدف
الأصلي للقصة .. ولتسوق تلرم مكاناً فلا نتمداه ونختصم حول نبوته أو
ولايته .. وإن أوردناه في سياق انبياء الله ، لكونه محمداً لموسى .. واستأذا
له فترة من الزمن ..

أنبياء لبني إسرائيل من بعد موسى

لم يخرج أحد من الله ممن كان مع موسى .. سوى اثنين .. هما
الرجلان اللذان نزلوا على بني إسرائيل بدحول قرية الجبارين .
ويقول المفسرون : ان أحدهما يوشع بن نون .

وهذا هو نبي موسى في قصته مع الخضر .. صار الآن نبيا من
أنبياء بني إسرائيل ، وقتلوا لجيشه ونحو الأرض التي أمرهم الله بدحولها ..
وكان الله قد أمر موسى ان يحدد بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقيب ..
كما قال تعالى :

« ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا ،
وقال الله : اني معكم ، فمن أقيم الصلاة ، وآتيت الزكاة ، وآمنتم
برسلي وعزرتهم ، وأقرضتم الله قرضا حسنا ، لا كفرن منهم
شيئا ، ولا تخفتم ، ولا تخفكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد
ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » [١] .

وهكذا نرى العهد مشروطا بميثاق أخذه الله عليهم ، ان يقاتلوا ولا
يفروا ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا برسلي .. امتداء
من موسى الذي أنزل الله عليه التوراة ، وانتهاء بمحمد الذي بشر الله به
في التوراة .. حين كانت هي توراة الله الحق التي لم تتبدل اليها أيدي
التبديل والتحريف .

.....

خرج يوشع بن نون ببني إسرائيل من التيه ، وقصد بهم الأرض
المتحصنة .

قطع بهم نهر الأردن وانتهى الى أريحا ، وكانت من حصن المدائن
سورا وأعلاها قصورا وأكثرها أهلا . لحاصرها ستة أشهر .. ثم
أهبطوا بها يوما وهم يصربونها بالأمواق .. فتفتتح سورها وتسقط دعة

(١) الآية ١١ سورة المائدة مدنية .

واحدة .. وسنلاحظ ان السلاح الذي استخدم في اول مصيركم كان متقنيا لدرجة مذهلة ، فقد استعمل المهاجمون قوة الصوت لأول مرة كسلاح . ان حبيبت الصوت الخارج من الأنواق هي التي حطمت أسوار المدينة ، ولسنا نعلم هل لوحى الله ليوشع بن نون بهذا التصرف ، ثم انه رأى ارتفاع القلعة ، أم ان الأمر جاء بعض مصادفة .. ظلوا ينفذون في الأبواب والفتحات طوال ستة أشهر هي فترة الحصار ، حتى خرجوا بسقوط الأسوار .

تروى الأساطير هنا حكايات من الشمس التي توفقت عن الدوران حتى انتهى يوشع بن نون من فتح الأرض المقدسة . وهي أساطير نسيجها المحيطة الشعبية لليهود ، وهي متعلقة إلى الحد الذي لا يصمد للنقاش ، فالشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يتوقضان لموت أحد ولا لحبقة ، ورغم عظمة الخوارق والمعجزات التي وقعت لبني اسرائيل ، فقد كانت كلها معجزات لا تتعارض مع نيلوس الكون ونظامه .. لم تكن هناك معجزة تتعلق بالشمس أو القمر .. لم تجلوز المعجزات أديم الأرض أو البحر أو الجبل .

.....

صدر الأمر الإلهي لبني اسرائيل ان يدخلوا المدينة سجدا .. أي راكعين مطلقين رؤوسهم شاكرين لله عز وجل ما من به عليهم من الفتح .

أمروا ان يقولوا حل دخولهم ، «الحظة» (١) .

بمعنى حط منا خطايانا التي سلكت ، وجئنا الذي تقدم من آثامنا .. وخالف بنو اسرائيل ما أمروا به قولا وعملا .

دخلوا الباب متعاليين متكبرين ، وبدلوا قولا غير الذي قيل لهم . واصلهم عذاب من الله بما طلبوا . كانت جريمة الآباء هي الذل ، واصبحت جريمة الأبناء الكبرياء والافتراء .

قال تعالى :

« والذ قيل لهم : استقيموا هذه القرية واكلوا منها هبت شلتم ، وقولوا حطة ، وادخلوا الباب سجدا فصر لكم خطيئاتكم سترهم المصنين . فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم ، فارسلنا عليهم رجلا من السماء بما كانوا يظلمون » (٢) .

ولم تكن هذه الجريمة هي اول جرائم بني اسرائيل ولا آخر جرائمهم ، فقد عذبوا رسلهم كثيرا بعد موسى ، وتحولت التوراة بين أيديهم إلى قرأليس يبدون بعضها ويخفون كثيرا .. وامتد هذا اللعب إلى العقيدة .. وسجل القرآن عليهم هذا في سورة الأعراف :

(١) لفظ من الآية ١٦١ سورة الأعراف مكة .

(٢) الأيتان ١٦١ ، ١٦٢ سورة الأعراف مكة .

« وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا : ما انزل الله على بشر من شيء ،
 قل : من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس ،
 تعملونه قراطيس تبذونها وتحفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا انتم
 ولا اباؤكم ، قل : الله ، ثم نزلهم في خزفهم يلعبون » [١] .

واذا كان الخطاب ينطبق على أحفاد بني إسرائيل الذين عثسوا في
 الجزيرة المربية ، فقد كان واضحا من تاريخ بني إسرائيل ذاته ، أن التوراة
 لم تسلم من هذا الميث ، باخفاء بعضها واظهار البعض ، حسبما تقتضي
 الأحوال وتدفع المصلحة الباشرة ، وكان هذا الجحود هو المسئول عما
 أصاب بني إسرائيل من عقوبات .

عاد بنو إسرائيل الى ظلمهم لأنفسهم .. اعتقدوا أنهم شعب الله
 المختار ، وتصوروا انطلاقا من هذا الاعتقاد أن من حقهم ارتكاب أي شيء
 وكل شيء .. وعظمت فيهم الأخطاء وتكثرت الخطايا وابتدت الجرائم بعد
 كتابهم الى لثبياتهم ، فقتلوا من قتلوا من الأنبياء ..
 « وقتلهم الأنبياء بغير حق » [٢] .

وسلط الله عليهم بعد رحمة الأنبياء تسوة الملوك الجبارين ، وظلموهم
 وفسدوا دماءهم ، وسلط الله أعداءهم عليهم ويمكن لهم من رقابهم
 وأموالهم .. وكان معهم تابوت الميثاق .. وهو تابوت يختم بقبعة سا
 ترك موسى وهارون ، ويقال أن هذا التابوت كان يفسم ما بقي من
 ألواح التوراة التي انزلت على موسى ونجت من يد الزمن .. وكان لهذا
 التابوت بركة تمتد الى حياتهم وحروبهم ، فكان وجود التابوت بينهم في
 الحرب .. يمدحهم بالمسكينة والثبات ، ويحفهم الى النصر ، فلما ظلموا
 أنفسهم ورذلت التوراة من قلوبهم لم يجد هناك معنى لبقاء نسختها معهم ،
 وهكذا ضاع منهم تابوت العهد ، ضاع في حرب من حروبهم التي
 هزموا فيها .

وسبغت أحوال بني إسرائيل بسبب ذنوبهم وتعنتهم وظلمهم
 لأنفسهم ..

ومرت سنوات وسنوات ..

واشتدت الحاجة الى ظهور نبي ينتشلهم من الوعدة السقيمة التي
 أوصلتهم اليها فواجه الأكثم وكبار الخطايا .

(١) الآية ٩١ سورة الأنعام بكة والآية مدنية .

(٢) من الآية ١٥٥ سورة النساء مدنية .

داود

[عليه الصلاة والسلام]

مرت مخفوات عديدة على وفاة موسى عليه السلام ، وجاء بمده
أنبياء وماتوا .. وانهزم أبناء إسرائيل بعد موسى . وضاع منهم كتابهم
المقدس وهو التوراة .. حين خربت التوراة من الصدور ، نزع من
الأبدى ..

استولى أعداؤهم على تابوت العهد وفيه بقية مما ترك آل موسى
وهارون . وتشرذم بنو إسرائيل وطردوا من ديارهم وأرضهم ومساكن
حاليهم . وانتقلت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم الا امرأة هليل ،
جعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولدا ذكرا . فولدت غلاما سمته
أليشوايل .. ومعناه بالعبرانية اسماحيل .. أى سمح الله دعائى .. غلبا
ترفع بعثته الى المسجد واسلمته لرجل صالح ليتعلم منه الخير والعبادة .
فكأن مده ، غلبا بلغ الله ، بينما هو ذات ليلة ماتم . اذا صوت يائته من
ناحية المسجد فاتفقه مفعورا ظلقا أن الشيخ يدعو ، فخرج اليه يسأله :
أدعوتنى .. فكره شيخه أن يفزعه فقال : نعم .. نعم .. فسلم .

ثم ناداه الصوت مرة ثانية .. وثلاثة .

واشبه الى جبريل عليه السلام يدعوه .

— أن ربك قد بعثك الى قومك .

لهذا النسي الكريم ذهب بنو إسرائيل يوما ..

سألوه : السنا مظلومين ؟

قال : نعم ،

قالوا : السنا مشردين ؟

قال : نعم ..

قالوا : اسئ لنا ملكا بجميعنا تحت رايته كي نكسحل فى مسيل الله
ونستعيد أرضنا ومجنا .

قال نبيهم وكان أعلم بهم :

— هل تقيم وانتون من القتل لو كتب عليكم القتل ؟

قالوا : ولماذا لا نقاتل في سبيل الله ، وقد طردنا من ديارنا ،
وتشرد لبنائنا ، ومساء حالنا .

قال نبيهم : ان الله قد بعث لكم « طالوت » ملكا .

قالوا : كيف يكون له الملك علينا ، ونحن اقل بالملك منه ، وليس لنا
وغيرنا من هو اثنى منه ؟

قال نبيهم .

— ان الله اخبره عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم .. والله
يؤتي ملكه من يشاء .

قالوا : ما هي آية ملكه ؟

قال :

— سيعود اليكم التوراة التي سلبها منكم العدو .. سيعملها الملائكة
اليكم .. هذه هي آية ملكه ..

ورقت هذه المعجزة ، وصارت اليهم التوراة يوما . وبدا تكوين
جيش « طالوت » وكان طالوت قد جهز جيشه ليحارب « جالوت » ..
وكان جالوت مياررا جبلا لا يهزمه أحد ، ولا يقاله أحد ..

ثم تجهز جيش طالوت ، وسار الجيش طويلا وسط صحراء وجبال
حتى أحس الجنود بالعطش ..

قال الملك طالوت لجنوده : سنصلف نهرا في الطريق ، من شرب
منه فليخرج من الجيش ، ومن لم يذقه ويل يذقه بيده فليبق معي
في الجيش ..

وجاء النهر فشرب معظم الجنود ، وخرجوا من الجيش ، وكان طالوت
قد أعد هذا الاختبار ليعرف من يطعمه من الجنود ومن يحميه ، وليعرف
أيهم قوى الإرادة ويعمل العطش ، وأبهم طاعة الإرادة ويستسلم
بسرعة ، وقال طالوت لنفسه : الآن عرفنا الجبناء ولم يبق معي إلا
الشجعان ..

* أصبح أن عدد الجيش قد انكش ولكن المهم في الجيش هو الشجاعة
والإيمان لا العدد والسلاح ..

وجاءت اللحظة الحاسمة ، ووقف جيش طالوت أمام جيش عدوه
جالوت ..

وكان معه أفراد جيش طالوت قليلا ، وكان جيش العدو كبيرا
وقويا .. وقال بعض الضعفاء من جنود طالوت :

— كيف نهزم هذا الجيش الجبار .. ؟

قال المؤمنون من جيش طالوت :

— المهم في الجيش هو الإيمان والشجاعة ..

كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله .

.....

.....

قال تعالى :

« ثم ترأى إلى الملاء من بني اسرائيل من بعد موسى ، اذ قالوا
لتبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ، قال : هل عسيتم ان
كتب عليكم القتال الا تقاتلوا ، قالوا : وما لنا الا نقاتل في سبيل
الله وقد اخرجنا من ديارنا وابناقلنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا
الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين .

وقال لهم نبيهم : ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا . قالوا : تبي يكون
له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟

قال : ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله
يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم .

وقال لهم نبيهم : ان آية ملكه ان ياتيكم القابوت فيه سكينه من
ريكم ، وبضة مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة . ان
في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين .

فلما فصل طالوت بالجنود قال : ان الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب
منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فاقه مني الا من اغترف غرفة
يده ، فشربوا منه الا قليلا منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا
معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون
انهم ملائكة الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله
والله مع الصابرين ، [١] .

.....

.....

وبرز جالوت في دروعه الحديدية ، ومعه سيفه وفأسه وخنجره ،
وهو يطلب احدا يبارزه .. وحلف منه جنود طالوت جميعا .. وهنا برز
من جيش طالوت راعي غنم صغير هو « داود » .. كان « داود » مؤمنا
بالله ، وكان يعلم ان الايمان بالله هو القوة الحقيقية في هذا الكون ، وان
المعبرة ليست بكمية السلاح ، ولا ضخامة الجسم ويظهر التامل .

وتقدم داود يطلب من الملك طالوت ان يبارزه جالوت ..

ورفض الملك في اليوم الاول .. لم يكن داود حلييا انما كان راعي
غنم صغير ، ولم تكن له خبرة في القتال او الحرب ، ولم يكن عنده سيف ،
كل سلاحه كان قطع الطوب التي يمش بها على غنمه .. ورغم هذا

(١) الايات ٢٤٦ الى ٢٤٩ سورة البقرة مكية .

كله كان داود يعرف أن الله هو مصدر القوة الحقيقية في هذه الدنيا ،
ولما كان مؤمنا بالله فهو أدنى لقوى من جالوت .

وجاء اليوم الثالث وطلب « داود » الأذن بقتال جالوت ، وأثنى له
الملك ، قال له : لو قتلته سوف تصير قائدا على الجيش وتزوج ابنتي ..

ولم يكن داود يهتم كثيرا لهذا الإغراء . كان يريد أن يقتل جالوت
لأن جالوت رجل جبار وظالم وعدو ولا يؤمن بالله ..

وسمح الملك لداود أن يبارز جالوت ..

وتقدم داود بكنساء وخيصة أحجار ومقلامه « وهو تبة يستخدمها
الرماة » .. تقدم جالوت المدجج بالسلاح والدروع .. وسفر جالوت من
داود وأماه وضحك منه ومن فقره وضعفه ، ووضع داود حجرا توبيا في
مقلامه وطوح به في الهواء وأطلق الحجر .

كفت الرياح مسدقة لداود لأنه يحب الله ، وهبت الرياح الحجر
نحو جبهة جالوت فقتله الحجر . سقط جالوت المدجج بالسلاح على
الأرض وتقدم منه الراعي الطيب داود فأخذ سيفه ، وبدأت الحرب بين
الجيوشين .

بدأت بين جيش قتل قائده واستمر طائر الرعب في قلوب جنوده ،
وجيش آخر يقوده راعي غنم بسيط .

قال تعالى :

« ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا وثبت
اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم باذن الله ، وقتل
داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا
دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو
فضل على العالمين » [1] .

بعد أن قتل داود جالوت :

قفز إلى قمة الشهرة في قومه فجاءه . صار أشهر رجل في
بني إسرائيل ، صار قائدا للجيش ، وزوجا لابنة الملك ، غير أن داود
لم يكن ليخرج بهذا كله ، لم يكن من أسرى الشهرة أو المجد أو الرتبة ..
كان أسيرا قديما لعيب الله عز وجل ..

وكان داود قد أوتى مونا خارقا في جماله .. وكان داود يسبح الله
ويجده بصوته العذب المعجز ..

ولهذا احتفى داود بعد أن هزم جالوت ..

ذهب إلى الجبل والمصعراء .. وهناك وجد نفسه بين لعنان الوجود
البكر .. في عزلة ساهرة يحيطها بالانابة إلى الله وتبجيد .

قال تعالى في سورة صبا :

« ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال انبسي معه والطيور ، ولما له

(1) الأيتان ٢٥٠ + ٢٥١ سورة البقرة مغلبة .

**الحديد ، أن اعمل سبلخات وقدر في السرد واعملوا صلحا
أتى بما تعملون بصير [١] .**

وقال تعالى في سورة الانبياء :

**« وسفرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعليناه
صنعة لبوس لكم لنعصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون [٢] .**

.....

.....

نحن أمام معدن مشرقى من لون خالص . انسان بلغ من شغفه
الفلس والتجرد أن انزلحت العجب بينه وبين الكائنات ، فاستجلت
عصارة النباتات وهي تصعد في سيقان الشجر لصوت ترنيته ..
واتصلت ذرات الجبال بذخبات صوته وهو يسبح ، وذابت الحدود بين
ضيق المخلوق والطير والوحش وصخور الجبال ، فاضقت كلها في نعم
واحد يتجه الى الله بالنسبيح والتسبيح والذكر .. كان داود يملك نفسه
تستطيع أن تبتزع امتزاجا مسوغا بغيرها من نفوس الكائنات ، حتى
ما نتمسور أنه لا يملك نفسه كالجبال والصخور ..

كان داود اذا جلس يسبح الله ، ويحده .. تعرت الكائنات من اطار
الوجود الجليل ، وانكشف باطنها المترنم بوجد الله ، واستجاب هذا
الباطن للنغم الصالح من داود .

واختار الله داود نبيا .. وآتاه الزبور ..

قال تعالى :

« وآتيناه داود زبوراً [٣] .

والزبور كتاب مقدس كالتوراة .

**وبقرأ داود من كتابه ويسبح الله وتشتبك معه الجبال في التسبيح ..
وتحشر له الطير ..**

قال تعالى :

« والذكر عبدا داود ذا الأيد إنه اواب . آنا سفرنا الجبال معه

**يسبحن باللعش والاشراق ، والطير محشورة كل له اواب .
وشددا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب [٤] .**

.....

.....

الصحراء تمتد حتى ظلكي بالأمق .

(١) الآية ١٠ مكية .

(٢) الأمان ٧٦ ، ٨٠ مكية .

(٣) من الآية ٥٥ سورة الاسراء مكية .

(٤) الأيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ سور عن مكية .

هكذا يوم صليام داود .

يصوم النبي الملك يوما ويفطر يوما .. هذا صليام الدهر .. فوانه
تسرج ، وهو يقرأ من كتبه .. يرتل آيات من الزبور .. تسبح الجبال
معه .. ليس صدى صوته هو الذي يسمعه ، ان صدى الصوت هو
الصوت نفسه مكررا .. لها الجبال فهي تكمل له ترتيل الآيات .. وأحيانا
يسكت هو فتكمل هي التسميح .. ولم تكن الجبال وحدها هي التي تسبح
معه .. كانت الطيور أيضا تشترك في التسميح . كان داود اذا بدأ قراءة
كتابه المقدس اجتمعت حوله الطيور والنوحوش والأشجار وسبحت
الجبال .

لم يكن صدق داود هو وحده المسئول عن تسميح الجبال معه أو
الطيور .. لم تكن مذوبة صوته هي المسئولة عن تسميح بقية المخلوقات
معه .. انما كان هذا معجزة من الله له كهي عظيم الايمان ، صادق الحب
له .. ولم تكن هذه وحدها كل معجزاته .. انما اعطاه الله قرة على فهم
لغة الطيور والحيوانات .. كان يتأمل يوما لسمع عصفورا يغاطبه
عصفورا آخر .. واكتشف انه يفهم لغة العصفورين .. قذف الله في قلبه
نورا لفهم لغة الطيور ولغة الحيوانات ، وكان داود يحب الحيوانات والطيور
ويطف عليها ويطعمها ويداويها اذا مرضت ، وكثرت الطيور والحيوانات
تحبه وتقصده . ومع لغة الطيور علم الله داود الحكمة .. وكان داود اذا
عليه الله شيئا أو اعطاه معجزة زاد في حبه الله ، وزاد من شكره
له . وزاد من ايمانه بالله ، وزادت عبادته له .. حتى أصبح يصوم يوما
وفطر يوما ..

واحب الله داود ومنحه ملكا عظيما .. وكثرت مشككة قومه هي كثرة
الحروب في زمانهم ، وكثرت الدروع الحديدية التي يستعملها صناع الدروع
ثقيلة ولا تحمل المحارب خرا يستطيع ان يتحرك كما يشاء أو يتأمل
كما يريد ..

يقولون ان داود جلس يوما يفكر في هذه المشكلة ، وألمه قطعة من
الحديد يعض بها بيديه .. ثم اكتشف لحاة أن يده تموص في الحديد ..
الآن الله له الحديد ، فراح يقطعه ويشكله قطعة صغيرة يحملها بعضها
بعض ، حتى اذا انتهى كان أمامه درع جديد من الحديد .. درع يتكون
من حلقات حديدية تسمح للمحارب بحرية الحركة ، وتحبى جسده من
السيف والنفوس والناحر .. أفضل من الدروع الموجودة أمامها ..
ويقال في ذلك ان الله الآن له الحديد بمعنى انه كان اول من اكتشف
ان الحديد يصهر بالنار ويمكن تشكيله آلاف الأشكال .. ونطش لهذا
التفسير أكثر

وسجد داود شكرا لله .

وبدأت المصانع تعمل في صناعة الدروع الجديدة .. حتى اذا انتهت منها
سلبت لحيشه واكتشف أعداء داود وحيوشهم ان سيومهم لا تؤثر
في هذه الدروع ، وان دروعهم ثقيلة ، وتلفذ منها السيف .. انما تمنعهم
من الحركة ولا تحبهم من القتل ، بعكس الدروع التي صنعها داود .
وفي كل المرات التي حارب فيها جيش داود أعداءه ، كان النصر

بنمقد لداود وجيشه .. لم يدخل داود معركة الا انتصر فيها ، وكان يعلم ان هذا النصر من عند الله .. وكل من يريد من شكره الله ويزيد من تسيحه الله ويريد حيا الله .

وعندما يحب الله نبيا من تبياته لو عبدا من عباده ، يجعل النفس يحبوه ويضع له القبول في الأرض .. وأحب الناس داود مطلقا أحبته الطيور والحيوانات والجمال .. وكان داود أبدا أكثر مخلوق يحبه الناس ونحبه الطيور والجمال .

ورأى الملك هذا فثار في نفسه الغيرة .. وبدأ يحلول ابناء داود وقتله .. وجهز جيشا ليقاوم داود . ومهم داود ان الملك يعار منه .. ولهذا لم يهرب الملك . كل ما في الأمر انه أخذ سيف الملك وهو نائم ، وقطع جزءا من ثيابه بالسيف ثم أيقظ الملك وقال له :

— أيها الملك .. لقد خرجت لقتلي ، وأنا لا أكرهك ولا أريد قتلك ، ولو كنت أريد ان أقتلك لفعلت هذا وأنت نائم ، هذه قطعة من ثيابك قطعتها وأنت نائم وكنت تستطيع ان تقطع رقبتك بسدلا منها ، ولكن لم أفعل .. أنا لا أحب ان أؤذي أحدا .. ان رسلتي هي الحب ولبيست الكراهية .

وأحب الملك انه أخطأ وطلب من داود العفو وتركه ومضى ..

ثم مرت الأيام وقتل هذا الملك في حرب لم يشترك فيها داود ، لأن الملك كان يقاتلته ورفض الاستمعة به .. وصار داود بعد ذلك ملكا .. تذكر الناس كل ما فعله من أفعاله وأخبروه ملكا عليهم ، وبذلك كان داود نبيا أرسله الله وملك في نفس الوقت .. ولم يزد الملك داود الا شكرا لله ، وعبادة الله ، وحما في الخير وعملا للخير ، وأحبنا الى الفقراء ، ورعاية لمصلحة الناس وراحتهم .

وشد الله ملك داود .. جعله الله منصورا على أعدائه دائما ، وجعل ملكه قويا عظيما يخيف الأعداء حتى بغير حرب .. وزاد الله من نعمه على داود فأعطاه الحكمة وفصل الخطاب ، أعطاه الله مع النبوة والملك حكمة وقدرة على تمييز الحق من الباطل ومعرفة الحق وسبقته .

وكان لداود ابن سماء سليمان .. وكان سليمان ذكيا من طفولته وصما .

كان عمر سليمان إحدى عشرة سنة حين وقعت هذه القصة ..

قال تعالى في سورة الأنبياء :

«لداود وسليمان إذ يحكمان في الحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ فَمِنْ الْقَوْمِ
وَكَيْفَ لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ» ففيها سليمان ، وكلا آتينا حكما
وعلمنا .. [١]

(١) الأنبياء ٧٨ و ٧٩ مكية .

جلس داود كما كانه يوما بهكم بين الناس في مشاكلهم .. وهاه
رجل صاحب حقل ومعه رجل آخر ..

وقال له صاحب الحقل :

— سيدي النسي .. ان غنم هذا الرجل نزلت حقلى اثناء الليل ،
واكلت كل عناقيد العنب التى كانت فيه .. وقد جئت اليك لتحكم لى
بالتمويض .

قال داود لصاحب الغنم : هل صحيح ان غنمك اكلت حقل هذا
الرجل ؟

قال صاحب الغنم :

— نعم ياسيدي ..

قال داود : لقد حكيت بأن تعطيه غنمك بدلا من الحقل الذى اكلته .

قال سليمان .. وكان الله قد عليه حكمة تضاف الى ما ورث من والده :

عندى حكم آخر يا ابي ..

قال داود :

— قل له سليمان ..

قال سليمان : احكم بأن يأخذ صاحب الغنم حقل هذا الرجل الذى
اكلته الغنم .. ويصلحه له ويررمه حتى تنمو لشجيرات العنب واحكم
لصاحب الحقل ان يأخذ الغنم ليستفيد من صوفها ولبنها ويأكل منه ، ماذا
كرت عناقيد العنب وعاد الحقل سليما كما كان أخذ صاحب الحقل حقله
وامضى صاحب الغنم غنمه ..

قال داود : هذا حكم عظيم ياسليمان .. الحمد لله الذى وهبك هذه
الحكمة .. انت سليمان الحكيم حقا .

وكان داود رغم قربه من الله وحب الله له ، يتعلم دائما من الله ، وقد
عليه الله يوما ألا بهكم ابدا الا اذا استمع لأقوال الطرفين المتخاصمين ..

جلس داود يوما في محرابه الذى يصلى الله ويتعبد فيه ، وكان اذا
دخل حجراته أمر حراسه الا يسمحوا لاحد بالدخول عليه أو ازعاجه وهو
يصلى .. ثم فوجئ يوما في محرابه انه أمام اثنين من الرجال ..
وخاف منهما داود لأنهما دخلا رغم انه أمر الا يدخل عليه احد .. سالهما
داود : من أنتما ؟

قال احد الرجلين : لا نأخذ ياسيدي .. بنى وبين هذا الرجل
خصومة وقد جئتك لتحكم بيننا بالحق ..

سأل داود : ما هي القضية ..

قال الرجل الاول :

— ان هذا اخي له تسع وتسعون بمجة ، ولى نعمة واحدة ..
وقد أخذها منى . قال اعطها لى وأخذها منى ..

وقال داود بغبر أن يسمع رأى الطرف الآخر وجهه :

.. لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعلجه .. وان كثيرا من الشركاء يظلم بعضهم بعضا الا الذين آمنوا .

ووجه داود باختفاء الرجلين نجاة من ليليه .. اخفى الرجلان كما لو كنا سحابة تبخرت في الجو . وانكر داود أن الرجلين ملكان أرسلهما الله اليه ليعلماه درسا .. فلا يحكم بين المتخاصمين من الناس الا اذا سمع اقوالهم جميعا ، فربما كان صاحب التسع والتسعين نجاة معه الحق .. وخر داود راكعا ، وسجد لله ، واستغفر ربه ..

قل تعالى :

« وهل أتاك نبا الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا : لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا الى سواء الصراط . ان هذا اخي له تسع وتسعين نعجة ولى نعجة واحدة ، فقلل اكفيتها وعزنى لي الخطأ . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعلجه ، وان كثيرا من الخطأ ليسى بعضهم على بعض ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود انما غناه فاستغفر ربه وخر راكعا واناب . غفرونا له ، ذلك وان له عندنا لزقى وحسن مأب » [١]

.....
.....

نسخت أساطير اليهود قصصا مريبة حول فتنة داود عليه السلام . قيل انه اشتهى امرأة اهد قواد جيشه فارسله في معركة يحرف من البداية نهايتها ، واستولى على امراته ..

وليس أبعد عن تصرفات داود من هذه القصة المخطئة ..

ان انثى يتصل قلبه بأبعد نجوم السماء ويتصل تسبيحه بتسبيح الكائنات والجادات ، يستحيل عليه ان يرى أو يلاحظ جبلا بشريا محصورا في وجه امرأة أو جسدها .

ان من يرى الجمال الاصيل في الكون ويتصل مباشرة به ويغتنمه لتسبيحه ، يستحيل عليه ان يخضع لغريزة اقتناء امرأة .

كان داود عبدا لله وحده . ولم يكن ممكنا له أن يصير عبدا لعرائزه كما تحكى الاسرائيليات عنه .

.....
.....

عاد داود يعبد الله ويتسبحه ويتغنى بحبه ويمجده حتى مات ..

(١) الآيات ٢١ الى ٢٥ سورة ص مكية .

كان داود يمسوم يوما ويفطر يوما .. قال رسول الله محمد
ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم عن داود : « أفضل الصيام صيام داود .
كان يمسوم يوما ويفطر يوما . وكان يقرأ الزبور بسبعين حوتا ، وكانت
له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي بيكائه كل شيء ويشفي بصوته
المهموم والمحموم » ..

.....
.....

مات داود عليه السلام فجأة كما تقول الروايات .

وشيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب في أردبتهم التقليدية ، مع آلاف
خيرهم من الناس . ولم يمض سوى بضع سنين إلى أن جاء داود بن داود .
كانت بنو إسرائيل قد جزموا عليه .. منهم على داود .

وآفت الشمس الناس فدعا سليمان الطير قال :

— اظلي على داود .

فاظلت حتى اظلمت عليه الأرض .

وسكنت الريح .

وقال سليمان للطير : اظلي الناس من ناحية الشمس وتعي من ناحية
الريح . وأطاعت الطير . فكان ذلك أول ما رآه الناس من ملك سليمان .

سليمان [عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى في سورة النمل :

« ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضّلنا على
كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال يا ايها الناس
علينا منطلق الطير وأوتينا من كل شيء » ان هذا نهر الفضل
المبين « [١] » .

.....

« وورث سليمان داود »

ورثه في النبوة والملك . ليس المقصود وراثته في المال ، لان
الانبياء لا يورثون . انما تكون أموالهم مسخقة من بعدهم للفقراء
والمحتاجين ، لا يخصصون بها اقرباءهم .

قال محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم « نحن معشر الانبياء
لا نورث » .

ورث سليمان داود في النبوة ، وهذا مفهوم ، فقد اختاره الله عز
وجل نبيا الى بني اسرائيل ، ايضا منحه الله الملك عليهم ، ولعل لخطر
شيء ورثه سليمان من داود تلك التقلبات العسكرية التي لزمها داود ،
وهذا التقدم الساحق الذي انتقل الى سليمان من ملك داود . كان داود في
الأصل راعي غنم فقيرا . لكنه تحول مع الوقت الى قائد عسكري ليس
له مثل ، وتم هذا التحول بالعلم من الله وعون منه وثابته ، كان داود في
البداية يهرك ان القوة الحقيقية الحاتكة في الوجود هي قوة الله تعالى ،
وحين بدأ يده وأمسك بقطعة الحجر وقذفها ببقلامه نحو جالوت ، كان
هذا أيدانا بتحول موازين القوة . . وتغير وضع الجيش في بني اسرائيل
من شرائف ظهر أمام أعدائها الى جيش حقيقي له وجوده . وقد وقعت في
حياة داود معارك عسكرية عديدة ، لا يحدثنا القرآن عنها بالتفصيل ،
فلاقرآن كتاب دعوة الى الله وليس كتابا في التاريخ ، فهو ان القرآن يكفي
بان يقول عنه « **وشددنا ملكه** » [٢] وتعنى الآية انه لم ينكسر في معركة من

(١) الآية ١٥ - ١٦ مكية .

(٢) من الآية ٢٠ من سورة مكية .

ممركه ائدا . والى جوار تكيد الله تعالى لداود .. وجهشه وشمبه ،
بومسلم موحدين قد أسلبوا وجوههم لله .. كشف الله تعالى لداود عن
أمر جعلت لجيشه ميرة تفوق سلاح على غيره من جيوش الأرض
وتتخذ .

قال تعالى :

« ولنا له الحديد » [١] ..

ان مسألة الدروع الحديدية التي تصنع من حلقات تتيج للقتال
حرية الحركة .. كانت في ذلك الزمان البعيد طرفة عاتلة في الحروب ..
وتصور أنت اثنين من المحاربين ، أحدهما يتحرك بدرمه في حرية كاملة
كأنه لا يرتدى شيئا من الدروع ، بينما يتن المحارب الثاني تحت ثقل
دروع تحوقه وتثقل حركته .

هذا التقدم الخطير الذي منحه الله تعالى لداود وجيشه .. انتقل
الى ملك سليمان ..

وهكذا ورث سليمان جيشا متقدما على غيره من جيوش الأرض . كما
ورث دولة قوية .. وزاد الله سليمان .

« وقال يا أيها الناس علمنا جطلق الطير ، ولوفينا من كل شيء ، ان
هذا هو الفضل المبين » [٢] .

ولسوف نهض ونحن نمضي على الصناعات المشرقة التي اوردها
القرآن من سليمان .. اتنا نواجه العصر الذهبي لبني اسرائيل ..
عصر نبينهم وملكهم سليمان ..

.....
.....

لم يكتف سليمان بما ورثه من داود ، حركه الطيوج التبييل نحو
ما هو أكثر .

ومت بديه يوما لله وسأل .. وليس بين قلب النبي وبين الله حاجز
أو مسافة أو زمن . لا يكاد أحد الأنبياء يدمو الله حتى تتحقق دعوته .
ان صفاء القلبين يبلغ درجة معونة يستطيع دائما أن يجد طريقه
الى الله .

قال سليمان في دعائه :

« رب اغفر لي ، وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي » [٣] .

كان سليمان يريد من الله تعالى ملكا لا يعطيه لأحد من خلفه
بعدي ذلك .

(١) من الآية ١٠ سورة صبا مكة .
(٢) من الآية ١٦ سورة النمل مكة .
من الآية ٣٥ سورة صي مكة .

وقد استجاب الله تعالى لعبد سليمان ومنحه هذا الملك .
 من حق أبناء هذا الزمان أن يسألوا : لماذا أراد سليمان هذا الملك
 العريض الذي لا يفتنى لأحد من بعده .
 كان سليمان ينطق عصرنا رجلاً مولعاً بالسلطة ، حريصاً على الجدد
 الذي توفره ، تواقاً إلى الحكم والنحكم ؟
 لن نجد في قلب سليمان شيئاً من هذا كله .

إن طموح سليمان للملك كان طموح نبي لولا وأخيراً .. ولا يتعلق
 قلب النبي إلا بما يحقق لدموته الانتشار في الأرض .. ولم يكن سليمان
 عاشقاً للملك المجرى ، تواقاً إلى الكبرياء والعظمة ، إنما كان يريد الملك
 ليحارب الظلام الذي انتشر في الأرض ، وينشر نور الإسلام الذي تنكسر
 به النساء على الأرض حين تنعت رسولاً .. تأمل كلمة سليمان لبليزيس
 وهو يحاورها حول عرشها في سورة النمل :

فلما جاءت قبل : اهكذا عرشك .

قالت : كانه هو !

« واوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » (١) ..

هذه كلمة سليمان الحكيم .. وهي الكلمة التي تثير في امتنا
 حلمه للملك والرياسة والقوة .. لقد سافر سليمان كل مجده وملكه
 للدعوة إلى الله .. ونشر الإسلام .. ألم تقل ملكة سبأ في ختلم تمتها
 مع سليمان :

« رب أنى ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين » (٢)
 سورة النمل .

.....

بعد هذه المقدمة الأساسية ،

نقلب صفحات النبي الملك سليمان ..

ورث سليمان داود في الملك والنبوة والحكمة .. أطلق عليه الناس
 اسم « سليمان الحكيم » .

ولم تكن حكمة سليمان مقصورة على عدله بين الناس ، ورحمته بهم ،
 وحكمه في قضاياهم بالحق ، إنما تجاوزت حكمته عالم البشر إلى عالم
 الطيور والحيوانات ..

كان داود يعرف لغة الطيور ، لكن سليمان كان يتكلم مع الطيور
 ويوظفها في خدمته .

(١) الآية ٢٢ مكية .

(٢) من الآية ٤٤ مكية .

وكان داود اذا سبح .. سبحت معه الجبال والوحوش والطيور ،
وتوقفت الرياح لتستمع الى هذا التسبيح العظيم اما سليمان فلزده الله
على ذلك لن سفر معه الوحوش وتخضع له للرياح والطيور ..
قال الله تعالى :

« ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا : الحمد لله الذي فضّلنا
على كثير من عباده الزّالّين . وورث سليمان داود وقال : يا ايها
الانس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء ، ان هذا ليهو
الفصل الحين » [١] .

كان سليمان يستطيع ان يسمع هيمس نيلة تحدث نيلة اخرى ..
كك كان يستطيع ان يامر هذه النيلة فتطبع لوامره ..

وكان جيش سليمان لرهب الجيوش في العالم ، لن يعرف العالم
حيثا يهده القوة ، ولئن كانت الجيوش تستبد قوتها من قتال جنودها
فقد استبد جيش سليمان ثوته من اختلاف جنوده ، كان الجيش يتكون من
كلب يدعى بجيشه لا يقاتل .

كان جيشه يتكون من البشر .. ومن الجن ، ومن الطير . ونحن نعرف
ان الجن مخلوقات خلقها الله وليس في استطاعة البشر رؤيتها لو
لستعزها لو الاستقامة بها .. اما سليمان النبي عليه السلام فقد
أعطاه الله وحده هذه القدرة .. القدرة على تسخير الجن وتوظيفهم
جنودا في جيشه لثناء الحرب ، وميالا في ملكه لتتسبب السلام ،
واجن مطوقات لا تظهر لتفعل انت جيشا جنوده غير ظاهرين ..

لن قتال مثل هذا الجيش مستحيل ، كان جيشه يضم ايضا
الطيور .. وكانت الطيور في جيش سليمان تلعب نفس الدور الذي تلعبه
اجهزة الاستطلاع والمخابرات في الجيوش الحديثة .. ونحن نعرف ان دور
الاستطلاع في الحرب هو اهم دور ، فمن هذه الاجهزة يعرف الجيش
المسلح حقيقة عدوه .. وكان هذا دور الطيور في جيش سليمان ،
كثت تطير الى جيوش الأعداء ، ثم تعود لسليمان بلخبر أعدائه كلها ..

ومع الجن والطيور .. سفر الله سبحانه وتعالى الرياح لسليمان ..
كان يتحكم فيها ويستطيع ان يركبها هو وجنوده .. ونحن نعرف الآن
ان فكرة الطائرات هي استغلال الهواء بحيث يمكن للطائرة ان تطير فيه
رغم انها أثقل منه . وقدما .. أعطى الله لسليمان هذه القدرة على
تسخير الرياح له واستخدامها في أغراضه . وبذلك كان جيش سليمان
يضم جنودا طائرين في وقت لم يكن هناك من يحلم بالطيران فيه .
ولعل هذه المعجزة التي وهبها الله لسليمان كانت سببا في معده العسكري
.. لقد صار جيشه لا يقاتل ..

قال تعالى :

« وحشر سليمان جنوده من الجن والانس والطيور فهم يوزعون » [٢]
[سورة النمل] .

(١) الأيات ١٥ - ١٦ سورة النمل مكة .

(٢) الآية ١٧ مكة .

وقال تعالى :

« فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين
كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد . هذا قطارنا
فلينن أو لميك بنير حسب . وإن له من جنات ترقى وحسب
مآب » [١] .

[سورة ص :]

منصرف أن سليمان سبى فكرة استخدام الخيل في الجيش ، بعد
أن تمطره الخيل يوما من الصلاة .

حين ترك سليمان الخيل ابتداء وجه الله موضعه الله عنها بالريح التي
تجري بأمره إلى أي بقعة يريدونها من البلاد . ومع سلاح الطيران الذي
أوتيها سليمان ، أعطى الله تعالى لسليمان مقدرته لم يعطها لأحد من
كثيرائه قط . هي المقدرته على التحكم في الشياطين . والشياطين نوع من
الجن . هو التسوع الشقي من الجن . وهذا نوع لا يستطيع البشر
التحكم فيه ، ولا يستطيع الجن الصالح نفسه التحكم فيه . أما سليمان
فقد وهبه الله قدرة على تسخير الشياطين وتثنيها وتبديدها بالسلامة
وتعذيبها إذا عصت أوامره . وكنت الشياطين تبني له القصور والدور
والقصور والتمثيل والحارب . . وكنت تفوض له في أعمال البحر
وتستخرج اللؤلؤ والمرجان والياقوت . .

وكان من يتردد من الشياطين يتبع في الأصفاد ليكون إشارة إلى
مجد سليمان وقدرته على التحكم في الكائنات . . وهي قدرة أوتيها بآئن
ربه كمجزأة منه سبحانه .

قال تعالى :

ومن الجن من يعمل بين يديه بآئن ربه ، ومن يزغ منهم من أمرنا
نلقاه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محارب وفتيل
وجنان كالجواب وقبور راسيات » [٢] .

[سورة سبأ :]

وجاء على الأرض وقت . . فإذا سيدها بغير منسازع هو سليمان
الحكيم .

ومع هذه النعم المثيرة الخاصة التي أنعم الله بها على سليمان . . كان
سليمان أكثر الناس ذكرا له ، وأكثر الناس شكرا لله في زمانه . قال
تعالى عن سليمان : « نعم العبد إنه أواب » [٣] والآية هي العودة الدائمة
إلى الله بالصلاة والصيام والتسبيح والبكاء والاستغفار والحب . والعبد
الأواب هو العبد المتجه إلى الله دائما . ولقد كنت أوقف الصلاة عند

(١) الآية من ٣٦ إلى ٤٠ مكية .

(٢) من الآية ١٢ مكية .

(٣) من الآية ٢٠ سورة ص مكية .

سليمان إبرا خطيرا لا يشغله منه شيء .. وفي المرة الوحيدة التي فاتته فيها وقت الصلاة .. كان هذا رغم إرادته ..

كان مشغولا بساعتها بأمر خطير هو الإعداد للحرب .. كان الوقت عصرا ، وراح سليمان يستعرض خيل الجنود والضباط . وكانت الخيل سلاحا هائبا في جيشه . وبرز سليمان على الخيل وهو يفتحصها حتى كانت صلاة العصر تقوت . وسجد سليمان لله ، وصلى ثم أمر أن يردوا إليه الخيل ، فراح يمسح على أعناقها وأرجلها بيده وهو يعتذر له من أن الإعداد للجهاد والحرب والغزو كاد يقوت عليه وقت الصلاة .

من يومها استنص سليمان من الخيل في جيشه .. فعرضه الله عنها بالريح التي تصبه وتحمل جنوده حيث يشاء .

قال تعالى في سورة (ص) :

« ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد إنه أواب . إذ عرض عليه بالعمى الصانعات الحديد - فقَالَ : أَنَّى أَهَبْتُ حَب الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . رَدَّهَا عَلَيَّ ، فَغَطَّقَ بِمِسْحَاً مَلْسُوقٍ وَالْأَعْيُنُ » [١] .

وكان سليمان يعرف أراض الخيل ويستطيع أن يتحدث معها بلعنها ويممم منها وتطيع لأمره .

واقسم الله تعالى على سليمان بنعمة أخرى ..

فَقَسَمَ :

« وَأَسْقَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ » [٢] ..

والقطر هو النحاس المذاب .. مطلقا انضم على والده داود بأن الآن له الحديد وعليه كيف يسهره .. وقد استعاد سليمان من النحاس المذاب فائدة عظيمة في الحرب والسلام ، في الحرب كان يمزج النحاس بالحديد ويصنع البرونز ، وكانوا يستخدمون الأسلحة البرونزية في الحروب ، كالسيوف والدروع والحصار ، وكانت هذه الأسلحة أقوى الأسلحة أياما .. وفي السلم كان النحاس يدخل في صناعات المباني وصناعات التجميل وغيرها ..

ورغم كل هذه النعم العظيمة والمنح الخاصة ، فقد عنت الله تعالى سليمان .. اختبره وامتنعه ، والفتنة امتحان دائما ، وكلما كان العبد عظيما كان امتحانه عظيما ، فلئن الله سليمان بالمرض .. وقال الله تعالى في ذلك :

« وَلَقَدْ هَمَمْنَا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ . قَالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكاً لَا يُنْفِى لِأَحَدٍ مِنِّى بِعَدَى أَنَاكَ أَنْتَ الرَّهَابُ . فَصَفَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَهْرِى بِأَمْرِ رَحْمَةٍ هَيْثَ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَقَاءٍ وَلَهْوَاهُ » [٣] .

(١) الآية من ٢٠ إلى ٢٢ مكية .

(٢) من الآية ١٢ سورة سبأ مكية .

(٣) الآية من ٢٤ إلى ٢٧ سورة ص مكية .

احتلف المفسرون في قصة سليمان عليه السلام . ولعل أشهر رواية عن هذه القصة هي نفسها ككتب رواية ..

فيل أن سليمان حزم على الطواف على نساؤه السبعينات في ليلة واحدة ، وممارسة الحب معهن حتى تلد كل امرأة منهن ولدا يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل سليمان أن شاء الله ، فطاف على نساؤه فلم تلد منهن غير امرأة واحدة .. ولدت طفلا مشوها القوه على كرميه ..

والقصة مختلفة من بدايتها لنهيتها ، وهي من الاسرائيليات الخرافية ، وحقيقة هذه القصة ما ذكره الفخر الرازي ..

قال : ان سليمان ابتلى مرض شديد حار فيه الطب .

مرض سليمان مرضا شديدا حار فيه لطباء الانس والجس .. واحضرت له الطيور امشيا طيبة من اطراف الارض فلم يشف ، وكل يوم كان لمرض يزيد عليه حتى أصبح سليمان اذا جلس على كرسيه جلس كأنه جسد بلا روح .. كأنه ميت من كثرة الامعاء والمرض .. واستمر هذا المرض فترة كان سليمان فيها لا يتوقف عن ذكر الله وطلب الشفاء منه واستغفره وحيه ..

وانتهى امتحان الله تعالى لعبده سليمان ، وثلى سليمان .. علمت اليه صحته بعد أن عرف أن كل مجده وكل ملكه وكل عظيمته لا تستطيع أن تعمل اليه الشفاء الا اذا اراد الله سبحانه .

هذا هو الرأى الذى نرتاح اليه ، ونراء لاننا بعصمة نبي حكيم وكرم كسليمان ..

« ولقد فتنا سليمان .. وألقينا على كرسيه جسدا .. » [١] .

حواله المرض الى شيء كالجسد .. ولفظ الجسد في اللغة يطلق على ما يارقه الحياة أو الصحة . ولقد تحول سليمان الى جسد من فرط المرض .

« ثم قلب » [٢] .

ثم رجع الى الصحة .. استجار برحمة الله لشفاء الله ورحمه ..

.....

وكان سليمان قد بنى ك مسجدا أو معبدا ليعبد النفس فيه الله تعالى وحده .

وقد كلى هذا البيت آية من آيات فن العمارة وفن النحت .

أن ورش الحدادة كانت الطارق فيها تدق بلا انقطاع ، وورش صهر المساند كانت تصل أربعا وعشرين ساعة كل يوم ، وكان البرونز

(١) من الآية ٣٤ سورة ص مكية .

(٢) من الآية ٣٤ سورة ص مكية .

المصهور يجرى من مئات القنوات في الرمل ليأخذ بعد ذلك لشكل
الأواب والتوافذ وتماثيل الأسود والنمور والطيور التي كانت تزين
الطريق نحو معبد سليمان .

وكان عند العيليين في بناء هذا البيت عشرات الآلاف .. كان هناك
من يصهر المعدن ، وهناك النحاتون ، وهناك من يكسر الأحجار ، وهناك
تأطمو الأخشاب ، وهناك من يحضر لأخشاب الأرز من لبنان ، وهناك
من يصهر الذهب ويجعل منه رقائق لامعة لتغطية الأخشاب .. وتغطية
الجدران ..

وكانت الجن تعمل في الأخرى ، طبقا لتعليمات سليمان وأوامره ..
كانت تصنع تماثيل عظيمة ، وكانت تصنع تمجورا لطعام الجنود والعمال ،
قدورا كالجبال من غرط ثقلها وعظمتها ، وكانوا يصنعون أوعية لشرب
تبدو كأنها أحواض كبيرة لسمعتها .. وكان سليمان يلاحظ عمله ويراهم
شعبه ويعرف مشاكله ويحلها له ، كما كان يراقب جيشه من
الحيوانات والطيور ، ويعرف هل غاب أحد منهم ولين كان ولماذا غلب ..

ويم يكن سليمان يعرف مشاكل جنوده الإسيين ويعرف جيشه من
الطيور فقط ، وإنما كان أيضا رحيما بالنمل يسمع هممه ولا يدوسه
بأقدامه .

كان سليمان يسير منكس الرأس ، دائم النظر إلى الأرض نواظما ،
دائم التفكير .

كان يسير بوما في مقدمة جيشه حين سبع نيلة تقول لزميلاتها من
النمل :

« يا أيها النمل : ادخلوا مساكنكم لا يحطنكم سليمان وجنوده وهم
لا يشعرون . فلبسهم ضاحكا من قولها ، وقال : وب لوزعس أن
أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، وإن أعمل صالحا
فرضاه ، وانقصى بوجهك في عبادك الصالحين [١] .

سمع سليمان كلام النيلة فلبس ضاحكا من قولها .. ما الذي
تصوره هذه النيلة !

رغم كل عظيته وعظمة جيشه فاته رحيما بالنمل . يسمع هممه
وينظر دائما إليه ولا يمكن أبدا أن يدوسه .

وكان سليمان يشكر الله أن منحه هذه النعمة .. نعمة الرحمة ونعمة
الحنو والشفقة والرفق ..

أيضا كان سليمان أغنى انسان في الدنيا .. كانت أرض تصوره
لحيثا من خشب الصندل ذي الرائحة المعطرة ، وأحيثا من الذهب وأحيثا
من الكريستال .. كان له كرسى عظيم صنع من الذهب والجواهر .

كانت له أعظم تصور في الدنيا ، وكان يرتدي ملابس من الذهب والجواهر

.. ورغم هذا كله فقد كان سليمان متواضعا لله وللناس .. وكان يخرج على الناس وهو يرتدى ثيابه الذهب فيقول لهم :

— ان اى زهرة من زهور الحقول ترتدى أجمل مما ارتدى لنا سليمان الملك .

صنع الله ألوان الزهرة وأوراقها ، ويعتج الإنسان ملابسه ، وما يصنعه الله أجمل آلاف المرات .

أجمل وأرق وأعلى ..

حتى الأشجار العارية ترتدى أعظم مما يرتديه سليمان ..

مكدا كل النبی الملك المتواضع يقول وهو يسجد لله .. ومثلها كان والده يسمع الله .. كان سليمان يشهد لله انشادا ويتخفى بالحب الالهي ويمجد الله وحده .

وحاء يوم .. وأصدر سليمان أمره لحيشه أن يسعد ..

بعدها ، خرج سليمان يتفقد الجيش ، ويستعرضه ويفتش عليه .. مر على النثر أولا ولاحظ استعدادهم ، واجتمع مع القواد والضباط والجنود ، وتكلمهم لأمره ، ثم مر على الجن واستدعى تعليماته اليهم ، وسجن حسا لاحظ عليه أنه يتكاسل في العمل ، ثم مر على الحيوانات ، وسألها عما اذا كانت تأكل جيدا ، وتنام جيدا ، وعما اذا كانت هناك شكوى من حيث مواعيد تقديم الطعام ، وعما اذا كانت هناك حالات مرضية ، ولما اطمان على كل شيء ، دخل خيمة الطيور العظيمة . ولم يكن يدخل الخيمة ويدير بصره فيها حتى اكتشف فيلب الهمد ..

كل المفروض أن يقف الهمد في مكان معين .. هناك في أعلى الخيمة ، ولكن الهمد لم يكن هناك ..

« وتفتد الطير فقل : مالي لا أرى الهمد [١] .. ؟ »

سكتت بقية الطيور ، احتراما لما سبقوله قائدها الأعلى .. وأدار سليمان بصره في الطيور جميعا ، وقرا في عيون الطيور أن الهمد ليس موجودا ، وليس معروفا أيضا أين هو .. قال سليمان وقد بدا يحضب :

« أم كان من الغافلين ؟ » [٢]

تجرا مصغور صغير هناك وقال لسليمان :

— أبها النبي الكريم .. كان المفروض أن يكون الهمد موجودا معي بالأمس في مهمة استطلاع .. كل هو قائد المهمة ، ولم يأت الهمد ، ولهذا لم أذهب أنا ..

كان المصغور يرتعش من الخوف .. وأدرك سليمان أن الهمد قد

(١) من الآية ٢٠ سورة النمل مكية .

(٢) من الآية ٢٠ سورة النمل مكية .

بقبر أن يعلم بعينه أحد ، ودون أن يستأذن ليعسا . . ودون أن يقول
أين هو . .

قال سليمان غاضبا :

« لأعذبه عذابا شديدا ، أو لأذبحه ، أو لأيتني بسلفان مبن » [١]

نهبت الطيور أن سليمان غاصب . . فقد قرر تعذيب الهدد ، أو ذبحه ،
أو المنيه ، بشرط أن يأتي بحجة تنجيه من هذه الورطة ، بمعنى أن يثبت
الهدد أنه كان يؤدي عملا . .

كان غضب سليمان عظيما . . يلقى الخوف في القلوب . . لأن سليمان
— رغم رحيته — إذا غضب فغضبه على حق ، وهو عادل في غضبه ، ثم أنه
قادر على تنفيذ تهديده ببساطة . .

ارتعش العصفور ارتعاشة شديدة بسبب غضبه سليمان . . وبد
سليمان يده ورمت على رأس العصفور ، فذهب عنه الخوف . .

انصرف سليمان من حية الطيور وذهب إلى قصره . . كان مشغولا
بإلهدهد ، المفروض أن إلهدهد جزء من جهاز الاستطلاع . . هل ذهب
يستطلع شيئا ؟ . . أم أنه يلعب ؟!

كان سليمان قد لاحظ على هذا الهدد أنه ذكي ونصيح ، ويصل إلى
الشقاوة قليلا . . وقد ضبطه مرة أو مرتين يلعب بعض الوقت ثم يؤدي
العمل في السمات الأخيرة . . وقد نظر إليه سليمان نظرة فهم منها الهدد
أن هذا لا يصح . . فهناك وقت للجد ووقت للعب ، والمفروض على الهدد ،
كما هو مفروض على الإنسان ، ألا يخلط وقت الجد بوقت اللعب ، لأن هذا
يضيع الجد واللعب معا . .

وصل الهدد إلى حية الطيور بعد غيبة ليست طويلة . .

قالت له الطيور :

— أذهب إلى سيدنا سليمان فورا قل أن يعرف أنك وصلت ولم تلم
نفسك .

طار الهدد فدخل على سليمان وهو جالس يتناول طعامه ، وقف الهدد
. . وقرر أن يبدأ الكلام مع سليمان قبل أن يسأله أين كان . . كتليل على
براعته . .

قال الهدد :

« اهلكت بما لم تعطيه وجئتك من سبأ نبأ يقين » [٢] . .

كان كلام الهدد محمويا . . ما معنى أن يقول لسليمان . . أنا الهدد
المسكين أمرف ما لا تعرفه أنت . . وقد جئتك من مملكة مسأ نبأ غاية في
الأهمية . . . ؟

(١) الآية ٢١ سورة النمل مكية .

(٢) من الآية ٢٢ سورة النمل مكية .

سكت سليمان وانتظر أن يكمل الهدد حديثه .

قال الهدد :

« أتى وجهت أمراة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم .
وجعلتها وقومها يسجدون للثبث من نون الله ، وزين لهم الشيطان
أعمالهم ، فصدعهم عن السبيل فهم لا يهتدون » [١] ..

سكت الهدد قليلا ، وأحس سليمان أن الهدد يستجيب كل تمصاحته ،
وينتقى كلامه جيدا ويحدث سليمان .. عاد الهدد يقول لسليمان ما كان
سليمان يقوله للناس والطيور ..

قال الهدد :

« ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم
ما تخفون وما تعلنون ؟ . الله لا إله إلا هو رب المرئ العظيم » [٢] .

كل واحد صاحبا أن الهدد يردد كلام سيدنا سليمان .. في محاولة أخيرة
لكسب عطف سليمان وإقناعه ..

قال سليمان ، وظل ابتسامه خفيفة يطوف ببلاجه :

« منتظر ، صدقت أم كنت من الكاذبين ؟ » [٣] ..

أراد الهدد أن يقول : لا لا لكنب أيها النبي الكريم .. لكن صمت سليمان
أحافه فسكت ..

كل سليمان صامتا بفكر ، انتهى إلى قرار ، مرفع رأسه ، وأمر باحضار
ورقة وقلم ، وكتب رسالة سريعة موجزة ومد يده إلى الهدد وأصدر تعليماته
إليه .. قال :

« اذهب بكتابي هذا فلقه إليهم ، ثم قول عنهم ، فانظر ماذا
يرجعون » [٤] ..

.....

يحتصر السياق القرآني في سورة النمل ما كان من أمر ذهاب الهدد
وتسليمه الرسالة ، وينتقل مباشرة إلى الملكة ، وسط مجلس المستشارين ،
وهي تقرا على رؤساء قومها وورراتها رسالة سليمان ..

« قالت : يا أيها الملك ، أتى القى إلى كتاب كريم . أنه من سليمان ،
وأنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتوني مسلمين » [٥]

هذا هو نص خطاب الملك سليمان للملكة مسما ..

أنه يأمر في خطابه أن يأتيه مسلمين .. هكذا مباشرة .. أنه يتجاوز

(١) الآية ٢٣ ، ٢٤ سورة النمل مكية .

(٢) الآية ٢٥ ، ٢٦ سورة النمل مكية .

(٣) الآية ٢٧ سورة النمل مكية .

(٤) الآية ٢٨ سورة النمل مكية .

(٥) الآيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ سورة النمل مكية .

أمر مبادتهم للشمس .. ولا يكتسبهم في عباد عقيدتهم .. ولا يحاول
اقتادهم بشيء .. أمّا يلزم بحسب .. اليس على الحق ؟ .. اليس مؤيدا
بقوة تسند الحق الذي يؤمن به ؟ .. لا عليه إذن أن يأمرهم بالتسليم ..
كان هذا كله واضحا من لهجة الخطاب القصيرة المتعالية المذهبة في نفس
الوقت .

صرحت الملكة على رؤساء قومها الرسالة ..

« قالت : يا أيها الملأ ، افتوني في ليري ، ما كنت قاطمة ليرا حتى
تشفون » [١] ..

كان رد فعل الملأ — وهم رؤساء قومها — هو التحدي .. أثارت الرسالة
بلهجتها المتعالية المهمة غرور القوم ، وأحساسهم بالقوة .. أدركوا أن هناك
من يتحداهم ويلوح لهم بالحرب والهزيمة ويطلبهم بقبول شروطه قبل وقوع
الحرب والهزيمة ..

« قالوا : نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك فلتظري
ماذا تلزمين » [٢] ..

أراد رؤساء قومها أن يقولوا : نحن على استعداد للحرب .. ويبدو أن
الملكة كانت أكثر حكمة من رؤساء قومها .. عن رسالة سليمان أثارت
تفكيرها أكثر مما استغفرتها للحرب .

فكرت الملكة طويلا في رسالة سليمان .. كان اسمه مجهولا لديها ، لم
تسمع به من قبل ، وبالتالي كانت تجهل كل شيء عن قوته ، ربما يكون قويا
إلى الحد الذي يستطيع فيه عزو مملكته وهزيمتها ، ونظرت الملكة حولها
فراحت تقدم شعبيها وثرأه ، وخشيت على هذا الثراء والتقدم من الغزو ..
ورححت الحكمة في نفسها على التهور ، وقررت أن تلجأ إلى اللين ، وترسل
إليه هدية .. وفكرت في نفسها أنه ربما يكون طامعا قد مسح عن ثراء
المملكة ، فحدثت نفسها بأن تهادبه وتشتري السلام منه بهدية ، قدرت في
نفسها أيضا أن أرسلها بهدية إليه ، سيكون رملها الذين يحملون الهدية من
دهول مملكته ، وأن سيكون رملها عيوننا في مملكته .. يرجعون بأخبار
قومه وحيشه ، وفي ضوء هذه المعلومات ، سيكون تقدير موقلها الحقيقي
منه يمكن ..

أخذت الملكة ما يدور من نفسها ، وحدثت رؤساء قومها بأنها ترى
استكشاف نوايا الملك سليمان ، عن طريق إرسال هدية إليه ، انتصرت الملكة
للراي الذي يقضي بالانتظار والترقب .. واكتنعت رؤساء قومها بنقد فكرة
الحرب مؤقتا ، لأن الملوك إذا دخلوا قرية انقلبوا أوضاعها وصار رؤساؤها
هم أكثر من فيها تعرضا للهوان والذل .. واقتنع رؤساء قومها حين لوحظ
الملكة بما يتهدهم من أخطار ..

« قالت : أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسحوها وجعلوا أعزة أهلها

[١] الآية ٢٢ سورة النمل مكية .

[٢] الآية ٢٢ نفس السورة .

الثلة وكذلك يفتلون • واتى برسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون (١) ..

.....

وصلت هدية الملكة بلقيس الى الملك النبی سليمان .

جاءته اجمرة استطلاعه بشأ وصول رسل بلقيس وهم يحملون الهدية .. وأدرك سليمان على الفور ان الملكة أرسلت رجالها ليهرغوا مطوئلت من قوته لئلا يقرر موافقتها بشأنه .. ونادى سليمان في الملكة كلها ان يحشد الحبش .

ونفذ رسل بلقيس وسط غابة كثيفة مدججة بالسلاح .. فوجيء رسل بلقيس بان كل غدهم وراثهم يبدو وسط بهاء ملكة سليمان .. شيئا مفعلا كالرقعة الفقيرة .

وصفرت هديتهم في اعيانهم .. وكانت من الذهب ، وهم يسرون على رضية قصور الملك سليمان وكانت تصنع من خشب الصندل المحطر المزين بالذهب .

ووقف رسل بلقيس مع سليمان ريثما ينتهي من استعراض جيشه ، وراحت اذهانهم تسجل عدد الجنود وتوعيتهم وكثرتهم ، ثم فوجئوا ان في الجيش أسودا وسورا وطبورا وجنودا تنقل عن هريق الطيران .. وتدفقت انوارهم من الدهشة وأدركوا انهم امام جيش لا يعلوم .

انتهى استعراض الجيش لدعى سفراء الملكة الى الغداء على مائدة الملك سليمان . وفوجيء السفراء بانهم امام أطعمة من أرجاء الأرض المختلفة . وقصودت المائدة أطعمة تشتهر بلادهم بصنعها ولكنهم يرون لها مذاقا خاصا . كانت الاطباق التي يأكلون فيها من الذهب . وكان يقدمهم رجال يتحلون بذهب لا تتحلى به ملكتهم نفسها .. وكانت مائدة الطعام تصمم طبورا واسماكا بحرية ولحوم اشياء لم يستطيعوا تمييزها . ولم يكن سليمان يشاركهم طعامهم ، كان يأكل في طبق من العشب ، ويغرس الحيز الجاف في الزيت .. هذه وجبة طعامه المفضل .

أكل سليمان معهم صلبتا مقطبا ، فأهسوا ان له حصورا ثوبا ومهانة صاعقة .

وانتهى الطعام فقدموا لسليمان هدية الملكة بلقيس على استحياه شديد . كانت الهدية من الذهب . وكانت هدية قيمة بالنسبة اليهم ، لكنها هنا تبدو باهتة وبطيئة وسط هذا الثراء المدهش .

نظر سليمان الى هدية الملكة وأشاح ببصره .

« فلما جاء سليمان قال : اتبعونني بمال ؟ ، فما أتاني الله خير مما آتاكم » بل انتم بهديتكم تفرهون (٢) ..

(١) الأيات ٢٤ و ٢٥ سورة النمل مكة .

(٢) الآية ٣٦ سورة النمل مكة .

كشف الملك سليمان بكمالاته القصيرة من رفضه لهديتهم ، فوض مهمة السفراء وأنبههم أنه لا يقبل شراء رضاه بالمال . يستطيعون شراء رضاه بشيء آخر .. « **إلا تعلو على وأنوني مسلمين**» (١) .. أحال إلى رسالته الأولى وعاد يتحدث ببطء ..

« ارجع اليهم ، فلنأقبنهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجهم منها أنلة وهم صاغرون» (٢) ..

صرف الملك رسل الملكة بعد تهديده الذي بدا أمام أعينهم عاجها وحاسما في نفس الوقت ،

ورجا رسل الملكة بعدما راوه أن ينتظر الملك سليمان زيارة بلقيس بنفسها رجاء أن ينتظر حتى تجيئه الملكة في مهمة سلام .

وصل رسل بلقيس إلى سبأ .. وهناك هرعوا إلى الملكة وهم بتراب السفر وحدثوها أن بلادهم في أزمة .. حدثوها عن قوة سليمان واستحالة صد جيشه .. اتهموها أنها يشفى أن تزوره وتترشاه .. وجهزت الملكة نفسها وبدايت رحلتها نحو مملكة سليمان ..

جلس سليمان في مجلس الملك وسط رؤساء قومه ووزرائه وقادة جنده وعليلائه ..

كان يفكر في بلقيس ..

يعرف أنها في الطريق إليه .. تسوقها الرهبة لا الرغبة ، ويدفعها الخوف وليس الاقتناع .. ويفكر سليمان قليلا في عبادتها للشمس ، يفكر في المعلومات التي حملتها إليه أجهزة مخبراته عن تقدمها في الفنون والعلوم .. ويتساءل سليمان بينه وبين نفسه (يكون التقدم هو الذي عاقبها من الحق ، لتكون قد غرحت سبأ وصلت إليه من قوة وتصورت أن القوة هي التقدم .. ويقرر سليمان بينه وبين نفسه أن يبهرها بتقدمه ، لتعرف أن الإسلام الذي يدهوها إليه ، هو الذي يستطيع اجتواء التقدم الحقيقي والقوة الحقيقية ، ولتقارن بين معتبتها في عبادة الشمس ، وبين النقطة التي وصلت إليها في الصناعة والفنون والعلوم ، وتعقد موازنة بين هذا كله ، ومعبدة سليمان وما وصل إليه من تقدم .

كانت أجهزة مخابرات الملك سليمان قد حدثته أن أعجب المجانب في ملكة سبأ ، هو عرش الملكة بلقيس ..

كان مصنوعا من الذهب والخواهر الكريمة ، وكانت حجرة العرش وكرسی العرش آيتين في فن الصناعة والسبك .. وكانت الحراسة لا تغفل من العرش لحظة ..

واثن .. يحضر لها سليمان عرشها هنا .. في ملكته ، لتجلس عليه حين تجيء ، يريد أن يبهرها بقدرته التي يستبدها من أسلامه .. لنسلم

(١) الآية ٢٦ سورة النمل مكة .

(٢) الآية ٢٧ سورة النمل مكة .

هي الأخرى .. دارت هذه الخواطر في نفس سليمان فرفع رأسه والتفت لرجاله « قال : يا أيها الملا ، أيكم ياتيني بعرشها قبل أن يلقوني مسلمين » (١) .
 انظر كيف تشي عبارته بما يفكر فيه .. ان أفكاره كلها تدور حول اسلام عبدة الشمس .. حول هدايتهم الى الله .

كان لول من أجاب سليمان عفريت من الجن الذين سخرهم الله تعالى له :
 « قال عفريت من الجن : انا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ،
 واتى عليه لقوى لين » (٢) ..

كان سليمان يقوم من مقامه بعد ساعة أو ساعتين .. وقد عهد الحنث أن يحضره قبل ذلك .. ونحن مع مجلس سليمان في فلسطين .. والعرش في اليمن ، والمسئلة بين العرش ومجلس سليمان تزيد على آلاف الأميال ..
 واقتوى الطائرات النفاثة التي نمرلها اليوم لا تستطيع أن تذهب وتجيء في ساعة .

غير ان الامر هنا يتعلق بقوة الجن المجهولة .

لم يطلق سليمان بشيء على ما قاله عفريت الجن .. ويبدو أنه كان ينتظر أن يسمع عرضا يحضر فيه عرش بلقيس لسرع من ذلك .. التفت سليمان نحو واحد هناك يجلس في الظل .

« قال الذي عنده علم من الكتاب : انا آتيك به قبل أن يرتد إليك ظهرك ، فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربي ليبلوني لئن لم أتكفر ، ومن شكر ظاهرا يشكر نفسه ، ومن كفر فلان ربي غني كريم » (٣) .

لم يكذ « الذي عنده علم من الكتاب » يقول حيلته حتى كفى العرش مستقرا عند سليمان .. استغرق احضاره اقل من رمشة العين حين تعلق وتفتح ..

لم يكشف السياق القرآني عن شخصية من احضر العرش .. اكتفى بالنص على أنه عنده علم من الكتاب .. لم يبين لنا أهو احد الملائكة ، أو انسان ، أو جن ، أيضا ابهم السياق القرآني كنه هذا الكتاب الذي يؤدي العلم بما فيه لئلا هذه القدرات العارفة .

ترك السياق القرآني الاسم وحقيقة الكتاب فارعين في غموض كثيف مقصود .. نحن أمام سر معجزة كبرى وقعت من واحد كان يجلس في مجلس سليمان .. والأصل ان الله يظهر معجزاته بحسب ، أما سر وقوع هذه المعجزات فلا يدريه الا الله .. وهكذا يورد السياق القرآني القصة لايضاح قدرة سليمان المخارقة ، وهي قدرة يؤكد وجود هذا الملم في مجلسه ، بعدها يصير من الفضول أن يسأل أحد من يكون هذا الذي عنده علم من الكتاب ، أهو جبريل عليه السلام أو آصف بن برخيا أو مخلوق آخر

(١) الآية ٢٨ سورة النمل مكة .

(٢) الآية ٢٩ سورة النمل مكة .

(٣) الآية ٤٠ سورة النمل مكة .

من الفضول أيضا ان نسأل عن هذا الكتاب .. وهل استخدم من يعلم بها
فيه اسم الله الأعظم لاحضار العرش أم لا ..

كل هذه الامحلت فضول وثراف عقلى وقد لهما السباق القرآنى فلا معنى
للحوض فى تفاصيلها المامضة .

هذا هو العرش مائلا لهما سليمان .

تأمل تصرف سليمان بعد هذه المعجزة .. لم يستعنه الفرح بقدرته ،
ولم يزهه الشهور بوقته ، وانما ارجع الفضل لمالك الملك .. وشكر الله
الذى يستعنه بهذه القدرة ، ليرى ايشكر لم يكفر .

شكر سليمان خالقه لولا .. ثم تأمل عرش الملكة بعد ذلك .. كان
العرش آية فى فن الصناعة ، لكنه كان فى نهاية الامر يدعو شيئا عاديا
الى جوار مظلة الصناعة التى يقوم بها الانس والجن فى مملكة سليمان .

تأمل سليمان عرش الملكة طويلا ثم امر بتغييره .. امر باجراء بعض
التعديلات عليه ، ليستحسن بلقيس حين تاتى ، ويرى هل تهتدى الى عرشها
أم تكون من الذين لا يهتدون .

« قال : فكروا لها عرشها ، فنظر انهتدى لم تكون من الذين

لا يهتدون » [١] .

امر سليمان ببناء قصر يستقبل فيه بلقيس .

احضار مكثا رائعا على البحر وامر ببناء القصر بحيث يقع معظمه على
مياه البحر ، امر ان تصنع ارضية القصر من زجاج ثمين شديد الصلابة ،
وعظيم الشفافية فى نفس الوقت ، لكى يسير السائر فى ارض القصر
ويتأمل تحته الاسماك الملونة وهى تسبح ، ويرى امشاط البحر وهى
تتحرك .

تم بناء القصر ، ومن غرط نقاء الزجاج الذى صنعت منه ارض حجراته ،
لم يكن يبدو ان هناك زجاجا .

تلاشت ارضية القصر فى البحر وصارت ستارا زجاجيا خفيا لوقته .

اخير الهدد سليمان ان بلقيس قد بلغت مشارف مملكته ..

جاءت بلقيس اخيرا ..

يتجاوز السباق القرآنى استئصال سليمان لها الى موقنين وقعا لها
بتغييره :

● موقفها لهما عرشها الذى سبقها بالحى ، وقد تركته وراءها وعليه
الحراس .

● موقفها امل ارضية القصر اللطورية الشفافة التى تسبح تحتها
الاسماك .

(١) الآية ٤١ سورة المدحكة .

« فلما جاءت ، قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كانه هو ، ولولنا العلم من قبلها وكنا مسلمين » (١) ..

تصور الآية موقف الحوار بين سليمان وبلقيس .

نظرت بلقيس الى عرشها لمراته عرشها ثلها .. وليس عرشها ثلها .
اذا كان عرشها فكيف سبقها الى المجرى .. واذا لم يكن عرشها فكيف
لمكن تغلبه بهذه الدقة ..

قال سليمان وهو يراها تتأمل العرش : أهكذا عرشك ؟

قالت بلقيس بعد حيرة قصيرة : كانه هو !

قال سليمان : ولولنا العلم من قبلها وكنا مسلمين .

توحي عبارته الأخيرة الى الملكة بلقيس أن تتلارن بين عقيدتها وعلما ،
وعقيدة سليمان المسلمة وحكمته . أن عبادتها للشمس ، وبلغ العلم الذي
هم عليه ، يصلان بالخسوف الكلى اسم علم سليمان واسلامه .

لقد سبقها سليمان الى العلم بالاسلام ، معدها صر من السهل عليه
أن يسبقها في العلوم الأخرى ، هذا ما توحي به كلمة سليمان لبلقيس ..

ادركت بلقيس أن هذا هو عرشها ، قد سبقها الى المجرى ومكرت فيه
أجزاء وغيرت أجزاء وهي لم تزل تتلمع الطريق لسليمان ..

أي قدرة يملكها هذا النسي الملك سليمان .

انبهرت بلقيس بما شاهدته من إيمان سليمان وملائته لله ، مثلما انبهرت
بما رآته من تقدمه في الصناعات والفنون والعلوم .. وادهشها أكثر ، هذا
الاتصال العميق بين اسلام سليمان وعلمه وحكمته « وعندها ما كانت تعبد
من دون الله ، أنها كانت من قوم كافرين » (٢) ..

انتهى الأمر واهترت داخل عقلها آلاف الأشياء .. رأت عقيدة قومها
تتهوى هنا أمام سليمان ، وادركت أن للشمس التي يعندها قومها ليست
غير مخلوق خلقه الله تعالى ومخرجه لعباده ، وانكسفت الشمس للمرة
الأولى في قلبها ، انضاء القلب نور جديد لا يغرب مثلما تغرب الشمس ..

صارت مسألة اعلائها لهذا الإيمان مسألة وقت .

وقد أحسست بلقيس اختبار الوقت الذي أعلنت فيه اسلامها .

قال تعالى :

« قيل لها : انطلي المصريح ، فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن
ساقها ، قال : انه صرح مجرد من قوارير ، قالت : وب أي ظلمت
نفسى ، واسلمت مع سليمان لله وب العالمين » (٣) ..

(١) الآية ٤٢ سورة النمل مكة .

(٢) الآية ٤٣ سورة النمل مكة .

(٣) الآية ٤٤ سورة النمل مكة .

فيل لتلقيس أدخلى القمر . فلما نظرت لم تر الزجاج ، ورات المياه ،
وحسنت أنها ستخوض البحر ، وكشفت من ساقها حتى لا يمل ردائها .
بها سليمان — دون أن ينظر — الا تحلف على شيئا من اللؤلؤ . ليست
هناك مياه . أنه صرح بمرد من قوارير . أنه رجاج داعم لا يظهر من
فرط نموته .

اختارت بلقيس هذه اللحظة لإعلان إسلامها . اعترفت بطلبها لنفسها
واسلمت مع سليمان لله رب العالمين . وتابعتها قومها على الإسلام .
أدركت أنها تواجه أعظم ملوك الأرض ، ولحد انبعاث الله الكرام .
أضاء وجه سليمان بالصلابة راضية للمرة الأولى منذ زارته بلقيس .
ها هو ذا يحقق مجده الحقيقي ، وينشر نور الإسلام في الأرض .

يسكت السياق القرآني عن قصة بلقيس بعد إسلامها . . ويقول
المفسرون أنها تزوجت سليمان بعد ذلك ويقال أنها تزوجت أحد رجاله . .
أحبته وتزوجته ، ويقال أن بعض ملوك الحبشة من نسل هذا الزواج ،
ونحن لا ندري حقيقة هذا كله .

لقد سكنت القرآن الكريم عن ذكر هذه التفاصيل التي لا تخدم قصة
سليمان . . ولا يرى نحن داعيا للخوض فيها لا يعرف أحد .
عاش سليمان وسط مجد دانت له فيه الأرض . .

ثم قدر الله تعالى عليه الموت فمات . ومثلما كانت حياة سليمان قبة في
المجد الذي يستلزم بالمعائب والخراب . . كل موته آية من آيات الله
يستلزم بالمعائب والخراب .

وهكذا جاء موته بنفسها مع حياته ، مضى مع مجده ، جاء نهاية
عريضة لحياة غريزة وحائلة .

قال على في سورة سبأ عن موت سليمان :

« فلما قضينا عليه الموت ، ما نلهم على موته الا دابة الأرض
تكل منسلته ، فلما خر ، تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب
ما لبثوا في العذاب المهين » (١) .

كان مسخير الجن لسليمان واستغفلم له واتصلهم به ورؤية الناس
لهذا كله سببا في نظرة الناس في موضوع معين ، وقد وضع موت سليمان
حدا لهذه القنينة .

لا نعرف من الذي ادعى أن الجن تعلم الغيب . أهو شيطان شقي ،
أم جنى ساذج ، أم بشر مخدوع . . لا نعرف المسئول عن انطلاق هذه
الشفاعة الخاطئة . . كل ما نعرفه أنها انتشرت واستطاعت ووجدت أذانا
صاغية من بعض الناس والجن . . ولعل الناس قالوا لأنفسهم : ما دامت
الجن تقوم بكل هذه الأعمال الخارقة ، فما الذي يمنعهم من معرفة الغيب ؟

(١) الآية ١٢ سورة سبأ مكة .

وهو مثل خلق .. وأغلغل الناس أن معرفة الغيب مسألة تستحيل على
الجن والانس والانباء وكل الخلائق .

لا يعرف الغيب الا صاحبه ، سبحانه وتعالى ، وحده ..

وقد قدر الله تعالى أن يكون موت سليمان عليه الصلاة والسلام منطويا
على نصف هذه الفكرة . ففكرة معرفة الجن للغيب ..

وكل الجن يعملون لسليمان طالما هو حي .. فلما مات انكسر تسخيرهم
له ، واعتوا من تبعه العمل معه .

وقد ملك سليمان دون أن يعلم الجن ، فظلوا يعملون له ، وظلوا
مسخرين لخدمته ، ولو أنهم كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين .

دخل سليمان يوما محرابه للاعتكاف والعبادة والصلاة .

لم يكن هناك احد يجري على اقتحام خلوته في محرابه .. وكان المحراب
يقع على قمة جبل ، وقد سمعت جدرانه من البلور الذي يكشف ما وراءه

وحلس سليمان يوما متكئا على عصاه واستغرق في التفكير ..

راح يفكر الله تعالى حتى نصس ..

هي لحظة واحدة وبمدها خرج ملك الموت عليه السلام من محرابه ..

مات سليمان ..

كان متكئا على عصاه فظل على وضعه متكئا على العصا .

ورآه الجن فظنوا انه يصلي واستمعوا في علمهم ..

ومرت أيام طويلة ..

ثم جاءت دابة الأرض ، وهي نملة تأكل الخشب ، وبدلت تأكل عصا
سليمان .

كانت جائعة فاكلت حزبا من العصا .

استمرت النملة تأكل العصا أكلها .. كانت تأكل الجزء الملامس للأرض ،
فلما ازداد ما اكلته منها اختلت العصا وسقطت من يد سليمان .. اهتل
بعدها توازن الجسد العظيم فهبوى الى الأرض ..

ارتطم الجسد العظيم بالأرض فهرع الناس اليه ..

انبركوا انه مات من زمن .. تبين الجن أنهم لا يعلمون الغيب .. وعرف
الناس هذه الحقيقة أيضا . لو كل الجن يعلمون الغيب ما لبثوا في
العذاب المهين ، ما لبثوا يعملون وهم يظنون أن سليمان حي ، بينما هو
ميت منذ فترة ..

..

وهكذا مات نبي الله سليمان .. وهو جالس بمسلى ويفكر الله في
محرابه .. انتشر الخبر كالحرير في الأرض ..

وشيعت الناس والطيور والوحوش جنازة النبي الملك سليمان ..
اعطت نمشه آلاف الطيور الناكبة .. وسارت في جنازته الوحوش وقد
انكمر شرها من الحزن ..
كانت الطيور تبكي سليمان ، وتبكي نفسها في نفس الوقت ..
انتهى الأمر ولن يعرف لغتها بعد الآن في الأرض أهد ..
مات من كان يفهم مطلق الطير ..
وما اتقى الحياة وسط من لا يفهم منطقنا ..

هيكل سليمان

كان هيكل سليمان في اورشليم هو مركز العبادة اليهودية ورمز تاريخ اليهود وموضع فخارهم وزهوهم .. وقد شيده الملك سليمان وانفق سدح هظيم على بنائه وزخرفته .. حتى لقد احتاج في ذلك الى أكثر من ١٨٠ ألف عامل [سفر الملوك الأول] وقد اتى له سليمان بالذهب من ترشيس ، وبالأحجار الكريمة من اليمن ، ثم بعد سبع سنوات من العمل المتواصل تكامل بناء الهيكل ، فكان آية من آيات الدنيا في ذلك الزمان .

وامتدت يد الخراب الى الهيكل مرات عدة ، اذ كان هدفا دائما للغزاة والطماعين ينهمون ما به من كنوز ، ثم يشبهون فيه السار [سفر الملوك الثاني] .. ثم قلم أحد الملوك بتحديد بنائه تحبسا في اليهود .. فاستغرق بناء الهيكل هذه المرة ٦٦ سنة ، أصبح بعدها مرها ضخما تحيط به ثلاثة أسوار هائلة .. وكان مكونا من ساحتين كبيرتين : احدها خارجية والآخرى داخلية ، وكنت تحيط بالساحة الداخلية أروقة شديدة تقوم على أعمدة مزخرفة من الرخام ، وتغطيها سقف من حشب الأرض الفين . وكنت الأروقة القائمة في الجهة الجنوبية من الهيكل ترتكز على ١٦٢ عمودا ، كل منها من الضخامة بحيث لا يمكن لأقل من ثلاثة رجال متشاكى الأذرع أن يحيطوا بدائرتها . وكان للساحة الخارجية من الهيكل تسع بوابت ضخمة مخطاة بالذهب . وبوابة عاشرة مصبوبة كلها — على الرغم من حجمها الهائل — من نحاس كورنثوس . وقد تعلت فوق تلك البوابت كلها زخارف على شكل عنابر الحشيش الكبيرة المصنوعة من الذهب الخالص وقد استمرت هدايا الملوك للهيكل حتى آخر زمانه [سفر الملوك الأول] فكان يزخر بالكنوز التي لا تعدر بشئ ..

كان العرض الأصلي من بناء هيكل سليمان هو عبادة الله سبحانه وتعالى فيه . كان الهيكل مسجدا لليهوديين المؤمنين .. ولم يكن رونقه وعظمة بنياته ليصرفا الناس حين لقائه سليمان عن عبادة الله ودعوته فيه ..

ولعل عظمة البناء كانت رمزا لقوة الدولة وعظمة عقيدها ..

غير أن تتابع الأيام وتوالي الليالي لا يترك شيئا على حاله .. والعادة ان الدعوات لله تبدأ ولادة ثم تكبر ثم تزدهر ثم تبدأ خط انحدارها نحو التمسك بالتشور وهجر الجوهر .

ولقد حدث لهيكل سليمان ما حدث لغيره من أماكن العبادة .

كان الهيكل رمزا للتوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له ..

ثم مرت السنوات وتحول الهيكل الى قشرة لامعة من الذهب تخفى تحتها ما صار اليه امر الديانة اليهودية .

اعتدى اليهود على قسمة الهيكل ، واحرقوا رونقه وبهائه ، واحلوه الى سوق للبيع والشراء . غتزا هم في ساحته باثمن الثيران والكباش والحيام ، حتى امتلا بهم الرواق واصبح لقدارته اسمه مرتبط البهائم ، واكتنفت مداخل الهيكل مكاتب الصيرفة التي يتعالى بها رنين النقود مختلطا بصوت المسالمات والناس يستقبلون ما يدهم من درهم [اتجمل متى] ..

وكان اليهود يقيمون وزنا كبيرا للنقود في حياتهم ، وساعدت قسوة القلوب وسلابنها وسقوط الابنى باليوم الآخر من النفوس ، ساعد هذا كله على فسخ المجتمع باقية صارخة ، وتسللت هذه المذبة الى عبادة اليهود ، فصار تقديم الترابين وشرائها من الهيكل هما طريق المفران الوحيد ..

وحين فقد الهيكل حقيقة جوهره . وصار سوقا تجارية . بعث الله عليه من دهر الديار ودمره معها .

قال تعالى في شأن خراب بيت المقدس وهدم هيكل سليمان :

« وقضينا الى بنى اسرائيل في الكتاب نقصن في الارض مرتين ، وقلعن علوا كبيرا . فلما جاء وعد لولاها بعثنا عليكم عبادنا لما اولى بنى شديد ، فجالسوا خلال الديار وكان وعدنا فمولا . ثم رحنا لكم الكرة عليهم وامدناكم بالهوال وبينين ، وجعلناكم اكثر نفيرا . ان اقصتم احصيتم لانفسكم وان اسلمتم فلها ، فلما جاء وعد الآخرة ليسوموا وجوهكم ويدخلوا المسجد كما دخلوه اول مرة وليتبروا ما علوا تليها . عسى ان يرحمكم ، وان عذبت عذابا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » [١] .

تشير آيات الحق الى تلوّن لؤلؤ لا يتخلل في حياة الشعوب والامم .. نظل هذه الامم قوية ما ظلت صلتها بالله صحيحة وقوية ، مادام هجر الناس جوهر القوة ، وهو الاستعداد من الله ، وانصرفوا الى مظاهر العبادة دون حقيقتها ، وخطف ابصارهم بريق الترف ، وتلعروا بالديانة بدل خضوعهم له .. اذا وقع هذا بدأ عصر انحلال الامم .. وساق الله اليها من بجوس حلال الديار .

ونامل انت جرس التصير وموسيقاه .. وكيف يوحى بالخراب لمظلم الشامل .

يذكر المنسرون ما كان من امر هدم هيكل سليمان وخراب بيت المقدس فيقولون : اوحى الله تعالى الى نبي من انبياء بنى اسرائيل فقال له ارميا حين ظهرت عليهم المعاصي : ان قم بين قومك فاعبرهم ان لهم قلوبا ولا يفقهون واعينا ولا يسمعون ، وآذاننا ولا يسمعون .

(١) الآية ٤ الى ٨ سورة الاسراء مكية .

ويضئ الوحي الى النبي فيخبره ان يمسك بنى اسرائيل : هل سعد احد
من معي الله بمعصيته ، وهل شقى احد ممن اطاع الله بطاعته .

ان الدواب تذكر لوطنها وتعود اليها ، اما هؤلاء القوم فهم يهجرون
وطنهم الحقيقي ، وهو جوهر التوحيد ، هم الآن شر من الدواب ..

ويضئ الوحي محسورا ما كان عليه امر بنى اسرائيل فيقول .

ان الاحبار انكروا حق الله تعالى .

والقراء عبدوا غير الله تعالى .

والفساك لم يتفهموا بما علموا ..

اما الولاة فكذبوا على الله وعلى انبيائه . خزنوا المكر في قلوبهم وعودوا
للسفهم الكذب ..

وتضئ الكلمات الالهية منصلة ما كان عليه الاحبار والقراء والفساك
والولاة . اصطنع الاحبار آلهة من عباد الله ، وقنعوا الناس بعبادة الناس
عدا ان لهم عباد الله بطاعة لا تنفى الا الله عز وجل .

اما الملوك والامراء فبظروا نصرة الله وامنوا مكره وغرهم الدنيا فنفخوا
كتاب الله ونسوا عهده ، فهم يحرقون كتاب الله (يقصد التوراة) ويفترون
على رسله ويقتلونهم بمير الحق .

اما القراء والفتهاء فيدرسون ما ينفيرون ، ياخذون بعض الكتاب
ويتركون بعضه ، وينقادون للملوك ويتبعونهم على الدع التي يخترعونها
في دين الله ويطيعونهم في معصية الله . ويوفون لهم بالمعهود الناقضة لعهده
الله عز وجل .

اما اولاد الانبياء فيمهورون مفلثون ، يخوضون مع الخائضين ويسبون
ان ينصرهم الله مظلما نصر آباءهم ، ولا يذكرون ورع آباتهم ولا كيف ظلوا
دعاءهم وصبروا وصدقوا حتى امر الله امره واظهر دينه .

تضئ نبوة ارميا فيحدث قومه ان الله تعالى يعطيهم فرصة احيرة للبقطة
والعودة لدينه وتوحيده .. والا بعث الله تعالى عليهم ملكا جبارا عساكره
كتقطع السحاب يعمدون الممران خرابا ويتركون القرى موحشة ..

يقول ابن كثير نقلا عن لفظ ابن عساكر .

« فباويل ايليا وسكانها ، كيف ادللهم للقتل ، واسلط عليهم الامر ،
واعيد بعد لجب الامراس صراحا ، وبعد سهيل الخيل هواء التناوب ، وبعد
شرقات القصور مساكن السباع ، ولادوسنهم بالوان العذاب ، ثم لامرن
السماء فتكون طبقا من حديد ، والارض سبيكة من نحاس ، فان اضطرت لم
تثبت الارض ، وان انتفت شيئا في خلال ذلك غيرهمتي للهتم ، فان ررعوا
في خلال ذلك شيئا سلطت عليه الائمة فلما جلس منه شيء نزعتم منه
البركة . على دموا لم احبهم ، وان سللوا لم اعطهم ، وان بكوا لم ارحمهم ،
وان تضرعوا صرعت وحبى عنهم » .

ساقى ايليا نبوته لقومه ودعاهم الى الله وهونهم بالخراب الشليل ،

واستقبل اليهود دعوته بالتكذيب والمصيف ، واتهموه بالكذب وقالوا له :
كيف تكذب وترغم أن الله سيعطل أرضه ومساجده ، فمن يعبده حين لا يبقى
على الأرض عابد ولا مسجد ولا كتّاب . لقد جننت يا ابليبا .

وسهى الصراع بين ابليبا وقومه الى سجنه ..

من نفس هذا الوقت ..

كان جيش بختنصر ينحدر نحوهم ..

واستيقظ اليهود يوما على وقع سنابل الخيل وأزيز المسهام ورائحة
الحرّاق . وحاصر الجيش المهاجم أسوار المدن .. ثم نهالت الأبواب تحت
ثقل المهاجمين ، وخطلوا القرى والمدن ..

حاسبوا حلال الديار .

حكم قائد الجيش المهاجم في اليهود بحكم الحاهلية وبطش بهم بطش
الجبّارين . قتل منهم ألف ، وأسر ألف ، وترك المجائر والشيوع .
وطئهم بالهيل وهدم بيت المقدس ودمر الهيكل ، وقتل الرجال وخرّب
المسكون ، وهدم دور العبادة وهرق التوراة وقتل علماءها ونهباها فلم يبق
منهم أحد . وتذوّف الكنائس في بيت المقدس وذبح فيه الحنازير وأشمل
المرغ في كل شيء ثم استدار عائدا يسوق الأسرى لملكه .

مئات الألوف من النساء والأطفال .

ورأى الحراب على المنطقة كلها ..

لم تعد مساكن اليهود تصلح لأحد غير البوم والوحوش ..

وتفرق من حر من بني إسرائيل في البلاد في ذلك الزمان . وظل المكان
مقترا لزم طويل حتى أدرك الله تعالى لمن بقي من أحقاد القوم بالموء
معدوا .

وحلال هذه الأحداث الدامية كلها ..

كل عزيز بائنا وميتا .. وكان هو الوحيد الذي يحفظ التوراة .

عزير

[عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى في سورة البقرة :

« او كلذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، قال : اني يحيى هذه الله بعد موتها ؟ علمته الله بمائة عام ثم بعثه ، قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما او بعض يوم ، قال : بل لبثت مائة عام ، فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر الى همزك ، ولقححك آية للناس ، وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم تكسوها لحما ، فلما تبين له قال - اعلم ان الله على كل شيء قدير » { ١ } .

.....

الشهير عند جمهور السلف والخلف ان عزيرا هو بطل هذه القصة التي يحكيها الحق تبارك وتعالى .. ويقال ان عزيرا كان نيا من انبياء بني اسرائيل .

وكان يحفظ التوراة ، ثم وقعت له قصة مدهشة ، فقد أُمّته الله بمائة عام ثم بعثه . وخلال هذا القرن الكامل الذي نام فيه عزير . وقعت حرب محتصر ، التي أحرق فيها التوراة ، فلم يبق منها شيء الا ما حفظت الرجال . وقد كانت معجزة عزير مصدر ثقة بالغة لقومه .

.....

كان اليوم حارا .. أحمر فيه كل شيء بالعطش ..

وكانت القرية التي يعيش فيها « عزير » تسمى يوما هادئا من أيام الصيف الذي تقل فيه الحركة .. وفكر « عزير » أن هديفته تحتاج الى الري .. وكانت الحديقة بعيدة ، والطريق إليها شاملا ، تتوسطه مقبرة كانت قبل ذلك مدينة عامرة سكانها ثم امتدت إليها يد الموت فذهب ضحيج الحياة وبقي صبت القبور .

وفكر « عزير » في نفسه : ان أشجار حديقته لا بد أنها تحس العطش ، وقرر أن يهرج ليستقيها .. وخرج العبد الحكيم الصالح أحد انبياء بني اسرائيل من قريته والشمس في أول النهار .. ركب حماره وبدأ رحله ..

ظل يسير حتى وصل إلى الحديقة .. اكتشف أن أشجارها عطشى ، وأرضها مشققة وجافة .. سقى الحديقة ، وقطف من حقل التين بعض ثمار التين ، وأخذ من نكمية العنب بعض العنب ، ووضع التين في سلة ، والعنب في سلة ، وأصرف ملئدا من الحديقة .

راح الحمار يسير في الحر وهو يحمل « عزيزا » . وكان « عزيز » يفكر أثناء سيره في مهامه التي عليه أن يؤديها غدا . كانت أول هذه الواجبات هي إخراج التوراة من مخبئها ووضعها في المبد . فكر أن عليه أن يحمل طعام الأبقار إليها ، وفكر في ابنه الطفل وتذكر استسائه الطولة حين يراه ، وراح يسرع في سيره ويستحث الحمار حتى قطع نصف الطريق ، ووصل إلى المقبرة .. كانت الحرارة قد اشتدت لدرجة كبيرة ، وكان الحمار قد تعب من السير ، وراح جسده المغطى بالعرق يلعب تحت أشعة الشمس ، فيبدو الحمار كما لو كان خارجا من النهر ..

وتباطأ الحمار في سيره حين وصل إلى المقابر .. وقال « عزيز » لنفسه : اعبط قليلا لاستريح وأريح الحمار ولتأكل طعام الغداء ..

وهبط « عزيز » في إحدى المقابر الخربة المهمة ، وكانت كل القرية مقابر خربة مهمة . وأخرج صحنًا كان معه وجلس في الظل . ربط الحمار في حائط قريب وأخرج بعض الخبز الجاف ووضعته إلى جواره وعصر في صحنه العنب ، ثم ألقى الخبز الجاف في العصور وأسد ظهوره للحائط ومدد قدميه قليلا . وجلس ينتظر أن يفقد الخبر قسوته وجفافه وهو في عصر العنب .. وظل « العزيز » يصبره حوله ، وراح يتأمل المنظر ..

كل شيء صامت وميت وخراب ..

البيوت تهدمت معظم جدرانها ، وبقيت أعمدة هناك تنهيا للسقوط ..

الأشجار القليلة في المنطقة صفراء يقتلها العطش ..

عظام الموتى الباقية ممن دفنوا هناك تحولت إلى ما يشبه التراب ..

والصمت بعشش في المكان ، وينشر أجفانه الساكنة على الأرض .

وأعس « عزيز » بقسوة الموت وتقل الخراب .. تقساطر داخل نفسه :

« أنى يحيى هذه الله بعد موتها » [1] .

تساءل كيف يحيى الله هذه العظام بعد موتها ، وتحولها إلى ما يشبه التراب . لم يكن « عزيز » يشك أن الله سبحانه هذه العظام ، أبا قالها تمعب ودعشة .. ولم يكذ « عزيز » يقول كلماته حتى مات ..

أرسل الله أنه ملك الموت عليه السلام ، فقبض روحه .. وتدد الحمار في مكانه حين رأى صبت صاحبه وسكون جسده .. وظل الحمار ممددا في مكانه حتى غربت الشمس وجاء الصباح .. وحل الحمار أن ينهض وينصرف ولكنه كان مقيدا . وظل في مكانه لا يستطيع التحلص من قيده حتى مات من الجوع . وتدد الحمار على الأرض إلى جوار صاحبه

(1) من الآية ٢٥٩ سورة البقرة مدنية .

واستبطأ أهل القرية « مزيرا » .. خرجوا يبحثون عنه ..

ذهبوا إلى حديقته فلم يجدوه هناك . عادوا إلى القرية فلم يجدوا له على أثر ، وقرروا تكوين جماعات للبحث عنه ، وراحت هذه الجماعات تبحث في كل اتجاه فلم تجد « مزيرا » ولم تجد حبار . وكانت هذه الجماعات تمر على المقابر التي مات فيها « عزيز » فلا تتوقف عندها . إن كل شيء صلبت هنا وميت ولو كان « عزيز » موجودا لسمعوا صوته ، لم أن هذه المقابر المهتمة تخيفهم ، ولهذا لم يبحثوا فيها بجد . ومرت أيام وأيام ، ويئس الناس من هودة « عزيز » ، وتأكد أبناؤه أنهم لن يروه مرة ثانية ، ومرفت زوجته أنها مستحرم رعايته لابنائها وحبه لها ، وجلست تبكيه طويلا ، غير أن الزمن بطبيعته يجفف الدموع كما يخفف الألم ، وبسح الناس دموعهم ، وبدأوا ينسون مزيرا وينشغلون في مشاكل الحياة اليومية وممرت سنوات ، ونسى الناس « مزيرا » ما عدا أسفر أبنائها ، وإمراة كانت تعمل شغالة في بيتهم ، كان « عزيز » يحلف عليها ، وكان صهرها حشرين مليا حين خرج « عزيز » من القرية .

ومرت عشر سنوات ، عشرون سنة ، ثمانون سنة ، تسعون سنة ، حتى انتهى قرن بأكمله .. مروت مائة عام .

وشاء الله تعالى أن يستيقظ « عزيز » .

أرسل الله إليه ملكا أضاء النور في قلبه ، ليرى كيف يبعث الله الموتى .

كان « عزيز » ميتا منذ مائة عام .. ورقم ذلك لها هو ذا يتحول من التراب إلى العظام إلى اللحم ، إلى الجلد ، ثم يبعث الله فيه الحياة بالأمم عينهض جالسا في مكانه .

جلس « عزيز » في مكانه ، فرك عينيه ، استيقظ من موت أسلمير مائة عام .. تحول بصمره حوله فرأى المقابر حوله ، وتذكر أنه نام .. آه .. كان ملندا من حديقته إلى القرية فلم في المقابر .. نعم .. هذا ماحدث ثابا .. كانت الشمس تنهيا للغروب ، وكان هو قد نام في الظهيرة . قال لنفسه :

— لقد نمت طويلا . ربما من الظهيرة إلى المغرب .

سأله الملك الذي أمره الله بإيقاظه :

— كم لبثت ؟ [١] .

أن الملك يسأله : كم ساعة نام ؟ ولجابه : « لبثت يوما أو بعض يوم » [٢] . قال له الملك الكريم :

« بل لبثت مائة عام » .. [٣] .

(١) (٢) (٣) من الآية ٢٥٩ سورة البقرة مغلقة .

أنت فأنتم منذ مائة سنة .. مهت منذ مائة علم .. إيمانك الله ومطك
لنحرب الجواب من سؤالك حين تمجبت ودهشت من بعث الموتى .
أحسن « عزيز » بالدهشة تنسحب من نفسه ويحل بدلها إيمان مبيق
بقدره الخالق .

قال الملك وهو يشير إلى طحلم « عزيز » :

— « انظر إلى طحلمك وشرابك لم يتصفه » [١] ..

نظر « عزيز » إلى التبن فوجده كما هو .. لم يتغير لونه ولا طعمه ولم
يفسد . لقد مرت عليه سنة مائة فكيف بقي الطحلم على حاله ؟ ! . ونظر
« عزيز » إلى الصحن الذي صمر فيه العنب ووضع فيه الخبز الجاف ،
فوجده على حاله الذي تركه عليه .. كما هو .. ما زال شراب العنب
صالحا للشرب ، وما زال الخبز يعطر أن يفقد نسوته وجلاله وهو مغروس
في عصير العنب .

وامتلا « عزيز » بالدهشة .. كيف تمر مائة سنة على عصير العنب
ويظل على حاله بعير تمير .. بينما هو يتغير بعد ساعات ويتسد ..
وكانها أحسن الملك أن « عزيزا » لم يصدق ما قاله .. ولهذا أشار الملك
إلى الحمار .. قال « لعزيز » :

— « وانظر إلى حمارك » [٢] .

ونظر « عزيز » إلى حماره فلم يجد غير تراب مظلم حماره .

قال له الملك : هل تريد أن ترى كيف يحيى الله الموتى .. ؟

انظر إلى الأرض .. إلى التراب الذي كان قبل ذلك حمارك ..

نادى الملك مظلم الحمار ، فلجابت ذرات التراب ، وراحت تتجمع
وتتصاق من كل ناحية حتى تكونت العظام .. أمر الملك العروق ،
والأعصاب ، واللحم ، أن تتكون .. وراح اللحم يكسو مظلم الحمار
و « عزيز » ينظر ..

انتهى تكوين اللحم فنتت غولته الجلد ، والشعر ، وعاد الحمار كما كان
لحظة الموت .. حسدا بغير روح .. وأمر الملك روح الحمار أن تعود إليه ،
لمعنت إليه ، ومهض الحمار واقفا ، رفع قبله وبدأ ينهق . كان الحمار ميتا
من الحوق هذه المرة ..

شاهد « عزيز » هذه الآية الكبرى تقع أمامه ، شاهد معجزة الله في
بعث الموتى بعد تحولهم إلى عظام وتراب ..

قال « عزيز » بعد أن رأى المعجزة تقع أمامه :

— « أعلم أن الله على كل شيء قدير » [٣] ..

نهض « عزيز » وركب حماره ، وانصرف عائداً الى قريته . كان الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يجعل عزيزاً آية للناس ، ومعجزة حية على صدق اباحت وقبالة الاموات .

دخل « عزيز » قريته ساعة الغروب .. انكر في قلبه هذا التحول الذي وقع في القرية .. تغيرت البيوت والشوارع ، والناس . والوجوه ، والأطفال .. لا يعرف أحداً هما ولا يعرفه أحد .

خرج « عزيز » من القرية وعمره أربعون سنة . ويعود اليها وعمره أربعون سنة . عاد اليها كما خرج ..

بعث الله من موته كما كان عند موته ، شاباً في الأربعين ، لكن قريته عاشت مائة عام ، فتهدمت البيوت وتغيرت الشوارع والوجوه .

قال « عزيز » لنفسه ابحت عن رجل عجوز أو امرأة عجوز تفكرنى . ظل يبحث حتى عثر على خادسته التي تركها في العشرين من عمرها .. كان عمرها الآن ١٢٠ سنة ، تهدمت قواها وسقطت أسنانها ، وراح بصرها وكانت تشبه مجموعة من العظام المكسوة بالجلد .

سألتها « عزيز » :

— أينما العجوز الطيبة .. أين منزل عزيز ؟ .

بكت المرأة وقالت : لم يعد يذكره أحد .. خرج منذ مائة عام فلم يعد .. فليرحمه الله ..

قال « عزيز » للمرأة :

اننى أنا عزيز .. ألا تعرفيننى .. لقد أمانتى الله حانة علم ويحبنى من الموت ..

قالت المرأة وهي لا تصدقه : كان عزيز مستجاب الدعوة .. ادع الله لي أن أبصر وأمشي لأراك وأعرفك ..

ودعا لها « عزيز » في شصر وتبشى ، فرد الله اليها بصرها وقوتها فعرفت أنه « عزيز » .. وأسرعت تجرى في البلدة كلها وهي تصرخ :

ان عزيزاً قد عاد .. ودهش الناس وظنوا أنها قد جنت . ثم اجتمع مجلس الحكماء والعلماء ، وكان فيهم ابن لابن عزيز ، كان أبوه قد مات وكان الحفيد في السبعين من عمره .. وكان حده وهو « عزيز » في الأربعين من عمره .

اجتمع مجلس العلماء والحكماء ، واستمعوا لقصة « عزيز » ، ولم يعرفوا هل يصدقونه أم يكذبونه . ثم سأله أحد الحكماء :

— نسمع من آبائنا وأجدادنا أن « عزيزاً » كان نبياً ، وكان يحفظ التوراة في صدره .. وقد طبعت التوراة في حرب بختنصر .. أحرقها وقتل العلماء والقراء .. وقع هذا في المائة عام التي تقول أنك مت فيها لو نمت .. لو كنت تحفظ التوراة لصدقنا أنك عزيز .

أدرك عزيز أنه لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة . أدرك أن تواترها قد انقطع . . وكان عزيز قد خباها حماية من الأعداء .

وحلس عزيز في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فنسخ لهم التوراة . . سمحوا حرفا بحرف حتى انتهى منها ثم قال لنفسه : استخرج الآن التوراة التي دفنتها لأضاعبها على ما حدثت عنه القوم ، انطلق إلى ذلك الموضع فاستخرج التوراة ، وكان الورق قد تحلل وتعتن . . ولدرك لماذا أملاه الله مائة علم ثم بعثه .

انتشرت أخبار معجزة عزيز بين بني إسرائيل . . وحصلت المعجزة معها فتنة قاسية لقومه . ادعى ناس من قومه أن عزيزا ابن الله . .

قال تعالى : « وقالته اليهود : عزيز ابن الله » [١] . .

في البداية ، تآمنوا بين عزيز وموسى وثقوا :

— لم يستطيع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب . لما عزيز لحاظا بها من غير كتاب . .

بعد هذه المقدرة الظالمة ، انتهوا إلى نتيجة خاطئة فنسبوا لبيهم بالبنوة إلى الحق عز وجل . . سبحانه الله وتعالى علوا كبيرا على ذلك .

« ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه » [٢] . .

(١) من الآية ٢٠ سورة الثوبة بحنية .
(٢) من الآية ٢٥ سورة مريم مكة .

زكريا

[عليه الصلاة والسلام]

كان لهذا العصر طعم غريب . صنعته آلاف الأسماء المختلفة المتعارضة التي عاشت معا في سراع لا يهدأ .

الايمن بالله يضيء المسجد العظيم في بيت المقدس ، على حين يحشش الكذب في سوق اليهود المجلور ، الذي يبعد خطوات عن المسجد .

وكعادة الدنيا كان كل شيء يتصارع مع ضده ، الخير والشر ، النور والظلام ، الحقيقة والكذب ، الأنبياء والطغاة ، كل شيء كان يعيش صراعه من أجل المقادير .

وفي هذا العصر القديم .. كان هناك نبي .. وعالم عظيم يصلي بالناس .. كان اسم النبي « زكريا » عليه السلام .. كما العالم العظيم الذي اخترعه الله للصلاة بالناس . فكان اسمه « عمران » .. عليه السلام .

وكان عمران زوجا ، وكانت زوجته تتنى أن تلد ..

واشرف هذا المصباح على المدينة فطرح زوجته « عمران » طعام الطهور وشاهدت منظرا وقفت له عليه طويلا تتأمل ..

كان هناك طائر يطعم ابنه الطفل في فمه .. ويسقيه . ويأخذه تحت جناحه خوفا عليه من الرد .. ونكرها هذا المشهد بنفسها فتبنت على الله أن تلد .. ورغمت بديها وراحت تدعو خالقها أن يرزقها مطلق .

واستجاب لها رحمة الله فتلحست ذات يوم أنها حبل ، وملاها الفرح والشكر . فنظرت ما في بطنها محررا .

« إذ قالت امرأة عمران : رب اني نظرت لك ما في بطني محررا ، فتقبل مني ، فانه كنت السميع العليم » (١) ..

كان معنى هذا أنها نظرت . أن يكون خادما للمسجد طوال حياته .. يتفرغ لعبادة الله وخدمة بيته ..

وجاء يوم الوضع ووضعت زوجة عمران بنتا ، وتوجهت الأم ، كانت تريد ولدا ليكون في خدمة المسجد والسادة ، فلما جاء المولود أنشئ قررت الأم أن تقي بنتها . رغم أن الذكر ليس كالأنثى ..

(١) الآية ٢٥ سورة آل عمران مكية .

«أغلبا وضعتها قالت :

رب انى وضعتها اتنى ، والله اعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وانى سميتها مريم [١] ..

سمع الله سبحانه وتعالى دعاء زوجة عمران ، والله يسمع ما نقوله ، وما يهيمس به لأنفسنا ، وما نتمنى أن نقوله ولا نفعل .. يسمع الله هذا كله ويعرفه ..

سمع الله زوجة عمران وهى تضره انها قد وضعت بنتا ، والله اعلم بما وضعت ، الله هو وحده الذى يختار نوع المولود فيخلقه ذكرا أو يخلقه أنثى ..

سمع الله زوجة عمران تسأله أن يحفظ هذه الفتاة التى سميتها مريم ، ولن يحفظ ذريتها من الشيطان الرجيم .

« وانى اعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فقبلها ربها بقبول حسن واقبتها نباتا حسنا وكلفها زكريا [٢] ..

واستجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء زوجة عمران ، وأم مريم ، قبل الله مريم بقول حسن واقبتها نباتا حسنا ، وشاعت رهيبة أن تكون هذه امرأة افضل من سائر العالمين ، وان تكون أما نبي يجرى ميلاده معجزة كميلاد آدم .. جاء آدم عليه السلام من غير أب أو أم ، وجاء عيسى عليه السلام من غير أب .. جاء من لم طاهرة لم تتزوج ولم يمسسها بشر .

اثر ميلاد مريم انة عمران مشكلة صغيرة فى مبدأ الأمر .

كان عمران قد مات قبل ولادة مريم .. واراد عليه ذلك الزمان وشيوعه أن يروا مريم ..

كل واحد يسأق قليل هذا الشرف .. أن يرى انة تسبهم الجليل اسما وصاحب صلاتهم وامامهم فيها ..

قال « زكريا » : اكلها انا .. هى قرينى .. زوجتى هى خالفتها .. ولانابى هذه الامة وأولكم بها .

وقال العلماء والشيوخ : ولماذا لا ياكلها احدا .. لا نستطيع أن نتركه تحصل على هذا الفصل بغير اشتراكنا فيه .

وكانوا يختصمون لولا أن اتفقوا على إجراء قرعة . اى واحد يكسب القرعة هو الذى ياكل مريم ، ويربها ، ويكون له شرف خدمتها ، حتى تكبر هى وتخدم المسجد وتتفرغ لعبادة الله .

وأجريت القرعة .. وضعت مريم وهى مولودة على الأرض ، ووضعت الى جوارها انعام الذين يرغبون فى كفالها .. واحضروا طنلا صغيرا فأخرج الطفل قلم زكريا ..

[١] من الآية ٣٦ سورة آل عمران مكية .

[٢] من الآية ٣٦ وآية ٤٧ سورة آل عمران مكية .

قال زكريا : حكم الله لي بأن اكلها .

قال العلماء والشيوخ : لا .. القرعة ثلاث مرات .

وراهوا يفكرون في القرعة الثانية .. حفر كل واحد اسمه على قلم خشبي ، وقالوا : نلقى بأقلامنا في النهر .. من سار تليه ضد التيار وحده فهو الغالب .

قال تعالى : « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » [١] .

والقوا أقلامهم في النهر ، فسارت أقلامهم جميعا مع التيار ما عدا قلم « زكريا » . سار وحده ضد التيار .. وظن « زكريا » أنهم سيقبضون ، ولكنهم اسروا على أن تكون القرعة ثلاث مرات .

قالوا : نلقى أقلامنا في النهر ، القلم الذي يسير مع التيار وحده يأخذ صاحبه مريم .

والقوا أقلامهم فسارت جميعا ضد التيار ما عدا قلم زكريا ..

وسلموا لـ « زكريا » ، وأعطوه مريم ليكفلها ..

وبدا « زكريا » يخدم مريم ، ويربيها ويكرمها حتى كبرت ..

كان لها مكان خاص تعيش فيه في المسجد .. كان لها محراب تتصد فيه .. وكانت لا تغادر مكانها إلا قليلا .. يذهب وقتها كله في الصلاة والسجدة .. والفكر والشكر والحب لله ..

وكان « زكريا » يزورها أحيانا في المحراب ..

وكان يفاجأ كلما دخل عليها أنه لم شيء مدهش .

يكون الوقت صيفا فيجد عندها فاكهة الشتاء ، ويكون الوقت شتاء فيجد عندها فاكهة الصيف .. ويسألها زكريا من أين جاءها هذا الرزق .. فتجيب مريم أنه من عند الله ..

وتكرر هذا المشهد أكثر من مرة ..

« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » [٢] ..

كان « زكريا » شيخا عجوزا ضعيف عظمه ، واشتغل رأسه بالشعر الأبيض ، وأحس أنه لن يعيش طويلا .. وكانت زوجته وهي خالة مريم عجوز مثله ولم تلد من قبل في حياتها لأنها عاتر .. وكل « زكريا » ينسى أن يكون له ولد يرث عليه ويصير نبيا ويستطيع أن يهدي قومه ويدعوهم إلى كتاب الله ومفكرته ..

وكان « زكريا » لا يقول أفكاره هذه لأحد .. حتى لزوجته .. ولكن الله تعالى كان يعرفها قبل أن يقال .

(١) من الآية ٢٤ سورة آل عمران مدنية .

(٢) من الآية ٣٧ سورة آل عمران مدنية .

ودخل « زكريا » ذلك الصباح على مريم في المحراب ، فوجد عندها ناكبة ليس هذا لوانها ..

سألهما زكريا :

« قال : يا مريم أتى لك هذا » .

« قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .
هناك دعا زكريا ربه ﴿١﴾ ..

قال « زكريا » في نفسه : سبحان الله .. قادر على كل شيء .. ولحسن الحين أعلامه في قلبي وتمني الفرية .

وتذكرت رحمة الله « زكريا » فدعا ربه .. « فذكر رحمة ربك عبده زكريا .
أد نادى ربه نداء خفيا . قال : رب أنى وهذا العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم تكن بدعتك رب شقيا . وأنى هفت الموالى من ورأى وكنت امرأتى عاقرا ، فهب لى من أدنك وليا . يرثى ويرث من آل يعقوب وأعطه رب وضيا ﴿٢﴾ .

سأل « زكريا » خالقه بغير أن يرفع صوته أن يرزقه طفلا يرث النبوة والحكمة والفصل والعلم .. وكان « زكريا » خائفا أن يضل القوم من بعده ولم يبعث فيهم نبي ..

واستجاب الله تعالى لزكريا .

لم يكذ « زكريا » يهمس في قلبه بدعائه لله حتى نادته الملائكة وهو قائم يصلى في المحراب .. ومادته رحمة ربه .

« يا زكريا ، أنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ﴿٣﴾ » .

لوحىء « زكريا » بهذه النشري .. أن يكون له ولد لا شبيه له أو مثيل من قبل .. أحسن « زكريا » من غرط الفرج باضطراب .. تسأل من موضع الدهشة .

« قال : رب : أتى يكون لى غلام وكنت امرأتى عاقرا ، وقد بلغت من الكبر عتيا ﴿٤﴾ » ..

لدهشة أن يتجب وهو مجوز وامراته لا تلد ..

« قال : كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تنك شيئا ﴿٥﴾ » ..

(١) من الآية ٢٧ سورة آل عمران بغنية .

(٢) الآيات ٢ إلى ٦ سورة مريم مكية .

(٣) الآية ٧ سورة مريم مكية .

(٤) الآية ٨ من سورة مريم مكية .

(٥) الآية ٩ سورة مريم مكية .

للهيئة الملائكة أن هذه مشيئة الله وليس أمام مشيئة الله إلا التنازل ..
وليس هناك شيء يصعب على الله سبحانه وتعالى .. كل شيء يريد الله
بأمره بالوجود فيوجد .. وقد خلق الله « زكريا » نفسه من قبل ولم يكن له
وجود .. وكل شيء يخلقه الله تعالى بمجرد المشيئة .. « أنما أمره إذا أراد
شيئاً أن يقول له كن فيكون » (١) ..

امتلا قلب « زكريا » بالشكر لله وحده وتجيده .. وسأل ربه أن يجعل
له آية أو علامة ..

« قال : رب اجعل لي آية ، قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليل
سوية . فخرج على قومه من المحراب فأرأى إليهم : أن يسبحوا
بكرة وعشيا » (٢) ..

أخبره الله أنه سنجيء عليه ثلاثة أيام لا يستطيع فيها النطق .. سجد
نفسه غير قادر على الكلام .. سيكون صحيح المزاج غير معتل .. إذا
حدث له هذا ليقن أن أمراته حامل ، وأن محجرة الله قد تحققت .. وعليه
ساعتها أن يتحدث إلى الناس عن طريق الإشارة .. وأن يسبح الله كثيراً
في الصباح والمساء ..

وخرج « زكريا » يوماً على الناس وقلبه مليء بالشكر ، وأراد أن يكلمهم
فاكتشف أن لسانه لا ينطق .. وعرف أن محجرة الله قد تحققت .. فأرأى
إلى قومه أن يسبحوا الله في الفجر والمساء .. وراح هو يسبح الله في
قلبه ..

كثرت سمعته بخير هد .

بشرته الملائكة بأن سماء الله يحيى ..

للمرة الأولى نحن أمام ابن لم يطلق والده اسمه عليه ، ولم تخر الأم
اسم طفلها ، وإنما كل الله رب العالمين هو الذي سماه ..

ومع هذا التشريف العظيم والتكريم البالغ ، بشر الله سبحانه وتعالى
« زكريا » أن يكون ابنه يحيى مصدقاً بكلمة من الله .. ومبدأً وكريماً
وعظيماً مؤنبياً من الصالحين ..

كان « زكريا » يرتضى من الفرح ، راحت دموعه تسيل على وجهه
المجوز وشكل لعينه البيضاء وهو يصلى لله شكراً على استجابته لدعوته
ومنحه يحيى .

ولم يكن يحيى قد ولد بعد .. وكان موعد ولادته يقترب .

(١) الآية ٨٢ سورة يس مكية .

(٢) الأيتان ١٠ و ١١ سورة مريم مكية .

يحيى [عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى في سورة آل عمران :

« هنالك دعا زكريا ربه ، قال : رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب : ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحسورا ونبيا من الصالحين » (١) ..

وقال تعالى في سورة مريم :

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا . وحانا من لدنا وزكاة وكان تقيا . وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » (٢) ..

وقال تعالى في سورة مريم :

« يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » (٣) ..

هذا هو يحيى ، نبي الله الذي شهد الحق عز وجل له انه لم يجعل له من قبل سميا ولا مثيلا ، وهو النبي الذي قال الحق عنه :

« وحنا من لدنا »

.. ومثليا أوتى الخضر علما من لدن الله ، ونبي يحيى حنا من لدن الله ، والعلم مفهوم ، والحنان هو العلم الشهودي الذي يشيع في تسيجه حب صيق المكثفات ورحمة بها ، كل الحنان مرجة من مرجات الحب الذي ينبع من العلم ولقد كان يحيى في الأسماء نموذجاً لا مثيل له في النسك والزهد والحب الإلهي .. هو انفسى النسك .

كان يضيء حيا لكل الكائنات ، واجبه الناس واحفنه الطيور والوحوش والصحاري والجبال ، ثم اهدرت دمه كلمة حق قالها في بلاط ملك ظالم ، بشأن امر يتصل براقصة مضي .

(١) الآية ٣٨ ، ٢٩ سورة آل عمران مطبوعة .

(٢) الآيات ١٢ الى ١٥ سورة مريم مكية .

(٣) الآية ٧ سورة مريم مكية .

يذكر العلماء فضل يحيى ويوردون لذلك أمثلة كثيرة .

كان يحيى معاصرا لمعيسى وقريبه من وجهة الأم [ابن خالته] وتروى السنة أن يحيى ومعيسى التقيا يوما فقتل معيسى يحيى :

— استغفر لى يا يحيى . كنت خير منى .

قال يحيى : استغفر لى يا معيسى . كنت خير منى .

قال معيسى : بل أنت خير منى . . . سلمت على نفسك وسلم الله عليك .

تشير القصة الى فضل يحيى حين سلم الله عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا .

ويقال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه يوما فوجدهم يتذكرون قسمل الأنبياء .

قال قتال : موسى كلم الله .

وقال قتال : معيسى روح الله وكلته .

وقال قتال : إبراهيم خليل الله .

ومضى الصحابة يتحدثون عن الأنبياء فدخل الرسول عليه الصلاة والسلام حين رأهم لا يفكرون يحيى .

— أين الشهيد ابن الشهيد . يلبس الوبر ويلبس الشجر مخافة الذنب .

أين يحيى بن زكريا .

.. .. .

وجاء الربيع لى فلسطين . . واشتقت خضرة الأرض واشتد صفاء السماء

غسل القمر بأشعته الفضية تمم الأتجار والحقول .

ومنتعنت أزهار الموردة ، والبرققال ، وانتشر مطرها فى الجو . .

وفى طير مهاجر أمنية تنقلى بالفرح . . وأمنلا الجو بلحماس عبق

بالجمال .

ورلد « يحيى » عليه السلام . .

كان ميلاده معجزة ، فقد جاء لأبيه زكريا بعد عمر طال حتى يشئ فيه الشيخ من القرية . . وجاء بعد دعوة نقية تحرك بها قلب النبى « زكريا » . . وجاء وسط عصر يمتلىء بظلم النقاء كما يمتلىء بقمم الطفيلين .

وكانت مريم تبذل قمة النقاء فى هذا العصر . . أن محرابها المحطر المخلق يكاد يضىء بكلبات الصلاة المستمرة ، والفكر الخالص والطلب الطاهر .

والسجد يسوج بالصلين والذاكرين والمؤمنين . . وبعيدا عنه يدق الظلم أعلامه الخاطئة .

ولد « يحيى » عليه السلام ، مجات طفولته عربية من دنيا الأطلال . .

كل معظم الأطفال يملكون اللهب لما هو فكان جادا طول الوقت .
كان بعض الأطفال يمسلي بتمذيب الحيوانات ، وكان « يحيى » يطعم
الحيوانات والطيور من طعامه رحمة بها ، وحسنا عليها ، ويبقى هو بصير طعام
.. أو يأكل من أوراق الشجر أو ثمارها ، وكلما كبر « يحيى » في السن زاد
النور في وجهه وامتلأ قلبه بالحكمة وحب الله والمعرفة والسلام .

وكان « يحيى » يحب القراءة ، وكان يقرأ في العلم من طفولته .. فلما
صار صبيا نأخته رحمة ربه :

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبيا » (١) ..

صدر الأمر لـ « يحيى » وهو صبي أن يأخذ الكتاب بقوة بمعنى أن يدرس
الكتاب باحكام .. كتب الشريعة .. رزقه الله الاتقان على معرفة الشريعة
والقضاء بين الناس وهو صبي .. كان أعلم الناس وأشدهم حكمة في زمانه
درس الشريعة دراسة كاملة ، ولهذا السبب آتاه الله الحكم وهو صبي ..
كلن يحكم بين الناس ، ويبين لهم أسرار الدين ، ويعرفهم طريق الصواب
ويحذرهم من طريق الخطأ ..

وكبر « يحيى » فزاد عليه ، وزادت رحمته ، وزاد حنانه بوالديه ، والناس ،
والمخلوقات ، والطيور ، والحيوانات ، والأشجار .. حتى عم حنانه انديسا
وملاها بالرحمة .

كل يدعو الناس الى التوبة من الذنوب ، وكان يغسلهم في نهر الاردن
ليغسلوا انفسهم بعدها بالتوبة .. وكان يدعو الله لهم .. ولم يكن هناك
انسلن يكره « يحيى » أو يلينى له الشر ..

كل محبوبا لحنانه ، وزكاته ، وتقواه ، وعلمه ، ونضله . ثم زاد « يحيى »
على ذلك بالقدسك . كان يخرج الى الجبال والحقول والصحراء فيبحث فيها
شهورا متعاقبة يمد الله ويكي بين يديه ، ويمسلي له .. وكان يحس بالناس
في البراري ، ولا يهتم بطعامه فيأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ،
ويشربى بالمجادل أحياتا ، ويأكل العشب أحياتا أخرى .. وكان ينال في أي
مقارة يجدها في الجبل .. أو أي حفرة يجدها في الأرض .. وأحياتا كان
يخزل معارة في الجبل فيجد فيها وحشا .. أسدا أو نمرا أو ذنبا ، وكلن
من تمرط انشغاله في ذكر الله والصلاة لا يلتفت الى الخنزير أو الأسد ، وكلن
ينظر اليه فيعرف أن هذا نبي الله « يحيى » الذي يحلف على المخلوقات ،
ويدينها بحنانه ويحكم بينها بعلمه .. وكلن الوحش المفترس يخفض رأسه شه
يعلمر المكل برفق دون أن يمس به يحيى .

وكان يحيى أحياتا أخرى يطعم الوحوش حننا بها ويبيت هو بغير عشاء ،
يكتلي بالصلاة والذكر غذاء لقلبه قبل جسده . ويأكل من أوراق الشجر ،
ويبيت دامج العين دأكر اللب محبا لله شاكرا محبة حامدا نضله .

وكان « يحيى » إذا وقف بين الناس ليدعوهم الى الله أبسكاهم من الحب
والخشوع .. وأثر في قلوبهم مصدق الكلمات وكونها قريبة العهد من الله
وعلى عهد الله ..

(١) الآية ١٢ سورة مريم مكة .

وجاء صباح خرج فيه « يحيى » على الناس .. امتلا المسجد بالناس ،
ووقف « يحيى » زكراً « وبدأ يتحدث .

قال : ان الله عز وجل امرني بكلمات اعلم بها ، وامركم ان تعملوا بها ..
ان تعبدوا الله وحده بلا شريك .. فمن اشرك بالله وعبد غيره فهو مثل عبد
اشتراه سيده فراح يعمل ويؤدى ثمن عبده لسيده غير سيده .. ايكم يحب
ان يكون عبده كذلك .. ؟

وامركم بالصلاة فان الله نظر الى عبده وهو يصلى ، ما لم يلتفت من
صلاته .. فاذا صليتم فاختسوا .

وامركم بالصيام .. فان مثل ذلك كمثل رجل معه « صرة » من مسك
جميل الرائحة ، كلها سار هذا الرجل فاحت منه رائحة المسك المعطر .

وامركم بفكر الله عز وجل كثيرا ، فان مثل ذلك كمثل رجل طلبه اعداؤه
باسرع لحسن حصين فافلقه عليه .. واعظم الحصون ذكر الله .. ولا نجاة
بغير هذا الحصن .

انتهى « يحيى » من كلامه ، فهبط من المنبر وسار عائدا الى الصحراء .
هناك حيث تمتد الرمال وتلتقي بالافق ، وحيث لا صوت غير صسوت
الرياح ، وتنفس الاتجار ، واصوات اعدام وحوش الجبال .. هنالك كان
« يحيى » يقف وسط هذا العلاء ، ويأخذ في الصلاة واليبكاء .

ووقع الهمام بين « يحيى » والسلطات الحاكمة في ذلك الوقت ..
كل احد ملوك ذلك الزمان طامعة ضيق العقل غبي القلب يستبد برأيه ،
وكان الفساد منتشر في بلاطه .. وكان يسمع انباء متفرقة من « يحيى »
ليدهش لان الناس يحسون لحدا بهذا القدر ، وهو ملك ورغم ذلك لا يحبه
احد .

وكان هذا الملك يريد اغتصاب زوجة اخيه ، وكانت لها ابنة جمعت مع
ثلاثة الاثونة شهرة دائمة في الرقص ، وتقول الحكايات انها كانت ترقص
وهي ترتدى سبعة اردية .. تخلع رداء مع كل رقصة .. حتى ترقص
رقصتها الاخيرة عارية .

.. وسأل الملك « يحيى » هل يجوز له ان يتزوج زوجة اخيه فقال « يحيى »
عليه السلام : « لا يجوز » ..

وراح الملك يحدث « يحيى » بانه يريد الزواج منها .. وعلى « يحيى » ان
يجهد له فتوى ترضيه ورفض « يحيى » ان يوافق الملك على رغبته . قال
له حكم الشريعة وتركه وانصرف .. وزاد غضب الملك على « يحيى » فامر
بمحبته .

واغتصب الملك زوجة اخيه . وكانت ابنتها الراقصة قد شاهدت « يحيى »
وهو يحدث الملك .. واحصت بنبل وجهه وجمال روحه وجلال شخصيته .
واحبته الراقصة ، وذهبت اليه في سجنه وشاهدته يجلس بمنفرط في
الصلاة واليبكاء .. راقبته وهو يصلى حتى فرغ .. ألقت بنفسها تحت تعبيه
وسألته ان يحبها كما تحبه ..

قال يحيى : « ليس في قلبى مكان لحب غير حب الله » .

نهضت المرأة يائسة ، وانصرفت عنه وقد أملاً قلبها بكراهيته .. عادت الى قصر الملك ..

كان العشاء قد انتهى ، وبدأ الملك يشرب الخمر .. بدأت تسقيه حتى أحس أن رأسه مثل بالونة ضخمة وأنه سيظهر بعد قليل .. هناك نهضت الراقصة وأسمرت ترتدى ثياب الرقص وعادت الى الملك .. نظر الملك اليها وأحس أن رأسه يزداد تهوية ويخلو أكثر وأكثر . وبدلت ترقص .. بدأ العزف وفق الطبول وراحت المرأة ترقص ..

فى الرقصة السابعة توقفت ، وكشرت وجهها وقالت للملك :

— أريد أن أسأل مولاي شيئاً ..

قال الملك المغمور الطاغية : كل شيء تطلبينه سأعطيه لك الآن .

قالت المرأة : أريد رأس « يحيى بن زكريا » !

لما الملك من سكره ، وأحس الخوف .. قال لها وهو يتراجع في منعد : —

أما بيني شيئاً آخر .

قالت :

— أريد دم « يحيى بن زكريا » ..

كانت هذه المرأة فى نهاية الأمر رمزا للشكر الأسود .

وقال الملك وهو يتناول كأسه الرابعة بعد الأربعين :

— اقتلوا « يحيى بن زكريا » .

ولمدر قائد الحرس الملكى أمراً الى فرسته ..

ولمدر الفرسان الى سيوفهم وخناجرهم ..

.....

وارتفعت الأيدي الآتية بالسيوف وهبطت على العنق النبيل .. وتشتق قلب الصخور حثنا على النبي العظيم وهو يمشى الى الشهادة .

يورد انجيل متى فى الفصل الرابع عشر رواية تقول :

« كان هيرودس قد قبض على يوحنا وأوثقه ثم ألقى به فى السجن بسبب هيروديا زوجة أخيه فيلبس ، لأن يوحنا كان يقول له لا يحل لك أن تأخذها زوجة لك . وقد كان يريد قتله ، لكنه خاف من الشعب ، لأنهم كانوا يمدونه نبيا . فلما كمل الاحتفال بميلاد هيرودس رقست ابنة هيروديا فى الوسط أمام المدعوين فأعجبت هيرودس . ومن ثم أقسم واحداً ايهاها بأنها مهما طلبت أعطها . وإذا كانت أنها قد سبق أن لقنتها قالت : أعطنى هنا رأس يوحنا المعمدان فى طبق ، فأكتاب الملك ، ولكنه من أجل النسيب والجالسين معه الى المائدة أمر بإعطائها إياه . وأرسل فقطع رأس يوحنا فى السجن . وجيء برأسه فى طبق وقدم للفئة فجات به الى أمها » ..

عيسى [عليه الصلاة والسلام]

انحدرت الشمس نحو الغرب .

حركت الرياح الهواء المطر حول أشجار التفاح ، وازهار البرتقال ..
وانحدر المطر وبدأ رحلته الى محراب مريم .. وهناك تسلك من نوافذ
المحراب ونشر أحنقه حول العنقاء الخائبة التي تصلى بغير أن يسمع
صوتها أحد . وأحست « مريم » أن الجو يمتلئ برائحة المطر فجأة .. وصلت
اليها رسالة الطبيعة ، لم تسمع وعلمت تنفرط في صلاة عميقة تؤدي بها
الشكر .. وحط أحد طيور الكناري على شباك المحراب .. رفع منقاره
لأعلى في اتجاه الشمس وبسط جناحيه ، وتغنى المياه التي استجم فيها
لمتلهم الرذاذ الخفيف حوله .. وتذكرت « مريم » أنها نصبت أن تمشي
شجرة الورد التي نبتت فجأة وسط مسطرتين خارج المسجد .. أنهت « مريم »
صلاتها ، وخرجت من المحراب في طريقها الى الشجرة ..

لم تكن تنهها للخروج حتى نادتها الملائكة :

« يا مريم إن الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على نفسه
العالمين » (١) ..

توقفت « مريم » وازدادت شحوب وجهها ..

أضاء المحراب بكلمات الملائكة . نوع من الضوء شدو الشمس الى جواره
مثل شمس مطفأة .

إن « مريم » تشعر في الأيام الأخيرة بتغيير يشمل روحها وجسمها
كله .. ليست عندها امرأة لتتأمل فيها ، لكنها تحس أن لون دم القوة
والشباب ينسحب تدريجاً لكنه للون أكثر طهراً وأعمق أصالة .. أنها تحس
الشحوب رغم أنها لا تراهُ .. وتشعر بضعف بشري وقوة غير مادية ، وكلما
رأى جسمها تحولاً زادت روحها قوة .. ملأها هذا الإحساس بالتواضع
والعظمة .. وفعل اليها الانسحاق من المسؤولية العظيمة التي ألقيت على
كتفيها الرقيقين ..

« وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على
نساء العالمين » (٢) ..

(١) من الآية ٢٢ سورة آل عمران مدنية .

(٢) من الآية ٢٢ سورة آل عمران مدنية .

بهذه الكلمات البسيطة نهت مريم أن الله يختارها ، ويطهرها ويختارها ويجعلها على رأس نساء الوجود .. هذا الوجود ، والوجود الذي لم يخلق بعد .. هي أعظم فتاة في الدنيا وسعد قيامة الأموات وخلق الآخرة .. وعادت الملائكة تتحدث :

« يا مريم اقنتي لربك واسجدى وأركعي مع الراكعين » (١) ..

كان الأمر الصادر بعد البشارة أن تزيد من خشوعها ، وسجودها وركوعها لله ..

ونسيت مريم شجرة الورد وعادت للصلاة ..

لم تعد تحس أنها صغيرة وضعيفة وتقف وحدها في المهراب .. أنها أحست أنها تضم قرص الشمس في قلبها ، وتشرب خصللات شعرها من ندى الحقل ، وأحست أن الرهيق الذي يصعد في سيقان أشجار الفلاح يصعد في مروتها ، ونجست كل جموع الأطفال الأبرياء في الدنيا وانحدرت جمعة واحدة كبيرة من عين الغراء وهي تصلى ..

كانت دمعها الوحيدة تضم مذاق اللبن وطراوة التسميم ومرارة لحزان البشر ..

وملا قلب مريم احساس متاجيء بأن شيئاً عظيماً يوشك أن يقع .. كانت تحس ذلك احساساً غامضاً منذ أيام ، لكن احساسها يؤكد الآن ..

انحدرت الشمس نحو فرائشها واستيقظ الليل .

وحلس القمر على عرشه النقي في السماء ، وحوله رحيته من السحاب الجبل الأبيض ..

وجاء منتصف الليل ومريم منهكة في الصلاة . ثم انتهت صلاتها وتذكرت شجرة الورد فحملت بعض المياه في وعاء وخرجت لتسقيها ..

كثت شجرة الورد كثت بين صخرتين في مكان يبعد عن المسجد خطوات .. وكان المكان مهجوراً من الناس ولا أحد يقترب منه .. كان المعروف أنه محجوز لمريم لتصلى فيه أو تتعبد .

اقتربت « مريم » من شجرة الورد وسقتها ، ووهمت الوعاء ، ووقفت تتأمل شجرة الورد التي طال عودها إلى الضعف في ليلتين ..

ونجاة سمعت « مريم » صوت أقدام تستقر على الأرض .. لم تسمع صوت أقدام تسير .. أنها سمعت صوت أقدام تستقر على الحمى والرمل والتراب .. ملاها الخوف لحظة .. شعرت بأنها ليست وحدها .

التفت إلى جوارها فلم تر شيئاً ..

ثم بدأت منهاها تنمودان الصوء فتأهدهه يقف هناك ..

(١) الآية ٢٢ سورة آل عمران مدنية .

ارتفعت « مريم » ونكست رأسها ..

رأت على الأرض خيالا طويلا .. وكان هذا غريبا لدرجة كبيرة ، فقد
كان واقفا في ضوء القمر .. ولم يكن وراءه مصباح ليكون هناك خيال ..
وقالت « مريم » لنفسها :

من يكون هذا الذي يقف هناك .. ؟

إن النظرة السريعة التي ألقتها « مريم » على وجهه هي التي أثارت
قلتها .. إن وجهه غريب لم تره من قبل ، وجهته مشيئة أكثر من القمر ..
ورغم أن عينيه تشسمان بالعزة والحلال ، فقد كان وجهه كله يعبر عن
التواضع العظيم .. وبدأ وجهه في النظرة السريعة التي ألقتها عليه « مريم »
كوجه رجل عنده عزة من يعبد الله منذ ملايين السنين .

.....

وتساقطت « مريم » في نفسها من يكون .. وكأنها تقرأ الغريب أفكارها
فقل :

.. السلام عليك يا مريم

فوجدت مريم أنها أمام صوت بشرى يصدر من انسان .

قالت « مريم » قبل أن ترد عليه السلام :

« اني اعوذ بالرحمن منك ان كنت نكيا » [١] ..

أرادت أن تحس في الله .. وسألته هل هو انسان طيب يعرف الله
ويتقيه .. وابتسم الواقف هناك ابتسامة نقية .

« قال : انما انا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا .. »

لم يكن الغريب ينتهي من كلمته ، حتى انضاء المكان بضوء غريب لا يشبه
ضوء الشمس ولا ضوء القمر ولا ضوء المصباح ولا الشموع ولا النار ..
كان هناك نور شديد الصفاء .. وراح هذا النور يتجمع حول الواقف في
شكل لجنحة راحت تريد حني ملأت الأفق حول « مريم » ودارت في رأس
مريم كلمته .. انما انا رسول ربك .. ٢ .. هذا سيد الملائكة ، الروح
الأمين جبريل عليه السلام ، وقد تمثل لها بشرا سويا ..

.....

رفعت مريم رأسها وهي ترتعش انفصالا .. كان الروح الأمين يقف
أمامها في صورته البشرية .. تأملت مريم صفاء جبهته ، ونقاء وجهه ،
وجلال عينيه .. صدق ظنبا .. لديه عزة من يعبد الله ملايين السنين ..
ثم تذكرت بقية جملته فجاء .. لقد قال انه رسول ربها .. وأنه جاء كي
يهبها غلاما زكيا .. تذكرت مريم أنها عذراء .. لم يمسسها بشر .. لم
تزوج ، ولم يخطبها أحد ، ولم يمسسها انسان . كيف تنجب بغير زواج ..

(١) من الآية ١٨ سورة مريم نكبة .

دارت هذه الإنكار في رأس مريم فتأملت للروح الأمين :

« أتى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم اك بغيا .. » [١] ٢١

تل الروح الأمين :

« كلك قلب ربك .. هو على هين .. وتجمعه آية لقلبي ورحمة
منا وكان أمرا مقضيا .. » [٢] ٢٢

استقبل عقل « مريم » كلمات الروح الأمين .. ألم يقل لها إن هذا
هو أمر الله .. وكل شيء ينمذ إذا أمر الله .. ثم أي غرابة في أن تلد بغير
أن يمسسها بشر .. لقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم من غير أب أو أم ، لم
يكن هناك ذكر وأنثى قبل خلق آدم .. وخلقته من طين .. وخلق آدم من طين
من ذكر بغير أنثى .. وخلق ابنها من غير أب .. يخلق من أنثى بغير ذكر ،
والعادة أن يخلق الإنسان من ذكر وأنثى .. المدة أن يكون له أب وأم ،
لكن المعجزة تقع عندما يريد الله تعالى أن تقع ..

عاد جبريل عليه السلام يتحدث :

« إن الله يشرك بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى بن مريم ،
وهيها في الدنيا والآخرة ، ومن المقربين » ويكلم الناس ل الهدى
وكهلا ومن الصالحين [٣] ٢٣

رأيت دهشة مريم .. قبل أن تحمله في بطنها تعرف اسمه .. وتصرف
أنه سيكون وهيها عند الله وعند الناس ، وتعرف أنه سيكلم الناس وهو طفل
وهو كبير .. وقبل أن يتحرك فم مريم بسؤال آخر .. رأت الروح الأمين
يرفع يده ويضع الهواء في اتجاه مريم .. وجاءت نفحة الهواء مضيئة بنور
لم نره « مريم » من قبل .. وتسلل هذا النور إلى جسد مريم وملاء فجأة ..

.....

وقبل أن تسأل « مريم » سؤالا آخر .. كان الروح القدس قد اختفى
بغير صوت ..

وهب الهواء البارد فارتعشت مريم .. أحسّت أن عقلها مبهرب منها
هروب الطير الخائف .. وعادت إلى محرابها ممرمة .. وهناك أغلقت عليها
الباب وانخرطت في صلاة مهيبة .. وبكاء أحيق ..

إنها تحس الفرح .. والدهشة .. والاضطراب .. والسلام العتيق
.. وأنها ليست وحدها .. لم تعد وحدها .. بعد أن انصرف الروح القدس
عليه السلام ، وهي تحس أنه لم يتركها وحيدة .. حركت يده نفحة ملاءمتها
من النور .. هذا النور يتحول داخل بطنها إلى طفل .. طفل سيمسح عندما
يكبر كلمة الله وروحه التي ألقاها إلى مريم ..

سيمسح عندما يذكر رسولا لله ونبيا رسالته هي الحب ..

(١) من الآية ٢٠ سورة مريم مكية .

(٢) من الآية ٢١ سورة مريم مكية .

(٣) من الآية ٤٥ وآية ٤٦ سورة آل عمران مكية .

نابت مريم هذه الليلة نوما عميقا ، انفلتت منه في الصباح ..
لم تكذ تفتح عينها حتى فوجئت بأن المحراب يمتلئ بفلكمة ليس هذا
لوانها .. كانت الفلكمة اكثر مما يكتفيها في العادة ..
ولدهشها ذلك .. وتكررت ماحدث لها أمس .. قصة زيارتها لشجرة
الورد .. لقاءها بالروح القدس .. كيف نفخ الله فيها كلمته .. هودتها الى
المحراب .. ثم نومها العميق .. قالت « مريم » لنفسها وهي تنظر الى
الفلكمة الكثيرة :

— هل آكل وحدي هذه الفلكمة .. ؟

قال لها صوت داخلي :

— لست وحدك الآن « يامريم » .. اتنبا لثنان .. أنت وعيسى .. يجب
أن تكللي جيّدا ..

وبدأت « مريم » تكل ..

ومرت الأيام .. كلى حملها يحتلف عن حمل النساء .. لم تهرض ولم تشعر
بثقل ولا أحست أن شيئا راد عليها ولا ارتفع بطنها كمادة النساء .. كلى
حملها به نعمة طيبة .

وجاء الشهر التاسع ولمى العلماء من يقول أن الغاء تكيد التمثيب السريع ،
بمعنى أن مريم لم تحمل بيمسي تسعة اشهر ، وإنما ولدت مباشرة كعميزة ..
خرجت مريم ذات يوم الى مكان بعيد .. انها تحس ان شيئا سيقع اليوم ..
لكنها لاتعرف حقيقة هذا الشيء ..

تلوتها قدماها الى مكان يمتلئ بالشجر .. والحل .. مكان لا يتصدده
أحد لبعده .. مكان لا يعرفه غيرها .. لم يكن الناس يعرفون أن « مريم »
حامل .. وانها مستد .. كان المحراب مغلقا عليها ، والناس يعرفون أنها
تتعبد فلا يقترب منها أحد .

جلست مريم تستريح تحت نخلة عظيمة مرتفعة ..

وراحت تفكر في نفسها .. كانت تشعر بالمل .. وراح الألم يتزايد ويحيء
في مراحل متتالية ..

وبدأت مريم تلد ..

« فلجأها المخاض الى جذع النخلة » قالت : يا ليتني مت قبل
هذا وكنت نسيا منسيا [١] ..

ان ألم الميلاد يحيل لنفس المعذراء الطاهرة إلا ما أخرى توقعها ولم تسع
بعد . كيف يستقبل الناس طفلها هذا .. وماذا يقولون عنها .. انهم يعرفون
انها عذراء .. فكيف تلد العذراء .. هل يصدق الناس لنفسها ولذته بغير أن

[١] الآية ٢٢ سورة مريم مكية .

يمسحها بشر .. وتصورت نظرات الشك ، وكلمات الفضول ، وتطلعات
الناس وامتلا قلبها بالحزن ..

..

وولد في نفس اللحظة من قدر الله عليه أن يحمل في قلبه أحزان البشرية .
لم تكن « مريم » تنهى من ثمنها الموت والنسيان ، حتى ناداها الطفل
الذي ولد :

« فناداها من تعنها : أن لا تعزني قد جعل ربك تعتك سرياً ، وهزى
إليك جذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، فكلّي واشربي وقسري
عينا ، فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن
تكلم اليوم أنسياً » [١] ..

نظرت « مريم » إلى المسيح .. ما اتبل وجهه .. لم يكن وجهه لحيبر مجعداً
مثل من يولد ، ولكنه كان ناعياً أبيض .. وقد ارتسم عليه الطهر والمحبة ..
وكان الطفل يردد على حسائش الأرض الخضراء ويتكلم .. يحدثها أن تكنه
من حزنها .. ويطلب إليها أن تهز جذع النخلة لتسقط عليها بعض ثمارها
الشهية .. فتأكل ، ولتشرب ، ولتطعمه بالسلام والفرح ولا تفكر في شيء ..
فلذا رأت من البشر أحداً فتلقت لهم أنها نذرت للرحمن صوماً فلن تكلم اليوم
أنسها .. ولتدع له المائي ..

ومظرت « مريم » إلى المسيح بحبه .. كان طفلاً لم يزل مولوداً منذ لحظات
ولكنه يحمل مسئولية أمه على كتفيه .. كما سيحمل بعد ذلك آلام الفقراء
على كتفيه .

وظهر لمريم في وجه الطفل تعبير غريب .. تعبير من جاء إلى العالم لا
ليأخذ منه شيئاً وإنما ليعطيه كل شيء ..

ومدت « مريم » يدها إلى النخلة الضخمة .. ولم تكن تلبس جذعها حتى
تساقط عليها رطب شهى .. فأكلت وشربت ولقت اللؤلؤ في ملابسها ،
والسقة مقلتها واستسلمت لعذوبة النوم .

كان عقل « مريم العذراء » مثل طائر لا يكتف من الطيران السريع والهبوط
المساجي .

أن تفكيرها لا يكاد يستقر على عصف من أغصان السلام والراحة ، حتى
يهتر دهنها بشيء فيطير الهدوء ويعاودها القلق .

أن تفكيرها كله يدور حول مركز واحد .. هو هيبي ، وهي تتساءل
بينها وبين نفسها كيف يستقبله اليهود .. ماذا يقولون فيه .. ماذا يقولون
عنها . هل يصدق أحد من كهنة اليهود الذين يمشون على الفس والخديعة
والسرقة ، هل يصدق أحدهم وهو بعيد عن السماء أن السماء هي التي
رزقتها بطفل . أن موعد حلولها ينتهي ، ولا بد أن تمود إلى نومها .. فنادا
يقول الناس ..

كان الوقت عصرا حين عانت مريم ..

وكان السوق الكبير الذي يقع في طريقها الى المسجد يستلج الناس الذين ابرعوا من البيع والشراء وجلسوا يثرثرون ، ويشربون النعنع .

لم تكن « مريم » تتوسط السوق حتى لاحظ الناس انها تحمل طفلا ، ونصبه لصدرها وتمشي به في جلال وبطء ..

.....

تسأل احد الفضوليين : اليست هذه مريم العذراء ؟ .. طفل من هذا الذي تحمله على صدرها . ؟

قال احد السكارى : هو طفلا .. ترى أى قصة ستخرج بها علينا ؟
ومسحت الكلمة من لم الرجل على الأرض .. وكنت الأرض موحلة بسبب المطر لعظيم الذي سقط ليلة الامس ، وكنت هناك عقول اشد اتساخا من وهل الأرض .. عقول كهنة اليهود .. في البداية حاصرته الاسئلة .. اين من هذا يا مريم ؟ لماذا لاتردين ؟ هو ابنك قطعاً .. كيف جاءك ولد وانت مسكرا .. ؟

« يا لغت هارون : ما كان ابوك امرا سوء ، وما كنت لك بغيا » [١]

الكلمة ترمى مريم بالبقاء .. هكذا جافرة دون استماع او تحقيق او تثبت .. ترميها الكلمات بالبراءة وتبهرها وتوشحها بأنها من بيت طيب وليست أمهسا بريا ، فكيف صارت هي كذلك .. راحت الاتهامات تسقط عليها وهي مرفوعة الرأس .. تومض عينها بالكبرياء والامومة .. ويشع من وجهها نور يبيض بالشفقة .. علما زابت الاسئلة ، وغسق الحال ، وانحصر المجال ، وامتنع المقال ، اشتد نوكها على ذى الجلال ، وأضارت اليه ..

أضارت بيدها لعيسى ..

واندهش الناس .. فهموا انها سائلة عن الكلام وترجو منهم ان يسألوه هو كيف جاء ..

تسأل الكهنة ورؤساء اليهود كيف يوجهون السؤال لطفل ولد منذ ايام .. هل يتكلم طفل في لغته .. ؟ [٢]

قالوا لمريم :

« كيف تكلم من كان في المهد صبيا ؟ » [٣]

قال عيسى :

« اني عبد الله آتاني الكتاب وحطنت نبيا . وجمعتي مباركا اينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما نمت حيا . وبرا بوالدتي ولم يجمعني جبارا تسفيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أجمع حيا » [٤]

[١] الآية ٢٨ سورة مريم مكية .

[٢] من الآية ٢٩ سورة مريم مكية .

[٣] الآيات ٢٠ الى ٢٢ نفس السورة .

لم يكذ عيسى بنهى من كلامه حتى كانت وجوه الكهنة والاحبار منتفحة
وشساجية ..

كانوا يشهدون معجزة تقع امامهم مباشرة .. هذا طفل يتكلم فى مهد ..
طفل جاء بغير أب .. طفل يقول أن الله قد آتاه الكتاب وجعله نبيا .. هذا
يعنى أن سلطتهم فى طريقها الى الانهيار .. سيصبح كل واحد فيهم بلا قيمة
معدبا يكره هذا الطفل .. لن يستطيع أن يبيع القرآن للناس أو يحكمهم
عن طريق ادعائه أنه مثل السماء على الأرض ، أو باعتباره الوحيد المعارف
فى الشريعة ..

شعر كهنة اليهود بالمأساة الشخصية التى جاعتهم بميلاد هذا الطفل ..
أن محرد محرد المسيح يعنى إعادة الناس الى عبادة الله وحده .. وهذا
معناه اعدام الديانة اليهودية الحالية .. فالفرق بين ممالك موسى ونصرته
اليهود كلنى يشبه الفرق بين نجوم السماء ووهل الطرقات .. وتكتم رهبان
اليهود قصة ميلاد عيسى وكلامه فى المهد .. واتهموا مريم العذراء ببهتان
عظيم ، اتهموها بالفناء ، رغم أنهم علموا بأنفسهم معجزة كلام ابنها فى المهد
.. وأسدل الستار مؤقتا على القصة ..

لعم هذا كله .. لقد تسربت ثبأ قصة ميلاد عيسى الى الحاكم الرومانى
هيرودوس .. وكان هذا الحاكم كلبا من كلاب روما المخلصين .. وكن يحكم
المسيطيين واليهود بقوة السيف ورعب الدماء وكثرة الجواسيس
والخوف ..

كان يحلس فى قصره ويشرب النبيذ حين وصلت اليه اخبار غامضة من طفل
ولد بغير أب .. طفل يقال أنه تكلم فى المهد .. وقال كلاما كثيرا يهدد سلطان
روما .. ويقلل الكرسى بالتلى تحت جسم هيرودوس .. وجن جنون الحاكم
الرومانى وتذب بكأسه فى وجه من يحفه وأمر بمعد اجتماع بمأجىء لكبار
خباطه وجواسيسه ..

وانتقد الاجتماع على الفور ..

جلس هيرودوس بوجهه الأسود اللامع ، واجمال بصره فى جواسيسه ،
وسأل :

— ما هى آخر اخبار الطفل الذى تكلم فى مهد ؟

رد مدير الجواسيس بقوله :

— يبدو أن الموضوع مير صحيح .. لقد سمعنا شائعات حول طفل يقولون
أنه صنع معجزة مكالمه وهو طفل .. وأطلقنا رجالنا للبحث عنه فلم يعثروا
عليه ، واتضح لنا من التحريات أن الموضوع مبالغ فيه ..

قال أصغر الجواسيس :

— بلغنى من مستدر عليه ، أن ثلاثة من حكام الجوس جاؤوا وراء نجم
راؤه يلعب فى السماء .. وأن هذا النجم يشير ليلاد طفل معجزة .. طفل
سيخلص شعبه .

سأل الحاكم :

— بخلص شعبه ممن ؟!

قال الجاسوس : لم يعرف رجالى ، وقد اختفى الحكباء الثلاثة فلم يعثر احد
لهم على أثر .

قال الحاكم :

— كيف اختفوا ؟ .. وما هى حكاية هذا الطفل ؟ .. هل هناك مؤامرة
خسروما ؟

انزع الحاكم من مقعده حين ذكر روما وبدأ يتكلم وهو ثائر .

— أريد رأس الحكباء الثلاثة .. وأريد رأس ذلك الطفل .. وأريد معلومات
فيست نكتة ، الموضوع يزداد غموضا أبها الأفياء .

قال مدير الجواسيس :

— ربما يكون الموضوع حلما تصور اليهود أنهم رلوه ..

قال الحاكم :

— أن رؤوسكم جميعا ستطير أسرع من الحمام إذا لم تحضروا الى القصة
الكاملة لهذا الطفل .. ما هذه الفوضى .. تفضلوا بالانصراف .

انصرف رجاله وجواسيسه ، وجلس الحاكم يفكر فى الموضوع .. كان
الموضوع يثير قلقه بشكل واضح .. لم يكن يهبه أن ينزل دين جديد للباس ،
انما كان يهبه سلطان روما الذى يملكه هو .. وقرر الحاكم أن يستدعى كبير
كهنة اليهود ليسأله فى هذا الموضوع .. وأرسل ضباطه الخصوصيين
لاستدعاء الكاهن ..

لم تضى ساعة حتى كان كبير كهنة اليهود ينحن أمام الحاكم .

قال الحاكم :

— أريد أن أهدك فى موضوع يثير قلقى إليها الكاهن .

قال الكاهن :

— أتمنى أن أخدم جلالتك ..

قال الحاكم :

— سمعت اخبارا متضاربة عن طفل ولد وتكلم فى موده وتقال أنه سيخلص
شعبه .. ما هى حقيقة القصة ؟

قال الكاهن وهو يحس أن السؤال ينطوى على مصيدة لا يمر فيها
بالتحديد :

— هل تهتم جلالتك بالديانة اليهودية ... ؟

قال الحاكم ثائرا :

— لا أهتم بشيء غير سلطان روما .. أجب عن سؤالى أيها الكاهن !

كلى الكاهن قد رأى عيسى يتكلم فى مهد .. وكان يفهم انه لو قتل هذا
مُسوف يثير المتاعب لنفسه ، واختار أن يكذب نصف كذبة .. فقال للحاكم انه
سمع عن القصة ، ولكنه يشك فيها ..

سأل الحاكم ومضوله يزداد :

— هل صحيح أن ديانتكم تتحدث عن قدوم مخلص لشعبكم .. ؟

قال الكاهن :

— هذا صحيح يا صاحب الجلالة ..

قال الحاكم :

— هل تعرف أن هذه مؤامرة ضد أمن الدولة الرومانية .. هل تدرك أن
هذه خيطة .. ؟

قال الكاهن وهو يتراجع :

— أرحم أن تتركنى أصح لجلالتكم فكرة بسيطة .. أن هذه النبوة قديمة
.. صدرت عندما كان الشعب أسيرا فى بابل منذ مئات السنين ..

قال الحاكم :

— هل هناك من يصدق هذه النبوة الآن ؟ .. هل تصدقها أنت شخصيا ؟
.. هل رأيت هذا الطفل الذى يقولون انه ولد بغير أب ... ؟

قال الكاهن :

— هل يصدق مهدى الملك أن هناك انتمنا يولد من غير أب ؟ .. هذه
أحلام الشعب ..

قال الحاكم :

لا شيء بطرد النوم من عيون الحكام غير أحلام الشعب .. انصرف إليها
الكاهن نادا سمعت أى أخبار فدعنى أعرفها قبل أمرك ..

لم يكذ الكاهن ينصرف حتى كان هيرودوس يفكر .. ماذا لو كان هذا الكاهن
يكذب .. لقد رأى فى عيبه وميض الكذب .. وهو يعرف هذا الوميض لأنه
ككذب هو الآخر .. ثم ما هى قصة الحكماء الثلاثة الذين يتسمون نجما ؟ ..
هل هناك مؤامرة ضد روما وهو لا يعرف ؟ .. صرخ الحاكم فى كبير ضباطه
أن يتبض على كل من سمع هذه القصة أو شاهدها .. وأن يبدأ البحث عن
عذراء ولدت طفلا .. وأن يقتل كل الأطفال المولودين فى نفس هذا الوقت ..

كانت مريم تخرج من فلسطين كلها الى مصر ..

جاءها فى الليلة الخامسة اثنان لم تره من قبل .. الذى عليهما السلام
وامرها بأمر :

احملى طفلك يا مريم وأخرجى الى مصر ..

سالت مريم بخوف :

— ماذا ؟ .. كيف أخرج وحدي الى مصر ؟ .. كيف أمرف الطريق ؟

قال العريب :

أخرجني تمرمك عنلية الله .. ان الحاكم الروماني يبحث عن طفلك ليقبضه ..

سالت مريم :

— متى أخرج ؟

قال الغريب :

— الآن .. لا تخافي شيئا فمك تفرجين بنبي كريم .. وكل الانبياء يخرجهم قومهم من ديارهم وبلادهم .. هذا قانون من قوانين الحياة .. ان يطرد القهر انفي ما في الوجود لفترة .. ثم يعود الحير لعرشه .. أخرجني يا مريم .. وخرجت مريم الى مصر ..

قطعت صحراء سيناء مع ثقلها كثنت تتحبه الى مصر .. سارت تحمل عيسى في نفس الطريق الذي سار فيه موسى من قبل حين ظهرت له النار المقعة ومودى من جانب الطور الايمن ..

وصت الى مصر بعد رحلة طويلة شلثة ..

وكانت مصر بغيرها الكثير ، ومساحتها ، وثقلتها القديسة ، واعتدالي حوها خير مكان ينشأ فيه عيسى ..

وفي مصر عاش المسيح طلولته وصباه ، ثم جاء مريم نفس العريب الذي أمرها أن ترحل من فلسطين ، وأمرها هذه المرة أن تعود لفلسطين ..

قال لها : هلك الملك الظالم لعمودي فمك يا مريم .. جاء الوقت على الخير ليعتلى عرشه .. سيكون عرشه قلوب الفقراء والقمساء والصادقين ..

عودى يا مريم ..

وعاشت مريم ..

ومرت مياه كثيرة في نهر الأردن ..

وكبر عيسى وأبرك الشبلاب ..

.....

أخرج عيسى من بيته في طريقه الى المعبد اليهودي ..

كان اليوم هو السبت ..

لم يكن هناك بيت يهودي يستطيع أن يوقد نارا أو يطفئها يوم السبت ، أو يزرع قشرة ثرة .. ممنوع في هذا اليوم أن تعجن امرأة عحيها .. أو أن يعمل غلام كلبه ، أو أن تضطر فتاة شعرها ..

كان موسى قد أمر باحترام يوم السبت وتخصيصه لمباداة الله ..

وذهبت الحكمة من احترام يوم السبت ، وبقي يوم السبت نفسه .. ميدانا
 خصبا لتطبيق النصوص الحرفية الحامدة .. صار اليوم مقدسا عند اليهود ..
 واحبطوه بسياح من التقاليد الشكلية الجوفاء ، وركزوا كل اهتمامهم في حفظه
 حفظا حرفيا لا يهلون فيه ، اذ كانوا يعتقدون انه كان محفوظا في السماء قبل
 ان يخلق الله الانسان ، كما اعتقدوا - حين مسكتهم همهم - ان
 من اسرائيل قد اُختيروا لعرض واحد فقط .. هو حفظ السبت .. وكنوا
 يفخرون بانهم يحفظونه بحرفية جامدة وثابتة .. ولو ادى ذلك الى هزيمتهم في
 الحرب ، او وقوعهم في يد الاعداء .. وقد ادى حفظهم له على هذا النحو الى
 تسييحهم له بأكبر عدد من المحظورات .. ووصع مجلس اليهود الاعلى
 تشريعات تحرم مئات الأمور يوم السبت ..

محرم لبس الاسنان الصناعية يوم السبت .. ومحرم على المريض ان يضع
 ضمادة او يدهش موضع الألم يوم السبت ، او يستدعي الطبيب .. محرم كتابة
 حزنين هجائيين يوم السبت .. الدفاع عن النفس محرم يوم السبت
 الحصاد والدراس مجموعان يوم السبت .. أى رحلة في يوم السبت ينقض
 الا تزيد عن ألفي ياردة .. يحرم حمل شيء خارج البيت يوم السبت ..

وتصور المحافظون على الشريعة ان الغرض الاساسي من وجودهم هو اقامة
 « السياجات » التي تصون الشريعة ، والاصل ان كثرة التشريعات والمحظورات
 والقوانين تسي زيادة الفساد لو تمس عليه في أبسط الظروف ، وكلما ولد
 شيء معطور أو محرم ، كان يولد معه في نفس الوقت أسلوب للتحليل
 عليه والمقاومة منه وإبطاله ..

وهكذا امتازت هباتهم بهذا التفتق العبيق ، الذي يمثل في وجود شكل
 خارجي تتم المحافظة عليه ، وحقيقة داخلية تهدرها التعريفات تماما ..

ورغم ان طائفة القريبيين كانت هي المكلفة اساسا بمهمة تطبيق الشريعة
 واحاطتها بأكثر قدر من الضوابط ، فسوف نراهم على استعداد تام لابتداع
 الحيل التي تمكنهم من التخلص من أحكام الشريعة في الوقت المناسب ..

ركان هذا الوقت المناسب ، هو الوقت الذي تتمسارض فيه الشريعة مع
 مصالحهم الخاصة ، او تعوق الكسب الحرام الذي يتعبأ لهدل جيوبهم ..

كانت هناك - مثلا - قاعدة شرعية تقضي بالا تتجاوز أى رحلة في يوم
 السبت مسافة ألفي ياردة .. ماذا يفعل القريسيون في الولايم التي يدعون
 إليها يوم السبت ؟ .. وتبعد موائدها عن بيوتهم أكثر من ألفي ياردة ..

المسألة بسيطة ..

كنوا يضعون في عشية السبت بعض الأطعمة على بعد ألفي ياردة من
 مساكنهم .. وبذلك يخلقون مسكنا مفتعلا يستطيعون أن يسيروا بعده ألفي
 ياردة أخرى .. ومن ثم يباح لهم ان يضامفوا المسافة المفروضة ..

كما انهم لكي يتخلصوا من عبثة تحريم حمل أى شيء يوم السبت الى خارج
 البيت ، كنوا يحتلون بخدعة أخرى .. وهي ان يشعروا قوائم وموارض
 ابواب ونوافذ في مختلف الشوارع .. فتصير المدينة كلها بمثابة بيت كبير يحل
 في داخله حمل الأشياء والحركة ..

من أمثلة تلاعبهم في الشريعة [وهم حفظتها !] .. ان الشريعة الموسومة كانت تلزم الابن ان يحول والديه في حالتي الشيخوخة والحاجة ، ولكن الفريسيين كانوا يتحون للبناء عرصة التهرب من هذا الالتزام بحيلة بسيطة .. يذهب الابن اذا طلبه ابواه بنفقة الى الكهنة ويتفق معهم على ان يوقف كل امواله وممتلكاته على الهيكل .. وعندئذ يعجز الوالدان عن اخذ شيء منه .. فلذا يتسبب منه وتوقفنا من مطالبته ، ذهب واستفرد كل ممتلكاته من الكهنة نظير دفع نسبة معينة من المال .. فيستمر الوقف صوريا فقط وغير نافذ المفعول .. [انجيل متى] .. وسط هذا الجو من السفاه الفكرى .. كان هناك تمتعت وجسود في كل خطوة يخطوها اليهودى .. كانت هناك مسبح درجات للطهارة .. وست وعشرون صلاة ينبض تلاوتها أثناء غسل الأيدي قبل تناول الطعام ، وكثيرون يحثون أهمل قراءة هذه الصلوات بمثابة قتل النفس انتملا ، والحرمان من الحياة الأبدية .. وقد خصص التلمود [وهو مجموعة التفسير والشروح والاضافات التي كتبت بعد التوراة] ، خصص أربعة أبواب يتوهم فيها العقل لأجراءات الفصل والتطهير ..

وكان هذا التشديد الظاهري يقابله تمهيد داخلي ..

وهكذا كانت قشرة المجتمع اليهودي تلتصم على مجتمع قد تمهرا تمسلا من الداخل ، وسفاده نفاق لا يثيل له .. ورغم ان النفس كانوا يتبعون التعاليم الحرفية للشريعة ، فقد كانت القلوب تنوج بالشرور .. وتضطرب بالكراهية ، كما كانت العقول موائىء تستريح فيها سفن الخرافات والأكاذيب ..

.....

سار عيسى قاصدا المعبد ..

يسير الناس في الشوارع حوله وهم يتحليون في ملابسهم الملونة الشبيهة .. وهو يسير في رداءه الصوفى الأبيض ..

شعره الناعم يصل إلى كعبيه ويدو معسولا في مياه سخابة أمطرت ردا ، حبيبا وهدوءا على التراب غيمتلى التراب برائحة عطر مجهول المصدر .. وملابسه المصنوعة من الصوف الفقير الخشن ، تبدو عليه أعظم بهاء من ملابس ملوك الرومان وكهنة المعبد ..

ورغم ان اليوم هو السبت .. فقد مد عيسى يده الى ثمار حقل واحد وقته ثمرتين اعطاهما لطفل فقير جائع ..

كان هذا التصرف في الديانة اليهودية يعد خروجا على الديانة اليهودية ..

وكان عيسى يعرف ان الديانة الحقيقية ليست هي طاعة الشكل الخارجى ، بينما القلب بعيد عن التواضع .. ولهذا السبب كان عيسى ينزع قشور الثياب ويطعم المخلوقات يوم السبت .. وكان يشعل النار للعجائز حتى لا يفتلنهم البرد .. وكان يزور المعبد اليهودى كثيرا ، ويقت داخله يتأمل الكهنة والناس ..

وحل عيسى الى المعبد ووقف داخله ، وطاق يصره حوله ..

ان حيطان المعبد صنعت من خشب الصندل ذى الرائحة المعطرة ..

والمخاطر من التباين الفلح المنيح بالذهب .. والمصالح الضية تندي من
السقف .. والشوع نلا المكل بالضيء .. ورغم ذلك كل الظلم يملأ
القلوب ..

ول مكاته البعيد الذي وقف فيه ، كان — عيسى — يشبه نقلة الضوء
الوحيدة في المكل .. وكان الله لم يامر بهد أن يفرس هذا الضوء لأكبر عدد
من اقراء والنساء والحراني ..
طلت وقفة عيسى في المهد ..

كلما اذار وجهه حوله وجد كهنة .. كان هناك عشرون ألف كاهن ،
لساؤهم مسجلة في الهيكل .. يعيشون منه ، ويتبضون مرتباتهم من خرائته ،
وكلت جرات المهد تتلى بالآلاف منهم في ملابس الصفات .. هؤلاء هم
اللاويون مسمتهم المدينة ويحيوهم العريضة التي يحلون فيها كتب الشريعة ،
وهؤلاء هم الفريسيون بملابسهم النفسجية الواسعة ذات الاطراف المسوحة
بالذهب .. هؤلاء هم خدم الهيكل الرسميون في ملابسهم البيضاء ، وهؤلاء
هم الصدوقيون ، وهم طائفة الكهنة الارستقراطيين التي تحالف مع السلطة
الحاكمة وتترى عن طريق هذا التحالف .. لاحظ عيسى أن عدد روار الهيكل
أقل من عدد الكهنة ورجال الدين .. كل المهد يتلى بالخراف والحمام التي
يشترىها روار المهد لتقديمها قرابين الى الله .. قرابين تذبح داخل المهد فوق
المذبح ..

كانت كل خطوة داخل المهد تكلف المسائر نقودا ..

هنا في المهد اليهودي يتكشف جوهر الحياة اليهودية ..

إن القيمة الوحيدة التي عبدها الناس في هذا الزمان كانت هي النقود ..

صار الترف المادي أو الثراء هو القيمة الوحيدة التي يتصارع عليها الناس
جميعا ، لا فرق في ذلك بين رجل الشريعة أو رجل الحياة ..

إن الصدوقيين والفريسيين يتعاملون في الهيكل كأنهم داخل سوق
يستعلونه للثراء على حساب الصحابا الذين يؤمنهم حطهم في دخوله ..

وكثيرا ما كان الصدوقيون والفريسيون يتشاجرون في أمور الشريعة العليا ،
ومثال ذلك مشاجراتهم بشأن توريد الأضحية اللازمة للذبيحة اليومية في
الهيكل ..

كان الفريسيون يرون أنه يجب شراء هذه الصحابا من مال الهيكل ، على
حين كان الصدوقيون يعتبرون مال الهيكل من حقهم ، ومن ثم كانوا يرون أنه
يجب شراء الصحابا مكتتابات مستقلة .. كذلك كان الفريسيون يوحون حرق
الذبيحة على المذبح ، أما الصدوقيون فكانوا يأخذون هذه الذبيحة لأنفسهم
.. وقد ورد في التلمود أن الصدوقيين أخذوا يبيعون الحمام في حوايت
يلكونها ، صدوا الى مضاميه المناسبات التي ينمي فيها تقديم الحمام ذبيحة ،
حتى وصل سعر الحمامة الواحدة الى بضعة دناتير ، ولاحظ الفريسيون هذا
الارتفاع الذي أصابته طائفة الصدوقيين ، فألقى أحد شيوخ الفريسيين ، وهو
سمي س ميلانيل ، بانقاص المناسبات التي يقدم فيها الحمام ذبيحة ، وبذلك
وصل سعر الحمامة الى ربع دنار ، فكلفت تلك خربة غنية لأصحاب حوايت
الحمام ، التي كان يملكها الكهنة ولا سيما لولاد رئيس الكهنة ..

طلب عيسى بعينه في المكان ..

لاحظ الفقراء الذين لا يستطيعون شراء الأضحية ولا تقديم القرابين ..
لاحظ كيف يعاملهم الكهنة ويهشونهم كالذئب ..

ونكر عيسى بينه وبين نفسه ..

لماذا يحرقون الحيوانات ويذهب لحمها دخاناً في الهواء .. وهناك آلاف
الفقراء يموتون جوعاً خارج المذبح ؟ .. لماذا يظنون أن الله يرضى عندما تتلطم
المذبيحة بالدماء وتذهب الأضحية إلى بهوت الكهنة وتكاكبتهم لجميعها بعد ذلك ؟
.. لماذا يجب على الفقراء أن يستغيثوا ليصرفوا نفودهم في شراء حيوانات
الذبيحة ؟ .. ولماذا لا تصلح إلا الذبائح التي يرببها الكهنة ؟ .. وماذا يفعل
الكهنة بهذه النقود ؟ .. وأخيراً ... أين مكان الفقراء في المعبد .. أن كل من
هنا أغنياء معهم نقود .. ليس غريباً أن يدخل الإنسان بيت الله ومعه
نقود ... ؟ !

واتصرف عيسى من المعبد وخرج من المدينة كلها إلى الجبل ..

كان صدره يشتعل بعيرة مقدسة على الحق ، وكان وجهه يزداد شحوباً
وتساء وحزنًا على ابتلاء الدنيا بالشرور .. ووقف عيسى فوق تلال التلصهرة
وصف تدببه وبدأ يسلّي .. انحدرت دموعه من عينيه إلى خديه إلى الأرض
.. طالت وقته واشتد بكلاؤه .. كانت هنسك مفرّة زهرة ثبوت عطشاً في
الأرض ، فخربت دموع المسيح وشقت طريقها إلى الحياة .. اتفقت دموع
المسيح مظلماً قدر له غيباً بعد أن ينقذ الناس بدموته ..

وفي هذه الليلة المباركة ..

قبضت من الأرض روحاً ببين كربين .. هما : يحيى وزكريا ..

قتل الإنسان بيد السلطة الحكمة ..

ونقصت الأرض كثيراً من الخير حين قبضها ..

في نفس الليلة .. نزل الوحي على عيسى بن مريم ، وحسّر له أبر الله
تبارك وتعالى أن يبدأ دعونه إلى ملكوت السماء ..

.....

انتهى الأمر ، وأغلق عيسى بن مريم الصفحة الناعمة من حياته .. صفحة
التأمل والعبادة ، وبدأت رحلته الشاقة المليئة بالألم .. بدلت رحلته للدعوة
إلى الله .. إلى ملكة جديدة لا يستطيع السوس أن ينخر ما فيها من قبح
ذهبي تقفات عليه الروح ، ملكة ليست الشريعة فيها هي تواسيت الكلمات
المبينة وحروفها العاردة ، وليس المصدق فيها هو شراء الففران بالذهب ..

ملكة تقوم على التواضع والحب ..

ملكة هدف سيدها وراعيها هو خلاص الروح ..

.....

النواضع والحب ..

خلاص الروح ..

الإيمان بتيامة الأموات ووجود يوم يقدم فيه الشر حسابا مما فعلوا ..

تلك قيم والفكر كانت حياة اليهود تخلو منها ثوبا .

ان الشريعة الموسوية تنص على القصاص ..

من ضربك على خدك الأيمن فاصربه على خده الأيسر .

كيف كان اليهود يطبقون شريعة القصاص ؟

إذا كان المضرروب قادرا .. نفس بيت الضارب ولم يكتف بضربه على

خده الأيمن . وإذا كان غير قادر .. ضربه على خده الأيسر وأمتلا قلبه

بالحنن لأنه لم يدمر بيته .

كانت انكراعية هي المبدأ الذي رسمت فيه شريعة موسى ، رغم أنه كان

رجلا من رجال الحب الإلهي الكبار ، وما هي شريعته ينتهي بها الأمر على

أبدى القلوب الميتة ، إلى موأىء الحد .

كيف يتصرف عيسى إزاء هذا كله ؟

أقد بحث عيسى مؤيدا للتوراة كما أتزلها الله عز وجل على موسى .

لا يهضم نبي عمل نبي سابق .

كل الأنبياء حلقات في سلسلة واحدة هدفها انقاء والحق وتوحيد الأحد .

كيف يتصرف عيسى إزاء شريعة القصاص الموسوية ؟

كان تصرفه الهلما من خلقه سبحانه ..

رد عيسى القوم إلى العرض الأصلي من الشريعة ، ردهم إلى حكمتهما

الداخلية الأصيلة ..

ردهم إلى الحب .

أن يقول المسيح لمن يضربه على خده الأيمن شيئا ..

أن يسمى إلى ضربه على خده الأيمن ..

سيدبر المسيح عليه الصلاة والسلام له خده الأيسر ..

هذه هي شريعة عيسى ..

لا تختلف شيئا عن شريعة موسى ..

هي عبق عميد من أعتاق شريعة موسى .

هي العبق الأخير لهذه الشريعة .

يريد عيسى أن يشت للتوم حوله شيئا هاما ، يريدهم أن يفهموا أن

الشريعة ليست أن تنتم لتنسك وتضرب . الشريعة الحقيقية أن تسامح

وتحلو وتحب .

تصير قادرا على الحب .

ليست القسرة على الحب أمرا من طائفة الشر جميعا ، وليست حاسة تولد بميلادهم ، إنما هي مهلية طريق من المساء والام . وهي مادية الوجود الإنساني الحقيقي .

ان مديدا من وحوش الملب والنواب تحب أنفسها ، وتقاتل من أجل الطعام والشراب ، وتطعم أبناءها وتدحر لهم ، الفرق بين الإنسان والحيوان هو غارق في درجة الحب . لا يستطيع الحيوان أن يتجاوز ذاته بالحب إلى خوات الآخرين ، أما الإنسان ، فهو الكائن الذي يستطيع ذلك . .

وفي ذلك يكن مجده وإنسانيته .

افهم المسيح قومه ان الإنسان لا يصير إنسانا الا اذا انخلع من ذاته واحب الآخرين . وكلما ازداد القلب الإنساني اقترابا من أبعد الناس عنه ، هنالك يقترب الإنسان من إنسانيته .

[سمعتم انه قيل فلتحب قريبك ولتُبعض عدوك . أما أنا فأقول لكم احبوا اعدائكم . باركوا لاعنيكم . احسنوا الى مبغضيك . وصلوا من أجل الذين يسيئون اليكم وبضطهدونكم] .

انجيل متى . .

.....

من النقيض إلى النقيض .

جاءت دعوة عيسى نقيضا لشرعية موسى . . في الشكل الخارجي . . اذا نظرنا إلى الشريعتين نظرة سطحية .

ولم الحقيقة . . جاءت دعوة عيسى نقضا لما استحدثه الفريسيون والصوتيون في شرعية موسى . . واحباء لحقيقة هذه الشريعة وأعدائها الطبا .

ووسط عصر مادي مترف شديد الاهتمام بالفنى . . وسط عالم يعبد الذهب وتسوده القسوة وبحكمه الحشع وتمضى به المشكلات . . ظهرت دعوة المسيح كرد فعل مثالي عظيم السمو والنقاء . . كان المسيح يعرف انه بدمو الناس لاتخاذ سلوك مثالي في الحياة ، كان المسيح يعرف أن دعوته مثالية .

لكن هذه المثالية — في ذلك الوقت بالتحديد — كتبت هي الحل الوحيد لشقاء الحياة من يؤسها وأمراسها الحاكبة .

وكان المسيح يعرف أن الناس جميعا لا يستطيعون الوصول إلى التمة التي يشهر إليها ويشرعها ويتحدث عنها ويدعو إليها ، ولكن كان يكتفي أن يبدل كل واحد جهده في السمود قليلا حتى ينجو .

كتبت الحياة تفرق تملأ ، وكتبت المثالية هي سبيل النجاة الوحيد .

تيزت دعوة عيسى — منذ بدايتها إلى النهاية — بالشمالية والنقاء

البالغين ، ويكونها دعوة تستهدف خلاص الروح ، أو دعوة تعتبر دستورا
للسوك الفردي ، وليست نظاما للحياة وثائقا للمجتمع وتشريعات محددة .

لن نجد في دعوة عيسى مثيلا نظاما تشريعيًا للميراث ، أو الوصية ،
أو الزكاة .. لن نجد نظاما تشريعيًا يقرر عقوبة للفنسل أو السرقة أو
الزنا .. لن نجد تشريعا للزواج والطلاق والنفقة .

تجاوزت دعوته كل هذه التفاصيل الدنيئة الى التبعية الأسيل وهو
الروح ..

كان عيسى يريد احياء الروح الانسانية ، وتيادنه الى النور الخالق .
ولهذا السبب جاء عيسى مؤيدا بالروح القدس .

والروح القدس هو جبريل عليه السلام .

ومجن لا نعرف الكيفية التي ايد الله تعالى بها عيسى .. هل صحبه
جبريل ولازمه طوال بعثته ؟ .. ان جبريل عليه السلام ينزل على الانبياء
بالرسالات ، او بالمعجزات ، او ينزل على قومهم بالمعسومات .. لكنه
لا يملك معهم طيلة الوقت ، فهل لازم جبريل عيسى حتى رفع عيسى ..

يكاد القلب يطيش لهذا التفسير ، فقد كان في حياطة عيسى شيء
ملائكي .. وكانت لديه قدرة خارقة على المعجزات ، وبلغت قدرته حد
احياء الموتى بادن الله ، كما بلغت قدرته حد النفخ في طين صنع كهنة
الطير فادا هو يطير باذن الله .

لم يكن عيسى يقرب النساء أيضا .. عاش حيثه حتى رفعه الله لم
يمس امرأة ولم يتزوج .. وهذه صفة ملائكية أيضا ، فقد كان معظم انبياء
الله تعالى يتزوجون ويملكون عسدا من النساء ، وتقدر كتب اليهود
عدد نساء بعض انبيائهم [كسليمان مثلا] بالنكاح امراة ، ولا نريد ان نقوقف
عند الرقم لأن معظم الأرقام تعرضت لمعامل التعرية والحو والتبديل .
غير اننا نريد أن نشير الى طبيعة عيسى التي ارتفعت على دواعي الجسد
ورغبته المشروعة .

لقد عاش حياته مثبلا كمن خالته يحيى .. واذا كان يحيى نسكا
يعيش في الجبال والصحارى ويبيت في المخبرات والكهوف ، فالامر يبدو
طبيعيًا بالنسبة له ، أما عيسى فعاش وسط مجتميع المدينة .. وليس
لاستغفانه عن النساء كلية ، وليس لمعجزاته الساهرة المتصلة بالروح في
رأينا عبر تفسير واحد ، هو تأييده بروح القدس طيلة الفترة التي
استغرقتها دعوته .

وتلك نعمة لا نعرف أهدا من الانبياء اوتيتها من قبل .

قال تعالى في سورة المائدة :

« اذ قال الله يا عيسى بن مريم : انك نعمتي عليك وعلى والدك ،
اذ نبتك بروح القدس ، تكلم الناس في المهد وكهلا ، واذ علمتك
الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ نحق من الطين كهنة
الطير باذني ، فنمخ فيها فتكون طيرا باذني ، وتري الآكبه والأبرص

بالنبي ، واذ تخرج الموتى بالنبي ، واذ كفت بني اسرائيل عنك اذ
 جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين .
 واذ لوحيتم الى الخواريين ان آمنوا بي وبرسولي ، قالوا امنا
 واشهد بقنا مسلمون [١١] ..

.....

تحدد الآيات السابقة خمس معجزات لعيسى ،

الأولى : تكليمه للناس في المهد .

الثانية : تعليمه التوراة .. وكانت التوراة التي أنزلت على موسى قد
 اخفئت تحت ركام التعميرات والتبجيلات والتفسيرات والتفريعات المتعاقبة
 لفقهاء اليهود .

الثالثة : تصويره من الطين كهينة الطير ثم النخ فيه فيكون طيرا .

الرابعة : احياؤه الموتى .

الخامسة : ابراؤه الاكمة [من ولد اعمى] والابرس . [المريض بجلده
 ولا شفاء له] .

وهناك معجزة سادسة يذكرها القرآن الكريم في سورة المائدة ..
 في قوله تعالى :

« اذ قال الخواريون يا عيسى بن مريم : هل يستطيع ربك ان ينزل
 علينا مائدة من السماء ؟ قال : انقوا الله ان كنتم مؤمنين . قالوا :
 نريد ان ناكل منها ، ونطمئن قلوبنا ، ونعلم ان قد صدقنا ، وتكون
 علينا من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا انزل علينا
 مائدة من السماء تكون لنا عيدا لاوقا وآخرنا ، وآية منك ،
 وارزقنا وانت خير الرازقين . قال الله : اني منزلها عليكم ، فمن
 يكفر بعد منكم ، فاني اهل به عذابا لا اهل به لهذا من العالمين » [١٢] .

وكان المعجزة السادسة في انزال المائدة من السماء بطلب الخواريين .
 وهناك معجزة سابعة وردت في سورة آل عمران ، وهي اخصاره عليه
 السلام ماور غائبه من حبه ولم يعطها ، فقد كن يسمى سحابة وتلابذه
 بما ياكلون وما يذخرون في بيوتهم .

فوانبئكم بما تاكلون وما تذخرون في بيوتكم ، ان في ذلك لآية لكم
 ان كنتم مؤمنين ! [١٣] .

هذه هي معجزاته السبع .. نسبتها معجزة ميلاده من قيراب .. وثليها
 معجزة رفعه من الأرض حين حاولت السلطات الحاكمة صلبه .

من حق القاريء ان يتساءل : لماذا جاءت معجزات عيسى من هذا

(١) الآية ١١٠ سورة المائدة مدنية .

(٢) الآيات من ١١٢ الى ١١٥ سورة المائدة مدنية .

(٣) من الآية ٩٩ سورة آل عمران مدنية .

الموع ؟ .. نعرف أن المعجزة أمر حارق يؤيد به الله تعالى نبيه ، ولكي يكون التأييد متكافئاً ينبغي أن تجيء المعجزة مناسبة لعصرها متفقة مع زمانها بحيث تؤثر في نفوس القوم ونهز أعيانهم وتجعلهم يؤمنون أن صاحب هذه المعجزة سي أرسله الله تعالى ، والمعجزة هي الأمر الخارق .. ورغم أن الأمر الخارق يكفى وحده للاقتناع .. خاصة في طفولة البشرية .. إلا أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يحىء هذا الأمر الخارق مناسبة لازمانه ومكانه .

وهكذا اختلفت معجزات الرسل ..

بعث صالح وسط قوم يرون النوق وهي ثدي ، لم ير أحدهم ناقة ولدت من جبل ، أو تتشق عنها صدور الجبل .. وكانت معجزة صالح هي ناقة الله التي خرجت يوماً من صدور الجبل .

وبعث موسى لقوم شاع فيهم السحر ، وكان للسحرة مكان مرموق ، فكانت معجزته تشبه السحر في مظهرها الخارجي ، ولكنها في حقيقتها كانت انطالا للسحر ونسفا له [العصا التي تحولت إلى ثعبان يأكل عصي السحرة] .

وبعث عيسى لقوم مخلصين ينفكرون الروح فلما ، وينكرون البعث كلية ، ويزعمون أن الإنسان جسم بلا روح .

قوم يعتقدون أن هم لمخلوق هو روحه أو نفسه .

تقول التوراة التي يأبدي اليهود في تفسير النفس .. أنها الدم .

جاء فيها « لا تاكلوا دم جسم ما . لأن نفس كل جسد هي دمه » ..

بعث عيسى وسط قوم سادتهم فلسفة أساسها أن خلق الكون كان له مصدر أول .. كالعلقة من معلولها .. وكان له وجود سابق .

وسط هذا العمر المادي الذي تكرر الروح فلما .. كان منطقياً أن تحىء معجزات عيسى اعلاناً لعالم الروح .

وهكذا ولد عيسى من غير أب .

تكفى هذه المعجزة لانفساع القوم أن خلق الكون لم يكن له مصدر أول . لم يكن له وجود سابق .. نحن أعلم خالق أوجد نظاماً لكل شيء ، وجعل أساساً لكل شيء ، جعل نظام ولادة الأطفال هو المجيء من اتصال رجل بامرأة ..

لكن هذا الخالق — سبحانه وتعالى — يطلق الاسماء فتخضع له الاسماء ولا يخضع هو لها .. سبحانه .. وهو بمشيئته الطليقة الحرة يستطيع أن يأمر بيلاد من من غير أب فيولد .

وهكذا ولد عيسى ..

سلا ب .

تكفى نفخة الروح ..

« نفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابناً آية للعالمين » [١] .

(١) من الآية ٩١ سورة الانبياء مكية .

وهكذا جاءت ولادة عيسى معجزة خارقة تؤكد أمرين :

١ - حرية الميثقة الالهية ، وعدم تقيدها بالاسباب ، لانها بذاعة هي خالقة الاسباب .

٢ - خطورة الروح ، واعلان قيمتها وشانها بين قوم التصفوا بالاجساد وسادهم انكار الروح .

ولو نظرنا الى معظم معجزات عيسى ، لسوف نراها تؤيد وجهة النظر هذه .

هناك معجزة تصوير عيسى من الطين كهينة الطير لم ينفخ فيها فتكون طيرا .

هذه المعجزة تؤكد وجود الروح . لقد كشت قطعة الطين جسدا لا يمكن وصله بالحياة . فلما نفخ فيها عيسى تحولت قطعة الطين الى طير فيها حياة .. ان شيئا غير الجسم وليس من خنسه فاض عليه .

هكذا الشيء المنفصل عن الجسم هو الروح .. تست الروح الى الصلصال فصار طيرا ..

كان الروح هي القيمة الحقيقية وليس المعد ..

وهناك معجزة احياء موسى .. ليست اعلانا قارعا عن الروح ووجود اليوم الاخر ووجود نهاية للاموات وبعد .

هذا ميت قد اكلته الارض . تحللت احشائه وعظامه ، اوشكت ان تصير رميما لو صارت .. وها هو ذا المسيح يناديه . فادا هو حي ينهض من موته .

لو كل هذا الميت جسدا فقط كما يقول اليهود ، لما كان ممكنا له ان ينهض من الموت ، لان الجسد قد تحلل .. لكن الميت ينهض من الموت . يعود جسده الى الحياة وينهض من مقرنه ويتحدث .. ما الذي حدث هنا .. غير ان عيسى استدعى روحه - بلذ الله - فعاود الى الجسد فنهض الجسد .. تحول من تراب الى جسد .

كان الروح هي القيمة الحقيقية وليس الجسد ..

كان هناك بعدا اذن ومنها يوم القيمة .

ليست المسألة مستحيلة كما يقول اليهود ، لان الاجساد تتحول الى تراب يطاير في الهواء بعد الموت .

ليست مستحيلة وانما هي ممكنة .. ودليل ذلك قيام هؤلاء الموتى ليلم اعينهم الآن .. لقد احياهم عيسى ليثبت لقومه ان قيامة الاجساد من الموت حق ، وان اليوم الاخر حق .

هناك معجزة اخراج التوم بها يدخرون في بيوتهم بغير ان يدخل بيوتهم لو يحدثه منها احد .

هذه المعجزة تثبت ان الحواس ليست هي القيمة الحقيقية .. ان

عيسى لم يخطر لما في بيوتهم ، ولكن روحه تستطيع ان تنظر وتحدثهم .
كل الروح هي القية الحقيقية وليس الجسد ..

وهكذا جاءت معجزات عيسى عليه السلام اعلانا عن خطورة الروح
وطلاقة المشيئة الالهية .

حانت معجزاته — كما يقول استاذنا محمد أبو زهرة — من جنس
دعائته ، وتناسب هدف رسالته ، وهو الدعوة الى تربية الروح ، والايمان
بالبعث والنشور ، وان هناك حياة أخرى يجازي فيها المحسن بأصله ،
والسيء بسأفه ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر .

وهل ترى ان معجزة احياء الموتى تسمح لنكر الآخرة بالاستمرار في
انكاره ، او تسمح لحادث البعث والنشور بان يستمر في جحوده . وقد
اسلعنا لك القول ان اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الآخرة .
ومدم الايمان باليوم الآخر ، فكل احياء موتى مسوتا قويا يحملهم على
الايمان ، ولكتم كانوا بآيات الله يحدون .

.....
.....

اعلق عيسى الصفحة الناعية من حياته وبدا دعوته الى الله ، مؤيدا
بالروح القدس ، ومعجزاته الماهرة ..

يحدثنا القرآن الكريم ان دعوة المسيح لا تختلف في جوهرها عن دعوة
غيره من الانبياء .. وهي الاسلام بمعناه الاصيل عند الانبياء .. معنى
التوحيد الكامل ، واسلام الوجه لله ..

— اعبدوا الله ربي وربكم .

يحدثنا القرآن ان قاتل هذه الكلمة هو عيسى . وهي نفسها الكلية
التي يقولها الانبياء جميعا . تختلف اسماؤهم وصفاتهم ومعجزاتهم
وملاسمهم ولغاتهم واعمارهم واشكالهم والوانهم .. لكنهم يفتقون جميعا
في اسلام الوجه والقلب لله ، واسلام الروح لله ، والايمان بان الله هو
ربهم ورب العالمين . لا شريك له في الملك ، ولا مثيل له في الكون . هو
واحد احد . لم ولد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد .

لم يقل عيسى في مسألة التوحيد اقل او اكثر مما قاله انبياء الله
جميعا .

ولقد جاء القرآن بعد خمسمائة عام على التقريب من رب عيسى .
ولعلم الله الاذلي بما سيصير اليه امر المسيحية من اختلاف حول طبيعة
عيسى حرص القرآن الكريم على ان يكشف عن حوار لم يقع بعد ..
قال تعالى في سورة المائدة :

« وَاذْ قَالَ اللَّهُ : يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ : اَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَآلِي
الَّذِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قُلْ : سَمِعْتُكَ ، مَا يَكُونُ لِي اَنْ اَقُولَ مَا لَيْسَ لِي
بِهِ ، اَنْ كُنْتُ قُلْتُ غَدَ عَلَيْهِ ، نَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا اَعْلَمُ مَا لِي

نفسك ، انك انت علام الغيوب . ما قلت لهم الا ما امرنى به ،
ان اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما خفت فيهم ،
قلنا تومئتي كنت انت الرقيب عليهم ، وانت على كل شيء شهيدا [١] .

يميد النص القرآني صراحة أن الدعوة المسيحية التي برز بها عيسى
كانت دعوة إلى التوحيد ، يفيد النص تبرؤ عيسى من كل ما قيل حول بروتة
أو الوهيته ..

« ما قلت لهم الا ما امرنى به ، أن اعبدوا الله ربي وربكم » [٢] .

.....

انطلق عيسى في دعوته إلى الله .

قامت دعوته على أساس أنه لا توسط بين الخلق والمخلوق ،
لا توسط بين المحدث والمحدث ، وانزل الله تبارك وتعالى عليه الانجيل ، وهو
كتاب مقدس ، جاء تصديقا للتوراة ، وجاء احياءا للشريعة الاولى ،
وجاء مؤيدا للصحيح من احكامها ، وكان الانجيل سورا وهدى وموعظة
للمتقين .

وقد اصطلح عيسى بتفسير اليهود الحرفي للشريعة . وطمان عيسى
المبشرين على الشريعة والحقيقة ، بأنه لم يأت لينقض الشريعة ، وانما
جاء يكملها ويتم نموات الانبياء . غير أنه في تفسيره للشريعة ، تجاوز
قشورها وحرغيتها إلى حقيقة جوهرها .

اتهم عيسى اليهود أن الوصايا العشر لموسى تتلوى على معان أعمق
ما يتصورون . أن الوصية السادسة لا تنهى عن القتل المادي فقط كما
فهموها ، وانما تنسحب على كل اعتداء وكل اساءة للآخرين مهما ينزل
شأنها . والوصية السابعة لا تنهى عن الزنا [بمعنى اتصال رجل بامرأة
ليست من حقه] ، وانما تنسحب على كل انواع الزنا ، وتستطيع العين
أن تزنى لو نظرت لما ليس من حقه باشتهاه ورغبة ..

وقال عيسى : انه أفضل للانسان أن يستغنى عن عينه التي تستطيع
أن تهلكه ، بدلا من أن يهلك معها . كانت الشريعة تنهى عن الحثث باليمين
وتنكث العهد ، فانهم عيسى قومه أنه ينبغي الامتناع عن الحلف والتقسم
امتناعا تاما ، لأنه « خطأ عظيم أن يصير اسم الله تعالى مبتذلا على لسان
الناس » . [انجيل متى ٢١ - ٢٨] .

اصطلح عيسى أيضا بذلك التيار المادي المسائد في المجتمع ، ولهذا
حذر الناس من التعلق بالربا والطمع في مدح الناس ، كما حذرهم من
الطمع في ثروة العالم ، فلا ينبغي أن يكرهوا لأنفسهم كنوزا في الأرض ،
أي لا ينبغي أن يحصرروا اهتماماتهم في الأرضيات لأنها ماثية زائلة ، وانما
ينبغي أن يحصرروا اهتماماتهم في السماويات لأنها ماثية أبدية .

الشكر عيسى على الناس أن يكونوا حكياء في اختيار كنوزهم ، لأن

[١] الآيات ١١٦ و ١١٧ من سورة المائدة مطبوعة .

[٢] من الآية ١١٧ سورة المائدة مطبوعة .

طابع عقولهم وبلغتالى لون حياتهم سوف يكون تبعاً لذلك إما جسدياً أو روحياً ، لأنه حيث يكون كثر الإنسان ، يكون هناك قلبه كذلك . فإذا كل القلب متجها الى نور السماء ، أصابت حياة الإنسان كلها ، فإذا اتجه القلب الى ظلام الأرض صارت حياته كلها مظلمة . .

حذر عيسى قومه من الرياء ومحبة العالم ، ودعاهم الى التقيق في اختيار السيد الذي يخدمونه . لأن الإنسان لا يستطيع أن يخدم سيدين في وقت واحد . فإما أن يجعل المال سيداً له ، وإما أن يكون الله عز وجل سيداً له . فإذا عبد المال ابتعد ذلك به عن عبادة ربه ، ومن ثم ينفي الابهتم الناس بأمور هذا العالم ، كالأكل والملبس ، بحيث يسيطر عليهم الفلق والانزعاج والشك في رعاية الله لهم . فقد وعد الله أن يوفر لسيده كل ما يلزم لحياتهم ، فإذا سيطر عليهم الفلق والشك والانزعاج ، فثما ينشأ ذلك من شكهم في رعاية الله لهم ، وعدم ثقتهم بموعدته ورحمته ورعايته للنشر . فإله هو الذي خلقهم وهو الذي يعولهم ويرعاهم ، لأنه يعول ويرعى حتى أقل الكائنات ثلثاً كطيور السماء وزليق الفلق .

أنهم عيسى قومه أن الاهتمام بالمالم خطئة وثنية لا يلقى بالانديين ، لأن الوثنيين يقولون هذه الأمور بسبب أنهم لا يعرفون ما هو أفضل منها . وأما الانديون فيعرفون أن هناك عناية الوبه تدعوهم الى الثقة بالله ، واحتتار المالم .

الله يعلم احتياجاتهم أكثر مما يعلمونها ، وهو كفيل بإجابتها ، فالحارى بهم أن يعلموا ملكوت الله وبره . أى حياة الروح وما تكفله من سمادة أبدية . ومن ثم ينصح عيسى بالابرك الناس أنفسهم بخواص المستقبل ولا بأمور العبد . لأن « العبد يهتم بشأن نفسه » .

وإذا كثفت الاحتياجات والمتاعب تتجدد كل يوم ، فإن المعونة والزاد الالهي يتجددان كذلك .

أصطدم عيسى أيضاً بتلك الثنائية التي يمايل بها الناس بعضهم بعضاً ، فبينما يقبل الناس لأنفسهم الخير ، تراهم يقسمون الشرور لغيرهم . وكثفت حياة اليهود وسط هذه الثنائية قد خضعت العسالة البشرية ثلثها ، وأوصى عيسى بن مريم الناس بأن يسيروا في محاسبة الناس على مقتضى القاعدة الذهبية التي تقول : « كل ما تريدون أن يفعل أساسكم ، فافعلوه أنتم أيضاً بهم » .

استمر عيسى في دعوته الى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما استمر يدعو الناس الى تقوية الأرواح وتطهير القلوب وغسل الضمير والدخول في ملكوت السماء .

وأنارت دعوته كهنة اليهود ، فقد كانت كل كلمة من كلمات عيسى ترفع السلاح في وجوههم وتطعن العرب عليهم وتعريهم وتكشف ثنائهم ، واستندت السلطات الرومانية المحتلة عن النزاع في بدايته على أساس أنه خلاف داخلي بين طوائف اليهود ، خلاف يرضى السلطات الحاكمة إذ يصرّف المحكومين بمشاكلهم ونزاعاتهم عن قضايا الاحتلال .

وبدأت المؤامرات تدبر لعيسى من الكهنة .

أرادوا اهراجه ، واثبت انه جساء يحطم شريعة موسى .. وكانت شريعة موسى تقضى برجم الزانية .

وأحضر كهنة اليهود امرأة خاطئة تستحق الرجم .. التفتوا حول عيسى يسألونه ؟

— ألا تقضى الشريعة برجم الخاطئة .

قال عيسى :

— نعم .

قالوا :

هذه المرأة خاطئة .

مطر عيسى الى المرأة ، ونظر الى الكهنة ، كن يعلم ان الكهنة أعظم خطأ من المرأة ، كان يعرف انهم اشد ظلما منها ، وكان الكهنة ينتظرون جوابه فان قال انها لا تستحق القتل فهو يقف ضد شريعة موسى ، وان قال انها تستحق الموت فقد هدم بنفسه شريعة الحب والتسامح التي جساء بها ،

فهم عيسى المأامرة .. وابتسم غاضبا وجهه ، ونظر الى الكهنة ، وعاد ينظر الى المرأة وقال لهم :

— من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر ..

ارتفعت كلغة وسط مسكون المعبد فصيح فلقونا جديدا للحكم على الخطأ .. ليحكم على الخطأ من لا يخطئ .. لا يستحق احد من البشر الخطاة أن يدين غيره من البشر أو يحكم عليه .. انما يحكم الله المنزه المتعال وهذه .. والله أرحم الراحمين .

خرج عيسى من المعبد فأسرعت المرأة وراءه .. أفرجت من ثيلها رجاجة من العطر الثمين ووقفت أمام عيسى .. وهوت على قدميه تقبلها وتقبلها بالعطر والدموع ..

بعدها جلست قدميه بقصرها .

كان المسيح يمثل لها — كما يمثل للملايين غيرها — ذلك الأمل الأخير في الخلاص .. وتلك القدرة اللامتناهية على الرحمة ...

وخرج وراء عيسى كبير كهنة اليهود .

وقف يشهد المنظر ويعجب بينه وبين نفسه من رحمة عيسى وسماحته . ونظر عيسى اليه وقاله

— دائن له مدينان : أحدهما مدين مئتمنة دينار ، والآخر بخمسين . قال لكاهن :

— نعم .

قال عيسى :

— لم يكن مع أى واحد منهما ما يبنى بدمع دينه .. وسامحهما الدائن .

قال الكاهن :

— نعم .

— أيهما يكون أكثر حاله .. ؟

قال الكاهن :

— الذى سامحه فى الأكثر .

قال عيسى :

حكمت بالصواب .. انظر لهذه المرأة .. لقد حفظت انا بيتك فلم تستخدم
لى ماء لغسل وجهي .. ولكنها غسلت قدمي بالدموع ومسحتهم بأشعر
رأسها .. كذلك لم تقبلني أنت قملة واحدة ، لكنها لم تكف عن تقبل قدمي ..
قلبك أنت عظيم القسوة ، ولكنها تعمل قلبا يتلىء بالصبر .. ومن أحب
كثيرا غفرت له خطاياها .

استدار عيسى الى المرأة وأمرها أن تنفض من الأرض وهو يقول :

— اللهم اغفر لها خطاياها .

أنهم عيسى كهنة اليهود ، أن الدعاة الى الله ليسوا جلافيين منتقبين
لتطبيق حكم الشريعة دون مظر الى المجتمع الذى تجرى فيه الخطيئة . إنما
يجيء الدعاة الى الله لأساسا رحمة بالناس .

والرحمة هي هدف كل هذه الدعوات الإلهية ..

أن ارسال النسي هو ذاته يعنى رحمة الله تعالى بقومه وزماته ...

.....

استمر عيسى يدعو الله أن يرحم قومه ، ويدعو قومه أن يرحموا أنفسهم
ويؤمنوا بالله .

كانت حياته آية من آيات الزهد والتسك .

قال محتر بن سليمان .. نيا يرويه ابن عسك : « خرج عيسى على
أصحابه وعليه حبة مسوف .. خرج حافيا باكيا بمصر اللون من الجوع
يفس الشفتين من العطش ، فقال : السلام عليكم يا بني إسرائيل ، أنا
الذى أنزلت الدنيا منزلتها بالن الله ولا عجب ولا عفر .

— اتدرون أين بيني ؟

قالوا : أين بينك ياروح الله .

قال : بيني المساجد ، وعطري الماء ، وطعامي الجوع ، وسراجي القمر
بالليل ، وملائي في الشتاء مشارق الشمس ، وريحتي يقول
الأرض ، ولباسي الصوب ، وشماري خوف رب العزة ، وحلتي

الفقراء والمرضى والمساكين . أصبح وليس لى شيء وليسى وليس لى شيء .
وانا طبيب النفس غير مكثرث . فمن أغنى منى وأريح أنا

.....
.....

مضى عيسى فى دعوته .. مؤيدا بمعجزات الله له .
سمع لقومه من الطين كهينة الطير ثم نفع فيه بصلر طيرا بانى الله ..
كان طرف ثوبه البسيط المتواسع اذا أمس مريضا شفى هذا المريض .
وكان عيسى اذا وصع بديه فوق أمس أو أبرص شفى على الفور .
كان عيسى مؤيدا بمعجزة هائلة .. هى القدرة على دعوة الموتى من قبورهم
نادا هم يخرجون أحياء بفس الله .

يقول المنسرون ان عيسى احيى أربع انفس :

الصّّر ، وكان صديقا له .

وانا لعجوز ..

وبنتا كانت وحيدة أمها ..

وهم ثلاثة ماتوا لى أيامه .. فلما رأى اليهود ذلك انظروا له : انك نحى
من كل موتهم قريبا فاعلمهم لم يموتوا بل أصابهم مسكة ، وطلبوا منه
أن يبعث من الموت سام بن نوح .

يقول المنسرون انه سألهم أن يدلوه على قبر سام بن نوح .. فخرج
القوم وهو معهم حتى انتهوا الى قبره ، فدعا الله أن يحييه . فخرج سام بن
نوح من قبره وقد شلب رأسه .

قال له عيسى : كيف شلب رأسك ولم يكن لى زمانكم شيب ..

قال سام : يا روح الله . انك دعوتنى فسمعت صيوتا يقول : اجب
روح الله فظننت لى القياسية قد قامت . ففى هول ذلك شلب رأسى .

ومهما يكن من أمر القصص التى ثروى عن احياء عيسى للموتى ،
فنحن لا نعرف من السياق القرآنى تلميذات محددة لذلك ، كل ما يذكره
الله تعالى لى عيسى احيى الموتى بانه ، ونحن نصدق انه احيى احياءهم ،
وان كنا لا نعرف هل عادوا بعدها الى الموت أم عاشوا فترة .

.....
.....

استمر عيسى يدعو الناس الى الله . ويضع لهم ما يمكن تسبيته
بدستور الروح .. سمع الى الجبل .. وقف حوله اتاعه .. أدار عيسى
نصره فمهن آمن به .. كثفوا مجموعة من الفقراء والنساء والحراس
ومساكين الروح .. كان العدد قليلا شأن ائاع الانبياء دائما .

وغطت الجبل سحابة رقيقة وهبط رذاذ خفيف .. وانشأ عيسى يتحدث :

طوبى للمساكين بالروح .. فان لهم ملكوت السماوات .

طوبى للحرثى . فقام سيمرون .
 طوبى للودعاء ، فقام سيرثون الأرض .
 طوبى للحياء والمطاشى الى البر .. فقام سيشيمون .
 طوبى للرحماء ، فقام سيرحمون .
 طوبى لانتقاء القلب ، فقام سيمانيون الله .
 طوبى للمشطهدين من اجل الحق . فان لهم ملكوت السموات .
 انتم ملح الأرض .. فلذا فسد الملح ، فإى شيء يردده بلها من جديد ..

.....

فأبى علق الحسى فى عبارته « انتم ملح الأرض » .
 ان الملح هو الذى يمنح الأشياء طعمها المميز ومذاقها الخاص ، وبغير
 الملح يبدو الطعام فاقداً لشيء يصعب تحديده ، بغير الملح يبدو الطعام بلا
 معنى .. أو غير محتبل ..
 وبغير المؤمنين يبدو طعم الحياة ذاته بلا معنى .. وبغير المسلمين
 وجوههم وقلوبهم وأعمالهم لا تبدو الحياة قضية وغير محتبل ..
 ويضيع معنى استخلاف الله للإنسان فى الأرض ، ويضيع معنى عظمة
 الامسالى المتمثل فى كونه عبد الله .. وتبلى الحياة بقسوة اشهرور
 المنتصرة .

ولهذا كان عيسى حريصاً على حفنة الملح القليلة التى تتبعه .. كان
 حريصاً على لقاء هذا الملح .. افهمهم أنهم « معنى » الحياة ..
 و « طعم » الأرض .. و « مذاق » الوجود .. أنهم مملون .. يمثلون
 الخير .. فلذا فسدوا هم .. وهم أصلاً مكلفون بمنح الحياة طعمها
 النقى .. فإى شيء يفسد الحياة لقاءها اذا فسد اللقاء ذاته .

وأوحى الله تعالى الى ملح الأرض ان يؤمن بعيسى .
 قل تعالى :

« واذا أوحيت الى الخواريين ان آمنوا بى ورسولى : قالوا آمنا
 واشهد باننا مسلمون » [١] - سورة المائدة .

اعترف الخواريون بالاسلام .. كما اعترفت ملكة سبأ بالاسلام سليمان
 واسلمت معه .

كما اعترف كل انبياء الله بالاسلام ..

تتجسد حقيقة رسالات الانبياء فى الاسلام .. ويدعو كل انبياء الله الى
 التوحيد والاسلام .. والاسلام — فى رأينا — معنى لدق من التوحيد
 .. ان اعتراف الانسان بالله تعالى والايمن بوحدانيته فى خلق الكون ،
 لا يمنع الانسان كتمسك من ارتكاب الخطايا .. لما اسلم القلب

(١) الآية ١١١ سورة المائدة مبنية .

والجوارح والفكر .. فدرجة أعلى قليلا .. هذه درجة خضوع
الخاضعين وقمة توحيد الموحدين ، وهي تتساقط الفعل مع الفكر وتناوبه
.. وهي اعتماد الإنسان عن الخطيئة وخلوصه لله ..

ينبتنا القرآن الكريم أن الله تعالى أوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا به
وبرسوله عيسى ..

نؤمن قليلا عند .. « وحى » الله تعالى للحواريين ..

نعلم أن الله تعالى يوحى إلى البشر والمخلوقات ..

قال تعالى :

« وأوحى ربك إلى النحل » [١] ..

وقال تعالى :

« ولوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فاتقيه

في اليوم » [٢] ..

والمراد بالوحى هنا هو الهام هذه المخلوقات أن تتجه بنظرها التي
نظرها الله عليها إلى ما أراد الله لها .

لا تذكر أجابة موسى عن سؤال فرعون :

« قال : فمن ربكما يا موسى ؟ » [٣] ..

« قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » [٤] ..

سورة طه .

إن البعض واحد هنا وحسبك .. وينطبق نفس المضي على الحواريين
.. كان وحى الله لهم الهام المهيم إياه لغيرهم وسعادتهم .. ولا ينشئ
هذا الوحي اختيارهم وأرادتهم ولا يتعارض مع حريتهم .

لقد نظر الله في قلوبهم فراحا على الخير .. رآهم ملح الأرض هنا ..
فأوحى إليهم أن يؤمنوا به وبرسوله فأمنوا .. وشهدوا أنهم مسلمون ..
ويبدو أن الحواريين كتبوا آياتهم حتى أحسن عيسى الكفر من قومه
فتنادى فيهم : من أتصاري إلى الله ؟

قال تعالى :

« فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال : من أتصاري إلى الله ؟ قال

الحواريون : نحن أتصراه ، أما بالله ، والشهادتنا مسلمون . ربنا
أما بما أنزلت وأتبعنا الرسول فاكذبنا مع الشاهدين » [٥] ..

(١) من الآية ٦٨ سورة النحل مكية .

(٢) من الآية ٧ سورة القصص مكية .

(٣) من الآية ٦٩ سورة طه مكية .

(٤) الآية ٥٠ سورة طه مكية .

(٥) الآية ٥٢ ، ٥٣ سورة آل عمران مدنية .

يوحي النص القرآني أن عيسى دعاهم إلى الإسلام فأسلموا ..
ويؤكد النص القرآني أن عيسى بشر برسول يأتي من بعده اسمه
أحمد .

يقول تعالى :

« وَاذْ قُلْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْبُيُوتِ ، وَمُشِيرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي
اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ! » [١] .

لا يعرف على وجه التحديد متى بشر عيسى بهدا الرسول الذي سيأتي
من بعده [وهو أحمد صلى الله عليه وسلم] .. أكلن تشييره به في بداية
مبعثته إلى الناس . أم كل تشييره به في ختام دعوته وقتل رعيه إلى
السماء .

يوحي سياق النص القرآني أن هذا التبشير كل في بداية دعوته ..
لنقوله تعالى :

« فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا : هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ » [٢] ..

والضهير هنا يعود لعيسى عليه السلام . والآية إذن توحي أن عيسى
بشر بمحمد أو أحمد [عليه الصلاة والسلام] حين مبعثه الله لقومه ثم
أخرى على يديه المعجزات العارضة في أحياء الموتى والفتح في الطين ..
فلما جاءهم بهذه البينات اتهموه بالسحر .. ويحرك عيسى عليه السلام
أن التهمة وجهت لمعظم الأنبياء قبله ، يحرف أنها ستوجه لآخر الأنبياء بعده ،
ولذلك يمضي النبي الكريم في دعوته متجاوزاً اتهام قومه له بالسحر ..
وتزداد حدة الصراع بينه وبين بني إسرائيل . كانوا غلاظ القلوب قساة
تصدوا على القشور وضاع منهم جوهر التوحيد .. هاهو ذا عيسى
يجنبهم مما يهدم كل أفكارهم وحسبهم ونظمهم .. أن دعوته إلى الحق
والعدالة والسلام .. كانت تحس في نفس الوقت إعلان الحرب على الحياة
القائمة التي تنتشر إلى الحق والعدالة والسلام .

يقول أنجيل متى على لسان عيسى : لا تظنوا أنني جئت لأهمل سلاماً
إلى الأرض ، ما جئت لأهمل سلاماً ، بل سيفاً .

أن معنى الكلمات يكشف حقيقة هامة من حقائق دعوات الأنبياء .
أنهم محاربون أساساً .

تختلف أسلحتهم التي يستخدمونها في الحرب ، لكنهم في نهاية الأمر
محاربون . يبدلون حروبهم بفكرة .

فكرة تشهد أن لا إله إلا الله .

وتسليط الفكرة بكل الآلهة البشرية والذهبية والحرية .. وتلقي
الفكرة هدوء الطغاة والسلافة وتهديد مصالحهم .. ويحرك الملوك

(١) الآية ٦ سورة الحديد مدية .

(٢) من الآية ٦ سورة الحديد مدية .

والحكاه والقادة عادة ضد النبي الا من هدى الله .. يقف الملا من القوم ضد النبي . والملا هم الرؤساء كما نبينا في قصة نوح ومن بعده .

ثم يستمر النبي في حربه الفكرية .. لقد وضع أساس الحرب باعلان الوهية الله وحده . بعد هذا الأساس المكين . يرسى النبي أساس العدالة . ليس من حق احد ان يستغل احدا لو يستعبد له لان اليهودية لا تكون الا لله وحده . وفي عالم البشر ليس هناك الهة .. ابشر متساوون فيما بينهم .. واذن ليس من حق احد ان يستغل طائفة الناس لبناء مجده الشخصي لو الاثراء على حسابهم او هضم حقوقهم او الاساءة اليهم بأي صورة من صور الاساءة .

واد تعنى الدعوة [دعوة اي شئ] في عبقها اليميد .. تعنى الثورة على كل الانظمة الفاسدة التي يقبها رؤساء القوم ..

هي دعوة حرب اذن . وعلى النبي ان يصل السلاح ..

بعد ارساء الفكرة تبدأ الحرب ..

ويلجا النبي للسيف . يلجا للسلاح . ويختلف نوع السلاح من نبي لآخر ..

في البداية .. لا يستخدم النبي في معركته غير سلاح الاقتاع الهادي والعقل .

وتستمر المعركة . ويجد النبي نفسه مضطرا لاستخدام السلاح ، يفرض عليه الأعداء موقفا يضطره لاستخدام السلاح . ويلجا النبي للسلاح . وهنا يختلف نوع السلاح من نبي لآخر . قد يكون سلاح النبي معجزة تضع هذا الحياة أعدائه وتفتيحهم كالطوفان [نوح] . او الريح [هود] . وقد يكون سلاح النبي معجزة تمنيه على انتصاره على أعدائه بشكل حاسم كتسخير الجن والطيور له [سليمان] . وقد يكون سلاح النبي معجزة تنجيه من كيد أعدائه ، كتحويل النار اذا اتى فيها الى برد وسلام [ابراهيم] . وقد يكون سلاح النبي معجزة تؤيده في دعوته كاهباء الموتى [عيسى] . وقد يكون سلاح النبي سيفا يسكه في يده ويحارب به من دعوته [محمد] .

تختلف أسلحة الأنبياء في النوع .. والكيف . والكم . يعرف الله تعالى ظروفهم أفضل مما نعرف ، وهو الذي يختار نوع السلاح لأنبيائه . وليس هناك نبي قس في مكانه ولم يقتل ولم يتحرك ولم يضطهد ولم يعرجه قومه ولم يحتل في الله غلبة العناء . ومقدر احتمال الأنبياء وقضاهم من دعوة الله يستحقون مراكزهم عند الله .

ولقد أعلن عيسى بن مريم عليه السلام انه متسائل جاء يحمل السلاح .. ان كلمته وحدها تعنى هدم المجتمع القائم من أسسه .

لقد كان المجتمع .. أيام عيسى .. يقوم على الشرك والخطيئة والكذب والتفان والمادية والرياء والتكليف والظلم وانعدام الحرية .

وجاء عيسى مهدم بكلمته هذا كله ..

لهم عيسى قومه أن دعوته إلى الله ليست في جوهرها دعوة مسلام ،
إنما هي دعوة إلى الحرب . لا قيمة لشيء لا يدافع صاحبه عنه حتى آخر
قطرة من دمه . أن الأفكار والقيم والمبادئ لا تستمد قيمتها من مثالياتها
فحسب ، وإنما تستمد قيمتها من العهد الذي يبنه أصحابها الأوائل
دواما عنها ، وتستمد قيمتها من تحول الأفكار إلى حياة بظيلة .

ويغير الحرب وحمل السلاح .. تبقى دعوات الأنبياء أفكارا مجردة
مخالفة ، لا تحرك أحدا ولا تزعج أحدا ولا تثير أحدا للانقضاض عليها .

ولقد رأينا في معظم قصص الأنبياء كيف وقتت أغلبية المجتمع ضد النبي
وحريته . ابتداء من السخرية وانتهاء بمحاولات القتل أو القتل نفسه .

ومن المفهوم طبعا أن الأنبياء يدافعون عن الحق الذي يحملونه ، ولقد
احسبنا في قصص الأنبياء بهجوم المجتمعات والرؤساء على الأنبياء ، ولم
نحس - بنفس القوة - بهجوم الأنبياء في الحرب . وتفسير ذلك يسير ..
لأن الحرب التي يشنها السطيل على الأنبياء تصاحبها لجمرة دعائية قوية ،
وتصاحبها اتهامات وشتم وخبيث ، أما الأنبياء فيصدرون من منطق الوثائق
من الحق . وهو منطق لا يلجأ إلى السب أو الاتهامات أو المصيحج ..
إنما يستمر الأنبياء في دعوتهم التي تقوم على استثارة العقل وإيقاظ القلب
وتنقية الروح ، وهذا الاستمرار يمثل لأعداء النبي وأعداء الله مشكلة
حقيقية .

إن دعوة النبي نفوس في أعماق الأسرة الواحدة .. يؤمن الأب ويكره
الابن . أو يؤمن الابن ويكره الأب . أو تؤمن الزوجة ويكره الزوج . أو
يؤمن الزوج وتكره الزوجة .

ويبدأ اختلاف الابن مع أبيه والزوجة مع زوجها .. تصل الخصومة إلى
الموت ذاتها .

بوتوع هذا الأمر يتحرك المجتمع ضد النبي أكثر وأكثر .. تزداد
حدة العداوة والكراهية والحرب ضد هذا الذي جاء يفرق الأب
عن ابنه ملحق ، لو جاء يفرق البنت عن أمها بالحق . ويهضع النبي (أي
نبي) مسثورا لمن يتبعه ..

والدستور هو القانون الأساسي الذي تمثل القوانين لو لم تكن توافقه ،
يمثل هذا الدستور في كلمة النبي .

[حب الله والنبي أولا ..] .

وبعد ذلك يأتي حب البشر ..

هذه الملتى تمكنك بوضوح كك في كلمات عيسى التي أوردتها أنجيل
ماتي في الفصل العاشر . قل السيد المسيح :

لا تظنوا أنني جئت لأهمل مسلاما إلى الأرض . ما جئت لأهمل مسلاما
بل سيفا . جئت لأهمل الابن يختلف مع أبيه . والابنة مع أمها .. وزوجة
الابن مع صلاتها . فيكون خصوم المرء من أهل بيته .

من أحب أباه وأمه أكثر مني فلا يستحقني .

ومن أحب ابنه أو بنته أكثر منى فلا يستحقنى .

من ربح حيساته خسرها .. ومن خسر حيلته من أجل ربحها .

يقول شراح الإنجيل :

« كانت فكرة اليهود من المسيح أنه حين يأتى سيهب كل أتباعه ثروة ومجداً فى هذا العالم ومنهم الطباينة والسلام . فلما جاء المسيح أنهم تلاميذه أن هذا لن يكون . لأنه إذا كان سيهب أتباعه سلماً مع الله ومع أخوتهم ومع ضيقهم ، ففهم سيكونون معرضين للاضطهاد ولأن يهتوا بعد السيف . فليس لهم أن يتوقعوا سلماً . بل حرباً . وليس لهم أن يتوقعوا وثلاً . بل انفصالاً » .

وهكذا انقسم المجتمع اليهودى الى قسمين :

النفراء والمصفاء واتقاء القلب مع عيسى .. والأغلبية الكفيرة ضد عيسى .

ولقد آذنته الأغلبية الكفيرة كثيراً ..

يحكى إنجيل متى عن آلام المسيح فى الفصل الحادى عشر ، فيحدث عن استياء المسيح من لم ينتفعوا بخدمة يوحنا [يحى عليه الصلاة والسلام] أو بخمسته هو شخصياً .

يقول إنجيل متى على لسان عيسى :

بمن تشبه هذا الجيل ، أنه يشبه صببة جالسين فى الأسواق يصيحون بأصواتهم قائلين : زمرنا لكم فلم ترقصوا . نصنا لكم فلم ترقصوا . لقد جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فقالوا : أن به شيطاناً . وجاء ابن الإنسان بكل ويشرب وتغلفوا : هو ذا رجل أكل وشرب خمر محب للمشارين والعطاة . ولكن الحكمة بأعمالها تتركى .

ثم بدأ يسوع يوبخ المدن التى جرت فيها أكثر معجزاته لأنها لم تقب ، قائلاً : الويل لك يافسورازين . الويل لك يابيت صيدا ، لأنه لو جرت فى صور وصيدون المعجزات التى جرت فىكما لتبنا من قديم متشبهين بيسوع والربا . ولكنى أقول لكم أنه ستكون لصور وصيدون فى يوم الدينونة حالة أكثر احتمالاً مما لكم . وأنت يا كفر ناعوم . اتصيين أنك ترتفعين الى السماء . أنك سيهبط بك الى الجحيم . لأنه لو جرت فى سدوم الممجازات التى جرت فىك لظلت قائمة الى اليوم . ولكنى أقول لك أنه ستكون لأرض سدوم فى يوم الدينونة حالة أكثر احتمالاً مما لك .

يكشف هذا النص من آلام المسيح ومعاناته ، ويكشف الحرب التى تعرض لها ، والآلام التى انشككت فى قلبه الطاهر من تصرفات الجيل الذى بعث فيه هادياً ومبشراً بملكوت السماء . أنه يشبه جيل اليهود فى عصره بصبة يجلسون فى الأسواق ويصيحون بأصواتهم قائلين :

زمرنا لكم فلم ترقصوا . ولحنا لكم فلم ترقصوا .. مبشراً بذلك الى ما يقطعه الأملال وهم يلعبون . أذ يقدون الكبار فى أقرانهم فيرقصون ،

وفي أحزانهم فيبكون ، وهكذا يترفعون سريعا بين الفرح والحزن . في سطحية وتسرع . وتون وهي أو تسمى . كان هذا حال اليهود إزاء خدمة يحيى عليه الصلاة والسلام . ثم إزاء خدمة المسيح عليه الصلاة والسلام . فقد جاء اليهم يحيى بالحق مأكلا لا يأكل ولا يشرب مما ياكلون ويشربون ولا يحاط الناس ، حادهم نبيا ناسكا فرغضه الكثيرون قائلين ان به شيطانا . ثم جاء اليهم المسيح ياكل ويشرب مع الفسارين والخطاة في الولائم والأعياد ، فرغضوه كذلك قائلين انه اكل وشرب مع الفسارين والخطاة . ومن ثم كان ذلك الجبل علينا عتث الأطفال ، لا يؤثر فيه شيء . ولا يغيره بالتوبة شيء . ومع ذلك فان ثمة قلة قليلة من الناس تتأثر وتتوب . لان الحكمة بأعمالها تنزكي .

وبعد ان وبع المسيح ذلك الحبل بصفة صبة ، لمدم ايمنه وتوبته ، بدأ يوبخ المدن التي جرت فيها أكثر معجزاته بصفة خاصة ، لأنها مع ذلك لم تؤمن ولم تنب . وقد حصى بالذكر مدينتي [كورازين] و [بيت صيدا] قائلا انه لو جرت في مدينتي [صور] و [صيدون] المعجزات التي جرت لهما لقلنا توبة عميقة ومسلطة ومغصبة بالندم . على الرغم من ان اليهود كانوا يضربون بهما المثل في الفساد والفساد . وقد أدى فسادهما وضلالهما من قبل الى خرابتهما ، ولذلك كان [صور] و [صيدون] ستكون لهما في يوم القيامة حالة أخف وطأة وأقل عذابا مما [لكورازين] و [بيت صيدا] . ثم وجه المسيح توبيخا عنيفا الى مدينة [كفر ناحوم] التي كان قد اقام فيها لكثير مما اثم في أي مدينة أخرى من مدن اليهود . وما أكثر ما لقي فيها من تكذيب وعناء ، فقال لها : اتعجبين انك ترتفعين الى السماء ، انك سيهبط بك الى الجحيم . ويقتلن عيسى عليه السلام بين المعجزات التي حرت في مدينة [سدوم] اليهودية القديسة والمعجزات التي جرت في مدينة كفر ناحوم المعاصرة له ، فيرى أن معجزاته تفوق ما حدث كثيرا . ورغم ذلك ، لم سيكون هزاء سدوم يوم القيامة ، أخف من هزاء كفر ناحوم . . . وأشهر عيسى الى هلاك سدوم ، وشهرتها بالأكام والخطايا ، وانتهت بمقارنته الى ان كفر ناحوم المعاصرة أعظم آثاما من سدوم . .

ويبدو لنا من النص عناء عيسى إزاء الجيل المعاصر كله . . يكثف النص عذابه في تلخيص دعوته ، وشقائه وسيط قوم لم ينشجوا بعد عن نفسية الأطفال العالين . قوم لا تهزم الكلمات الطيبة ولا تهزم المعجزات الخارقة ، وان سألوا المزيد منها رغم ذلك .

وعاد الله عز وجل يزيد عيسى بالمعجزات الباهرة .

والمعجزة هنا سلاح يعطيه الله تعالى لنبيه كي يصدقه ويؤيده ويزيد الذين آمنوا إيماناً ، ويزيد الذين كفروا كفرا اختياريا حرا . . حتى يقع جراء الله تعالى على الفريقين معا . ولقد كلن من المعجزات التي أيد الله بها عيسى ابن مريم ، استجابته لطلب الحواريين في انزال مائدة من السماء .

قال تعالى في سورة المائدة :

« اذ قال الهواريون : يا عيسى بن مريم : هل يستطيع ربك ان ينزل

علينا مائدة من السماء ؟ قال : اتقوا الله ان كنتم مؤمنين . قالوا : نريد ان نكلل منها ونطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لا ولنا واخرنا وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين . قال الله : اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني اذبه عذابا لا اعطيه لاحدا من العالمين [١] .

.....

نتوقف بالدهشة عند قول الحواريين : يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك ؟

ان اول ما يتبادر الى الذهن من معنى الآية . هو شك الحواريين في قدرة الله تعالى . فكيف يجوز منهم ذلك وهم تلاميذ عيسى الذين اسلموا ؟ ■

يختلف موقف العلماء في تفسير هذه الآية .

قال بعض العلماء بما يتبادر الى الذهن للوهلة الاولى .

قالوا : ان سؤالهم هل يستطيع ربك ؟ معنى .. هل يقدر ربك ؟

والتمسوا للحواريين عدرا بان السؤال كان في ابتداء لبرهم قبيل استنصاحهم بمعرفتهم بالله عز وجل . ولهذا قال عيسى في اجابته عن سؤالهم اتقوا الله ان كنتم مؤمنين .

بمعنى لا تشكوا في قدرة الله تعالى .

ويرد القرطبي هذا التفسير ويرفضه . فالحواريون هم انصار الله تعالى بنص القرآن ، ولا يجوز على انصار الله تعالى ان يجهلوا قدرته او يشكوا فيها .

ويقول بعض العلماء : ان هذه الكلمات كانت قول من كان مع الحواريين من بني اسرائيل . ولم يكن الحواريون فيها الا ناقلين رسالة .

وتبين ان هذه الآيات لا تقرا « هل يستطيع ربك » وانما تقرا كما قرأتها عائشة وكما قرأها النبي « هل يستطيع ربك » .. والمعنى هل يستطيع استعداء طاعة ربك فيما تسأله . وقيل : انما تقرا « هل يستطيع ربك » بمعنى هل يستطيع ان يدعو ربك او تسأله . ويرى بعض الصوفية ان الحواريين ما كانوا يجهلون قدرة الله تعالى .. وانما صدر سؤالهم من سمع الحب لله تعالى ، ومن رغبته في شهود قدرته تعالى وهي تصل .. ويشبه موقفهم هنا [مع غارق الدرجة] موقف ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال :

« رب : ارضني كيف تحب الموتى ، قال : لو لم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبي » [٢] ..

(١) الآية من ١١٢ الى ١١٥ مجتمة .

(٢) من الآية ٢٦٠ سورة البقرة مجتمة .

ولذلك قال الحواريون « وتطمئن قلوبنا » .. كما قال ابراهيم (يطمئن قلبي » .

هذا التفسير الذي يطمئن له قلبنا .

ولقد أجابهم عيسى عن سؤالهم بقوله :

« اتقوا الله ان كنتم مؤمنين » [١] ..

بمعنى اتقوا كثرة السؤال واختبار الله تعالى .. لما كنتم لا تدرون ما يحل لكم عند اقتراح الآيات . وقوله : ان كنتم مؤمنين .. تنصرف الى ما جاء به من الآيات .. يقصد ان يقول : ان ما حثتكم به من الآيات فيه الكفاية .

« قالوا : فريد ان نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقنا وتكون عليها من الشاهدين » [٢] ..

يبين الحواريون لعيسى سبب سؤالهم حين نهام عنه .

كان عيسى عليه الصلاة والسلام اذا خرج بيده خمسة آلاف أو أكثر . معهم من الحواريين والساكنين خليط من أتباعه وأعدائه . ويقال : أنهم صاموا ولم يكن معهم طعام ، فقال الأنصار للحواريين : اسألوا عيسى : هل يستطيع ان يدعو ربه فيمرل علينا بمائدة من السماء ؟ .

وذهب الحواريون برسالة القوم الى عيسى ، فلما دعاهم عيسى للاكتفاء بسمجراته السابقة ، عادوا يقولون له مبررات الطلب .

« قالوا فريد ان نأكل منها » [٣] ..

كانوا جاثعين وليس معهم طعام ..

« وتطمئن قلوبنا » [٤] ..

تطمئن قلوب الحواريين مثلما أطمئن قلب ابراهيم .

وتطمئن قلوب الأنصار الى ان عيسى نبي بعثه الله اليهم .

وتطمئن قلوب الأعداء الى أنهم على الباطل .. فيكون اختيارهم بعد ذلك متخففا لمسئوليتهم .

« ونعلم ان قد صدقنا » [٥] ..

.. بمعنى نعلم انك رسول الله .

« وتكون عليها من الشاهدين » [٦] .

(١) من الآية ١١٢ سورة المائدة مدنية .

(٢) الآية ١١٢ سورة المائدة مدنية .

(٣) من الآية ١١٢ سورة المائدة مدنية .

(٤) من الآية ١١٢ سورة المائدة مدنية .

(٥) من الآية ١١٢ سورة المائدة مدنية .

(٦) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .

« بالوحداية . ولك بالرسالة والنبوة . وللآخرين الذين لم يشهدوها .. فنحدثهم عنها ونحكي لهم أحاديثها » .

« قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا : انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك » ، وارزقنا وانت خير للرازقين » (١) .

« لما سأل الحواريون عيسى بن مريم — صلوات الله وسلامه عليه — المائدة قدم فوضع ثياب الصوف ، ولبس ثياب المسوح ، ثم قام فلزق القدم بالقدم ، والصق القتب بالعتب ، والامهم بالابهام ، ووضع يده اليمنى على يده اليسرى ثم طأطأ رأسه ، فثبما هـ ، ثم أرسل يمينه يركى حتى جرى الدمع على لحيته ، وجعل يقطر على صدره .. ثم قال :

« اللهم ربنا : انزل علينا مائدة من السماء » (٢) .
الى آخر الآيات .

« قال الله : انى منزلها عليكم » (٣) .

نزلت مائدة عظيمة بين غياصتين ، غصاة من فوقها ، وغصاة من تحتها ، والناس ينظرون اليها ، فقل عيسى : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها لعنة . فغطت بين يدي عيسى عليه الصلاة والسلام وجلها مسدول بغطائها . فخر عيسى مساحدا والحواريون معه . وهم يجدون لها رائحة طيبة لم يكونوا يجدون مثلها قبل ذلك .

قال عيسى : انكم اهدى واقرأ على الله وأوثق بالله فليكشف من هذه المائدة حتى نأكل منها ونذكر اسم الله عليها ونحمده الله عليها .

قال الحواريون : ياروح الله أثبت أحق بذلك .

فقم عيسى عليه الصلاة والسلام فتوضأ ونسوا حسنا ، وصلى صلاة جديدة ، ودعا دعاء كثيرا ، ثم جلس الى المائدة فكشف عنها ، فإذا عليها سمكة مشوية ليس فيها شوك تسيل سبلان الدم .

سئل عيسى ياروح الله . أمن طعام الدنيا أم من طعام الجنة ؟

قال : ألم ينعم الله عن هذه الأمثلة .. لقد نزلت من السماء وما عليها طعام من الدنيا ولا من طعام الجنة ولكن شيء ابتدعه الله بالقدره الباهرة فقال لها كونى فكانت .

اختلف كثير من المفسرين حول نوع الطعام الذى نزل على المائدة ، هل هو اسماك أو اللحم . هل هو انصبز أو المأكلة . ونرى أن كل هذه الأحاديث لا معنى لها ..

فخطر شيء لم نطرقنا كلمات عيسى الذى يقول فيها « انها شيء ابتدعه الله بالقدره الباهرة » قال لها كونى فكانت .

(١) الآية ١١٤ سورة المائدة مدنية .

(٢) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .

(٣) من الآية ١١٥ سورة المائدة مدنية .

هذا هو جوهر المائدة .

إنها آية من الله .. آية تومد الله من بكفر بها أن يعطيه عذابا لا يصدق
لهذا من المالمين .

اختلف العلماء هل نزلت المائدة أم لا .

والذي عليه الجمهور — وهو الحق — نزولها ، لقوله تعالى

« أنى منزلها عليكم » [١]

ويقتل أن الآلاف أكلوا منها وهي لا تمتد .. فشنى كل أعسى من عباه
وشنى كل أبرص من برصه ، وشنى كل كسبح من كساحه ، وشنى
كل مريض من مرضه ..

وصار يوم نزول المائدة عبدا من أميلد الحواريين وأتباع عيسى لفترة
من الزمن .. ثم ضاع خبرها وأدلت عليه مكثر النسيان ، فلا تجد
خبرها اليوم في أناجيلهم التي يحترمون بها .

بعد خبر المائدة في سورة المائدة .. يورد الله تبارك وتعالى موقفه
آخر لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ..

قال تعالى بعد أن قص علينا ما كان من أمر آية المائدة .

« وإذ قال الله : يا عيسى بن مريم : أنت قلت للناس اتخذوني وأمي
الهن من دون الله آ قال : سبحانك ، ما يكون لي أن أقول ما ليس
لي بحق ، أن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في
نفسك ، أنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به :
أن أعبدوا الله ربهم وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما
لوعدتني كنت أنت المريب عليهم وكنت على كل شيء شهيد . أن
تعذبهم ما بهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإني أنك العزيز الحكيم .
قال الله : هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها
الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز
العظيم . لله ملك السماوات والأرض وما بينهما وهو على كل شيء
قدير » [٢] ..

بهذه الآيات يختم السياق القرآني سورة المائدة .

وهكذا يظلم السياق القرآني مقلة تبدو مفاجئة من خبر نزول المائدة
إلى موقفه الحواريين الله تعالى وعيسى بن مريم يوم القيامة .

ورغم المفاجأة النافية فإن السياق المعنوي متصل أشد الاتصال ..

إن مقالة الآيات التي أيد الله بها عيسى كست فتحة لقومه من بعده ..
فأعبروه أبا . أعلموا حقيقة محبته وأفتتوا به .

يسأل الله تعالى يوم القيامة هذا السؤال :

[١] من الآية ٢١٥ سورة المائدة مدنية .

[٢] الآيات ١١٦ إلى ١٢٠ سورة المائدة مدنية .

« يا عيسى بن مريم : أتت قلت للناس اتخونني وأمس الهين
من دون الله ؟ » [١] ..

اتفق أهل العلم على أن السؤال ليس سؤال استفهام وإن خرج مخرج
الاستفهام . لأن الله تعالى يعرف ماذا قال عيسى . . المتصود من السؤال
أنه شيء آخر .

هناك من يقول إن الله تعالى يقصد تعريف عيسى أن قومه قد غيروا
تعاليمه من بعده وانتقلوا به .

وهناك من يقول إن الله يقصد من السؤال توبيخ من غيروا عقيدته بعده
وتعتقد أن السؤال يستوعب المعنيين ، ويستوعب معنى آخر . . يريد
الله تبارك وتعالى أن يكشف للمسلمين في كتابه الأخير براءة عيسى مما
أحدث قومه من بعده .

يكشف السياق القرآني عن غيب لم يقع بعد وإن كان مسبق يوم القيامة
ولهذا يعرضه بأسلوب الفعل المضارع ، ويعرض هذا الغيب على أهل
الدنيا ليعرفوا منه حقيقة عيسى بن مريم .

إن الله تعالى يسأله . .

وعيسى بن مريم يجيب . .

لا يجيب نبي عظيم كعيسى إلا بعد أن يقول سبحانه .

يبدأ بالتسبيح والتتزيه قبل الجواب تتزيها لله وخضوعا لعزته وخوفا
من سطوته .

أورد القرطبي في تفسيره : أن الله تعالى حين قال لعيسى : أتت قلت
لناس اتخونني وأمس الهين من دون الله . . أخذت الرعدة عيسى من ذلك
القول حتى سمع صوت مظهره شن داخل جسده . . فقال :

« سبحانه .. ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق » [٢] .

ليس لي أن أدمي لنفسى ما ليس من حقها . وليس لنفسى أكثر من حق
العبد لا المصود .

« أن كنت قلته فقد علمته » [٣] .

ما هو ذا عيسى يرد العلم إلى الله . ولكن الله عالما أنه لم يقله .

« تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » [٤] .

أي تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه . تعلم سرى وما انطوى عليه ضميري
الذي خلقته ، ولا أعلم شيئا مما استأثرت به من غيبك وعليك .

(١) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
(٢) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
(٣) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
(٤) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .

• أنت انت علام الغيوب « [1] •

أنت وحدك العليم بالمعيب . أنت وحدك العليم بما سيكون منهم بعد
رفعى من الأرض .

• ما قلت لهم إلا ما أمرتني به : أن اعبدوا الله ربى وربكم ! [2] •
هذه هي الكلمات التى قالها عيسى بن مريم . . دعا الى عبادة الله وحده
لا شريك له .

• وكنت عليهم شهيدا ما نمت فيهم « [3] •

كنت عليهم حفيظا بما أمرتهم طوال الوقت الذى مكثته بينهم .

«أغلبا نوميتى كنت انت الرقيب عليهم» [4] . .

والوفاة فى كتاب الله عز وجل على ثلاثة أوجه .

[١] وفاة الموت لقوله تعالى :

• الله يتوفى الأنفس حين موتها « [5] •

بمعنى حين انتضاء أجلها .

[٢] وفاة النوم لقوله تعالى :

• وهو الذى يتوفاكم بالليل « [٦] •

بمعنى الذى ينيبكم .

[٣] وفاة الرفع لقوله تعالى :

«يا عيسى : أنى متوفيك ورافعك الى» [٧] •

وهكذا يتبرأ عيسى من كل ما قالوه عنه لو نسبوه اليه ، ويعلن ان دعونه
لم ترد عن التوحيد ولم تخرج على الاسلام الذى اعترف به أتباعه .
ويحاول عيسى حديثه واستعطافه لله عز وجل :

• ان تعلمهم فاقم عبادك « [٨] •

ليس لأحد من الخلق سلطان عليهم ، وليس هناك خالق غيرك
سمحتك ، ولا شريك لك فى الملك والحكم ، وهم فى نهاية الأمر عبيدك ،
ولا يملك العبد أمام سيده إلا الخضوع . .

• وأن تغفر لهم ذنوبك انت العزيز الحكيم ! [٩] •

(1) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .

(٢) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .

(٣) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .

(4) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .

(5) من الآية ٦٢ سورة الزمر مكية .

(٦) من الآية ٦٠ سورة الانعام مكية .

(٧) من الآية ٥٥ سورة آل عمران مدنية .

(٨) من الآية ١١٨ سورة المائدة مدنية .

(٩) من الآية ١١٨ سورة المائدة مدنية .

لم يقل عيسى وان تغفر لهم فإني أنت المنور الرحيم .. لم يزل روح
الاجنية هو التسليم والخضوع والتفويض لمزة الله وجلاله وحكمه .

ان اتباع عيسى هم في نهاية الامر عبادة الله الخاضعون ، ان شاء
حذهم بما يستحقون من مذاب ، وان شاء غفر لهم بما يعلم من
استحقاقهم للمغفرة .. بهذا التسليم المطلق اجاب عيسى عن سؤال الحق
عز وجل وثمرا مما قاله القوم من بعده . واعلى عبوديته لله في بداية
حديثه ، واعلان تسليبه لله في نهاية حديثه .

« قال الله : هذا يوم ينفع الصالحين صدقهم » (١) ..

ان الله عز وجل يثنى على صدق عيسى .. ولان الحوار يجري يوم
القيامة ، يقول الله .. [هذا يوم] القليلة الذي [ينفع الصالحين
صدقهم] في الدنيا .. ان صدقهم هناك سيجد ترحمته من الرحمة هنا .

« لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابدًا ، رضي
الله عنهم ورضوا عنه » (٢) ..

هذا هو جزاء الصالحين .. الجنة وما هو افضل من الجنة ..
رضاء العبد من الله تعالى ، ورضاء الله تعالى عن العبد .. ومعنى
رضاء العبد لرحمة بعبوديته لله تعالى ، ومعنى رضاء الله رحمته لعبده ..

« لك القوت العظيم » (٣) ..

بعدها يعلن الله حقيقة عيسى وكل انبيائه .

« الله ملك السموات والارض وما بينهما ، وهو على كل شيء
قدير » (٤) ..

هو الملك وحده . وهو الخالق وحده . وهو القدير وحده . وما سواه
عبود .

.....
.....

مضى عيسى في دعوته حتى أدرك الشر ان عرشه مهدد بالزوال .
وتحركت جيوش الخطيئة نحوه ، ناوله اليهود راقوه ، وكناتوا يتهيموه
بالسحر وخرق الشريعة وينسبون قواء الحارقة لاتصاله بالشياطين . غلبا
أعبتهم الحيلة ، وراوا ان الضعف والفقراء يجتمعون حول كلمته ، أخذوا
يكيدون له ، ويدسون عند الرومان بشائنه . في البداية لم تتدخل
سلطات روما على أساس ان هذه الخلافات بين اليهود من مصلحتهم .
وعند مجلس السنهدريم [وهو المجلس التشريعي الاعلى لليهود] يجتمع
للتآمر على عيسى .. وعند التآمر يأخذ شكلا جديدا .

حين حجز اليهود من حرب عيسى .. بدأ التفكير في قتله .. وراح

(١) من الآية ١١٩ سورة المائدة بحنية .

(٢) من الآية ١١٩ سورة المائدة بحنية .

(٣) من الآية ١١٩ سورة المائدة بحنية .

(٤) الآية ١٢٠ سورة المائدة بحنية .

رؤساء الكهنة يتشارون سرا في الطريقة التي يقبضون بها على عيسى بمجر أدلة للشغب .

وبينما رؤساء الكهنة يتشارون ذهب اليهم واحد من تلاميذ المسيح الاثني عشر ، وهو يهوذا الاسخريوطي ، وقال لهم : مسددا نعطوس وأنا لسلبه اليكم .

وجلست الخبة على مائدة الكفر ومدات لمسلومات .

ماوم يهوذا رؤساء الكهنة غشفتوا على ان يملطوه ثلاثين قطعة من الفضة وهي التي كانوا يسمونها بالشاكل [وتسلاوي نحو عشرين قرشا] اي ان المبلغ كله لا تتعدى قيمته ستة جنيهاً ، وكانت هذه هي قبة شراء عند حسب الشريعة اليهودية . . [شرح انجيل متى] . انتهت المؤامرة وتقرر القبض على عيسى وقتله . .

ويقال ان رئيس كهنة اليهود حلق ثيابه بعد ذلك بطريقة مسرحية في اجتماع ديني وهو يصرخ : ان عيسى قد جدد [كفر] . وكان تزيق الثياب منذ اليهود ملأة مرعية اذا سمعوا او رأوا شيئاً يتشبه احقة له . وهكذا تظاهر رئيس الكهنة بالصيرة الشديدة على مجد الله والغضب الشديد على ماظم من احقة لعقته بكلات عيسى وتصرفاته .

لم يكن للكهنة اليهود سلطة اصدار حكم بالاعداء في ذلك العين . كان ذلك من سلطة الوالي الروماني ، غير أنهم يبدو اقتنعوا الوالي الروماني ان عيسى بجبر مؤامرة لأمس الدولة الرومانية ، أو لعلمهم اقتنعوا الوالي بأن الأمر خاص بتقاليدهم ودينتهم فأثر عدم التدخل فيما اعتزموه .

وهكذا تم احكام المؤامرة . . وتقرر القبض على عيسى وصلبه .

تحدثنا الانجيل الاربعة المحترف بها من المسيحيين اليوم ان عيسى قتل مصلوباً ثم قلم من الموت ومسعد الى السماء . تتفق هذه الانجيل جميعاً على صلب عيسى وموته وقبائته من الموت . كما تتفق على طبيعة عيسى الالهية التي تشرح بطبيعته البشرية .

وسوف نورد عقيدة المسيحيين في عيسى كما يعتقدونها معظم النصارى اليوم .

ثم نورد عقيدة الاسلام في عيسى كما اثبا بها القرآن الكريم وحدث عنها علماء الشريعة والسنة ، وبعد ذلك نتحدث عما ينبغي ان يكون عليه المسلمون في علاقاتهم بالمسيحيين وعقائدهم .

يقول انجيل متى : ان عيسى الذي القبض عليه ، وأصدر مجلس السنهدريم حكمه عليه بالموت . ومداً اعضاء ذلك المجلس من رؤساء الكهنة والشيوخ والكهنة يمينونه ويعتقدون عليه ويهزأون به ، راحوا يمسكون في وجهه ويلكمونه كما راحوا يلطمونه وهم يقولون مساكين : تنبا لنا ايها المسيح من الذي ضربك . وهكذا تحققت نبوة اشعيا الذي القائل : وجهي لم استر عن العار والبصق . والقائل : بذلت خدي للناقلين [الفصل السادس والعشرون] .

وبعد ذلك القى القبض على عيسى وتقرر اعدامه .. ولما كان من عادة الرومان أن يجلدوا المحكوم عليه بالموت قبل تنفيذ الحكم عليه . لذلك أمر ميلاطس بجلد المسيح . وكانت الشريعة الموسوية تقضى ألا يزيد عدد الجلادات على أربعين جلدة . أما الرومان فكانوا لا يقفون عند هذا الحد وإنما كانوا يستمررون في جلد المحكوم عليه جلدا وحشيا متواصلا حتى يثمرا ظهره ويكاد يلفظ أنفاسه فلا يقفون منه إلا الرمق لينبتكوا من تسمد حكم الموت عليه . وهذا ما فعله الجنود بمخلصنا [انجيل متى ٢٦] . انتهت عملية الجلد فأسلم الوالي الروماني عيسى للجنود كي يصلبوه . واتخذ الجنود مادة للتسلية والترفيه ، وأشركوا معهم جسد الكنيسة الرومانية ، ونزعوا من عيسى ثيابه الملطخة بدماء جروحه بعد عملية الجلد ، والبسوه رداء قرمزيا ليسخروا منه ، فقد كان الملوك يلبسون الأردية القرمزية ، وضربوا في استحقاقهم به وسخرتهم منه ، ضحكوا له تلجأ من الشوك ووضعوه على رأسه ، ووضعوا قميصه في يمينه ، كتفها الصولجان ، ثم راحوا يمسكون في وجهه وأخذوا منه القصة التي وضعوها في يده وراحوا يضربونه بها على رأسه من فوق تاج الشوك ، فانتفخ الشوك في جبينه وأسفل الذم على وجهه ..

ثم مضوا به لصلبوه . وكانت الصلاة قد جرت على تكليف المحكوم عليه أن يحبل صليبه الى موضع الصلب أمعا في التعذيب والتشهير . [متى ٢٦] .

أخيرا بلغوا موضعا يسمى « الجلجثة » أي موضع الجمجمة ، وهو مكان خارج أسوار اورشليم .. وكانت تقاليد اليهود تقضى باعطاء كأس من الخمر المزوج بالطيب للمحكوم عليه بالموت قبل تنفيذ الحكم ، كحذر لتخفيف آلامه . ولكن الجنود خالفوا هذه التقاليد وأعطوا المسيح كأسا من الخل المزوج بالمرارة ليشرب . وبذلك تحققت النبوة القائلة منه ويجعلون في طعاسي ملقبا ، وفي حلقى يسقونني خلا . ثم مسحوا يديه وتسميه على الصليب ورفعوه وهو ملحق عليه بعد أن نزعوا ثيابه واقتسموها بينهم . وأمعنا في السخرية به صلوا معه لصين ، ثم وضعوا لافتة على رأسه قالوا فيها : « هذا هو يسوع ملك اليهود » أمعا في تعذيبه . [متى ٢٦] .

ويقول بص انجيل متى - [طبعة ١٩٧٢] في الفصل السابع والعشرين :

[حتى اذا بلغوا موضعا يسمى الجلجثة ، أي موضع الجمجمة ، أعطوه خمرا مزوجة بمرارة فاشرب ، فلما ذاقها أبى أن يشربها . ثم صلبوه واقتسموا ثيابه بينهم مقترعين عليها ، ليتم ما قيل بقم القم القاتل : « اقتسموا ثيابي بينهم وعلى ردائي لقوا قرعة » ثم جلسوا هناك يخرسونه ، ووضعوا فوق رأسه تهمة مكتوبة : « هذا هو يسوع ملك اليهود » . وقد صلبوا معه لصين ، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وكان المارة يسبونهم وهم يهزون رؤوسهم قائلين : « يا هاهنا الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام خلص نفسك . » أن كنت كنت ابن الله فاتزل عن الصليب » . وكذلك رؤساء الكهنة كانوا يهزأون به مع الكتبة والقسوس قائلين : « خلص آخرين ولا يستطيع أن يخلص نفسه ، أن كان هو ملك

اسرائيل حينئذ الان عن الصليب فنؤمن به . لقد اتكل على الله حينئذ الان
ان كان راضيا عنه ، لانه قال اتنا ابن الله » . وبذلك ايضا كان يعبره الصلص
الذان صلبا معه] .

[ومنذ الساعة السادسة صارت ظلمة على الارض كلها الى
الساعة التاسعة . وفي نحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت
عظيم قائلا : « ايلي ايلي لم شققتني » اي « الهى الهى لماذا تخليت عني ؟ »
فلما سمع ذلك بعض الراقدين هناك قالوا : « انه ينادى ايليا » . وعلى
الفرج جرى واحد منهم واخذ اسفنجة وملاها خلا ووضعها على فمصة
وسقاه . فقال الراقون : « دعه وانظر هل يلقى ايليا فيخلصه ! » . ثم صرخ
يسوع مرة اخرى بصوت عظيم واسلم الروح] .

[واذا حجاب الهيكل قد انشق نصفين من اعلاه الى اسفله ، والارض
تزلزلت والصخور تشققت ، والقبور انفتحت . وقد قام كثير من اجساد
القديسين الراقدين . وخرجوا من القبور بعد قيامته وبخلوا المدينة
المقدسة وظهروا لكثيرين] .

ويقول التفسير الملحق بهذا النص :

« وبهذا الساعة السادسة صارت ظلمة على الارض كلها الى الساعة
التاسعة . وكانت الساعة السادسة عند اليهود توازي الثانية عشرة ظهرا
حسب التوقيت الحديث ، كما كانت الساعة الثالثة توازي الساعة
الثالثة بعد الظهر . اما تلك الظلمة التي صارت على الارض كلها فهي
مظهر لمشاركة الطبيعة لربها في آلامه ، وفضيها على الذين اسلموه
لل موت غدرا وظلما . وفي نحو الساعة التاسعة ، اي الثالثة بعد الظهر ،
صرح ملاكيا بصوت عظيم قائلا باللغة الارامية « ايلي ايلي . لم شققتني » اي
« الهى الهى لماذا تخليت عني » ، وهذه هي العبارة الاولى من
الرموز الثني والعشرين . وهو لا يعنى بهذه العبارة ان الله قد تخلى عنه ،
لانه هو والله الاب واحد ، وانما يعنى ان الزمور الذي وردت في بدايته
هذه العبارة ينطبق عليه في ساعة آلامه هذه . وقد كان هذا
الرموز نبوءة مفصلة دقيقة عما يحدث له الان ، وما جاء به « كل الذين
يرون يسهرون بي ، يعمرون الشفاء وينعمون الرأس مثلين : انكل
على الرب فليحبه ، ليقضه لانه سر به .. احاطت في ثيران كثيرة .
اثوباء باثان اكتتمتني . ففروا على افواههم كاسد بفترس مزمجز .
كاله انسكت . انفصلت عظامي . صار قلبي كالشمع ، قد ذاب وسط
امعالي .. ولمسق لساني بحمكي ، والى تراب الموت نفسي . لانه
قد احاطت بي كلاب . جماعة من الاشرار اكتتمتني . ثقبوا يدي ورجلي .
احصى كل عظامي ، وهم ينظرون ويقتربون في . يقتسمون ثيابي بينهم
وعلى لساني يقتربون » . وكان ملاكيا حين صرح بهذه العبارة في قلبه
اله وخرافته مصغته الاله المسماني الذي يتم غسل الفداء ، فقد كان في
هذه اللحظة اسفقا بالحقيقة ، كما كان في الوقت نفسه الها بالحقيقة ،
وهو كائن قد توجع من الهه وتضرع الى الهه لكي لا يتخلى عنه ، بل
ان يعينه على اجتبال الهه . على ان هذا التخلي ليس معناه مفارقة
اللاهوت للباسوت ، وانما معناه انه تركه للالم ، فلم يتدخل اللاهوت

ليحفظ من الآلام الناسوت حتى يحتل المسيح في جسده الآلام كاملة . أما الواقفون هناك فقد هزأوا من ضرامته هذه ، واذ سمعوه يقول : « إيليا إيليا » أي « الهى الهى » ، أخطأوا فهم قوله ، وقالوا انه ينادى إيليا الهى ، لو لمهم انعطوا هذا الخطأ انفعلا ليعنوا في الاسماء اليه والتشهير به ، لأن استنجاهه بإيليا مضاه له ليس هو المسيح ، اذ ان المعروف لدى اليهود ان إيليا ينبئ ان ياتى قبل المسيح . وقد تظاهر احد الواقفين بالاشفاق عليه بعد ان سمع صرخته فجرى على الفور وأخذ أسفجة وبلاها خلفا ووضعها على قسبة وسقاء ، وهكذا كانت حتى أداة الاشفاق التي قدموها اليه أداة اهانة وقسوة وتمسذيب . وأما الساقون فقللوا : « دعه . ولننظر هل ياتى إيليا ليخلصه ؟ » أى اتركه ولا تقدم له أى نجدة ، بما دام يستنجد بإيليا ، فقد كفوا يريدونه ان يتعذب الى ابدى حد ، وكتبوا مطبقين الى ان أحدا لن يأتى لاتنقذه .

وبعد ذلك مباشرة ، أى في التاسعة ، وهى الثالثة بعد الظهر . صرخ مدينا مرة أخرى بصوت عظيم وأسلم الروح ، وقد خلت هذه الصرخة قبل لحظة الموت مباشرة على أن حياة مدينا كانت سليمة فيه بعد كل الآلام التي تكبدها ، وان روحه لم تقتصب اغتصابا كما يحدث لسلتر البشر عند الموت ، وإنما قد سلمها بمحض اختياره وأرادته لأبيه السماوى ، دبيعة من خطايا البشر ، فهو الكاهن الذى قدم الذبيحة ، وهو الذبيحة عينها . واذ أسلم الروح أثبت انه مات فعلا بالجسد ، لأن قصاص الخطيئة هو الموت ، وبمعير الموت لا تكون مغفرة ، فقد شهد كيمبا ثبنا لشعياة النبي بأن يجعل نفسه ذبيحة اثم . وهذا هو التعمد الذى وباه عندما أسلم الروح طوعا واختيارا . وفى ذات لحظة موت المسيح وقعت أمور خارقة للطبيعة لتدل على أن الذى مات لم يكن مجرد انسان ، وإنما كان هو الله ذاته بمعنى يفوق ادراك البشر .

١ - فقد انشق حجاب الهيكل نصفين من اعلاه الى اسفله . وكان هذا الحجاب هو الذى يفصل بين القدس وقدس الأقداس . وقد انشق في نفس اللحظة التي انفصلت فيها روح المسيح من جسده رمزا الى أن الهيكل كان بمثابة جسد المسيح . فلما تصدع الجسد الحقيقي تصدع كذلك الجسد الرمزي . وكان هذا الحجاب يسر قدس الأقداس الذى هو مقر الأسرار الإلهية عن عامة الناس ، فلما انشق أصبحت هذه الأسرار بفضل فداء السيد المسيح مكشولة للجميع . فلم يعد ثمة حجاب بين الله والناس .

٢ - والأرض تزلزلت والبحور ثلثت كظهر من مظاهر حزن الطبيعة ولوعتها على موت الهيا . واحتجاجها على الأشرار الذين سقوه كأس الموت ظلما وهو يرى .

{ الى آخر التشهير } .

هذه هى رواية المسيحيين في الصلب وتفسيرهم له . نقلناها دون تصرف من أحدث طبعة لأجيل مى ، وهى طبعة اشرف على طباعتها مجموعة من ملابهم ورجال الدين المسيحي . . لتحيى أسير في الفهم وأنسط . فكان منها ما هرمناه عليك في هذه الصفحات . .

أما جوهر مقيدتهم ولبها الذي لا اختلاف فيه .. وأصل الدستور الذي
أعطاه المجمع النيقاوى ، فقد سجله كتاب [موسنة سليمان] .

جاء فى كتاب موسنة سليمان ، لقول من نعمة الله من هرجس
النصرانى : « ان عقيدة النصرانى التى لا تختلف بظنسية لها الكنائس ،
وهى أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى ، هى الايمان بالله واحد
آب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ،
ويرب واحد ، يسوع الابن الوحيد المولود من الآب قبل الدهور من
نور الله ، اله حق من اله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر ،
الذى به كان كل شيء والذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خطايانا نزل
من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء نفساً ،
وصلب عنا على مهد ببلاطس ، وتالم وقبر ، وقلم من الأموات فى اليوم
الثالث على ما فى الكتب ، وصعد الى السماء وحظن على يمين الرب ،
وسيتاى بجسد ، ليدين الأحياء والأموات ، ولا غناء للكنة ، والايمان
بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب ، الذى هو مع الآب يسجد له .

.....

.....

جاءت عقيدة الاسلام برواية تختلف عن رواية الانجيل الحقيقى .
سواء فيما يتعلق بنهلية عيسى أو طبيعته التى كانت مثار اختلاف
بعد رفعه .

حدث القرآن الكريم ان الله تعالى لم يسمح لبني اسرائيل بقتل
عيسى أو صلبه .

وانبأ نجاه الله من كفرهم ورفعهم اليه ، فما قتلوه وما صلبوه ولكن
شبه لهم .

قال تعالى فى سورة النساء :

« وقولهم : انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه
وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ،
ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا - بل رفعه
الله اليه » [١] .

.....

.....

وقال تعالى فى سورة آل عمران :

« ان قال الله : يا عيسى : انى متوفيك ورافعك الى ، ومطهرتك من
الذين كفروا » [٢] .

(١) الآية ١٥٧ وجزء من آية ١٥٨ سورة النساء مدنية .

(٢) من الآية ٥٥ سورة آل عمران مدنية .

يتفق علماء المسلمين على ذلك ، ويختلفون في منهج التفسير على ما بأيديهم من الحق .
هناك من يؤمن بنص الآيات ولا يبحث لها عن تأكيد في أى كتاب غير القرآن .

ولكل منهج من المنهجين ما يؤيده ..

يستند أصحاب المنهج الأول الى نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن النظر في أوراق اليهود والنصارى . أن للقوم دينهم ولنا ديننا . والله يحكم بيننا يوم القيامة فيما اختلفنا فيه .

ويستند أصحاب المنهج الثانى الى أن نهى النبى عليه الصلاة والسلام كان في أول العهد بالإسلام ، وكان المسلمون على قرب عهد بالجاهلية ، فأمروا حرصا على عقيدتهم ألا يشغلوا أذهانهم بشئ من كتابهم . ولكن العلم والنظرة العلمية يفرسان على السلام أن ينقب في الأسفار القديمة والكتب عن الحق ، نادا وجده موافقا لما لديه من الحق .. استراح قلبه وازدادت طمأنينته ..

.....

.....

لا نجد عند أصحاب المنهج الأول الذى يكتب بالقرآن تلميحات دقيقة لمحاولات القبض على عيسى ورفع الى السماء لقد شبه لهم .. كيف شبه لهم .. الذى الله شبهه على غيره . أما عيسى فرفع الى السماء . هكذا لا يزيدون .

أما أصحاب المنهج الثانى فيقدمون قصة متكاملة لما وقع .. يقولون إن الله الذى شبه عيسى على يهوذا ، ويهوذا هذا هو يهوذا الاسخريوطى الذى تنول الإنجيل منه أنه هو الذى باعه لأعدائه وأرسلهم منه ودلهم عليه .. وقد كان أحد تلاميذه المحتارين في رعبهم . ولقد وافق هذا إنجيل برنابا موافقة تامة . جاء فيه :

ولما دنت الجسود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع ، سمع يسوع دنو جمع فقير ، فلذلك أتسحب الى البيت خلفا . وكان الأحد عشر نيا .

فلما رأى الله الخطر على عبده امر جبريل وميخائيل ورفائيل [اسرافيل] وأدريل [عزرائيل] سفراءه أن يأتوا يسوع من العالم ، فبهاء الملائكة الإطهار ، واحتوا يسوع من المائدة المشرفة على الجنوب . فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التى تسبح الله الى الأبد .

ودخل يهوذا بعنفا الى الغرفة التى اصعد منها يسوع ، وكان التلاميذ كلهم نياما ، فأتى الله المجيب بأمر عجيب . إذ تغير يهوذا في انطق وفي الوجه . فصار شبيها بيسوع حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع ، أما هو فعند أن ليقظنا أخذ يقتل ليظهر أين كان المعلم ، فلك تعجبنا . واجبتا أنت يا سيدى معلما . انسينا الآن .

هذه هي القصة التى أوردها إنجيل برنابا ..

وترى كلمة إنجيل برنابا في المسموح رهنبا مريسا . . نحن نصرب أن الأنجيل التي تترف بها الكنيسة أريمة . **إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا** . وتشتمل هذه الأنجيل على العقيدة المسيحية كما يؤس بها المسيحيون اليوم . فمن أين جاء هذا الإنجيل الذي يثلق في جوهرة مع عقيدة الإسلام ؟

يقول الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه « **محاضرات في النصرانية** » أن التاريخ يروى لنا أنه كتبت في العصور الأخيرة أنجيل أخرى ، تأخذ بها فرق قديمة ، وتروح عندها ، ولا تمتد كل مرة إلا في أنجيلها . وأجمع مؤرخو المسيحية على كثرة الأنجيل كثرة عظيمة ، ثم لرادت الكنيسة في أوائل القرن الثالث أو أواخر القرن الثاني الميلادي . أن تعاط على الأنجيل الصلحة في اعتقدها . فاحتلرت الأنجيل الأريمة من الأنجيل الرائجة ابن ذلك . فصارت هذه الأنجيل هي المعبرة عندهم نون يسواها . غير أن هناك أنجيلا جديدا كتبت منه البحث العلمي ، وقد حيل من الأمارات ما يدل على أنه يمتد سبيلته إلى بعد أصلي التاريخ المسيحي . وهو يشبه الأنجيل الثانية في أنه يحكى قصة المسيح من ولادته إلى انتهائه ، ويحكى معجراته ومبائله وخطبه ، ولكن الكنيسة لم تعترف به ، واتسكته ، فليس معتبرا عند المسيحيين مصدرنا دينيا ، ولكنه متداول بين علماء الأمم الأوربية . وقد اجهوا إليه مالمحت والصلبة والاعتمام ، ولم يسمح من ذلك أكثر الكنيسة له . وذلك الإنجيل هو إنجيل برنابا . ومن الحق علينا أن ندرسه . ونعرف رأى المسيحيين فيه ، وما يؤدي إليه النظر العلمي من غير افتبات عليهم ولا تهجم ، ومن غير أن نقحم أنفسنا فيها لئلا من املاء عقيدة على القوم في دينهم » .

ويقول كتاب محاضرات في النصرانية : [أن برنابا . تخلص من تلمبسي المسيحيين باتفاقهم ، ورسول من رسلم ، وركن من الأركان التي قامت عليها الدعاية للمسيحية الأولى ، وقد وجد أنجيل باسمه يدل على أنه كل من الحواريين الذين احتسمهم المسيح لفرزلى إليه ، والتقرب منه ، وملازمته في سرانه وضرائه ، ولكن كتب المسيحيين غير هذا الإنجيل لا تصده من هؤلاء الحواريين ، وأن كتبت تعد من الرسل الذين يلفون مكتبة الحواريين في هذا الدين بعد المسيح ، ومما يكن من شيء في هذا الأمر ، وهو كونه من الحواريين لو ليس منهم ، فإن برنابا حجة عند المسيحيين ، وهو من الملمين في اعتقادهم فإن صحت نسبة هذا الإنجيل إليه كان ما يشمله حجة عليهم . يدموهم إلى أن يوارثوا بين ما جاء فيه وما جاء في غيره من كتبهم ، ويؤخذ بها هو أقرب إلى الصور والتصديق ، وأصح سندا ، وأقرب بالمسيحية الأولى رهبا ، فلندرس الآن أقدم نسخة عرفت في العصر الحديث .

واتلق المؤرخون على أن أقدم نسخة عثروا عليها لهذا الإنجيل ، نسخة مكتوبة باللغة الإيطالية ، عثر عليها كريمز أحد مستشارى ملك برومبيا ، وذلك في سنة ١٧٠٩ وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار في سنة ١٧٣٨ إلى البلاط الملكي فيينا . وكتبت تلك النسخة هي الأصل لكل نسخ هذا الإنجيل في اللغة التي ترجم إليها ، ولكن في أوائل القرن الثامن عشر ، أى في زمن مقارب لظهور النسخة الإيطالية وجدت نسخة إسبانية

ترجمها المستشرق سابل الى اللغة الانجليزية ، ولكن لم يعلم من تلك النسخة وترجمتها الا شذرات اشار اليها الدكتور هوايت في احدى الخطب ، وقد قيل ان الذي ترجم النسخة الاسبانية الى تلك اللغة مسلم نقلها من الإيطالية الى الاسبانية ، ولقد رجح المحققون ان النسخة الإيطالية هي الأصل للنسخة الاسبانية ، وذلك انها قبلت نسخة تذكر ان الذي كشف النقاب عن النسخة الإيطالية التي كانت أصلا للنسخة الاسبانية راهب لاثيني اسمه غرامينو وأنه يقيم قصصها ، يقول : [انه عثر على رسالة لايرونوس وفيها رسالة يند فيها بما كتبه بولس الرسول ، ويصف تنقيده الى أنجيل برنابا ، فدفعه حب الاستطلاع الى البحث عن أنجيل برنابا ، وقد وصل الى جنتافا لما صار أحد الخريجين إلى البابا سكستس الخامس ، فاقه عثر على ذلك الأنجيل في مكتبة هذا البابا ، وطلعه ، فاعتقل الإسلام .] ويظهر ان تلك النسخة هي نفس النسخة التي عثر عليها سنة ١٧٠٩ ، ويقول في ذلك الدكتور مسعدة مترجم أنجيل برنابا الى العربية : « واذا تحررت التاريخ وجدت ان زمن البابا سكستس المذكور نحو مجيب القرن السادس عشر ، وقد علمت مما مر بك بيانه ان نوع الورق الذي مطر فيه انما هو ورق ايطالي يمكن تعيين أصله من الآثار المثبتة التي فيه ، والتي يمكن اتقاها قليلا صانعا على تاريخ النسخة الإيطالية ، والتاريخ الذي يعدسه العلماء من كل ما تقدم بولسته يتراوح بين منتصف القرن الخامس عشر والسادس عشر ، وعليه فمن الممكن ان تكون النسخة الإيطالية هي عينا التي احتلها غرامينو من مكتبة البابا على ما مررت الاشارة اليه ».

أقدم نسخة معروفة اذن هي النسخة الإيطالية التي عثر عليها في عصر القرن الثامن عشر ، ولكن وجودها يمتد الى منتصف القرن الخامس عشر او أول القرن السادس عشر ، وقد وجدت في جو مسيحي خلص ، فلا مظنة لان تكون مخولة عليهم ، فأول من عثر عليها في خزانة كتبه رئيس فيني خطير ، وكلفها راهب ، ولما تداولتها الأيدي انتقلت الى مستشار مسيحي من مستشاري ملك بروميا ، ثم آلت الى البلاط الملكي فيينا . فلا مظنة لان تكون مخولة عليهم ، وهي منسوبة لقديس من القديسين هو برنابا ولم يعرف بهذا الاسم سواء ، له مثل مكانته الدينية . ولقد كان وجود أنجيل له أمرا معروفا بين العلماء بهذا الدين . فهذا غرامينو يقول انه اطلع على رسالة لايرونوس يستنكر فيها ما كتب بولس يشهدا على استنكره بأنجيل برنابا .

ويذكر التاريخ ان هناك أنجيل كثيرة حرمت قراؤها الكنيسة — كما أشرنا من قبل — ويقول الدكتور مسعدة : يذكر التاريخ أمرا أصغره البابا جلاسيوس الأول الذي جلس على الأريكة البابوية سنة ٩٢٠ بعدد فيه أسماء الكتب المنهى من مطالعتها ، وفي عدادها كتاب يسمى أنجيل برنابا ، ويذهب بعض العلماء المدققين الى ان أمر البابا جلاسيوس المتوعد منه انما هو بريته تشوير .

ولكن التاريخ أصبح واسع من قول هؤلاء العلماء ، وان كانوا محققين ، فيأول العلماء والمؤرخين تترى في تحريم قراءة أنجيل كثيرة . فإذا فصل ذلك البابا جلاسيوس فقد سار على سنة أسلافه ، وجرب على سنته من بعده اخلاف ، وإذا صح ذلك الأمر . كما يشهد التاريخ ، وكما تنبئ عنه المقدمات

والنتائج ، فإن انجيل برنابا كلن معروفا منذ اولا قبل سنة النبي صلى الله عليه وسلم بأكثر من قرنين .

ويرى الدكتور مسعدة أن ذلك الانجيل لو كلن معروفا في ذلك الوقت لعرفه النبي صلى الله عليه وسلم واحتج به ، أو أحد منه . وهذا زعم باطل لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان آميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولهم في الملأ التي سادتها المسيحية آمدا تمكنه من المعرفة والاطلاع ، ولأن مضي قرنين من الزمان بعد التحريم يجعل التحريم ينج أثره ، فيخفى ما كلل دائما ، ويخفى ما كلن معلوما مشهورا ، فمثلان من السنين تكفى لطمس الموجود ، وتغيب آثار المفقود .

إن المسيحيين يجدون فيما انجيل عليه ذلك الانجيل اخبارا دقيقة من النوراة حتى لقد يقول الدكتور مسعدة : « انك اذا أهملت النظر في هذا الانجيل وجدت لكشفه المأيا محسا بأسفل العهد القديم لانكلا تجد له ميسلا بين طوائف النصرى الا في المراد قليلين من الإخصائين الذين جعلو حياتهم وقفا على الدين ، كالمفسرين ، حتى انه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضا من له الملم بالنوراة بقرب من الملم كاتب انجيل برنابا » .

هذه بينات شاهدة — وإن لم تبلغ اليقين والجزم — بأن نسبة هذا الانجيل إلى برنابا نسبة يرجح أن تكون صحيحة ، لأنه وجدت نسخته الأولى في جو مسيحي خالص ، وكلن معروفا قبل ذلك بقرون أن لبرنابا انجيلا ، وهو يدل على أن كاتبه على الملم فلم بالنوراة التي لا يحرمها الرجل المسيحي غير الإحصائي في علوم الدين ، بل ينذر من يعرفها من الإخصائين ، وأن برنابا كلن من الدعاة الأولين الذين عملوا في الدعوة عملا لا يقل من عمل بولس ، كب تذكر رسالة أعمال الرسل ، فلا بد أن تكون له رسالة أو انجيل .

هذه بينات تشهد بأن الانجيل الذي كشف وعرف صحيح النسبة ، ليس للمسلمين يد فيه ، وأن من ينهله للمسلمين كمن يعمل في يده شيئا يظن في عمله انتهاك له ، فيسند ملكيته إلى غيره نفيا للنسبة عن نفسه ، وهل يقل منه فلك التفتي من غير حجة ولا دليل سوى أن فيه انتهاك له ؟ . وهل يقر القضاة ذلك التفتي ؟ . قد يقول قائل : إن هذه البيئات كلها مرجحة وليست بيقينية ، ومن نقول أن أكثر مسائل التاريخ ترجيح ، وليست بيقينية جازمة . فإذا كانت نسبة انجيل برنابا إليه ظنية تقلل الاحتمال فلما تأخذ بذلك الظن ، لأنه المأخذ في أكثر مسائل التاريخ ، والاحتمال الذي لا ينشأ عن دليل . . لا يلتفت إليه ، بهوار الاحتمال الناشئ عن دليل ، ووجود ذلك الانجيل بلغة مسيحية وبين ظهرائي المسيحيين ، وفي مكتبهم الخاصة ، دليل على أن المسلمين ليسست لهم يد فيه ، ولذلك رجح جمهور المحققين أنه ليس لهم يد في انشائه ، ولكن زعم بعضهم أن أصله عربي ، وهو زعم ليس به دليل ، وعلى مدعى ذلك الدليل أن يبرره ، ويبين تاريخ تدوينه ومقدار نسبه .

ولكن الدكتور مسعدة يزعم أن أصله عربي بدليل أنه وجد على النسخة الإيطالية تمليفت عربية ، وأنه صرح في التفسير باسم النبي ، مع أن المعهود في الفهارات الرمز لا النص .

ونحن نرد الأولى بأن وجود تعليقات عربية يدل فقط على أن بعض من قرأ هذه النسخة يعرف العربية على ضعف فيها ، لأنه مستقيم التعبير أحيانا قليلة ، وسليم العبارة في أحيان كثيرة ، ومن الغريب أن يتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الاسلامي ، ولا يتخذ من مله الايطالي دليلا على أصله المسيحي .

أما كون التشهير بالنبي صلى الله عليه وسلم مريحا فيه وليس بتلميح . فنحن لا نسلم بأن كل التبشيرات في الكتب الدينية طبع ، نعم بعضها رمز وتلميح ، ولكن ليس معنى ذلك نفى التصريح ، وعلى فرض أن كل تبشير طبع لا تصريح ، فالنص الايطالي الذي بين أيدينا ترجمة لا نص ، وعلى أن يكون المترجم فهم المعنى ، فلم يسطه في لفته الطبع ، بمنطق التصريح كما يفعل المسيحيون في كثير مما ترجموا من كتب أصلها عبري .

ومن المؤكد أن ذلك الانجيل لم يكن محروما عند المسلمين في لغتهم وحضرتهم ، لأن المناظرات بينهم وبين المسيحيين كانت قائمة في كل العصور ، ولم يعرف أن أحدا احتج في مناظرة المسيحيين بهذا الانجيل ، مع أنه فيه الحجة الدافعة التي تفلح المسلم عن المسيحي ، فدعوى وجود نسخة عربية كانت في الأصل للنسخة الايطالية ، غوق أنها لا دليل عليها مطلقا ، ولو يحرق الوهم ، فهي تناقض أخبار التاريخ الاسلامي مخالفة تامة ، والا احتج المحلل عن الاسلام بها ، ففيها أقوى دليل ، والتاريخ لم يحفظ ذلك ، وهذى سجلاته ليستبسطوها لمولهم عروا فضلتها ، فلن يجدوا شيئا يمكن دمواهم ويتبسطينهم .

وانجيل برنابا هذا يمثل بقوة التصوير ، وسبو التفكير ، والحكمة الواسعة والدقة الباهرة ، والعبارة المحكية والمعنى المنسجم ، حتى أنه لو لم يكن كتاب دين لكان في الأدب والحكمة كتابا من الدرجة الأولى .

ولذا إنكره المسيحيون مع أن قوة النسبة فيه لا تقل من قوة النسبة في كتبهم الأربعة كما ذكرنا . الجواب من ذلك أن المسيحيين رفضوه لأنه خالف أنجيلهم ورسائلهم في مسائل جوهرية في العقيدة ، ولقد كما نعلم أن ظهور ذلك الانجيل كان يحل الكنيسة على التفكير من جديد في مصادر الدين ، لنعرف أي الكتب أقرب نسبا بالمسيحية الأولى ، لذلك الانجيل بما خلف ، أم الرسائل والانجيل التي توارثتها ؟ ولكم ساروا الى الرفض والانكار ، كما سبق أسلافهم الى انكاره من قبل .

والأمور التي خالف ذلك الانجيل فيها ما عليه المسيحيون الآن تنطخص في أربعة أمور :

أولها : أنه لم يعتبر المسيح ابن الله ، ولم يحتره لها ، وقد ذكر ذلك في حديثه فقال : « لها الأمراء أن الله العظيم المجيب قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم ، والآيات التي انفضها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ، مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الفخار الذي أمر الله به دائما ، مجوزين كل لحم نجس ، الذين ضل في هداهم أيضا بولس الذي لا تكلم منه إلا مع الأسى ، وهو السبب الذي لأخذه أسطر ذلك الحق الذي رآه » .

ويقول في آخر الفصل الثالث والتسعين : « احبب الكاهن ان اليهودية قد اضطربت لاياتك وتطليحك حتى انهم يجاهرون بانك انت الله . فاضطرت بسبب الشعب الى ان آتى الى هنا مع الوالى الروماني والملك هيرودس فخرجوك من كل قلنا ان نرضى بلزالة المنة التي ثارت بسببك ، لان غريفا يقول لك الله ، وآخر يقول انك ابن الله ، ويقول فريق أنك نبي . احبب يسوع : « وانت يا رئيس الكهنة ، لماذا لم تصد الفتنة ، وهل جئت انت ايضا ، وهل امست النبوات وشريعة الله نسيا منسيا ، ليتها لليهودية الشقية التي غسلها الشيطان . ولما نال يسوع هذا علا فقال : انى اشهد ايلم السماء . واشهد كل ساكن على الارض . انى برىء من كل مآل الناس عني . من انى اعظم من بشر ، لانى بشر مولود من امرأة ، وعرضة لحكم الله ، اعيش كسائر البشر ، عرضة للشقاء العلم » .

ويقول في الفصل السابع : « اجاب يسوع : وما قولكم انتم في ؟ احبب بطرس : [انت المسيح ابن الله] . فغضب حينئذ يسوع . وانفهره بغضب قائلا : اذهب . وانصرف عني . لانك انت الشيطان . وتريد ان تسيء الى » .

(الامر الثاني) ان انجيل الذي تقدم به ابراهيم الحليل عليه السلام للفداء هو اسماعيل . وليس يامسحق ، كما هو مذكور في التوراة . وكما يستند المسيحيون . وهذا نص ما جاء في انجيل برهما على لسان المسيح عليه السلام : « الحق اقول لكم انكم اذا لمعظم النظر في كلام الملاك هيريل تعلمون حيث كتبنا وفهائنا ، لان الملاك قال : يا ابراهيم . سيعلم العالم كله كيف يصحك الله . احبب ابراهيم : هاهو ذا عبد الله مستعد ان يعمل كل ما يريد الله . فكم الله حينئذ ابراهيم قائلا : اخذ ايديك بكرك واصعد الحبل لتقنيه ذبيحة » . فكيف يكون اسحق البكر . وهو لما ولد كان اسماعيل ابن مسيح مسنين .

(الامر الثالث) هو كما يقول الدكتور معاده : ان ممها او المسيح المنتظر ليس هو يسوع ، بل محمد ، وقد ذكر محمدا باللفظ الصريح المفكر في فصول ضافية الخيول ، وقال انه رسول الله . وان آدم لما طرد من الجنة رأى سطورا كتبت فوق بابها باحرف من نور « لا اله الا الله محمد رسول الله » . ولقد قال المسيح كما جاء في انجيل برهما : « ان الآيات التي يفعلها الله على يدي تظهر انى انكم ما تريد الله ، ولست احسب نفسي نظير الذي تقولون عنه لانى لست اهلا لان اهل رباطات او سيور هداء رسول الله الذي نسمونه ممها ، الذي خلق قبلى ، وسبأنى معدي بكلام الحق ، ولا يكون لعينه نهاية » وانك لجد في الفصلين الثالث والاربعين والرابع والاربعين كلاما وانما في التشهير بمحمد صلى الله عليه وسلم . لان التلاميذ ظفوا من المسيح عليه السلام ان يصرح لهم به ، فصرح بما يعلى حقيقته ، وبين ما له من شلى .

(الامر الرابع) ان هذا الانجيل يبين ان المسيح عليه السلام لم يصلب ، ولكن شبه لهم ، لى الله شبهه على يهوذا الاسخريوطى ، ويقول في ذلك برنبا : « الحق اقول ان صوت يهوذا ، ووجهه ، وشحمه بلغت من الشبه بيسوع ان اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة انه يسوع . لذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع ، معتقدين ان يسوع كان نبيا كافيا ، واسا الآيات التي فعلها بصناعة السحر ، لان يسوع قال انه لا يهوت الى وشك انقضاء العالم

لأنه سيؤخذ في ذلك الوقت من العالم « . ثم يبين أن يسوع طلب من الله أن ينزله إلى الأرض بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه ، فنزل ثلاثة أيام ، ثم يقول : « وبيع كثيرين ممن اعتقدوا أنه ملت ، وقام قائلا : [اتعجبونني كما والله كلنيين ، لأن الله وهبني أن أعيش ، حتى قبل انقضاء العالم ، كما قد قلت لكم ، والحق أقول لكم إنى لم أمت بل يهوذا الحائن . اهدروا ، لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم . ولكن كونوا شهودى نى كل إسرائيل ، وفى العالم كله — لكل الأكسباء التى رأيتموها وسمعتموها » .

هذا هو انجيل برنابا . وهذا ما خالف فيه بقية الإنجيل من مسائل جوهرية ، وفى الحق أنه خالف المسيحية القائمة فى خصائصها التى امتازت بها ، فمن تلك المسيحية امتازت بالتنطيط ، وبنوة المسيح والوحيته ، وكان هذا شعارها الذى به تعرف ، وعلامتها التى بها تتميز ، وقد خالف كل هذا . وإذا كانت مخالفته للمسيحية القائمة فى ذلك الأمر الجوهري ثابتة — وهو ينسب إلى قدسي من قدسيهم — فقد كان من الحق إذن أن يحدث ظهوره وكشفه بين ظهرائى المسيحيين وفى مكاتب من لا يهتمون بالكيد للمسيحية ، ومن لا يهتمون بأنهم لا يرجون لها وقارا — رجة فكرية عنيفة ، اهتزت بسببها المشاعر والمنازع ، فالمكيسة والمتعصبون من المسيحيين يرفضونه رفضا باتا ، ما دام قد أتى بما لا يعرفونه هم ، ولا يحنون أنفسهم بدراسته دراسة علمية ، يندمون عليها إلى نغصه جملة ، أو قبول بعضه ، ورفض بعضه الذى يثبت بالدليل أن فيه مخالفة لتعاليم المسيح الصحيحة الثابتة بمسند أقوى من مسنده ، ومنه لثرب إلى الضلل والفكر من مثله .

ولكن العلماء الذين دأبهم التنقيب والبحث عكثوا على دراسته ، وموازنة نصوصه بالتوراة والإنجيل ورسائل رسولهم ، بل القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، وانتهت دراسة طومر بأنه بعيد أن يكون قد استقى من القرآن الكريم ، ومما هو مشهور عند المسلمين .

وان أجل خفة تسدى إلى الأنيان والإنسانية ، أن تعنى الكتيبة بدراسته ونقصه ، وتأتى لنا بالبينات الدالة على هذا النقص ، وتوازن بين ما جاء فيه وما جاء فى رسائل بولس ، ليعرف القارىء والمباحث أيهما أهدى سبيلا ، ولتقرب إلى الحق ، وأوفق به اتصالا .

انتهى كلام الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .

.. .. .

.. .. .

قال الله تعالى :

« ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وإله حقيقة كتابا يكلان الطعام » . [١]

قال العلماء : سبى المسيح لمسحه الأرض ومسيحته فيها وفراره بدينه من متن ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له وانترائهم عليه وعلى أمه عليها السلام

(١) من الآية ٧٥ سورة المائدة مدنية .

ويروى العلماء من نقاء ميسى آثارا كثيرة . روى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حكى عن المسيح هذه القصة « رأى ميسى رجلا يسرق . فقال : يا فلان لسرت . قال : لا والله يا سرت . قال : آمنت بالله وكذبت بمسى » .

وهذا يدل على سجية طاهرة . . حيث حلف ذلك الرجل على ما شاعده منه عينا ، لتصوره أن أحدا لا يحلف بعظمة الله كاذبا . . فقبل كلمته ورجع على نفسه . فقال : آمنت بالله . . أى صحتك وكذبت بمسى لأنك حلفت .

ويروى عن ميسى أنه مر مع أصحابه بجثة كلب قد صعدت رائحته . . فأثر أصحابه إلى بشاعة الرائحة ، وأثار هو قذرا : « انظروا إلى بياض أسنانه » .

كان عيسى يهد أن يعلم الناس كيف يشبهون بوجوههم من القبح ويستخرجون من الكائنات أجمل ما فيها . . ولقد كانت دعوته قبة من قمم السما الروحية والمثالية النبيلة واستخراج الجمال من انقاص القبح .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الأنبياء أضواء . دينهم واحد وأسمائهم ثلثي ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فليس بيني وبينه نبي .

وقد ورد في الآثار أن عيسى سوف يزل في آخر الزمان . . ويكرم الإسلام عيسى تكريما يبقئ بيني من أولى العزم الكدار فهو يسبه رسول الله .

ويسميه كلمة الله . . لأنها إلى مريم .
ويسميه روحا منه . يقول الله تعالى :

« يا أهل الكتاب : لا تغفلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله ألا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته أنزلنا إلى مريم وروح منه ، فامنوا بأمر رسله ، ولا تقولوا : ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، إنما الله واحد سمعته أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بكفا وكبلا . أن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستنكف سيحشرهم إليه جميعا . قلنا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيمطيهم عذابا أليبا ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » . [١]

.. .. .
.. .. .

يقول ابن كثير في تفسر الأنبياء : اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء على أقوال .

قال قائلون منهم : كن فينا عبدا لله ورسوله . [آريوس] .

(١) : آيات من ١٧١ إلى ١٧٢ سورة النساء بمطبة

وقال آخرون : هو الله .

وقال آخرون : هو ابن الله .

وقد اختلفوا في نقل الإنجيل على أربعة أقوال مأهين زيادة وتقصير
وتحريف وتبديل .

وقد جسم القرآن الكريم قضية الألوهية فبين أن الله تعالى منزّه عن
الشريك والولد والشبيه والمثل والحلول والتجسد والبعد والقرب وأدراك
الأبصار .

قال تعالى في سورة الإخلاص :

« قل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له
كفوًا أحد » [١] .

وقال تعالى في سورة البقرة :

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن
فيسكون » [٢] .

وقال تعالى في سورة البقرة :

« وقالوا : اتخذ الله ولداً سبحانه ، بل له ما في السموات والأرض
كل له قانتون . يدع السماوات والأرض ، ولها غنى بما فيها
يقول له كن فيكون » [٣] .

وقال تعالى في سورة التوبة :

« وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ،
ذلك قولهم باقواهم ، يضاهون قول الذين كفروا من قبل ، قائلهم
الله أنى يؤفكون » [٤] .

يشهر النصارى هنا إلى عقائد المصريين وأضرابهم من الأمم القديمة ، وكانت
تطوى على عقائد الصلب والفداء وقيام الإله الذبيح وتكبيره من اتصاه
بموته .

وقال تعالى في سورة المائدة :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، قل : فمن يملك
الله شيئاً أن يراد أن يهلك المسيح ابن مريم ولها ومن في الأرض
جميعاً ، والله مالك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ،
والله على كل شيء قدير » [٥] .

(١) الآية الأربع لسورة الإخلاص مكة .

(٢) الآية ٥٩ سورة آل عمران مدية .

(٣) الأجزاء ١١٦ ، ١١٧ مدية .

(٤) الآية ٢٠ سورة التوبة مدية .

(٥) الآية ١٧ سورة المائدة مدية .

وقال تعالى :

« قد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا الله واحد » [١] .

هكذا حسم القرآن الكريم موقف المذاهب المتطرفة التي نشأت بمسند رمع المسيح .. وبين ان المسيح كل من هذا له ورسولا ارسله لبنى اسرائيل . والمبد والرسول كلمتان واضحتان .

لما « الكلمة » و « الروح » .. نستحق ان نبحث عن الايضاح .

يفهم المسلمون ان الكلمة هي هدى الله ومعجزته القاها الى مريم .

لما الروح فيهم المسلمون انها اقنرة للروح القدس ، وهو جبريل عليه السلام ، وقد ايد الله تعالى رسوله عيسى بالروح اى جبريل :

« ان ليذكرك بروح القدس » [٢] .

بعد استعراض عقيدة المسيحيين حول طبيعة عيسى ونهايته . وبعد بيان الحق الذي انا به الله من هذه الطبيعة والنهية ، نريد ان نعرف ما ينبغي ان يكون عليه المسلمون في علاقتهم بالمسيحيين وعقائدهم .

لورد الاسلام نصوصا صريحة خص بها ديانة المسيحيين من بين جميع الاديان بالمودة . انكر القرآن الوهية المسيح وانكر الصلب والفداء الا انه صرح في نصوصه بان النصرانية اقرب الاديان مودة الى الاسلام .

قال تعالى في سورة المائدة :

« فتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا ، اليهود والذين اتركوا ، وتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون » [٣] .

لئن الله تعالى على اتباع المسيح الذين ساروا على هديه ..

قال تعالى في سورة الحديد :

« وعلقتا في قلوب الذين اضموه راحة ورحمة ، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله » [٤] .

وليس من تناقض بين الموقنين على الاطلاق . فان انكار القرآن لالوهية المسيح .. واعترافه بمودة النصارى ، وثناءه على الذين اتبعوا عيسى .. تعنى أكثر من شيء :

● ان المسيحية دينة توحيد في اصلها ، ومن الصعب ان يهجر كل اتباعها التوحيد والله تعالى هو وحده الذي يعلم حقيقة ما نطوى عليه القلوب

(١) من الآية ٧٣ سورة المائدة مدنية .

(٢) من الآية ١١٠ سورة المائدة مدنية .

(٣) الآية ٨٢ سورة المائدة مدنية .

(٤) من الآية ٢٧ سورة الحديد مدنية .

● ان في النصارى قسيسين ورهبانا لا يستكبرون على الله .. وانما هم خاضعون له .

● ان في قلوب بعض الذين يتبعون عيسى رافة ورحمة . ولا تكذب الرافة والرحمة الا من الايمان باليوم الآخر .

وقد اصدر الله تعالى اوامره الى المسلمين ان يعاملوا اهل الكتب المسيحية عليهم معاملة كريمة ، كما كفل الاسلام حرية العقيدة لغيره من الخلق ..

قال تعالى في سورة يونس :

« ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا ، اذ انت تكذبه الناس حتى يكونوا مؤمنين » [١] .

وقال تعالى في سورة البقرة :

« لا اكراه في الدين ، قد تدين الرشد من اهل الكتاب » [٢] .

وقال تعالى في سورة آل عمران :

« قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا باننا مسلمون » [٣] .

وملاحظ ان الآيات تتحدث عن معاملة المسيحيين كالكراة . كما تتحدث عن معاملة عقائدهم كمقائد .

بالنسبة للمسيحيين كالكراة .. ترى الآيات تأمر بمبايعة المودة ، اذ يصرح النص انهم اقرب الناس مودة للذين آمنوا .. وادان كان الله تبارك وتعالى هو الذي يصرح بذلك ، فقد وجب على المسلمين ان يبايعوا النصارى ودا بود .

أما مقائدهم ففي القرآن آيات تمنع من اكراه الناس باى صورة من الصور .

نأمل قوله تعالى في سورة الكهف :

« وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » [٤] .

ذلك ان الايمان بالاكراه ليس ايمانا ، ينقصه الاختيار الحر .. وهو شرط الايمان . ولعل من تمام كمال الاسلام موقفه هذا .. ونحسب دون ان نفهم تفسيرنا على الآيات .. مستغفرين الله من الخطأ والزلل .. بحسب ان الاسلام اراد موقفه هذا ان يحث عامة ائمامه هذا العمل الطويل العريض حول مقائد الآخرين . وهو جدل لا ينتهى الى شيء ذي بال . ليعتد العلماء كيمما يشاعون في الدين ، بهذه معتهم أولا وأخيرا . لما عامة المسلمين لمعلمهم أنفسهم .

ثم ان اختلاف المقائد والفرق والمذاهب عند المسيحيين واليهود .. يجعل من جدال العامة لهذا كله ضياعا للوقت والجهد .

(١) الآية ٩٩ سورة يونس مكية .

(٢) من الآية ٢٥٦ سورة البقرة مدنية .

(٣) الآية ٦٤ سورة آل عمران مدنية .

(٤) من الآية ٢٦ سورة الكهف مكية .

ولقد بدأ الإسلام غربيا وسيعود كما بدأ غربيا . . وفي غربه الإسلام الأولى
كان المسلمون يبنون الفرد المسلم أولا . فلما تم سؤره تم بناء الدولة الإسلامية .
ولم نسمح أن أحدا منهم كان يشترك في جدال لا ينتهي حول عقائد الآخرين .
إن هداية الآخرين إلى الله عمل رائع .

ولكن هذه الهداية تستوجب هداية النفس أولا إلى الله .
ولو هدى المسلمون أنفسهم إلى الله ، لهدى الله بهم من يشاء من عباده .

.. .. .

أثبت القرآن لعبسى معجزتين لم يرد بهما خبر في الإنجيل :
معجزة كلامه وهو رضيع في المهد . ومعجزة المائدة التي أنزلت على
الحواريين من السماء . كما أثبت له كرامة انقاذه من أيدي اليهود فلم يسمح
لهم بقتله أو قتله وإنما رفع إلى السماء . .
وأوصى النبي عليه الصلاة والسلام بالمسيحيين خيرا ، وتزوج من ملوية
المسيحية .

يروى ابن جرير نقلا عن ابن عباس ، أن رجلا من بني سالم بن عوف
يقال له الحصين ، كان له ولدان مسيحيان ، فأسلم وسأل رسول الله صلى
الله عليه وسلم فيما إذا كلى يجب عليه أكراه ولديه على اعتناق الإسلام ،
وهما يرفضان كل دين غير المسيحية ، فنزل الله تعالى الآية الكريمة :

« لا أكراه في الدين » [١]

وعندما جاء رسل نجران المسيحيون إلى المدينة المنورة النبي صلى الله
عليه وسلم ، منحهم نصف مسجده ليؤدوا صلاتهم فيه .
وقام رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يوما لجنازة قبيل له إتيا جنازة يهودي .
فقال :
— البست هي نسمة .

وقال عليه الصلاة والسلام : من آذى — قلنا — يهوديا أو نصرانيا ، كنت
خصمه يوم القيامة . قد يدوم الملك على الكفر ولكنه لا يدوم على الظلم .

.. .. .
.. .. .

اختلف علماء المسلمين بعد رفع عيسى . . عن حاله بعد ذلك . .
باعتقون على أنه لم يسلب . . بل رفعه الله إليه . . وإذا كان لم يسلب ،
فما هي حاله بعد ذلك . . أم هو حي . . أم مات كما يموت الأنبياء ؟
الجمهور على أن الله سبحانه وتعالى رفع عيسى بجسمه وروحه إليه . .
واختلوا بظاهر قوله تعالى في محفل القتل : « بل رفعه الله إليه » [٢] .
بعض آكار وردت في ذلك .

[١] من الآية ٢٥٦ سورة البقرة محكمة .
[٢] من الآية ١٥٨ من سورة النساء محكمة .

وفريق آخر من المفسرين - وهم الأقل عددا - قالوا انه عاش حتى توباه
الله تعالى كما يتولى انبياءه . ورفع روحه اليه كما ترفع ارواح الانبياء
والصديقين والشهداء ، واخذوا في ذلك مظاهر قوله تعالى :

« ان قال الله : يا عيسى : اني متوفيك ورافعتك الي ، ومطهرتك من الذين
كفروا » [١] .

ونختار الرأي الاول . . لانسلفه كيمعزة خارقة مع ميلاد عيسى ، وكان
معزة خارقة ، ومع حياته وتلقاه ، وكاننا معجزتين خارقتين .

(١) من الآية ٥٥ سورة آل عمران مدنية .

محمد

[عليه الصلاة والسلام]

حين انطلقت شموع التوحيد في مشارق الأرض ومغاربها ، ولوشك الظلام الكثيف أن يطبق على القمل ، ولم يجد هناك غير قبة ظليلة بن العرياء الموحدين ، شامت رحمة الله تعالى أن تبعثه بآخر رسالات السماء إلى الأرض ..

ووسط كآبة الحياة وليلها الموحش .. جاء شمس الأنبياء ..

جاء استجابة لدعوة إبراهيم خليل الله ..

وجاء تصديقا لبشرى عيسى روح الله وكلمته ..

يصلي عليه الله عز وجل رحمة وبركة .. وتصلي عليه الملائكة قائما واستغفارا .. ويصلي عليه المؤمنون تكريما وتعظيما ..

قال الحق في سورة الأحزاب :

« ان الله وملائكته يصلون على النبي ، يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » [١] ..

ومن قبله أرسل الله تعالى أنبياءه رحمة لقومهم .. وزمائمهم .. وأرسله الله تعالى رحمة للعالمين .. جاء رحمة مطلقة لقومه وزمئته .. وإن يجيء بعدهم من الأقوام والأزمنة على تماثل الأهم وتغلي الدهور ..

قال الحق في سورة الأنبياء :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » [٢] ..

ولقد كان جوهر دعوات الأنبياء السابقين عليه هو الاسلام .. وكان عنوان رسالته هو الاسلام .. فتأمل أنت أي أمجاد أن يكون العنوان جوهر .. ويكون الجوهر صقلا بلا قناع ، وقبة بلا نهاية ..

ذلك هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ..

ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ..

(١) الآية ٥٦ مدية .

(٢) الآية ١٠٧ مكة .

ومسيد لبناء آدم ..
وعبد الله ورسوله ، ورحمة الله المهداة للبشر ..

.....

المكان : لرأس الجزيرة العربية ..
الدنيا ليل .. الهزيع الأخير من الليل ..
تصور عبد المطلب أن الشمس قد اشرقت نجاة .. واستيقظ ليجد نفسه في
جوف الليل ، وقد أطبق على الصحراء الممتدة سكوت عظيم ..
أزاح يده باب الخيمة فشاهد النجوم تلعب في السماء والدنيا ليل ..
وعاد يغلق باب الخيمة وينام ..
لم يكن يستسلم للنعاس العميق حتى عاد الحلم إلى الظهور مرة أخرى ..
كان كل شيء واضحا هذه المرة .. أن كلنا مظلما ولمره بأمر هامس ..
- أحقر زمزم ... !
سأل عبد المطلب في الحلم :
- وما زمزم ... ؟
وعاد الأمر يصدر إليه في الحلم :
أحقر زمزم ... !

لم يكن آخر صدى من أصداة الأمر يختفي ، حتى كان عبد المطلب قد انتصب
جالسا في فراشه وقلبه يهق بهنقا .. نهض عبد المطلب ، وفتح باب الخيمة ،
واندفع إلى الصحراء المريضة ..

ما معنى زمزم ؟ .. آه .. أضاع ذهنه نجاة بنور قادم من بعيد .. زمزم ..
زمزم مقر .. لابد أن تكون زمزم مقرا .. لكن لماذا يريد منه المسافر أن يحفر
مقرا ؟ .. ليس هناك غير جواب واحد من هذا السؤال .. لكي يشرب منها
الحجاج الذين يجهنون إلى الكعبة .. لكن أي قبة لهذه البئر بالذات ؟ ..
هناك أبلة كثيرة يشرب منها الحجاج ..

جلس عبد المطلب على رمال الصحراء في قلب الليل ، وراح يتأمل النجوم
ويفكر .. كانت هناك قصص تدعى تروى من البئر التي انفجرت تحت قدم
إسماعيل عليه السلام .. وكانت هناك قصة تقول أن هذه البئر قد طمرت
وانسدت بفعل الزمن .. وأن الأبلة التي حفرت لم تكن في مكان هذه البئر
المباركة ..

اشرقت الشمس على صحراء الجزيرة العربية ، فخرج عبد المطلب على
الناس وحدثهم أنه يريد أن يحفر مقرا في ذلك المكان المحدد ..

اشار بيده إلى المكان الذي حددته الرؤيا .. ورفضت قريش ..
أن المكان الذي اثار إليه يقع بين صنيين من الاصنام التي يعبدونها الناس .

سُم اسمُه « أملاف » .. وصنم اسمه « نثلة » ..

مبنا حاول عبد المطلب أن يقنع قومه بأن يسبحوا له بحفر البئر ..

كانوا يطمنون أن عبد المطلب لم يكن له مسوى ولد واحد ، هو ابن رجل
ليست له عصية ، وليس عنده أولاد يدافعون بالقوة عن رأى أبيهم ويهيمون
نصرته .. وأياها كان كل شيء فى بلاد العرب وسط القبائل يتم عن طريق
العصبيت وحماية الأهل ..

انصرف عبد المطلب وهو حزين .. وقلب أمم الكعبة ونذر لله نذر ..

قال : إذا ولد لى عشرة أبناء ، وبلغوا مبلغ الرجل وكبروا ، حتى استطاعوا
همائى فى حفر البئر ، فسوف أذبح أحدهم عند الكعبة تقضية وقربانا ..
كان قلب السباء مفتوحا لكلمته ..

لم يكن علم واحد يخفى حتى وضعت زوجة عبد المطلب ابنها الثانى .. وكل
علم يسر كانت تلد ولدا من الذكور .. حتى انتهت تسعة أعوام ، وصار
عبد المطلب لى عشرة أولاد ..

ومر الزمن ، وكبر الأولاد ، وصاروا رجالا ..

صار عبد المطلب صاحب عصية تمنع الأعداء عنه وتؤيده ..

وحفر البئر فى المكان الذى أشار إليه الهاتف .. ونهاى للتفحيط بأحد أولاده
وماء لنذره القديم ..

وأحرقت القرعة على ابنائه العشرة ، فخرج اسم أصغر ابنائه ، وكان اسمه
عبد الله ..

لم يكن اسمه يظهر حتى ثار الفساح ثورة شديدة .. لا نترك عبد الله
يذبح أبدا ..

كان عبد الله أنقى أنسان فى الجزيرة العربية كلها ..

ولم يكن قد أغضب أحدا فى حياته ، أو ربح موته على أحد ، أو كثر فى
وجه أحد .. أن ابتسامته هى أرق ابتسامة فى الجزيرة العربية ، وروحه
أسمى روح فى مكة ، وقلبه النبيل يشبه الجنة وسط صحراء القلوب القاسية
.. ولهذا ثار الناس جميعا حين جاءت عليه القرعة كى يذبح .. وقال شعوب
تريش ورؤساؤها :

— نذبح ابنانا بدلا منه ونعديه هو ..

— لن نجد أحدا فى طبيته لو لبخناه ..

— أرجىء الأمر ودعنا نستفتى المعرأة ..

واستراح عبد المطلب لهذا الضغط ، فأرجأ الأمر ، وذهب الناس يستفتون
المعرأة .. قالت المعرأة :

— كم الدنيا عندكم ؟

اجابوا : عشرة من الأبل ..

قالت : ارجعوا واحضروا عشرة من الإبل ، واجروا القرعة عليها وعلى عبد الله ، فإذا جاءت القرعة عليه فزيدوا الإبل عشرة ، وأعيدوا القرعة ، وزيدوها عشرة فمضوا حتى يرضى ربيكم ..

وتجريت القرعة على عبد الله وعشرة جمال عظيمة .. فجاءت عليه القرعة ، فراد عبد المطلب عشرة من الإبل على العشرة ، فجاءت عليه القرعة ، وظلوا يزيدون حتى وصل عدد الإبل إلى مائة .. جاءت عليها القرعة أخيراً بعد عشر مرات ..

وانتهرت دموع الناس لرحا بنجاة عبد الله ، ونبتت مائة ذبيحة عند الكعبة ، وتركت لا يعد عنها أنسان ولا سبع ..

كان عبد المطلب سعيداً بنجاة ولده عبد الله ، وقرر أن يزوجه أفضل عتاة في الجزيرة العربية .. وخرج به يومها من الكعبة إلى دار « وهب » .. وهناك خطب له آمنة بنت وهب ..

وتزوجت آمنة بنت وهب من عبد الله بن عبد المطلب ، أكرم الفتيان وأحبهم في قريش ؟

اشمعت النيران في جبال مكة كلها ليهندي إليها المسافرون والضيوف ، احتفالاً بزواج عبد الله من آمنة ، وذبحت الضاحك والطعم الناس المراء والفقراء والوحوش والطيور .. ومكث عبد الله مع زوجته آمنة شهرين اثنين في بيت العرس .. ثم أذن الرجل لخرج عبد الله إلى رحلته فمضوا مع قافلة قريش التجارية إلى الشام ..

وكان آخر ما ساعدته منه آمنة بنت وهب .. وجهه النبيل وهو يودعها قبل أن يرحل .. بعدها اختفى شبحه مع القافلة ، وذابوا في الأفق البعيد ..

وكانت آمنة بنت وهب لا تعرف أنها المرة الأخيرة .. بعد شهرين اثنين من زواجه رحل .. بعد شهر واحد من رحيله زار أخواله من قبيلة بني النجار في المدينة ، وهناك وضع جسده على الأرض ومات ..

مات عبد الله بن عبد المطلب .. وعمره خمس وعشرون سنة .. انتشر خبر موته مقبضاً ، مؤلماً كالعريق .. حتى إذا وصل الخبر إلى زوجته آمنة انكفأت العروس تبكي وتتنحب وتسال سؤالاً لم تعرف لحظتها جوابه :

— لماذا مداه الله بمائة من الإبل إذا كان قد قدر عليه الموت بعدها بقليل ؟ .. وتحرك في رحبها الجنين حركة خفيفة ..

وعادت تبكي حين فكرت أنها حسبل .. بكت مرتين .. مرة لنفسها ، ومرة لهذا الطفل الذي مات أبوه قبل أن يولد ، ولم تكن آمنة تعرف أن هذا اليتيم الذي يتحرك في بطنها يجب أن يكون يتيماً .. يجب ألا يبقى أبوه على قيد الحياة .. سيكون هذا اليتيم مسئولاً عن حمل الآم البنات والفقراء والعزائى في الأرض .. سيكون آخر أنبياء الله ورسله إلى الناس .. سيكون رحمة مهداة إلى البشر .. ولا يعرف الرحمة إلا من ذاق الحزن وعرف الآلام .. وما هو ذا الطفل يتنذى قبل أن يولد من دماء الحزن العريق النبيل ذاته ..

ومرت الأيام .. ونفذ دمع الأم ، وجفت عينها ، ولكن حزنها كان يثسبه شجرة تشوم مع الحطش ..

راح الحزين يكبر يوما بعد يوم ..

ولم تكن تحس لدهشتها بنقل لهذا الحنين الذي تحمله في بطنها .. على العكس كانت تحس انها خفيفة كهذا الحمل الذي يطوف حول الكعبة .. ولولا حزنها الذي يشدها للأرض ، ما كانت هناك امرأة أسعد بها بهذا الحمل الحفيف الذي لا تكاد تشعر به ، التثقل الكريم عند رب العالمين ..

واقترب موعد ولادتها ..

واقترب زحف أبرهة بجيشه من مكة ..

كان أبرهة حاكما حبشيا لليمن ، في الفترة التي خضعت فيها اليمن للحبشة بعد طرد الحاكم الفارسي منها ، وكان قد بنى في اليمن كنيسة جمع لها كل أسباب الوجاهة ، على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام في مكة ، وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم لهذا البيت .. فلما رأى كنيسه لا تجذب إليها لحدا من العرب ، صج عزمه على هدم الكعبة ليضع الناس أمام الأمر الواقع ، فلا يصدقون الا كنيسه .. وهكذا أعد جيشا عظيما مدججا بالسلاح ، وشق الجيش طريقه نحو الكعبة .. وكان جيش أبرهة يضم مجموعة من القبيلة العظيمة الشرسية التي يستخدمها كما تستخدم نحن الديابلات هذه الأيام ..

وتسارع العرب به ويقصده .. وعز عليهم أن يتوجه لهدم كنسبتهم ، وكان العرب وتبين ، ورغم ذلك كان البيت موضع اعتزازهم لاعتقادهم بأنهم أبناء ابراهيم واسماعيل صاحبي البيت ..

واعترض مسار الجيش رجل من أشراف أهل اليمن وبلوكهم ، اسمه ذونفر ، غدا قومه ومن أجله من سائر العرب الى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام .. فاجابه الى ذلك من أحانه .. والتقى أبرهة بهذا الجيش ، فتميزت القوة الشجاعة أمام الكثرة الكفيرة ، وانكسر ذونفر وصار أسير أبرهة ..

اعترض الجيش نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتين من العرب وسعيها عرب كثير ، فهزمهم أبرهة وأسر نفيلاً .. وقبل هذا أن يكون دليله في أرض العرب .. حتى إذا مر بالطائف خرج اليه رجال من تغيب وهم يرتعشون جينا فقالوا له : أن البيت الذي يقصده ليس عندهم ، انما هو في مكة .. وذلك لهدمهم من بيتهم الوثني الذي بنوه لصنم يقال له « اللات » ويعتوا معه من يذله على الكعبة ..

فلما كان أبرهة بين الطائف ومكة .. بحث ثلاثا من قواده حتى انتهى الى مكة ، وهناك اغتصب أموالا من قريش وغيرهم ، وكان بين ما اغتصبه من ثا بغير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يواظف كبر قريش وسيدتها وصاحب بئر زمزم ..

وأثار وجود رسول أبرهة في مكة حبيسة القيسائل ، وتحركت قريش ، وكثافة ، وهتفيل ، ومن كان بذلك الحرم لقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك ..

وانطلقت في الجزيرة العربية اخبار الجيش الذي لا يقهر .. وبعث أبرهة

رسولا الى مكة ، وهو يحمل رسالة تقول ان الملك لم يأت لحريمهم .. وانما جاء لهدم هذا البيت .. فان لم يتعرضوا له ، فلا حاجة له في ديارهم .. فاذا كان سيد البلد لا يريد الحرب فلهمجنوا به الى الملك ..

وانتقى رسول ابرهة بعبد المطلب .. وحدثه عن نوايا الملك ..

قال عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا من طاعة .. هذا بيت الله الحرام .. وبيت خليله ابراهيم عليه السلام .. فلن يئمنه منه فهو بينه وهرمه .. وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفاع عنه ..

فانطلق الرسول مع عبد المطلب الى ابرهة ..

كان عبد المطلب يؤسم الناس واجلهم واعظمهم .. وكنت له هبة واحترام عظيمين .. فلما رآه ابرهة اهنس بالاحترام نحوه .. واكرمه من ان يجلسه تحته ، وكره ان تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه .. فنزل ابرهة من سريره ، فجلس على بساط واجلس عبد المطلب الى جانبه ..

ثم قال لترجمته : قل له : ما حاجتك ؟

قال عبد المطلب : حاجتي ان يرد على الملك مني بعير اسبها لي ..

فلما قال ذلك ، تغير وجه ابرهة ، وقال لترجمته : قل له : قد كنت اُعجبني حين رايتك .. ثم قد زهدت فيك حين كلمتني .. انكلمني في مني بعير اسبها لك وتترك بيتا هو دينك ودين اهلك قد جئت لهدمه ، لا تكلمني فيه !

قال عبد المطلب : انا رب الابل .. والبيت رب يحميه ..

قال ابرهة : لن يحميه مني ..

قال عبد المطلب : أنت وذاك ..

انتهى الحوار بين عبد المطلب وابرهة .. اعطاه الملك ما اغتصبه من الابل ، وانصرف عبد المطلب الى قريش فاخبرهم الخبر .. وامرهم بالخروج من مكة ، والجهود الى كهوف الجبال ..

وخلت مكة من سكانها .. وخرجت آمنة بنت وهب الى الجبال القريبة .. وهبطت الملائكة ارض الجزيرة العربية ..

ووقف عبد المطلب وامسك بحلقة باب الكعبة .. وقسم معه نفر من قريش يدهون الله ويستنصرونه ..

وانهالت السياط على الفيلة التي تتقدم جيش ابرهة .. ولمرت الملائكة الفيلة ان تجرد في مكانها فاطاعت ..

ولداد الضرب قسوة وشدة .. وانخلت الفيلة في الارض اكثر واكثر .. كتبت قريش في مكانها وتصرخ .. بيد انها رغبت ان تتحرك حركة واحدة ..

وتسائل ابرهة : لماذا لا يتحرك الجيش ؟ .. وجاءه الجواب ان الفيلة ترفض الحركة .. ورفع ابرهة سوطه وهبط به على وجهه محدته ، ثم خرج ثورا ليرى ماذا اصاب الفيلة ..

كانت الشمس مشرقة وهو يجلس في خيمته .. فلما خرج كانت الشمس
تجنب وراء أسراب من الطيور الزاحلة ..

رفع أبرهة بصره إلى السماء ..

خيل إليه في بداية الأمر أنه يواجه سحباً سوداء .. ثم دق النظر
فاكتشف أنه أمام طيور تمد ضوء الشمس وتشبه السحابة في تكاثفها ..
« طيرا ابجيل » .. طيرا كثيرة بمتابعة ، لا تبدو لها نهاية ..

وزاد صراخ الفيلة ورعبها .. وسرى الرعب إلى الجيش كله .. وصرخ
أبرهة في جيشه أن يتجاوز الفيلة ويتقدم .. وتقدمت الطيور منفضة على
الجيش .. وانفتحت نافذة من نوافذ الجحيم ، والطيور تقصف الجيش بحجارة
من سجيل ..

نفس الحجارة التي القبت على قوم لوط ..

نفس الأثر المدور الذي يشبه اثر القنابل الذرية اليوم ..

انك تقرا في الأسفار القديمة وصفا لما أصاب جيش أبرهة ، فيخيل إليك
تلك ألام طائفة مدمرة مجهولة ، عرف العالم طرفا منها بعد أربعة عشر قرنا من
وقوع الحادث .. تقول هذه الأسفار : أن الجيش أبعد وهلك ..

انكأ جنوده عاتدين ولحمهم يتساقط في الطريق .. وأصيب أبرهة وخرجوا
به ولحمه يسقط أثلة أثلة .. كان جسده يتناثر قطعا كل قطعة منها في حجم
أثلة الاصبع الصخرة .. وانشق صدره ومات ..

أسدل الستار على الجيش .. استطلعت أسلحته الالامعة على رمال
الصحراء ، وتناثرت أجساد الجند كمصف مأكول .. قال المفسرون « المصف
المأكول » هو ورق الزرع إذا أكلته الدواب ومضفته وهضيمته ثم رمت به
من أسفل .

بعد ما يقرب من نصف قرن .. استقر في مكة سورة نفس نأ هذا كله ..
« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ .. ألم يجعل كيدهم في تضليل ؟
وأرسل عليهم طيرا أبجيل - ترميهم بحجارة من سجيل - فجعلهم
كمصف مأكول » [١] ..

.....

انكسر الجيش الذي استسلمت له الجزيرة بمجرد دخوله ..

أبوء تملأ ، وحسب رب الكعبة بيته الحرام ..

لم تكن هذه الحامية تكريما لمن يعيش في البيت وتذاك .. ولا كانت
استجابة لأداء الوثنيين وعباد الأصنام الذين يملأون مساحاته ..

حسب رب البيت بيته لحكمة عليا ..

كان سبحانه وتعالى يريد بهذا البيت أمرا .. يريد أن يحفظه ليكون مثابة
للناس وأما .. ليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة ترحف منه هرة طليقة ..

[١] سورة الفيل مكة .

نحو أرض حرة آمنة .. لا يهين عليها أحد من الحارح .. ولا تسيطر عليها
حكومة أجنبيّة قاهرة تحاصر الدعوة .. ذلك أن هناك في بيت من بيوت مكة
جنين لم يولد بعد .. أبه تحمل اسم آمنة بنت وهب .. وأبوه عند الله من
سادات العرب .. والطفل لم يولد بعد .. ولم يكلف بعد بالنبوة .. ولم يحس
الإسلام ثيلاً على كاهله ، ورحمة للعالمين ..

ثم يجرى لبرهة يريد أن يهدم هذا كله .. دون أن يعرف هذا كله ..
أن مأساة أبرهة — مع ظلمه — أنه حلول اعتراض المشيئة الإلهية ..
لمسحقة المشيئة الإلهية بمعجزة صليبة وظالمة ..

أن ظهراً كثيرة تلقى ما تحمله في أرجلها ومناقيرها من حجارة طينية ..
لا صوت في السماء غير حركة الرياح الخفيفة ..

ثم تهبط الحجارة الصغيرة لمفعمل فعمل انفجار آتاك القنابل .. أيضاً
بلا صوت .. كلّي هذا من تدبير الله لبيته ودينه وتبنيه قبل أن يعلم أحد أن نبي
الإسلام ينهياً ليحاصر قرائنه الرحيم في بطن الأم إلى حياته القاسية على ظهر
الأرض ..

.....

وسط لراح مكة بنجاحها ونجاح الكعبة ..

رأت آمنة بنت وهب حلياً ذات ليلة ..

شاهدت نفسها تقف وحدها وسط الصحراء ، وقد خرج منها نور عظيم
أضاء المشرق والمغرب ، وأمتد حتى السماء ..

واستيقظت آمنة من نومها فلم تعرف تفسير رؤياها .. ولا عاشت حتى
لتعرف تفسير رؤياها ..

مرت أيام وأيام من علم الفيل ..

ومى وقت السحر ..

من ليلة الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ..

ولدت آمنة بنت وهب طفلاً اليقيم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ،
حفيد إسماعيل بن إبراهيم بن آدم ..

.....

كانت الدنيا تموت عطشاً إليه قبل أن يولد ..

كان عطشها عظيماً إلى الحب والرحمة والعدالة ..

لقد مرت الآن ستمائة عام على ميلاد المسيح ، وابتمد المسيحيون فيها من
تعاليم الحب ، وتسلمت العقائد الوثنية إلى بعض نرفهم ، وشاب صفاء
التوحيد دمنى عظيم .. وعمر اليهود وصلياً موسى وعادوا لمعبودة المعجل
الذهب ، وفعل كل واحد منهم أن يكون له مجله الذهبى الخاص ..

وأفارت الوثنية على الأرض ، كثرت بالعقل ، ونسيت الله ، واستسلمت

لأبدى الحجالين .. وحين مدا واضعا ان قلب الدنيا قد أصيب بالجلف ، نبع
من المشرق فجأة ينبوع صاف من الايمان ارتوى منه تصف العالم ، وكانت
معجزة كبرى أن يخرج هذا الينوع الصافي من قلب أعظم الصحراوات جفلا
فى العالم .. صحراء الجزيرة العربية ..

يقول الحديث الشريف فى تصوير هذه الفترة :

« ان الله نظر الى اهل الأرض بمقتهم .. عربهم وعجمهم .. الا بقسما من
اهل الكتاب » ..

.....

الرمال تمتد صحراء حتى تلتقى بالأمم ..

خيلى مكة ..

فى خيمة خشنة منها يولد طفل يتيم سيصبح فيما بعد مسئولا عن ارواح
عظمى العالم الى الحب والعدالة والحرية والحق ..

على مسافة خطوات من مكان مولده .. تملا الاصنام ساحة البيت اعطى ،
وحول الكعبة التى بناها ابراهيم واسماعيل لتكون بيتا لله يصب فيه وحده ،
ويامن الناس فيه وحده .. فى هذا البيت القديم الذى بناه قبله آدم ..

نلا تماثيل الآلهة الحجرية والخشبية المكان كله .. دليلا يشهد على سقوط
المثل العربى واتحداره ..

وبعيدا عن مكة ، كانت يثرب ، أو المدينة التى تطلقها باليهود الذين جاءوها
هربا من اضطهاد الرومان .. وحطوا كالكذاب على أخصب الأرض واحتكروا
تجارة المتعة ، وشيدوا مستعمراتهم ، مستغلين ضعف الوجود العربى
وانفسيه على نفسه .. وهو وجود كانت لديه القدرة على التسلم والقتال
أربيعين مليا لأسباب ظهيرة ..

وكان علماء اليهود يتاجرون بكل شيء .. ابتداء من الذهب وانتهاء
بالتوراة ، فيخفون منها ثوراوا ويظهرون ثوراوا ، ويحرقون ثوراوا ليزدادوا
ثراا على ثراا .. وعلى حين كان اليهود يعبدون الذهب ، ويحبون التجارة ،
ويتلذذون فى المؤامرات .. كان العرب يعبدون الحجارة ، ويحبون القتال ،
ويتلذذون فى قرص الثمر وتطبيقه على أسرار الكعبة .. وكان العرب
يعيشون فى ظل ظلم القبائل المتخلف .. شيخ القبيلة هو السيد الحاكم ،
وقيته تتحدد بمقدار عدد رجاله وكثرتهم وقدرتهم على القتال .. ومفضل المرء
ينبع من أصله ، وعصبته هى قبيته ، ولغره بالأنساب هو كرامته ، والتمصب
لصم معين هو دينه .. وكانت كل فم الشهادة والكرم والتجدة والوفاء لا تدور
الا داخل الإطار الضيق للقبيلة الواحدة ، أو القبائل المتصالحة ..

وبعيدا عن مكان الميلاد ..

كانت «روما» تشه سرا عجوزا لم يفقد قوته .. وكان الرومانيون يعدون
القوة ..

والى الشرق من شمال بلاد العرب ، كان الفرس يعبدون النار والماء ..

ان النار تشتعل في معالدهم ليركع لها الناس ، وهناك «بحيرة ساوة» التي تعتبر في نظرهم مقدسة .. لها «كسرى» ملكهم فيجلس في ابوابه الحكم بين الناس فتضيق كلمته كالقضاء النافذ .. لا يناقشها أحد ، ولا يرد لها أحد .. وكان الفرس قد غلبوا الروم واليونان ، وحاربوا اكبر القوى الموجودة في الارض .. ورغم قوتهم فقد كانت النار التي يعبدونها تكشف عن غباء القوة حين تتخلع من عجلها وتقف عارية بغير الحق ..

كن الطلام يزداد في كل بقعة من الأرض .. وتحولت الحياة الى غابة كثيفة يضرب فيها القوى الضعيف ، وينتصر فيها الشر على الخير .. ويحصد العقل فيها طمع الحجارة ، او يحصد الخوف الذي يلقيه الطامة في قلبه ..

وفي هذا الجو .. ولد في خيام مكة طفل ..

وفي نفس اللحظة التي ولد فيها هذا الطفل العربي ، انطلقت النار المعبودة في معابد الفرس .. وجفت بحيرة ساوة المقدسة .. وسقطت أربع عشرة شرفة من قصر كسرى ، وأهس الشيطان ان ألما هتلا يمزق قلبه ..

وكان هذا كله رمزا لبداية انكسار الشر في العالم ..

وتحرير العقل الشرقي من عبادة العباد والخرافات ، الى عبادة الله وحده ..

.....

قال البوصيري :

ابن مولده عن طيب عنصره

يا طيب مبتدا منه ومشتق

يوم تفرس فيه الفرس أنهمو

قد اتفروا بحلول الجوس والتقم

ويست ايوان كسرى وهو منصدح

كشميل اصحاب كسرى غير ملتئم

والنار حامدة الانفاس من انسف

عليه .. والقهر ساهى العين من سدم

وساء ساوة ان غاضت بحيرتها

ورد واردها بالفيض حين ظبي

ويمتدح بعض العلماء ان هذا الكلام تعبير خاطيء عن فكرة صحيحة .. فان ميلاد الرسول كان حقاً ايذاناً بزوال الظلم وانتثار عهده ، مثلما كان ميلاد موسى ايذاناً بتخليص بني اسرائيل من ظلم فرعون .. غير ان رسالة محمد بن عبد الله كانت احط ثورة صرفها العالم للتحرير العقلي والمادي ، وكلى جسد القرآن اعدل رجال واجراهم على كسر شوكة الطامة ، طافية اثر طائفة ، فلما احب الناس ، بعد انطلاقهم من قيود العسف ، تصوير هذه الحقيقة ، تحيلو هذه الارهاصات واهدثوا لها الروايات الواهية ، ومحمد صلى الله عليه وسلم فنى عن هذا كله .. فان نصيبه من الواقع المشرف يزهدنا في هذه الروايات واتساعها (١) ..

(١) راجع كتاب فقه السيرة .. للاستاذ محمد المزالي .. وهو كتاب عظيم مظهر صاحبه بظم وحب ..

رغم ايئتنا ان نصيب الرسول من الواقع المشرف يتحول هذه الروايات
واشباها ، الا ان هذا لا يمنع من وقوع هذه الخوارق .

وسوف نلاحظ في مسيرة الرسول ان الخوارق احاطت بالكمية قبل مولده ،
ثم وقعت النعومات الخلقة بعد مولده ، ثم وقعت له خارقة « شق الصدر »
في طفولته ، واظله الغمام في صباه ، وصرف صرنا عن لهو التشبيب البري .
.. وظلت منابة الله عز وجل تحرس خطاه حتى نزل عليه جبريل بالوحي . .

بعدها أصبحت معجزته الاولى هي شخصيته وانكساره . . صارت بمعجزته
الكبرى بعد القرآن . . هي هذا البناء الروحي الشليخ الذي احتل في الله
ما احتل ، وقلس في الحق ما قلس ، وأدى أمثله بكمال لا يطول . .

وأجل ما يخال عن معجزات النبي بعد سئلته ، انه كان بلا معجزة . .

بلا معجزة سوى تحرير العقل

بلا خوارق سوى اطلاق الفكر . .

بلا دليل غير كلمات الله . .

لقد دعا عيسى بن مريم الى المساواة والاخوة والحب . .

أما محمد عيه الصلاة والسلام فوفق إلى تحقيق المساواة والاخوة والحب بين
المؤمنين أثناء حياته وبعد . .

وعلى حين أحياء عيسى بن مريم الموتى واخرجهم من قبورهم . . أحياء
محمد بن عبد الله الأحياء من موتهم الذي لا يسفركونه ، وذلك ألقى أنواع
الموت ، واخرجهم من ظلمة الجهل الى طائفة العلم ، ومن خبل الشرك والكفر
الى علم التوحيد . .

ولقد كان سليمان نبيا وملك يشغل الجن في خدمته ويطيرون آلاف الاميال
لاحضار عروشي أهدائه كي ينهروا بقدرته فيسلبوا . . لما محمد فكان يشغل
في خدمة الاسلام ، مدرجة جندي بسيط ووديع . . وكان يعلم انه لو غفل عن
دعوته لحظة ، لو استسلم جسده لأغواء الكناح المتصل ، فقد ضاعت فرصته
في نشر الاسلام وتبليغ أمثالي وأمثالك من عباد الله ، ما أراد الله ان يعرفوه
من جلاله ورحمته . .

.....

وفي لحظات الهول الكبرى في محاربه . . كان وقت الصلاة يجه . . فيصلي
الجيش المقاتل . . لا تنزل الملائكة لتحبيه أثناء الصلاة . . أو تمنع السهام
من ظهره خلال سجوده . . وإنما على الجيش المحارب أن يحس نفسه
بنفسه . .

فيلصل الجيش المؤمن بالتناوب . . جزء يصلي ، وجزء يقوم بمهمة الحراسة
.. ثم يتبادلان المواقع . .

قال تعالى في سورة النساء :

« وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فأتهم طائفة منهم معك وليأخذوا
أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من رءاكم . ولأت طائفة أخرى لم

يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا هزبرهم واسلحتهم ، ود الذين كفروا
أو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » [١١]

انتهى الأمر ، ولم يعد مع الجيش ملائكة لحمايته ومصره ..

هذا عهد الرشد العقلي ، عهد عناء الأنبياء والمؤمنين .. وعلى قدر المباء
فى تبليغ الإسلام ، يكون الجزء ..

ولقد كان العهد بالأنبياء قبل محمد أن يتحسروا معجزاتهم لقومهم عند بدء
الدعوة .. ليصدقهم القوم فيما جاءوا به ، أما محمد بن عبد الله فلم يقدم لقومه
غير شخصه وحده .. وصدقه وحده ..

وتد اقتضت عناية الله بهوسى أن يرفع الجبل على قومهم ليؤمنوا بالتوراه ،
أو يسقط عليهم الجبل .. وسجد اليهود وقد وضعوا خذا على الأرض وتلبوا
بما بقى من وجوههم كتلة الحجارة التى رفعتها يد الندرة الحنيفة ..

أما محمد بن عبد الله ، فلم يقهر أحدا على شيء .. آمن به من آمن عن
رضا واقتناع ، ومات معه من مات من رضا واقتناع .. ولم يحمل هو
السيف الا حين اقترب السهم المسموم من قلب الإسلام وهنده .. بعدها لم
يكن السيف فى يد الإسلام الا مشرط جراح يشق الجسم الانسقى انقادا
للجسم الانسانى ورحمة به ورغبة فى شفاؤه ..

ولقد كانت دموات الأنبياء المسلقين .. تقتضى ما وقع من المعجزات ..

ان هفولة البشرية .. وضعف العقول .. وانطلاق الحواس .. اقتضت
من رحمة الله ان يكون نوع المعجزة من نوع العصر الذى تنزل فيه ، ومن نوع
النفس الذين تبعث اليهم ، ولم يكن اهل مكة فى ذلك الوقت عقلاء أو حكماء
تكفيهم الكلمات .. واتما جاءت الصعوبة من كون الإسلام لم يبحث لهذا العصر
وحده .. انها أنزل لكل المصور .. وكان الله يعلم ان البشرية تدخل عصر
النضج العقلى .. فشامت حكيمته أن تكون أول كلمات الرسالة « اقروا » ..

وأن تكون معجزة الرسالة هى نوعية الفكر الذى تنطوى عليه ، والنظام
الذى تنبئه ، والقشريع الذى تضمنه .. والحرية التى تحيىها .. والاتمسك
الذى تنبئه ..

وليس ينقص من قدر الأنبياء قبل محمد أنهم لم يبعثوا فى مسور النضج
العقلى عليهم صلوات الله وسلامه ..

اتما راد فى قدر محمد انه بحث لعصر النضج العقلى .. وبعث قبل محىء
هذا العصر .. فاحتفل أضعاف ما احتفله الأنبياء .. وقاسى فى الله أضعاف
ما قاسوه .. وتعذب وحده بمثل ما تعذبوا جميعا ، وأحب الله مثلها أحبه
وزاد .. وكرمه الله عليهم حين لهم فى الصلاة فى رحلة الاسراء والمعراج ..
ورغم هذا كله .. خرج يوما على مصليته فوجدهم يفاضلون بين الأنبياء
ويقدسونهم عليهم فغضب وجهه وتغير ..

(١) - الآية ١٠٢ مدنية .

قال :

« لا تفضلوني على يونس بن متى » ..

وضع نكته خطأ فكريا يسير عليه المسلمون .. ليكن الأنبياء درجات عند الله ..

ليكن أن هناك أحدا أفضل من أحد .. من الذي يقرر ذلك ؟ .. لا أحد غير الله عز وجل ، أما المسلمون فليقفوا عند حدود الأدب مع الأنبياء جميعا .. وما دام الله تعالى قد صلى على رسولهم تكريما ، وأمرهم بالصلاة عليه أجلا .. وما دام شأن الرسول كشأن بقية الأنبياء ، فليصلوا على جميع الأنبياء بعير ما تفرقة ، حتى في صلاة الصلاة ..

.....
.....

تحرك الرضيع المولود في مكة في عام الفيل ..

انطلقت الأخبار لحدوث أن حبيبك قد ولد .. ولسرع عند المطلب وهبل هبله البنيوم وراح يطوف به الكعبة وهو يفكر في تسميته .. لم تعجبه كل التسميات التي عرضت لذهنه .. ولجل اختيار اسمه يوم .. ولم يستطع في اليوم الثاني أن يمتدئ لتسمية ترضيه ، وطالت حيرته مدة أيام حتى تم خنثاه صلى الله عليه وسلم .. فلما جن عليه الليل جاءه نفس الهائف القديم الذي أمره بهلر زمزم .. وهيس له أثناء نومه :

— اسمه مشتق من الحمد .. محمد .. أو أحمد ..

سألت تريش عبد المطلب :

— أي اسم ستسمى حبيبك ؟

قال [وهو يذكر كلمات الهائف] : محمد ..

كن الاسم غير مألوف في الجاهلية التي يعيش فيها الناس ، مسألوه لماذا رغبت عن أسماء آبائك وشركت أسماء أجدادك ؟

قال عبد المطلب : أردت أن يحمد الله في السماء ، وأن يحمد الله الناس في الأرض ..

لا نعرف الآن أي دواعي أملت على عبد المطلب هذه الكلمات .. أكنت هذه الكلمات تصدر من واقع الزهو العربي الشهير ؟ .. أم من واقع النخس التنقيدي ؟ .. أم من واقع الفرع العميق بالحفيد ؟ .. أم كانت الكلمات لحظة من لحظات الصفاء الروحي واستشفاف العيب ... ؟

لا نحرف ...

كل ما نعرفه أن أحدا من خلق الله .. لا يستحق أن يحمد الله الناس في الأرض ، ويحمد الله في السماء ، مثلما يستحق محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ..

.....

برز الى الوجود يتيها ، قادر أبوه الدنيا ، وهو جنين في بطن أمه ..
قال تعالى :

« كَلِمَ يَجْعَلُهُ يَتِيمًا فَتَوَّي » [١] ..

آواه الله عز وجل .. يقول الصوفية ان الاسباب البشرية ، كوجود هذه
عهد المصطب وكفائه له وابوائه اياه ، ليست غير ظاهر يمكن تجاوزه ، اما
الباطن فهو اننا امام بشر آواه ربه من طفولته ..

ورياه الحق عز وجل من طفولته .. وامتحنته باليتيم وهو جنين ، وبالجموع
وهو صبي وكهل ، وبفقدان الأم وهو طفل ، وبالموسدة وسط الجماعة ،
وبالموظة وسط النيلم ، وبالأم تعقبها الأم ..

وكان الحق بعده من طفولته لحمل آخر الرسالات ، وانتقل الامعاء ، وانفج
المشلم ..

.....

الصقة أمه مصدرها أكثر من ذي قبل ، وهي ترى انصراف المراضع المقلبات
من البادية عن حضنته ..

كانت التعاليد السائدة في مكة ان ترسل الأسر الشريفة ابناها الى البادية
لانطلاق الهواء ، وتوافر اللعب .. ولم تكن المروضات يتكلمن الا على أسماء
الأغبياء ..

ولما كان سيد الناس فقيرا .. فقد انصرفت منه المراضع ..

لنستع الآن الى مرضعته حليلة بنت أبي ذؤيب ، وهي تحكى قصتها مع
الرضيع عليه الصلاة والسلام ..

« كانت سنة جدباء ، لم تنق لنا شيئا ، لمسيرتي وزوجي في مقر منقطع
.. فعزمنا على الخروج الى مكة في رفقة نسوة من بني سعد ، نلتئمس جيبنا
الرضعاء ، ليسساعدنا أهلاهم على الحياة وضرورتها .. كانت الدابة التي
أركبها من الهزال والضعف الذي سببه عدم وجود القوت ، بحيث خشيتم أن
تقع في الطريق مخافة الحياة ، ولم نتم ليلنا كله من صبينا الذي معنا ، فقد راح
يكنى لما يجده من ألم الجوع ، ولم يكن في ثديي ولا في ثدي العائقة التي يغودها
زوجي قطرة من لبن نهديء بها جوعه . وأدركني اليأس أثناء الليل ..
وتساقطت : كيف أستطيع وأنا في تلك الحالة ، الزعم بأن في معنوري القيام
على تنشئة طفل ؟ .. وصلنا أخيرا الى مكة .. وقد سبقنا إليها النسوة ..
فأخذن الأطفال ما عدا واحدا فقط .. هو محمد .. كان والده قد مات ..
وكانت أسرته فقيرة رغم مكانتها العليا بين سادة قريش وشرعها لهم .. لذلك
أبت النسوة احتضانه .. وامتنعت أنا وزوجي من أخذه لنفس السبب ، أعني
اليتيم وعدم الثراء .. غير أنني في النهاية خجلت أن أرجع من بين صواهيبي ولم
أخذ رضيعا ، فأكون فضلا عن الفضل ، موضع سخريتهن .. ثم أتى تسمرت
بعضف يتوقد نحو هذا الطفل البارح الجمال ، الذي مسؤوليته هسواء البدة
القاسد .. »

(١) الآية ٦ سورة الفصى بمكة .

تقول هذه القصة انه في اللحظة التي رضع فيها كل الاطفال الذين ولدوا معه .. كان محمد بن عبد الله يرقد جائعا في فراشه الضيق بغير ان يرضعه احد .. شاعت حكمة عليا ان يستقبل هذا الرضيع فتيها باليتم والجوع لكي يتدوق آلام اليتامى والجائعين قبل ان يحصل اليهم الخلاص فيها بعد ..

تقول حليلة انها ناقشت مع زوجها احساسها الداخلي بانها تريد ان تعود لاخذ هذا اليتيم الرضيع .. لقبول زوجها .. لم تدرك حليلة سر رغبتها الغامضة في ان تعود .. لم تكن تعرف ان الله التي مصته في قلبها مثلها التي محبة موسى في قلب امرأة نرعون ..

واذا كان موسى قد رفض ان يرضع الا من ابيه ، بعد ان هجره الله عليه المرضع .. كي تترك عنها ولا تحزن ، فقد كان محمد بن عبد الله رضيعا وديما قلبية الوداعة .. ترفضه المرضعات ولا يرضع احدا من الخلق ..

عانت حليلة اليه واعلنت انها ستحتضنه ..

كان عليه الصلاة والسلام ومنان - وضعت يدها على صدره فانتسم .. فتح عينيه فاطلقت على الدنيا براءة آدم قبل ان يمد يده للشجرة المحرمة ..

قتلته حليلة بين عينيه وعانت به الى رحلها .. وضعت في حجرها وانقته ثديها الايمن ليرضع ما شاء الله ان يرضع .. كانت تعلم ان ثديها جاف فعالت : الهية به .. وجد فيه الرضيع - على دهشة منها - ما يشيعه .. تدفق اللبن في صدرها حنقا وحما وآية من الله .. انتهى من رضاعته لينحته ثديها الايسر فرفضه .. تاركا اياه لآخيه من الرضاعة .. واتبع ذلك دائما ..

أهي حكمة عليا هذا الاكتفاء بالقليل ... ؟

لم ان الرضيع كان يربى نفسه على الزهد والقسامة قبل ان يربي الرجال على التضحية والرجولة ..

.....

عانت حليلة الى يادية بني سعد وهي تعمل محمد بن عبد الله ..

لم تكد تعود لأرضها الجدياء ، حتى انفتح لها خير الدنيا كله .. امتلأت الأرض بالخضرة بعد الجفاف .. واثرت اشجار التمر بعد ان كفت بالبسة ، ودرت اعداء الحيوانات ، وبارك الله فيها فامتلات وسمنت ، واعطت اشجارها ما كانت تعطيه من اللبن ..

واذركت حليلة ان هذا الخير قد جاء مع مجيء هذا الطفل المبارك ، فزاد حبها له ..

ووقع زوجها أسيرا هو الآخر في حبه .. وقال يوما لزوجته :

- تعلمين والله يا حليلة .. لقد أخذت نسمة مباركة ..

وسب محمد بن عبد الله في يادية بني سعد ..

تقول حليلة :

« كان طفلا لا يبكى ولا يصرح قط ، إلا إذا تعرى » ..

« وكان إذا تلقى لثاء الليل ولم يغم ، خرجت به من الغيبة .. ووقفت معه تحت النجوم ، فيستولي عليه السرور من مشهد السماء ، حتى إذا شبيب عينا أخذ النوم بمعاقد أظفانه » ..

حين بلغ عامه الثاني فطم .. وأرادت أمه أن تأخذه .. ولكن طيبة لم تستطع أن تستلم لهذا الانفصال القاسي .. فألقت بنفسها عند قدمي الأم وأخذت تقبلها وهي تسألها أن تتركه معها حتى يشب صحيحا في هواء البادية .. ومكث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم في بادية بني سعد خمس سنوات ..

وقد وقع له في هذه السنوات الخمس ما عرف فيها بعد بحادث شق الصخر ..

.....

أصدرت المشيئة الإلهية حكمها النافذ للروح الإجين حريل ، عليه السلام ، أن يهبط إلى محمد بن عبد الله ، ويشق صدره بالامر الإلهي ، ويحصل قلبه بالرحمة ، ويجففه بالنور .. ويستخرج حظ الدنيا منه ..

.....

خرج الرسول كعادته ذات صباح مع أخيه في الرضاع يتودان القطيع إلى المراعى ، فلما انتصف النهار ، أتى أخوه يمدو ، فرما يأكها ، يسيح بأن محمدا قد قتل .. أخذ رجلا ن عليهما ثياب بيضاء ، فأضجعه وشقا صدره ..

حين جنون طيبة .. انطلقت تمدو بكل ما تملك من قوة ، يسمعها زوجها من الاتجاه الذي أرشد عنه الصبي .. فوجد محمدا جالسا على الأرض ، وجهه مفتوح ، وميناه تلسن .. قتلاه في رقة وأخذ يلاطمه .. ثم ساله ماذا حدث ... ؟

قال الصبي : بينا كنت لاحظ الأفسام وهي ترعى ، فوجدت بصورتين ناصعتي البيضاء ، ظننت أولا أنها طائر أن كبير أن ، ثم أدركت خطئي ، كانا شخصين لا أعرفهما يلبسان الأبيض ..

قال أحدهما لصاحبه مشيرا إلى : أهذا هو ؟

قال : نعم ..

جهدت من الفرع ، وأخذاني فأضجعتني وشقا صدري ، والدمما فيه شيئا ، فوجداه وطرحاه بعيدا ، ثم التأم ما شقاء ، وأخفيا كأنهما شيخان ..

روى الحديث انس .. وخرجه مسلم وأحمد ..

اختلف المفسرون أمام هذه الرمزية الصيقة ..

يؤولها معظم العلماء ..

ويرى القدماء كالقرطبي أنها معنى قوله تعالى :

« لم نشرح لك صدرك » (١) ..

ويرى المحدثون كالفرازي ، إن مشرا مبشارا كمحمد لا تدعه العناية الالهية
معرضة للوساوس الصغيرة التي تغلوش غيره من الناس ، فإذا كانت للشر
موجبات تملا الأفاق ، وكثفت منك قلوب تسرع الى التقاطها وتناثر بها ، فعلوب
النبیین - بتولى الله لها - لا تستقبل هذه التيارات ولا تهتز لها ..

ومذلك يكون جهد المرسلين هو متابعة الترقى ، لا مثلمومة التذلى .. من
عند الله بن مسعود قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ..
قلوا : وایک یا رسول الله .. قال : وایای .. الا أن الله أماتنى عليه فأسلم
.. فلا يأمرنى الا بخیر » ..

هذا موقف القدماء والمحدثين من حادث شق الصدر .. ونحسب أن لهذه
الخرافة علاقة بأعداده لرحلة الاسراء والمعراج .. وهى رحلة كان على
الرسول فيها أن يخترق عالم الفضاء ويرتاده ، ويتجاوز به الى عوالم السماء
ويرتادها .. ثم يتجاوز هذا كله مسعودا حتى يصل الى مسخرة انتهى ..
مندها جنة المأوى ..

يرجح هذا النظرى رأيا أن حادث شق الصدر تكرر مرة اخرى بالرسول
عليه الصلاة والسلام يجاوز الخمسين من عمره ..

وقد جاء حادث شق الصدر الثانى ليلة أسرى به ..

أخرج البخارى عن مالك بن سمنة ، أن رسول الله ، صلى الله عليه
وسلم ، حدثهم عن ليلة أسرى به فقال :

« بينا أنا فى العظيم - أو قال فى الحضر - مضطجع بين اثائم واليقظان
.. أتتني آت ، لشقى ما بين هذه الى هذه - يعنى شعره الى بطمه - قال :
فمستخرج قلبي ، ثم أتيت بطمت من ذهب مملوء أيسلما ، ففعلت قلبي ، ثم
حتى ، ثم أعيد ..

نحسب أن حادث شق الصدر كان تحسيدا لعممة الرسول ، وكان اعدادا
لرحلة الاسراء والمعراج .. وكان اعلانا الهيا يعنى أن هذا الصبى سيصل الى
مكة لم يبلغها من قبله أنسلن ، ولن يبلغها بعده أنسلن ..

.....

تعبرت حياة الصبى بعد حادث شق الصدر ..

صارى أفضل لوقاته تمضى فى التأمل والصمت .. وعرف وجهه لون الجذ
المنعب الذى يميز وجوه كبار الرجال ..

مرت الاموام وانتهت فترة بقاءه مع حليمة فى دابة بنى سعد .. وكانت
فترة أثرت فى وجدانه تأثيرا عميقا .. روى عن الرسول أنه كان يذكر صباه

في بنى سعد بالشجر ، ويذكر أيشارهم ونصرغتهم بالرضا .. قال صلى الله عليه وسلم :

أنا من بنى سعد ولا نفر .. كانوا إذا جاع فيهم أحد اقتسموا الطعام فيما بينهم ..

.....

ماد محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الى مكة وعمره خمس سنوات ..

عاش أباها مع أمه التي كن حزنها على أبيه قد تجسد في ملامح الوجه اثرًا رائعا لنبل الأحزان وشغلبيتها .. ورأت أمه ، وفاء لفكري أبيه الراحل ، أن تزور قبره فيثرب .. والمسلة بين مكة ويثرب أكثر من خمسمائة كيلو متر ، في صحراء قاسية ، تفلو تمايا من الحياة ..

وتقطع الصبي الرحلة الشاقة ..

بعد هذه الرحلة الشاقة .. عاش محمد بن عبد الله عند أخواله في المدينة شهرا ..

رأى الصبي الصغير البيت الذي مات فيه أبوه قبل أن يولد هو .. زار مح أمه القبر المواصل الذي دفن فيه والده .. انطبع ل قلبه أول معنى الهم وهو يرقب نموع الأم الصليحة .. واحتلت المدينة بالأمها جزءا فسيحا في قلبه .. فلما أذن الله له أن يهاجر اليها بعقيقته فبما بعد ، كان يحدث أصحابه منها وعن رحلته الأولى اليها ، حديث محب للمدينة ، محزون لمن تهوى القصور بها من أهله ..

انقضى الشهر مند أخواله ، فمحبته أمه هائدة به الى مكة ، بعد رحلة الوفاء ..

وصلا الى منتصف الطريق .. لم يعرف محمد بن عبد الله سر امتقاع وجهه الأم وشجوبه .. وهبط ملك الموت بقعة تسمى « الأبواء » .. وحين غادرها كانت أمة بنت وهب قد لحقت بالرفيق الأعلى ..

ماتت الأم وتركت وحيدها مع خادم يتقنت تلبيها على طمسل يفقد أباه وهو جنين ، ويفقد أمه وهو ابن ست سنين .. وعاد محمد بن عبد الله وحده دافع الحين ، يلكي القلب .. قد أدرك نضجه بعد أن صهرته أحزان الحياة وقسوة الهم ..

سئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بعد بعثته : ما طريقك ؟

قال : « المعرفة رأس مالي .. والعقل أصل ديني .. والحب أساسى .. وفكر الله إتيى .. والعزى رفيقى » ..

هي رقة قديمة ، بدأت من طفولته ..

سقاء الله تعالى في طفولته من أنهار الحزن الصبي ، لينبع الناس بعدها ثمار الحلاص والفرحة ..

.....

عاد الصبي الى مكة محزوناً ، صليماً ، فزاد جده عبد المطلب في حبه
واعزازه .. بعد مائتين اثنين .. حين وصل محمد بن عبد الله من عبد المطلب
الى الثامنة من عمره .. مات اكبر حصن من حصونه البشرية .. مات جده
عبد المطلب ..

وسار الصبي وراء نعش الجد صليماً كالكيار .. صليماً كالرجل .. تدوب
رمال الطريق تحت قدميه في دموعه الصابرة المحنسة الشجاعة ..
لا نعرف لماذا حدث ما حدث ..

ما هي حكمة الله تبارك وتعالى في حرمان آخر أنبيائه من عطف الأب ،
وحنان الأم ، ورعاية الجد .. أكان الله عز وجل يريد أن يمنح آخر أنبيائه هناناً
وحناً من لحنه وحده ؟ .. أكان الله يريه بالحنن ويرحف بمشاعره بالأم ؟ ..
أكان الله تعالى يصنع قلب رسوله لنفسه ... ؟

تنبأ تل الحق عز وجل لموسى :

« واصطغتك نفسي » [١] ..

وتدبيراً بشر الله تعالى موسى في التوراة ، كما بشر عيسى في الانجيل ،
نبي يأتي من بعده اسمه أهد ..

وسأل موسى ربه أن يمن عليه وعلى أمته بقراءة الفضل ، محدثه الله انه
كتب هذا الفضل لآخر أنبيائه .. أهد .. وأمته ..

إذا كان الله تعالى قد اصطغع موسى لنفسه ، ورغم ذلك لم يحرمه من حنان
الأم ، ورباه وسط أسرته ، فإنه قد شاء أن يحرم آخر رسوله من الحنان البشري
والحبيب البشري ، والمطف البشري .. ليؤثره بالحنن الإلهي ، والحب الإلهي
والمطف الإلهي ..

يقول تعالى محدثاً آخر رسوله :

« ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً
فآغنى ؟ فلما ألتيمت فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة
ربك فحدث » [٢] ..

أن معنى الآيات الحرفي ، انه كان يتيماً فآواه الله .. وكان ضالاً فهداه الله ،
وكان فقيراً فآغناه الله .. أسدأثر الله بأهوائه وهداياته وأغناؤه .. وتلك درجة
من درجات الفضل لم يبلغها من العالمين أحد ..

.....
.....

بعد وفاة جده ، كثر عليه أبو طالب ، والقي الله محبته في قلب عمه ، فتقدمه
على ابنائه وأعزّه وأكرمّه ، وكان يجلسه على فراشه الذي يمسكه أمله الكمية
ولا يجلس عليه غيره ..

[١] الآية ٢١ من سورة طه مكة .
[٢] الآيات من ٦ الى ١١ سورة النجم مكة .

وعاش محمد بن عبد الله في قلب صحراء مكة ، مستيقظ القلب ، صالح
الوحدان ، بين قوم من الفلّحين ، والسكران ، وعبدة الأصنام ، وتجار القصور
والشعراء ، والمحاربين ، وشيوخ القبائل .. وهو الصحراء يزيد حول
الخليل ، ويزيد حدة اليقظان .. كشعاع الشمس الذي ينسج الاشواق
والورود معا ..

وقد كل محمد بن عبد الله في طفولته صامتا معظم الوقت ، فلما كبرت منه
زاد صمته .. كان لا يتكلم الا اذا دعاه لحد الى الكلام .. وكل لا يشترك
الفتيان لهوهم ، مدفوعا في ذلك مهن داخلي لا كرماء .. انه يفرد بنفسه ،
يفتح عينيه على امتداد الرمال .. لسانه يتوقف وعقله يعمل .. يتأمل في
طفولته سخود قومه للأصنام ويصعب .. كيف يسجد العقولون لهجارة لا تضر
ولا تنفع ولا تتكلم ولا تحس .. ورت من جده البعبد ابراهيم كراهيته الفطرية
لعالم الأوثان والأصنام ..

واسطوى داخل اميائه على احتقار عظيم لهذه المبودات الحجرية ، احتقار
جعله لا يقتوب منها أبدا ، غير أن قلبه الكبير كان ينفوى على حزن أعظم من
حزن جده ابراهيم .. كان حزينا لأن العقل الانساني يمد الحجارة والذهب
والكبرياء وسلطان الحكم .. وكان يستمع الى الناس ، ويتأمل شئون الحياة
وأحوال الصاعقات ، ويلاحظ صراع النفس على الأنسياء الفاضلة والهلكة ،
فتزداد دهشته وبعمق حزنه ..

الا يعرف الناس أنهم سيوتون مثلما مات أبوه وأبه وجده ... ؟

لماذا يثيرون كل هذا الصراع ليكسبوا مزيدا من الضرور في النهاية ؟

وكما تقدمت به السن ، زاد زهد في الحياة ، وراحت مسيرته تضيء في
اتحاء مكة .. انه لا يشبه أحدا من الفتيان .. ورغم اعتقادنا في حزنه الذي
يعود لأسباب عامة .. لم يكن يبدى دخلة نفسه لأحد ، ولا كان يتطلع لهداية
أحد ، ولا كان يقصد إصلاح حال المجتمع أو الانسانية ، صحيح أن الاسئلة
تنور في ذهنه مضطربة ملحة تبحث عن جواب ، لكن عقله وحده لم يكن يفتدى
الى الجواب أو الخلاص ..

هذا معنى الآية :

« ووجدك ضلالا فهدي » [١] ..

الضلال هنا يعنى حيرة العقل في تفسير الشر ومقاومته ، لافتقاد السلاح
وصفر السن ..

ولئن أدى هذا كله بالحنى الى مريد من الاتواء والصمت ، والابتعاد من
هراء العالم الذي ينسكب في القتل ويشوشها .. ونجا عقله من التشويش
وظل على صفائه ..

بقى الصبي بمعده عن أئام قومه واتكناهم على الأصنام وحب السبيادة
والتفاخر .. واقترب أكثر وأكثر من جوهره النقي ، فراح يؤثر غيره على
نفسه .. واملكت رحمته الى الناس والحيوانات والطيور ..

(١) الآية ٧ سورة الضمى مكة .

كان اذا جلس يأكل وحث النعام على طعامه ترك طعامه للنعام ..
 وكان الناس يضررون الكلاب حين تقترب منهم وهم يأكلون ، أما هو فقد كان
 ينتزع اللقمة من فمه ليطعم بها الكلاب والقطط والأطفال والفقراء ، وما أكثر
 اللذائى التى يأتها جاثما ، لأنه أعطى طعامه لغيره ..
 وكل من فقيرا لابد ان يشتعل ليأكل .. واشتغل راعيا للغنم مثل داود وموسى
 وغيرهما من أتبياء الله .. كان يرعى الغنم على قراريط لاهل مكة ..
 ثم سافر على قافلة معه « أبو طالب » الى الشام وعمره ١٣ سنة .. ونظر
 على احوال الأمم الأخرى ، فزانت دهشته لهذه الجاهلية .. وكلما شاهده
 الناس يتحبطون زاد حزنه ورق قلبه واشتد تفكيره فيها ..
 وفى هذه الرحلة الى الشام ، وقع للصبي حادث ، أغلب الظن انه راده
 هيرا على حيرة ..

.....

كان الراهب « بهيرا » يقف فى نافذة الدبر الذى يعتمد فيه على مسور
 حين لفحت نظره سحابة بيضاء من الفهم ، تعرض — على خلاف العادة —
 زرقة السماء الصافية ، وكان الجو صحو ، غبدت هذه الغيمة مشيرة للدهشة
 .. وهبط نظر بهيرا من السماء الى الأرض ، فوجد السحابة التى تشبه طائرا
 أبيض ، تحلق فوق قافلة صغيرة تتجه نحو الشمال .. ولاحظ بهيرا أن
 السحابة تتبع القافلة .. وهين أناخت القافلة لتستريح أسفل الدبر ، ولجأت
 الى الظل .. تسخرت السحابة ..

دف قلب الراهب بعنف .. يعلم من أوراقه المسيحية الصادقة ن نبيا
 سيخرج الى الدنيا بعد عيسى .. نبيا تذكر الأوراق القديمة صفته وتبشر به ..
 ترك بهيرا مكانه ، وأسرع يامر بأعداد طعام كثير ، ثم أرسل الى القافلة
 رسولا يدعوها الى تناول الطعام .. عاد الرسول يرافقه المكيون الى
 بهيرا ..

قال أحدهم مازحا مع بهيرا : وحق اللات والعزى ، أن لك يا بهيرا لثنا
 اليوم .. ما كنت تصنع ههنا وقد كنا نمر بكم كثيرا .. عما شأنك اليوم ؟
 أحاب بهيرا : أنتم ضيوني اليوم .. مر على سؤال الاعرابى بفهر أن يجيبه
 عنه لو يكشف له سر هذا الكرم المفاجيء ..

ووجد ضيونه فراح يطعمهم وينامل فيهم باحثا عن العلامات التى قرأها فى
 أوراقه للرسول المنتظر ، فلم يحثر على شيء .. سألهم :

— يا معشر قريش .. هل تخلف منكم أحد من دعوتى ؟

قالوا : نعم .. تخلف منا واحد لمقط .. تركناه لعدائة منه ..

قال بهيرا : لقد دعوتكم جميعا .. ادعوه فليحضر هذا الطعام ..

قال رجل من قريش : واللات والعزى انه لنوم منا ان يتخلف محمد
 ابن عبد الله بن عبد المطلب من طعام دعينا اليه .

اعتذر عنه بأن محمدا لم يرل صبيا ، ثم قام بعضهم فأخصره .. لم يكذب
بحيرا ينظر في صفاء العينين ويغمض في حزنهما التئمت ، حتى أدرك أنه يقترب
من هدفه .. ظل صامتا يرقب محمد بن عبد الله حتى أكل القوم وتفرقوا
وجلس محمد بن عبد الله وحده ..

قام إليه بحيرا .. قال : يا غلام .. أسألك بحق اللات والعزى أن تخبرني
مما أسألك عنه ؟

كان بحيرا يريد أن يعرف موقف هذا الصبي من أولئك قومه وأصنامهم .
أحب الصبي : لا تسألني باللات والعزى شيئا .. فوالله ما أبغضت شيئا
قط بغضهم ..

قال بحيرا : أسألك إذن ماذا ؟

قال الصبي : سل ما بدا لك ..

راح محيرا يسأل الصبي عن أسرته ومكانته في قومه وأهله وآرائه ..
وكان الحوار يجري بعيدا عن القوم .. فانهم ما كانوا يسكتون عنه لو صرح
ببعضه لأصنامهم ..

وحانت الأحاديث مؤكدة ليقين الراهب أنه يجلس أمام النبي الذي بشر به
نبيه عيسى كما بشر به نبي بني إسرائيل موسى ..

بعدها ترك الصبي ونهض إلى أبي طالب ..

سأله : ما هذا الظلام منك ؟

قال أبو طالب : أنه ابني ..

قال بحيرا : ما يليق أن يكون نوه حيا ..

قال أبو طالب : أنه ابن أخي .. مات أبوه وأمه هتلى به ..

قال محيرا : صدقت .. أرجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود ..

سامع أبو طالب عن السر فيما يقوله الراهب .. أدرك الراهب أنه تحدث
لكثر مما ينبغي فقال :

سيكون له شمسان ..

لم يفصح أكثر .. ولم يحدد هذا الشأن .. ومر الحادث بهمر أن يعلق بذهن
أحد ، أو يلتفت انتباه أحد ..

لم تترك هذه القصة أثرا في القافلة أو في النبي ، عليه الصلاة والسلام ،
اعتبرت القفلة أن تكريم الراهب لمحمد بن عبد الله وتنبؤه له بشأن عظيم ..
هيا من قبيل المجاملة التي تنال على موائد الطعام ، حين يستدح الضيوف
تكريم مضيقهم ، ويستدح الداعي أخلاق متبائهم .. وينبأ لهم بالمجاء
.. لم تحلف القصة أثرا .. فلا محمد ، عليه الصلاة والسلام ، فهم من كلام
الراهب العليخ شيئا محمدا ، ولا أصحاب القفلة تناقلوا هذا الحديث أو
اشاعروه ..

طوى الحادث وأن زاد حيرة محمد ..

ما الذى بينه وبين اليهود ليحذر الراهب منه منهم ... ؟

ثم ما هو هذا الشئ الذى تشابه الراهب ... ؟

ما هى ملائكة هذا كله بأحزانه العميقة وحيرته ... ؟

طاشت الأسئلة قليلا حول ذهنه ثم غاصت خارج منطقة الرؤية ..

وعادت القافلة مودة طبيعية الى مكة ..

وعند محمد بن عبد الله الى انفراده بنفسه ، وتأمله فى احوال الكون ،
وشغفه لكسب لقمة عيشه ، وحديته العفوية للناس ، وإشاره لهم على
نفسه ، عاد الى هذا كله فى صمت وسكينة ..

يوما بعد يوم ..

كان يفيض بالثقة والرحمة والأمانة والحب .. ملثما يفيض المصباح بالبور
.. أشتهر بين قومه بالأمانة والصدق . ولم يكن صدقه أو أمانته موضع
شك أو بحث لدى أهل مكة .. وحين جاء رسائله بعد ذلك بسنوات طوال
ووقف ضده المجتمع كله ، وانقلب عليه المسلم من قومه .. لم يجرؤ أحدهم أن
يسأل من أمانته وصدقته .. انما ادعوا انه مسجون أو نقد وعيه .. وفى السنة
الثلاثة عشرة من النبوة .. حين تم الالتقى على قتله وفريق دمه بين القاتل
.. وحاصروا بيته لاعتقاله ، فى هذه الساعات الحرجة .. قرر الهجرة ..
ولكنه أوصى على بن أبى طالب — ابن عمه — أن يبقى فى بيته ليرد جميع
الأملاك — التى أودعها عنده أعداؤه وأصدقائه الى أصحابها فى الصباح ..
فقابل كيف استأمنه الأعداء على أموالهم ، واثنين من حفاظه عليها ..

.....

يوما بعد يوم .. كانت سنة تزيد .. وكان نقاره وصدقته يزيدان .. وفى بحر
الصمت الموحشة ، حيث نشر محمد بن عبد الله أشرافه البيضاء ، كان لابد أن
يلتقى بالعقيدة الأزلية التى التقى بها قلبه كل أنبياء الله ورسوله .. وأدرك
محمد بن عبد الله أن لهذا الكون العظيم ربا هو خالقه .. ربا واحدا لا اله غيره
.. وعند قلبه رب العالمين قبل أن يبعثه رب العالمين الى الناس .. وحيل بينه
وبين متع الشياطين البريء أو لهوه المصادى الذى لا يعتبر خطيئة فى سن
الشباب .. وعلى حين كان شياطين مكة يقاهون بعدد الكؤوس التى شربوها
من الخمر ، وعدد أبيات الشعر التى قالوها فى النساء .. كان محمد بن عبد الله
قد عثر على نفسه ، فى كهف هادىء فى جبل عظيم ..

كانت أصلى أوقاته هى التى يقضيها فى هذا الكهف ..

كان يغوص بأعماق قلبه فى الكون ، ويفكر فى عظمة أسراره ورحمة خالقه
وجلاله .. وفى عليه الخامس والعشرين .. تعرف بألم المؤمنين زوجته الأولى
خديجة بنت خويلد .. كانت هى فى الأربعين من عمرها .. كانت سيدة ذات
شرف ومال ، تعمل فى التجارة .. ملأت عنها زوجها وطبع فيها الطامعون
لثروتها ، وكانت تبحت عن رجل يخرج بماله الى الشام لتجسرا .. وبلغت
أسماعها أخبار عديدة عن صدقه وأمانته ونقاته .. فأرسلت اليه صتاجرة ،
وخرج فى رحلته الثانية الى الشام وعمره ٢٥ سنة ، بارك الله فى رحلته فعاد

بربح مضامف لفديجة ، بما تطلع الى مالها ولا الى جمالها ، ووقف بكرامته
واستغفاته موقف النمل والجلوز .. وامتلا قلب السيدة الكريمة بحبه ..
عرضت عليه الزواج فقبل .. ووقف معه يخطب في حفل زواجه فقال :

— ان محمدا لا يؤزن به فتى من قريش الا رجح به ثرها ونسلا .. ولضلا
.. وعقلا .. وان كنن في المال فقيرا ، فاعلمنا المال خليل زائل ، ومارية
مسترجعة ..

واناح له الزواج فرصة اكبر للتأمل والافراد والتصد ..
ومضت به الحياة تزيد نبيله رسوخا ، وقضيه انتشارا ، كما تزيد في منزلته
واغترابه .. كان منعزلا بقلبه من دنيا الصراع المحموم حول ماديات الحياة ..
وكان مختريا بعقله السالى فوق دوامات الهراء الجسماعى والظلام الوثنى
السائد .. وراحت منه تقترب من الأربعين ..

وبعد ان كان يحس الوحدة وسط الناس .. صار يغلطها بميدا عن الناس
.. ان تأملاته المنسية تباعد بينه وبين قومه ..

ويظل دائب البحث حتى يهديه الله الى غار حراء ..
ويحس أن مرحه باكتشاف الغار صالحة ..

اخيرا يستطيع أن يخرج من مكة .. يسير اميالا قليلة ثم يبدأ الصعود ..
يظل يصعد ويصعد ..

كلما ارتقى الجبل ، انفسح المجال ، ورقى الهواء ، وانكشف الحجاب ،
وامتدت الرؤية ، وسقط الحس ، وبقي حدس السنوات ..
لخيرا يدخل الغار ..

الصمت نائم .. والقلب يقظ .. ولا شيء يمترض الرؤية الداخلية المبيقة
.. ومع المنزلة والسهر تولد الافكار وتنتشر اجيحتها وتحلق أولا في فضاء
الغار ثم تطلق .. لا شيء يعدها او يحوق انطلاقها الحر ..

لا نعرف أى افكار كانت تمر ذهن أعظم الرجال على الأرض وهو يجلس في
غار حراء شهورا متصلة ..

فيم كان يفكر ؟

ماذا كان يخلقه ؟

أية أحلام كانت تمر ذهنه ، وأى مشاعر كانت تولد في قلبه ... ؟

ملا كان احساس الحجارة به وهو يجلس سالكا يتعنت ويتعمد ... ؟

اكانت ذرات الحجارة الدائرة تتجاوب مع مسيحه الصلابة مثلما كانت
ذرات الحجارة تتجاوب مع قراءة داود لكتابه « الربور » ... ؟

لا نعرف على وجه التحديد نوع الميلاد الذي كان يقع في نفسه ، صلى الله
عليه وسلم .. كل ما نعرفه انه لم يكن يفكر في النبوة ، ولا كان يسمى لهداية
الناس .. ولا كنن يتشوف لشيء مما يتشوف له الصوفية ..

كان صوليا .. قبل معقنه الى الناس ..
 ثم اختاره الحق نبيا ، لهجر عزلته ونزل الى الميدان وأمسك السلاح
 ودافع عن الحق حتى أسلم نفسه ليارثه ..
 في البدء يولد التصوف .. وبعده يولد الجهاد في سبيل الله ..
 ليس التصوف غاية أو نتيجة كما يعتقد الناس اليوم ، انما هو بداية طريق
 طويل ، ينتهي بصاحبه الى استخدام السلاح دفاعا عن الانسان وكرامته ..

.....

كان يجلس في غار هراء يوما ، حين فوجئ بجبريل يقف على باب الغار
 .. احتضنه الملك وضمه الى صدره بشدة وهو يأمره قتلًا :
 - اقرأ ..

قال محمد بن عبد الله : ما انا بقارئ ..
 يريد ان يقول انه لا يعرف القراءة ولا الكتابة .. كيف يقرأ إذن ؟
 عاد الملك يخسه لسمعه ضبا شديدا حتى ظن الرسول انه الموت ، ثم املكته
 الروح الامين وهو يأمره : اقرأ ..
 وعذ يرد قتلًا : ما انا بقارئ ..
 ويعود الملك الكريم لاحتمائه ويعود لأمره ان اقرأ ..
 وبجيب يرتجف : ماذا اقرأ ؟

وتلا جبريل ، عليه السلام ، اول آيات من آخر رسالات السماء الى
 الأرض :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك
 الاكرم • الذي علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم » [١] ..
 بعدها اختفى الروح الامين كما ظهر فجأة ..

أحسن الرسول نفس الخوف الذي أحسه موسى وهو يستمع الى النداء
 الاقدس في وادي طوى ..

وبثما جرى موسى فرحا ، هرع محمد بن عبد الله مائدا الى بيته ..
 هبط الى الصحراء ، وسار مائدا الى بيته وزوجته ..
 جسده يرتجف بعنف .. وثمة احساس بالبرد والخوف والقلق .. سيكون
 هذا اتصالا بالحن وعالم الكهانة ؟ .. سيكون قد خولط نصار يسمعون أصواتا
 ويرى وجوها لا وجود لها في الحقيقة ... ؟
 خشي الرسول على نفسه لبخسه للكهنة والكهان .. ودخل بيته
 يرتحف ..

(١) الآية من ١ الى ٥ من سورة الطلق مكة .

قال لزوجته : زملوني .. زملوني ..

وبدأت تغطيه باغطية الصوف وتبسط العرق عن جبينه ..

عوجت زوجته بشعوب وجهه وارتمائه ..

سألها : اي خديجة ، مالي ..

ثم حدثها الخبر .. وانهى كلامه بقوله لقد خشيت على نفسي ..

وأتركت خديجة أنها أمام أمر هائل .. أمام بشاراة لا تدري كنتها على وجه التحديد .. بشاراة ليس فيها ما يستوجب خوفه على نفسه أو تعلقه على منله .. قالت خديجة رداً على تفوهه :

— أبشر .. هو الله لا يخزيك الله أبداً ، انك لتصل الرحم ، وتصديق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ..

رغم هذه الكلمات المطمئنة ، لم يزايل الرسول قلقه .. وانطلقت به خديجة الى ورقة بن نوفل .. وهو ابن عمها .. وكان قد تفرغ الى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، ويعرف أوراق التوراة والانجيل .. وكان يصرفه قد ذهب لشيخوخته ..

قالت له خديجة : اي ابن عم .. اسمع من ابن أخيك ..

قال ورقة : يا ابن أخي ما ترى ؟

فمن عليه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قصته كريمة ..

قال ورقة وهو يرفع وجهه يفيض بالدهشة :

— هذا هو الناموس الذي اتزله الله على موسى .. يا ليتني فيها جذع .. ادرك ورقة بن نوفل .. كعبالهم .. انه أمام النبي الذي بشرت به التوراة والانجيل ..

عاد بقول بعد لحظة صمت : ليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك ..

تسأل الرسول : أو مخرجي هم ؟

قال : نعم ، لم يأت رجل ببطل ما جنت به الا هودي .. وان يدركني يومك اتصرك نصراً مؤزراً ..

.....

انتهى الأمر وبدأ بيت الاسلام ..

نفذت مشيئة الله تعالى ، وتم اختيار آخر تنبياء الله في الارض ، واول المسلمين ..

.....

من حق القاريء ان يسأل :

• ما هو الاسلام في جوهره ؟

وإذا كان محمد آخر أنبياء الله في الأرض .. وكنا نعرف أن أنبياء الله جميعا مسلمون .. فكيف يسبقونه بالإسلام ويكون هو أول المسلمين ؟

.....

لا يختلف الإسلام الذي جاء به محمد في مضمونه عن الإسلام الذي جاء به نوح أو موسى أو عيسى أو أي نبي آخر في مضمونه ..

يختلف الشكل ، وإن ظل المضمون على نفس سبيل التوحيد للواحد الآخر .. وقد اختلف شكل الإسلام الذي جاء به محمد ، صلى الله عليه وسلم ، لسبب هلم ..

إن هذا الإسلام رسالة عالمية وإنسانية وخالدة ..

لهست مقصورة على العرب دون المعجم ..

ولمست مقصورة على قبيلة أو شعب أو أرض أو بيئة أو زمن .. إنما هي لكل إنسان ..

بتحديد أكثر ..

هي دعوة للعقل الإنساني .. إنما كان وحشا كان .. بلا تيد على المكان أو على الزمن .. هذه العالمية لم تكن شيئا معروفا في الرسائل الإلهية القديمة ، كانت كل رسالة توجه لشعب معين في زمن معين ..

ولهذا السبب كانت المعجزات الباهرة الوقتية تسند الرسائل القديمة .. فلما جاء الإسلام دعوة للعقل الإنساني بالانطلاق ، لم يعد هناك مبرر للمعجزات الباهرة ، تكفي كلمة واحدة لتبدأ دعوة العقل الإنساني إلى المسابقة .. تكفي كلمة اقرا ..

ولتكن هذه القراءة باسم الله .. باسم ربك الذي خلق .. خلق الإنسان من علق .. فأهل بداية النشأة وفروة الوصول .. هنا تكمن المعجزة الحقيقية أن كنت تبحث عن معجزة حقيقية .. اقرا وربك الأكرم .. هو الأكرم الذي أنعم ابتداء بالخلق والرزق ، وحف انتهاء بالرحمة واللفظ ، وهو الأكرم الذي علم بالقلم .. علم الإنسان ما لم يعلم ..

هذا هو الإسلام في جوهره .. دعوة إلى القراءة .. وهي دعوة تؤدي بالضرورة إلى العلم ..

يقول الله تعالى في سورة [فاطر] :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » [١] ..

وخشية الله لا تتبع إلا من العلم ، يستحيل أن يلد الجهل بأي صورة من صورته أي خشية من أي نوع .. والعلم في الإسلام إذن ضرورة أساسية .. وليس ثرفا أو حلية .. ولقد عز المسلمون وحكموا الأرض يوم فهموا الإسلام على حقيقته .. فلما سقط منهم هذا الفهم ، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه في الجاهلية .. عادوا لا يملكون من أمورهم شيئا ، فضلا عن أمور العلم ..

(١) من الآية ٢٨ سورة ناطر مكة .

والعلم في الإسلام هدف أصيل في خلق الوجود .. أن قصة آدم وهواء ، كما أنزلت في القرآن ، ليست هي قصة الخطيئة والاكل من الشجرة بحسب .. أنها هي قصة لها أبعادها البعيدة ومستوياتها المختلفة ، وكلها غصت في أبعادها تكشف لك الرموز من معانٍ أخطر .. أن حوار الملائكة الداخلي عن سر اختيار آدم لعبارة الأرض والخلافة فيها ، وتعليم آدم الأسماء كلها ، وعرض هذه الأسماء على الملائكة ، وعدم معرفتهم لها ، واختيار آدم ، عليه السلام ، لهم بما يعرفه ولا يعرفونه ، وإدراك الملائكة سر اختيار آدم وفريقه لعبارة الأرض واستثمارها .. هذا كله يجعل الهدف من خلق النوع الإنساني هو العلم أو المعرفة بمعناها اعلم .. يؤكد هذه النظرة قوله تعالى في سورة [الداريت] :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » [١] ..

كيف نفهمها اليوم ؟ .. وكيف فهمها الجيل الأول من المسلمين اصحاب الرسول واتباعه وجنوده ... ؟

نفهمها اليوم فهمًا سطحيًا ، فنعتقد أن كلمة « ليعبدون » [٢] .. تعني طقوس العبادة ، ورسومها الظاهرة كالإكثار بالضيافاتين ، والصلاة والصوم والحج والزكاة .. ولا بأس أن يكون المصلون الصائمون مستعبدون في أوطانهم ، محتجزون في ديارهم ، يعيشون حالة على أنكار الغرب ومناعمته ، وينسولون علومه وفنونه ، ويستولكون منتجاته ولا ينتجون شيئاً .. لا يوجهون مصير الحياة لخير ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، شأنهم شأن ريشة تلعب بها الأمواج .. أما اللهم القديم الأصيل لكلمة .. فكان كالدالي :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » [٢] ..

قراها ابن عباس .. الا ليعرفون ..

تأمل أنت خطورة الفارق بين طقوس العبادة وشكلياتها ، ومعها العبد في المعرفة التي تؤدي لحسبية الله .. كان المسلم الأول يؤمن أن الله خلقه ليعرف .. وكان طموح المسلمين الأوائل مثيرا للدهشة .. لقد انطلقوا لتحرير العالم كله .. يد تمسك القرآن ، ويد تمسك السيف لتحطيم أغلال الراسخين في الأغلال ..

ثم سقط من الإسلام جوهر العلم ، فسقط من المسلمين مقدمهم في قيادة الحياة وتوجيهها ، وصاحوا لذيل القافلة البشرية ..

يقول تعالى في سورة آل عمران :

« شهد الله أنه لا اله الا هو ، والملائكة وأولوا العلم ، قائما بالقسط ،

لا اله الا هو العزيز الحكيم . أن الدين عند الله الإسلام » [٣] ..

بعد شهادة الله .. وشهادة الملائكة .. جاءت شهادة العلماء مباشرة ، فأي تكريم للعلم أعظم من هذا التكريم ... ؟

١ الآية ٥٦ من سورة الداريت مكية .

(٢) نفس الآية .

(٣) نفس الآية .

(٤) الآية ١٨ وجزء من ١٩ سورة آل عمران مدنية .

والعلم في الإسلام يختلف من العلم في الحضارة الغربية ..

صحيح أن الإسلام هو المسئول عن نشوء النظرة العلمية والمنهج التجريبي .. فعلى أساس هذا المنهج .. قامت الحضارة الأوروبية بكل ما فيها من صناعة واختراع واكتشاف .. والمنهج التجريبي هو منهج الاستقراء .. هو منهج يتتبع الجزئيات من طريق التجربة عنها يمكن أن يخضع للتجربة .. ومن طريق الملاحظة فيما لا يخضع للتجربة ، لو من طريق الرياضة الممت فيها يحتاج إلى الرياضة المحنة .. وذلك بهدف اكتشاف القوانين الحاكمة للمواد ..

وهذا المنهج بحاله الطبيعة .. وأدواته الحس والمقل .. وبين هذا المنهج بوجوده الأوربي إلى روحه ليس يكون .. وهو يعترف بأنه مدين في منهجه للمسلمين والحضارة الإسلامية ..

يتحدث الأستاذ بريغولت في كتابه « أبناء الإنسانية » ، عن أصول الحضارة العربية ، فيقول : « أن روجر بيكون فرس اللغاة العربية ، والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد ، على خلفاء عطية العرب في الأندلس .. وليس لروجر بيكون ولا لفرنسيس بيكون الحق في أن يمسب اليها الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، وهو لم يجعل قط من التصريح بأن نظم محاصره اللغة العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة » ..

هذه شهادة علماء الغرب المتصلين .. يعترف بها عالم غربي بنصف ، وسوقها إلى المهزومين روحيا أمام الغرب ، ليعرفوا أنهم هزموا بجزء من سلاحهم الذي لقوه من أيديهم وهو الإسلام ..

وإذا كان سر نهضة الغرب اليوم ، وتفوقه على الشرق ، يعود لأخذه بأسباب المنهج التجريبي وهو منهج إسلامي .. فإن سر يؤس العرب وخيرته وتعاونه وقلته ، يرجع إلى أنه لم يربط هذا المنهج بالله كما ينبغي ..

إن المنهج التجريبي ، كما أخذه الغرب ، يبدأ من الطبيعة وينتهي إليها بعملية أن دائرة الأبحاث هي المادة . وأدوات البحث هي التجربة والملاحظة والاستقراء .. وليس بعد الطبيعة إلا الموت .. والموت سر مجهول ، ومقاومته مستحيلة ، ونحن لا نعرف ماذا يكون بعد الموت .. لا نفكر شيئا عن الروح .. لا علاقة بين العلم والأخلاق .. لا جواب للعلم من هدف هذه الحياة .. نحن ندرس الظواهر ونصل إلى قوانينها فنحسب .. هذه نظرة الغرب إلى العلم .. أداة وسيلة لحكم الطبيعة والاتصاف عليها وقهرها .. أما المنهج العلمي في الإسلام فيربط حركة الفرات بحركة المجموعة الشمسية بيد الجلال المطلق ..

العلم في الإسلام يقود إلى الله :

« وإن إلى ربك المنتهى » [١] ..

يقود إلى خشية الله تعالى ، كما يقود إلى مبادئه وحبه :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » [٢] ..

جاء الإسلام يدعو إلى اتقراء العلم وخشية الله ومبادئه وتوحيده ..

(١) الآية ٤٢ من سورة النجم مكية .

(٢) من الآية ٢٨ سورة طهر مكية .

وإذا كان العلم هو أول جناح في الإسلام .. فإن الجناح الثاني هو الحرية ..

أمن رسول الإسلام أنه لا إله إلا الله ..

لا معبود سوى الله ..

وتعني هذه الدعوة ببساطة سيطرة الآلهة التي تحكم الأرض جميعا .. سواء أكانت آلهة من المصالح الخاصة ، لم من الثراء ، أو الملوك ، أو الحكام ، أو المفاهيم السائدة ، أو قيم الآباء والأجداد ، أو الأصنام الحجرية والحشوية .. إلى آخر سلسلة الآلهة المدعاة والكاذبة ..

يحظر من يتصور أن [لا إله إلا الله] في الإسلام .. هي مجرد كلمة ينتمى بها المسلم وكل شيء حوله في الحياة يكذب تهمته ..

أن [لا إله إلا الله] .. في الإسلام صراع عظيم مع قوى الظلام في النفس ..

صراع إذا انتهى بإسلام النفس .. انتقل الصراع إلى الحياة لشد قسوة ومعنا ، حتى تسلم الحياة .. ويستحيل أن يقع الصراع إلا إذا توافرت الحرية .. حرية العقل في الشك والرفض ، وحرية التي تنتهي به إلى أبعاد حدوده ومقدرته ، وحرية التي تسمو به إلى أيمن صيق ثابت ، ومسئولته عن حرته .. وهي مسئولية تعني أن عليه أن يحمل السلاح ليحرر الآخرين مثلبا حر نفسه .. هذا هو الإسلام في جوهره ..

علم يقوم على الحرية .. ومسئولية تتبع الحرية .. وثمرة أخيرة هي التوحيد في عبادة البعيد ..

اذ فهم التوحيد على حقيقته ، تحرر الإنسان من عبوديته لعبير الله .. وتحرر الإنسان من خوف الموت ، وهم الرزق .. وتحرر الإنسان من شع النفس ، ورعب الأيام القادمة ..

جاء محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، ليعلن أن الله هو المعبود بحق ، وأن النفس جميعا عبده .. وبتحرير الناس من عبوديتهم للناس .. تبدأ الحرية الحقيقية ..

أعلن الرسول أن الموت انتقال من دار إلى دار .. ليس نهائية صليمة غامضة لحياة غير مفهومة .. إنما هو انتقال .. وخشية الموت لا تنحى من الموت .. والحرس على الحياة لا يطيل الأجل ، لكل أجل كتاب .. وأن تصبح الشجاعة مصرا من عناصر الشخصية الإسلامية ، وسجيا من سيج خلايا جسم المسلم ..

أعلن الرسول أن الرزق في الدنيا مضمون .. قال تعالى :

« وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » [١] ..

وأوحى جبريل إلى الرسول : أن نفعا لن نستوى أجلها حتى تستكمل رزقها .. وأن ينقضي الخوف من الجوع .. وأن ينحى القلق من الغد ..

[١] من الآية ٦ سورة جوه مكتبة .

يقع هذا كله في دائرة الأخذ بالأسباب .. السعي إلى الرزق واجب المسلم ،
والفتنة في كرم الله حق على المسلم أن يؤمن به .. قال تعالى :

«وَالْقِسْمَ رِزْقَكُمْ وَمَا تَوْعَدُونَ» [١]

ولقد ضمن الله تعالى رزق الدنيا ، ولبر بالسعي نحو رزق الآخرة ..
رزق الدنيا أنن مضمون .. هذا الرزق الذي يتكامل عليه الناس هو
المضمون بغير مراعاة مضمون .. يكفى فيه الجهد الصالح المعتدل ..
رزق الآخرة هو الذي أمر الله بالسعي إليه ..

هذا هو الرزق الذي لم يضمنه الله إلا بالجهادين الأكبر والأصغر .. جهاد
النفس ، وجهاد العدو ..

وتحرير المسلم من هم الموت والرزق والخوف .. يعطى الإسلام للمسلم
سلاحه وأدواته ، ويأمره أن يبدأ محاربة قوى الظلم في الأرض ..
قال تعالى عن الأمة الإسلامية :

«كُفِّتُمْ خَيْرَ أَمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَتُقِيمُونَ الصَّلَاةَ» [٢]

تأمل كيف يذكر الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الإيمان بالله
.. تنبيه الأذهان إلى أهمية الجهاد في سبيل الله ..

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتمثلان في أبسك عصا والهبوط بها
على ظهر المسلمين الذين لا يصلون .. ليس هو حبس المسلبين الذين
لا يصومون ..

أن الأمر أخطر وأجل من مراعاة المظهر ، بينما الباطن ينطوى على الفجور
واللابالاة ..

أن الآية تعني حمل السلاح للدعوة إلى الله .. وقتل الظالمين في
الأرض ..

قال أبو بكر ، رضی الله عنه : يا أيها الناس ، انكم تقرأون هذه الآية :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) [٣]

واتى سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : « أن الناس إذا رأوا
الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يجمعهم بقلب منه » ..

وتفسير أبي بكر للآية السابقة يحى بوضوح تام أن العمل بهذه الآية يكون
بعد الجهاد في سبيل الله بالسلاح وضرب الظالمين ومقاومتهم .. بعد ذلك
يصبح من حق المسلم أن يتول .. أديت واجبي .. لا يضرني من ضل إذا
اهتديت ..

(١) الآية ٢٢ سورة الذاريات ، مكة .

(٢) من الآية ١١٠ سورة آل عمران ، مكة .

(٣) من الآية ١٥ سورة المائدة ، مكة .

هذا هو مهم المسلمين الأوائل .. فصارن امت بينه وبين قومنا المعاصر ،
المستخذي ، الذي يفتقر الى الشجاعة ، ويشيع فيه الخوف ، ويؤثر السلبية
على قتال الظالمين ..

جاء محمد بن عبد الله في رسالة الاسلام بالامر الالهي بقتال الظالمين ..
والدفاع عن المستضعفين من الناس ..

قل تعالى في سورة النساء :

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الهبة الغيبية بالآخرة ، ومن
يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يلقب شهيداً فاولئك اجرهم عظيم .
وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء
والوحدان الذين يقولون : ربي اخرجنا من هذه القرية الظالم احلها ،
واجعل لنا من لذك ولياً ، واجعل لنا من لذك نصيراً » [١] .

قرأ محمد بن عبد الله على قومه تفسير الحق عز وجل لمعنى الفوز العظيم :

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم ولما اوتوا بان لهم الجنة .
يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في الآخرة
والانجيل والقرآن ، ومن اوفى بعهده من الله ، فليستبشروا بيمينكم
الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » [سورة التوبة] [٢] .

اقرأ الآية مرة ثانية ، وتأمل كرمه تعالى .. اذ يشتري من المؤمنين انفسهم
وأموالهم .. وهذه الانفس والأموال ملكه هو في الحقيقة .. انظر كرم من
يشتري ملكه الفلاس بالجنة .. وتأمل كيف يحرش الله المسلمين على القتال ،
ويمسهم في نفس الوقت ان هذا الامر بقتال الظالمين المضل ليس جديداً على
المسلمين .. فقد أمر الله به في الانجيل والتوراة من قبل ، ومطالما سمع موسى
بالمسيح كما تقول اوراق النصاري .. بعث موسى بالسيف كذلك ، وهين قل
بسم اسرائيل لموسى : اذهب أنت وراك بمقاتلا ، انا ها هنا قاعدون .. اقتضت
المشيئة الالهية ان يضرب عليهم الضربة اربعين سنة ، ليهلك ذلك الجيل المهروم
الخالل الذي يريد من موسى وريته ان يذهبوا للقتال ، بينما القتال مهتهم هم
بوصفهم أتباع موسى وريته .

هذا هو جوهر الاسلام كما جاده محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم .

دعوة الى القراءة والعلم والحرية وصراع قوى الظلام .

دعوة عالمية لا تفضل جنس دون جنس ، او لون دون لون ، او قوم
دون قوم ، او ارض دون ارض .

دعوة انسانية شاملة تريد ربط العلم والحرية والجهاد .. بهدف اعلى هو
توحيد الله وتنزيهه ، والايمان باليوم الآخر ، وتيسلم الناس جميعاً برب
العالمين .

يخطئ من يتصور ان الاسلام يحضر الحياة الآخرة ، ولا يمس بالدنيا .

(١) الاحزاب ٧٤ + ٧٥ سورة النساء بطلية .

(٢) الآية ١١١ سورة التوبة بطلية .

الدنيا في الإسلام هي أوراق الإجابة التي تصمغ في الآخرة .. هي امتحان واختبار للإنسان .. لمعرفة الإنسان هل يستحق كرامة الله التي منحها آدم ؟ .. أم يستأهل الصيرورة جزءاً من طين الجحيم وجارته وينعلق عليه طول الحق .

« وقودها الناس والحجارة » [١] .

ولقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمة الخلق .. خلق الحياة والموت ، حين روى قوله تعالى في سورة الملك :

« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » [٢] .

الدنيا هي دار الصراع .. وقد خلق الله تعالى الحياة والموت لمعرفة الناس أي الناس أحسن عملاً ..

يعرف الله مسبقاً سبحانه .. ولن تزيد هذه المعرفة شيئاً في ملكه سبحانه ..

الإنسان هو الذي يحتاج إلى المعرفة ..

خلقه الله للتعرف .. وأخطر معرفة هي معرفة الذات .. ويسوم القسيمة يعرف كل واحد من الناس ذاته على الوجه الأكمل .. ويعرف جزاءه على الوجه الأمثل ..

ولعل هذه المقدمة التي نستنبطها من اليوم الآخر .. تؤدي إلى أن تكون الحياة على الأرض نقيّة نحر الطاقة .. نظيفة نحر العهد .. إنسانية متكاملة ورحيمة ، وتستحق أن تعاش ، ولقد كان هذا هو الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا أسسه وجوهره ، وهو أساس أو جوهر لم يبدعه محمد ، ولا سبق به الرسل ، أن جوهر الرسالات النبوية كلها هو التوحيد ونصر الحق ، والايان باليوم الآخر ، وإسلام الوجه والجوارح لله .

الجديد في الإسلام هو العلم والحرية ، وعالمية الدعوة وشمولها .. وهبنة العدل المحكم عليها .

حتى ليقال بحق أن الطابع الأساسي للإسلام هو العدل .

ولعل هذه النقطة تحتاج إلى اهتمام .

مع أن الديانت السماوية واحدة في جوهرها ، إلا أن إرادة الله تعالى التي اقتضت نزول أكثر من دين ، وأكثر من نبي ، اقتضت أن يكون لكل دين طابع رئيسي يمثل أصق تثيل الاحتياج الأساسي للذين نزل إليهم هذا الدين في الفترة المعينة لنزوله . فاليهودية مثلاً قامت وسط الوثنية المصرية المريقة ، وأثرت لبس إسرائيل المستعدين ، ومن هنا كان طابعها الأساسي هو « الصرامة » ، ليحول دون تآثر هذا الجنس الذليل مظاهر الوثنية المصرية ، أو يصف بالاستخذاء أمام الاستبداد الفرعوني ، وبهذه الصرامة نجحت الديانة اليهودية في أن تكون رسالة انقاذ وتحرير .

(١) من الآية ٦ سورة التحريم مخفية أو من آية ٢٤ من سورة البقرة مخفية .

(٢) الآية ٢ سورة الملك مخفية .

ولكن بشي اسرائيل المستعبدين القمصاة في نفس الوقت .. خرجوا من نير
 الفراعنة ليدخلوا في نير الرومان ، وكان أعنى وأقوى من نير المصريين ، ولزم
 الأمر تحريراً جديداً على يد المسيحية ، ولكن بأسلوب مغاير ، اقتضته ظروف
 متبينة ، كان هذا الأسلوب هو استبعاد المقاومة المسلحة أو القوة أو الفرار ،
 لأن بطش الرومان نال كل حد ، وشمل الأرض بأسرها ، وكان الانتصار الممكن
 هو من طريق اللاعنف الذي يأخذ أعلى صورة في الحب ، ومرة أخرى
 انتصرت المسيحية بسلمها وحبها على الإمبراطورية الرومانية بسلاحها
 واعتادها ..

أما الإسلام ، وقد جاء ديناً نهائياً شاملاً ، يصلح للأرض حتى يرث الله
 الأرض ومن عليها ، فقد استلزم هذا أن يكون طابعه العدل .

إن الصرامة قد تصلح لزمان معين ، وجنس معين ، وظروف خاصة ..
 والحب مثل أعلى ، ولكنه ليس معياراً نقاس به التصرفات أو تدار عليه
 الأمور ، ولئن بدأ معياراً لأهل الأحاسيس الرفيعة أو الثقافات الرفيعة ، فإنه
 لا يصلح معياراً عاماً وشاملاً ..

أما العدل ، وهو طابع الإسلام ، فذلك هو التوازن في الفضائل ، ووضع
 كل فضيلة في مكانها ، وذلك هو المقاييس الشامل ، والمعيار النهائي ..

ولعل عظيمة العدل ورسوخه في نسيج الكون يستندان إلى قوله تعالى :

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْإِلَاحَةُ أُولُوهُ الْأَلَمِ قَالًا بِالْقُسْطِ » [١]

وإذا كان الله عز وجل في الإسلام مثلاً أعلى .. فإن القسط أو العدل الذي
 شهد به الحق تبارك وتعالى لنفسه ، يبني أن يكون طابع الإسلام
 والمسلمين ..

وليس العدل في الإسلام محسوب هو العدالة الاقتصادية أو عدالة الحكم
 أو عدالة الجزاء ، إنما هو هذا كله .. وهو قبل هذا كله ويعدده أسلوب في
 الحياة ، ومنهج وطابع رئيسي للإسلام ..

ولنينا قلبت النظر في الإسلام ، وجدت العدل يغلب ما عداء .. هناك عدل
 بين الأديان السابقة ، وعدل بين الفرد والمجتمع ، وعدل بين الدنيا والدين ،
 وعدل بين الرجال والنساء ، وعدل بين الفقراء والأغنياء ، وعدل بين الحاكمين
 والمحكومين ، بل بالعدل نفسه قامت السموات والأرض .. والله تعالى يسمي
 نفسه العدل .

ونمينا عدا ذلك التميز الخاص للإسلام .. فالإسلام قديم قدم الأنبياء .

قال نوح عليه الصلاة والسلام في سورة يونس :

« فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ مِنْ آجَرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَاهْتَرَأَ
 أَكُونُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » [٢] ..

(١) الآية ١٨ سورة آل عمران مخفية .

(٢) الآية ٧٢ سورة يونس مكه .

وقال إبراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام في سورة البقرة ،
وهما ينيان الكعبة :

« ربنا : تقبل منا انك انت السميع العليم . ربنا : واجعلنا مسلمين لك
ومن فريقتنا امة مسلمة لك ، وازرنا مناسكنا ، وحب علينا ، انك انت
الغواب الرحيم » [١] .

ولم ينس ابراهيم ان يوصي نبيه ويعقوب ومنهم يعقوب ان يوصوا على
الاسلام .

قال تعالى :

« ووصي بها ابراهيم بنيه ويعقوب ، يا بني ان الله اصطفى لكم الدين
فلا تموتن الا وانتم مسلمون » [٢] .

وهي حضرت الوفاة يعقوب جمع ابناءه حوله وسألهم :

« ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد الهك واله آبائك ابراهيم
واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون » [٣] .

[سورة البقرة] ..

ولقد اخبرنا الله تعالى في سورة يونس بقول موسى لقومه :

« يا قوم : ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ، ان كنتم مسلمين » [٤] .

ولقد كان سليمان مسلما ببعض الآيات التي روت قصته مع ملكة سبا ..
اذ قالت في ختام جولتها معه :

« رب انى ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين » [٥] .

وما هو ذا يوسف يتجه الى الله بالدعاء لمسأله ان يتوفاه مسلما ويحلته
بالصالحين .. يقول تعالى محدثا عن يوسف في سورة يوسف :

« رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الاحاديث ، فاطرف
السموات والارض انت وفي في الدنيا والاخرة ، توفني مسلما
والحقني بالصالحين » [٦] .

وجاء في سورة المائدة ان الله اوحى الى العواريين ان يؤمنوا به ويرسلوه
.. فقالوا :

« آمنا والشهد باننا مسلمون » [٧] .

.....

(١) جرد من آية ١٢٧ وآية ١٢٨ سورة البقرة مدنية .

(٢) الآية ١٢٢ سورة البقرة مدنية .

(٣) من الآية ١٢٣ سورة البقرة مدنية .

(٤) من الآية ٨٤ سورة يونس مكة .

(٥) من الآية ٤٤ سورة الليل مكة .

(٦) الآية ١١ سورة يوسف مكة .

(٧) من الآية ١١١ سورة المائدة مدنية .

كل نوح وإبراهيم واسماعيل ويعقوب وموسى وهارون وسليمان ويوسف
وعيسى مسلمين بنص الآيات . وكان بقية الأنبياء مسلمين ب مفهوم الموافقة
.. كيف أمكن يكون محمد - وهو آخر الأنبياء - أول المسلمين ؟

قال تعالى في سورة الزمر مخاطباً آخر أنبيائه :

« قل : أن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك
له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » [١] .

كيف يكون أول المسلمين ، وتسمية أمته بالمسلمين تسببة قديمة تسبق خلقه
ومحيته إلى العالم تسمية تدل بوجودها لإبراهيم جده العبد .

قال تعالى في سورة [الحج] :

« وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبائكم إبراهيم ، هو سبطكم
المسلمين من قبل » [٢] .

لا تعارض بين سبق كثير من الأنبياء المسلمين للرسول .. وكونه أول
المسلمين ..

لا تعنى كلمة الأول هنا بعداً زمنياً ، ولا تعبر عن أولوية الظهور على مسرح
الأحداث .. إنما تعنى أول المسلمين هنا .. أكمل المسلمين ..

.....

سئلت أم المؤمنين عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم
فكانت كلمتها الموجزة المعجزة : كان خلقه القرآن .

ونحن نعرف أن القرآن يحدد الخلق الكريم في حده الأدنى . ويرسم
الفضيلة في درجاتها الأولى ، كما يقدم التبة السابعة في مكارم الأخلاق .
عائى نوع من هؤلاء كان الرسول ..

أكلن هو « المختص » ؟

أكلن هو « السابق بالخيرات » ؟

أكلن من « أصحاب اليمين » ؟

أكلن من « المقربين » ؟

لم يكن الرسول هذا كله فعصب .. ارتفع أكثر وأكثر .. حتى كان خروء
الدرى في مكارم الأخلاق ..

حتى استحق قول الحق عز وجل عنه :

« وإنك لعلى خلق عظيم » [٣] .

اختلف المفسرون حول معنى الخلق العظيم .

(١) الإيدان ١٦٢ ، ١٦٣ الاتعام مكة .

(٢) من الآية ٧٨ سورة الحج حجة .

(٣) الآية ٤ سورة النظم مكة .

قتل بعضهم .. هو القرآن .

وقتل آخرون .. هو الاسلام .

وقتلوا لم تكن له حبة الا الله .

وهذا كله اختلاف يحسمه القرآن ببيان درجته في آيتين كريمتين ، الآية الأولى هي قوله تعالى :

« قل : ان صلاتي ونسكي ومحباي وجميعي لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك امرت وانا أول المسلمين » [١] .

اولهم باطلاق .. اولهم كمالا ورفعة ، وشرها واكتمالا ، وفضلا ورحمة .

رغم كونه جاء آخر الانبياء .. وربما لأنه جاء آخر الانبياء . فكان هو اللبنة الأخيرة في صرح السوات الشاهق .. وكان لأبد لقمة الصرح وآخر لبنته أن يكونا قمة في بني الانسان .

الآية الثانية هي قوله تعالى في سورة [الانبياء] :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » [٢] .

لم يكن رحمة للعرب وحسبهم ، ولا لغربى فحسب ، ولا لزمنه فقط ، ولا للجزيرة العربية وحدها .. انما كان رحمة للعالمين ..

كان ولم يزل وسيظل رحمة للعالمين .

اتسداء من نزول الوحي عليه بكلمة اقرأ .. حتى يرث الله الأرض ومن عليها وتقوم القيامة .

هو الرحمة المهداة للعالمين ..

وهو رحمة لا تواكبها معجزات باهرة أو مثيرة .. انما هو رحمة تبدأ بدموع العقل أن يقرأ كتابين .

١ - يقرأ كتاب الكون .. أو القرآن المخلوق .. أو كلمات الله التي تأخذ ملايين الأشكال والصور ..

٢ - ويقرأ القرآن الذي نزل به الروح القدس جبريل .. وهو كلام الله الأزلي .

وكتاب الكون يقرأ بالآلاف الطرق .. يقرأ بالسهادة :

« قل : سبروا في الأرض فانظروا » [٣] .

أو يقرأ بالاكشاف والمثل :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » [٤] .

(١) البقرة ١٦٢ ، ١٦٣ سورة الانعام مكة .

(٢) الآية ١٧ سورة الانبياء مكة .

(٣) من الآية ٦٩ سورة النمل مكة .

(٤) من الآية ٥٢ سورة فصلت مكة .

و يقرأ ما تعلم والنظر :

« آمن بعمل الأرض قرارا ، وعمل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسي ،
وجعل بين البحرين حاجزا ، الله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون » [١١] .

وأذا كانت هناك آلاف الطرق لقراءة كلمات الله المحلوقة في كتاب الكون ..
فإن هناك طريقة واحدة لقراءة كلام الله الأبدى .. وذلك أن يقرأ القرآن من
مقرؤه معنى القلب وبصر البصيرة .. حتى يصير القرآن خلقه بقدر الطاقة .
وقبل تمريل القرآن كان الكون ناقصا مادة وروحا وبمستورا وتشريعا يحكم
للناس .

وقبل بعث الرسول .. أول المسلمين وأكملهم ، لم تكن الكائنات قد وصلت
إلى الذروة من اسلام الوحه لله - أو الذروة من مكارم الاخلاق .

وحين بعث الرسول استكمل النوع الانساني كرامته وعظمته ، وأدرك
ذروته وسماءه .

وبهذا الكتاب الكريم ، والتقى الرحيم .. اكمل الله للنشر دينهم ، واتم عليهم
بعثه كما حدث في قوله تعالى :

« اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام
دينا » [١٢] .

غير أن هذا كله لكن يحدث ، كل لابد للنبي أن يجاهد جهادا يجعله أكثر
الناس استحقاقا لجد أهل الأرض وأهل السماء .

وتدع عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا نعرف سببا أودى في مشاعره كما أودى محمد بن عبد الله صلى الله
عليه وسلم . لا يعرف قبيحا أحبب الأبداء وصبر في الله كما أحبب سينا .
وفي حالته لم يكن ممكنا لمن أرسد الله رحمة للعالمين . أن يدعو على انسان إلا أن
يكون هذا الانسان من الكافرين العتاة
كان يدعو لمن يستحق الدعوة

ويحتل حتى يش الاحتمال .. وبصر حتى يعجز الصبر .. ويقاوم حتى
تهلك المقاومة ، بعدها يرتفع إلى الله قلبا راضيا ، وعينا دامعة ، وبهيمس :
أن لم يكن بك على غضب فلا أبالي .

يهون كل شيء إلى جوار رضا سبحانه .

.....

بعد نزول الوحي على الرسول ..

بدأت أول مرحله من مراحل الدعوة الاسلامية ..

(١) الآية ٦١ سورة الفيل مكة .

(٢) من الآية ٢ سورة المائدة مدية .

بدأت هذه المرحلة سرا .. واستمرت ثلاث سنوات في الخفاء .

في البداية آمنت به أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها .. وآمن به صديقه أبو بكر ، كما آمن به ابن عمه علي بن أبي طالب ، وكان حسيبا يحيا في كفاله ، وآمن به زيد من ثابت مولا .. ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الله فأدخل في الدعوة أصحابه عليان من عمان وطلحة من عبيد الله وسعد بن أبي وقاص ، وآمن المسيحي ورقة بن نوفل ، ورآه الرسول ، صلى الله عليه وسلم بعد موته في هيئة كريمة تشهد بدرجة عند الله . بعد ذلك أسلم أبو ذر الغفاري والزبير بن العوام وعمر بن عبدمنة ، وسعيد ابن العاص .. وراح الإسلام ينتشر سرا في مكة .

وترامت أخبار هذه العقيدة الجديدة إلى رؤساء قريش ، فلم يعبأوا بها . ولعلمهم توجهوا أن محمدا قد تحول بسبب تحفله في غار حراء .. إلى أحد هؤلاء المنكبين في الآلهيات .. كما فعل آمية بن الصلت ، وقس من ساعدة .. هكذا نهجت السرية في أن تضل نوما من الحماية على العقيدة الجديدة ، وخلال السنوات الثلاث التي استمرقتها مرحلة السرية في الدعوة .. كان الأيمان ينضج قلوب المسلمين الأوائل ، وكان الرسول يريهم ويغير نفوسهم ويضع منهم أول نواة في جيش الإسلام .

.....

نزل جبريل ، عليه السلام يوما بقوله تعالى :

« واتذر عشيرتک الاقربین » [١] ..

وهكذا جاء الأمر الإلهي بإعلان الإسلام .

انتهى الأمر والتفت حول النبي كوكبة من الرسلان العظام .. وسفر إليه امر الحق أن يعلن من دعوته الله .. وأن ينذر عشيرته الأقربين .. وجين عمل النبي هذا دخلت الدعوة مرحلتها الثانية على الفور .. وبدأ اضطهاد الدعاة وتكذيبهم وتشديد الحصار عليهم . أدركت قريش أن امر محمدا أخطر من مجرد الكلام في الآلهيات ، أنها هو يدعو لدين جديد ، دين لا مكان فيه لأصنامهم وتبائيلهم وآلهتهم ومراكزهم الاجتماعية ومصلحتهم الاقتصادية .. دين لا آلهة فيه غير الله ، ولا مشرع فيه غير الله ، ولا حاكم فيه سوى الله ..

دين يواجه مكة بما تكره ، ويواجه أولى الأمر بما يقلق .

كان طبيعيا أن تبدأ الحرب فور إعلان الدعوة ..

وقد بدأت الحرب عنيفة من جانب الكبراء والسادة . كان أول المهاجمين للإسلام سيد من سادة الكبراء في مكة .. وهو أبو لهب .

أخرج البخاري أن رسول الله سعد على الصفا وراح ينادي بطون قريش وتبائن مكة ، فلما اجتمعوا إليه سألهم :

— أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم .. أكنتم مصدقي ؟

(١) الآية ٢١٤ سورة الشعراء مكة .

قلوا : نعم .. ما جئنا عبك كذبا قط .

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

قال أبو لهب - وكان يلقب بين الوافدين : تبا لك مسائر اليوم .. هذا جمعنا .

بهذا التهوين والاستهانة بذات الحرب ضد الإسلام .. ولما كان المسلمون لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فقد دافع الله عنهم في البداية ، ونزلت سورة قصيرة ترد على كلمة أبي لهب (تبا لك مسائر اليوم) ..

قال تعالى :

« ثبت يدا أبي لهب وثب .. ما أفنى عنه ماله وما كسبه .. سيصلي نارا ذات لهب .. وأمراته هبالة الحطب .. في جهنم جيل من مسدد » [١] ..

بهذه الآيات القصيرة المحكية ، دخل أبو لهب التاريخ من أقصر أبوابه وانكراها ، وأرسلت صورته إلى الأبد ، في إطار من الهول به ويزوجته ، واستحق سفرة أجيال عديدة لم تره ، ولكنها رأت صورته كما رسمها الحق عز وجل .. رجلاً يعاند دعوة الحق خوفاً على مصالحه المالية أن يهتز بتدنك عبادة الأوثان .. لا بأس بهذا كله .. أن ماله الذي يحافظ عليه لن ينفنى عنه شيئاً من الله ، وما هو ذا يبعث وسط نار ذات لهب ، وأمراته تحبل الحطب لتزيد ناره اشتعالاً .. في جهنم جيل من مسدد .. رمز لانتقامها لعالم الدواب التي لا تمى .

ولقد كان معظم المعتدين للدموة الحديدية من لون ينتسب لعالم الدواب التي لا تمى ..

قال تعالى في سورة الفرقان :

« لم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » [٢] ..

ولو تأملنا اليوم ردود أفعال الكافرين والمشركين ، لأحسبنا بالمعجب .

قال تعالى في سورة (ص) :

« ومحبوا أن جاءهم ميثق منهم وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب .. اجعل الآلهة لها واحداً ؟ إن هذا لشيء عجيب » [٣] ..

تأمل أنت جيل قوم يحسبون أن الأصل تعدد الآلهة ، ويدهشهم أن يكون هناك إله واحد . ويرون العجب العجيب في هذه النفسية النظرية الواضحة .

(١) سورة المسد مكية .

(٢) الآية ٤٤ سورة الفرقان مكية .

(٣) الآية ٤٤ سورة ص مكية .

قال تعالى في سورة الممتان :

والذا راؤك أن يتخلونك الا هزوا ، اهذا الذى بعث الله رسولا ؟ ان
كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها (١) ..

أنظر الى جرأة القوم ، اذ يهزأون برسول الله .. وقد جاء ينقذهم من النار ،
وتحيل أطمعناهم لآلهتهم ، وتصورهم أنهم كانوا يصلون عنها لولا أن صبروا
عليها ..

لن صور العناد القديم والجديد واحدة .. ان الكفر والشرك والعناد تكرر
نفسها لآل الشر عادة محدود الموهبة .. وان اتسم بالمشارة ..

وهكذا يهزأ الضلال من الحق ، ويسخر الجهل من العلم ، وينفش السلاط
ريشه الملون ، ويتيه عجبا بذكائه الذى أنقذه من ترك آلهته الحجرية والعتشية
والبلهية ، وكثروا يصنعون الآلهة من العصو .. ويمسحونها ثم ياكلونها
ويقولون : انتخبنا آلهتنا من الخوص . او يقولون انما معبودهم ليقرّبونا الى الله
زلفى .. المسألة كلها مسألة تزلف الى الله ..

ومضت دعوة النسي . وانخرست في الأرض اشواك المشركين .

اتهموا النسي بأنه كاهن ، واتهموه بالجنون ، واتهموه بالسحر ، واتهموه
بأنه افتري ما جاء به من الحق ، وامانه عليه قوم آخرون .. وقتلوا : هذه
أساطير الأولين اكتتبتها فهي تبلى عليه بكرة وأصيل . وطلبوا منه معجزات من
نوع معين .. أعلنوا أنهم لن يؤمنوا له حتى ينجّر لهم من الأرض ينبوعا ، أو
تكون له حنة من نخيل وعصب فنجّر الأنهار خلالها تَجْجُرًا ، أو يسقط السماء
كما رعم عليهم قطعاً من العذاب ، أو ينزل عليهم الملائكة يضمنون لهم حبة
ما يدعوا اليه .. أو يكون له بيت من ذهب ، أو يصعد في السماء ، ولن يؤمنوا
لصعوده اذا صعد لهم أممهم وعاد ، الا اذا حضر اليهم كتابا يقرأونه
من السماء ..

ومر النسي من الكرام على تجريحهم له ، كما لثمهم بلطف ان ما يطلبونه من
المعجزات لا يتفق مع الإسلام ، دعوة العقل والحرية ، أنهمم أنه مشر رسول ،
جاء يذرهم يوما لا يعنى فيه والد عن ولده ، ولا ينفع فيه مال ولا بنون ،
ولا يجي فيه من العذاب ، ان صاحب اللخامة أو السمادة كان جبارا عطيا
من صابرة الأرض ، أو شيخا من شيوخ القتال ، أو حاكما في الناس ، أو ملكا
عليهم ، أو مدعيا للالوهية بهم ..

لا يمس هذا كله شيئا يوم القيامة .. لا يدفع العذاب .. ولا يخففه .

وبدا الإسلام — ككل الأديان قبله — يجمع حوله طائفة المعتلاء والمقراء
والحراني في الأرض ، آمن عديد من المقراء الدين وضعهم النظم الاحتياص
في مكة عند سفح المحتج لتستعلم الطبقات الظالة ، ولم يكن الإسلام يقدم
حلا اقتصاديا لمسألة الحياة أو المحتج فحسب ، انما كان يقدم حلا الهيما
لمشكلة الوجود الإنساني بشكل عام .. وكان الإسلام يؤمن ان الإنسان ليس
مجرد معدة تريد أن تمتلئ ، وجسد يريد أن يكس ، وقريرة جنسية تريد أن
ترنوى ، ليس الإنسان هذا فحسب .. وضع الإسلام الإنسان في مكانه

(١) الأيسل (١) ، ٤٢ سورة الممتان مكية .

الحقيقي دون تكبر أو تصغير .. معدة وجسدا ، وفريزة وروحا ،
وطبوحا وعقلا ، وقبسا من الله في الروح ..

ليس اعتد من تركيب الجسد الانساني ، وليس اعتد من تركيب الروح
الانساني .. واحيانا يتقلب الجسد في نعيم الحياة ، بينما تشقى الروح أشد
الشقاء ، وأشباع جثث واحد من جوانب الانسلي لا يؤدي الى الكمال أو
السعادة .. ولهذا بدأ الاسلام حل مشكلة الانسان من داخله .. ووقع عبء
هذا التغيير على القرآن ، كان القرآن يتحول الى الحياة كل يوم .. كانت آياته
تتنزل على الرسول ، فيعطىها الرسول للمسلمين ، ويتحول القرآن الى رحال
كثيرين يسيرون في الأسواق لإيهدون عرش الكراهية الذي كلى يحكم مكة ..

وزانت ضراوة المشركين في السفرية والتجريح والاستقامة .. وحزن
الرسول ، عليه الصلاة والسلام .. وواساء الله تعالى ، وأنهه انهم لا يكتفونه
.. ولكم ظلموا أنفسهم ابتداء وجحدوا آيات الله .. وليس النبي غير آية
من آيات الله ..

قال تعالى في سورة [الأنعام] :

« قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون ، فانهم لا يكتبونك ، ولكن الظالمين
بآيات الله يجهلون » [١] ..

واستمر ايداء المشركين للرسول واتباعه .

وانتقل محال المعركة من الكلمات المتحدية الهائلة ، الى تعذيب اتباع
الرسول وقتلهم .

وتصور اعداء الاسلام يومها ان تشديد الخناق على المسلمين ، سيجعلهم
يفلتون دعوتهم ، أو يكتفون من اعتناقها ، ايثلا للسلاية ، أو يتهافون في
نشرها على اقل تقدير ، وفوجيء السادة والملا من قوم مكة بأن الضميمة يريد
الدعوة رسوخا ، وأن التعذيب لم يزعج أحدا عن موقفه .

ولقد كان يقين المسلمين الذي زرعه الرسول فيهم ، انهم يحلون رسالة
من الله الى العالم ، رسالة تهدي الى العالم رشده الذي فقد ، وانسانيته التي
ضاعت منه ، وكرامته التي اهدرت ، وحرية التي صودرت .. وكان يقين
المسلمين انهم لا يبنون وطننا صغيرا في مكة ، ولا يحاولون اصلاح مجتمع
عاسد هو مجتمع الجزيرة العربية ، وإنما كانوا يدركون انهم ينشئون الانسان
من جديد .. ينشئون الانسان كما ينبغي أن يكون الانسان .. ويفهمون للنسبة
اول صورة مجردة لعظمة الخلق وجلاله .

وقبل الاسلام .. كان العرب لا شيء .. كانوا يقياس الحvarsات القديمة
والعديئة لا شيء . لم يقدموا الى العالم حليا أو نقا أو اثرا له قيمته .. فلما
نزل الاسلام عليهم ، صاروا هداة البشرية .. وسادتها وعلياها بالحق ..
واخذ منهم الغرب ما يريد لتقدمه ، وظل يزعجهم من الاسلام حتى ماد
الاسلام الى الكتب ، ولم يجد له وجوده الحي المؤثر في الناس ، بعدها سار
سولا على الغرب أن يحكم المسلمين بما اخذه منهم من العلم .. وان سوتهم
قطعتا مدحوشة الى حفلة متجاعة واكتسافاته ، وهي اشياء كان ينبغي أن

تكون من اكتشافهم وانقاذهم ، لو أدركوا معنى الاسلام وحرصوا على حياته .

وفي الأيام الأولى للإسلام .. أدرك المسلمون انهم يواجهون هزما لن تتوقف طالما بقيت الحياة وبقي فيها الصراع .. ولهذا توجهوا بالأيمان كلها لزداد العذاب ، واستمسكوا بالحق كلها أشد اضطرار قريش .

وعذبت مكة عمار من يأسر .. أحد العبيد الذين كانوا ضحية للنظام الاقتصادي السائد في العالم يومها ، وهو اقتصاد كان يقوم على نظام العبيد ، عذبت مكة هذا الذي آمن انه لن يحصل على حريته الحقيقية الا بالإسلام . وكنوا يخرجونه الى الصحراء ويعذبونه وزوجته ، وأشد العذاب على زوجته يوما لتكر ، فلما ظلت على أيمانها وأغلظت القول لأبي جهل ، طعنها بحربة كانت في يديه .. فماتت .. وقدم الاسلام أول شهدائه ..

كانت امرأة تدعى «سمية» .. زوجة عمار بن ياسر .

لم تكن في عرف المجتمع امرأة حسرة .. كانت زوجة لعبد .. واقتضت مشيئة الله تترك وتمشي أن تكرم النسباء ثم العبيد قبل دم الأحرار بالشهادة .

ولقد تحدث الجهاد كثيرا من رساء الاسلام بنظام العبيد . لو سيكونه عليه أو ليقوله آياه ، وأغلوا أن الاسلام كبدا يحرر العبيد جميعا ، ويخرجهم من ملكية الناس الى ملكية الله .

وإذا كان الاسلام لم ينزل بنصوص مفصلة مباشرة لتحريم نظام العبيد ، فقد كانت أسسه العامة ومبادئه الأساسية تحذف — مغللا قولا — منافع هذا النظام .. ولقد علم صاحب الدعوة الإسلامية — جل جلاله — أن نظام العبيد نظام اقتصادي مؤقت سيتغير مع الوقت .. ولما كان الاسلام لم يزل لهذا الوقت الذي نزل فيه محسب ، وإنما نزل عليها شاملا لكل الأزمنة القادمة ، فقد تجاوز الاسلام هذه الصورة المؤقتة من صور الاستغلال ، الى الأصل النهائي لصور الاستغلال ولشكائه ، فحرمها .. وبهذا الأسلوب حرم الاسلام نظام العبيد تدريجا ، مثلما حرم الخمر على مراحل .. ولقد كانت جذية الاسلام هي المسئول الأول من نهجه للحرمات على مراحل ، فالطبيعة البشرية لا تتغير في يوم ، والنظم الانتصابية لا تتحول بقرار .

ولئن قبل لنا أن الاسلام أباح لخنوده استرقاق أسرى الحروب ، فمبوف بقور أن الاسلام كان يطبق هنا مبدأ المعاملة بالمثل .. كان أعداء الاسلام يسرقون المسلمين حين يأسرونهم ، فكان طبعيا أن يسرق المسلمون أسراهم من المشركين ، ولو فعل الاسلام غير هذا لكان أقرب الى اللغو .. ولما سطت هيئته كنظام حاد ، ولطمع به الطالبون وهم كثير .

.....

أخلاق التعذيب والاضطهاد في عصر الدعوة الإسلامية .

وحين ذهب المعذبون يشكون لرسول الله ما يلغونه من العذاب انهمهم بمنطق شديد الوضوح أن على الدعاة أن يدفعوا راحتهم وأمنهم وديارهم ثمنا لاتنشار دعوتهم .

ليست الحرية بلا ثمن ..

وتاريخ الحياة حفل بدماء كثيرة دسعتها الشعوب بمقاومة أعدائها في الخارج والداخل .

ولئن كان هذا شأن من يطالب بحرية قوم في زمان ومكان محددين ، فما هو شأن من يطالب بحرية الجنس الإنساني كله .

إن المسلم ينبغي أن يضع في اعتباره أنه يتعرض ، بمجرد إعلان دعوته ، للمؤامرات والتشريد والإضطهاد والسجن والمطردة والحصار والإمبيل .

هذا هو ثمن انتشار الدعوة .

وهذا هو ثمن الحرية ..

وهو ثمن يدفعه أهل الباطل أحيانا بالرصاص ، فكيف يتردد أهل الحق في أدائه .

والأصل في الإنسان أنه محكوم بغيرية البقاء .. محكوم بغيرية الخوف من العذاب والموت .

ولعل أخطر ما يهز المسلمين العقيقين هو تحررهم من غريزة الخوف وحب البقاء . هذا هو المعيار الذي لا يخطئ لتمييز المسلم الحقيقي ، من المسلم بالاسم أو الوراثية أو الإدعاء . يعلم المسلم العقيق أن الأحال بيد الله ، والأرزاق بيد الله ، والأمن بيد الله والقوة بيد الله .. وبهذا الإيمان يبدأ صراعه لنشر دعوته .. ويستعذب الألم في الله ، ويدفع بدمائه ثمن حرية الآخرين . يفعل هذا كله بسطة تحلو من الخوف ، يحرره الإسلام من الخوف . وقد بدأ كان الطغاة يثرون رجال الله بالبلشيم وهم أحياء ، ذهب خضب بن الارت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنجدا به من اضطهاد قريش .

قال : ألا تستنصر لنا . ألا تدعو لنا ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار ، فيوضع على رأسه فيجعل تصقين .. ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر ، ولكم تستعملون .

بهذه الكلمات الصابرة الشجاعة .. أفهم الرسول من جاء يستنجد به أن من ثلم الإيمان دفع ثمن الحرية .

ولقد بدأ واضحا أن الإسلام لم يكن يقدم لمن يدخلون فيه مكاسب من أي نوع .

لم يكن السؤال الذي يطرحه المسلمون الأوائل يقول : ماذا نكسب من وراء هذه العقيدة ؟

على العكس من ذلك .. كانوا يسألون : ماذا ندفع للإسلام ؟

وكان الجواب : كل شيء . ابتداء من لفة الخبز إلى الدم المسفوك .

لقد دمع المسلمون الأوائل كل شيء . وخابهم الطغيان هادئاً لنصر الله ، وملاهم ثقة مبيتة بطبة ما جأوا به من الحق ، وكانوا يعلنون أنهم سيعلمون ملوك كسرى وقبصر ، وأنهم سيمسرون بدموتهم سادة الأرض .

واستغل المستهزون هذه الثقة في سخريتهم وضحكهم . . . كان الأسود ابن المطلب وحليظه إذا رأوا أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، يتعاهرون ويقولون : قد حاكمكم ملوك الأرض الذين سيعلمون — غداً — ملوك كسرى وقبصر . . . ثم يصفرون ويصفقون . . . وتجاور المؤمنون هذه السخرية .

واستطالت السخرية إلى منع المسلمين من إعلان دمويتهم .

وعقدت قريش اجتماعاً تاريخياً لتوحيد الهجوم على الرسول . كل المشركون يتهمون مرة بأنه ساحر ، ومرة بأنه كاهن ، ومرة بأنه شاعر ، ومرة بأنه مجنون . . . وانتفتت الكلمة في اجتماعهم يومئذ على الصاق تهمة السحر به . . . واستند المؤتمرون الشهير الذي ترميه الوليد بن المغيرة على رمي الرسول بالسحر ، لأنه يفرق بين الأخ وأخيه ، والمرء وزوجته . . . وصنع ملوك الكراهية والظلام من أنفسهم فرقا تحذر القادمين إلى مكة من ساهر يدعي مهدي . . . ساحر خرج على قومه وإهله وعشيرته الذين يعبدون ما كان يسد آذانهم ، واضطروا الرسول إلى أن يعرض نفسه على الحلق في المواقف فيقول :

— ألا رحل يهملني إلى قومه ، فإن قريشا بمنعوني أن أبلغ كلام ربي ؟

رغم هذا كله ، وربما بسبب هذا كله . . . استمرت الدعوة الإسلامية . . . تنتشر ببطء وعمق ، وراحت كلمات النبي ، عليه الصلاة والسلام تنعش ذاكرة العهد . . . ويضع الناس في نفس المؤلف الذي كتبوا عليه يوم أخذ الله عليهم عهده وهم ذرات في طهر آدم :

« أليس بربكم ؟ قالوا : بلى » [١] . .

ازداد عدد المسلمين . . . وأحست قريش الخوف . . . ورات أن تحرب أسلوباً آخر ، ماذا لو لجأت إلى المهانة والمفاوضات .

وارسلت قريش عتبة بن ربيعة ، وهو رجل يتصف بالمثل والريانة بين قومه ، ليفاوض الرسول .

قال عتبة لرسول الله : يا ابن أخي . . . أنك بنا حيث قد علمت من المكان في النسب ، ولقد آتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، فاسمع مني أمرض عليك أمورا لعلك تغفل بعضها .

قال الرسول : تكلم يا عتبة .

قال عتبة : إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا حينئذ لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفاً وسودناك علينا فلا تقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي باتيك رتباً تراه لا تستطيع رده من نفسك طلباً لك الطمأنينة ، ويدلنا أموالنا حتى شراً .

(١) من الآية ١٧٢ سورة الأعراف مكة .

انتهى عتبة من كلامه .. وانتظر رد النبي .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هسم . لنزول من الرحمن الرحيم .
كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فاعرض
لكنهم لهم لا يسمعون . وقالوا : طوبى في كثرة مما تدعونا اليه ،
وفي اذاننا وفر ، ومن بيننا وبينك جهاب ، فاعمل اننا عاملون .
قل : انما اتا بشر مثلكم يوحى الي : انما الحكم اله واحد فاستقيموا اليه
واستغفروا وويل للمشركين . الذين لا يؤنون للزكاة وهم بالآخرة
هم كاهنون . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم اجر غير ممنون .
قل : انكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتعملون له اقتداء ،
ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها
اقواتها في أربعة ايام سواء للسائلين . ثم اسقوى الى السماء وهي
بخان فقلل لها والارض انثيا طوعا او كرها قالوا : انثيا بظلمين .
لنضاهن سبع سموات في يومين ولو هي في كل سماء امرها ، وزينا
السماء انثيا بمصابيع وحفظا ذلك تغيير العزيز العظيم . فلن اعرضوا
لقل : انفرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » [١] .

انتهى الرسول من رده على عتبة ، وهو رد اثر ان يواجهه العروش
والمخربات والمفاوضات بجزء من سورة « فصلت » .. وهي احدى سور
القرآن الذي نزل به الروح الامني عليه السلام .

نهض عتبة حين وصل الرسول الى قوله تعالى

« فلن اعرضوا لقل انفرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » [٢] ..

نهض عتبة فرحا منصرفا الى قريش ، كان صوامع الدنيا في اثره .. وحين
وصل الى قريش ، اقترح عليهم ان يتركوا محبدا وشيئة .. فشلت المفاوضات
مع اول المسلمين ، صلى الله عليه وسلم .

وكان فشل المفاوضات ايدنا بعودة الابداء والاضطهاد .. وتقسن المشركون
والمحرمون في ابداء المسلمين . وحاصر النبي حرس لبدء المساسي التي تقع
لاصحة .. وحين انتهى المسلمون من دفع الثمن الكامل لعقيقتهم واحتلوا
في الله أقصى الطاقة أوامر الرسول اليهم بالمهجرة . اعطى الان بلاهجرة
لمن يريد أن يهاجر . وبدأت موجات الهجرة . وكان ذلك لحبس سموات
من زول الوحي عليه .. وبعد سنتين من اعلان دعوته . وحاصر الى
الحشمة سنة عشر مسلحا . هرحوا في الحفاء ، وانحبوا صوب البحر ،
وركبو الموج رغم كراهية اهل الصحراء له وخوفهم منه واعتقادهم ان الناس
حين تتركب البحر تتحول الى دود على مود سلبح .

وظلت موجة الهجرة الأولى موجة ثانية ، حبلت هذه المرة ثلاثة وثلاثين رجلا
وتسع عشرة امرأة .

وامتدت يد قريش الى الحشمة تصلول ابداء المهاجرين .. لرملوا الى

(١) الآية من ١ الى ١٢ من سورة فصلت بكية .

(٢) الآية ١٢ سورة فصلت بكية .

النحاشي ملك الحبشة من يثرب ضد المهاجرين ، ويتهمونهم بأنهم غارتوا دين
آبائهم في مكة ، ولم يدخلوا دين النحاشي وهو النصرانية . وطالبت قريش
برد المهاجرين لتأديبهم ، ولم تنس قريش أن ترسل إلى النحاشي بهدية . .
ترشوه بها .

يبدو أن النحاشي كان رجلا عاقلا ، فأرسل إلى المهاجرين يسألهم عن هذه
الهدية الجديدة التي ابتدعوها . وحدثه المهاجرون عن الإسلام . سألهم
عن عيسى فقالوا :

— هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته النقاها إلى مريم الحفراء البتول .
وأخذ النحاشي مودا صغيرا من الأرض وقال : لم يزد عيسى علي ما قلتم
فقد هذا العمود . اذهبوا لأنتم آمنون . ورد هدية قريش وهو يقول : ما أخذ
الله الرشوة مني حتى أهداها منكم ، ولا أطاع الناس في حتى أطيعهم فيه .

وهكذا أقام المهاجرون من المسلمين في ديار آمنة هي الحبشة . . ديار
يحكمها رجل أوتي رشده بآمن بطيعة المسيح الثمينة ، رغم أيبان بطارقة
كنيسة بغير ذلك .

ومن عجائب تدبير القنرة الإلهية ، أن هذا الزيف في جسم المجتمع
الإسلامي — مبتلا في الهجرة — لم يؤد إلى ضعف الإسلام ، وإنما زاده قوة
مقد عوض الله تبارك وتعالى الدموة الإسلامية بإسلام رحلين عظيمين . .
هما : حبرة عم النبي صلى الله عليه وسلم . وعمر بن الخطاب . . الفاروق
ورجل الحق .

ولقد كان الرجلان من ذوى الشخصية القوية في مكة . كان كل واحد
منهما سيدا عظيما في قومه . . وشامت أرادة الله عز وجل أن يؤتى أسلوب
رجل في مكة من يبيع الرحمة الذي كان كامنا فيها ولا يعطيان .

أسلم حمزة بدافع الغضب والعصية والرحمة تجاه من لا يدفع عن نفسه
الأذى .

قالت إحدى النساء لعمرة يوما : لو رأيت ما لى ابن أخيك معبد من
لى الحكم بن هشام (أبو جهل) ، فانه سبه وأذاه ثم انصرف عنه . ومحمد
صامت لا يكلمه .

وعلى أديم في هرواق حمزة . . وأسرع مشتتلا بالغضب يبحث عن بني جهل
مرآة يجلس بين قومه . ثم مع حمزة يده يقومون كان يمسكها وضرب بها رأس
أسى جهل وهو يزار : انشتم محمدا وأنا على دينه .

ذلك كنت بداية اسلام حمزة .

كان حمزة رجلا كريما بحق .

أدى مباشرة أن يضطهد ابن أخيه فلا يرمى الناس له ذمة ، رغم أنه ابن
أخيه . . تلك كانت البداية . أو السبب المحرك للإسلام . أما الحق المبيد
فكان هذه الرحمة التي أودعها الله في نفس حمزة دون أن يدري حمزة . . وهي
رحمة لم تستطع أن تهضم أذاه رجل يدمو إلى الله ، لحرد أنه ضيف وغير
انصار . . فليكن حمزة إذن نصيره .

أما عمر بن الخطاب .. فكان معروفًا بعدة الطبع وقوة الشكية وصلابة
الرأى .. وطالما لقي منه المسلمون الأذى حين كان على جاهليته .

وكان من بين من يلقون منه أنباء .. عامر بن ربيعة وزوجته .. وقرر عامر
وزوجته الهجرة إلى الحبشة .. وأقبل عمر بن الخطاب يوما فوجد زوجة عامر
ولم يجد زوجها .. رآها تتجه للرحيل والهجرة ..

قال [وينبوع الرحمة في نفسه يتحرك] : أتطلقون يا لم عبد الله ... ؟
قالت المرأة لثقة : نعم والله لنفترجن في أرض الله ، فقد آليتونا وتهرتبونا
.. فنطلق حتى يجعل الله لنا مخرجاً ..

قال عمر : مصيبتكم الله ..
ورأت المرأة في وجهه رقة وحزنا .. فلما عاد زوجها حدثته أنها طابمة في
إسلام عمر .. قال زوجها : لا يسلم حتى يسلم عمار الخطاب ..

قالها من شدة ما كان يجد من عمر ، غير أن احساس المرأة الداخلي ، كن
أقوى من رأى الرجل وحكمه السريع على عمر .. ثم تمص أيام على عجرة
من كان يعذبهم عمر .. حتى أسلم عمر ..

زحزح المهاجرون غطاء يثر أروحة في نفسه .. ولعل عمر أحس الحيرة
بقرار جسم الأمر وقتل الرسول .. وذهب إليه بتوشعها سيفه .. ويقلعه من
جترأ سريره بمسأله إلى أين ؟

قال : إلى محمد لأقتله فتسريح العرب .. ويقول له الرجل ساخرًا :
— ألا تبدأ بأهل بيتك قبل محمد ..

ويسأل عمر قائلاً : أهل بيتي ؟
قال الرجل : أخذك وزوجها .. أسلميا وأنت لا تعرف ..

ويقتحم عمر بيت شقيقته وزوجها ، وعندهما ثاري يقرأ القرآن .. يخشبن
الصحيفة والقارىء فيسأل عمر : ما هذه الهيئة التي سميت ؟

وتنكر أخنه ، ويتدخل زوجها فيبطلن به عمر .. فتنهض المرأة للدفاع عن
زوجها بغضربها عمر فيسبل دما .. ويفجر منظر الدم يتبوع الرحمة داخله ..
انتهى الأمر وسقط غلاف الشجرة الجاف الذي يخلو حقيقتها المظلمة .

ويتوضأ عمر — تمسرا — ليسمعا له بقراءة الصحيفة القرآنية ..
ويقرأ عمر ..

لا ينتهي من القراءة حتى يتعمس سيفه ويخفي نحو الرسول .. اختار
عمر الإسلام دون تردد .. وليكن سيفه الذي ذهب به لقتل محمد .. هو
لصليب السيوف دفعا من محمد ..

ويدي الباب على الرسول وبمه أصابعه .. وينظر أحدهم من شق الباب
فيري عمر بن الخطاب بتوشعها سيفه .. ويعود إلى النبي بالخبر المزيج ..
هذا ابن الخطاب جاء يقصد شراً ..

وينهض الرسول أمرا أن يتركوه له ..

يفتح الرسول الباب ويشد عمر بن الخطاب من سيفه وفيهذه سائلا إياه عما يريد .. وماذا جاء به ؟

وأجلب عمر أنه جاء بشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ..

وكرر الرسول تكبيرة عظيمة ..

ها قد تحققت دعوته : اللهم أعز الإسلام بأحد العيرين ..

وبدأت قریش تحس الخطر بعد إسلام عمر وحزمة .. أن رؤوس مكة وأعظم رجالها مسلمون .. وقبل إسلام عمر كان المسلمون يطوفون بالكعبة سرا ، وعلى استحياء ، فلما أسلم عمر جاهر بإسلامه وتعدى أن يترشده أحد .. وتناصرت الرقاب لتسبح له طريقته للطواف .. وأدركت مكة أنها تواجه دعوة لا تلت أن تقلب الأوضاع في الجزيرة العربية ..

وأدرك الخوف سادة قریش المشركين ، وتقرر أن تنتقل الحرب مع المسلمين من مرحلة الاستهراء والاضطهاد ، إلى مرحلة جديدة كل الجدة ..

تقرر حصار المسلمين اقتصاديا وانصافيا .

عقد المشركون معاهدة لحصار المسلمين ، وعلقوا المعاهدة في جوف الكعبة احتراما لنصوصها ، وكان المشركون يوقرون الكعبة رغم أنهم يبلاونها بالأضنام التي يصدونها لتقريبهم من الله زلي ، وكانت نصوص المعاهدة تنص بالآيبيع أهل مكة للمسلمين أو ييتاموا منهم شيئا ، والا يزوجهم أو يتزوجوا منهم .

وبهذه المعاهدة القاسية ، تقرر نبد المسلمين وقتلهم اقتصاديا .

واضطر الرسول ومن آمن معه إلى اللجوء إلى بني هاشم ، وانعاز إليهم بنو المطلب ، كقهرهم ومؤمنهم باستثناء عدو الله أبي جهل ، فقد وقف مع قریش ضد قومه .

وبدا تضيق الحصار على المسلمين ، وانقطع عنهم الطعام والشراب ، حتى بلغ الجهد انصاء ، كان الصحابة إذا قدمت قافلة إلى مكة ، وذهب أحدهم إلى السوق ليشتري الطعام لعيله ، قام أبو لهب يقول للبائع ، يا معشر التجار خالوا على أصحاب محمد حتى لا ييتاموا منكم شيئا ، وأنا ضامن أن لا ضرر عليكم ، فسوف أبتاع منكم ما يصحرون عن شرائه .

ويغلى التجار في السعر اضماضا مضاعفة حتى يرجع المسلم إلى عياله وليس في يده من القوت شيء . ثم يذهب التجار إلى أبي لهب فيشتري منهم بالأسعار التي يحز المسلمون من الأثراء بها .

واستمرت الحرب حتى تعب المؤمنون وجاعوا وتعمروا ..

كم تظن الوقت الذي استغرقتة الحرب الاقتصادية ..

استغرقت هذه الحرب ثلاث سنوات كاملة .. حتى بلغ الأمر بسعد ابن أبي وقاص أنه خرج يوما ليقضي حاجته ، فسمع نغمة تحت البوول ،

فإذا قطعة من جلد بعير يلبسة ، غاغضا وغسلها ، ثم أحرقتها وفتتها وسبها بالماء ..

كانت طعنه ثلاثة أيام .

وخلال هذه السنوات الثلاث كان الوحي ينزل على الرسول متجمعا على هذا البلاد العنيف .

وكان الله يرى اتباع دينه على احتمال كل الظروف ، ورغم أن مخالفة المسلمين استمرت ثلاث سنوات ، لم يتوقف نشاط الإسلام ولا خيد توجهه لو قل انتشره .

كل المسلمين يلقون غيرهم في مواسم الحج ، فيحدثونهم عن الله ، ويدعونهم إلى رحبته ومغفرته ، ويزدادون تمسكا بما تضمنه قلوبهم من الحق .. وشهدت هذه الجماعة والصلابة أنظار عديد من الناس ، فدخلوا في الإسلام ، وبدأ المشركون ينقسمون على أنفسهم ويتسلطون من صواب ما فعلوا . وبدأت الغيرة على الحق تغزو القلوب . كما لعبت معصيات القرابة بين غير المسلمين دورها ، فسلطت قريش الصحيفة ، بعد جدال واختصار .

وانتهت الحرب الاقتصادية ضد المسلمين باجتماعهم لها ، وصبروهم أقوى مما كانوا . فقد المسلمون وفقد أطفالهم كثيرا من الورن ، وصاروا أشباحا يسير في الطريق ، ولكن عددهم يزيد ، وإيمانهم يزيد ، وقتلهم بالله تزيد ..

• • • • •

وبجاء عام الحزن على الرسول .

لم يكد الرسول بنفس السعداء بعد أمواج الحصار الثلاثة ، ويعود لاستئناف حياته ودعوته .. حتى نوحى بوفاة زوجته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها .. ووفاة عبه أبي طالب على ملة الأشياخ من أجداده . وكان أبو طالب رجلا عظيم الهيبة في مكة ، وكان إيذاء النبي محدودا لحباية أبي طالب له ..

لما خديجة نهى واحدة النس وملاذه ، وهي الطيب الرحيم الذي احتضن ثامله قبل الرسالة ، واحتضن آله بعد الرسالة . وكانت له نعم الرفيق والزوج والصديق والخاتم .

وحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها حزنا عبقيا . حتى سسى المؤرخون هذا العلم بعلم الحزن .. وفرح المشركون بأحزان الرسول ، سرهم أنه صار بلا شيع يدفع منه ويحبه .. وبلا زوجة تخلف متاعبه وتواسيه . وازداد إيذاء قريش للنبي صلى الله عليه وسلم .. واختار المشركون وقتا ذبحت فيه ذبائح مكة ، وأحضروا أعياء جبل ذبيح والقوه على كتفى النبي وهو ساجد لا يرفع رأسه .

وبلغ الخبر ابنته عاتبة ، فجاءت مسرعة تحمل عن أبيها وتدافع عنه ، في بيئة ينتظر أن تصفر الحباية فيها من الأب .

وحز في نفس النفس أنه صار الى وضع تدافع فيه عنه ابنته .
وصبر النبي في الله واحتل .

وفكر يوما أن يتوجه الى الطائف حيث تقطن ثقيف .. لعله قال لنفسه :
إذا كنت القلوب هنا قد تجيئت على الباطل ، فلأذهب الى ثقيف .. لعل
الله يفتح للدعوة شفا تنفذ منه .

كان الحصار العام على الدعوة قد اشتد ولم تعد تستطيع أن تخط
خطوة واحدة الى أمام .. ولزمج هذا النبي صلى الله عليه وسلم . وحاول أن
يكسر النطاق الضروب حوله فذهب الى الطائف . والمسافة بين مكة والطائف
تزيد عن ستمين كيلو مترا . سارها النبي صلى الله عليه وسلم على قدميه ،
ذهابا وعودة .

لا نعرف أي لتكار عبرت ذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
ذاهب يدعو هذه القبيلة الكفيرة الى الله . كل ما نعرفه أنه ذهب اليهم يحمل
رحمة الدنيا والآخرة ، بلقوة لقاء الجاهلية ، وأساموا اليه وكذبوه . ومكث
عشرة أيام يتردد على المنازل والاسواق والطرق فلا يستمع اليه أحد .
ولا يؤمن بدعوته أحد ، ويزداد الناس تهجما عليه واستهزاء به .

وجاء اليوم الأخير الذي قرر فيه أن يمسود الى مكة ، ووقف النبي في
الطائف ورجا من النفس أن يكموا سر زيارته لهم حتى لا تزداد شماتة
مكة في الاسلام وعداوتها له ، ورفض أهل الطائف هذا الرجاء الأخير .

ولم يكتفوا بذلك ، وإنما صنعوا به شر ما يصنع الإنسان بالإنسان . سلطوا
العمال والحمقى والأوغاد والأوباش فوقفوا صفين يرمونه بالحجارة ويسخرون
منه . وخرج النبي من الطائف والعمال والكبار يضربونه بالحجارة ، وأصيب
عليه الصلاة والسلام في قدميه ، فسالت منها الدماء ، واضطروا الطاردين
الى أن يلجأ لبستان يملكه اثنان من أغنياء الطائف . وهناك جلس تحت
ظل كرمة فيه . وكان صاحبا البستان فيه نصرقا الأوباش عنه ، ورق
قلباها لمرأى المطارد الجريح فأرسلا اليه منقودا من العنب مع خادم لهما ،
وكان خادما نصرانيا يدهي عداس .

وضع الخادم منقود العنب أمام الرسول ، فمد الرسول يده اليه قائلا :

— بسم الله الرحمن الرحيم .

قال عداس للنبي : ليس هذا كلام أهل هذه البلدة .

سأل النبي : من أي البلاد أنت .

قال عداس : أنا نصراني من نينوى .

قال النبي : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى .

قال عداس : ما يدريك ما يومس .

قال النبي : ذلك لحي . كان نبيا وأنا نبي .

أكب عداس على قدمي الرسول ويديه يقبلهما ويبكي ..

كان هذا النصرانى المؤمن هو الاصلفة الوحيدة التى خرج بها الاسلام من الطائف ، وهى اصفية دفع الرسول لثمنها لسبعين من رقبته وايمنه ودميته التى سلّلت من حجارة الرماح .

وعاد الرسول الى مكة . عاد مرفوضا من الطائف ليجد نفسه مرفوضا فى مكة . رغم ذلك . مضى القلب العظيم المثل بالحرز فى دعوته وجهاده . وكلما ازدادت حرب الكراهية والعناد زاد القلب من جهده وبرهنته . وجاءت على النسي اوقلت بدا فيها الاسلام غريبا ، وبدا فيها النبى وهيدا لا ناصر له . . وفى هذا الوقت بالتحديد . .

حين بدا أن الناس قد تخلوا من النبى . . تدخلت السماء ووقعت اعظم معجرات النبى صلى الله عليه وسلم . .

وقعت معجزة الاسراء والمعراج . .

وهى معجزة لا علاقة لها بالدعوة الاسلامية . لم تأت تأييدا لهذه الدعوة لو اثباتا لها . اتما جاءت تأييدا للنبى وحده . . وتشريفا له وحده . . وتكريما له وحده . . وكائما لراد الحق عز وجل أن يقول للنبي . .

اذا كل اهل الأرض لم يعمدوك . . فان السماء تعرف لك قدرك من الحمس .

واذا كان الناس يرفضون دعوتك ويرفضونك ، فان الله عز وجل يجتنبك ويشارك ويدعوك اليه ليريك من آياته الكبرى .

تسطع معجزة الاسراء والمعراج . . فى تاريخ الانبياء . . كمعجزة غريفة لا مثيل لها فى قصة نبى آخر . .

لقد رأينا فى الانبياء من يسبهم الرهن لحياءه واخلاءه . كابراهيم ورأينا فى الانبياء من يكلمهم الله تعالى بصير واسطة . . كموسى

ورأينا فى الانبياء من يؤيدهم الله تعالى بالروح القدس . . كميسى

لكننا للمرة الاولى لنام نبى يدعوه الله تبارك وتعالى اليه . .

فيصعد مع جبريل بجسده وروحه حتى يقف جبريل عند مكانته ويتقدم نبينا وحده .

وتلك درجة من درجات التكريم التى تتوقف عندها الاتلام حجازا من التعبير واشفاقا من مجرد المحاولة .

ولقد رأينا فى قصص الانبياء نبيا يسأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، ويسأله الله لثم يؤمن بعد ؟ ويرد ابراهيم بأنه مؤمن يريد أن يطمئن قلبه .

ولقد رأينا فى قصص الانبياء نبيا يندفع بحب الله فيسأله :

« رب ارنى انظر اليك » [١] ويرد الله على موسى باستحالة الرؤية على البشر

(١) من الآية ١٤٢ سورة الاعراف بحجة .

ويعلم الله موسى ان أي كيان مخلوق .. لا يحتل تجلى الخلق عليه .
 أما محمد بن عبد الله .. فلم يكن يسأل ربه معجزة أو خارقة ، لم
 يكن يسأل الله الرؤية . ولم يكن يبحث عن طائفة قلبه .
 كان حبه لله تعالى من نوع يصعب على كبار المحبين وصفهم على
 السواء فهمه أو ادراك أعمقته .
 ولم يكن حبه هذا من نوع يثير الاسئلة .. تجاوز حبه درجة السؤال
 إلى درجة الاسلام والرضا .
 كان كل ما يخلق النبي هو رضا الله تعالى عنه .
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخرج برمواضا مطرودا
 جريحا من الطائف :
 — ان لم يكن بك غضب على فلا أبالي .
 فنظر إلى درجة الحب ، كيف تسلمته إلى ذروة التواضع ، فهو يقول :
 ان لم يكن بك غضب على .. كآته لا يطمع في الرضا .. حسبه عني
 الغضب ..
 لقد كان أحب الرسول صلى الله عليه وسلم مع ربه عز وجل هو الأدب
 الثلاثي بأول المسلمين وأكملهم ..
 ومن حق أول المسلمين وأكملهم ان يؤتى سؤاله بنهر ان يسأل .. وان
 يكرم بنهر ان يتوقع .. وأن يجلب إلى ما سألته الأنبياء قبله فلم يجابوا
 إليه ..
 وذلك كانت معجزة الإسراء والمعراج .
 وهي معجزة هفتما تكريم الرسول في شخصه .
 وهي معجزة تثير حوار العقل والقلب معا ..
 ان كل أنبياء الله بلا استثناء .. كانوا يلعبون بمعجزات تفتح على
 الأرض .. حتى الأنبياء الذين رفعوا إلى السماء كادريس وعيسى جاء رفيعهم
 أنقادا لهم من القتل أو الصلب .. وكانت معجزتهم في الرفع نهاية لنشاطهم
 على الأرض .
 وهذه هي المرة الأولى التي تلقى فيها بمعجزة مكانها الرئيسي في
 السماء .. معجزة تبتل في نبي يرفع إلى السماء بجسده وروحه وهو
 حي .. وهناك يريه الله من آياته الكبرى ، ثم يعود إلى الأرض ، حيث يكون
 عرضة لما يعرض له أهل الأرض من شقاء علم .
 لقد كان محمد بن عبد الله .. هو أول بشر يتجاوز كوكب الأرض
 ويتجاوز الأتار والشموس والنجوم والمجرات ويصعد .. ولقد شهدنا في
 عصرنا أول أنسلن يرتاد الفضاء . وكان الفضاء الذي استطاع البشر بلوغه
 بعد 14 قرنا من نزول الرسالة المحمدية هو الفضاء بين الأرض والقمر ..
 فحرب كوكب إلى الأرض .. ومنذ أربعة عشر قرنا ارتاد نبي الإسلام الفضاء
 وتجاوز ما لم يعد علم .. حتى وصل إلى معرفة المنتهى .. وصل إلى قمة
 المنتهى ..

وصل الى حيث ينتهي الكون المخلوق .. وبدأ عالم العيب . البصير
الجنة جزءا من عالم العيب . لقد وصل الى الجنة .. وهي جنة يسميها الله
جنة المأوى .. وصل الى مستوى تتقطع عنده علوم الخلائق ، ولا يدري
حقيقته الا الله .

ومعجزة الاسراء غير معجزة المعراج .. وان وثقا في ليلة واحدة ..
ووردا بعد ذلك في سورتين مختلفتين في القرآن الكريم .

قال تعالى عن معجزة الاسراء في سورة [الاسراء] :

« سبحان الذي اسرى ببعد ليلة من المسجد الحرام الى المسجد
الاقصى الذي باركنا حوله لتريه من آياتنا انه هو المسيب
البصير » . [١]

وقال تعالى عن معجزة المعراج في سورة [النجم] :

« ولقد رآه نزلة اخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى .
اذ يفتش السدرة ما يفتش . مزارع البصر وما طوى . لقد رأى من
آيات ربه الكبرى » [٢] .

• • • • •

في ليلة الاسراء والمعراج ..

طاف النبي عليه الصلاة والسلام حول الكعبة وهو يدمو الله .
كل شلح الوجه دافع المنيين .

لم يكن يطوف معه احد . كلن يطوف وحده . وراح الكفرون
والشركون يرمونه بنظرات الكراهية وهو يطوف ويدمو .
ونظر الله سبحانه وتعالى الى ميده .

وانسدر الحق تبارك وتعالى ليره الى الروح الامين جبريل عليه السلام
ان يصحب ميده محمدا صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد
الاقصى ، ثم يصعد به في السماء ليري من آيات ربه الكبرى .

• • • • •

في بيت شريف ومخير من بيوت مكة . كان النبي عليه الصلاة والسلام
نائما .. وجاء منتصف الليل .. وصدرت الاوامر المسليمة للكون ان
ينشر اجنحته على الصحراء ، وان يستعين بالسلام المهيق ، ويلغ السكون
غاية حلاله ، صمت طيور الليل مدهوشة ، وارهفت سمعها . وهدأت
الوحوشي في الصحراء وارتعش قلما بالحب ، وراحت مياه زمزم تسيل
برفق وبلا صوت . كانت الرياح تطير في صمت وقد توقفت عن الصفير
وراحت هي الاخرى تستمع ، واهتز قلب الارض بالرهبة وجبريل يلمس
للصحراء ويخل بيت الرسول .

(١) الآية ١ سورة الاسراء مكة .

(٢) الآيات من ١٢ - ١٨ سورة النجم مكة .

وقف جبريل عليه السلام عند رأس النبي ونظر اليه بهيب .
 ايتقلت نظركه الرسول ففتح عينيه ونهض من فراشه .
 قال جبريل للنبي : السلام عليك ايها النبي الكريم .. يريد الله ان ترى
 ممضي آياته في الكون .
 سار جبريل وسار معه النبي .
 خرجا من البيت ، وهنا شاهد النبي « البراق » .

مخلوق يشبه الطائر وله أجنحة كأجنحة النسر ، مخلوق صنع من
 البرق ولهذا سمي البرقي . والبرق كهرباء .. والكهرباء ضوء .. والصوت
 هو أسرع ما يعرف على الأرض من كتلتك ، ان شعاع الضوء يقطع في
 الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، وأي جسم يسير بسرعة الضوء يتحول إلى
 ضوء . هذا قانون علمي .

ولقد رجح بعض العلماء أن تكون قوة الضوء وسرعته قد استغلنا في
 الرحلة ، ويطينن قلبنا لهذا الترجيح ، وأن كان الفوض يشيع في الأسلوب
 الذي استخدم في هذه الرحلة . أن القرآن تجاوز وسيلة المواصلات التي
 استخدمت في الرحلة إلى مدى الرحلة البعيد .. وهو أن يرى الرسول من
 آيات ربه الكبرى .. وأن روت السنة المطهرة أن النبي ركب البراق . وهو
 دابة تصنع طرفها عنقودية نظرها ، وذلك رمز تعبري ل سرعتها الموهلة .

لن نقف عند مركبة الفضلاء التي استغلنا في الرحلة .. ولن
 نسأل كيف اخترق النسي موالم الفضاء دون تعريب سابق ، وكما هو الوقت
 الذي استغرقه في الذهاب والعودة ، ولن نسأل عن سرعة البراق ..
 ولن نمجبه من هذا العزو للفضاء وتجاوزة .. لن نسأل عن هذا كله لأن
 قلنا اجابة واحدة كافية .

لقد شاء الله تبارك وتعالى أن يقع ذلك .

قال لهذا كله : « كن » ، فكان .

اختلف العلماء هل كل الاسراء والمعراج بالروح وهذه ، أم بالروح
 والجسد معا .

وأهل المعينة على أنه كان بالروح والجسد . ولقد أوقع في الضلال
 اختلاف المثل ، والوقوع في مصيدة « كيف » .. والفتاوى من شجرة
 الله .. ومحاولة اخضاع هذه القدرة لأسبغنا المتلاذ أو قوانيننا العاكمة
 لو منطلقنا البشري ..

سبحانه وتعالى عن ذلك .

يسأل الناس كيف صعد الرسول بالروح والجسد إلى قمة القيم في
 السماء ثم عاد دون أن يريد فرائشه .. أي معجزة هنا تزيد على معجزة
 تحول النطفة إلى إنسان . أو معجزة تحول البذرة إلى شجرة .. أو معجزة
 احياء الماء للأرض أو ربه للمطش . أو معجزة الحب الذي يربط بين قلبين
 دون سعة معرفة .

اتحنى البراق للنبي فركبه النبي ومعه جبريل ، وانطلق البراق كسهم
من الضوء فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجها الى الشمال .

تسار جبريل الى جبل سينه فتوقف البراق ..

قال جبريل :

— في هذه البتمة المباركة كلم الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام .
وعاد البراق ينطلق حتى وصل الى بيت المقدس .

هبط النبي من هذه الطفرة التي تسير أسرع من الضوء ملايين المرات
ولا تتحول الى ضوء .

صار النبي مع جبريل ومخبر بيت المقدس .

دخل المسجد فوجد كل انبياء الله ينظرونه هناك . بحث الله صور
انبيائه من الموت وجمعهم في المسجد الأقصى .

قدم اليه الملائكة أثناء غيبه لين واناء غيبه خبر ماختر اللبث وشرب .

قيل له : اخترت الفطرة وسوف تختار امتك الفطرة .

التفت الانبياء حول الرسول وحزن وقت الصلاة .. تسائل الانبياء
بينهم وبين أنفسهم : ايهم يكون اماما لهم في الصلاة .. هل هو آدم أم نوح
أم ابراهيم أم موسى أم عيسى ؟ ..

وقال جبريل عليه السلام لحمد : ان الله يأمرك ان تصلى بالانبياء .

ووقف الرسول ، وصلى بالانبياء .. كفتوا جميعا مسلمين ، وكان هو أول
المسلمين ..

من المنطقى ان يكون اماما بالانبياء .. مثلما جاء كتبه مهيبا على ما سبته
من كتب ..

قرأ لهم القرآن ، وبكى وهو يقرؤه ، وأبكى خشيوعه الانبياء ، وحين سجد
الانبياء وراء امامهم ، سجدت الأشجار والنجوم ..

انتهت الصلاة فاختفى الانبياء .. عاد كل نبي الى السماء التي يعيش فيها
.. خرج النبي من المسجد مع جبريل فركبا البراق ..

مثل سهم من الضوء ارتفع البراق الى أعلى .. ثم الى أعلى ..

مر على السماء الأولى ، فشهد النبي آدم ..

ونادى رب العالمين :

— ليرتفع عبيدي لكثير ..

وارتفع عبد الله محمد بن عبد الله ..

تجاوز السماوات سماء سماء ..

تجاوزها مكانا مائيا ، وتجاوزها مكانة روحية .. كان يتهاى ليقف في
الحضرة الالهية ، وكان يرتفع ويرقى روحيا في سرعة نقل عنها سرعة الرق .

تجاوز مكانة آدم عليه السلام الروحية في السماء الأولى .. وتجاوز
مكانة يحيى وعيسى ، عليهما السلام ، في السماء الثانية ، ونادى رب العزة :
— ليرتفع عبيدي أكثر ..

وارتفع عبد الله ونبيه أكثر وأكثر .. تجاوز السماء الثالثة والرابعة
والخامسة والسادسة والسابعة ، وتجاوز الكون كله مادة وروحا وجوهرا
وحقيقة وواقعا وحكما وراح يرتفع ..
اخيرا وصل الى سدرة المنتهى ..

وصل الى المكان المقدس الذي يسميه الله تعالى سدرة المنتهى .. وهناك
شاهد النبي جنة المأوى ..

وشاهد ما لا تعرف ولا تفهم ولا تتصور ..

— «اذ يغشى السعرة ما يغشى» [١] ..

لقد وقع لهذا المكان ما وقع له ..

بهذا الحلال الخاضع الموحى ، يضرنا الله من وجل أن أمورا قد وقعت ..
وأن كلن يغشى عنا كنه ما حدث ..

هذا الذي أخفاه الله علينا .. شاهده الرسول بنفسه .. هو معجزة خالصة
به .. هو درجة من درجات الحب لا يكلف السكابر عنها ، لارتفاضا عن
مستوى الإدراك البشري ..

ونادى رب الجنة والنار :

— ليرتفع عبيدي أكثر ..

وارتفع عبد الله محمد بن عبد الله .. صلى الله عليه وسلم — أكثر .. نظر
الى جبريل من خلقه فوجده يقف في مكانه مسجعا لله .. لم يكن جبريل الآن
على صورته البشرية التي شاهده النبي عليها في الأرض .. عاد الروح الأمين ،
عليه السلام ، الى صورته الملائكية التي خلقه الله عليها .. وحقق النبي في
جبريل عليه السلام .. وهو آية الله الكبرى التي وعد الحق أن يريه
فيها ..

«ما زاغ البصر وما طغى» [٢] ..

كانت الرؤية بالقلب والحين والحواس المعروفة وغير المعروفة .. كانت
رؤية واضحة .. ليس هناك حلم .. ولا استجماع ذهني لوحدته الوجود ..
ولا فترة تألق نفسي لمذ .. ولا تخيل ولا تصور .. ولا جهد ولا قصد ..

لا شيء من هذا كله ، لأن الأمر أبعد وأخطر من هذا كله ..

لقد رأى الرسول بحسده وروحه ..

(١) الآية ١٦ سورة النجم مكة .

(٢) الآية ١٧ سورة النجم مكة .

« ما زاع البصر وما ظنى » [١] ..

وعاد النبي يرتفع أكثر .. وأكثر ..

راح يصعد حتى وقف بين يدي جدار السماوات والأرض ورحبت الدنيا
ورحيم الآخرة ..

.....

سجد أول المسلمين لرب الكون وهو يقول :

.. النحيات المباركات والصلوات الطيبات ..

قال الحق عز وجل :

— السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ..

مسحت الملائكة بقولها :

— السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ..

هذه العبارات هي بداية « التحيات » التي يرددها المسلمون في صلاتهم كل
يوم .. ولقد فرضت الصلاة على المسلمين في هذا الموقف العظيم .. فرضت
في لحظة ترقى النبي وصموده في السماء صموداً إلى الله بالروح ،
خمس مرات في اليوم ..

ومن التمييز عند عامة المسلمين أن الله فرض على النبي خمسين صلاة في
اليوم ، فنزل النبي فلقى موسى فساله عن عدد الصلوات التي فرضها الله على
أبيه ، فحدثه أنها خمسون ، فقال موسى : أن أبوك لن تطيق تارجع إلى ربك
فساله أن يخفف عنهم .. وعاد النبي إلى ربه فخفف عن أمته عشر صلوات ،
وعاد النبي إلى موسى ، فعاد يحذره ، فعاد إلى الله حتى انتهى الأمر بالصلوات
الخمسين إلى خمس صلوات .. وللخمس ثواب خمسين ..

وليس لهذه القصة سند في كتابات العلماء المدققين ..

ومعتقد — اعتياداً على الحدس الداخلي — أن القصة السابقة مع اختراع
اليهود الذين أسلبوا وملأوا الكتب حكايات خرافية نسبوها إلى الرسول ..
يؤيد هذا الظن ، اختيار موسى ليكون هو النبي الذي يقترح التخفيف عن أمة
محمد ، ويكون هو النبي الذي أدرك ما لم يدركه محمد ..

وبدعونا لرسم القصة .. يتبين بأن لقاء الحق عز وجل أو الوقوف بين يديه
سمعته له من الجلال والمهابة ما يمنع النبي إذا انصرف أن يعود ..

ويتوى ظننا في نسبة القصة إلى اليهود .. أنها تعمل نفسية اتحاد اليهود
الذين أمرهم موسى بذبح بقرة ، فراحوا يعذبونه بكثرة الأسئلة ، وكثرة دعاته
لربه وسؤاله إياه ولجؤته إليه ..

إن الساء الداخلي لقصة بقرة اليهود ومفلووساتهم مع موسى ، يتفق مع الساء

(١) الآية ١٧ سورة النجم مكة .

الداخلي لتتمة الخمسين صلاة التي تحولت الى خمسين صلوات .. مما يوحى
ان مؤلف القصة الأخيرة من أحناف المفاوضين ذوي اللجاجة القديسة ..

القصة لدينا مستبعداً إذن ..

ومعظم ما حفلت به الكتب مما رآه النبي في رحلته مستبعد هو الآخر ..
كان الموقف مزيجاً من الحلال والمهابة والرحبة .. شاهد النبي وري أشياء
يعجز اللسان عن التعبير عنها ، وتغوى كل ما يحيط به فحسم الإنسان
وإدراكه ..

ولقد تجاوز السياق القرآني ما رآه النبي — لأنه سر من الـبي وربه ،
وبحجزة خاصة بالنبي وتكريم لشخصه وحده — تجاوز السياق هذا ليؤكد أنه
رأى من آيات ربه الكبرى ..

ونحن لا نعرف ماذا رأى النبي .. كل ما نستطيعه أن نتصور أن النبي سجد
خشوعاً لربه ويكفي من الفرح .. ذهبت أحران قلبه الى الأبد ، وسكنه مصمور
الفرح الأزلي ..

بعد أن رأى النبي السر ..

بعد هذا التشريف والتعظيم ، عاد النبي الى البراق وركبه وانطلق به جبريل
عليه السلام عائداً الى الأرض ..

عاد لوحده فرائسه لم يبرد بعد .. كيف ذهب وجاء وفرائسه لم يبرد بعد
.. كم من الوقت استغرقت هذه الرحلة .. الله وحده هو العليم .. كل
ما نعرفه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد الى فرائسه بعد الأسراء
ولمعراج ..

قلبه هو الفرح ..

وصدره يتلوه سكينة راضية وغناء في الله مستطاب ..

.....

وجاء الصباح عليه ..

حدث النبي عن رحلته فآمن به من آمن ، وكفنه من كذبه فلم يعبأ ..
عاد النبي كساحه الصلوات لنشر دعوة الله في الأرض ..

وجاء عليه وقت أدرك فيه أن الدعوة الإسلامية قد هوصرت في مكة ..
وبدا الموقف يتجدداً بخير صالح المسلمين ..

وتحرك الرسول بدعوته خطوة ..

أوحى الله اليه أن يهاجر ..

انتهى الأمر وبدأت رحلة المهاجر الى الله ..

بعد ثلاثة عشر عاماً في مكة ...

يريد الإسلام أن يبنى دولته ويتحول من الحصار والدفاع إلى كسر الحصار
والهجوم ..

وليس كالهجوم وسيلة للدفاع عن النفس والعقائد ..

في البداية وقع تحول صغير في موقف المسلمين ..

اتكسر الحصار حولهم حين وقعت قبائل من المدينة ودعاهم الرسول إلى
الإسلام فأجابته ، وكان عرب المدينة يجاورون اليهود ويسمعون منهم عن نبي
تبشر به صحف التوراة ..

وخرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في موسم الحج ليعرض نفسه
على قبائل العرب ، كما كان يصنع في كل موسم ..

كان عند العقبة .. فلقى جماعة من الخزرج ..

قال لهم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج ..

قال : أين موالى يهود ؟

قالوا : نعم ..

قال : أفلا تجلسون أكلبكم ؟

قالوا : نعم ..

جلسوا معه فدعاهم إلى الله . وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم
القرآن ..

استمع إليه الرجال الستة صامتين ، فلما انتهى صدقوه وآمنوا به وقبلوا
ما عرضه من الإسلام عليهم ، وحدثوه بأنهم تركوا قومهم يخوضون رمل
الكراهية والحرب ، فعسى الله أن يجمعهم بهذا الرسول الكريم .. أخبروه
أنهم سيحدثون قومهم عنه ، ويدعونهم إلى ما دعاهم إليه ..

وانصرف الرجال الستة حادين إلى المدينة التي صار من حلقها أن تسمى
المدينة المنورة .. كان اسمها يثرب في الجاهلية ، ثم تغير اسمها إلى
المدينة المنورة ..

شاء الله أن ينورها بالإسلام ، وانطلقت الشرارة من مكة المحاصرة ، إلى
المدينة المنورة ، الطيبة الوفود .. ولم يكد الرجال الستة يعودون إلى المدينة
وهم يحملون الإسلام في قلوبهم ، حتى دخل الإسلام أكثر من بيت ، واستدار
العام ، وأقبل موسم الحج ، وخرج من المدينة اثنا عشر رجلاً ، من الذين
أسلموا - ليهم الستة الذين كتبهم الرسول في الموسم السابق - ولقيهم النبي
بالمعقة .. وعقد معهم بيمته على الأيمان بالله وحده ، والدفاع عن دعوة الحق
وانسانية الاتصان .. وعاد الرجال إلى المدينة ومعهم أحد القنصات الأكفاء من
رجال الإسلام .. وهو مصعب بن عمير ، ليكون رسول رسول الله في المدينة
يفقه الناس في دينهم ، ويقرأ عليهم القرآن ، ويدعوهم إلى الحق .. وانتشر
الإسلام في المدينة ، وبدأ أهل المدينة يتسلطون :

لماذا يستضيف اخواننا المسلمون في مكة ؟ .. ولماذا يخرج الرسول لهدو
الى الرحمة فلا يتلقى غير الكراهية ؟ .. وحتى متى نترك رسول الله مضطهدا ،
مطاردا في جبل مكة ؟ .. واى خير لنا اذا لم نصنع من جلدنا طريقا يشى
نوقه هنا في المدينة ؟ ..

وهكذا رحل سبعون رجلا الى مكة ..

سبعون رجلا من اهل المدينة المنورة ..

نسلخوا الى العقبة مرادى وجباعات .. اثبر الاسلام ثمرته الاولى في
قلوبهم ، غابتلات حبا لله ورسوله والمسلمين .. وصار الم المسلمون يعينهم
على تثلي الامصار والديار ، ويؤثر في نفوسهم ويخرجهم نعمة النوم ، ومذاق
الطعة ، ومعنى الحياة ..

جاء هؤلاء الأبرار يبايعون الرسول على الدفاع عنه ونصرته وحملته
والموت في سبيله ..

جاءوا بعد ان غزا الاسلام قلوبهم ، لا يريدون ان يخلوا ..

جاءوا يملون بلا حدود .. ويتسبون بلا تحفظ .. ويمنعون كل شيء للدعوة
الجديدة ..

جاءوا عاشقين .. والاصل في العاشق ان يعطى مقصورا انه يأخذ ..
تروى كتب السنة المطهرة ما وقع في بيعة العقبة الكبرى ، فنقول ان العباس
ابن عبد المطلب جاء مع النبي ، وهو يومئذ على دين قومه .. اراد ان يحضر
ابن ابن اخيه ويستوثق له .. فلما جلس وتكلم قال كلمة تفيد ان محمدا في
عزة من قومه ومنعة في بلده ، لكنه يأبى الا ان ينهار لكم ويلحق بكم يا اهل
المدينة ، نادا كنتم ستونون بعهده وتحصونه لمخلوه ، وان خشيتكم لن تخلوه
وتسلموه فمن الآن اتركوه في بلده ..

كانت كلمة العباس بن عبد المطلب كلمة تفيض من منابع العصبية القبلية
وروابط الدم الاسرية .. وتجاوز اهل المدينة كلمة العباس ، فهو ليس على
دينهم ، ولا يستطيع ان يدرك المدى الذي وصلوا اليه في حب الرسول ..

انتظر العباس بن عبد المطلب جواب اهل المدينة فقالوا له : قد سمعنا
ما قلت .. فتكلم يا رسول الله ، واخذ لنفسك وريك ما احببت ..

نريد ان نتوقف عند جواب هذه الطليعة المؤمنة من اهل المدينة .. ليتكلم
رسول الله .. ان الجواب الذي يبحث عنه العباس بن عبد المطلب كامن في
كلام النبي .. انتهى الامر ولم يعد لهم بعد كلام رسول الله كلام ..

يكفى ان يتكلم هو .. ليطيعوا هم .. ها هم اولادهم يأتونه ان يأخذ لنفسه
وربه ما احب ان يأخذ .. لم يعد لهم في أنفسهم ملك ولا تحكم ..

وتكلم النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ودعا الى الله وتحدث عن
الاسلام وياهم على ان يمشوه مما يمشون منه نساءهم وأبناءهم فليبعوه ..
هكذا تمت بيعة العقبة الكبرى ..

ولقد ادرك هؤلاء المختارون من الله ، انهم سيبدعون الى سبوعهم قريبا ،

وسيدعون الى الموت تحت ظلال السيوف .. وطمانوا الرسول الى انه
سيجدهم أثناء الحروب ورثوه كثيرا عن كثير ..

وأثار أحد السبعين مسألة عامة .. قال ابو الهيثم : ان بين عرب المدينة
واليهود حبسالا ، واتهم لقاطعوها ، فما هو الموقف ان فعلوا ذلك وخاصنوا
اليهود ، ثم نصر الله النبي ، وأظهره على قومه ، فعاد اليهم وتركهم تحت رحمة
اليهود ..

لاحظ ان السؤال يلف ويطوف حيا حول النبي .. ورغبة في بقلته معهم على
امتداد الأيام والشهور ..

ان القضية التي طالب العباس بن عبد المطلب بإصلاحها ، وهي قضية
حليتهم للنبي ، ليست واردة في نقض المختارين من أهل المدينة .. القضية
التي يهرسون عليها هي قضية حلية النبي لهم هم ، هي بقاؤه معهم
بالمدينة ..

تبسم النبي وقال كلمته التي تضع أواصر العقيدة فوق أواصر الدم ..
قل : بل الدم الدم والدم المدم .. لنا منكم وأنتم مني .. أحارب من حاربتهم
واسلم من سالمهم

اتصرف أهل المدينة عاكدين الى بلادهم ، وتسربت أثناء هذه السيرة الى
رؤساء مكة ومشركيها ، فزادوا من ضيقهم على رسول الله والمسلمين ..
واجتمع جماعة مكة في دار الندوة ، وقرروا اتخاذ قرار حاسم بشأن النبي ،
اقتراح أحدهم ان يقيد في الحديد ، ويلقى في السجن حتى يموت جوعا .

واقترح أحدهم ان ينفي من مكة ويطرده منها وتنقض قريش يدها منه .
واقترح أبو جهل ان يأخذوا من كل عائلة من عائلات قريش شيئا قويا ، ثم
يعطوا كل واحد منهم سيها ياترا ، ثم يصره غربة رجل واحد ، فإذا انقضى
تفرق منه في القبائل كلها ، ومحرت بنو هاشم عن قتال العرب جميعا ..
وقلت فيه الدية ..

أحكمت أطراف المؤامرة ، واتفق على موعد التنفيذ ، وكشف القرآن الكريم
تدبير الذين كفروا في قوله تعالى :

« **واذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ
بِكَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرُورِينَ** » [١] ..

أوحى الله الى نبيه ان يهاجر .. واتخذ النبي بأسباب النجاح كلها في البداية
.. كتم أمره فلم يحدث به حتى صاحبه الذي علم انه سيرافقه .. واستأجر
عليه الصلاة والسلام دليلا خبيرا يعرف الصحراء مطلقا يعرف خطوط كنه ..
ومن المدهش ان هذا الدليل كان مشركا .. وهكذا استعان النبي بأهل الكفاية
دون نظر الى عقائدهم أو احتمالاتهم ..

وجاءت ليلة تنفيذ الجريمة .. وأمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم [على
ابن أبي طالب] أن يتسلم في فرائض هذه الليلة ، وجاء منتصف الليل فخرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته .

[١] الآية ٢٠ من سورة الانفال مدنية .

كان لمثيل مكة يحاصرون البيت ، وقد توشعوا سيولهم .. وأمسك النبي قبضة من التراب ورماها على القوم فتمسوا ، واخترق النبي حصارهم .. خرج من مكة مهجرا ..

بهذه الخطوة المباركة يؤرخ المسلمون أعوامهم .. السنة في الاسلام سنة هجرية ..

يؤرخ لميسى مولده .. وهذه هي السنة الميلادية ، أما أعوام الاسلام فيؤرخ لها بأول خروج في سبيل الله ..

وأول خروج من مركز الصف والحصار والاضطهاد .. الى مركز القوة والانتشار والهجوم .. لم تكن هجرة الرسول فرارا من الاضطهاد نصيب ، وإنما كثرت سببا من التجديد .. لم تكن الهجرة خروجا الى الأمن ، وإنما كثرت هروجا الى الخطر ، كان الاسلام في مكة يدافع عن نفسه بمهرد الدفاع ، وحين خرج الى المدينة دافع عن نفسه بالهجوم ..

وطوال الأعوام التي نضاهها النبي في مكة ، لم يحمل أحد المسلمين سلاحا في سبيل الله ..

وحين خرجوا الى المدينة بدأ حمل السلاح ، وبدأ مد المعارك ، وبدأ الاسلام يحمل السيف مثلما يحمل الجراح مشرطة للشقاء والصحة ..

أعرك النبي أن الاسلام لن يقضى عبره في صد الهجوم عن نفسه ..

يريد الاسلام أن ينتشر ..

يريد الاسلام أن يؤسس دولته الأولى .. وهي دولة لا تعرف دولة غيرها من دول الأرض بلغت ما بلغت من عدالة ورحمة وواقعية ومثالية وتعلن في الله واحترام للانسان ..

هذا هو حق الهجرة البعيد ..

تأسيس دولة الاسلام .. بعد بناء الفرد يبني المسجد ثم تبني الدولة .. بعدها تنطلق الدعوة ..

لا نحسب القاري سيئال : لما بال بناء المساجد يزيد ، وينحسر الاسلام من الأرض ويضطهد .. نحسب القاري أنكى من أن يجهل أن المسجد الذي خرج الرسول لفائته في المدينة لم يكن استراحة من مخارم الحياة ، وإنما كان مركزا لقيادة معارك الاسلام ، معركة بعد معركة .. كان الناس يمتثلون في المساجد بتور الله ، بعدها يفتسلون في المعارك بدمائهم ..

كل السؤال : ايهم يقتل في سبيل الله قتل أخيه ؟

وكان السباق بينهم على ذلك ..

بهذا انتشر الاسلام ..

.....

لجأ النبي الى كهف في جبل اسمه ثور ..

دخل الكهف مع صاحبه أبى بكر .. وانطلق المشركون بالسيف ، وقد
أماهم افلات الصيد .. فوصلوا الى الجبل .. وقال أبو بكر لصاحبه
بمزعجها :

— لو نظر أحدكم تحت قدميه لراى ..

رد الرسول مطمئنا : يا أبى بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ..

قبل ان ينقضى النسي صلى الله عليه وسلم من كلمته ، كانت العنكبوت قد
انتهت من نسج بيتها على باب الغار .. تروى كتب السيرة ان المشركين اقتفوا
الآثر حتى اذا بلغوا جبل ثور ، احتلظ عليهم الأمر ، فصعدوا الجبل فبروا
بالغار ، ثمأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقلوا : لو دخل ها هنا أحد ، لم يكن
نسج العنكبوت على بابه . نيك فيه ثلاث ليال .. وانتصر إيمان نسيج
العنكبوت اللين ، على هديد السيف المستولة المشركة ، ونجا النسي
وصاحبه ..

وحين اطمأن المهاجرون الى الله ، الى ان البحث منهما قد فتر .. خرجا الى
المدينة ..

وخرجت المدينة اليهما .. وحين دخل الرسول وصاحبه المدينة ، لم يعرف
الناس بلدى ذى يده اليهما الرسول وأيهما صاحبه .. من مرط نواضع
الرسول ، ومما ملته لصاحبه بأخوة الاسلام ..

أخيرا نور النبى المدينة ..

بى مسجده ، وأسس دولته ، وهارب أعداءه ، ونشر الاسلام ، وفتح مكة ،
وطهر البيت الحرام ، وألقى فى العقول والقلوب نورا لا ينطفىء ..

مرت عليه عشر سنوات لم يسترح فيها يوما فى المدينة ..

ومرت عليه قبلها ثلاثة عشر عاما فى مكة لم يسترح فيها يوما ..

.....

.....

ان الاقتال الهائلة التى احتلها ظهره الشريف كتبت اقوى من احتلال
الجبال ، وهو رجل واحد ، لكنه حمل أمانة عرضها الله تعالى فى بدء الخلق
على السماوات والأرض والجبال فلبين أن يحملنها وأشفقن منها .

وجاء هو واحتلها كاملة ولداها كاملة ..

أمانة التبليغ من الله ، وأمانة تنقية العقل البشرى من الأوهام والخرافة ،
وأمانة السجود لله وهذه ..

وانساب فى ذاكرة النبى نيل من الصور الحية وهو يدخل المدينة ..

مر أمام العقل موكب الذكريات ..

ها هو ذا الوحي ينزل عليه بالرسالة فى غار حراء .. أى خوف مشفق
وسلام حقيق أحسها على التصائب .. ثم تغير المنظر وهبت زوبعة من
الكرامية ، وحملت أيدى الريح رمالا وشاحات وأنبالها وألقها فى وجهه ..

وقف يتشم بثقله وقلبه حزين وسط أمواج الصحراء والوحدة ومواصل
الشقاء ..

— أيها الناس .. لا إله إلا الله وحده ..

قال كلمته ..

رغم بساطة الكلمة ، فقد أثرت عليه الدنيا .. تهزكت الأصنام الحديدية
التي تملأ الحياة ، وسلخت نفسها بالظلام والحق وسارت نحوه ..

الرثصات والحكام والنقود والذهب والأوهج السائدة واحتقد الشيطان
القدسية وتعدد المنهقين .. صار هذا كله دعوا للنبي في اللحظة التي قال
فيها لا إله إلا الله وحده ..

وتذكر ورقة بن نوفل حين حدثه عما وقع له في غار حراء .. ألم يقل له
ورقة : لن قومك سيخرجونك ..

انسليت أيام الهجرة الطويلة الشاقة .. يوم وراء يوم .. كانت الشمس
قريبة من الرؤوس ، والحر قاتلا ، والصداع عظيما ..

ها هو ذا يدخل المدينة بعد الهجرة .. استقبله الأنصار لكرم استقبال ..
جاءهم وحيدا فنصروه .. خلقا فأمنوه .. جئعا فأطعموه .. مصادرا
فألتفموا حوله ..

وبدا بناء الإسلام في المدينة ..

بدأ بناء دولته بعد أن تم بناء انسان هذه الدولة ..

الانسان أولا وبعد ذلك الدولة ..

لا قيمة لنظام يعتمد على المبادئ العظيمة التي لا تزيد من كونها حبرا على
ورق .. ان تطبيق المبادئ هو المعيار النهائي لقيمة أى نظام ، ولقد تبع من
تطبيق الإسلام في أيامه الأولى نظام لم تعرف البشرية له مثيلا في العدل
والإهاء والرحمة وليس ذنب الإسلام أنه انقلب على أيدى الخف الى
رسوم وأشكال زخرفية .. هذا ذنب الخلف وليس ذنب الإسلام ..

كل أول شيء فعله الرسول أن بنى مسجده حيث بركت نلقته ..

حذاء المسجد بسيطا غاية البساطة .. فراشه الرمال والصمباء ، وسقفه
الجريد وأعمدته جذوع النخل ، وربما أمطرت السماء فأوهلت أرضه ، وربما
هبت الرياح فزعت جزءا من سقفه .. وقد تفتت القطط والكلاب اليه فتمدوا
وتروح فيه ..

في هذا البناء المتواضع ، رعى الرسول رجالا ادبوا الطغاة وكسروا الجبيرة
واعانوا الحقيقة لمرئسها المهجور ، ونشروا الإسلام في الأرض ..

كان المسجد صغيرا متبرا ، يمتلئ بالمخالفة .. ولم يكن شامخا مزخرفا
يتملئ بالانزام .. كان القرآن يلقى في المسجد ، فيجتر من يستمعون اليه
أهم يتلقون أوامر يومية للتطبيق والتنفيد ، ولم يكن القرآن يلقى في المسجد
غناء وتطريبا يمتصيح الجالسون أفعالا ناداء المغنى وصوت الغاري ..

والمسجد في الإسلام ليس هو المكان الوحيد للمعبادة .. الأرض عند المسلمين كلها مسجد .. أنها هو رمز لحضرة توفى بالله واليوم الآخر ، كما تؤمن بالعلم والحرية والأخوة ..

ولقد تحدث الأنبياء جميعا عن الاخساء ، ودعوا اليه بالآلاف الكلمات .. أما رسول الله ، فقد حقق الأخاء عمليا ، حين صار طبع الناس هو القرآن ..

نزل المهاجرون على الأنصار .. ووقف الأنصار أنبل موقف يمكن للإنسان أن يقفه .. الفيت لأخوة الدم ، ولرسميت لأخوة العقيدة ..

وراح النبي يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ..

كان نصيب الأنصاري سعد بن الربيع ، أحد أغنياء المدينة ، ان يحظى بأخوة عبد الرحمن بن عوف المهاجر .. قال سعد لعبد الرحمن :

— أنا أكثر الأنصار مالا ، وقد قسمت مالي نصفين لك أحدهما .. ولي امرأتان فانظر أيتهما تحببك كي أطلقهما لتتزوجها ..

ويرد عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك في أهلك ومالك .. أين سوفكم ؟

ويخرج عبد الرحمن إلى السوق ليعمل ، يعود ما يطعم به نفسه ، يرفض سماحة سعد وكرمه ، ويعتمد على إيلائه وباعده وجهده .. ولا تبراها إلا وهو رجل يكسب ما يسطيع الزواج به .. ويقدم لزوجته نواة من ذهب .

يوما بعد يوم ..

راح المجتمع الإسلامي يبنى قواعده على قيم العمل والحب والحرية والثورى والجهاد ..

ليس العمل في الإسلام شئ من أجل رعيق الخبز أو قطعة اللحم كما تقول حضارتنا المعاصرة .. أنها يتجاوز العمل في الإسلام هذا الأطلس المادي ، مستهدفا نروة أخرى ..

« وقل أعملوا فإني الله همكم ورسوله والمؤمنون » [١] ..

ان الإحساس بأن ما نعمله سيعرض على الله ، يجعل للعمل مذاقا آخر .. مذاقا يتجاوز طعم الخبز واللحم .. بعد العمل .. يجيء الحب ..

والحب في الإسلام ليس إحساسا يستقر في القلب ، ولا يهدفه العمل .. الحب في الإسلام خطوة يومية تشير شكل الحياة حول الناس نحو الأوفى والأكرم ..

يحب المسلم خالقه رب العالمين سبحانه ، ويحب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ويحب المسلمين ومن سألهم ، وان اختلفت عقائدهم معه ، ويحب الوجود والكائنات جميعا .. يحب الأطفال والحيوانات والزهرة والرمال والجمال .. حتى الجمادات يشيع في قلب المسلم نحوها إحساس بالحب ..

يرث المسلم إذا أسلم حقا ، إحساس داود بالكون والكائنات ، هذا الإحساس الصوفي العميق . ويرث المسلم ، إذا أسلم حقا ، إحساس عيسى

(١) من الآية ١٠٥ من سورة التوبة معنية .

بالجواب الطبية من الحياة ، فينظر الى جسد كلب مات ، فلا يرى غير بياض أسنانه ..

هذا الحب الذي يشيع في حياة المسلمين ويتجاوز الناس الى الحيوان والجماد .. هذا الحب لا يتمنى بقرار ، ولا يصدر به قانون ، انما يجيء عادة من اقتناع العقل والقلب بقيادة مطلوبة تهوى اليها الأفتدة ، وتتقبس من نورها العقول .. ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم هو هذه القيادة الحظية ..
كان نبولحاً ومثلاً أعلى وفروء ..

كان أكثر الناس ميلاً للإسلام ، وأقلهم جراءة منه واستفادة .. كمن ثابداً بعيش في تواضع لهبط الجنود ، فرائسه نظيف ولكنه خشن ، وبيته لا توجد فيه نهران الطهي الا ايما قليلة معدودة كل شهر .. وطعامه الأساسي هو الخبز الجاف بالزيت .. وهذه الأكبر أن ينتشر هدى الإسلام ..

وأدرك المسلمون ان كمال الإسلام لا يتحقق الا اذا صار حب الله ورسوله مقدماً على حب الذات والمرأة والمال والولد والمسطحة والسيطان والحياة والآخرين وكل شيء .. وأحب المسلمون قائدهم أكثر مما أحبوا حياتهم ذاتها ..
والى جوار العمل والحب ، أقيمت دولة الإسلام على قواعد الصرية والثورى والجهاد ..

ليست الحرية في الإسلام حرية تشاف الى جسم الإسلام ، انما هي تسبيح الخلايا الحى ذاته .. لقد حرر الله المسلمين من عبادة غيره .. واذن تسقط كل القيود على العقل والقلب والمجتمع .. والمسلم يملك في الإسلام حرية تنبج له أن ينظر الى كل شيء بعقله ، وأن يناقش كل شيء بعقله ، وأن ينتفع بما يطمئن به وجدانه ، وليست الحرية في الإسلام حرية مطلقة تصل الى مشرف الفوضى .. انما هي حرية مسئولة ..

في نطاق النصوص الناطقة التي وردت في القرآن أو السنة .. لا حرية أمام المسلم غير حرية السباق حياً نحو التطبيق .. وفيها عدا ذلك ، فالمسلم حر الى ما لا نهاية ، ولباب الاجتهاد مفتوح الى ما لا نهاية ، لأن باب الاجتهاد هو العقل .. وقفل باب الاجتهاد يعنى قفل العقول وأغلقها وموتها في النهاية ..

ولا يقتل الإسلام رجالاً كانت عقولهم أو تحجرت أو تخلفت .. الإسلام لم يلا تعاليل مباشر مع العقل والقلب ..

أقيمت دولة الإسلام على الثورى .. قال عز وجل :

« **وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ** » [١] ..

والثورى هي الديمقراطية باستللاحها السياسي الحديث ، ولم يبين الإسلام شكل هذه الديمقراطية أو نوعها أو درجاتها ، ترك هذا كله لعقول المسلمين واعتبارات الزمان والمكان .. نزل الدستور الأساسي وهو القرآن بالشورى ..

(١) من الآية ١٥٩ سورة آل عمران حجة .

والشورى هي تمثيل الأمة وحكمها لنفسها في كل منطقة .. باستثناء منطقة النصوص الحاكمة التي نزل بها الوحي أو حدث عنها الرسول .. هذه المنطقة يحكم فيها الله وحده .. وما عداها يحكمها الناس لهم أعرف بشئون ديارهم ومصالحهم واعتبارات الزمن ..

ومع قيمة العمل والحب والحرية والشورى .. تجيء قيمة الجهاد تتوجها لهذا كله ..

والجهاد في الاسلام نوعان : جهاد اكبر .. وهو جهاد النفس لنوازها ورغباتها وشهواتها ..

وجهاد اصغر .. وهو جهاد العدو ، والاعداد له ، والتفوق عليه ، والاخذ بالاسباب ..

وتحكم النصوص الالهية الجهاديين معا بأن يكونا في سبيل الله عز وجل .. ولقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بالجهاد الاكبر ثلاثة عشر عاما في مكة .. وحين انتهى من صبح المسلمين على هيبه ، صلى الله عليه وسلم .. بدأ جهاده الاصغر .. ولقد كل جهاده الاصغر سلسلة من المعارك الدامية العظيمة التي انتهت بانتصار الاسلام وانتشاره ..

ولقد كان صعبا على مروءة الكراهية المنتشرة في الجزيرة العربية ان تحتل دولة الحب والحق التي قامت في المدينة ..

وهكذا تخير المنظر ، واضطر الرسول الرحيم المسلم الى ان يحمل سيفه ويرتدي درعه ويستعين بالقوة دفاعا عن حق دولة الحب الالهى في البقاء وسط دول الكراهية العديدة المنتشرة ..

وبدأت المعارك بين المشركين والمؤمنين ..

كان عدد الكافرين والمشركين كبيرا .. وكان الذين آمنوا قلة ، وثار غبار المعارك ، واختلطت الرمال بالعرق بتطاير السهام ، وانعقدت سحائب الموت ، وحطت طيور الرعب ، وسالت الدماء ، وانكسرت أسنان النبي في إحدى المعارك ، وجرح رأسه الشريف فوقف يحارب ودمه ينزف دفاعا عن حق الانسان في الايمان بالله ..

ورغم كثرة الكافرين وقلة المؤمنين .. انتهزت الكثرة ..

انهزمت طبعا لغتاون الهى قديم يقضى بان يغلب الله تعالى ، ويغلب رسول الله تعالى ، ويغلب لكفر الفريقين لهما بالله تعالى ، ولخذا بالاسباب النصر ..

ويشت علماؤنا اليوم ، ان الحروب التي اشعلك فيها الاسلام ، على عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، كانت بريضة لحماية الحق ، ورد المظالم ، وقمع العدوان ، وكسر الجبلية ، بعد ذلك كتبت حروب الاسلام لتحرير رقاب المسيد والمضطهدين ، وليس يضير الاسلام ان يسخره لحد الحكام لارواء شهوة الفتح .. يضير ذلك من استخدم الاسلام ، بدلا من ان يستخدمه الاسلام ..

ذلك ان الاسلام يستخدم الناس حين يستخدمهم - لا يلتمح الهرد - وإنما لتحرير الديو ينطوى عليه الفتح .

لا للاستعمار ، وإنما للهدى ، لا لاضاعة هيود جديدة الى قيود الناس ، وإنما
لكل قيودهم جميعا .

ذلك كان نوع حروب الاسلام بعد موته صلى الله عليه وسلم .. لما في
حياته ، فقد كانت حروبه كلها ردا للسيوف ان تهوى على رقاب نساء وأطفال
ورجل يؤمنون بأحدية الخلق وهب الكائنات ..

ها هي لولي المارك الفاسلة في الاسلام ..

معركة « بدر » ..

ترأمت الأنساء الى المدينة بأن قافلة ضخمة لقريش تهبط من مشرف الشام
عائدة الى مكة ، تحمل لأهلها قروا طائلة .. ألف بمير محملة بالأموال ،
يقودها أبو سفيان بن حرب مع رجال لا يزيد عددهم عن الأربعين .. أي
خسارة تنزل بالمعتدين من أهل مكة لو أسر المسلمون هذه القافلة ؟

خرج أول جيش من جيوش المسلمين .. يقوده محمد بن عبد الله ، صلى الله
عليه وسلم .. كان عدد الجيش ٣١٧ رجلا ، ستة وثمانين رجلا من المهاجرين
وسنتين وواحدة وثلاثين من الأنصار ، وكان بين الأنصار مائة وسبعون من
الخزرج ، وواحد وستون من الأوس ..

وكان جيش المسلمين فقيرا بغير فقره الدهشة ، مجهدا بغير تجهده
الاستغنى ، ضميما بمقاييس البشر ، كل كل ثلاثة من القبائل في جيش
المسلمين يتناوبون على سحر واحد يركبونه .. وكانت المسافة بين المدينة ومصر
تزيد عن مائتي كيلو متر بطريق القوافل القديم .. وسار هذا الجيش لاحتراس
القافلة ، فالتفت القافلة منه .. استطاع أبو سفيان أن يغير طريق قافلته وينجو
بها ، وأرسل الى مكة يدهو قريشا الى قتل المسلمين ..

وخرج من مكة جيش يضم ألف منسحب من منسحب قريش .. ورغم ان
المسلمين خرجوا ليعر هذا الجيش ، فقد احتلوا التحدي ، وساروا للقتل ..
قال تعالى في سورة [الأنفال] :

« واذ بعثكم الله لعدي الطائفين انها لكم ، وتودون ان غير ذات
الشوكة تكون لكم ، ويريد الله ان يعزل الحق بكتبته ويقطع دابر
الكافرين » [١] ..

كان المسلمون ، لفقرهم وحاجتهم وظروهم الاقتصادية القاسية ، يودون
ان ينتقوا بغير ذات الشوكة ، يودون ان يلتقوا بالقافلة الغنية لا الجيش المدجج
بالسلاح .. كانوا في حاجة الى المال لنشر دعوتهم ، وأراد الله بوضعهم
وجها لوجه أمام جيش الكافرين ، أن يقطع دابر الكافرين ويحق الحق ..

خرج المسلمون في معركة بدر ، تحت تصور انهم في طريقهم لنزعة حربية
تسفر عن ضربة اقتصادية خاطفة تنزل مكة وتثري المدينة .. فأراد الله ان
تكون معركة شاقة تسفر عن تطهير مكة من رؤوس الكفر فيها ، ولتحتل
المدينة فقرها ، فليس الاسلام مفقود ، إنما هو معلوم ، ليس أخذا وإنما هو
عطاء ..

ولقد أدرك النبي — كقائد عسكري — أن عليه أن ينبه جيشه إلى أن ما سيقام من مشقة وعنت ، لا يشبه الأمر اليسير الذي خرج من أجله ..

واستشار النبي ، صلى الله عليه وسلم الناس ..

وتحدث أبو بكر الصديق .. وتحدث عمر .. وتحدث المقداد بن عمرو .. واتفقت أقوالهم على المضي في القتل .. مهما تكن النتائج أو التضحيات ..

وعاد الرسول يقول : أيها الناس .. اشيروا على ..

قال الرسول بقصد الانتصار .. كان يخشى أن يكونوا قد فهموا البيعة بينه وبينهم على حيلته إذا هوجم في المدينة فقط .. ولقد كانت نصوص البيعة فعلا تزيد ذلك ..

الم يقولوا له : « يا رسول الله ، أنا براء من ضالك » [لسنا مسئولين عنك] حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا ، فقلت في بيتنا ..

وكان معظم الجيش من الأنصار .. و أراد الرسول أن يعرف قرار أغلبية الجند قبل بدء المعركة ..

وأدرك الانتصار أن الرسول يريد رأي الأنصار .. قال سعد بن عوف : والله لكناك تريحنا يا رسول الله .. قال النبي : نعم ..

وتحدث الأنصاري ..

ذهبت مخلوف النبي بعد حديثهم وأشرق وجهه .. لقد رباحهم على الإسلام ، والإسلام لا يعرف نصوص المعاهدات ، وإنما يفرح بآرواحها وعملها البعيد .. أنهم الأنصار النبي أنهم يؤمنون به ويحبونه ويسمعون له ويطيعون ..

قال سعد بن معاذ : أيها رسول الله لما أردت ، فنحن معك .. هو الذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ..

انتهى الأمر .. وحسبت هذه الكلمات مصير معركة من أخطر معارك الإسلام ..

لقد كان شعور الأنصار والمهاجرين في جيش الرسول يختلف تماما من شعور موسى حين قالوا له : اذهب أنت وريك فنقتلنا هنا فامدون ..

كان شعور المسلمين أن الرسول لو أمرهم باجتياز البحر سيرا على أمواجه لفعلوا وخرقوا وماتوا ، ما تخلف منهم رجل واحد ..

انتهى الأمر وتاهب المسلمون لخوض المعركة .. وعسكروا في مكان وقع عليه اختيار الرسول ..

وقد ترك الله عز وجل رسوله يخطئ في اختيار المكان ليشرع للمسلمين قاعدة هامة من قواعد القتال ، وهي نزول قائد الجيش على رأي الخبرة ..

جاء الحبيب بن المظفر إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يسأله : أهذا الموقع الذي نمسك فيه اختيار من الله ورسوله ، وليس لنا أن نتقدم منه ولا نتأخر ؟ .. أم إن الأمر هو أمر الرأي والحرب والمكيدة ؟

قال الرسول : بل هو الرأى والحرب والحكمة ..
 قال الجليلي : يا رسول الله .. ان هذا ليس بموقع ..
 واختار الخبير موقعا يشرب فيه جيش المدينة ولا يشرب جيش مكة ..
 وتحول الجيش الى الموضع الذي حددته الحبرة العسكرية ..
 وواصل جيش مكة .. كان عدده يقترب من الف جندي يواجهون ٣١٧
 مسلحا ..

وعسكر جيش قريش في المدوة القصوى من الوادي ..
 كان جيش الكافرين في بدر يضم سادة قريش وابطسائها وبنات اكسابها
 المحاربين ..

وكان جيش المسلمين في بدر يضم تقارب واصهارا لجيش العدو .. ولقد
 قدر الله تعالى ان يلتقي الابن يابسه .. والاخ بأخيه .. وزوج الابنة بوالد
 زوجته ، فصلت بينهم المبادئ ، تحكمت بينهم السيوف ..
 انتهى الامر وشيبت معركة بدر أخوة الدم الى مفاهاها الاخير ، وأرست
 قاعدة رئيسية وهامة هي أخوة العقيدة الاسلامية ..

وعلى حين كان جيش المسلمين متماسكا يلتئم جسده على روح الاسلام ،
 كان جيش الكافرين منشقا على نفسه ، وان أخطى انشقاقه ملامه
 الشجاعة ..

وقف عتبة بن ربيعة خطيبا في جيش مكة يدعو الى الانسحاب قائلا بتحكيم
 العقل :

... يا معشر قريش .. انكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا واصحابه
 شيئا ، والله لئن أصبتموه ، لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر اليه
 لأنه قتل ابن عمه أو ابن حائه أو رجلا من مشيريه ، فارجعوا واخلوا بين محمد
 وسائر العرب .. فإن أصابوه فذلك الذي أردتم .. وان كنتم فبر ذلك الماكن
 ساقطوه ..

كانت هذه الكلمات المعقدة الحكيمة أول شرح في جيش مكة .. لن عددا
 من الجيش كان مقتنعا بانعدام جدوى المعركة ، وان يكون قتال هؤلاء قتالا
 حقيقيا .. وأخبت أصوات السفه هذه الكلمة العاقلة .. وانهم لو جهل
 قائلها بالخوف .. وانار بانهامه حملات القاتل لرجع من رأيه وقرر قتال
 المسلمين ..

ولقد كان قائد الجيش المسلمي .. وهو أبو جهل .. يعلم ان محمدا
 لا يكذب ..

تروي كتب المؤرخين ان الأحنس بن شريف خلا بأبي جهل في بدر قبل نشوب
 المعركة وماله :

— يا أبا الحكم .. اتري محمدا يكذب ؟

قال أبو جهل : كيف يكذب على الله ، وقد كنا نسميه الأمين ، ولكن اذا
 أصبحت في بني عبد مناف السقاية والرقادة والحجابة والمشورة ، ثم تكون
 فيهم النبوة ، فأى شيء بقى لنا ؟

ليست العرب تكتفيا للرسول ، وإنما هي حملة للمصالح الحاكمة والوضع
الاقتصادي ..

وهكذا وقف الكافرون يدافعون عن أدنى قيم الأرض التي تشترك معهم فيها
الدواب ، ووقف المسلمون يهاجمون من أرفع قيم الأرض والسماء التي تشترك
معهم فيها الملائكة ..

وجاء الليل على الجيشين ..

لثلاثمائة جندي مؤمن على التقريب في مواجهة ألف جندي مشرك ..

كل المشركين جاءوا راكبين مسلحين .. وكل ثلاثة مسلمين جاءوا على
دابة ..

فيلب المشركين جديدة وسيوفهم مصتولة ودروعهم تلعب وتلججهم متفوق
وعتادهم هائل ، وفيلب المسلمين بآنية وسيوفهم قديمة ودروعهم ليست
سليقة ..

نظر النبي الى جيشه فرق قلبه لمراى الجيش ودعا ربه بقوله :

— اللهم انهم جياح فاشتهم ، اللهم انهم حفاة فاحيلهم ، اللهم انهم مراة
فلكسهم ..

وتنزل النجوم الى الجنون يحمل الراحة للأجساد المقيمة .. وتساقط لثاء
الليل بطر خفيف رطب الجو حول المسلمين ، وتسلك الرمل تحت أقدامهم ،
ومسارت حركتهم عليه ميسرة ، وغسل المطر الخفيف تراب السفر وغبار التعب
وطهر القلوب وربط عليها بالثقة في نصر الله .

قال تعالى :

« اذ يغشيكم النجم املة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم
به ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به
الأقدام » [١] ..

وجاء الصباح على بدر .. بدأ جيش قريش بهجوم .. وأمر النبي جيش
المسلمين بالدفاع ..

قال صلى الله عليه وسلم : « ان اكتنفكم القوم فانفضوهم عنكم بالنبل ،
ولا تعملوا عليهم حتى تؤمنوا » ..

كان هذا القرار العسكري الحكيم يعنى ان يتحصن المسلمون في أماكنهم ،
لتحميل المشركين عبء الهجوم بحسبائره المتوقعة ، ونحن مسلم من المعلوم
العسكرية اليوم ، ان المهاجم يحتاج عادة الى ثلاثة أو أربعة أضعاف العدد
الثابت المحصن الذي يهاجمه ليكون هجومه فعالا .. ولقد كان جيش المشركين
ثلاثة هنود مقابل كل جندي مسلم .. العدد المطلوب للنصر عند المشركين
موجود ، وتسلح المشركين أفضل من تسلح المسلمين ، وعند الطرف الذي
يركها المشركون هي نفسها عندهم ، ولذا الجيش الاسلامي يهاجم على

أعدليه ، الموقف في صالح المشركين تماماً ، والخز والدلائل كلها تعقد النصر للواء المشركين ، غير أن كسب الحروب ليس رهناً بشخصية العمد وتفوق التسليح والقوة الظاهرة .. أحياناً يكسب المعركة عنصر معنوي غير مرئي ، أن روح الجندي المعنوية ، وأيمانه بالقضية التي يدافع عنها ، ورغبته في إحدى الحمسين ، النصر أو الموت ، وتهافته على الشهادة ، وهزيمته لروح الخوف داخله .. هذا كله يمكن أن يحول الجندي إلى مخلوق غير قابل للهزيمة ..

قليل للموت .. وإن استعصى على الهزيمة ..

وكذلك كان جيش المسلمين ..

لنعتقد الخبر فوق رؤوس المتقاتلين .. ويضل المسلمون جهداً فوق طاقة البشر .. ونحن التهم الجيشان ونظر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فرأى جيشه يخوب بعمده القليل وسط السلاح الكافر .. عندئذ استغاث النبي ربه :

اللهم نصرك .. اللهم أتجز لي ما وعدتني ..

اللهم أن تهلك هذه الجماعة لا تعبد بعدها في الأرض ..

تأمل هيوم النبي ساعة المعركة تفهم لماذا انتصر جيشه ..

إن قائد الجيش الأعلى ، محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، خرج يقاتل في سبيل الله ..

وما هو ذا الموت يحفل بالمسلمين .. فم يفكر النبي في هذا الموقف المصيب .. أن تفكره يتعدى الحاضر ويتجاوز إلى المستقبل ، ليتوقف عند شيء واحد .. أن يعبد الله في الأرض : « اللهم أن تهلك هذه الجماعة لا تعبد بعدها في الأرض » ..

ليس النبي مشفقاً على هلاك المسلمين وهلاكه ، لأنهم سيخسرون الحياة ، إنما هو مشفق أعظم الأسفلى ، خائف أشد الخوف ألا يعبد الله تعالى بعدها في الأرض .. وكان الرسول يستقيث به ، محاولاً تفكير ربه سبحانه وتعالى بما الله أعلم به ..

عند هذه الدرجة من درجات التحرد ..

تنزل الملائكة يقودها جبريل عليه السلام .

قال تعالى في سورة [الأنفال] :

« إذ استغاثون ربكم فاستجاب لكم أنى مرسدكم بالفت من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشري ، ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم » . [١]

انفض النبي لحظة في مريشه الذي يقود منه المعركة ثم انقبه يقول لأبي بكر :

(١) الأنفال ٩ ، ١٠ سورة الأنفال مكية .

.. أنشر يا أبا بكر .. أنك نصر الله . هذا جبريل أخذ بعنق فرسه يقوده على ثلج النقع .

كان نزول الملائكة تشييقا للمسلمين وبشرى لهم . ولم يكن معجزة تعنى إشراك الملائكة في القتال .

تؤكد النصوص أن دور الملائكة لم يرد عن دور البشارة والتأييد المعنوي وعلو القلوب بالطمأنينة . ونحسب أن الله عز وجل أراد أن يشهد ملائكة الله بملائكة البشر وهم يدافعون عن عقيدة التوحيد . وهكذا أوحى الله إلى الملائكة أنه معهم ، فليثبتوا الذين آمنوا أذن ، وسوف يلقى الحق في قلوب الذين كفروا الرعب . فليضرب المسلمون فوق الأعناق والأيدي . ولينتصروا الله . قال تعالى في سورة [الأنفال] :

« لا يوحى ربك إلى الملائكة في معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألني في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . فذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . فلكم غزوة ، وإن للكافرين عذاب النار [١] »

وتساقطت سيوف الإسلام كالطر على وجوه الكافرين ورفاههم . وانكسر جيش مكة ، وبدأ الرعب يمس الاتدام للرياح .

وانجلت المعركة من سبعين قتيلًا من الكافرين ، وسبعين أسيرًا منهم ، وغرار بقية الجيش ..

سقط سادة النخضاء وسوك الظلام في المعركة . سقط أبو جهل قائد الجيش ، وأصيبت مكة في أنطالها أصابة قاتلة . ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جثث القتل من الكافرين بعد أن طرخوا في القليب يقول :

— يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شبة بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام . هل رجنتم ما وعد ربكم حقًا . فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا .

قال المسلمون : يا رسول الله . انتلدي قوما جبنوا .

قال : ما أنتم ما علم لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني .

وانتهى يوم السابع عشر من رمضان لسنتين خلفًا من الهجرة .

كتب النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث ليل في بدر .. ثم قفل عائداً إلى المدينة ، يسوق إليه الأسرى والغنائم .

وحوسب المسلمون حصلاً عسراً على أنقائهم على حياة الأسرى .

في البدء استفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر ..

قال أبو بكر : يا رسول الله ، هؤلاء بنو الحم والعشيرة والأخوان . وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية . ليكون ما أخفناه قوة لنا على الكفار . وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عهداً .

(١) الآية ١١ ، ١٢ ، ١٣ سورة الأنفال معنية .

والتفت الرسول الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قائلا :

— ما ترى يا ابن الخطاب .

قال الرجل العظيم : والله ما لرى ما رأى أبو بكر . ولكن لرى أن تبكتنى من قريب لى فأضرب عنقه ، وتبكت عليا من قريبه فيضرب عنقه . وتبكت حمزة من قريبه فيضرب عنقه . . حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هودة للمشركين . وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

كان جيش المدينة وجيش مكة يضمنان حثالات تربط بينهما القرابة وشامت الأقدار العليا أن يقع القتل بين الأخ وأخيه ، والإبن ووالده . . وكان عمر يريد أن يشرح هذا العزم ليعلم المشركون أن الإسلام لن يعود الى المهانة أو السسلام .

انتهى الأمر ونشبت الحرب فى سبيل الله . . وصار حمل السلاح والقتل واجبا لا تردد فيه ولا رجوع عنه .

والتفت النبي الى المسلمين فوجدهم يميلون الى رأى لى بكر ، وكان يمثل الأعلىية . . ونزل النبي صلى الله عليه وسلم على رأى الأعلىية . . وكفت الأعلىية على الخطأ . . وكان عمر وحده على الحق . .

أدرك عمر بنصيرته كجندى رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أدرك بنظرته الاستراتيجية البعيدة ، أن الموقف ليس موقف مفاضلة بين رقباب الأسرى وثرواتهم التى يمكن لأهلهم أن يفتكروهم بها . .

أدرك أن الموقف يتجولر هذا بكثير .

هذه أول معركة يخوضها الإسلام ، وبعضى على المسلمين أن يتجرعوا فيها من كل الدوامع الإنسانية ، باستثناء الغناء الرعب فى قلوب الكافرين . . أى قتلهم جميعا ، ليعلم أعداء الله أن الإسلام قد اختار الدم .

ولقد أيد الله تعالى عمر بن الخطاب فى محكم كتابه ، ويكى النبي ويكى أبو بكر حين أدركا خطاهما فى اليوم التالى . ودخل عليهما عمر بن الخطاب لمرأهما بيكيان وتساؤل ما الذى ييكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه فى الشار .

ونلا عليه الرسول تنزيل الحق عز وجل :

« ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، فريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » . [١]

تقول الآيتان أن هذا ليس لوان الاحتفاظ بالأسرى وانتدائهم ، لم يحن الوقت لذلك بعد . لا يصح أن يكون للنبي أسرى إلا اذا حارب كثيرا وجاهد كثيرا وقتل كثيرا واثخن فى الأرض واستقرت دعوته . . أما فى بداية الحرب فلا . .

كشفت الآيتان عن الهدف من وراء اقتداء الأسرى صراحة بقول الحق

(١) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ سورة انفال مكية .

مز وجل : « تريدون عرض الدنيا .. والله يريد الآخرة » [١] .

هذا تفكير ينظر للظروف الحالية الصعبة بحسب ، هو تفكير تكتيكي كما نقول بالاصطلاح الحديث ، وليس تفكيراً استراتيجياً . ثم إن هؤلاء الأسرى ليسوا أسرى حقيقيين ، وإنما بالاصطلاح الحديث يحرمو حرب عتاة .. ينبض إرهابهم عند التمكن من رقبهم ، وليكن ما يكون من ثرائهم أو جواهرهم .. أن الإسلام لا يعترف باقتراف أو الجساء .. لا يعترف بالإسلام إلا بالأيمان ، ولا يقيم وزناً لما عداه من قيم دنيوية زائلة .

وبعض النعم القرائي فينبه المنتصرين إلى أن خطاهم يستحق عقوبة سألح الله فيها لمسبق رحمته وعظيم غفرانه .

« لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » [٢] .

كان العذاب أقرب إليهم من هذه الشجرة القريبة .. ثم سألح الله وعنا .. لطلع على أهل بدر فغفر لهم ما تفرغ وما تقدم من ذنوبهم .

وكذلك كان القرآن يربى المسلمين على التجرد .. أنهى الأمر وبدأ الإسلام حروبه .. وهي حروب ينبغي أن تتجرد لله عز وجل وحده ، وينبغي أن ترتفع على دواهي اللحظات الصعبة ومتعضيات الحاضر البائس ولسوف يعلم اتباع النبي فيما بعد أن أي ميل من جفهم لأعراض الدنيا الزائلة ، يمتن وقرع للمقوية والهزيمة بهم .

في معركة أحد .. كل عدد المشركين ثلاثة آلاف .. وكان عدد المسلمين مسميات بعد أن انسحب منهم رأس الثنائي عبد الله بن أبي .. ومسكر المسلمون جاعلين ظهرهم إلى الجبل ، ورسم النبي صلى الله عليه وسلم خطة لكسب المعركة ، فوزع الرماة لحماية ظهر المسلمين ووضعهم على الجبل .. وأمرهم أن يدخلوا الخيل من جيش المسلمين بالسهم ، حتى لا يهجم المسلمون من الخلف .. وأمرهم الرسول هؤلاء الرماة أن يبقوا في أماكنهم بها يكن سير المعركة ، ليكن النصر أو الهزيمة للمسلمين . هذا أمر لا يعني الرماة .. عليهم أن يلزموا أماكنهم لتأمين ظهر المسلمين . قال صلى الله عليه وسلم : « أحبوا ظهورنا . إن رايقونا نقتل فلا تنصرونا . وإن رأيتمونا نخفم فلا تتركونا » .

بعد هذا التأمين الحكيم لظهر الجيش ، اصصرف النبي إلى مقدمة جيشه ، وبدأ يرسم لقلب الهجوم مهمته وأسلوبه وأوامره .

وبدأت الحرب .

واندمج جند الإسلام كأصبر يفتقر قلب ثلاثة آلاف مشرك .

واظهرت المراحل الأولى من سير القتل اكتساح المسلمين للمشركين . قاتل جيش مكة قتالاً يائساً ، وكان مخفوقاً في العدد أربعة أضعاف ، ورغم التفوق العددي والتسلح ، فوجيء الجيش بأن المسلمين يقتلون قتالاً لا سبيل معه لنصر أو صمود ألبهم .

(١) من الآية ٦٧ سورة الأنفال مدنية .

(٢) الآية ٦٨ من نفس السورة .

وبدا غبار المعركة يسفر عن تمزق جيش مكة وبداية فراره .

وفكر الرماة الذين وضعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغنائم .. لقد انهزم جيش مكة وبدأ يعطى ظهره للمسلمين ويعدو .. ماذا لو نزل الرماة من أماكنهم لجمع الأسلاب والغنائم .. لقد هزهم الرسول من مناصرة أماكنهم بهذا تكن الأسباب . . . وعصى الرماة القائد الأعلى بعد أن تصوروا أن المعركة قد انتهت لصالح جيش المدينة المؤمن .

ظن الرماة أن الله سيستر خطاهم ويحمي ظهورهم حتى ينتهوا من أخذ الأسلاب والغنائم .

انسحب التجرد من تلويب بعض الجنود . .

لم يكن هذا الأمر يقع .. حتى وقع تحول خاطف في سير المعركة .

كان قائد فرسان المشركين في معركة أحد هو خالد بن الوليد . . سيف الله المظلم نبيا بعد .. وأحد المسلمين الكبار نبيا بعد .. وخالد بن الوليد عبقريه عسكرية من نوع خاص .. لم يكن يلاحظ نزول الرماة من أماكنهم ، حتى رأى ظهر المسلمين مكتوبا فاستدار بالخيول وانحدر على المسلمين من حيث لا يتوقعون .

وانحدرت غربة خالد مبيغة مفاجئة . . واغتم المشركون الفرصة بتكاثروا من الفرار إلى الهجوم . . وهوسر جيش المسلمين بين فرسان يضربونه في ظهوره .. وفرسان يضربونه في صدره .

وارتفع عند القتلى في جيش محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

استشهد كثيرون وهم يدافعون عن النبي ويحاولون حمايته . . وأصيب النبي ففكسر أنفه وتحطمت ريأيته . . وأصاب رأسه الشريف جرح فتقهر منه الدم .. وانطلقت المشائم بأن محمدا قتل .. وأثقل أبدي المسلمين حزن غابر لمسا يسمعون . . وتفرق المسلمون لمعاد بعضهم إلى المدينة وانطلقت طليقة غوق الجبل وثبت حول النبي لكرم جنده .. وصرخ أمس بن النضر حين سمع عن موت النبي قائلا لقومه : قوموا فموتوا على ما مات عليه .. ما تصنعون بالحياة بعده .

وراح جيش المسلمين يتسلسك ويقاثل .. واشتد ضغط المشركين على النبي وصحابته وجنده . . ومرت ساعات من أخرج ساعات التاريخ .. وصاح النبي وهو يرى انحدار المشركين عليه وأرغاثهم له ومحاولاتهم قتله :

— من يردهم عنى وله الجنة .

والف المسلمون حول رسولهم واستشهد منهم خلق كثير ، ومنع أبو دجاجة من ظهره فرعا يقى بها ظهر النبي صلى الله عليه وسلم .. فككت السهام تقع في جسده وهو ثابت يدافع عن الرسول .

وانقلب الموقف نتيجة لهذا القتال الباسل الذي أداره المسلمون . . واكتفى جيش مكة بما حصل عليه وأكثر الانسحاب ، ولم تكن قريش أقل من المسلمين محنأة لأحوال هذا اليوم .

أسفرت المعركة من انسحاب المشركين بعد أن قتلوا عبيدا من المسلمين
وجرحوا قائد الجيش الأعلى صلى الله عليه وسلم .

وقع هذا كله بسبب خطأ واحد .

تمثل هذا الخطأ في عصيان الرماة لأمر الرسول ، ومعادرتهم لأمكانهم .
حين قلت نسبة التجرد والفداء في قلوب المسلمين .. دفع أشجع الرجال
وأفضلهم من دمائهم ثمن هذا الخطأ .

لم تحلب السماء أحدا من المسلمين . لم تتدخل السماء لاتقاذ ظهر الجيش
الإسلامي المكشوف .

أخطأ المسلمون فدفن رسولهم ثمن خطئهم .

أصيب في وجهه ، ونزف الدم بغزارة من جراحه ، كلما سكب الماء على
الجرح ازداد تنفقا . لم يتوقف النزيف إلا بعد أن أحرقت قطعة من حصير
فألصقت به .

لم تكن كل جراح النبي مادية ..

زادت الجراح المعنوية في آله صلى الله عليه وسلم .

أصيب في أعز أهله إلى قلبه ، استشهد معه حمزة وجاءت امرأة أبي
سفيان فشقت بطنه واستخرجت كبده ومضعفتها بنمها ..

مثلت شريش بجيش المسلمين .. وأصابت منهم ما تحب ، ولولا رحمة الله
تعالى لاتهمز المسلمون .

ونزلت آيات الكتاب الحكيم تربي المسلمين على التجرد المطلق والإخلاص
الكامل ، ودفنهم من حزنهم نيمت لأن جيشهم كان يضم من يريد الدنيا ،
رغم أن فيه من يريد الآخرة ، وليس هذا هو الطريق للنصر .. ليس هذا
هو الأمل المتوقع من جيش المسلمين ، المروض أن يتجرد الجيش كله لله ،
أن يريد كله الآخرة .. ساعنها يؤتيه الله ثواب الدنيا والآخرة .

قال تعالى تطبيقا على معركة أحد في سورة [آل عمران] ،

« منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم
فيتبينكم ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » . [١]

منا الله تعالى من الخطأ .. واستدار المسلمون يحصون قتلاهم ويضمضون
جراحهم ..

وتسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم من عبه حمزة .. فلما رآه في
القتلى وقد مثل الكفرون بجسده ، قال وهو يبكي : لن أصيب بمثلك أبدا ..

ثم وقف صلى الله عليه وسلم وقتلى على ربه عز وجل . وأبر برد القتل
من المسلمين إلى مضاجعهم التي تقطوا فيها ، وكان أهلهم قد حملوهم إلى
المقابر .. وراح النبي يجمع بين الرجلين من قتلى « أحد » في ثوب واحد .

(١) من الآية ١٥٢ سورة آل عمران مدية .

ثم يسأل أيهما أكثر أخذا للقرآن .. فإذا كثر إلى أحدهما فدبه في اللحد ..
ولم يدفنهم بدمائهم ، ولم يصل عليهم ولم يغسلهم .

وأراه الله تعالى كيف يبعثون يوم القيامة ، فحدث الناس قائلا :

— ما من جريح في سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة ينزف جرحه .
اللون لون الدم ، والريح ريح المسك .

لم يكن الألم الحقيق هو الدرس الذي وعاه المسلمون من معركة أحد . جزاء
سريعا لمصيبتهم أمر الرسول وعدم طاعته .. إنما تنزل الوحي بقية الفروس
المستفادة ، وكان أخطر هذه الفروس بعد درس الطاعة ، هو بيان المركز الذي
يجتمع حوله المسلمون ..

ليس شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المركز الذي يجتمع
المسلمون حوله ، فإذا رحل شخصه الكريم لسبب من الأسباب انفض
المسلمون وانصرفوا .

لا ينبغي أن يكون «شخص» الرسول هو المركز ، إنما «مكره» هو الأهم
والأخطر .

وهكذا عاتب القرآن الكريم منلقى سلاحه حين انتشرت شائعة قتل
النبي صلى الله عليه وسلم . أن الإسلام لا يبلغ منتهاه إذا كان المسلمون
سينتصرون حول الرسول في هيلته ، فلذا مات أو قتل انقلب كل واحد
يرمي سلاحه وينصرف لشأنه . المسلمون أشاع مبادئ ، لا اتباع أشخاص .
وليكن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سيد البشر وإمام المرسلين
وخاتم النبيين وخير خلق الله .. ليسكن هذا كله وأكثر . لا يبرر هذا كله
أن يرمى المسلم سلاحه إذا مات الرسول أو قتل . على المسلم أن يحمل
سلاحه فلا يرميه من يده إلا في حالة واحدة من اثنتين .. أن يقتصر لو يموت .

قبلها .. لا يكون القتال للسلاح إلا قرارا من لمعة ..

كان النص القرآني واضحاً أعظم الوضوح في ربط المسلمين بمعية
الإسلام لا شخص الرسول . قال تعالى تمقياً على معركة أحد :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، إنا نزلنا قرآناً
عربياً على أمة عربية ، فمن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا
وسيجزي الله الشاكرين » - [سورة آل عمران] [1]

• • • • •

مضت معركة أحد مجراها الفاترة ، بعد أن تركت آثاراً عميقة في نفس
النبي صلى الله عليه وسلم .. وهي آثار لازمتها إلى آخر عهده بالدين . فلي
الاضطراب القاسية لجبل «أحد» الذي يحرس المدينة ، لودع الرسول أعظم
رجال الإسلام وأتريه من قلبه . كل قتل أحد هم خلاصة المسلمين وأكثرهم
أيمناً ، كانوا هم صفوة الصفوة من المسلمين الأوائل ، حملوا أعباء الدعوة قبل
الوحشة الأولى ، وعاندوا في سبيل الله الأقرباء والأصدقاء ، واغتربوا

[1] الآية ١٤٤ سورة آل عمران محبة .

بمقتلهم قبل الهجرة وبعدھا ، وانفقوا وقاظوا ، وصبروا وصلبروا ، وحين
جاءت لحظة الخطر الكبرى ولحيط بجيش الاسلام واقتربت السيوف من رسول
الله . . صنعوا من ذلهم بحرا اغرق الكافرين وحس الرسول وغير مجرى
المعركة وثقل عقيدة التوحيد .

ولم تكن معركة احد هي اول تضحيات المسلمين ولا آخر معاركهم . . هي
معركة واحدة من المعارك العديدة التي خاضها الاسلام لنشر كلمة الله
في الارض ، وتبليغ عباده .

ولم تكن تضحيات الرسول في معركة احد هي اول تضحياته للاسلام
ولا آخرها . فقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد محته الى المسى
حياة لا يملك فيها نفسه ولا يملك فيها وقته ، ولا يملك فيها راحته ، ملأ صلى
كل شيء للدعوة . . حارب كل انواع العروب ، واحتل كل الوان الاحتمال ،
وقلى العذاب لشكالا وصنونا ، ولم يكن يفرغ من مشكلة الا ليواجه اخرى ،
ولم يكن ينتهي من حل ازمة الا ليواجه ازمة اخرى . . وحين الصراع على
حياته صلى الله عليه وسلم ، وحكما منذ البداية الى النهاية . .

تأمل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من اى زاوية تحبها ، ابدا دراسته
من اى مستوى تختاره . لن تثر الا على قصة صراع عظيم .

خاض النبي صراعه العسكري المثل في معيد من المعارك المتشعبة
المتلاحقة ، وخاض النبي صراعه السياسي المثل في المعاهدات ورسائله لدموة
الملوك والباطرة ورؤساء الدول حوله الى الاسلام ، وخاض صراعه على
المستوى النفسى ومعارك الاصلب ، ولم تغل حيلته الخاصة ولا بينه من
الصراع ، وكان المحارب في كل وقت واى وقت . كان ابراهيم هو المسافر دائما
الى الله ، وكان محمدا هو المحارب دائما في الله .

لم تكن معركة احد تنتهى حتى بدلت آثارها السيلة على المسلمين .

تحرأ اعراب الناحية عليهم ، وتحرأ اليهود عليهم ، وتحرأ المنافقون عليهم .
وتحرأت قريش عليهم ، وأطلت المخالب التي كانت تغيب نصالها وراء حريز
القبائل . . ونشط النبي لغرض معاركه العسكرية .

واقبلت السنة الرابعة للهجرة ، والمسلمون لم يبرأوا بعد من جراحتهم
في احد ، وجعلت الرياح انباء من استعداد قبيلة بنى أسد لغزو المدينة ،
وباغتهم حينئذ منير ارسله النبي ليدلهم قبل ان يتحركوا . ايضا وضع
الاسلام حدا لحياة رجل كان يحشد الأعراب لحرب المسلمين . ورغم الاسلام
كان يرفع سيفه تحت ضوء الشمس ، ويقايل به في وضوح النهار ويشرف ،
رغم ذلك تعرض المسلمون لحيلة اغتيالات كانت تطعن في الظهر بخسفة ،
وتدأري انبها الخافر بابتسامة التلقى .

جاء وفد من قبائل الأعراب الى الرسول يحدثه أنهم سمعوا عن الاسلام
ويريدون اعتناقه فليرسل معهم عددا من الدعاة لتعليمهم أصول الدين ،
وأرسل النبي معهم مجموعة من الدعاة يرأسهم عاصم بن ثابت ، ووثب
الفاخرون على رجال الدعوة لقتلهم ، واستسلم للأسر منهم ثلاثة ، فسموا
في مكة ، وكان بينهم في مكة معنى تسليمهم للفتنة التريصين بهم من قريش . .

وقطعت مكة الأسرى الثلاثة . وحزن المسلمون لمصرع رجال الله على هذا النحو الفلج . وحين جاء إلى النبي من يعرض عليه أن يرسل ولدا من الدعاة لنشر الإسلام بين قبائل نجد ، وأذن النبي صلى الله عليه وسلم بين عوالم الحضر والرغبة في نشر الإسلام ، واختار نشر الإسلام ، مدركا أنه يبعث رجاله إلى الحضر ، ويعرضهم لمسير مجهول لا يدريه إلا الله . . . إلا أن الخطر صار جزءا من مذاق الحياة الذي تعيشه الدعوة الإسلامية ، وحين أبدى النبي خشية على رجال الله وسط قبائل لا يؤمن جنتها ، طمأنه السائل أنه سيجبرهم . وأمر النبي سبعين من خيرة رجاله بالخروج في مسيل الله والدعوة إلى الإسلام .

وخرج من يعرفون باسم « القراء » هم دعاة من خيرة الدعاة إلى الله ، عاشوا حياتهم محتطون بالنهار ، ويصلون بالليل ، علما جاءهم أمر الرسول بالخروج فخرجوا مستبشرين أنهم يدمعون إلى الجهاد في سبيل الله . . . وحشوا الفضيحة الواقعة في أرض المتألفين والفارين حتى وصلوا بثر معونة . . . وبشوا لخدمهم إلى رأس الكفر في هذه النجاة . . . ومد الداعية إلى الله يده بكتب النبي وهو يرجو أسلام القوم في نفسه .

فوجه بالطمعنة الفائرة تخترق ظهره لينفذ النصل من صدره . . . صاح الداعية إلى الله وهو يسقط :
— غزت ورب الكعبة .

وحمل رأس الكفر سلاحه وضم قبائل الفارين وانقضوا على الدعاة إلى الله .

واستشهد خلاصة الدعاة إلى الله في بثر معونة . . . صارت أجسادهم طعاما للنسور والطيور الحارحة . . . ونجا من السبعين رجل واحد عاد إلى النبي يقص عليه ما لقيه فقهاء المسلمين وخيارهم من غدر ، وأطرق النبي برأسه وهو يسبح أخصار الكارثة . . . ثم رفع رأسه وقال للناس :

— أن أصحابكم أصيبوا . . . وأنهم قد سللوا ربهم فقاتلوا : رينا أخبر عنا أخواننا بأرضينا منك ورهيت عنا .

كانت محنة الإسلام قاسية فحين أدركتهم الشهادة في بثر معونة ، ولقد هزن النبي لأجراء الأعراب والكافرين على الإسلام ، وأثارة أن يستهين المحرمون بالمؤمنين لهذا الحد ، وقرر أن يلجأ إلى الصف ويستعيد للإسلام هيئته ، ولحق هذه الظروف ، تحركت يهود لافقيال رسول الله . . . ذهب إلى بني النضير لشأن من شؤون الحياة ، فأظهروا الرضا لما يقوله ، وأحلسوه في ظل حصن من حصونهم ، وتأمرؤا عليه ، وقرروا اللقاء صخرة ثقيلة فوقه وهو جالس لا يتوقع شرا . . . وألهم الله رسوله الخطر ، فنهض قبل ثلثا التكيد وأنصرف مسرعا إلى بيته . . . كل يفكر وهو عائد في هيومة الجديدة . . .

لأن يوقف هذا العذر غير عذف عسكري سريع من الإسلام ، يستعذر به هيئته ، ويرد منه الأيدي التي تقتل في الظلام وتصطاد أرواح رجال الله غيلة ، وأرسل الرسول إلى بني النضير يأمرهم أن يخرجوا من المدينة فواجههم رسول الله عشرة أيام ، وأتعد منالوق المدينة مع اليهود وانتقوا على قتال

الإسلام معا ، وقاتل الإسلام وانهزم اليهود ، نزلوا على حكم الإسلام الذي أجلاهم عن ديارهم ، ونزلت سورة القحشر تصف طرد اليهود وتكشف موقف المنافقين . بعد هذا النصر العسكري الحاسم ، خرج النبي صلى الله عليه وسلم ليقاتل أصحابه القراء ، ويصد هبة الدعوة الإسلامية ، واستطاعت هذه العسكرية أن تزج حياة الغافرين من الأعراب بالرعب ، وكان يكفى أن تشي الرياح باسم المسلمين حتى يتحول فئاب الصحراء السابقين إلى فئران مذبذبة تخفى في رؤوس الجبال . وتسامت قريش بنشاط المسلمين العسكري ، فانسحب جيش قريش وهو يقترب من « الظهران » ، وعسكر المسلمون في « بدر » ، ينتظرون اللقاء الذي اتفق عليه في « أحد » . ولوقد المسلمون النصر ثمينة أيلم تحديا وانتظرا ، حتى إذا أنصرفوا ، كانت سمعهم قد برئت تلبا من غبار معركة أحد .

والتفت المسلمون إلى شمال الجزيرة بعد تأكيد مهلتهم في الجنوب . وكانت القبائل حول « دومة الجندل » قريبا من الشلم تقطع الطريق هناك ، وتنهب من يمر بها ، وبلغت جرأتها هذا فكرت معه في غزو المدينة ، ولهذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم في ألف من المسلمين ، يخفى بهم نهرا ويسير بهم ليلا ، حتى وصلوا بعد خميس عشرة ليلة إلى مخراب خصومهم ، فاجتاحوها ، وفوجيء الجيش الذي كان يتصور أنه سيفزو المدينة ، ولم يدرك في حله تطل المدينة في التي ستقتل إليه في مكانه .

ولم يوف نعم أن جهاز المعلومات في جيش رسول الله كان متفوسا ، كما كان أسلوب الدفاع متفوسا ، ولقد كان هذا الهجوم الخاطف هو أعظم أساليب الدفاع أمنا ، كما أن عنصر المفاجأة كان يعني فطرة الجيش الإسلامي على الاستتار والمناغمة .

ومضت أيام الصراع العسكري . . لا يكاد النبي يضع درعه ويعاود بناء نفوس المسلمين ، حتى تضطره الحياة إلى ارتداء درعه والعودة إلى القتال . .

وحين رأى أعداء الإسلام المحققون به أن قبضتهم العسكرية حول رقبة الإسلام تنهار ، عمدوا إلى أسلوب جديد في الحرب . . هو الحرب النفسية وإطلاق الشائعات ، أو ما ساء القرآن الكريم بخات « الأك » . .

بعد غزوة بني المصطلق ، وهي غزوة كانت تعيل نصرا سريعا للمسلمين ، تسارح خاضعان طائشان من خدم القوم على الماء ، فصاح أحدهما : يا للمهاجرين . . وصاح الآخر : يا للأنصار . .

والتفت الحادث الفلاني أحد رؤوس التلق ، وهو عبد الله بن أبي ، فراح يوجج الأنصار على المهاجرين ، ويحاول أن يثير نمرات الجاهلية القديمة التي دفنها الإسلام ، وقال فيها قاله :

— أو قد فعلوها ، نفرونا وكاثرونا في بلادنا ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعر منها الأذل . .

ونقل زيد بن أرقم كلمة المنسلق إلى النبي . . وكانت الكلمة بها تلاها من كلمات تحاول أن تثير الانسار على المهاجرين وتوقع بينهم وتفتت وهدمهم

.. واسرع المنفق الى الرسول ينفي ما قاله .. واخذ المسلمون بالظاهر
ومصدقوا كذبت المنفق وانهموا بسبح النازل .. غير ان الحقيقة لم تخف على
انبيى ، صلى الله عليه وسلم ، فاهرنه ما حدث ، واصدر امره بالرحيل في
ساعة ما كان يسير في مثلها ، ومشى بالناس سائر اليوم حتى سقط الليل
عليهم ، وسار بهم طيلة الليل حتى اصبحوا ، ومعظم يومهم الجديد حتى آذنتهم
انهمسي ثم عسكر بهم ..

ولقد تبعض هذا الرحيل السريع المفاجيء عن اكلوبة نمسج خيوطها المنفق
عبد الله بن ابي ، وهي اكلوبة كان هدفها هو هدف الحريق العمى ..

حين حاول اشعال النار في بيت الرسول ..

وما دام الرسول قد صار الى حال من القوة التي تخيف من يحاول هزيمه
مسكريا ، او اغتياله غفرا .. فلا بأس من تجربة الاغتيال النفسي والمعنوي
لزوجة من زوجته وأم المؤمنين وطفلة تنصب اليها المراء اكثر مما تنصب
هي الى البراءة ..

وكانت عائشة ، رضي الله تعالى عنها ، قد خرجت تقضى حاجتها وفي
منتها عقد ، فلما فرغت انسل العقد من عنقها وهي لا تدري ، وحين عادت
الى النافذة كثروا يتهللون للرحيل ، وعانت تبحث عن عقدها حتى وجدته
وجاء من يحملون هودجها فحملوه وهم يظنون انها داخله ، وشسوه على
السمير ولم يراودهم الشك انها لم تكن فيه لتخلتها وخفة وزنها .. وسار
جيش النبي وهو يحمل هودج عائشة الحالي ..

عانت هي فكتشفت ان القوم قد رحلوا ..

اصابتها الدهشة لهذا الرحيل السريع ، ولزكها الخوف وهي تقف وحدها
في الصحراء .. وتصرفت لتصل تصرف ممكن .. جلست في مكانها ، حيث
كان بعيرها ، والتفت بثيابها وقالت لنفسها : سيكتشف الناس غيابي
فيعودون الى المحث عسى ويجدونني ..

كان صفوان بن المصطلق قد تخلف لبعض حاجته ، فلم يبق مع الناس ،
واقبل يمشي من بعيد فرأى مخلوقا لم يقببه ، واقترب صفوان فكتشف انه
يقف أمام عائشة .. وكان يراها قبل ان يضرب على نساء النبي الحجاب ..

قال صفوان حين رآها : انا الله وانا اليه راجعون .. زوجة رسول الله ..
ما احرك يرحمك الله ..

لم ترد عائشة ..

تأخر صفوان .. وهرب بعيره اليها وهو يتول :

— اركبي ..

ركبت عائشة ، رضي الله عنها البعير واخذ صفوان زمامه وانطلق يطلب
الناس ..

كان جيش النبي قد اتاخ .. وكان الناس يتصورون ان عائشة في
هودجها ، وغوحنوا بها تدخل عليهم ، وصفوان يتود بعيرها ..

ولمسرع رأس التناق عبد الله بن أبي يستغل فرصته المسالحة .. فنسج
من هذا المشهد المرئي قصة مختلفة ، تنهم زوجة النبي بالحياة ..

وكان عبد الله بن أبي قد اختار نفرا من المسلمين استشف فيهم غلة القلب
التي تبلى حد تصديق الظواهر .. أو أحسن أن بينهم وبين عائشة من الحسد
ما يثير الرغبة في نشر الأكاذيب منها ..

وهكذا أوقع رأس التناق في حال أكذوبته حسال من ثلث ، وبسطح ،
وامرأة تدعى حملة بنت جهش ، وهي أخت زينب بنت جهش زوجة رسول
الله صلى الله عليه وسلم .. وانخدع الثلاثة بالأكذوبة ونشروها . وقال أهل
الافك ما قالوا .. وارنج المسكر ، وعائشة لا تدري شيئا من ذلك ..

ولقد كانت هذه الشائعة تستهدف الفيل من الإسلام ، وتجريح رسول
الله ، وكانت جزءا من الحرب الضارية ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم
وما جاء به من الإسلام ، وكانت تستهدف اظهار الإسلام بظهر العقيدة التي
يقول أتباعها شيئا ، وهم يتصرفون عكس ما يقولون ، كما كانت ضربة موجبة
لنقاء بيت وشرف سيد ..

عاد الجيش الى المدينة ، فبرغت عائشة وهي لا تدري شيئا مما تبغى
به الألسنة حولها .. وبلغ الحديث رسول الله ، كما بلغ والدها لها بكر ولها
.. ولم يفكر أيها شيئا منه لها ..

أيضا لم يصدقها الرسول بما يشاع عنها .. كل ما حدث ، انه لم يكن
يلاطفها كعادته حين تمرض ..
كان اذا دخل عليها وعندها لها تمرضها قال :

— كبت تيكم ..

لا يزيد على ذلك ..

وبدلت عائشة ، رضى الله تعالى عنها تغضب ، حين رأت من جعله
ما رأت ..

قالت له يوما : لو اذنت لى لانتقلت الى لى ..

قال صلى الله عليه وسلم : لا عليك ..

وهكذا انتقلت الى لى وهي لا تعلم شيئا .. شبيت من وجعها بعد بضع
وعشرين ليلة .. وهي لا تدري شيئا مما يفل حولها ..

حكى أم المؤمنين عائشة كيف مرغت بحديث الافك .. وكيف أظهر الله
برأها .. قالت :

كما قرأنا مرأ ، لا نتخذ في بيوتنا هذه الكتب التي تتخذها الأماجم ،
نعلفها ونكرها ، إنما كنا نخرج في فصح المدينة ، وكانت النساء يخرجن كل
ليلة في هوائجهن .. فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، فوالله
أنما لتبشى معى اذ عثرت في برطها فقالت : خمس مسطح ! فقلت : نى
— لعمر الله — ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدرا !

قالت : لو ما بلغك الخمير يا بنت لى بكر ؟ .. قلت : وما الخير ؟ ..
فأخبرتني بالذى كان من أهل الافك .. قلت : لو قد كان هذا ؟

قالت : نعم .. والله لقد كان ... !

قالت عائشة : هو الله ما قدرت على أن اتخفى حاجتي .. ورحمت ،
هو الله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيسدع كبدي .. وقلت لأمي :
ينظر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئا ؟ ..
قالت : أي نية ، خلفي منك ، هو الله لئلا ما كنت امرأة حسناء ، عند رجل
يحبها ، ولها خرائر ، إلا أكثرن وأكثر الناس عليها ..

قالت : وقد قام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فخطبهم — ولا أعلم
بذلك — فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في
أهلي ويقولون عليهم غير الحق ؟ .. والله ما علمت عليهم إلا خيرا ..
ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا .. ولا يدخل بيتا من بيوتى
إلا وهو معي .. قالت : وكان كبر ذلك عند « عبد الله بن أبي » في رجل من
أنصاره .. مع الذي قال « مسطح » و « حمنة بنت جحش » .. وذلك أن
أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولم
تكن امرأة من نسائه فتأصبن في المنزلة عنده غيرها .. فلما زينب تمصصها
الله مدينها فلم تفل إلا خيرا .. وأما « حمنة » فتأصبت من ذلك ما لتأصبت
فصارني بأختها .. فلما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم المعلقة ، قال
أسيد بن حضير : يا رسول الله ، ان يكونوا من « الأوس » تكفكم ، وان
يكونوا من أخواننا « الخزرج » غمرنا أمرك .. هو الله أنهم لأهل أن تضرب
أصابعهم .. فقام سعد بن عبادة — وكان قبل ذلك يراه رجلا صالحا — فقال
كذبت لعمر الله ، ما تضرب أصابعهم .. أنك ما قلت هذه المعلقة إلا وقد عرفت
أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ..

فقال أسيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك منطلق تجادل من المنافقين ..

وتصور الناس حتى كاد يكون بين هذين السجين شر ، ونزل رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم ، فدخل على ، ودعا على ابن أبي طالب وأسامة
ابن زيد ، فاستشارهما ، فلما « أسامة » لماش خيرا ثم قال يا رسول الله ..
أهلك .. وما أعلم منهم إلا خيرا .. وهذا الكذب والباطل ..

وأما « علي » فقال : يا رسول الله .. ان النساء لكثير .. وانك لعلمك
على أن تستخلف ، ومن الجارية فاتها تصدق ..

فدعا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم « بريدة » يسألها ، وقام إليها
« علي » فصرها صريحا شديدا وهو يقول : أصفتي رسول الله .. فتقول :
والله ما أعلم إلا خيرا .. وما كنت أعهب علي عائشة ، إلا اني كنت أعجن
صعيني ، فأمرها أن تحفظه ، فقام عنه ، فأتى الشاة ونكله .

قالت عائشة : ثم دخل على رسول الله وعندي أبوأي ، وعندي امرأة من
الأنصار ، وأنا أبكى وهي تبكى ، فجلس محمد الله وأثنى عليه ثم قال :
يا عائشة أنه قد كان ما يلحك من قول الناس .. فأتى الله .. وإن كنت قد
فكرت سواها بما يقول الناس ، فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من
عباده ..

قالت : هو الله ان هو إلا أن قال لي ذلك حتى جف دمي ، فما أصى منه
شيئا .. وانتظرت أبوي أن يجييا عني فلم يتكلما ..

قالت عائشة : وأيم الله لئن كنت أحقر في نفسي وأصغر شأننا من أن ينزل الله في قرآننا .. لكنني كنت أرجو أن يرى النبي ، عليه الصلاة والسلام ، في يومه شيئا يكتب الله به عني ، لما يعلم من برأيتي .. أما قرآننا ينزل في ، فوالله ، لنفقي أحقر عندي من ذلك ..

قالت : فلما لم أر أبوي يتكلمان ، قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، فقالا : والله لا ندري بم نجيبه ، قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ، ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام .. ثم قالت : فلما استعجها على استعبرت فكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله بما ذكرت أبدا ، والله أنني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم أنني منه بريئة - لأقولن ما لم يكن .. ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني .. قالت : ثم التفت اسم يعقوب عما ذكره فقلت : أقول ما قال أبو يوسف :

« غصبر جيل والله المستعان على ما تصون » [١] ..

فوالله ما برح رسول الله محله حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسجى بثوبه ووضعت وسادة تحت رأسه ، أما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما لغزعت وما ماليت ، وقد عرفت أنني بريئة وأن الله غير ظالمى .. ولما أبواي فوالذي نفسي عائشة بيده ما سرى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن بفاسها فرفقا أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس ، ثم سرى عن رسول الله فجلس وأنه ليتصدر من وجهه مثل الجمان في يوم شات لجمل يمسح العرق عن وجهه ويقول : أبشري يا عائشة ، قد أنزل الله عز وجل براحتك نفلت : الحمد لله .. ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم الآيات :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تصبوه سرا لكم بل هو خير لكم ، كل أمرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » [٢] .. [سورة النور] ..

وهكذا تنزل الروح الأمين جبريل عليه السلام ببراءة عائشة مما نسب إليها من الإفك .. وانهارت الحرب النفسية ضد المسلمين وبيت الرسول .. وايننت طوائف الكفار أن عليها أن تلجأ لنوع جديد من الحرب ..

ودخل الرسول صراعه ضد حرب الأعصاب ..

كانت غزوة الخندق أكرم نموذج لحرب الأعصاب التي خاض صراعها النبي ، صلى الله عليه وسلم ..

وضع اليهود أيديهم في أيدي المشركين ، وبدأت سلسلة من المؤامرات والأحلاف بين زعماء اليهود وزعماء المشركين من العرب ، وأفتى أعيان اليهود أن ديانة قريش ، التي تؤله الأصنام ، أفضل من دينه محمد ، التي تقصر الألوهية على الله واحد ، كما أن تقاليد الجاهلية أفضل من تعاليم القرآن .. ونجحت سياسة اليهود في توحيد الأعراب الكافرين وتوظيفها ضد المسلمين

(١) من الآية ١٨ سورة يوسف مكة .

(٢) الآية ١١ سورة النور مدية .

.. وتقرر الزحف على المدينة في عشرة آلاف جندي .. وهبّت الرياح لنبأ المؤامرة إلى النبي ، لم يدهشهُ أن يتحد اليهود - وهم أهل ديانة تدمو للتوحيد - مع المشركين ضد ديانة تدمو للتوحيد ، أدرك النبي أن العهد قد طال على اليهود فتست طويهم ، وباعدت الأيام بينهم وبين الذبح المسامح الذي فجره موسى ، وانتفى بهم الأمر إلى أن صاروا شجرة فاسدة علانها على رسم التوحيد ، وعمتها أبيض مرارة الشرك ..

وأخطر من هذا اتفاق مصالح اليهود والمشركين من العرب . ونشط النبي لمواجعة الخطر ، أدرك أن الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة في ساحة مكتسوفة لن يكسب للمسلمين المعركة .. وراح يفكر في الدفاع عن المدينة بغير الخروج منها ، تغير تكتيكة العسكري هذه المرة .. قبل ذلك كان يخرج من المدينة ويستعد عنها ويهاجم من ينوي غزوها لصدّه ، غير أن نوع الخطر يختلف هذه المرة ، ويتغير تفكير النبي تبعاً لاختلاف الخطر ، ويعتد النبي اجتماعات عسكرية مع جنوده ، يرد أن يستمع لاقتراحات الدفاع عن المدينة ، ويقترح سلمان الفارسي حفر خندق حديق حول المدينة ، خندق يكون بمثابة مانع طبيعي يسهل السيل المتعذر من التقدم ، خندق لا تستطيع الخيل اجتيازه ، ويمكن للمسلمين الدفاع من ورائه ..

وبدا الاقتراح شبه مستحيل ، أو صعباً لدرجة الاستحالة ، وتبنى النبي اقتراح سلمان ، وأدرك بحسبه العسكري المهم أن الموقف الخطير يستدعي بذل جهد أخطر لتجاوزّه .. وأمر النبي بغير خندق حول المدينة .. كان العمل شاقاً ، والفصل شتاءً ، والحو مغيظاً في مروضته ، وهناك أزمة اقتصادية تهدد المدينة ، ورغم هذا كله بدأ حفر الخندق وتعميقه وتوسيعه .. اشترك النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في أعمال الحفر وحمل الأتربة ، اشترك فيها وكان يقوم بأصعب المهام وأعظمها مشقة .. وتوجه المسلمون وأسعوا من حفر الخندق ..

وكان شينا عسكرياً فريداً لم يسهل العرب بمثله من قبل ، ولا ألفوه في الحروب ، ورغم جملة الحياة وحوج المسلمين وفقر أبنائهم وسحراء الكراهية التي عاشوا فيها ، كانت روح الجيش الإسلامي في القمة ، كانوا ولقين من نصر الله لهم .. قال تعالى في سورة [الأحزاب] :

« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصلى الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » [١] ..

واتحدر جيش قريش على المدينة ..

تحولت المدينة فجأة إلى جزيرة من الحب وسط بحر هائل من الكراهية ، وراح البحر يهول ويلطم الجزيرة محاولاً اغراقها داخله .. وتطهرت سهام المسلمين تصد الجيش لكثيف المهاجم .. وراح الجيش يدور حول الخندق وهو دهش .. ما هذا الذي فعله المسلمون ؟ .. كيف استطاعوا حفر هذا الخندق ؟ .. وهاولت حيل العدو اجتياز الخندق في أضيق أجزاءه ، وسد المسلمون الهجوم ..

(١) الآية ٢٢ سورة الأحزاب مدنية .

وامتدثرت معركة الأحزاب ..

كثنت في جوهرها معركة أعصاب ..

استمر حصار الأعداء ثلاثة أسابيع ، لم تقطع فيها الهجمات لحظه من نهار .. ولم تغلق فيها الأعين لحصة من ليل ، وكان المسلمون من حرط الهول لايمرون هل احتلت المدينة لم لا .. وهل نفذ المهاجمون من إحدى الثغرات أم لا ؟ .. أحيانا كان مد السيل بخرق الحندق ، وينفذ إلى المدينة ، ويكاد يصل إلى بيت الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لكن هذا كله كان يتحصر بلص مقاومة جبارة وجهود مدهش ، وإذا كان تنفق السيل من ثغرة يتفق مع القوانين المأنية الحاكمة ، فقد كان انحصار السيل وعودته من نفس الثغرة التي نفذ منها يحتاج إلى معجزة ..

وقد صنع المسلمون هذه المعجزة أكثر من مرة في حصار المدينة ..

صور الله تبارك وتعالى الموقف في غروة الأحزاب بقوله تعالى :

« أذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وأذ زلزلت الأبصار وبلغت القلوب الحصلجر وتظنون بالله الظنونا . هناك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلا شديدا » (١) ..

وزاد الموقف سوءا نقض اليهود لعهدهم مع المسلمين ، وانضمائهم إلى الأحزاب ..

وهكذا تقطعت قريظة مهددا ونسوا قدر بنى الضير واجلاء النسي لهم ..

وراح الموقف يزداد سوءا كل يوم ..

كثنت أعصاب المسلمين هي التي تتعن ..

وهين وصل الخطر قروته ، سأل المسلمون الرسول ماذا يقولون ؟ .. حدثهم أن يقولوا : اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم ..

ولقد خرج هذا الدعاء من أفواه قوم أدوا واحبهم وصنعوا معجزتهم في صد الهجوم ، وأذن لم يعد باقيهم غير الدعاء .. والله تعالى هو السميع المجيب ..

سميع لمن يؤدي واحده .. مجيب لمن يستحق الإجابة ..

وادركت رحمة الله المسلمين ..

وتطور سير المعركة على نحو غير مفهوم .. أدرك المهاجمون أنهم هزموا .. أن لهم ثلاثة أسابيع يهاجمون بغير جدوى ، ويبحرون مروتهم بهذا بلا أمل ، ويمكن أن يطلوا هكذا ثلاث سنوات .. واشتد هواء الرياح وتطلع الحو ، وبدأ التصدع الخفى في جبهة الأحزاب ..

وجاءت ليلة لم ير المسلمون لها مثيلا في الظلمة أو الريح .. زاد سواد الليل ، واشتدت سرعة الرياح ، حتى لتعل فيها أصوات كأمثال الصواقي ،

(١) الأيهان ٩ ٤ ١٠ سورة الأحزاب معية .

ولم يعد أحد من المسلمين يستطيع أن يرى أصبحه من فرط القنم ، أو يقوم من مكانه بسبب البرد ..

وجاء النبي إلى حذيفة بن اليمان .. لم يستطع رؤيته رغم أنه كلن يقف إلى جنبه ..

سأل النبي : من هذا ؟

قال حذيفة : حذيفة ..

قال النبي : حذيفة ..

وتناصر حذيفة في مكانه كراهية أن يقوم بسبب البرد والظلام ، وخوفا من أن ينتهبه الرسول لسل في هذه الليلة الليلاء ..

قال الرسول لحذيفة : أنه كلن في القوم خير فأتني به ..

احس حذيفة بفزع غامر ، وفلقت عليه وطاة البرد .. أن ما يحسه من الفتلج يجعله يخشى أن يفلت ، فكيف ينهض ويفرج من المدينة ويتوجه إلى جيش العدو وتوغل في صفوفه ويأتى النبي بأخبارهم ..

نهض حذيفة من مكانه حين انتهى النبي من كلامه .. دعا له النبي بخير .. اتطلق حذيفة يمشى كأنه يمشى في حمام .. لقد أمره الرسول ودعا له ، فالتزم الظلام والبرد خارج نفسه حين غاض بطنه بحرارة الإيمان ..

خرج من المدينة ، وتوغل في جيش العدو ، أمره النبي ألا يتصرف أي تصرف .. ليخبر الأخبار وليعد .. هذه مهمته .. وصل حذيفة إلى قلب العدو .. كانوا يحاولون إيقاد نار ، وكنت الرياح تاكلها قبل أن تشتعل .. وقريبا من النار يقف رجل أدهم ضخم ، يمد يده إلى النار مستغنيا ويمسح خاشرته .. كان هذا الرجل هو زعيم المشركين « أبو سفيان » ، ووضع حذيفة سهما في قوسه وأراد أن يرميه ، ولو رماه لقتله وأراح المسلمين منه ، غير أنه تذكر وصية الرسول له ألا يتصرف أي تصرف .. ووضع قوسه إلى جواره وكمن .. وقال أبو سفيان :

— يا محشر قريش .. أنكم ما أصبحتم بدار مقلم .. فارتحلوا فأتني مرتحل ..

وقفز أبو سفيان على جبله وهو يترك فحلن عليه ثم ضربه فنهض الجبل ..

وعاد حذيفة إلى رسول الله بغير انسحاب الأحزاب ، وفشل الهجوم ، وقتل رسول الله ، حين بلغته أنباء انسحاب العدو :

— الآن نقرؤهم ولا يقرؤنا ..

لم يكد جيش الأحزاب ينحسر عائدا إلى بلاده وهو ينوء بقتل الفشل ، حتى خرج من المدينة جيش يتجه نحو يهود قريظة .. لقد خان هؤلاء اليهود عهدهم مع النبي وغدروا بالإسلام في لحظة الخطر ، وألن ليلدعوا ذن غفرهم الآن ..

أمر النبي ألا يصلى الناس العصر إلا في بني قريظة .. ولهم المسلمون

أن هذا يعني اقتحام حصون اليهود قبل أن تغرب الشمس .. وانهزم اليهود وجيء بهم إلى سعد بن معاذ ليقتل فيهم بما يرى ، وكان سعد سيد الأوس وكان الأوس حلفاء يهود قريظة في الجاهلية ، وترجع اليهود أن تنضمهم هذه الصلة القديمة ، كما تصور الأوس أن رجلهم سوف يتساهل مع حلفتهم القدامى ، وكان سعد جريحا يمرض في خيخته بسبب سهام الأحزاب التي أصابته ، وراح بعض قومه ينافسونه أن يحسن إلى اليهود حلفتهم القدامى ، وراح اليهود ينافسونه أن يرفق بهم .. وقال سعد كلمته الشهيرة : قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم .. وحكم سعد أن يقتل الرجال ، وتسمى الذرية ، وتقسم الأموال .. وأقر النبي هذا القضاء الحازم لسعد .. وقال له : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » .. ولقد أدرك سعد أن الوساطات والتوسلات والرجاء وبراءة الاعتبارات القديمة ، أدرك أن هذا كله في كفة ، ومستقبل الإسلام في كفة .. لقد كان يهود قريظة هم المسبب في غزوة الأحزاب ، وأن سياساتهم وأحلافهم سعت وسوف تسعى لحصار الإسلام واقتلاعه .. والآن تقتلع الأشجار السامة من مكثها بغير شفقة ..

وهكذا تم تطهير المدينة من اليهود ..

.....

وهود النبي صراعه ..

مضى صراعه العسكري حثا إلى جنب مع صراعه السياسي ..
وكانت فروة معاركه السياسية ، بمعاهدة عقدها مع قريش ..
كل النبي في طريقه لأداء العمرة ، وزبارة البيت الحرام ..

خرج في ألف وأربعمائة رجل يقتصدون البيت الحرام لأداء العمرة .. فلما وصلوا إلى الحديبية لأسفل مكة ، وبركت ناقة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، رفضت أن تتقدم خطوة نحو مكة ، وقال الناس : حرنت القصواء ..

قال النبي : ما حرنت ، وما هو لها بخلق .. ولكن حبسها حابس الفيل من مكة .. لا تدموني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إيها ..

وأمر الناس أن يستقروا في الحديبية ، وأباح المسلمون على أهل أن يدخلوا مكة في الصباح ، كان الشهر حراما .. وقررت مكة ألا يدخلها مسلم .. خرجت قريش كلها لقتل المسلمين ..

أرسلوا رسلاهم إلى النبي فالتهمهم أنه لم يأت مقتلا ، وأما جساء معتبرا يؤدي الشكر لله تعالى ويعظم حرمت بيته الحرام .. وقررت مكة عقد معاهدة مع المسلمين يدخلون ميقتضاهها هذا السلام ، ولا يدخلون البيت الحرام ، على أن يسعوا سعد عندهم هذا .. وجاء مفاوض قريش فاستقبله الرسول واستمع منه إلى شروط المعاهدة التي يتم بموجبها الصلح وانسحاب المسلمين .. ووافق النبي على الشروط كلها .. وكثفت الشروط تدو في غير صالح المسلمين ..

كانت تبدو تراجعاً سياسياً وعسكرياً من المسلمين ..

وزاد في دهشة المسلمين أن الرسول لم يستشر أحداً من رجاله في هذا الأمر ، ولم تكن هذه عادته .. شاهدوه يذهب في ملاينة المشركين إلى أبعد حد ، وحين لم يعد بالياً غير كتابة المعاهدة والتوقيع عليها .. تحرك المسلمون يعرضون رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .. سألوه : أليس رسول الله ؟ .. ألسنا مسلمين ؟ .. أليس أعداؤنا مشركين ؟ .. وأجاب النبي بالإيجاب على هذا كله .. وعاد عمر بن الخطاب يسأل :

— نعلم نعطى الدنيا في ديننا ... ؟

أراد التعبير أن يقول له بلغة عصرنا .. لماذا نتراجع إذا كنا على الحق ؟
.. لماذا نبرل على شروط معاهدة جائرة تبخس صالح المشركين ؟

هل نحن خائفون منهم ؟ .. لماذا ننزل على شروط الهدنة الآن ؟

وكان رد الرسول قريباً على آذان القوم .. قال : أنا عبد الله ورسوله ،
وبن أخالف أمره ، ولن يضيئني ..

إن محسب كليته .. لطبعوا ما أعمل بخير متناقضة ، وأصبروا قليلاً ..
ولقد أثبت الأيام ، أن المعاهدة التي أثارها كل هذا الصراع ، كانت أخطر
اتصال سياسي حققه المسلمون .. كانت صراعاً سياسياً بين فضاء قريش
وحكمة النبي ..

ولقد ركزت قريش كل فكاكها ليمود المسلمون فلا يدخلوا المسجد الحرام
هذا العام ، بينما امتنعت حكمة النبي لترى ما لا يراه القوم من أيام المستقبل
.. ولئن بدت المعاهدة هزيمة للمسلمين الآن ، ولئن ظهرت استسلاماً لشروط
قريش ، فاتها ستصبح بعد أشهر قليلة شيئاً آخر تماماً ..

كان سهيل بن عمرو هو ممثل قريش ..

وكان علي بن أبي طالب هو كاتب المعاهدة من قبل النبي ..

قال رسول الله لعلي : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ..

قال ممثل قريش : لا أعرف هذا ، اكتب باسمك اللهم ..

قال رسول الله لعلي : اكتب باسمك اللهم ..

إن تعنت ممثل قريش لا يخفى شيئاً ، وليس هناك علق بين باسمك اللهم
.. وبسم الله الرحمن الرحيم ، غير نية القتل ..

قال النبي لعلي : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، سهيل
ابن عمرو ..

قال سهيل معترضاً : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك .. ولكن اكتب
اسمك واسم أبيك ..

قال النبي لعلي : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، سهيل
ابن عمرو ..

هذا هو التراجع الثاني كما يبدو للظنرة الصريحة .. غير ان النبي يريد أن يحقق هدفا ما .. هدفا لم يكشف الستار عنه بعد ، ولن يكشف عنه الآن .. ان الأمر كله يمضي بالهام من الله ..

وعاد على يكتب ان محمد بن عبد الله ، وسهيل بن عمرو اصطلاها على وضع الحرب من الناس عشر مستين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض .. على أنه من أسلم من قريش وجاء الى محمد بغير أدن ولبه .. رده المسلمون الى قريش ، ومن عاد الى دين آتائه ممن مع محمد لم ترده قريش الى النبي ..

كان هذا الشرط موجبا للمسلمين ..

ان قريشا تفرض شروطها الجائرة في المعاهدة ..

ومضى على يكتب .. ان بين المسلمين وقريش صدورا تنطوي على ما فيها ، ورغم ذلك فلا سرقة ولا خيانة ، ومن أحب ان يدخل في عقد محمد يدخل فيه ، ومن أحب ان يدخل في عقد قريش يدخل فيه .. وان على النبي ان يرجع عن مكة عليه هذا فلا يدخلها ، فاذا كثر العالم القادم خرجت قريش منها فدخلها محتمرا ثلاثة ايام .. بعدها يرحل عنها ..

كانت شروط المعاهدة قاسية على المسلمين .. كانت تبدو تراجعا غير مفهوم ..

ووقع أثناء المعاهدة حادث زاد من ألم المسلمين ودهشتهم .. لجأ الى المسلمين ابن ميثل قريش في توقيع المعاهدة .. أسلم وجاء لاجئا الى المسلمين ، ونهض اليه أبوه سهيل يضربه ويرده الى قومه .. واستنفاث المسلم المهاجر بالمسلمين ان يمتدوه من قريش حتى لا يفتنوه في دينه ، وهذا رسول الله ان يصبر ويهتصب ، فلن الله جاهل له ولن معه فرحا وسجرا ، لعنه النبي انه قد عقد بيعة وبين قريش صلحا ، واعطوا عهد الله على ذلك ، وان المسلمين لا يخشون بمعهدهم ..

وأعيد الابن المسلم الى مكة مخذولا ..

ولم توقيع المعاهدة من جانب المسلمين والمشركيين ..

وقلم الرسول بعد توقيع المعاهدة يأمر أصحابه أن يبحروا ويحلثوا للتحلل من عيبتهم والعودة الى المدينة .. فلم يبق منهم رجل ..

كرر أمره ثلاث مرات وسط مسلمين وأجمين من غرط الهم والذهول .. ثم نحر دنة ودعا حالقه فحلق ولم يكلم أحدا من المسلمين .. فلما رأى المسلمون انه غائب وقد سبقهم بالتحلل من عيبتهم ، نهشوا ويحرقون ويطلق بعضهم رؤوس بعض ، وقد كانوا يقتل بعضهم بعضا من غرط القم ..

ثم اشقت الأيام ان المعاهدة على العكس مما تصوره المسلمون ..

كانت انتصارا ولم تكن هزيمة .. كانت فتحا ولم تكن استلابا ..

لقد تهاوى اتحاد الكفار في الجزيرة منذ تم توقيع المعاهدة .. كانت قريش تعتبر رأس الكفر وحاملة لواء التحدي للإسلام ، فلما شاع نبا تمهدها مع

المسلمين ، خدمت غنم المسلمين الذين يعملون لها ، وتمتدحت القبائل الوثنية في اتحاء الجزيرة ..

وعلى حين توقف نشاط قريش .. انطلق نشاط المسلمين وراحوا يجلبون اليهم كل من يملك قدرة على رؤية الحقيقة ..

وقد دخل في الاسلام خلال عامين من توقيع المعاهدة اضعاف اضعاف من دخلوه قبلها .. والدليل على ذلك ان الرسول خرج الى الحديبية في ألف وأربعمائة مسلم ، ثم خرج عام فتح مكة في عشرة آلاف مسلم .. ولقد كان فتح مكة بعد توقيع المعاهدة بعامين ..

زاد فيهما المسلمون كل هذه الزيادة الهائلة بسبب حكمة النبي وبعد نظره ..

وخرج الناس من هراجه المسياسي منتصرا .. وانتظمت الشروط الظالمة للمسلمين الى شروط ضد قريش ..

من كثر من المسلمين وذهب الى قريش فلهحتظلوا به ، فقد أغنى الله الاسلام عنه ..

ومن أسلم من الكفار وذهب الى المسلمين لميردوه الى قريش ، حيث ينقى فيها عينا للمسلمين ، أو يهرب من قريش لتأليف فرقة مقاتلة صغيرة يقطع بها الطريق على القبائل ويحش كالثوكة في جيب قريش ..

ولا تكاد الأيام تضي حتى ترسل قريش الى النبي ترجو منه ان يؤوى اليه من أسلم من قريش ، بدلا من تركهم هكذا سهليا طائفة نحو قريش ..

وهكذا نزلت قريش من الشرط الذي أمكنه تحقنا ، وقبله النبي راضيا ..

مكنت المعاهدة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، من كف قريش عنه ، لينفرغ لمن بقي من اليهود في الجزيرة العربية .. وكان اليهود لا يتوقفون عن خدعهم وكيدهم للإسلام ، فأعطيت الهدية بين المسلمين والمشركون فرصة عظيمة للإسلام كي يواجه كيد اليهود وخدعهم ..

وبدأت سلسلة الممارك التي انتهت بكسر شوكة اليهود وإجلالهم .. ثم تنازلت قريش من المعاهدة حين اكتشفت انها كانت شركا سبقوا اليه دون أن يفرقوا ..

ومضت حياة النبي هراعا لا يقوقف ، ومشقة لا تدع له وقتا للراحة ..

لم يسج بيته ولا غلت حبلته الخاصة من المشقة ..

نزوح النبي ، صلى الله عليه وسلم من تسع زوجات ، وقد كان زواجه من تسع خصوصية أختص بها وحده ، صلى الله عليه وسلم .. لأسباب تتصل بالدعوة الإسلامية ، وهي دعوة اناحت لمعتقداتها الزواج من أربع ، بشرط العدل ، وأمرت بالانفصال على زوجة واحدة اذا خلف المسلم عن العدل .. وقد أساء كثير من المستشرقين وأعداء الاسلام الى النبي ، وكلفت الثغرة التي نفدوا منها أن يظنوا أنهم نفدوا منها هي زواجه من تسع ..

ولقد ثبت أكثر تلك الزيجات لأسباب سياسية أو اقتصادية لتصل بالدموة الإسلامية ..

والمعروف من سيرة النبي أنه تزوج بالسيدة خديجة وهو في الخامسة والخمسين من عمره .. وكنت هي في سن الأربعين ، وظل مقتصرا عليها وحدها حتى وصل عمرها إلى الخامسة والستين .. وماتت وهو - صلى الله عليه وسلم - فوق الخمسين ..

تزوجها قبل أن يبعث بالإسلام ، وظل ولها لها حتى مات وهو في .. غير أن أعيان النبوة ، ومشقة الجهاد ، ورافته بالناس ، وتضحياته للإسلام ، وأمر الله تعالى ، اضطره هذا كله للزواج بعدها بأكثر من واحدة حتى بلغ عند زواجه تسعا ..

كان زواجه من « عائشة » - على صغر سنها - ارتباطا بلبي بكر .. فقد كانت أمته .. وكان زواجه من حفصة - رغم ثلث وسلبتها - ارتباطا بعمر ، فقد كانت ابنته ..

تزوج من « أم سلمة » أريكة قائد الذي استشهد في سبيل الله وعانت معه أمراته ما عانت في الهجرة إلى الحبشة ، والهجرة إلى المدينة ، فلما مات عنها زوجها وتركها وحيدة تواجه عواصف الحياة ، فسميها النبي إلى بيت النبوة ..

وكان زواجه من « سودة » ، أكراما لقيم أسلافها وكبرها وعزوها من الرجال ووحدتها أمام الحياة ..

وكان زواجه من « زينب بنت جحش » ، امتحانا قاسيا له ، وقد حله الأمر برواها ، من الله عز وجل ، لتحريم عادة كانت شائعة في الجاهلية ، وهي مادة الشئ ..

إن زينب من قريبات الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، هي أذن من بني هاشم ، وهي تمتاز بنسبها اعتزازا يدعوها إلى رفض الزواج من زيد ابن حارثة ، وهو مولى النبي الذي اعتقه وألحقه بنفسه وبنائه فصار يدعى زيد بن محمد ..

غير أنها تنزل على رأي النبي وأمر الله فتزوج من زيد ..

« وما كنن المؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أنفسهم ، ومن يخف الله ورسوله فقد ضل سبيلا مبينا » [١] ..

كان واضحاً منذ البداية أن هذا الزواج سيتحطم .. لم تكن زينب تحب زيدا ، ولم يكن زيد رجلاً يطبق الحياة مع امرأة قلبها منحرف عنه .. وجاء زيد يشكو للنبي ويطلب الآن بطلاق زوجته .. وأوحى الله إلى رسوله أن يدع زيدا يطلقها ويتزوجها هو .. ولحقى النبي بالحرج المائل وحدث زيدا أن يستمر ويحتمل ، تصور ما يقول الناس عنه من أنه تزوج امرأة ابنه ، غير أن ما حشبه النبي هو ما يريد الله أطفاله .. ليس زيد ابنه ، لا وجود

لنظام التبنى في الإسلام ، واذن فليطلق زيد وليتزوج النبي لاشقات ما يريد الإسلام اشاقته .. وليتعمل رسول الله على نفسه ما سبقوله الناس منه ، فليست هذه أول تضحية ولا آخر تضحية يقدمها للإسلام ، قال تعالى في ذلك :

« **وَالَّذِي نَقُولُ لِذِي النِّعَمِ اللَّهُ عَلَيْهِ وَانْتُمِيتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّفْسَ وَاللَّهُ لَاحِقٌ إِنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا خَفَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَا زَوْجَهَا لَوْلَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوَاجِ ادْعِيَائِهِمْ إِذَا قَامُوا مِنْهُمْ وَطَرَا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا** » (١) ..

كانت الظروف التي أحاطت بزواجه ، صلى الله عليه وسلم ، تجعل من هذا الزواج بعض ما كلف الرسول بحمله من سياسة الأفراد والجماعات ، وبعض ما كلف بتحقيقه من إقامة الخير والرحمة ، واحترام القيم الرفيعة وضبطها لبית النبوة ..

أوليت « أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب » ، سيد قريش وقائدتها في حرب الإسلام ، وهاجرت مع زوجها إلى الحشنة ، وعمرت الغربة والوحشة والخوف في الله ، ثم مات عنها زوجها وتركها وحيدة تواجه الحياة ، وكان موقفها السبيل من الإسلام ، والوقوف ضد أبيها ، هو القيمة التي حملت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ضياعها لبית النبوة ..

ولقد دخل أبو سفيان عليها يوماً وهي زوجة لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم .. وأراد أن يجلس على فراش النبي ، فحملت لم حبيبة الفرائش بعيداً عنه .. وسألتها أبوها : أرغبت في من الفرائش أم رغبت به في ... ؟ قالت بشجاعة : هذا فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وأنت بمشرك فلا تطسه ..

أما « صفية بنت هني » ، فكان أبوها ملك اليهود ..

أما « جويرية بنت الحارث » ، فكان أبوها زعيم قبيلة بني المصطلق .. وقد انتهت حرب اليهود وبني المصطلق بالهزيمة ، ووقعت ابنتا الملك والزعيم في الأسر ، وكان زواج النبي منهما جبراً لخطر المهزمين ، ودعسوة إلى أن يحسن المسلمون معاملتهم ، وقد حدث ما أراد النبي ، فقد رغب المسلمون استرقاق أصهار النبي ، وهكذا عادت الحرية إلى قبيلة بني المصطلق ، وكان النبي بتصرفاته يريد أن يكشف العمق الإنساني في حروبه ، ويشير للمسلمين إلى الأخوة الإنسانية ، وإن الحرب في ذاتها ليست مطلية ، هي دفاع عن الإسلام ، والإسلام في عمقه المبدأ رحمة وحب .. وإن يتزوج النبي من بنات المهزومين المسترقين كي ترد الحرية والكرامة لأهلهم ، ويحللوا الإسلام أن أرادوا عن اقتناع ..

جاء زواجه من « مريم القبطية » وقد بحث بها المقوقس إليه كامة ، رمزاً للود الذي أشار إليه القرآن بين الإسلام والمسيحية ، وتشريعاً للمسلمين يهل الزواج من كتابيات .. وقد أتجبت له مريم ابناً مسماه إبراهيم ، باسم

(١) الآية ٢٧ سورة الأحزاب مختبة .

جده أبي الانبياء . غير انه لم يعمر طويلا ، مات وهو رضيع .. وكان موته امتحانا للنبي ، واشارة الهية الى ان وريثة الرسول من الرجال هم اتباع القرآن وحمة الاسلام لا الانباء من صلبه ..

يخطئ من يتصور ان الرسول ، صلى الله عليه وسلم كان يجد وقتا ينقله في البحث عن مدحه ، ولو كانت حلالا .. اصبحت المتع لغيره واستأثر وحده بشقاء الجهاد والتشريع والاحتمال ..

يخطئ من يتصور ان الرسول كان يعيش في بيته الفضل مما يعيش اهل المسلمين في عصره .. كانت حياته في البيت احتمالا وزهدا يفوقان الطاقة ، حتى اشتكت بعض زوجاته ، ومنهن من حادت من بيت ثري كبيت أبي بكر أو بيت عمر .. واتحدت بعض زوجاته عليه يسألنه أن يزيد من النفقة ، وهجر النبي زوجته ، وانتشرت شائعة تقول انه طلقهن جميعا .. ثم نزلت آيات التحبير .. نزل القرآن الكريم بخبر زوجات النبي بين حياة الشغل التي يحيتها في بيت النبوة ، أو الطلاق ..

قال تعالى في سورة [الأحزاب] :

« يا أيها النبي قل لأزواجك : ان كنتم تردن الحياة الدنيا وزينتها فعملن لم يمكن واسرهن سراها حبيلا . وان كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اشد لمحسنات يمكن أجرا عظيما » [١] ..

وانتهت الفتنة ، وهذا الصراع في بيت الرسول ، صلى الله عليه وسلم .. واختارت زوجته حياة الزهد والاحتمال والدار الآخرة ، على الدنيا ..

ولم تكن مطالب زوجات النبي تتجاوز حدود المباحات .. غير ان الرسول كان أسوة للعالمين ، وينبغي ان يعيش أسوة العالمين حياة زاهدة ليضرب المثل لأعلى في حياة من يتصدى لقيادة المسلمين ..

ولقد عوض الله تعالى زوجات النبي عن تضحياتهن ، ورفع درجاتهن لمصرن أمهات للمؤمنين جميعا .. قال تعالى :

« النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم » [٢] ..

وتأكيدا لهذه الأهمية الروحية ، شرع الحجاب الحقيقي عليهن ، وهو حجاب لم يشرع على النساء المسلطات بنفس الدرجة ..

.....
.....

مضى النبي في مسامحه ، وكانت رمسائله الى الملوك والحكام وقادة الجماعات والبول حوله تشير لعالية الاسلام وتؤكد ..

بعث النبي يدعو قيصر الرومان الى الاسلام .. وبعث الى امير دمشق يدعو الى الاسلام .. وبعث الى امير بصرى من ولايات الروم يدعو الى

الآيت ٢٨ ، ٢٩ سورة الأحزاب مدية .
(٢) من الآية ٦ سورة الأحزاب مدية .

الإسلام .. ويبحث إلى عظيم القبط يدعوهم إلى الإسلام .. ويبحث إلى كسرى
أبرويز ملك فارس يدعوهم إلى الإسلام .. أرسل إلى أمير البحرين المجوسى
يدعوهم إلى الإسلام ..

واختلقت ردود أفعال من بحث النبي اليهم برسائله .. منهم من هلول
ايهام حامل الرسالة انه أسلم ورده بهدية ، ومنهم من مزق الرسالة وهو
حائق .. ومنهم من تطف وأجاب الرسول جوابا حسنا .. ومنهم من أسلم
حقيقة ..

ولقد كان أحساس النبي بشمول الدعوة وعابيتها استثنائا لأيام لم ترفع
منها أسرار الغيب بعد ..

.....

ومضت الأيام صراخا لا يهدأ ..

صراع قادة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حتى فتحت مكة ، وظهرت
الجزيرة العربية ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأكمل الله للمسلمين
دينهم ، وهج بهم النبي هجة الوداع ، ونزل عليه الوحي في عرسات بقوله
تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام
دينا » [١] ..

تليت الآيات على أبي بكر عيسى ..

أحسن أن الله تبارك وتعالى قد أنهى مهمة رسوله ..

أحسن أن النص القرآنى ينمى الرسول لقومه ..

.....

.....

.....

قالت عائشة لأطفال يتمايحون ويلعبون خارج الدار :

— اصعدوا لمن رسول الله مريض ..

هذا الأطفال وشعروا بخوف مفاجئ .. في الأيام الأخيرة لاحظوا أن
رسول الله لا يلاعبهم كما كان يفعل ، لاحظوا أن شعوبا غريسا يكسو وجه
النس الذى كان يتسم بغيره وجهه كصفحة الذهب ..

دخل آخر الأنبياء إلى بيته وقدماء لا تكادان تحيلانه .. دخل بيته وهو
يستند إلى ذراعى الفضل بن العباس ، وعلى من أبى طالب ..

كان يهس العصب والمرص ..

(١) من الآية ٢ سورة المائدة مكية ،

انتهى الأمر واستسلم الجسد العظيم لرقدة الفراش وأوجاع المرض وبخر
التعبية ..

لرقدته عائشة على فراشه الخشن ، ووضعت يدها على جبينه .. كلى
رأسه يلتهم من الحصى .. ثالث مائشة وميناها تلحس بالدمع :

— ياى أنت وامى يا رسول الله .. هل تحس الما ؟

انقسم النسى ليطمئننها واستسلم للنحاس ..

وانساب فى ذاكرة النسي نيل من الصور الحية ..

مر أبلم العقل موكب الذكريات ..

ها هو ذا الروح الامين جبريل عليه السلام يتنزل عليه بالوحي فى فسر
هراء ..

مرت على اللحظة المباركة ثلاث وعشرون سنة ، تدو الآن مثل حلم خاطف
.. حتى الأعوام الأربعون التى سبقتها تبدو كأنها صورة لم تستغرق
من الوقت غير لحظة ..

هن كل شيء فى الله ، واحتل الاحتمال اشخاص طاقته فلم يستسلم
يوما للشكاة ، وأملى توهج المتعبدة لاتباعها قوة بنير حد ، وتجربة بلا نهاية
.. أخيرا عز الإسلام وارتفعت رأيته .. حميدا لله ..

أغنى النسي قليلا ..

ثم استيقظ على صوت بكاء مكتوم لعائشة ..

فتح عينيه ونظر فى وجهها وقاوم احساسه بالمصداع والحصى والالم ،
وابتسم ليطمئننها وعاد يغمض عينيه ويستسلم للآفء ..

ما الذى يبكي مائشة ... ؟

الم ينوح الله جهاده الشاق بفتح مكة وتطهير البيت الحرام ... ؟

تداعت الصور حية طرية فى ذاكرته ، صلى الله عليه وسلم ..

تذكر ما كان من أمر قريش حين نقضت معاهدة الحديبية ، وقاقت خزاعة
وهى مع المسلمين فى حلف واحد ، ووصل الأمر بقريش الى حد قتل خلفاء
المسلمين فى البيت الحرام ..

وظارت الأنبياء للرسول ..

وسار ، صلى الله عليه وسلم فى جيش عدد جنده عشرة آلاف .. كلى
الجيش مهيبا ، وجند المسلمين يتحدر من جبال مكة كسيل لا يقف فى
طريقه شيء ..

مرت الفرق والكتائب والسرايا ..

فرقه بعد فرقة .. وكتيبة بعد كتيبة ، وسرية بعد أخرى .. مر حملة
السهم والسيوف والرمحان .. مر رسول الله فى كتيبته الخضراء ، وفيها
المهاجرون والانصار ..

لا شيء يظهر منهم غير حدثات العيون ، وثنية الأجساد مغطاة بالدروع
واسلح ..

ولمعت سيوف الاسلام بما يمثله من حق يستند الى القوة ..

ووسط هذا الجيش العظيم الذي فتح مكة ، كان النبي - صلى الله عليه
وسلم ، يركب ناقته وقد حنى رأسه خشوعا لله وتواضعا حتى كاد رأسه
يمس ظهر المعير الذي يركبه ..

وافتحت أبواب مكة لهذا الجيش .. استسلم ساداتها وأتباعهم ، ارتفعت
كلية الله فيها .. ودخل النبي البيت الحرام لطاف حول الكعبة ، وهو يكسر
الاصنام المصلونة حولها .. ويصربها بقوسه ظهرا لمعان ..

وانكثت الاصنام على وجوهها وانكثت على الأرض ..

أمر بالكعبة ففتحت .. رأى الصور تملؤها ، وفيها صورتان لإبراهيم
واسماعيل يستقبلان بالأزلام .. قال بساخطا على التهمة التي ألصقتها
المشركون بإبراهيم واسماعيل : قاتلهم الله .. والله ما استقمسا بها قط ..

ومحا ذلك كله .. حتى اذا طهر المسجد من الاوثان وأعاده كما خلقه الله
بيتا للتوحيد المطلق .. التفت الى تريش ومعا منهم ودعاهم الى الله ، ثم حان
وقت الصلاة ، وسعد بلال فوق ظهر الكعبة واثن للصلاة ..

واستبح أهل مكة لهذا الداء الجديد يتردد سداه بين الجبال :

الله اكبر • الله اكبر • الله اكبر • الله اكبر • أشهد ان لا اله الا الله
أشهد ان لا اله الا الله • أشهد ان محمدا رسول الله • أشهد ان محمدا
رسول الله • هي على الصلاة • هي على الصلاة • هي على الفلاح •
هي على الفلاح • الله اكبر • الله اكبر • لا اله الا الله •

أخيرا عادت للبيت حرمة وكرامته ..

عاد تيلر الصور ينسب في ذاكرته ..

ها هي ذي معركة حنين بهرائها وانتصاراتها وغنائمها .. ها هو ذا النبي
يمضي المعانم من التحق بالاسلام من يومين من أهل مكة ، ويهرم من اعطى
الاسلام كل شيء كالانصار ..

حرم رسول الله الانصار جميعا من غنائم حنين ، وقال قائل منهم :

— لتى والله رسول الله قومه ..

ومشى سعد بن عباد الى رسول الله فأخبره ان الانصار غاضبون ..

سأل الرسول : فميم ؟

قال سعد : فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ،
ولم يكن لهم من ذلك شيء ..

سأل رسول الله سعد بن عباد : ماين انت من ذلك يا سعد ؟

قال سعد : ما أنا إلا امرؤ من قومي ..

قال رسول الله : اجتمع بي قومك في هذه العظيمة .. ماذا اجتمعوا فاعلمني ..

وجمع سعد الأنصار جميعا واثبأ الرسول أنه جميعهم ..

وخرج اليهم رسول الله ووقف يتكلم فيهم ..

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— يا معشر الأنصار ألم آتكم ضالين مهذاكم الله ، وفراء فاعنساكم الله ،
وأهداء فالف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى .

قال رسول الله : ألا تجيبون يا معشر الأنصار .

قالوا : وما نقول يا رسول الله وماذا نجيبك .. ألن الله ورسوله .

قال رسول الله : والله لو سلطتم لقلتم فصحتكم وصددتكم : جئنا
مطاردا فأوبىك ، وعائلا فأمسيناك ، وخائفا فأمناك ، ومحتولا فنصرتك .

قالوا : ألن الله ورسوله .

قال رسول الله : اغضبتكم يا معشر الأنصار لئلا أعطينه قوما لأحبهم
في الأيمان ، وترككم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام .. أفلا ترضون
يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رجالهم بالشاء والبغير وتدهنون
برسول الله إلى رجالكم . لو الذي نفسي بيده ، لو أن الناس ملكوا طريقا
وسلكت الأنصار طريقا لسلكت طريق الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت أمرا
من الأنصار .

اللهم فرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ..

ويكى القوم حتى تمثل لحاهم ويقولون :

— رضينا بالله وما ، ورسوله قصما ..

وينصرف النبي فينصرفون راضين ..

تكن درس الأنصار اشارة إلى عطاء المسلمين الدائم ، وهم توفهم
للجزاء في هذه الأرض ..

لقد فهم الأنصار أن المسلم الحقيقي في الدنيا .. هو من يجرى إلى
الدنيا لمعطى لا ليأخذ .

استيقظ النبي فوجد نفسه وحيدا في المرة .

كان جسده يلتهب من الحمى والألم .. وتنادى عثثة وطلب منها أن
تأخيه بماء يقرده به ..

ماء كثير ..

وراحت امهات المؤمنين يصيبن الماء على رسول الله حتى اكثى وثلث
الحس قليلا عن جسده ..

.....
.....

مخت الماعز بطيئة مختاطة ..

زادت وطأة المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لحس أنه لن يستطيع الصلاة بالنفس ..

وأمر أن يصلى أبو بكر بالنفس .. وراجمته عائشة أكثر من مرة غشية
على أنبيها من كراهة الناس وثناؤهم منه .. وغضب رسول الله صلى
الله عليه وسلم وأمر أن يؤم المسلمين صاحبه في الخار .

في اللحظات التي تتع بين بقعة الألم وراحة النوم المنقطع .. كل ذهن
النبي يفكر ..

ما الذي نسي أن يقوله للناس ..

لقد بلغهم كل شيء وعلمهم كل شيء وترك فيهم كتابا لا يضل بعده
من يمسك به .

ونفس الرسول قليلا . وعادت الذكريات تعبر رأسه .

رأى نفسه في حجة الوداع .

انتهت العهد المعطاة للشركين وحظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام .

وما هو ذا النبي يخرج أميرا للحج ومعلما للمسلمين مسلمهم ..

ويتأمل رسول الله آلاف الموحدين وهم يتجهون الى البيت الحرام ،
بلبن طامعين مسلمين ، يحيون ذكريات جدهم إبراهيم خليل الله .

ويقف النبي خطيبا في الحبيب .

ان هاتنا حفا يشعده صلى الله عليه وسلم أن مثله في الدنيا يوشكه
على التمسكية . وهو يحس أن هذا الركب سيطلق في الحياة وحده ،
فهو يركز له الدعوة ، ويوصيه بالاسلام ، ويدعوه الى الله ، ويسأل الناس
قلنا بعد ثلاث وعشرين سنة من كفاح الدعوة الى الله : هل ملفت .. ويشهد
الناس أنهم سمعوا وأنه قد بلغ .

ها هو ذا يدعو معاذ بن جبل .. ويعلمه كيف يدعو الناس الى الله ،
وكيف يعرفهم دينهم ، ثم يخرج معه الى خارج المدينة يوصيه .. ومماذا
راكب ، ورسول الله يمشي الى جوار ناقته يوصيه ويحدثه ويعلمه .

— ان أولى الناس من .. المتقون .. من كانوا وحيث كانوا ..

.....

كان النبي رهبة لكل الناس ، وصورة عليا من صور الأخاء والتواضع .
 كان حاكما على المسلمين بالقرآن .. ولكنه كان يرفض أن يظهر في
 أى مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة .. كان يقول لأصحابه :
 إنما أنا عبد الله .. فقولوا عبد الله ورسوله .

وخرج على جماعة من أصحابه فقاموا احتراماً له فأمرهم ألا يقوموا له
 .. وكان إذا خرج للقاء أصحابه وتلاميذه جلس معهم في آخر مكان يجده ..
 وكان يمزح أصحابه ويخالطهم ويحدثهم ، ويداعب أطفالهم ويجلسهم في
 حجره ، ويصيب دعوة الكبير والصغير ، ويזור المرضى في أقصى المدينة ،
 ويقبل عذر المحتذر ، ويبدأ من يلقاه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ،
 فإذا حاده أحد وهو يسئله عن حاجته ، وإذا فرغ من
 قضاء حوائج الناس عاد إلى صلاته ، وكان أكثر الناس تسمية وأطيبهم
 نفساً .. وكان يخدم نفسه إذا دخل بيته ويخدم أهله .. فهو يفسل
 ثوبه ويرتقه ، ويحلب ثيابه ويصلح نعله ويسئ البعير ويكل مع الخادم
 ويقضي حاجة الضعيف والبائس والمسكين والحزون .

ويبلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه أنه كان يدرك أفعاده يتسلقون ظهره
 أثناء صلاته .. ولم تنتشر رهبته على الإنسان وحده ، وإنما جاوزتها
 إلى الحيوان والطيور والأشجار . كل من يقوم بنفسه فيفتح باباً لقطة
 لتتشم عنده ملجأ من البرد .. وكان يطعم الحيوانات بيديه ويسقيها ويرحمها
 ويؤوم بنفسه على تمرير كلب مريض ، وكان يسمح لجواده بكم تبيسه
 .. ولم يكن يقطع شجرة أو زهرة .. وأمر جيوش المسلمين وهي تفتح
 الأرض وتشر مدالة الإسلام ألا يقاتلوا طفلاً أو شيخاً أو امرأة أو صبياً
 ولا يقطعوا شجرة ولا يهضموا بيتاً .

لم يكن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فاقوناً ينظم به العلاقة
 بين الإنسان والإنسان فحسب ..

ولم يكن ما جاء به نطلب لرقى الحياة وتقديمها فحسب .. هذه كلها
 أمور نسبية .

إنما جاء حضارة خالدة تنظم العلاقة بين الإنسان والكون ، وتعيد
 إلى الوجود تناغمه حين تبنى هذه العلاقة بين إنسان هي وكون
 مانوس .. يتجهل بها .. الإنسان والكون إلى الله سبحانه وتعالى .

وقد ظل صلى الله عليه وسلم حتى آخر أيامه في الأرض مشغولاً
 بمستقبل الدعوة ، قلقاً على مصر الرسالة ، مهوياً بأمر المسلمين ،
 معلق القلب بشئون أمته والأمم التي لم تأت بعد وربما حلت الإسلام أسماً
 دون أن يتمكن هواء من القلب ويحكم الجوارح .
 وأراه الله قبل أن يموت ما ملا قلبه طمانينة .
 في نجر الاثنين الذي اختره الرقيق الأعلى فيه ..

أقبل المسلمون من ميوتهم إلى المسجد واصطفوا للصلاة حاشمين وراء
 أبي بكر ، وهو أمام رقيق القلاوة يبكي إذا قرأ القرآن فيبكي من يصلي
 خلفه ..

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت عائشة .. وكاد
 المسجون يفتنون في صلاتهم .. وأمسحوا له مكاناً بينهم ، وأشار بيده أن
 اثبتوا على صلاتكم .. وتبسم فرحاً من هيبته في الصلاة .
 قال انس بن مالك : لم رأيت رسول الله أحسن هيئة منه في تلك
 الساعة ..

ثم رجع إلى فراشه .. والناس يطنون أنه أفاق من مرضه ..
 قالت عائشة : عاد رسول الله من المسجد فاضطجع في حجرى .
 وبخل علينا رجل من آل أبي بكر في يده سواك أخضر ، فنظر رسول
 الله صلى الله عليه وسلم إلى يده نظرة عرفت منها أنه يريد .
 فاخته فالتفت له ثم أعطته إياه .
 فاستن به كاشد ما رأيته يستن بسواك قبله ثم وضعه .

.....

أغمض النمل عينيه .
 وجد جبريل يقف أمام قلبه .
 قال جبريل عليه السلام : الصلاة والسلام عليك يا رسول الله . ان
 ملك الموت يستأذن عليك ، لم يستأذن على بشر من قلمك ولن يستأذن على
 بشر من بعدك .
 ان الله يحبك بين الملك والخلود في الدنيا وبين لقاء وجهه الكريم .
 تجوز النبي خلود الدنيا والملك فيها ، ونوى قلبه حباً إلى لقاء
 ربه عز وجل .
 تذكر يوم عرج به جبريل إلى الله تعالى ، ونضج وجداته بنفس الفرح
 القديم واللقاء المستطاب في الله ، والسكينة الراضية .
 والتقط جبريل رسالة النبي .
 وامسح مكانه ملك الموت ..
 وبخل ملك الموت حجرة انسى وهو يضع لجنحته ويصلى عليه ..

كلمة عن الكتاب ومنهجه

أريد أن اعترف اعترافاً مبشراً بأنني لست مؤلف هذا الكتاب ..
يمكن القول أنني كتبه ، أن تأليف الشيء يعني خلقه أو إبداعه ، وكل ما في
كتاب أنبياء الله قديم ، وقد امتدحت فيه على كتب وأفكار أخرى ، وربما كان
الجديد في الكتاب هو أسلوب التقديم وزاوية الرؤية .

واقن .. فلا تفضل لي فيه أن أصبت .

للطباء السابقين والممارسين ثواب هذا الفضل ..

أما الخطأ فأرائي مضطراً لا همتاله وحدي .

لا أنكر أنني — محكم ميلادي في زمان متأخر — قد حاولت بما استطعت
أن أستفيد مما كتبه السلف والخلف من قصص الأنبياء . غير أن هذا لا ينشئ
أن أعرف قدر نفسي فلا أتجاوز . ورحم الله أمراً عرف قدر نفسه .

.....

اعترف أيضاً أنني توقفت قبل أن أخط في الكتاب خوفاً أمام هذا
التسلل : كيف تجرؤ .. من واقع التصوير المشوي والخطيئة أن تنصدي
للكتابة من قسم السماء في الأرض ..

منحني السؤال لثمة طويلة من الكتابة ، ثم هدتني نفسي أن الأنبياء
قد بعثوا أمثالنا من الخاطئين ، ولو كان أهل الأرض ثقياء لثقياء يعرفون
الله وينكرون عهده لا تنفت الحكمة من بعث الرسل إليهم .

تسقط مهمة الرسل لو كانت الأرض كلها على الحق .

أما الخطأ هنا .. هو المسئول الأول عن بعث الرسل حين يبعثون
برحمة الله .

زاياني التردد وبدأت أكتب ..

في المرة الأولى التي ظهر فيها هذا الكتاب ، ظهر في طبعة مبسطة
للأطفال . . نشر أولاً على امتداد ستة أشهر في مجلة « ميكي » للأطفال ، ثم
جميع ونشر كمسا هو في كتاب قلت في نهجته : أن أحد أحلامي الكبيرة
أن أكتب قصص الأنبياء للكبار ، لو جعل الله في العمر بقية ، وشأنت رحمته
أن تسمح الآن والآن .

وهذا الكتاب هو ثمرة لاستجابة الرحمة لهذا الدعاء .

وهو ثمرة لقراءة بدأت في الإسلام والصوفية منذ من الخامسة عشرة
حتى من الأربعين ، ورغم أنني أهمل في الصلابة في ميدان النقد والأدب ،

الا ان هوى قديم الاسلام جعلنى انظر لكل ما كسسته مثلها ينظر المرء الى
سحابة مارة لا تثبت أن تتبدد .

لا خلود لشيء على الارض . الظلود لله وحده ..

لكلمات الله وحدها .. والذن يحتضن المرء كلمات الله كى ينجو من
النساء ويهزم الموت . ولا شيء ينجو من الفناء ويهزم الموت غير الحب
الالهى . لأن أحد طرفى هذا الحب .. وهو الله سبحانه وتعالى .. هى
أبدا .. خالد أبدا .. باقى أبدا .

ونحن لا نعرف ان أحدا أصب الله عز وجل مثلها أحصه أنبياءه ؛ لأن
الحب يبيع من العلم ، وقد كلن أنبياء الله أعلم الناس بالله .

والن نلتصق بلتبياء الله .

هم كبار العاشقين .. وهم رسل الرحمة .. ولن ينهى من طولان
الارض غير سفينة نوح .. واذا كثت أخشاب السفينة القديمة قد تاكلت
فان السفينة ذاتها لم تزل موجودة .. ولم تزل تلدرة على مقاومة الطوفان .

وانك لو اجد هذه السفينة فى كلمات انبياء الله كما وردت فى القرآن .

.....
.....

توقفت قبل أن اكتب الكتاب عند سؤالين سألتهما لنفسى :

ما هو الجديد الذى تنوى تقديمه فى الكتاب .

وأى منهج سوف تتبع فى كتابته .

ان الاجابة عن السؤالين تضطرننا اضطرارا لنقد كتب السلفين عن
الانبياء رغم احترامنا البالغ لمؤلفيها .

ضمت هذه الكتب عددا من الحقائق الطيبة ، كما ضمت جهدا علميا
عبيطا ، غير أن معظمها كتب بلغة عصره الذى وضع فيه ..

ومن الصعب أن نقرأ اليوم كتابا بشريا وضعت أفكاره بلغة الماضى .
ان مسخوبة الأسلوب القديم .. تبطل عقبة أمام أبناء عصرنا فى قراءة
قصص الأنبياء .. وهناك كتب تتحدث عن الأنبياء بحساد .. ونذكرهم
كجزء من التاريخ الذى ذهب وانقضى .. والأسفل أن الأنبياء هم قادتنا
على الأرض ، وهم حكامنا الحقيقيون أن أردنا النجاة .

وهم مستقبلنا ولهموا ماضينا القديم ان أردنا الخلاص .

وهناك كتب تضع الحقائق جنبها الى جنب مع الأساطير ، وتمزج الحق
بما لا علاقة له بالحق ، ويمدو مؤلفوها مثل قوم خرجوا يجمعون ثمارهم
أثناء الليل .. فلم يدروا أى الثمر استوى ولها لم يزل عجا وحلطوا .

وهناك كتب تهم يدها لماجبة الاسرائيليات الحاملة بالفراغة .

وهناك كتب تمرضى القمصى بما أثير حولها من اختلافات ومشاكل ،

وتسود الصفحات بهذه الظلمات التي تدعو ذهن القارئ الى الشرود .
لو تدعوه الى الفوضى فيها فيسقط منه مغزى القصة الاصلى .
وهناك كتب تقليدية كتبت بعلم لا يتوهج بالحب ، او كتبت بحب طائش
فلم يمتد العلم .

قلت لنفسى : لو استطعت أن تكتب عن الانبياء كتابا بلغة هذا العصر
اليسيرة المفهومة ، ونجوت فيه مما شلب الكتب المسبقة من أخطاء
واحتلالات وخرافات ، لعلك تكون قد قدمت جديدا .

ولقد تاملت هذه النظرة الى اختيار منهج الكتاب على الفور .

ان الكتاب الوحيد الذي وردت فيه قصص الانبياء بكمال لا يطاول ،
وبصدق لا يخفى ، هو القرآن الكريم ، ولئن بدل لسانه بعدة في انفسهم
وحرقوا في ذواتهم ، فإن الكتاب الحكيم بقى بغير تبديل لو تعريف ، حفظه
الله تعالى كما أنزل .

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » [١] .

.....
.....

وان تعدد منهج الكتابة .. بالمنهج القرآنى .

وتمثل هذا في أن يكون تناول أحداث القصص نلبعا من أرقى
التصورات الاسلامية ، وأكثر التفسيرات احتراما ، وطبقا لهذا المنهج
كنى روح الآيت القرآنية برجما حسنا ، وكنت عصية الانبياء اطارا
حكما طيلة الوقت ، وكنت أساطير التوراة والحواديب المسماة بالامراتليات
شيئا مستبعدا ومرفوضا بعد خضوعه للمناقشة .

وهكذا اهتمت في قصص الانبياء على القرآن الكريم اسلبا ، واثار
هذا مديدا من المشاكل ، اهما ان القرآن ليس كتابا في التاريخ ، انا
هو كتاب دعوة الى الله ، وهو لا يذكر أحداث قصص الانبياء مرتبة بزمن
وقوعها ، ولا يعا بالتفصيلات الصغيرة ، ووقع هذا في مشكلة ترتيب
لأحداث القصص .

ان العودة لصحف اليهود والنصارى وتسايرهم وكتبهم يمكن أن
تضىء الموقف ، ولكنها لا تحل المشكلة .

رغم ذلك أخذت من صحف العهد القديم والجديد ما رأيته غير متعارض
في جوهره مع القرآن .. أما ما تعارض مع القرآن فمرضته أصلا لحرية
الرأى ، ورفضته نزولا على الحق .

من بين المشاكل التي واجهتها ، هذه الفجوات الصائبة في القصص
.. وهى فجوات لا حرج على الخيال أن ينشيط لتصورها وتصور ما دار
فيها من حوار ، وكنت أبدا هذا الحوار المهيكل عادة بأن أقول : « ربما دار
هذا الحوار » .

(١) الآية ٩ من سورة الحجر مكة .

وكثيرا ما توقف القلم أيلما عديدة محاولا أن يبحث عن أجابة لسؤال هائر .. يتعلق بقرئيب حداثت زمني معين وقع في قصة من قصص الانبياء .

أبحرت وسط هذه المشاكل — مجهود العقل — محاولا الوصول الى الشاطئ الآخر من قصص انبياء الله .. وهيبك رأيت ترتيب الأحداث ليس هو المشكلة . المشكلة هي معنى الأحداث .. رأيت لى الانبياء جميعا هم رسل الحب الالهى ، والرحمة .

واى عقيدة الالهية هي في معنها البعيد حب ورحمة .

حب من لون لا وجود له على الأرض ..

وى أى حب بشرى ، هناك احتمال أن يفوتك الطرف الآخر أو يهجرك أو يصيب بعذره مشاعرك ، وى قصص الحب لالهى ليس هناك احتمال للخيانة أو الهجر أو الغدر الا من جانبك أنت ..

تجون انت وتهجر انت وتغدر وتبتعد .

ويرحم هو .. ويعلو هو .. وينوب ويهدى سبحانه ،

ويحيى الانبياء أصلا لاعادتك الى مصدر الحب في الكون ، وتعليك معنى الحب ، وتوجيهك الى المستحق وحده للحب ، ولأن الانبياء رسل حب في الأرض ، ولأن الكراهية الغلبية حاكمة على الأرض ، يعيش الانبياء مراعا لا يهدأ ، ويدفعون من وقتهم وخبزهم وأعصابهم ودمائهم لمن انتشأ دعوته .

ولقد أردت تصوير هذا في الكتاب وإبرازه . كما أبرزت كون الانبياء جميعا مسلمين بنص الآيت ..

وأردت أن يتم هذا كله في إطار من بساطة الأسلوب وسهولته . بحيث لا يستعصي الكتاب على أحد من قرائه ، واستلزم هذا تكرار بعض الأفكار والعودة اليها .. بهدف تثبيتها في ذهن القارئ .

وهين تعارضت اعتبارات الفن التي تستوجب الإيجاز وعدم التكرار ، مع اعتبارات السهولة وضمان توصيل الأفكار ، كنت آخذ بالأعشار الثانية ، مدركا أن هذا الكتاب ليس عملا فنيا ، وإنما هو دراسة ، ولعل هذا هو السر في عدم رضائي عن أسلوب الكتاب ، كنت اتنى أن يجيء دراسة وعملا فنيا في وقت واحد . ولو جعل الله في السر يقية ، وشاعت رحمته أن تمنح الآن والموت ، لربما بذلت لهذا أكثر وأعدت كتابته بشكل أدعى الى الرضا .

.....

و عترف أن احساسى بهذا الكتاب قد تغير .

قبل كتابته راودنى خوف عذب وهب هيب .

وأثناء كتابته عشت ذروة الرضا وأحلى ساعات العمر ..

فلما انتهيت منه ودفنته للطبعة وقرأت صفحاته .. ملأنى الحزن

والتيوس .. احسنت اننى انقصت حبي للانبياء وخدشته بالكتابة عنهم ..
كان لحسابي بهم سرا يضيع لو انصحت عنه ، وقد انصحت في هذا
الكتاب .. فمضاع السر ولم اقل ما بداخلي .. نعم ..

كان هذا الكتاب اجمل آلاف المرات وهو وجدان داخلي منه الآن بعد
ان ولد ..

.....

ولست اعرف صراحة .. هل يرحمنى الله تعالى بهذا الكتاب ، او
يعذبني به ، او لا يلتفت اليه اصلا ..

ان الدوافع الظاهرة التي املت على كتابته هي الرغبة في عرض
قصص الانبياء بأسلوب معاصر .. على اساس أن قصصهم دعوة الى
الله .. وثورة على الظلمة .. واهياء لانسانية الانسان وحريته .

هذه هي دوافعي الظاهرة في كتابته .. غير اننى اجمل ما بداخلي من
دوافع خفية ..

ربما كنت اريد بهذا الكتاب ثناء الناس والكسب ، او ادعاء العلم
والفضل او اظهار المعرفة والتواضع ، لو التمسح في الانبياء . او
انصور النجاة من النار بكلمة اقولها لا يعمل احده .

ليس يدري حقيقة دوافعي لكتابته غير الله عز وجل .

سوف اعرف يوم القيامة من الجزاء الذي ينالني عليه .. حقيقة دوافعي
لكتابته ..

نسأل الله تعالى التوبة .

وندمو لقراره ان يكون — بالعمل — افضل من كتابته ..

الحبيب

مراجع الكتاب

- [١] القرآن الكريم
- [٢] العهد القديم والجديد | الطبعات القديمة وطبعة لدى الجمعية بشافسرها وشروها [
- [٣] انجيل يونايا - ترجمة دكتور خليل سعادة [طبعة المطار للشيخ رشيد رضا ١٩٠٨]
- [٤] تفسير ابن كثير
- [٥] تفسير الرازي
- [٦] تفسير التاج لاحكام القرآن للقرطبي - ٢٠ جزءا [صورة عن طبعة دار الكتب ، نشر دار الكتاب العربي]
- [٧] تفسير القرآن الحكيم لعماد عبد - ١٢ جزءا [طبعة المطار للشيخ رشيد رضا]
- [٨] في ظلال القرآن لسيد قطب - ٣٠ جزءا [الطبعة التاسعة - دار الشروق]
- [٩] قصص الانبياء للامام ابن كثير ، تحقيق مصطفى عبد الواحد في جزين [دار الكتب الحديثة]
- [١٠] قصص الانبياء المسمى بالمراسل للامام [مكتبة وطبعة ابن شقرون]
- [١١] قصص الانبياء لعماد النجار - طبعة ثانية [مؤسسة المعلم وشركاء]
- [١٢] قصص الانبياء لعماد احمد جاد المولى - الطبعة الثانية سنة ١٩٢٩ [الطبعة الانجليزية]
- [١٣] مهدي والظن آمنوا معه لعبد الحميد جوده السهار - ٢٠ جزءا
- [١٤] الاسلام والايمان للدكتور عبد العظيم محمود
- [١٥] محاضرات في التفسير للشيخ مهدي ابو زهرة .
- [١٦] فقه المسلم للتفسير محمد الخازلي
- [١٧] العقائد الاسلامية للشيخ سيد مسابق
- [١٨] العقيدة والاخلاص للدكتور عبد الرحمن بوعسار
- [١٩] مشارك الاسلام الفاصلة لعبد احمد باشيل
- [٢٠] فقه السيرة للشيخ محمد الخازلي
- [٢١] « مهدي » لتوثيق الحكم
- [٢٢] « حياة مهدي » لعبد حسن هيل
- [٢٣] « مهدي رسول الحرية » لعبد الرحمن الشراوي
- [٢٤] « مهدي رسول الله » كتيب نبيه وسلمان الجزائري ، ترجمة د. عبد العظيم محمود ومهدي عبد العظيم محمود
- [٢٥] « الانسان الخالد » لفلان اورسلر ، ترجمة ومحمدي جبراي
- [٢٦] « بقرية المسيح » للضاد
- [٢٧] التصوير الفني في القرآن لسيد قطب [طبعة دار الشروق]
- [٢٨] « الاسلام يتحدى » لوحيد الدين خان ، ترجمة فخر الاسلام خان
- [٢٩] الاسلام في مؤلفات الغرب لعبد العباس العسار
- [٣٠] روح الاسلام لجمال البنا
- [٣١] الفصل الخامس بيونس في رواية موبى ديك كورمان مقلد
- [٣٢] الفصل الخامس برداد الفتوى في مذكرات صائم لاهدي بويقت

الفهرس

| صفحة | صفحة |
|----------------------------------|---------------------------------|
| ١٦٥ البع | ٨ الاهداء |
| ١٦٦ ذا الكفل | ٩ كن .. فيكون |
| ١٦٧ أنبياء قوم ياسين | ١٢ رمز الخير |
| ١٦٩ أيوب | ١٤ رمز الشر |
| ١٧٥ يونس | ١٦ رجال الله |
| ١٨٣ موسى وهارون | ٢١ قصص الأنبياء في القرآن |
| ٢٤٨ الخضر | ٣٣ آدم |
| ٢٥٨ أنبياء لبني إسرائيل | ٤٧ نوح |
| ٢٦١ داود | ٦٠ هود |
| ٢٧١ سليمان | ٦٧ صالح |
| ٢٩١ هيكل سليمان | ٧٦ إبراهيم خليل الله |
| ٢٩٥ عزيز | ١٠١ لوط |
| ٣٠١ زكريا | ١٠٨ اسماعيل |
| ٣٠٦ يحيى | ١١١ بيت الله تعالى |
| ٣١١ عيسى | ١١٦ إسحق ويعقوب |
| ٣٧٠ محمد | ١١٨ يوسف |
| ٤٧٣ كلمة عن الكتاب ومنهاجه | ١٥٥ شعيب |
| ٤٧٨ مراجع الكتاب | ١٦٢ إلياس |
| | ١٦٤ إدريس |

مکتب المؤلف

- (١) أنبياء الله (١١ طبعة)
- (٢) في رحاب الله (طبعان)
- (٣) الله في القيلة الإسلامية (طبعان)
- (٤) يحار الحب عند الصوفية (طبعان)
- (٥) قصص الحيوان في القرآن (ثلاث طبعات)
- (٦) الوقوع في هوى الكعبة (طبعان) (كتيب)
- (٧) الثوب (كتيب)
- (٨) حراس الحقيقة
- (٩) وجه لي الزحام
- (١٠) مذكرات زوج (طبعان)
- (١١) مذكرات صائم (طبعان)
- (١٢) صائمون والله أعلم (طبعان)
- (١٣) كلمتين ويس (كتاب بالعامية)
- (١٤) ثمانية واحدة من الحب (مجموعة قصصية)
- (١٥) رحلة إلى المريخ
- (١٦) قناة السويس شريان من دم المصريين

كب للأطباء

- (١) أنبياء الله للأطفال (٩ طبعات)
(٢) قصص القرآن المصورة للأطفال (تحت الطبع)
(٣) قصص الحيوان المصورة للأطفال (تحت الطبع)
(٤) جمح والحصار
(٥) جمح والقاضي
(٦) جمح والسلطان

NOTES: 1. 2000-2001

497-964-147-7 : 497-964-147-7

مطالعة التاريخ القديم

تلفون: ۰۲۱-۸۸۷۳۹۵۴۰
فکس: ۰۲۱-۸۸۷۳۹۵۴۱